

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
الدراسات العليا (قسم الأدب والنقد)



٢٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٧٦٥

عن السخرة في أدب الجاحظ
إشراف
الدكتور / محمد سرمدان
عليه راحة الله

٧٦٥



١٠٢٧٥١

الرسالة التي تقدم بها للحصول على الدكتوراه
السيد نشأت محمود العناني

عام ١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة •

أحمدك اللهم على جعل إنسانك ، وأشكرتك شكر المجتهد بختك وأفضلتك ، وأستلمك
اللمون والرشاد ، والتوفيق والسداد ، سبحانه ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت الحكيم
الحكيم . . وأصلي وأسلم على صفوة خلقك ، وأكرم أنبيائك محمد عليه الصلاة والسلام ،
ما خط قلمي في قرطاس ، وما ظهرت الفضاة والهلافة بين الناس ، وما بقي من يتحدث بلفظة
القرآن ويحل على سمعها . . وسوقها . .

أما بعد

فقد حفل أدبنا العربي بالموضوعات الجادة في شتى نواحيه ، وبخلاف اتجاهاته
وكانت له الأقدم الراسخة ، والعهد الطويل ، والمقل الرصين ، والذي جلى الغوامض
وكشفنا لعمياءه ، ولم يترك أمرا من الأمور إلا وقد غمره بضياءه ، نهدي ظلما له وأبهر
مخبراته .

وقد عبرت المكتبة العربية ، وخاصة المكتبات الجامعية بالعديد من الوسائل العلمية
والأدبية والفنية ، التي ألقت الضوء على الجوانب المظلمة في العلم ، وأزاحت النقاب
عن النواحي المجهولة في الأدب والفن ، فأثرت اللغة العربية ، والفكر الإنساني ، بها
أضافت ^{أضافت} جديد الأفكار ، ورصين الآراء ، وجاد الموضوعات .

ولكن صرامة الجسد ، وثقل الدرس ، وصق الموضوعات ، وبعد أفوارها ، وسنت الأدب
العربي بالجدية والوقار ، ما جعل كثيرا من دارسيه وثقاده يخلصون عليه بأجمعه
صفاته الخشونة والجفاف ، والثقل والإرهاق ، والجمود والتصلب ، وبصفونه بالمبوس
والقطيب .

فأصبحت أن أثبت أن أدبنا العربي باسم الثغرة بأشرف الوجوه ، وخلق الجبين ، وتزيد
بشاشته وهنأشته وصماته ، في كثير من الحالات ، وفي العديد من الموضوعات فتشعر
إلى ضحكات وقهقهات ، تملأ أصواتها ، وترتفع نبراتهما . . . فعمدت العزم على أن أجعل
ذلك موضوع بحثي ، ومحمور دراستي .

وأصرح بأن هذا الموضوع صادف هوى في قلبي ، وأقبلت من نفسي لما تحف به من
اصطحاب النظرة الضاحكة ، والأدباء البارزين ، طمعا فينا خدعهم ، وطربا
ولمجاها بما يكون فيهم من الضحك ، وحضور بدوية ، وسرعة جواب ، وحسن تخلص ، وفي
أضيق المآزق ، وأدلك المسالك ، مما يضي على نفسي بهجة ، وعلى رجلي تألق ، ثم
أعكس ذلك على نفوس قرائي سرورا وانشراحا .

وقد وقع اختياري على أرقى العصور علما وأدبا ، وترجمة ونقلا ، وفكرا وثقافة ،
وتألفها ولم نتاجها ، وشغلتنا وابتكارها ، وهو العصر العباسي ، الذي تدبر له الأمة العربية
والمجتمعات الإنسانية ، في شتى بقاع الأرض بالفضل والاستاذية ، حتى يومنا هذا . .
لأنه أن النهضة والتقدم ، والرقى العلم والأدب ، والفن في دولة قدست العلم
ومجدت الأدب والفن ، لم ينعها من المرح والضحك ، والفكاهة والضحك ، وأن انهما سدا
في بناء الأمة ، ورفع صرح حضارتها ، والإغراق في العلم والفنون والآداب ، لم يصر فيها
من الفكاهة والمزح والسخرية رغبة في إذهاب الملل ، وطرد السأم ، والتخفيف من
هنا . . . الدرس ، ونقل الجد . بل إن العباسيين اعتبروها فنونا أدبية راقية ، فيها
الراحة والمتعة ، وفيها التعليم والتثقيف ، والنقد والترجيح ، كالفنون الجادة تماما ،
بل تفوقها بالإمتاع والترفيه وإذا استطاع المرء أن يعلم وهو يضحك ويضحك ، وأن

يعلم وهو ليس بمحب ، فقد بلغ التعليم قمته ، وحقق أسمى ما يطلبه علماء النفس
والتربية والاجتماع ، وتلك غاية بعيدة الغايات ، لا يصل إليها غير الأفذاذ من الرجال .
كما أردت أن أبين أن الضحك في أدبنا موجود ، وفيز منهذ عبوره البعيدة وقيل
أن يحرقه الناس في آدابهم ، بل قبل أن يرجعوا من اعتقادهم القاسد أنه عيب ونقص ،
ويفرق وقته ، وسقوط للمهمة ، وأسقاط للمروءة .

وعلى أن هذا العصر المباس كان أقدر من غيره على استلاك عنان الكلمة الضاحكة
والمقشقة على زمام السخرية اللاذعة ، بما حياه الله من الميش الرخي ، والتباين الطبقي
والشدود الاجتماعي ، والتفوق الأدبي .

وكل هذا جذبني إلى العصر المباسي ، فبست وجهي شطرنجه العذيب ، وورده
الناره ، ورجعت إلى الوراء ، اتنى عترقنا من الزمان ، لأرى ذلك المجمع الحافل بالمرح
والدهابة ، ولأجلس إلى الأديباء ، لأدبهم في الضحك ، النابحين في الفكاهة
والظرف والسلمج ، فجلست مع أبيج دلامة ، وأبن الصنارة ، وأبن العبرة ، وأبن نواس ،
وشامة بن الأشرس ، والنظام ، وشاربن برد ، وأبن الروي . . . وغيرهم من الفككين

المرحين ، فقصت بفكاهاتهم ، وطربت لحضور بدبهم ، وحدة أذهانهم ، ولكن جلست
طالت ، وصحبت امتدت مع شيخ الفككين ، وزعيم الضاحكين ، المضحكين أبن عثمان عمرو
ابن بحر الجاحظ ، إذ كان يحلمني وأنا أضحك ، ويضحكني وأنا أعلم ، وكانت لأما لحيه
وأفأكبه طموح خاصة ، ونكبات محبة ، وإنعامات تطرد كل هم ، وتذيب ما يجثم على
الصدر من كرب وغم ، وأيته الرائد في هذا الفن ، والسابق في تلك الحلبة ، وللقدم
في هذا الباب ، فأعجبت به ، وأفرقت بحديته واتخذته الهدف ، ومحرك اليأس
وهو لذلك أهل ، وصاحب جدارة وسبق .

ومن كأي عثمان : أديب العربية الصلائق ، وشيخ المعتزليين ، وزعيم الطائفة
الجاحظية التي تمت بها سمه ، وكثرت برسته ، وجلس الوزراء والخلفاء ، وخير المجتمع

الذى سهر فوره ، وكشف دخائله ، وقاص في أقواره ، ورائد فن الضحك والسخر ، ومؤلف
 كتاب الهلاخ ، ورسالة التريخ والتدوير ، وسفاخرة المرحان والبرصان والقرقان ، وسفاخرة
 الحول والمور ، وسفاخرة السودان والبيضان ، والذي تمنى كل من أتى بعده أن يكونه ، فلما
 مر عليه ذلك وتأين ، وألصق نفسه به ، ونسب عقليته إليه ، وتسمى بالجاحظ الثاني
 وأستطيع أن أقول دون تحيز ، إنه يندر أن تجد موضوعا من الموضوعات لم يطرقه ابن بحر
 ولم يخض بحره ، فيصيد الدرر ويقتصم اللؤلؤ ، وتكون طريقته أحسن الطرق ، وفكرته أرقى
 الفكر ، وحتى الصناعات اليدوية كان له بها خبرة وحذق ، ويكفي ما روى أن مؤلفاته قاربت
 الأعمامة كتاب ، لتعرف سيرة قلعه ، ونفيس قريحته ، وفزارة إنتاجه ، ويكفي ما وصل إلينا
 من أخبار كتبه التي تمدح الشيء ثم تذمه ، وتصفه وصفا محبيا ، يجعل النفس تشرب له ، وتقبل
 عليه ، وتتغنى حيا زته ، ثم يصفه وصفا خفرا ، ومعددا مساوئه ، مقبحا ما فيه ، مما يجعل المرء
 يزدريه ، ويؤذي جوده نفرا منه ، وهربا من بشاعته ، لتعرف كيفية إنتاجه ، واستيلائه على
 العقول ، وامتلاكه نواصي القلوب .

ولكني لم أنشأ أن أجعل الفكاكة موضوعا لرسالتي ، لأنني أحب أن أبحث في دائرة
 أضيق ، وأعتقد أن الرسائل الجامعية يحسن فيها أن تتناول نقطة صغيرة ، وفكسرة
 ضئيلة ، ثم لاتزال توسعها وتعمقها ، وتنظمها وتقسّمها ، مستمينة بالأدلة وضرب الأمثلة ،
 حتى تجعلها موضوعا تام الخلق ، مبسوط الأجزاء ، وكلما ضل موضوع البحث ، وصغرت فكرته
 كان البحث فيه مفيدا مجديا ، وبخاصة في عصرنا الحلي ، وعصرنا التخصص والتدقيق ،
 وهذا لك يخلق الباحث موضوعا ، ويسرى من الذرة خلقا جديدا شامخا ، فيه معالم الحياة ،
 وصفات الأحياء ، كما ينظر العالم في مجمره ، فيرى قطرة الماء عالما شامخا ، وبحرا لجيا ،
 ملوكا بالأحياء والصراع ، فيخبرنا بما يراه ويشعر به ، ويظلمنا على عالم لا ندرك تفاصيله ،

ولا يحيط بدقائقه ، ومن هنا تكون الفائدة ، ويكون الابتكار والاكتشاف ، والإحاطة بكل ما يتطلبه البحث والدريس .

فلما تفوسر أدب الجاحظ الضاحك وقششته ، أعجبني منه لون جذبي بريقه ، وبهزنى ضيائه ، وراعتى تفننه وتأنقه ، وبراعة صوفه ، ودقة ضممه ، ذلك اللون هو السخرة ، فأبته حريصاً بالبحث ، خليقاً بالدس ، محتاجاً إلى تجلية قيمته ، وإبراز قوته ، وتوضيح اختنائه وروحه ، وأنست من نفس القدرة على إيفائه حقه ، وإبرازه في صورة تروقنى وتمجبنى ، فحصرته بحنى فيه ، وقصرته عليه ، وأخذت على ما تقي إبرازه في إظهار يرقى قيمته ، ويخلج عليه أهميته وفنيته ، ونقبت قلبه ليخرج كثره ودقائقه ، وأنا متتبع بما أقبل ، واثق من دقة المدخل ، وبصورة

المسلك ، واتعمدت لمباحث علم الاجتماع ، ومباحث علم النفس ، ونظريات الفلاسفة المعقدة ، فاستخرت الله تعالى في كتابة هذا البحث ، وتحدثت ذهني ، وجمعت شتات فكري ، وبدأت مرحلة شاقة من البحث والدريس ، والفرور وراء المعاني التي قصدتها أبو عثمان ، والفكرات التي كانت تصدر عنه ، في نمونة وملاسة ، ودقة ورقة ، لا ينتبه لها إلا القطن اللين ، والمنقصب اليهض ، وصرت أنفوس كلماته ، وأستبطن تلميحاته وإشارات ، وأتعمق مراهبه ، وهو رجل بعيد الفور ، خفي اللذع ، يحتاج في فهم مقاصده وخزائنه إلى مقدرة خاصة ، وتعمس بأدبسه ، ومحققة بوجوه كلامه على أن من تحدثوا عن سخره لم يتجاوزوا عدة صفحات ، لا تشفى التحليل ، بل لا تهل اللبابة ، فلم يقسموا وينظروا ، ولم يقللوا ويبينوا ، بل كان حديثهم عارضا ، وكلامهم مقتضبا ، مما ألقى على الحبيب كاملا ، وجمل المراجع لا تشفى إلا بقدر ضئيل أما اعتمادى الكامل فكان على المصادر نفسها ، والقدرة على الاستباط منها ، والاستدلال بها فيها ، ولقد بدت ونفبت ، واستبطلت واستدللت ، وأرجو أن أكون قد وفقت ، وأعطيت الموضوع حقه وزينته .

ثم عرضت لكلمة فن ، وأوضحت مقاديرها ، وهدى ارتباط الرسالة بها ، كما بينت ما أعنيه بأدب
 الجاحظ ، وهذا هو الفصل الأول ، الذى سلطت فيه الضوء على عنوان الرسالة ، وأظهرت
 اتجاهي فيما سأتناوله من كلمة فن وكلمة السخرية وكلمة أدب الجاحظ ، التى تكون العنوان
 وتسمى المضمون .

الفصل الثانى : وفيه تأملت فى مقومات السخرية ومكونات بنيتها ، والمواد التى يتأزرها
 وتعاوضها لتحقيق السخرى ، ويوجد الطغرى ، كما بينت الأهداف التى تعنى إليها ، والخاتبات
 التى تحققها ، وأتينا نبيلة هادفة ، وجادة باسمة .
 الفصل الثالث : وقد أوضحت فيه الدوافع التى تثير النفس ، وتنبج الوجدان ، وحتى يظهر
 السخرى على لسان الساخر ، ويبدو فى حركاته وسكناته ، كما عدت العناصر اللازمة لنجاح
 السخرية حتى تحقق أهدافها ، وتصل إلى غاياتها .
 والسخرية ذلك الفن الأدبى المراسى لها مكانتها الرفيعة بين سائر الألوان الأدبية ،
 ليس أرقى الألوان الفنية المازلة ، وهى فى الوقت نفسه فيها الجهد والعزم ، وليست
 بمجرعة ولا تافهة إن قصد بها الإصلاح ، ولهم وللقصص فى ذلك أسانيد والمفسرين
 والمصورين والأدباء حجج وبراهين ، وذلك مبحث الفصل الرابع .

الباب الثانى : الجاحظ الأدبى الساخر ،

الفصل الأول : يتناول حياة الجاحظ فى مجالة يلقى بصيرا من الضوء على أدبه المراسى
 وإنتاجه الضئير .

الفصل الثانى : يبحث عن العوامل العديدة التى كانت وراء سخره ، التى دفعته إلى هذا
 النوع من التأليف ، التى ارتقت بهذا اللون من أدبه حتى وصل به إلى الصدارة والرياسة
 بين معاصريه ، والتفوق على من سبقه ومن لحقه ، حتى عد أبو هذا الفن النقدي
 الضاحك .

الفصل الثالث : وكان حديثي فيه عن علاقات الجاحظ الاجتماعية وأثرها في سخرته كثرة وصفا وتوقفا وإيقانا .

الفصل الرابع : بينت فيه وضع الجاحظ لثقافي والأدبي بين معاصره من علماء وأدباء وزعماء عصره ، وكيف كان لهذا الوضع أثر في لملات بسخرته وقومها ووقتها وطرقها ، وإقتنائه فيها .

الباب الثالث : الجوانب الفنية في سخرات الجاحظ :

وفيه تظهر عبقرية الجاحظ الساخرة ، ومقدرته الأدبية والفنية ، وطاقتها المتعددة ، وتنوع ثقافته وكثرة مما رآه ، وتفنته وإبداعه ، مما يشهد له بالحدق والابتكار .

الفصل الأول : تحدثت فيه عن التصوير المزلي " الكاريكاتور " وكيف ارتقى به ، وولد منه ، وإبداع فيه ، وكيف سما وارتقى عن المصور والرسم والنحات والمنال ، وكيف وصلت براعته في السخ والتشويه حد اقنعا لا ينال ، أساسه إظهار شعور الساخر ، وشعور القهرك به ، وكشف باطنه ، وإبراز ما استكن في حناياه من عيوب ، مشوها مجسما مضحكا .

الفصل الثاني : تحدثت فيه على السخر الذي استدعته الحراف ، واستوحىه المقام ، ودفعته إليه الأمور المارضة ، والمناظر التي جذبت به بسرعة لشذوذها وشرودها .

الفصل الثالث : سخرية التضاد ، وهي أسلحة السخر ، وصيحت المزج ، لوجود التناقض ،

وحدث عكس المؤلف المحمود ، فيسارع أبو عثمان إلى عدسة سخره ، يلقط بها المناظر ثم يخر جسمها . محرقة ، متعرجة الخطوط ، متوهجة الملامح ، مشوهة القسما .

الفصل الرابع : سخرية الحركة ، والحركات المستمرة ، والتقلبات المتكررة لشذوذها ، وللتصلب والجمود شذوذ وانحراف ، يثير السخر ، ويصمت على الهز ، والجاحظ يتخذ من الحركة

أداة للسخر من هؤلاء وأولئك ، في عبارة خلاصة وصورة مقبولة رجاجة .

الكتاب الأول

السيرة في الجبال الأديس



مفهوم السخرية ومصادرها

مفهوم السخرية :
يختلف مفهوم السخرية باختلاف السياحات اللغوية ، والحلقة الأدبية ،

أ- عند اللغويين :

السخرية : معناها الاستهزاء ، يقال سخر منه وهو سخرته أى هزأه .
هزأ ، وفى الحديث : " أسخر منى وأنا الطك " أى استهزأ منى (١) والسخرية
بفتح الخاء كهزة من يسخر من الناس (٢) يسكون الخاء من يسخره (٣) .

وفى اللغة ألفاظ تحمل فى علمائها معنى السخرية منها :

هزأ هزأ يسكون الهزأ وضمها ، ورجل هزأه بالتسكين يهزأ به ، وهزأه بالتحريك
يهزأ بالناس (٤)

ويقال زى عليه فعله عابه ، والزأى على الإنسان الذى لا يعده شئياً
ويكثر عليه فعله (٥) وأزريت به قصرت به وحقرته ، وزريت عليه فعله عنته وغفلتته (٦)
والتهمك : الزأية والعيب والاستهزاء (٧) وتهمك به تهزأ به وقال ذلك طمس
سهل العهدك (٨) .

الطخر : السخرية فهو طخرا (٩) ولان يطخر بالناس يسخر منهم وطاخروا

وطاخروا (١٠) .

(١) لسان العرب ج ٦ ص ١٢٧ ابن منظور .

(٢) القاموس المحيط ج ٢ ص ٤٦ ، المعجم الوسيط ج ١ ص ٢٢٣ ، لسان العرب ج ٩ ص ١٢٧
المنجد ص ٣٢٥ .

(٣) المنجد ص ٣٢٥ .

(٤) مختار الصحاح للرازي ط ٧ المطبعة الأميرية ص ٦٦٥ .

(٥) مختار الصحاح ص ٢٧١ .

(٦) أساس البلاغة للزمخشري ص ١١١ تحقيق عبد الرحمن محمود طبع في دار الفنون .

(٧) لسان العرب ج ١٦ ص ١٠٠ .

(٨) أساس البلاغة ص ٤٨٦ .

(٩) مختار الصحاح صفحة ٣٢١٨ .

(١٠) أساس البلاغة صفحة ٢٨٥ .

للبلهائين مصطلحات تستعمل في السخرية ، وتدخل عليها ، وتدخل في حثاها المعز

والاستغلاف منها *

(١) التهم ، (وهو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استعزاء ، فحفاء الزوايا والمبث (١) كالإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار ، والوجد في مكان الوجد والمدح في معرض الاستعزاء قال ابن الرومي ،

فيلامه من غمسل حالسح يورعه الله إلى أسفل (٢)

قال تعالى ، (فبشرهم بعذاب أليم) (٣) وكل السامع للمكي بعد أن لم يكن جهله وقد كان يدعى البصر بالبرالين (قد كنت أشك في بصرك بالدواب فأما بعد هذا قلت أشك فيه) (٤)

وقرب من السخرية لأن لم يكن من صميمها ،

(٢) الهزل المراد به الجد ، (وهو أن يتعد التكم طبع إحصائي لكونه ليخرج من ذلك التعمد مخرج الهزل والسجون لللاق بالحال ، كما فعل أصحاب النوادر مثل أشعب وأبي ذؤابة وأبي العيثاء ...

حكى عن أشعب أنه حضر وليلة لبعض ولاية المدينة وكان رجلاً بهيلاً فقام الناس ثلاثة أيام ، وهو يجمعهم على ما كده فهاج جدى مسوي ، فجمعهم الناس حوله ولا يسم أحد منهم لتعلمهم بهيوله ، وأشعب كان يحضر مع الناس

هوى الجدى ، فقال في اليوم الثالث ، زوجت طالق إن لم يكن عمر هذا الجدى بعد أن نبح وشوى أطول من عمر قبل ذلك) (٥)

وهذا اللون ظاهر الهزل وهاظه الجد بخلاف التكم لأن ظاهره الجسد وهاظه الاستعزاء .

(١) لسان العرب لابن منظور ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) خزنة الأدب لابن حجة الجوى ص ١٢٢ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٢١ .

(٤) الصيوان ج ٣ ص ٢٢٦ .

(٥) خزنة الأدب ص ٦٦ .

(١) الترجمة : (وهو إيراد الكلام مختلفاً لوجهين متضادين كالمجد والذم . كقول
 يشارين يرد . لأخبر يحيى عمرو ، وقد أعطاه لها لهيطة ، فأراد عسرو
 الصخرة منه ، فقال ليشار ، ^{للهيطة} لأعطيتك بحيث لا تعلم أقباء هوام غيره . فقال
 يشار ، لكن فقلت ذلك لأقولن فيه شعرا لا يدرى أهجاء أم غيره . فقصا
 غاطه قال فيه .

لست عنده سوا

غاط لي عمرو ثيابا

أدبج أم هجاء (١)

فأسأل الناس جميعا

(٢) عجل العارف : (وهو عبارة عن سؤال المتكلم عما يعلم سؤال من لا يعلم
 ليعلم أن شدة التشبيه للواقع بين المتكلمين أحدث عند التفاسير المشبهة
 بالمشبه به) (٣).

ومنه قول زهير في التحبير

وما أدرى ولست إني أدرى أقم آل حصن أم نساء

وقوله تعالى في التعريض : ^{وإنا أولياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} (٤)

(٥) التعريض : وهو أن تذكر شيئا يدل على شيء لم تذكره ، وأصله التلويح من
 عرض الشيء . أم جانيه كقوله عليه السلام (^{السلام من سلم المسلمون من}
 لسانه ويده) فهو تعريض بمعنى صفة الإحلام عن من لم يعلم الصالحون من
 لسانه ويده (٦)

(٧) وكان بالرقعة رجل يحدث الناس عن بني إسرائيل ، وكان يكتي أنها مفصلة ،
 فقال له الجلاج بن حنيفة : ما كان اسم يفتق إسرائيل ؟ قال : حنيفة . فقال له

(٨) شرح المختصر ، ص ١٨٤ سعد الدين التتازاني ، تعليق عبد المتعال الصعدي عام

١١٥٦

(٩) خزائن الأدب ، للمصنف ، ص ١١٥٣

(١٠) سورة سبأ الآية ٢٤

(١١) البيان العربي ، بدوي طهانه ط ٢ سنة ١٩٥٨ ص ٣٥٢ مكية لا يعلو

موجبات الشريعة

إن الأضاح الدائمة ، والسلوك المعنى ، والفهم السليم ، والمناظر المستقيمة
تجانب الأشكال المألوفة ، والحدود الموضوعة ، والذوق العام .
تكون موضوعاً يستلزم النظر ، وتدعو إلى الاستغراب والدهشة ، ويحث الخيرة
في التشكك والاستعزاء ، وتستثير فيها السر والاستعجاب ، لصيوان ما تنبش
الأسئلة على كل مخالف ، حايطة هازلة ، وتتحرك العيون والأصابع ، ماعرة لاهية
لأنها عجزت على موضوع للسعي ، وجدت فيه مادة تدفعها إلى الاستكثار وتوحيدها
على النظر والازدراء ، فتدفع النظر بما جيلت عليه من لمحة غير مضمرة للسعي
الكافة فيها ، وجب النقد الراشح في أنوارها ، إلى وضع الأصابع على أماكن
الضعف ، ولطف النظر لمواضع النقص ، بلا نزاع التعاطف ، وتارة الكليشة وهازلة
الإشارات .

فالنظر تها من كل ما شذ عن الإلف ، وحى على خلاف المرفق .
تها من الذي يجهل قدره ، ويعدى طوره ، يهدى ما ليس فيه .
تسخر من الأحق المشهور ، والجاهل المتعالم ، والعيى المتفصح ، والمتمرد
المشتدق .

وتشكك بالبهيل النج ، والمهم الضامى ، والرجل البحت والبراة المسترجلة
وتدعك من الجهان الذي يتكلف الشجاعة ، والمثقل الذي يهوى القناعة
والصالح الذي يظهر في سم الطلح ، والمثقل الذي يبرأ أن يغادر التماس
فإذا انهم واقع في سياظهم .

وتسخر من اللبج الشكل ، المتناثر الأضواء ، الذي يدل برجائه ، ويخبره
بهاء طمعه ، ومن الآلى المتصلب والمحبير المتقلب .

إن من يجاوز قدره ، ويعدى طوره ، وليس غير إياه ، ويحقق حدود الإنسان

الحادى في موقفه ، أو كلامه أو تصرفه ، أو شكله ، يكون موضوعاً للصورة ، معروفة للهنز ، ومجالاً للصورة .

يقول الأستاذ العقاد : (المرء إنط يضحك من كل شئ " يوضح في غير موضعه ويظهر بخير المظهر الواجب له " ولى غير الصورة اللائقة به .

يضحك من الشيخ المتعالي ، ومن السفيه المتأدب ، ومن الرهيب الجلف ، والذي يتعاطل في زى أهل الحضرة ، والوضع المدين ، الذي يولج بسمت الأعز من أصحاب الشأن والخطر .

يضحك من يحول صورة الشجاع المتحم ، حتى إذا لاحت له بارقة مسنن الزهر هرب صوب الجبان المنصور .

ومن يقتنى بالمطاعة والجود ، حتى إذا دعى إلى البذل ظهر منه البخل وثار كيف يتخلص من مأزقه ، وهلك من الشرك الذى وقع فيه بحو " رأسه .

ومن يتحدى لقتل الناس ، فإذا هو مختول من أهون سبيل ، أو يتسند للعبه بمن يظن فيه الشك والحق ، فإذا هو هزاة لذلك النبال الأخضر يسبق في لظاره (١)

ويوضح السخرية بحب لا يكون حنيفاً يميز النفس حقاً ، لأن ذلك يشغلها مسنن السخرية التى من جرثومة الانهياط والدمع النفس ، إلى الرثا ، والاشفاق . لذلك قلنا لا تسخر من مخالفون القانون ، وما تضمن الشريعة ، لأن القانون يتولس من طابعهم ، والشريعة تشكل بظاههم ، والسخرية بأسلحتها السليمة ، وطبعها الهادى لا تترك حثا على الردع ، ولا تنهض بجماعة المقتلة .

ولا تسخر من الإصابات البالغة ، والحوادث الفاجعة ، والكوارث الفادحة لأنها تنير فيها الشفقة والرحمة ، وتبعث في خيالنا الألم والعزن ، وتوثر معسماً

(١) مقالات في الكتب والحياة ، عباس محمود العقاد ص ١٦ ط ٢ مطبعة الاستقامة .

الفصل الثانى

مقومات السخرية وأهدافها

مقومات السخرية :

السخرية فى المجال الأدبى فن ، له مقومات ، التى تتجلى وتتأزر وتضاد وتتعاقد ،
 فىمضى لهذا الفن حيكه ، وتحقيق له لادع وهويته . . . ومقومات فن السخرية :
 مادته ، التى يصنع منها أساسه ، وترتفع بها صده ، ويتكون منها سقفه .
 وقائمه ، الذى يراعى صوره وصيغه ، وشذبهه وحقله ، ويلاحظ التناسب بين أجزائه ، والتلازم
 فى ظلاله وألوانه .
 وأسلوبه : الذى يختلف فى تركيبه من سائرفنون الأدب فى التناول والأداء ، والذائق والبروز .
 وجائزه : الذى يحرك ذلك الفنان ، ويشير عاطفته ، ويهيج شعوره ويدفعه الى أن يسخر
 منها ، ويهكم ويطنز .
 وندوة : الذى يسمى له الساخر ، يرمى الى تحقيقه ، ويحشم نفسه العنان من أجله ، ويكوب
 بالوزع للوصول إليه .

إذا كانا نوافر هذه المقومات : المادة والفنان والأسلوب والحائز والمهدف ، وكان كسل
 منها جيداً فى نفسه ، جيداً فى اتصاله بالعناصر الأخرى ، واتحاده بها ، تولد عن ذلك
 حركة وتفاعل ، وتجت شرارة السخرية التى تبهز العيون ، وتحرق الضمير ، وتضحك العلكس
 وتخلد على مرالدهر .

١- المادة : وهى موضوع السخرية الذى يختص به ، وتدور حوله ، ويجب أن يكون مخالفاً
 لما ألفه الناس فى حياتهم ، مجانياً لتنظيمهم وقيادتهم ، بعيداً عن زوهم وسقمهم ، وأنكارهم
 ومبادئهم ، وإن دعا إلى إصلاح ، ونعى على إفساد (فالمجتمع يضحك على طمس
 المسلحين الذين يحاولون إثارة على تقاليدهم ، فيصرون ما يدعون إليه من إصلاح

تصويرا ساخرا حتى يلزمهم حدوده ، كما يضحك على الممتحنين والمقنن " سوا " سواء
لأن الأبا من في العالمين واحد . هو عدم اعتراف مجوع الناس بما يشد من سلوكهم
دون اقتناع أو إيمان أو موافقة (١)

يجب ألا يحرك موضوع السخرية لنا حمة أو شقة (ولست أريد بهذا
أننا لا نضحك كمن أمرى بهت نبت الشقة مثلا ، أو يثير نبتا الحبة ، ولكنا حينذاك
نبتى هذه الحبة ، ونسكت تلك الشقة بضع لحظات) (٢)

ولما كان عاد السخرية هدوء العاطفة ، والهيل الى الضحك والابتسام والضحك
بالفوق والانتفاء ، لشرطها في مقصود السخرية ألا يثير فيها نزعا ولا خوفا ،
لما يملأها من توجع واضطراب ، ويحل الى الصراخ والاستجداء ، وشعور بالضعف
والهزال .

كما يجب أن تكون الميوب التي تتخذها موضوعا لسخرياتنا ما يقتصر فمصري
على ملحه ، وأن يكون ضرا شديدا ، لأن أصاب فيه فليكن سارقا غير مباشر .

٢- اللحن : مقومات اللحن الساخر تتركز في : خفة روح ، وبعج نفس ، ولحمية
وسرعة القاطم لماشد في مجتمعه ، يتخذ منه موضوعا لسخرياته ، ومادة يتنمىج
منها تبكمه ، مستحيئا بما فطر عليه من حب للفاخرة ، مستهديا بخبرته بأحوال
الناس ، وبقبح العمق لتضامهم وأهوائهم ، وبقدرة اللقوة والذهنوسمة
والعظيمة ، التي بها يستطوع اللعب بالألفاظ والمقول ، معتدا على ما فطر
عليه من استهانة بما يأخذ الناس به أنفسهم ، واستخفاف بما يتواضعسون

(١) سكرية الضحك : أحمد عطية الله ، ص ٧٩ ط ٢ سنة ١٩٦٤ : الطبعة المالمة .
(٢) الضحك : هنرى برجمون : ترجمة سلمى الدريس وعبد الله عبد الدائم ط ١ مطبع
عام ١٩٦٤ ص ٧ .

وقد يجد في الصورة ، وسط في أطوالها ، ويوجد بين أطرافها ، ويوجد ما شاء
 له الخلق ، وما أسعفه بهانه حتى يجعلها رسالة قائمة بذاتها ، أو موضوعا مستقلا
 بخصمته .

وقد يخرج خطوطها ، ويغير لونها ، ما ، وقلب هندستها ، ويغير أعضائها ، ما ينحصر
 بها للمحس المهرلي " الكاركتير " .

وقد تكون الصورة الجادة العميقة ، أو الكثيرة الحركة المتقلبة ، أو التي تتحول
 كالآلة هي أسلوبه الساهر .

إلى غير ذلك من أساليب يختص فيها بوجد ، ما شاء له عقيدته ، وما واتته
 قريحته ، وما اتسمت مجالات أدبه .

وهو لا يفتقد أسلوب معين ، وإنما ينتقل بينها حسب مقتضيات الأحوال
 ليمتثل لكل موقف ما يناسبه ، ولكل سحرية ما يلائمها ، وقد يعزجها مزجا خاصا ، فائضا
 على أسس دروسه لينتج من ذلك المزج عبارة مرّة ، ونقما مؤدّا ، موسما ناقما ، بجرمسة
 السخرية فيقلبه كما يكون قولهم : إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله شراة .

والحائز هو الذي يدفع الأديب إلى أن يسخر ، ويحرك كوا من نفسه إلى أن
 يثّر ، أو يطلع وضعا قاسدا ، وخلق معوجا ، أو يهيب به أن يخلع عن نفسه
 عطاء العمل ، وأرضا الحياة ، أو يخفق آلام نفسه ، وحقد قلبه ، وثورته على
 الناس والأهلام ، أو يحافظ على مكان جماعته ، ولا يندمج فيها ، أو يحرك نحو
 المال والجاه ليكتسب الفنى والشهرة .

ويدفع الأديب إلى السخرية : اعتدائهم أنفسهم ، واستعلاؤهم على غيرهم ، وإحسانهم
 بالثفوق ، أو ربحهم لظواهر عتافنة ، ومواقف شاذة ، خارجة على التقاليد ، مجافاة
 للمادة والعرف ، فلا يستطيع الوقوف تجاه هذه الحواجز ساكنا ، كابته لا ينعما لائسه
 المتأججة في صدورهم ، فيندفع إلى السخرية برى من قوسها ، يروى يساهمها
 حتى تهدأ قهره ، ويخف أفعاله .

المصدر ؟
 ص ١٠

وقد يلجأ إليهما تكتيكا لخصه ، واستبصارا برأيه ، واحتقارا لعلمه ، فتكسبون
 سلاحا يطمعن به ، ولادة تترى بهيئته وتفكيره ، وتجعله أضحوكة الناس ، يتسارى
 خجلا ، وهذوب ألما ما يهت السخرية وما اتقن فيها فائقها .
 وكثيرا ما يقصد بها الإصلاح ، وطريقة المعج ، والإرشاد والسلوك السوى ، بإطلاع
 للمخطئ على خطئه ، وتجسم هذا الخطأ ، وتبهيده ، وتشبهه أمامه ، ليراه بمعنى رأسه
 في مرآة نفسه ، أو بجسمه في غيره ، ويبرزه في معرض غير معرضه ، ليرى السخرية قباحه
 في سواءه ، فعيده بها ، ثم يعود إلى نفسه فحسبها بها ، فإن المرء إذا رأى ما
 في غيره من عيوب فقددها ، وأدرك مدى قبحها ، فإذا عرف أنها فيه أسرع يتداركها ،
 ويتخفف من أوضاعها .

وأحيانا يريد بسخرياته الضحك ، والمعج النفس ، وإذهاب الملل ، وتشتيط
 الهمم ، لتقبل النفس على عملها ، وتتمكن من أدائها واجبها ، وهو في سبيل ذلك لا يبالى
 أن تنصب السخرية عليه فكون محورها ومركزها ، أو يكون غير الهدف الذي يتألم منه
 شواظها وهو في هذا وذاك يضحك بهلله ، ومع كل ضحكة يذهب ألم يقول تعجب ،
 يبقى للنفس بعد ذلك صفاؤها وإشراقها ، وللجميع سرورهم وسهائهم .

وقد تهدف السخرية إلى المحافظة على كيان الجماعة ، وصون تماسكها وتعديل
 سلوكها ، وجعلها تسير في خط واحد ، دون اضطراب أو انحراف وتغيب بسكون
 أفرادها إن تلبسوا كوتلف وحدتهم القوية التي تعمل على بقائها وقيامها بتبهيدهم
 إلى أخطائهم إن شذوا ، والأخذ بيدهم إلى ملهى الجماعة إن تفردوا أو انحرفوا
 ليظلوا مجموعة متحدة في خلقها وسلوكها ، وعاداتها ونظمها .

ومن الأهداف الهامة التي يمد إليها الساخرون بسخرياتهم : كسب
 الطان والجاه ، ومن أجل ذلك اهتموا بالسخرية ودرسوها ، وجعلوها فنا أدبيا
 له مقومات وقائمه ، واستعداداته ومؤهلاته ، وخصصوا لها أماكن بالصحف والمجلات
 يوجد لها مجالا في الإذاعة والمسج ، رغبة في الكسب المادي والأدبي ، فعمس

لقد الإيجاد والإيقان يكون المطا والسخط ، وتلقى الجمهور كل ذلك برحابة صدر
فرض النفس ، وتقدير وإعجاب ، بهذا في سبيله يستحق الأموال ، ونحن الألساب .

∴

∴

∴

١ - تخلف ألام النفس :

كثيرا ما تتلقى النفس ، الغمط للعبد ، والحد الأسود ، والألم الجنى ولا يستطيع
الإيمان لأسباب دينية ، أو لأوضاع اجتماعية ، أو لمعامل سياسية ، أو لتقاليد مرفوعة
أن يظهر غمط ، ويصيح بحد ، ويصيح عن دهن ألم ، وهو مع ذلك غير قادر
على حبس آلامه ، ولا يستطيع كبح لسانه ، ولا تهدئة وجدانه ، فهناك بين عاملين :
عامل يدفعه إلى الثروة والانتقام ، وإمساك للحق ، وثارا للكرامة ، وإراحة للنفس
وعامل يمنع من ذلك ، مراعاة للتقاليد والعرف ، أو الدين والخلق ، أو الحكمة والبر ،
فهو كالمصراع النفس ، وتشتا الحياة بينهم الاكتاب ، ولكن العقل العبد ، والكسر
الراجع ، يقدد إلى تنفس ما يحتبس في النفس من حقد أو غل ، أو غناب أو سياس
بغية في شفا ، حزازات القلوب ، وأتسلح ضيق الصدر ، دين تعمل عبث التبريح
وتهمته ، ودين تعرض لعقاب أولام ، وذلك عن طريق السخرية التي تكون حلا وسطيا
يخفف آلامه ، ويهدد وجدانه ، يستطيع به أن يتخلص من اللوم والتبريح ، بادعاء
أن أراد حقيقة كلامه ، وظاهر معناه .

وهذا السلوك في طبيعة الإنسان وجبلته ، من طفولته إلى كهولته ، فالتنسبا
تربى الطفل الذي لا يستطيع التحمل من بكى ، بعد إلى تقليده في جلسته أو حركته ،
وفي ألفاظه أو عبارته ، تقليدا مضحكا ، فيه عبت ، وفيه خبت ، فخط شفته ، أو يوسع
حده فترج أو يقوس ظهره ، أو يلوى شدة ، ويظهر في ألفاظه عذالة بذلك بمسح
لواج صدره ، ومشتا عن مكوث حقد ، وكروه ، مما اختل في نواجا نفسه ، ينسب
لها بريق فساد ، وهو آمن ألا يخال يضره ، أنهم يفساد خلق ، وهو أذنب .

فالسحرة منج الأتباع في الحياة ، يتخذونها وسيلة للتكيف مع نفوسهم ، حتى لا تضعف أمام شهور الناس وخفاياهم ، لتتلى " بركاتهم والحقد عليهم ، تسم فتلى " بركاتهم الحياة ، والرغبة في الخلاص منها . يقول أنا تول فرائس (لا أزداد تفكيراً في حياة البشر إلا ازدادت اعتقاداً أن من الواجب علينا أن تجعل شهود هسهسة المساء كورثاتها التبرك والشفقة ، فالشركم بالمسامة يوجب إلينا الحياة ، والشفقة بالمسامة قدس هذه الحياة ، والتبرك الذي أرقب فيه لهم فيه شيء من القساوة إلا أنه لا يستهزئ بالحب والجمال ، فهو رقيق ، وفيه عطف ، وهذا التبرك هسهسو الذي يملأنا أن نستر من الأشجار والحقل ، ولولا لأفنى بنا الضعف إلى كواكبهم)

فإذا دبرنا أنفسنا على السحرة من كل شبر ، ومن كل أحق ، هذا من أن نعبأ بهذا الشرير ، وذلك الأحق ، فنناصبه العداء ، ونقف في وجهه موقف المراك ، أو نحتجز ذلك العداء والغضب في نفوسنا ، أمكننا التخفيف من أعباء هذه الحياة ، وتقبل ثقلها في كثير من الراحة والاستغناء ، واستطعنا أن نبعد عن أنفسنا بعضاً من هذه الآلام التي تخلق الضيق وتعصف بالنفس ، كما يمكننا أن نحول نظرتنا الحادة ، ونفسنا الهائجة ، إلى حال من الأمن والارتياح ، بوضعها في مكان وسط بين الحقد والكراهية من ناحية ، وبين الشفقة والرياء من ناحية أخرى ، فتكون سعراتنا أداة تطهيرية ، تبعد مواجس نفوسنا المغمظة ، وتطرد عنها أشباح القتل والحقد والحرمان ، كما تكون وسيلة لإعادة التكيف مع الناس والحياة حتى تتلاءم مع الموضع الجديد .

فالسحرة إذن أداة دقيقة ، تواجه بها ما في الحياة من شدة واكتئاب ، ونسلم ألمان تلجأ إليه لتخفيف الضغط البائل على عيوننا وعواطفنا ، حتى لا تصاب بالتحطم والانفجار ، وسيلة للهروب من تبعات الحياة ، وفتح النفس البدو والراحة (فأجهزتنا المصوبة تحتلج إلى قدر معين من الهرب ، كما نحتاج نحن إلى الشمس

اجلالت منوية - تبيح فيها - اجماعنا من التنب والمساومات القديمة (٢).

وظائفنا الانفعالية المبكورة، في حاجة إلى عملية انطلاق للتفكير عنها، والتخلص من العناصر الضارة التي تسبب القلق العصبي والاضطراب النفسي.

..

..

..

٢- النكامة بالخشم :

وقد يلجأ الأدب إلى المسخرة رغبة في النكامة بنفسه، والمتفرجين من شامسة، وتحقن صديق الناس، الخاطم على عوان، ومخبرات نفسه، في زكاته، ودها، وتفايت، مستخدما البراعة الكلاسيكية، بدل استخدام القوة الجسمية، والاعتماد على القسوة العضلية، فتكون المسخرة أكثر إيلافا وأغنى نكتا، لذلك اتخذها الفلاسفة والكتّاب أداة فعالة، وسلاحا يثارا يصيرونها إلى قلوب خصومهم فتصيبها، وإلى شخصياتهم

تتكلم تزدهقها وتردها، وهي ذلك يقول فولتير: إذا أردت أن تقتل خصمك فاجعله
مراة .

(والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية، وأدبها العامة، وكل من تحدته نفسه بالخروج على قوانين الجماعة، وأساليب سلوكها، فلا بد له أن يستهدفه لسخرتها اللاذعة وضحكها الموجع (٢) فالمسخرة من المعارك الدافعة الهجومية التي لا تسجل الدماء، ولا تطرح بالرقاب، ولا تمت المسخرة جسما، وإن كانت تقتله وتفتك به معها ونفسها وأديها، معركة أدواتها الكلمات والإشارات والتلمحات، معركة حربية ولكها " حرب نفسية " هي أشد فتكا من الهجاء، وأدق منه في إصابة الهدف .

٢ الضحك وفق الاضحاك : الحميني على فرعين من ١٠ مطبعة الدار المصرية للطباعة والشرع والتوزيع .

٢) ميكولوجية الفكاهة والضحك : زكيا إبراهيم : دار مصر للطباعة ص ٦٨، ٦٩ .

إن الهاجي قد يهجم بالكذب والتزوير، والبهتان والتحليل، ويحفظ الطبع، ويحتمل
القول، لأن اللفظة في السب صريحة، وأهدافه من تول الخصم بهت لائحة، وذلك يقلل قيمة
هجاءه، ويخفف أثره على النفس، بل ربما أحدث أثراً عكسياً في نفوس سامعيه، فأرجسوا
المهيب إليه، وتسموا النقص له، واتهموا بمس الخلق، وحفاظة الأدب، وتعاطفوا مع
المسخر، وكانوا عوناً له، ودعماً يقفه الهجمات.

لكن المسخر لفظه رقيق، وأسلوبه لين رشيق، وكلامه يلبس إهاب النصيح
والإبرهه، يحمل ظلم الإخلاص والسداد، فلا يهجم بهيب، ولا ينسب إليه التعاصي
أو الفلظة، وإن كان خلف كلامه الإذلال، ودخل حلوة لفظه السم النقي، وأما
بعد ذلك الفرصة سانحة للفكك من تهمة ما أراد، إذ ليس في كلامه شيء يسيح
عليه.

ومن هنا كانت المسخرية أشد نكبة من الهجاء، رغم أنه قد يصرح فيسبى
الشتم، وسب واضح بالهجر، يقول "سلي" (ولكن الضحك هو التآمر الملقى المتبادل
لجماة الضعفاء من أطفال وبنات رجال، لأنه في أيديهم كفضى سلاح) (١)

∴

∴

∴

٢- التهم والتهديب :

إن إبراز الخطأ، وتفضيخ المهيب في الشخص، قصداً إلى تهذيبه وإصلاحه من طريق
المسخرية. • ليخاف ذلك المهيب إن لم يكن فيه، وإلجأه منه كله أو بعضه، وإن وجد
فيه - نوع من الزجر والردع، شبه بالمقوية، ولكنه أخف منها ولها، وإن اتفق معها
في الغاية، وهي إصلاح المجتمع، وحداثة الضال، فالمسخرية من الأشرار والحقوس،
والمفسدين والموجين، هي التي تنبههم إلى عيوبهم، وتظهر لهم حكم المجتمع
عليهم، وتذكّرهم به، فتدفعهم إلى الاعتدال، والسلوك القيم.

[١] سيكولوجية الفكاهة والضحك : زكريا إبراهيم : دار مصر للطباعة ٧٠

وقد استخدمت السخريه استخداما بعيد الأثر في تسفيه الآراء الهائلة ، ومعامضة التقاليد الهائلة ، وإلهزاز العيوب الاجتماعية والخلقية المتأفة للمبادئ السامة ، والجاهلية للذوق العام ، كما استخدمها المجتمع في تأديب المارقين من أفرادها ، واستخدامها المصلحون للأفراد سلاحا ضد المجتمع لتقويمه إن شذ ، وتهذيبه إن جاد ، واستخدامها المصلحون ضد الرأي العام الفاسد ، وضد الثائرين على المثل العليا ، والقيم الفضلى .

وهناك أولان من المصوب ، وأنماط من السلوك لا يمتنع بمقتضاها ، ولا يرد عليها مبدءها إلا السخريه فإن (من أنواع السلوك الإنساني ما يفرطه الضمير والعقل والذوق ، ومع ذلك ظهروا وسيلة لمحاكمة والفضة عليه مع هذا الإجماع كله ، فسل القانون الوضعي ، ولا الدين ، ولا العرف ، بقادر على استئصال هذه العيوب فالسابق قد يردم وخط أو إرشاد أو عقاب محكم ولكن ماذا يفعل المجتمع في تأديب الهامس أو الشرار ؟ إذ الهلادة والثرثرة ليست جرائم يعاقب عليها القانون ، وليست من الذنوب التي خصتها الشرائع السماوية بالذكر ، وليست من العيوب التي تلحق الضمير بأحد حتى يحاول الانتقام لنفسه ، فيرد على الفعل بظلمه ، إذ ليس من المفسسول أن استعدي القانون على شرار ، ولا من الجائر أن استخدم العنف في دفعه ، وليس من الطبول أن أكمل له الصانع صاعين فأنافسه في شريرة (٥)

ولمعامضة هذه الأنواع من السلوك تستخدم السخريه لتحقيق التقويم والتهديب الذي لا تطيق وسائل النقد والتأديب الأخرى ، أو الذي لا تحده دأخلا في اختصاصاتها وإنما تحده سيطرتها ، فقيم السخريه بأداة واجبها ، وشرح أخطائها ، ترد المارتنين وتجهزهم إلى الخلق الفاضل ، والتقاليد المألوفة ، وتبترشفتها كل صبح وتشد بكسسل ميل وانحراف .

إن (كل من تسول له نفسه الخيـر عن طـلـوـف التـقـالـيـد ، يكون عرضة لسخرية
المجتمع ، وهذه الظاهرة لها أهمية كبرى في المحافظة على كيان المجتمع ، لأنه بهذا
القصير يحمي التقاليد والمعرف المأثمة من العبث به أو التثنية عليها) (٦)

ولقد كان التهمك من جملة أماليب سقراط في تقرير فلسفته مع السوفسطائيين ،
فكان في تهكمه يرمى إلى مناقضة خصمه ، فتركه يطلبه في سؤاله ، وينتقل به من
سؤال إلى سؤال ، حتى يقضى به إلى التناقض في قوله ، والتضارب في آرائه ، فينتج
في نهاية المطاف سخر من نفسه كما يعلم قراءه ، ويطلب إيضاح الحقيقة ، فيأخذ
سقراط بيده ، ليصلح معوجه ، ويصوب خطئه .

(إننا نضحك من غفلة بعض الناس ، أو شدة تمانئهم الكثرة أذهانهم فليس
أمر آخر ، وإننا لنفضل ذلك بهيمة أن يتدراك هذا الغافل عيبه فيقلع عنه) (٧) .
فالسخرية فن من فنون النقد ، تنقد إلى إبراز الخطأ ، ووضع اليد عليه ، وتجويسه
وتشخيصه ، وتدعو بها سلوها الخاص إلى تركه وتجنبه بما لا يثير المسخط ، أو يجرح المشاعر
أو يثير مسخطا يمتدح مدو " واحدة " ، ويجرح المشاعر التي سرعان ما تتدخل بعد أن
ينظف قلبها ، ويحول ضررها .

والأديب حين يسخر يربط بين الأمور الواقعة وبين ما يجب أن تكون عليه
من كمال أي أنه يقابل الواقع على ما فيه من تغلف أو نقص أو فساد بالكسـال
الذي يراه الهدف والغاية قاصدا بذلك النقد البناء ، الذي يقوى السلوك ، ويهذب
الطباع ، (ولقد كان لوسيان وأرسطو لايرز يعقبان سقراط بالنكات القاسية ، ولم
يكن فرضهما أن يخرجاً فحسب ، بل كانا يريدان أن ينتقما للحقيقة من المستطبعة
في رأيهما ، وأن يبرزا إلى المكان الأول ما يلقى به الناس ولا " تطهيرهم من النسل
الملك) (٨) يقول العقاد : (إن أجمل ما نحن كاسبوه من تسلط الضحك على
الطباع هو أن تنهبها إلى النقص تنبه عطف ورعاية ، وأن ننظر منها الجسد

(٦) سيكو كجيه الضحك : أئحد عطية الله ص ٧٦ .

(٧) سيكو كجيه الضحك : أئحد عطية الله ص ١٧٣ .

(٨) حـا نـا لـه شـم : إـبراهـم عـد القـادر المـازن ص ٣٠ طبعة دار الشعب الطبعة الثالثة

في معالجتها بما يقع في الطاقة ويرجى منه التحسن في نلحة أخرى من النفس،
 طين لم يكن ذلك مسرورا في الناحية المضحك منها ، قلما طلب الكمال لإنسان ويرجع
 منه بشير نتيجة مرضية في الباب الذي طلبه أو في باب سواه (٩)

..

..

..

٤- الفكاهة والسخرية :

تتلى الحياة بالأعمال الجادة التي تشغل الإنسان ، وتستهلك وقته ونشاطه ،
 وللملح طاقة في الاحتلال ، وللنفس البشرية ضيق بالجد ، وتبعم بالك
 والحياة العالمة ، القطبة الجبين ، التي يلتزم فيها الإنسان بالجد والصرامة
 والوقار والتزمت ، لا تحتل ، ولا يمكن أن تستمر ، ومن عاش في هذه الحياة فترة ،
 مغلا بترك الفهود ، فلا بد أن يهرب منها إلى أوعاء هزيلة ، أو إلى أحلام اليقظة
 من طريق التخيل والتأمل ، أو إلى عقد نفوس نتيجة للصراع وكبت الرغبات ، والضغط
 الهائل على الطاقة الكامنة في النفس التي تبحث لها عن سكون فلا تجده ، وتتفلسفها
 الضحك الذي يعمد للجسم نشاطه ، وللنفس بهجتها ، ينقل الإنسان من جحيم الواقع
 إلى لحظات يهنا فيها ، يحقق راحته وأمنه ..

ذاك رأى علماء النفس ، وعلم الطب يؤيد ذلك ، يفرد أن كبرا من الأمراض
 يتولد نتيجة الهموم والأحزان ، وأن الضحك يزيل الكآبة منها ، وأن الشرايين والعضلات
 تنقبض وتقلص عند الحزن والاكتئاب ، وتنبسط وتنشط عند الفرح والسور ، وقد جعلوا
 شعارهم : اضحك .. اضحك .. اضحك ، واضحك حتى تضحك .

ولما كان الضحك غريزة في الإنسان ، ودلهلا عليه ، وتحريرا به عن قواه قهينة
 وتأتيه في النفس والجسم والروح والمجتمع ، فأنشأوا المجالات للسخرية المضحكة وأقاموا
 المسارح الهزلية ، وأعطوا الخلفاء والملوك من يعيهم أفرادا امتازوا بالسخرية والظرف ،

للحق إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شعر : إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه - يحتاج إليه (١١)

وقد يكون العج والضحك فرضين أصليين من الكراه الجادة للسخرية ، وهندسين من أهدافها . لا راحة للنفس من أنقالبها - كما قدمت - وهو ما يمبرر عنه حديثاً : " الضحك للضحك " .

∴

∴

∴

١ - المحافظة على كيان الجماعة :

ومن الأهداف التي تسعى السخرية إلى تحقيقها : المحافظة على كيان الجماعة وحماية طوائفها ، ومعالجة الخارج على قوانينها ، وخلق جو من الألفة والتفاهم بينها ، لها الألفة والمحبة ، يتنازل السائر عن شيء من وقاير ، وعطير الحشمة ، يظل الجميع لون من اللون ، يتقارب فيه الأتباع ، وتسد البرج الجماعة ، فإذا ضحك الناس على نادرة ، أو سراً من فكاهة ، أو عجبوا لسخرية ، فإن ذلك دليل تقاربهم في السهول وتقاربهم في العبادي ، والقهم ، والتفاهم عندما يستحسن وما يستهجن . . يقول الدكتور زكريا إبراهيم : (إنه حينما تسخر الجماعة الواحد من غيرها من الجماعات باعتبارها جماعة متفاهرة لها ، فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيانها الاجتماعي) (١٢)

وكما أن في السخرية إعلاماً للسائر ، وإحساساً منه بالتحقيق ، فإنها أخذ بيد السخرية ، وإعلاماً له عما هو فيه ، وإيمانه عن الشائع التي يسخر منه من أجلها ، ورفع إلى السخرية مصاب الإنسان الكامل ، محافظاً على كيان الجماعة ، واحتراماً لجسمه الإنساني (والواقع أن الجماعة حينما تسخر من الشخص الذي يده ويظهر الآلة الميكانيكية ، أو الجسم الميكانيكي ، أو الشيء الجاد ، فإنها إنما تتخذ من الضحك سلاحاً تصغي به إلى السخرية المحافظة على العزبة التي وصلت إليها الإنسانية فوق الجماد والحيوان) (١٣)

(١٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم ص ٦٩ : دار مصر للطباعة .

(١٣) سيكولوجية الفكاهة والضحك : الدكتور زكريا إبراهيم ص ٧١ : دار مصر للطباعة .

ولذا وجدت مجموعة من المجموعات تتبادل البضائع وتظهر فيها الماخسر العاظم
لمستجد الباقي مقسما مفعلا ، ومستجد البوح الجماعة التي تطلق السخرة بتمنق لها ،
وستحفظ الألفة والموودة التي سادت الجماعة ، وحلت على قلوبها وأرتباطها .
فبالسخرة تتقارب الجماعة ، ويعتقد الاما جها ، كما تحافظ على تقاليدها وعاداتها
وتعاسكها ، وبالسخرة يرتدع الشاذ المخالف ، فيعود مرة أخرى إلى حظيرة الجماعة ، وبها
تتمسك الهادي ، وللقوم التي تعجزها الجماعة فلا عدل ولا تعبد ، ويتقوى لها وحدتها
وترابطها .

∴

∴

∴

٦- كسب المال والجاه :

وقد تكون السخرة وسيلة لكسب لقمة العيش ، وسيلة لبقاء "أسباب الحياة" ، وتقايد
المال ، وتحقيق الجاه ، وصناعة وحرمة ، وتقليد عابجا ، وتلقن في إبداعها ، وينزع نس
أشكالها وضربها حتى تشين وترى ، وتسير بضاعة بقبل الناس على شرائها ، ويرفع الماخسر
قدرها ويغلى ثمنها ، بمقدار ما يذله فيها من جهد وعطى قدر ما تزاحم المشترين عليها .
وقد كان ذلك مدفا لها منذ القدم حين اتخذ الخلفاء والأمراء والحكام ، وجباة
الدولة وسرايتها الضحكين والمأخزين والظرفاء ، فحظت بهم مجالسهم التي تخلف الأما
وتشريح المدور وتعمش النفوس ، وأعطوهم معهم في حلهم وتعاليمهم ، وصدهم وحبيهم
يقدرون لهم غذا " الثمن : من ضحك وسخر ، هؤلاء على غذا " الهدن : من ما كسب
وطيس ومال .

وفي عصرنا الحديث تعددت مجالات السخرة ، وهدفت في جل ما هدفت إلى السسى
لعل المال ، والوصول إلى الجاه ، فكثر المجلات الهزلية ، والصحف الساخرة ، والمقالات
اللاذعة ، وشاعت المساج التي تتخذ السخر مادة لها ، للتعلم والإصلاح حيفا ، وللتفككه
والضحك أحيانا ، وهي في هذا وذاك لا تستهدف إلا الربح ، ولا تطلع أبوابها إلا لتحقيق
المال ، كما كان للطباع نصيب كبير في برامج المتعددة التي يلقى فيها الأديب

تجربتهم فيهم فيها المشاغل واولادهم اللادعة ، وكلهم يفتل المبحر ، ويطلب المسال
وانتشار الذكر ، قبل ان يطلب هذا آخر .

وللصحف في ذلك نصيب كبير بما ينشر فيها يوسعا من سرغيات أعدت لها ، وخصصت
مساحات من اوراقها للشعكم الذي اتخذ مكانا معيناً من الصحيفة بحرفه القراء ، وقلوبهم
الصفحات للوصول إليه كل صباح ، على أنه لا تخلو اليوم صحيفة يومية أو مجلة أسبوعية
أو شهرية من صور كاريكاتورية علق عليها أصحابها بهزات ساخرة ، مغالوة على كسب
تعدد المصفرة وحدها يكثر تداولها بين قرائها .

ولهم الهدى من كل ما يكبره الساخرون في هذه الصحف أو ينشرونه فسمى
تلك الكتب إلا الحصول على المال أجرا لما يكتمون وفي ذلك الدليل الحاسم علمي
أن للمصفرة عشاقها ، من أرهفت مشاعرهم ، ونضجت قلوبهم ، ووقت أحاسيسهم ، وارتقى
ذوقهم الأدبي ، إذ المصفرة تحتاج في فهمها والفتح بها إلى كل هذه المواهب
والاعتمادات .

وبما كان للمصفرة اليوم صولة وهبة تعادل صولة الهجاء في العصر الجاهلي
وهيئة ، وتحاكى فرق الناس منه كما كانوا يفتنون من الهجاء ، وتحاشون سموم ، وهديون
سوطه بكل ما في اقتدارهم ، وهذا ما حدا بكبر من الكتاب والمؤلفين والمفتين والمخيلين
إلى التخصص في هذا اللون الذي صارت له في المجتمع هيبة وشأن ، طلبها للرسم
وطعما في المجد .

فالمسرحيات الساخرة ، والأقاصيص المتبكة ، والكتابات الهازلة الناقدة : ماذا يهدي
بها أصحابها غير الكسب المادي وتحقيق الجاه والشهرة من وراء تقديم هذه الفنون
النقدية الساخرة ، التي يحجب بها الجصور ، ويغشى إليها ، ويغيب عليها ؟
أما ما يهدده المجتمع من علاج أو دواء فساد نهائى في العروة النافذة .

..

..

..

وتتبعها للحكمة أمضى آلاء الفلاسفة ولقاء النفس وظهرت في الأهداف التي
يرى إليها الضحك ، وفي عرض لأهداف الضحك عرض لأهداف السخرية ، إذ السخرية
لبن من ألوان الضحك ، وخرج منه .

١ - نظرية سلامة العقل : يرى الفيلسوف الألماني " فريدريك فونته " أن الإنسان قد
اخترع الضحك كي يحافظ على سلامة عقله ، بمعنى خطر الجنون لأنه أكثر الحيوانات
عرضة للآلام والأوجاع ، غلو لم يخلق الضحك لحفظ الآدمي ، وقضت عليه ، ولكنه
بضحك يبعد إلى برح البحر الذي به يحفظ توازن عقله ، يهمله إلى شاطئ سمي
الآمان .

٢ - نظرية التنبيه : لما حياها " سيجوند فونته " قبل ذلك إذا نجح في حصيل
أحد الأمطار على الضحك لأنك في الواقع تحفظ وسيلة لإطارة للضحك هناك ، حتى
تجلب إلى نفسك السرور ، وتفرغ ما بداخلك من الآم .

٣ - نظرية الطاقة الفائضة : يقول " هيرت سبنسر " صاحب هذه النظرية : إن الضحك
ما هو إلا مظهر للطاقة حيوية فائضة ، فهو لتبين من ألقى اللعب كالتصفيق ، وهز السطلان
والقفز ، وإذا اكتشف الإنسان أن ما حيه خطر قد أخط نفسه له ، ليس إلا مجرد وهم
سخر من نفسه لهذا الخطأ ، كما أنه يسخر من نفسه إذا اكتشف أن المجهود
الذي يبذله في تحقيق أمل من آماله لا يستحق هذا البذل لتفاته .

١٤) استشهدت هذه الأراء من كتاب :

(أ) سيكولوجية الضحك : أحمد عطية الله .

(ب) سيكولوجية الفكاهة والضحك : د . زكريا إبراهيم .

(ج) للضحك وفي الإضحاك : الحسن بن علي فرهمي .

(د) في علم النفس : حامد عبد القادر وآخرين .

(هـ) الضحك : هنري بروجسون ، ترجمة سامي الدبيلي .

٥ - النظرية الدفاعية : وهي لحالم هندي يدعى " جيالاسواس " : يرى أن الضاحك يحاول الدفاع عن نفسه ضد عزيمة بهذه الأصوات التي يحدثها لدخل في روعة أنه كما له ، وقادر على مازلاته ، والتقلب عليه . فالضحك في نظري والتحكم مستمر بحسبها " ، ودور يواجه به خصمه ، ونوع من الدفاع السلبى الذى قد يضطرر المهاجم فى بعض الحالات الى الانسحاب من المعركة .

٥ - نظرية التعاطف : ويرجع الفضل فيها إلى العالم الأمريكى " رابهاك وجل " الذى لاحظ استعداد الإنسان للمشاركة الوجدانية ، وأنه لو استقرى هذه المشاركة لغضب عليهم الآلام ، وقد هيأت له الطبيعة سبيلا للتخلص من هذا الضيق بإحداث الضحك الذى هو محاولة للتخلص من مشاركة الغير متعهم إذا كانت غير ذات خطاسر شديد ، فمستغل الفرد مصائب ومشكلات الغير التافهة مصدر لضحك وسخرية .

٦ - النظرية الاجتماعية : وعلمها الفيلسوف الفرنسى " هنرى برجسون " القائل : إن وظيفة الضحك اجتماعية بحتة ، فالمجتمع يحاول حماية تقاليد ، ونظم بالسخرية من من يتنافى من هذه النظم ، حتى يتم الإصلاح والتجهم .

على أن هذه النظريات على تنوعها ، وتعدد وجهاتها ، لا تكفى وحدها لتفسير الضحك والسخرية ، لأن كل واحدة منها تتناول مظهرا هذفا ، ولا تتناول جميع المظاهر والأهداف ، والصواب أن تتم هذه النظريات بعضها ، لتصل منها إلى السخرية بكافسة صورها ، وتشتى أهدافها ، وتجنب القصور الناتج عن تفسير الضحك بوحدة من هذه النظريات .

يقول أحمد عطية الله فى كتابه سيكولوجية الضحك :

(إن تعدد نظريات الضحك ترجع إلى أن كل نظرية من هذه النظريات تفسر ناحية من هذه الظاهرة النفسية - وتضيق عن تفسير أنوارها الأخرى) (١٥)

دوافع السخرية وعناصر نجاحها

دافع السخرية :

لكن ينتج الأدب أدبه علاقا فيها ، يجب أن يكون صادرا من أستاذ ، وله صد
خبرة وتجربة ، وثورة نفسية ، وانفعال بالموضوع الذي يعالجه ، والأسلوب السخري
يقتلوه ، والدافع الذي يقوده إلى الكتابة ، واختيار لون دونه لون وعقول عبيد على
تعبير.

هذا الدافع هو المحرك الأول والأخير لكن عمل ، والشراية التي تبعث الحسرة
في النفس ، والبرودة في العين ، والانتفاخ في اللسان ، والقوة في الأعضاء ، لتنتج للمؤلف
حماسه وغلظته ، وتحوله من رغبة كاملة في الوجدان ، إلى حقيقة بارزة للمعان .
والدوافع كثيرة متعددة ، تختلف قوة وضعا ، وسطحية وعمقا ، وباختلافها يختلف الأسر
الناجم عنها ، وحينما تكرر الدوافع إلى الهدف الواحد يأتي فيها ضخا ، تبين البهتان
وطيد الأركان .

وللسخرية - ذلك اللون الأدبي النقدي - دوافعها التي تغري الساخر
بخفض عارها ، ومعارستها ، ومعاتاتها ، والتطلف في أداها ، والتفنن في صوغها ، وإبداعها
بصورها على غيرها ، وبراهن عين في أدا غرضه ، وتحقيق هدفه .

قد يشعر الإنسان بنقصه وحيوه ، ونواحي ضعفه ، فيحاول إخفاها والتغلب
عليها ، سواء أكانت هذه النيوب جسدية أم عقلية ، اقتصادية أم اجتماعية ، محقة أم وهمية
وهذا ما يسمى علماء النفس " التمهض " وأساسه شعور المرء بالنقص أو العجز أو الخسوف
من الإخفاق فيحاول إخفاها . وقد يدفعه ذلك إلى السخرية بتخذها أداة مثقفة ،
ودواء مهدئا ، وشاغلا يصرفه عن التفكير المؤلم في صوبه إلى التفكير المرح لنفسه

عويوب غير ، وتقاسي عويوب ، فكون التمهيز من دوافع ظهور فن السخرية وشيئاتها .

وقد (تنسب ما في نفسك من صفات غير معقولة إلى غيرك من الناس ، بمسند أن تجعلها ، وتضعف من شأنها ، وذلك تبدو تصرفاتك منطقية معقولة) (١) وهذا ما يدعو علم النفس الإسقاط " فنتميز إلى العالم الخارجي العمليات النفسية المبكوة في داخلك تنبأ من الاعتراض بها ، وتخفيفا لما تشعر به ، وهذه (ظاهرة مسخرة نفسية من شأنها أن يلقى الإنسان ما يكرهه في نفسه الباطنية من عيوب علمسي البهجة الخارجية ، غير صورتها معكوسة على مرآة غير) (٢) . فالعمليات النفسية المبكوة

لتحرك داخل الشيء ، وتنتج ، وتغير ، ولا يستطيع صاحبها مداومة حبسها ، فتخرج إلى الوجود في لون من الألوان ، والسخرية إحدى هذه الألوان التي يلقى فيها الماخر عويوب على غير ، ويصمم بها ، ويلبسها إياها ، كما نرى في سخرية البخوسيل من غير وإتهام إياهم بالشح والتقتير وفي سخرية الجبان من غير حين يدعي جبنهم وذلك يثقل التوتر النفسي ، والقلق والانفعال ، لأن الطاقة قد انفجرت شحتها ، وصرفت ما أحتمل في داخلها ، وكان يهيجها ، حين دفعت بالسخرية إلى تنفيس الآهيسا وتهدئة انفعالها .

والمقارنات ، والأوضاع الشاذة ، وغريبة العادات والتقاليد ، ووجود الشيء على خلاف الآلف ، كشذوذ السلوك ، وشذوذ الخلق ، وشذوذ الخلقة ، مما يثير النفس ، ويحرك فيها ملكة النقد اللاذع ، ويجعلها تسخر مظهرها بذلك تصلح المعنى ، وتردع الشاذ ، وتدخل المارق إلى حضي الجماعة وتقالدها .

ومسابب الغير إذا كانت تافهة ، لا تحرك الشفقة والرحمة ولا تهت علمسي الرثاء والاكثاب ، أكبر دافع للسخر محبت تكون مادته وموضوعه وسداه واحتمسه ،

(١) الصدة النفسية : د . مصطفى فهمي ص ٢١٨ مطبعة التقدم .

(٢) معجم مصطلحات علم النفس : مؤرودة الخازن ص ١٠٩ - دار النشر للجامعيين .

هذه التي . تنذبه وتنهه ، ونواته التي يدور في لكها وحولها ، يستند منها
 في سلوكها .

وهو ملكة النقد في الساخر يجعله يلتقط الأشياء بها ذات ملاحظ الفروق بل وضوئ
 عند المقارنات بين الناس وإن تأت بعدد مفضل خاصة النقد هذه إلى الصغينة
 من الأشياء والأنخاص لتمدل سلوكهم بملك الآلة الدالة التي لها فعل المحسوس
 في النفوس ، وقوة التأثير في امتلاك القلوب " آلة السخر " .

وقد يسمي المرء أنه أمام شخص تام ، يحقق عليه ، ويريد عقابه وتأديبه وتحثير
 شأنه ، دون أن يرتفع إلى مرتبة الدَّيَّة عن طريق المراءك واستخدام القوة العضوية
 في الضم ، أو الهجاء والسب المباشر ، لأنه لا يستعمل في نظره الخصومة المفسدة
 ولأن الخصومة السافرة مع أمثاله من الناس ترفعهم ، وتعلو أقدارهم لاقتنائهم بشخصية
 الساخر المعروفة ، وفي ذلك دلالة المساواة التي لا يرتضها ، تهتدع إلى السخرية عقابها
 فيفسد ويحثيره ، واستهانة بشخصه .

وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيكون المتكلم به يضع الشأن خطير القدر ، ويهدد
 الساخر أن يحط من كرامته ، ورغم أنه ، لم يلق به خط ، ولكنه لا يمكنه المجاهرة بعداوة
 لمؤلفه ، وخوف غيبه ، واحتراسا من طبعه ، تهلج إلى استخدام الحيلة ، فيستدس
 ليعد ارتكبه وكسر شوكة ، وإذلال شيعته ، والسخرية أروع حيلة لها فيها من رزايلها ،
 ويخترق في ، ويخسر وتلجج ، مع الهدم من خطر الإكصاح ^{ومقبة} بوضعية التصريح .

وهو المرء بنفسه ، وجهه بخيره (ما يمان من أبواب السخر) بل هما جعاع أبوابه
 كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس تأتيا هولوين من ألوان القصور ، أو ضرب من ضروب
 للميت ، وكلها ما يلتفتان ، فلن القوم هو تجاوز الإنسان قدره ، والميت هو النفس في غير
 جدوى ، ولا يكون هذا في أكر الأحياء إلا من اغترار المرء بنفسه ، وتعد ^(٣) من لطون) فيدفع
 القوم والميت صاحبهما إلى السخرية من الناس ، والتحكيم بهم .

٢٢ جحا الضحك الضحك : ما من محمود المقاد ص ٢٩ طبعة مؤسسة دار الهلال .
 وفي كتاب خط المات في الكتب والحياة : ما من محمود المقاد ص ٨٩ طبعة ٢ طبعة الاستقامة .

مفاتيح نجاحها

إن السخري لا تحدث أثرها المزجج من تخفيف لواجب الإنسان ،
وتفليس ما يكبت في صدره من حقيقة ومودة ، وما يتفعل به قلبه
من حقد وكراهية .

ولا تحقق غايتها المنشودة ، من إصلاح المسج بالتبينة عليه ، وظمار
لأمره وجسمه في صورة ضئمة هائلة ، تسود وتغرق ، فتكون أداة للزجر ، وسوطا
للردع .

ولا تحمل عليها الفتان ، في النكاية بالخصم ، والحد من قدره ،
وتحقيره وإذلاله ، ويجعله صورة مشوهة ، وخلقا مقبها ، وسخا مقفرا .

ولا تتركه في نفوس سامعيها ، طربا وهتافا ، ورجا ونشوة ، وارتياحا
وسعادة ، تجذبها للنشاط ، ودفعها للسلم والكلال .

ولا تزلج الجماعة الضعيفة ، وتأخذ على يد العايت بوجدتها ، وتخلق
بها من المودة والإخاء بيننا ، وتشج في أرجائنا الوحدة والتماجد .

ولا تدر المال في يد الساخر ، وتحم عليه بالجاه والشهرة ، وتسهل
له سهل الحياة الرفدة ، والحيثية الراضية ، والترق والصولة .

إن السخري لا تحقق هذه الأهداف كلها أو بعضها ، ما لم يتج لها
كثير من العوامل التي تؤدي إلى إيجاحها ، وتسير بها نحو تحقيق غايتها
وتقدر ما تجتمع هذه العوامل وتتآزر ، وتتعاون وتتساند ، يكون حظ السخري
من الإجابة والإقنان ، أو الخمول والندلان .

ومن عناصر تيجاج السخيرة ، وواحد فوقها وسوقها ،

١- أن يكون السخيرة ذات طبيعة يمشق السخيرة ، وتولج بالنفث ، تجري السخيرة في مرقه ، وتحتج بدماقه ، فهو سرج التفاضل مع المواقف والحوادث ، يجعل من عقله حكمة في كل ما يراه ، أو يسمعه أو يحس به ، فنبه عليه إن جافد الحد تنبها لطيفا حذرا ، محتفلا على التعريض والتلج ، فلا يقوته منظر دون أن يذره ، ولا تندعه شاردة دون أن تجتذب انتباهه ، وتثير تفكيره فمسو حين السواقف دائما بمنزلة دقيق حساس تطلق منه الإشارات وورد الأفعال لكل ما يحدث أمامه ، أو يجسرى في مجتمعه ، مما كان دقيقا خفيا ، فتناول في براعة ، وصوفه في عبارة ، فإذا هو شيء بعد أن لم يكن نبيا وإذا به يرثي درة خالية أخرجهما من صدفة اجتذبا من الأعماق ، فبسرنا ومهبطها ، وسحرنا رواها .

∴

∴

∴

٢- أن يكون مطلق النفس ، خفيف الريح ، بعيدا من التعقيد والترتب مرجاء هائلا ، متصفا دائما ، مستغفرا بالحياة وأمانها (نفسه هادئة تعلم السندرة) منهبطة كل الانهساط ، تعلم المبالاة وسطه الطبيعي ، وألح أعدائه الانفعال^(١) وأن يكون لديه مقدار غير قليل من الشفافية واللهاية تهديك سرها إلى العلاقات وأن يحدث ، والعلاقات والرهط وأن قلت وثبات .

∴

∴

∴

٣- أن يكون رقيق الإحساس ، قوي الشعور بالواجب ، فإن (الطبع الساهر هو الطبع العارف بواجبه ، المحتفظ بكرامته)^(٢) يعرف الحدود والوسم ،

(١) الضحك . هنري برجنسون ص ٢ ترجمة سامي الدروبي وبيدالله عبد الدائم

(٢) مطالعات في الكتب والحياة . عباس محمود العقاد ص ١٦ .

يظهر في نفسه أن تحمل أو تدويره يعطى إلى الإنصاف ويضيق في وضع كل شيء في مكانه
ينفر من الإخلال بالنظام ، والأدب العامة ، والذوق السائد (ومن هنا يخلب أن تكون
السخرية باعثاً قوياً على فعل الواجب ، ورعاية اللياقة ، والوقوف على حد الكرامة) (٣)
مع أن يمكن بما راعى في التصدير مقتضى الأدب ، بالكلمة والحركة والإشارة والملمحة ، والتصوير
الكللى الذى يتناول الجسم فهو شوهه ويصنعه حتى لتكاد عراه أمامك ، وتلمسه بيدك ،
فإن الحركات والإشارات وتشكيل معانى الكلمات لها من الأثر فى إبراز السخرية وتحقيق
أهدافها فضل لا يجحد ، من تأكيد المعنى ، وتحويله إلى الأدهان فى صورة مدسوسة
وتجسيمه ، وتشخيصه أمام المبين .
مع أن يجيد الساهر المقارنات والموازيات ، وقد الصلات والروابط بين أشياء قد تبدو
متباعدة ، فيكون لعنصر المفاجأة أثره ، وللمخاطبة لامت فى الأدهان ومن توقع تضليلاً
ومزجاً ، وهذا يحدث الهزء والنشوة إذا حل ما لم يكن يتوقها ، وحدث ما ليس نسي
الاحتمال ، وظهور نهج الساهر ، ومن تأتبه ، ووفق تملكه وأدخاله (فألفه) على
هذا مقارنة سرعة مفاجئة بين حالة ترواها ، وحالة تتخيلها ، حالة كائنة ، وأخرى واجبة
ولا يقوى على هذه المقارنة فى سرعة وقطنة غير الأدهان المصطنع على تصور الأشياء نسي
صورها الحقيقية العلى (٤)

مع أن يطلع كل من الساهر والسامع على أحوال السخرة ، ويعرف صفاته وأخلاقه
وطرفاً من ماضى حياته ، ومكانته بين أهله وزمائه ، وكلما كثرت المعلومات عنه ، والمعروفة
به ، أدت السخرية دورها ، وانفسج مجالها ، فقد يكون عرض السخرة اسمه أو كنيته

(٣) المرجع المذكور صفحة ٩٥ .

(٤) المرجع السابق صفحة ٩٦ .

أرأس أبه أو أخته أو أصله ومنته أو سته وهيئته أو حوادث كانت له في ماضيه
أيامه والسخرية لن تحقق فرضها إلا بمعركة هذه الأشياء ، بل إنما لا تكون سخرية
إلا إذا لوحظت ، وأدخلت في الاعتبار لأنها المباد والمحدود .
يقول الجاحظ (وليس يتوافر أبدأ حسنها ، إلا بأن تعرف أهلها ، وحتى تفصل بمسحتها
ومعادنها ، وللافتقار إليها ، وفي قطع ما بينها وبين عناصرها ومعانيها ، سقوط نصف اللذة
وذهاب شطر النادرة) (٥)

٧- أن يكون الساهر خيرا بما لاجتماعه ، عالما بواطن الناس ، مطلقا على ما يخالجه
من خصم في حيا تهم ، وما يثير نفوسهم ، ويهزم مشاعرهم ، ممارسا لألوان الحياة ممارسة
تجعله أدنى إلى فهمها ، والوقوف على دقائقها ، وأبعد من الانتان بتلك الظواهر
التي تتبرج للناس ، فتصرف هؤلاء الذين يهيمون الحياة دون أن يشعرونها وتمتعوها
من أن ينفذوا إلى ما وراءها .

٨- أن تحتاج السخرية في فهمها إلى تأمل وتدقيق ، وتلطف وإعمال الفكر ، ثم لتتسع
في الفكر ، وتضيق في جنات النفس ، فإن السخرية إذا كانت واضحة صارخة سيج منها
وسخف منها ما ، وضعف تأثيرها ، ودلت على سطحية فائلها ، والنفس تكلف بالدقيق ،
والعقل يفتش بالفكرية لاحت له بعد طول احتجاب ، والقلب يطرب للنادرة فيطرب لسه
من حالق .

٩- أن تجرى مع الطبع ، وتقرب من الواقع ، فلا تكون نجة ، ولا متكلفة ولا مبالغا فيها
فإنها إن بدأ فيها التكلف والفنل خرجت عن طبيعتها وسقطت قيمتها ، ولتولد عنها وربما
انقلبت إلى ضد ما ، فمادت فاته بعد أن كانت حارة .

(٥) كتاب الهجاء ، الجاحظ : تصحيح وضع أحمد المومني وعلى الجاهم الجزء الأول ص ٣

وقد رويت قصة الجاحظ ذكر فيها أن رجلا مات فاستولى ابنه على ما له ودانته ثم سأل (ما
 دان آدم أبي • فان أكثر الفساد إنما يكون في الإدام • قالوا • كان يأتيهم بهجته
 كانت هذه • قال • أرويتكم • فلذا فيها حر كالجدول من أكثر مع اللغة • قال • ما هذه
 العثرة قالوا • كان لا يقطع الجبن وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى • قال • فهذا
 أحسن • وهذا أقدمني هذا القصد • لو علمت ذلك ما علمت عليه • قالوا • فافهم كيف تريد
 أن تصنع • قال • أكرمهم من بعيد فأثور إليهم بالقسمة (٦) • وعقب الجاحظ على هذه القصة
 التي تهدر فيها المبالغة والظلم بقوله • (ولا يمجيتي هذا الحرف الأخير لأن الإفاط لا غاية
 له وإنما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة • فأما مثل
 هذا الحرف فليس مما نذكره) (٧)

١- أن يعلم فيها صوت العقل ثم ويخبر صوت الماطقة • فلا شفقة ولا رحمة ولا مشاركة نفس
 الآدمي • لغير (فلن) يحدث المضيق ما يحدثه من تأثير يجب أن يتوقف القلب برهة عسى
 الشعور (٨) • وأن تعرض علينا المصير عشا بنوم عواطفنا • ونحفظ عقولنا • لأن عواطفنا
 إن لم تكن مستريحة أحسننا بالآدم الناس • وأثرتنا لهم • وحزنا ويكنا من أجلهم • وذلك
 ما يخدم السخر ويثده • لأنه وليد الضحك والضحك وعدو الحزن والاشتيا •

١- استلهمت للبيئة التي تقال فيها • والمجتمع الذي تلقى إليه • فللمعاسة سخريات تهم
 وللخاصة سخريات تهم • وللأدباء سخريات لا يستسيغها غيرهم • وللمعلماء سخريات تعتد
 على المصطلحات والإشارات وألوان من المحلوات • ما يجعل غيرهم يكرهها • ولا يقدس

بالحرف الأخير
 في قوله
 فافهم كيف تريد

(٦) كتاب البخل للجاحظ ضبط وشرح أحمد الحوامي وطب الجاز ع ٢ ص ٨ • طبعة دار
 الكتب سنة ١٩٤٠ وفي كتاب البخل للجاحظ تحقيق طه الحاجري ص ١٣٢ •
 طبعة دار المعارف • ذخائر العرب •
 (٧) المصدر السابق • نفس الصفحات •
 (٨) الضحك • هنري برجسون ص ٨ • ترجمة سامي الدرين وزميله •

مروها • وما يكون من توكل وسخيرة في مجتنب من المجتمعات أو بركة من البهائم
قد يفقد الكثير من لدغة ، وإيلا له إذا استعمل في غير بركته ، وأطلق في غير مجتمعه
ذلك بأن السخيرة تعتمد على الدقة ، وهم ما وراء الصانع ، ولن يحقق ذلك على أكمل
وجه إلا إذا كان السامع يشاكل السخيرة في علمه وأدبه ، أو في سطحته وسذاجته ،
فسخيرات العالم لا يفهمها الجاهل ، وسخيرات الجاهل لا يفهمها العالم ، يسئل
بإحسان نعمة ، لا تثير ضحكك ، ولا تنزروحه .

١٢ ألا تثير السخيرة المحسنة نفور العاضدين وسخطهم ، فلا يلحق أن يسخر ساخر من
رجل الدين أمام رجال الدين ، وليس منهم ، أو يتدبر متدبر القضاة ، تدارا هازنا
أمام قاضي وليس القضاة منته .

قد يسخر أحد القضاة برفيقه في مجلس قضاء ، فتكون السخيرة ثمرتها ، وتجدي نفس
الطباع مجدى مقبولا ، إن ليس فيها تعريض بالعضد جميعهم ، وإنما بواحد منهم محدد ،
وقد يسخر أحد الجناة مع رفيقه من قاض يحينه ، فتحقق السخيرة ما أريد بها من تخفيف
الخيظ المكبوت ، والحد الدفين ، أما التعريض بالعضد ، وإلقاء السخيرة بحيث
يمكن أن تصمم وتسلم ، فإن ذلك يضعف من أثر السخيرة ، لأنه يجعل النفوس
تفر ، والطباع تجفل ، ويقلل المعنى النفسى ، وهو أهم عامل في نجاح السخيرة .

١٣ أن تكون أمام جماعة ، إذ السخيرة لون من ألوان النقد اللاذع ، ينهى إلى
الخطأ ، ويوجه ، قصد إلى تعديل السلوك ، أو بركة في الفكاهة والإضحاك ،
أو للتخفيف من الخيظ والموجدة ، أو لتبوير ذلك من الأعداء التي ذكروها آنفا .

ولن يتم للساخر ما أراد على أكمل وجه إلا إذا كانت السخيرة في جماعة تضمه
 فزيد ضحكها الضحك ، وتكون هذه الضحكات الكثرة البازنة مبالغا مريضة
 تخزأ لتدكم به وتوجهه ، فتحقق هدفها ، وتصل إلى غايتها . . . على أن كثرة
 الضاحكين المستمزين ، وتوالي ضحكهم ملاوة على ما يحققه من الأقراض التي
 أرادها السّاخر بسخره ، تدل على براعة السخيرة ، ودقتها ، وبراعة أدائها
 والضحك معد كالنتاوب فالنتاوب يجلب التناوب ويحقق النقص ، والضحك يجلب الضحك
 ويحقق الانسراح ، وكثرة الضاحكين السّاخرين في قوة تكرر السخيرة وشأمة إلقاءها -
 ويرجعون الفيلسوف الفرنسي يقول : (إن الضحك يخاطب العقل المضحك ، وينهض
 لهذا العقل أن يكون على حلة يعقل أخرى فنحن لا نقدر الضحك نفس
 حال شعورنا بالمزلة ، إن الضحك في حاجة إلى صدى^(١) وهذا الرأي مطابق لما
 اشدى إليه إ. م. الجاحظ . قبل فيلسوف فرنسا بنحو ألف عام فقد قرر أن الضحك لا بد له
 من جماعة يشترك في انفعال واحد ، وأن قهقهة تعظم إذا كان جماعة ، فقد يرى نفس
 قصة له مع محفوظ النقاش في ليلة أكل فيها كثيرا من اللحم والتمر (فما ضحك
 قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعا ، فما ضحك - إلا الضحك والفتايط والسرور
 فيها أظن - ولود أن ممس من يفهم طيب ما تكلم به
 لا تسمى على الضحك ، أو لقضى على ، ولكن

(١) الضحك - هنري برجسون - ترجمة سامي الدروبي - معهد اللغة عبد الدائم

ضلك من كان وحده ، لا يكن على شطر مشاركة الأصحاب (١٠)

..

..

..

١٤ أن يختار الآخر مكان السخيرة ، ووثقها ، وقدارها ، والجوهر المستمع لها ، وأسلوبها المبرهنها ، وأن يراعى التناسب في كل ذلك فلا يتأخر بها قليلا أو يقدم ، ولا تقدر أهميتها ، وضاعت ميزتها ، ولا ينحسر في موقف يعجز الأسماء المفضلة والحلن الكبير ولا يجاوز بها مقدارها فيطيلها أو يقصرها ، أو يلقبها في كل وقت ، فإن للجهد والوقار موضع ، وللسخيرة والمنزل أوقات (ولو استعمل الناس الدعاية في كل حال ، والجهد في كل مقال وتركوا التسميع والتسجيل ، وقدوا أعتاقهم في كل دقيق وجليل ، لكان السلف صريحا خيرالهم ، والباطل موصفا أرد عليهم ، ولكن لكل شيء قدره ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كاللهاج في موضعه ، والتهمس في موضعه كالقطوب في موضعه (١١) .

والجاحظ يراعى ذلك بشرطه فيقول : " وللضحك موضع وقداره ، وللمن موضع وقدره ، متى جازهما أحد أو قصر عنهما أحد ، صار الفاضل خطلا ، والتقصير نقصا فاناس لم يحموا الضحك إلا بقدره ، ولم يحموا الفن إلا بقدره ، متى أرد بالضحك التمتع ، والضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار الضحك جدا ، والضحك والمزح (١٢) . ولعل سخيرة جمهورها الذي يسمونها وستلاها حتى ليقال : إن الضاحكين من سخيرة يحمونها مشتركون قالها في عقلية واحدة أو متعقبات إلى تسليقة لنفسية واحدة .

١٥ البخلا : الجاحظ تحقيق طه العاجري ص ١٢٤ وسأذكر القصة في الفصل الأول من الباب الرابع . الجاحظ ضبط وشعر أحمد المومني وطن الجاحظ ص ٤٦ ج ٢ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ .

(١١) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ١٠٦ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت عام ١٩٧٢

(١٢) البخلا : الجاحظ . تحقيق طه العاجري ص ٧ .
وكتاب البخلا : الجاحظ . شرح وتصحيح أحمد المومني وطن الجاحظ ص ٢٢ ، ٢٠

١٥- أن تكون السخريّة جديدة مبتكرة . فليس هناك أدنى للطل من الحديث
المعاده وأولى بالنادرة والظرفه . والظافة والسخرية . أن تكون بنت وتنباه
ووليدة ساعيا . لم ينطق بها ثم . ولا ريت قبل في سبع . ولا انشئ لها
قلب . لأنها إن كررت وأعيدت فقدت عنصر الإثارة . وامل المفاجأة . ومحيات
السرور والإضاح . ومحدث من دورها في إيلام المتكلم به وإيجاعه . وتحقيق
هدفها من إضحاك الناس عليه . وهزئهم به . إلى الجدة والطرافة عنصر
رئيس في إنتاجها . فإن لم يستطع الساخر تحقيق هذا العنصر فلا أمل
من أن يتصرف تصرفا ماعرا حادقا . يحيل به القديم جديده . بصيغه بصيغ
جديده . وصيه في قالب بكره وإطارة غزله وتكبيده . وتظليه وتسيقه . حتى
لتسقى الأذن أنها سمعته من قبل . ويتكر الدهن أن له به إلقاء .
وتكر من سخريات الجاحظ وضحاكاته قد سبقه بها رجال في عصره . ومن قبل
عصره . ولكن دقته في ضحكه وتفتنه في سخرياته جعلته سيد هذا الباب . والقدم
في هذا الفن .

١٦- أن ترى السخريّة بما فيها من لكمة وتعري . ملحونة معرفة كما قبلت . إذا كان
مبنيها اللكمة . ومنهجا التعريف . وسرا لإضحاك . وللذخ فيها اللحن . فاللكمة
والتعريف والتصريف . والقلب المكان . واختلاف الإهراء ألوان من الكاريكاتير
يصح فيها المتكلم بأجزاء الكلمة . وترتيبها ووجعها . العام . أو قولها
المتكلم بمرادها مستقيمة البنيان . سليمة الأعضاء . ولكن الساخر يراهم
على حقيقتها من تشويه وتأثره . يجعلها ألوان من ألوان السخرية في الشكل
متأثر الأعضاء . وقد آلت الكلمة إلى هذا السخ . وانتابها التمسك
التشويه كما يتناسب المكان الذي شوهت معالنه من طريق القصد سخريّة به

أو أن هذا التشويه لخلق فيه تدوير إلى السخر والتعجب ، فالعالم يرى من الأسماء
في الكلمة ، وبما عليها مماثلة الإنسان فيسند مظهره .

وقد انتهت أدياننا السابقين لأصناف اللحن والتعريف ، وجنب الإعراب في النادرة
والسخرية ، وأنه جزء من جمالها ، وسطر من إبداعاتها ، في كتابه المسمى بالأخبار ،
(وكذلك اللحن إذا مررت في حديث من المتولد فلا بد من طلبه لما يمد لنا في قوله ،
ذلك أن ~~اللعن~~ لأن الإعراب بها سلب بعض المعاني حسنة ، وشاطر
النادرة (حلاوتها) (١٢) . يقول في بعضه المباحث في كتابه المسمى : (وإذا كان موضع
اللعن يتعلق أنه مضحك وله داخل في باب العزاج والطب ، فاستعملت في
الإعراب انقلب من حسنة ، وإن كان في لفظه سخر ، وأبدت السخرية بالجزالة
صار الحديث الذي وضع على أن يصر النفوس بغيرها ، وأخذ بأكثرها) (١٣) .

ويقول في كتابه المسمى : (وأما بعض كلام النظم الشعري وتكرار كلمة في اللحن ،
(فكان آخر كلامه أن قال : إن كنت سجعاً ، فإذهب مع السجع ، وطولك بالبراري والغياض
وإن كنت بزهية ، فاستمعنا سكوت البهائم . ولا تكثر قولك وحكايته ، فقل سجعاً
قولاً وإن كنت سجعاً ولم أقل إن كنت سجعاً . وأنا أقول إن الإعراب بغير نواذر العلويين
كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سجع هذا الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك
المتحج ، وتلك اللفظة وتلك المادة فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أعجبك بمختلف

بعض كلام المعجمة التي فيه وحروف الإعراب والتعريف والتعجب ، ومحوته إلى صورة
ألفاظ الإعراب الفصحاء ، وأهل العروة والعجاجة ، انقلب المحجج مع انقلاب لفظه ،
وتبدلت صورته) (١٤) . ويقول في كتابه البيان والتميز ، (إذا سمعت بكاء من نواذر

(١٢) من الأخبار ، ابن قتيبة ، الجزء الأول ، ١٠ .

(١٣) المسمى ، الجاهل ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٩ تحقيق عبد السلام حارون ، ومثله
في رسائل الجاهل الجزء الثاني صفحة ٩١ تحقيق حارون ط ١٩٦٥ .

(١٤) المسمى ، الجاهل ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٢ .

ولو لمَّا دَرَا حَارَةً فِي نَفْسِهِ مَلِحَ فِي مَقَامِهِ ثُمَّ أَضَافَهَا إِلَى صَالِحِ بْنِ حُسَيْنٍ
وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ ، وَلَوْ بِحُضْرِ الْمَنْشَأِ ، لَمَادَتْ بِأَرْدَةٍ وَلَصُرَتْ قَاتِرَةً ، فَسَلَّحَ
الْقَاتِرَ عَمَّنِ الْهَارَةِ (١٩)

الفصل الرابع

مكانة السخرية بين الألوان الأدبية

لذلك يكتسب كثرة ، وتكون متحدة بلغة الجاهل ، وهذا أيضا أداة مهمين
 بها من أفكارهم ، مفسدون بوسطهم من أحاسيسهم ، ولجانبهم على أنفسهم ، وكسل
 بهذه الطريقة التي تروقه ، والذين الذين يراء ألقى بموضوعه ، وأدخل في النفوس وألصق
 بالقلوب .

قد يكون هذا الفن في صورة قصيدة أو رسالة أو خطبة أو مقالة أو قصة أو
 مسرحية ، متخذنا لونا من ألوان الأدب الجاهل ، أو ^{متخفيا} الناحية الهزلية ، وأصدا
 إلى السخرية والتعكم ، أو الفكاهة والدعابة .
 وأدبنا العربي يحفل بالفكاهة والضحك ، ويحل إلى فن السخرية ، ويحس
 لهذه الفنون كسبتها في النفوس ، وتأثيرها في القلوب ، ولا يدري لماذا لم يتجاوز
 حدودها ، ولا عرجا .

وكما أن للأدب الجاهل عشاقا وطريقا به ، فإن للأدب الهائل أخصا وشاهجة
 وأولى الفنون الأدبية الهائلة " السخرية " ، وأصبتها مكانتها بين الفنون الأدبية
 تابعة من أنها جد إن أريد بها الجدة ، وحفل إن قصد بها الهزل وحس ليس
 الوقت نفسه جد لأنها تحقق الهدف الذي أركاه الهائل بمنزله ، فإنه (مستغنى
 أريد بالضحك التبع ، والضحك الذي له جمل الضحك صار المرح جدا

والصحة وقال^(١) يقل الجاحظ في كتابه الحيوان .

(ولم تدر أن المزاج جد إذا اجتلب ليكون طبع للجسد ، وأن الهطالة وقسار
وزنانية إذا تخلصت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم

النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتم ما لا يحتاج إليه . قال أبو شمر : إذا كان
لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه^(٢)
ويقول في رسالة الترتيب والتدوير .

(طوبى لمن كان قبيحا لأنه يورث الجسد فأنتج من الفج ما صير الفج قبيحا ،

وإذا صار الفج قبيحا لأى الذى يكون بعده الجسد ولم يصير الجسد قبيحا لأى الذى بعده
الفج كان الجسد فى هذا الوزن أنتج من الفج وبأن الفج على هذا التقدير أحسن
من الجسد لأن ما جعل الشئ قبيحا أنتج من الشئ . كما أن ما جعل الشئ حسنا أحسن
من الشئ^(٣)) كتحقيقه السخريه جاذبة ، وصورتها مازلة ، وتستطيع بها أن تحقق

ما تحقق بالأدب الجاد ، والأدب البازل معا ، ففيها ميزة الأدبين وتفضيل
الفنن ، بطريقة تخلق الإقبال عليها ، وتشتف النفوس بها .

وليس السخريه بمعينة إن نيل هدفها ، وسمت غايتها ، ومن أهداها

النبيلة - كما قدمنا فى الفصل الثانى - تخفيف آلام النفس - وتأديب الخصم - وإلصاق

شبه ، والتسلية والسرور ، والحفاظ على كيان الجماعة ، وكسب المال والزرق . وليست

هذه الأعداء بمسجوعة ، ولا تخافه ، لأنها ترجعيات سيده ، وقنوات راحة

وأداة مع الطبقة الحاكمة فى تدعيم المجتمع ، والحفاظ على وحدته ، وسلامته وأمنه

(وتقبل السخريه ساحة ، ولكن الإعجاب بها يوجب السخريه عجزا وسلافا)^(٤) .

(١) كتاب الخلاص ، الجاحظ ، ضبط الجوامع ، والجوامع الأولى صفحة ٣٠ ط ١٩٣٨ .

(٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٢٢ ، ٢٨ .

(٣) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، طبعة بيروت صفحة ١١٦ ط ١٩٧٢ .

(٤) سماعات بين الكتب ، عباس محمود العقاد ، صفحة ١٤٩ .

وفي القرآن الكريم آيات فيها السخرية الصريحة وقر الصريحة ، قاله سبحانه
 وتعالى يقول : (وإذا ألقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا
 إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ، ويعذبهم في عذابهم ، يمسحون) (٥)
 قال القرطبي : (الله يستهزئ بهم في الآخرة ، ويفتح لهم باب جهنم من جهة الجنسة
 ثم يقول لهم : تعالوا ، فيقبلون يسبحون في النار والمؤمنون على الأرائك - وهي السرر -
 في المجال ينظرون إليهم ، فإذا انتقلوا إلى الباب سد عنهم ، فبعض المؤمنين منهم) (٦)
 ألمس ما فعله الله معهم هو المعنى اللغوي والبلاني والحرني للسخرية . وقال الألوسي
 في تفسير الآية : (الله يستهزئ بهم وحمل أهل الحديث ، وطائفة من أهل التأويل
 الاستهزاء منه تعالى على حقيقة ، وأن لم يكن المستهزئ من أسانيد سبحانه ، وقالوا
 إنه للشعير على وجه من شأنه أن من أطلع عليه يتعجب منه مضحك ، ولا استحالة
 في وقوع ذلك منه عز وجل) (٧) . وسخر نوح عليه السلام من قومه ، قال تعالى فاستمع
 قصصهم (وسمع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) قال : إن سخروا متبسمين
 غافلين تسخروكم كما تسخرون) (٨) . فقد رد نوح الرسل سخريتهم بسخرية مثله لها ،
 ولا فضاة في ذلك . ونص الألوسي في الكلام عن السخرية في الآية بأنها
 ليست قهراً ، وأنها على معناها الأصلي ويكر على المفسرين تأويلها . ويقول :
 (قيل إنها منه عليه السلام لما كانت لجزائهم من جنس ضيقهم لم تهب
 فلا حاجة لارتكاب خلاف الظاهر) (٩)

(٥) سورة البقرة الآية ١٤ ، ١٥ .

(٦) الجاح لأحكام القرآن القرطبي ج ١ ص ٢٠٨ ط ٢ سنة ١٩٦٦ .

(٧) روح المعاني ، الألوسي ج ١ ص ١٤٢ الطبعة النورية .

(٨) سورة هود الآية ٢٨ .

(٩) روح المعاني ، الألوسي الجزء الثاني عشر صفحة ٤٦ الطبعة النورية .

شكرى حقوا ، وإن جازى كتابى هذا حدود العراق شكره ولا أمسك ، لأن شمرته
بالفتح عدد نفسه فى هذا الإقليم قد أغتته من التوبة والتنبه على مذهبه ، وكيف وهو يرى
أن نبل بن مازن ، واسطعيل ابن غزوان ، كانا من المشرقيين ، وأن التورى والكدى
يعتقبا بن الحجر (١٢)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى صرح فيها بلفظة السخرية قوله تعالى :
(سخر الله منهم ولهم عذاب أليم) (١٣) . وقوله ، (أتخذناهم سخرى أم زانت منهم
الأنصار) (١٤) . وقوله (ويل حبيبة مسخرة) (١٥) . وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر
بكم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم) (١٦) .

فالسخرية المستوحدة شرها ، والحمية خلقا من التى يكون الفرض فيها الإحباط ،
وإزالة الكرامة ، والكذب وتشويه الحقيقة ، وهضم المنزلة ، مما يؤدى إلى التهاق والتباعد
والمداوة السائرة ، أما السخرية المادفة إلى إصلاح الفساد ، وتفهيم المصوب ، والقباض
والاستعلاء فبها من القتل وسفك الدماء ، ^{ويشتت} ~~يشتت~~ الدجاج غرابين - تهذه الآراء السابقة
أنها خير ولا عيب فيها ، لأنها تقود إلى صلاح .

فالسخرية إذن من أدهى راق له أساليب وطرقه ، ويستعمل نفسى
أنصح كلام قال تعالى يسخر من الكفار (فيهمهم بعذاب أليم) (١٧) موضح
المباشرة مكان الإنذار سخرية بهم وقال : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم
لا هم لهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين) . ألم لم أر أن رجل يموتون بها ، ألم لم أر أيديهم يمشون

(١٢) المصدر السابق صفحة ٨٢

(١٣) سورة التوبة الآية ٢٦ .

(١٤) سورة ص الآية ٦٣ .

(١٥) سورة الصافات الآية ١٢ .

(١٦) سورة الحجرات الآية ١١ .

(١٧) سورة آل عمران الآية ٢١ .

بما ، لم لهم أصيون صبرين بما ، لم لهم آذان يسمعون بما ، قل لهوا هرا وكم
ثم كيدون فلا تنظرون (١٨).

وقال : (إن الذين تسمعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ،
وإن يسلمهم الذباب شيئا لا يستفدوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب) (١٩) فقد سخر
الله من هؤلاء الكفار لمبادتهم من لا يستطع الخلق والإيجاد ولا المضطر والشفاع
عن نفسه وشفعة المصلوب فضلا من حيلة تفكيره . وقال حكاية من القارم إبراهيم :
(قالوا أنت فعلت هذا بالحق يا إبراهيم . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألهم
إن كانوا ينطقون) (٢٠) . فقول إبراهيم سخريه من الكافرين ، وتكلم بهم ، وطبع فيهم
لمبادتهم من لا يسبح ولا يصبر ولا يفعل .

وفيه المجال للاقتدار ، والبهمة عن طائفة العقاب ، واستدامة العداوة
والصحة وإلى هذا المعنى يشير الجاحظ في رسالة : الترهيع والتدوير (ومن المزاح
جعلت هناك - باب مكر ، ومنس خدع ، يتكل المرء في إساءته إلى ^{جلبته} وإساءته
لصديقه ، على أن يقول : مزحت ، وعلى أن يقول عند المسافة : لمبت ، وعلى أن
يقول : من ينضب من المزاح إلا كره الخلق ، ومن يرغب عن المفاخرة إلا ضيق العطن) (٢١)
فيحمله من طريق اللبس والمزاح ويرثه بالفكاهة والنضح وذاك أسس السوان
التعليم . وإلى ذلك المعنى يشير الشاعر بقوله :

لن صاحب ليس يغلس	لسانه من جراحى
بجهد تمزيق عرضى	على طريق المزاح

(١٨) سورة الأعراف الآية ١٩٤ و ١٩٥ .

(١٩) سورة الحج ، الآية ٢٢ .

(٢٠) سورة الأنبياء الآية ٦٢ و ٦٣ .

(٢١) مجموعة رسائل ، الجا حظ ، صفحة ١٠٧ طبعة بيروت عام ١٩٧٢

لقد رأينا القرآن الكريم يخبر من الكافرين ويخبر باسم مولانا رسول
الله إبراهيم عليه السلام بتخلف السخرة من الكافرين أسلوا له لينبئهم إلى
أخطائهم بالدليل المادي، والحجة القاطعة، كما رأينا من قبل السخرة المصرية
على لسان نبي الله ورسوله نوح عليه السلام.

ولذا كانت هذه نظرة الدين والخلق والأدب إلى السخرة فلا غرابة أن يمشى
فمن أدب رأى مع ما عرف من الأدب من عظمة وانفساح وتسامح يقرب من التحلل
هو في السخرة، ويحفظ به الأدب، ويحفظ له الشجاعة لما يحتاج من ترفيق
وحيلة ومن تظلف (إن السخرة أرى أنواع الفكاكة لما تحتاج من ذلك، وخفاء وكسر
وهو لذلك أداة دقيقة في أيدي الفلاسفة والكتاب الذين يترأون بالمقاصد
والخرافات، ويستخدمها الساسة للكتابة بخصوصهم وهي حينئذ تكون لهما خالصاً (٢٢)
(وكتاب الأوصاف الضعفة يعتمدون في كتابهم على ملكات كثيرة قد يناقش
بعضها بعضها وقد لا يجتمع فيها ملكتان لكتاب واحد، فنحن من يعتمد على ملكة
السخره وهو يحتاج إلى الذكاء وإدراك الفروق، وقد يصحبه شيء من الجدة والبراعة،
وغيره من يعتمد على الدعاية وهو يحتاج إلى مزج في الطهيبة مرجعه في الثالب
إلى المزاج، لا إلى الدرس والتعليم، وغيره من يعتمد على المنطق، وغيره
مخلق يمشى من جعل بتفسير عظماء الأشياء، وقد يستعمل الضحك في جلائل
الخطوب، وغيره من يعتمد على العطف، وهو يرضى الإنسان من نقائص الناس
وضمكه كما يرضى الولد الشفيق من جعل ولده الصخر، وغير هذه الملكات
وأعلام ملكة السخر بها زجها المطف، وهي صعبة لا تقل في اقتدارها على
تجميل الحياة، وتثقيف النفوس والأذواق من عبقرية الفلاسفة، وعبقرية

الشمس والقطيعين (٢٣).

إن الأدب الجاد يميل عليه أن لا يسهو ويرتقى لأن موضوعه دسم ،
وقائه مؤثمة لدى الناس ، وأساليبه واضحة معقدة ، ولكن الأدب الفكه في حاجة إلى
مناواة وصارسة ، وقدرات خاصة ، نفسية وجسمية وذاتية وروحية ، لا يؤهلها
حقها أولا يحصل عليها إلا القلة القليلة من الأديباء (وأنت حين تجد قد لا يشق
عليك أن تحلق ، ولكنك حين تجتمع إلى الفكاكة لا يعود من السهل أن تحافظ
على الاستواء الواجب وأن تتجلى الهبوطية وتجنب الإعاقة ، وتكبح مواطنك ،
وترضى المنان لمفلك ، وأن تشج الجمال في موضوعك ، لتعد نقصه ، وتسلا
فراقه ، وتموض نفسه ، ومن هنا قالوا ، إن غاية الفكاكة هي أقصى ما هو
مقدور للإنسان ، يحثون بذلك التحرر من تأثير المواطن العنيفة ، والقدرة على
التأمل في سكون وأطمئنان والنظر إلى ما يقع ، لا إلى القدر أو العجز أو
الافتقار ، ومنع الحماقات والصغافات والتناقضات ابتسامة رضية ، لا قيرة متحدرة
تكبح جماح الغضب عند شهوده . لثم الإنسان أو سماتته (٢٤)

(٢٣) ساعات بين الكتب ، العقد : صفحة ١٥٢ ، ١٥٣ الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٨

طبع مكتبة النهضة المصرية .

(٢٤) حصاد الشمس : إبراهيم عبد القادر المازني ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٥ مطبعة دار الشمس

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩ .

الكتاب الثاني

الكتاب الأول المأخوذ

أبي غانم الجاحظ؟ لم يذكر ذلك
أبي غانم الجاحظ؟ لم يذكر ذلك
(مولده ووفاته بالهجرة)

الفصل الأول

حياته وأدبه

أسمه: عمرو بن بحر بن محبوب الكاظمي - ولقبه: الجاحظ والدمقي (١) لبروز صوته
وصيته: أبو عثمان (٢).

كان قصير القامة، صغير الرأس، دقيق المعنى، صغير الأذن، أسود اللون
جامع للميلين، مشوه الخلقة، ما جعل المتوكل يصرفه من تأديب ولده حين رآه
يأطعمه عشرة آلاف درهم (٣).

ولد بالهجرة من أسرة متواضعة في منبج، وفي طفولته الاجتماعية فلم
يحفل أحد بمولده، ولم تعرف سنة ميلاده، وتضاربت فيها الآراء، وإن كانت على
وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة.

أما أبوه فلا نعرف عنه شيئا إلا اسمه، وإن كان ذلك يؤكد لنا أنه لم يكن
من طبقة الغنى ولا من غوسطهم كما يدلنا على أنه مات قبل أن يضيغ ابنه
الجاحظ ويذبح صوته ولا للحقبة ثمة من شهرته.

وأما أمه فلا نعرف عنها إلا أنها كانت فقيرة، رقيقة الحال وكانت تلتقي
عليه وهو صغير ما اضطره لكسب قوته، ومواجهة أهله الحياة مكرها، فباع الخبز
والسمك بسيحان في صباه (٤)، وكان يشتغل نوافه في التردد على الكتاب - وسيلة
تعلم الطبقة الفقيرة في عصره - كما كان يتردد على حلقات المجذبين التي يجتمعون
أهلها الفقراء في مجتمعه، إن أرادوا الحصول على قصص من التلمس وكثيرا ما

(١) معجم الأدباء: ياقوت ج ١٦ ص ٢٥.

(٢) تاريخ بغداد المجلد ١٢ ص ٢١٢ الخطيب الهنداوي نظمته السناد سنة ١٩٣١

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف - الأيمن ص ١٢ الجزء الأول ص ٩٢ والقصص من الباش
وهو كتاب ثمرات الأوراق في المعاصرات لابن حجة العمري.

(٤) معجم الأدباء: ياقوت: أحمد رفاعي بك مطبوعات دار التأمين الجزء ١٢ ص ٧٤ /

كان يذهب الى المرشد يتلقى اللغة والفصاحة مشافهة من الأعراب . لقد تلمذ
 الجاحظ على أساتذة كانوا زينة الدنيا ، وحررة في جبهين الدولة المصباسية ، منهم
 الأصمى الذى كان يحفظ ثلث اللغة . وأبو عبيدة ، الذى (لم يكن في الأرض خارجا)
 ولا جاحظ اعلم بجميع العلوم منه (٥) . وأبو زيد الأنصاري ، وقد قيل عنه ومن سابقه ، إن
 هؤلاء الثلاثة كانوا في عصرهم (أثمة الناس في اللغة والشعر وطعم العرب ، لم يوقلهم
 ولا يمدحهم مثلهم ، عنهم أخذ جل ما في أيدي الناس من هذا العلم ، بل كله (٦) .
 والأعشى ، وكان من أعلم الناس بالنحو والتصرف . وصالح بن جندب اللخمي ، وقصد
 أدرك التميميين وكلامه مستفاد في الحكمة والنظم . إبراهيم بن سيار البلخي ، وكان نسي
 جملة ما يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة والنزير وتفسيرها عدا الشعر والأدب والضريب ،
 وصفه الجاحظ بقوله (إن الأوايل يقولون في كل ألف سنة رجل لا يظهر له فإن كان ذلك
 صحيحا فهو أبو إسحاق النظم (١) قال إنه ما رأى أحدا أعلم بالكلم والفقه منه) (٧) . وموسى
 بن سيار الأسدي ، الذى قال عنه الجاحظ (إنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته
 بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يبدل في مجلده المشهور به فيقصد العرب
 من بينه والفرس من يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم
 يحول ويشرح إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان
 إذا التقيا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضم على صاحبتها (٨) .
 وإذا نهل الجاحظ من معين هؤلاء ، واغترف من فيض من عاصره ^{وسمى} عيسى بن عيسى
 غير هؤلاء ، فلا تخجيب أن يتسم عصره وأن يمدحها من يمدح ، على وجهه وأدبه وأن يتقاسم

(٥) البيان والتهيين ، الجاحظ : صفحة ٢٤٧

(٦) أمراء البيان : محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٢١٧

(٧) المرجع السابق صفحة ٢١٧

(٨) البيان والتهيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٦ (في الأعلام ٧٢/٨) : (صفحة ٦٨) (١) في (الأعلام للزركلي ٢٦/١) : " فإنه مع ذلك قارئ إسناد من أئمة " وفيه البشارة بفرع

هذا الأسب وذلك العلم قسوة للمعتدين وضارة للمساكين .

لقد كان فاتحة الخير للجاحظ . التقاؤه بموسى بن عمران الذى كان له الفضل فسمى
عقد الصلة بينه وبين إبراهيم بن سيار النظمي إلمام المحترلة فلا زمه ، وتبع سلكه فسمى
الاعتزال ، وشهر باعتزاله حتى صار زعيما لطائفة الجاحظية التى نسبت إليه وتسمت
باسمه .

وقد كان الاعتزال حينئذ مذهب الدولة الرسسى ، وكان مذهب المأمون الذى أذاع في
المناسى أن يكتبوا في الإحاطة وأن تحمل إليه كتبهم ، فكتب الجاحظ ، وحملت كتبه إلى
الخليفة فنالت الكثيرة عنده ، ودعا له ، وحالسه ، واستمع إليه ، وأطرى كتبه ، وسأله أن
يكتب له في الحبا سية ، والاحتجاج لما فكتب ، وصدره ديوان الرسائل فتخوف الكتاب
من توليته هذا المنصب ، وأشفقوا أن يكون ذلك سببا في ضياع هيتهم ، وسفوط
هيتهم ، وكان سهل ابن هارون يقول : (إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب)^(٩)
غير أنه لم يكت به إلا ثلاثة أيام ثم إنه استعفى فأعفى .

وقد اتصل الجاحظ بها بن الزيات وزير المعتصم وأهداه كتاب الحيوان فأجازه خمسة
آلاف دينار وأهدى كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه خمسة آلاف
دينار ، وأهدى كتاب النزع والنخيل إلى إبراهيم بن الحساس الصولي فمعه خمسة آلاف
دينار ، كما قدم للفتح بن خاقان كتاب مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، فأجرى عليه
راتبا شهريا من خزانة الدولة فصار الجاحظ غنيا واعتبر نفسه بذلك صاحب صهيبة لا تحلج
إلى تجديد وتسميد)^(١٠)

(٩) مجمع الأدباء . يا قوتج ١٦ ص ٧٩ .

(١٠) المرجع المذكور ص ١٠٦ .

وقد كان الجاحظ واسع الثقافة ، غزير العلم ، خبيراً بالناس وأحوالهم ، لا يقتضي
بالصرفة ، وإنما يتعداها إلى التجربة والاستبطاء ، ولم يكتب بالكتب يأخذ منها ،
والأشأ ثمة يرتشف من علومهم ، بل كان يخشى العري يتلف اللغة مشافة من الأعراب
وحضر مجالس الشعراء والأدباء ، وسمع أشرارهم وسحاررائهم ، ويأكل ويوزان ويقارن
وكان له في النقاش والجدل والمناظرة باع طويل ، اكتسبه من أئمة الاعتزال ، وكانت قدمه
تجربه دائماً إلى حلقات الإخوة ريين والقصاصين والمتكلمين الآخرين مما
يصادف موى في نفسه ، وراحة لقلبه .

ولقد استحق عن جدارة ما قاله عنه أبو هفان (لم يزل يقطر من أحبه الكتب والمسلم
أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قرائنه كأنما ما كان ، حتى
أنه كان يكرى دكاكين الوراقين ، فيبيت فيها للنظر في الكتب) (١١) (ولا بحسب أحدنا
وصف الكتب وتحدث عنها ، بمثل ما تحدث به هو عنها في تلك الفصول الرائعة التي صدر
بها كتابه الحيوان . . . هذا الحب القديم وهذه الملاقة الشديدة من المواد القوية
التي جعلته يكثر صناعة التأليف ويستغرق فيها ، ويوجه نشاطه كله إليها) (١٢) كما ألفه هذا
من الكتب جاز بها المسممين بعد المائة ، وربما أكثر تأليفه لامتداد عمره ، ولقضاء شغلا
طويلا من حياته مريضا فاضطر إلى ملازمة بيته ، وقطع ترائنه بالكتابه والتأليف ، وبمسا
كان سوء منظره سببا في انصراف الناس عنه فحنى بصناعة الكتب ، ليصرفوا أن وراء هذا
الوجه المشوه نفعا جميلة وروحاً فكيرة ، وذهناً وقادراً .

خطا الجاحظ بالكتابة الفنية خطوة جديدة نحو التمهيد من جميع الموضوعات في خلاصة
وبأن عذب ، واتخذ من الحياة والمجتمع والنفس البشرية موضوعاً لأدبه ، واعتبر بالألفاظ
والمعاني مما دون أن يجتهد أحدها على الآخر ، فهو بحق معلم العقل والأدب ، يضع
ألم ناظره إيصال المعاني إلى قارئه واضحة جليلة ، في ثوب مناسب من الألفاظ فالشريف

(١١) المرجع المذكور ص ٧٥ .

(١٢) الجاحظ حياته وآثاره ، طه العاجري ص ١٦٠ ط دار المعارف سنة ١٩٦٢

للشرفاء والخسيس للخيوسه ^{بوق} دون ^{بوق} الحق أو بهجرجة نقه كان يكره العناية الفائقة
 باللفظ التي تجعل الكاتب (عبدا للجمجمة من الألفاظ يجر إليها الصالح ويثدها
 ندا) (١٣) وإنما يمشق الأدباء الدقيق لمعانيه ويعتق معه الوصف الحسن لمعانيه
 ما دلا من المجاز ما استطاع، فإن عمد إلى شيء منه فإنما للإيضاح، وظهور الصورة
 بطريقة تبرزها، فعزوفه من الخيال لأنه يجعل في نظري في مظهرها وباللغات تبصده
 من الواقع ومن حقيقة المعنى المراد. لذلك انتهى من التشبهات ما وضع في الأنعام و
 قرب إلى الآذان، وتعامل مع الأذهان. فاصف كتبه بالواقعية التي ترونها كما
 هي دون تنويه أو تستر، فهو يسي الأنبياء بمسمياتها، دون لجوء إلى السرير
 والكتابة، ويصح بذكر السموات والسموات في غير مؤنة ولا تستر، يرى أن ذلك أكثر
 إيضاحا للصورة، ويبرزها للفكرة، ونشأ مع الواقعية (ولكن واقعية الجاحظ لا تقف عند
 تلك التفصيلات الدقيقة، والمظهر المعينة، بل تستند إلى تحليل نفسي واجتماعي
 وتصوير لبعض الأحاسيس والمواقف) (١٤) وهذا الأدب الواقعي أعطانا فكرة واضحة عن
 عصره ومجتمعه، بمعانيه وسائر مظاهره وتقاليد، بل بالفاظه، فعلى كلام المصوم
 والمولدين بما فيه من لعن وخطأ لنقل إلينا الواقع بكل ما فيه، بل تعتمد ذلك تمسدا
 يقول: (فإن وجدت في هذا الكتاب لنا، أو كلاما غير محرب، ولفظا معدولا حسن
 جمته، فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يخفى هذا الباب، ويخرج جسمه
 من حده) (١٥). فحريته الأدبية التي أيا حث له ذكر السموات، والإفصاح عنها
 بصريح أسماؤها دفعته إلى حرية مثلها في اللغة، ولحق أنه عاش الحرية بأجلى
 (١٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوق ص ١٦٦ الطبعة الثالثة مطبعة دار
 المعارف.
 (١٤) فن القصص في كتاب الخلاء للجاحظ، ص ١٤٠ المارك الطبعة الثانية دار الفكر
 بدمشق سنة ١٩٦٥، ص ٢٧.
 (١٥) كتاب الخلاء، الجاحظ، تحقيق الجاحظ، ولما مرى ص ٧٨ الجزء الأول.

معانيها ، ومختلف أوضاعها ، وشاعت في سائر مناحي حياتنا واجتماعنا ، فكانت له حرية في العلم ، وحرية في الدين ، وحرية في اللغة ، وحرية في الأدب ، وحرية في السلوك .

حرية في العلم : جعلته يستند إلى العقل ، ويتجه إلى البحث والتقصي ، والتجريبية والاستدلال ، دون اعتناؤه على الآراء السابقة ، واتجاهات السابقين ، قبل أن يعرضها على عقله ليحصيها ، ويوافق عليها . فهو يثقان وينقد ، وينفي وينبت حتى ولو كانت هذه الآراء : لتشيح فلاسفة الإغريق وفكرهم أرسطو ، أو لشيوخه النظام .

حرية في الدين : نعمته إلى اعتناق مذهب المعتزلة ، المرتكز على التفكير الحسري والعقل والمنطق ، والاستدلال والاستنتاج ، وعدم الأخذ بالظاهر دون نظمها إلى الحلل والمسببات ، وأبعدته من التزم والتطبع ، وعققت له التوازن بين الدين والدنيا .

حرية في اللغة : حيث فضل السهولة والبساطة ، وأبعد من الومر والتأخر ، وأرضى حكاية كلام الأعراب حين يكون ذلك الحق . وترك الإعراب إن وجد هذا أولى وأفضل ، واستعمال ألفاظ السوقة والمعولم حتى يستلهم الحرف لك ، إنما الخريف للشريف والسخيف للسخيف .

حرية في الأدب : حبيبت إليه الانطلاق من قيود الهديج ، ومحناته اللفظية والأسلوبية وعدم الالتزام بطرق السابقين ، أو بطريقة خاصة في الكتابة ، كما أصبحت أطمح الطريق في اختيار موضوعاته كما يحلو له ، وفي الكتابة فيها بالطريقة التي تروق له ، وبالترتيب الذي يراه . فتنقل من غرض إلى غرض ، ويخط الجذ بالدمل ، ويأتي بسين الجمل القصار والجمل الطوال ، ومن يذكر السموات والسموات دون تستر أو مواربة ، وينقد ما لا يروق من الشعر والفن ، ولو أجمع الناس على استعماله .

وحرية من السلوك ، أبعدته عن قيود الزواج ، والالتزام بمسئولياته ، ونفرتهم

من الكتابة الديوانية ومطالباتها ، وتبعته من التزمت والركانة ، واتخاذ الهيئة
الوقرة ^(١٦) ، وألست العجاء ، وقربته من مجالس الأئس والصادقة ، واللغو والمجون

وأهم ظاهرة في أدبه ، بل في كلامه وسلوكه وتفكيره ، وفي حياته العاطفية
والخاصة ، ما انتزعه من روح فكاهة مرحة ، طابعتها سخرته ضخمها بالدعابة ، وتصل
إلى التذكير ، وتغني الجد بالهزل ، وتخفف لمباه الحياة ، وتقل الألم ، بالمرح
والضحك ، وإذا ابتزاده الغربة ، وأفكاره المصيبة ، وسخراته اللاذعة تحجب
إليها الحياة ، وتدفقنا إلى صاحبته وفراة كنه الشقة التي تنقل قارئنا (من باب
إلى باب ومن فصل إلى فصل) (١٦) فلا يمل ولا يكسل .

مرض الجاحظ في سنى حياته الأخيرة بالفالج والنقرس حتى لوطن الدباب
بجانبه لآلمه . وحتى لو غرزت في جسمه السال لما أحس كما قال هو عن
نفسه ومات رحمه الله والكتاب على صدره (ثلثة مجلدات من الكتب وقصص
عليه) (١٧) وقد اختلفت الآراء في عام وفاته كما اختلفت من قبل في سنة ميلاده .

وإن كانت وفاته على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن الثالث الهجري كما
أن ميلاده رغم اختلافهم فيه فإنه على وجه التحقيق في العقد السادس من القرن
الثاني الهجري . (المشهور أنه ولادة سنة ١٦٢ - وأنه وفاة سنة ٢٥٥)

وصفة القول : أن الجاحظ كان أمة ، وكان دائرة محارف لانزال حتى اليوم
تتلمذ على تراثه ، وتتمثل من تبحر أدبه ، وفير علمه وتفتح النفس والروح برواية
فكاهته ، والتحدث عن سخراته ، وتندر أن نجد أدبها أو بلحا في الأدب

(١٦) الحيوان ، الجاحظ الجزء الثالث ص ٧ .

(١٧) الأعلام ، التزكي الجزء الخامس الطبعة ٢ ص ٢٢٩ .

(١٨) قال أهر القنداء في البداية والنهاية الجزء ١١ ص ٧ أنه مات سنة ٢٥٥

قال ابن الأثير في الكامل الجزء ٥ ص ٢٥١ أنه مات سنة ٢٥٥

قال السيوطي في بغية الوعاة ٢ ص ٢٢٨ أنه مات في المحرم ٢٥٥ وقد جاوز التسعين

(١) في القاموس : « وهو وقور » .

أو نقده أو نكسها ، أو صاحب مذهب ديني ، أو فكري ، إلا وفي كتبه
مقتضيات لمن الجاحظ ، وامتنعنا بآرائه ، ونقل عنه . ويكفي ذلك دليلا على سببه
وفضله ، وصلاحية أسلوبه وفكره ، وعلى أن اسمه سيظل باقيا على امتداد الأجيال
خالدا ما تحاقب الليل والنهار .

رحم الله أبا عثمان وحزاه عما قسم لأمته وللإسلام وللعالم العربي وللنكسر
الإنساني من خدمات جليلة أكثر جزاء .

الفصل الثاني

عوامل نبوة في السخرية

السخرية فن يحتاج إلى ملكة واستعداد، وحمد وإحسان وقدرة خاصة تمكن على الابتداع والابتكار، فليس كل شخص قادر عليها، ولا مستطاعة منه، وليس كل من يكثر ترك سخريته في نفوس سامعيه نشاطاً وفتنة، وفي تفاهيم ضحكيات وقهقهات، ويترك في الوقت نفسه في قلب السخرية ألماً مضاء، وفضا قائملاً، وإنما يقدر عليها، ويوفيقها قاصداً الشخص السرج، الفكك المجلس الحلو الحديث البارع التصدير، السريع الملاحظة، الدقيق المتابعة الحاضر البديهة في اختيار اللفظ الموجز، والأسلوب السهل، والكلمات المبهمة، وحمد إلى التوضيح والتلخيص، والكتابة والهرز، واللفتة والإشارة، فلا يكاد ينتهي من كلفه حسني يستلحق الجميع على أفتانهم ضحكاً وسخرية، مرددين كلامه، حاضنون بمباراته، معجبين بتجسيمه المعاني، وجمعه المتناقض، وبه الشباك حول نفسه، واقتضاضها والمبت بها، وتحويلها هزأة، وسخفاً مزموها.

ومقدار ما يكون المعنى عميقاً وعالماً مستتراً، يحتاج إلى فكر وفؤوس، وليس في مثال ما يفتن السخرى طرائقه وأساليبه، حتى لنخال أن الكلام ملقى على طهيته

الذي ذكره في
الكتاب

لا سخرية فيه ولا تنكح يكون نجاح السخرية براعتها ، حين تصل إلى الأذهان ، وتلتصق
 في العقول وبين ما يقصده المتحدث ، وما يخفيه وراء الألفاظ والمعاني السطحية .
 والجاحظ - أديب الصرية - هو الذي خلق من السخرية فناً مستوياً القامة ، وطيد
 الأركان ، ساقى البنيان ، بقدرته على التصرف في فنونها ، وتنويع أشكالها وضروبها ،
 تساعده في ذلك قريحته الوفاء ، وعقليته اللامعة ، وما وهبه الله من طبيعة ساخرة
 تنفخ في الصغير روحاً فينمو ويكبر ، وتضبط بيد ما على هامة العظيم فيحط ويتضع ،
 يوازره في تحقيق الألوان الجديدة من هذا الفن ، طبيعة مرحة ، وتصرفات لبقة ، وثقافة
 واسعة ، وخلقة مشوهة ، وترعى بالحياة ، واختلاط بالناس ، ومداخلة لهم ،
 وتغلغل إلى أغوار نفوسهم مما استترت بواطنهم ، وتباينت طبقاتهم ، واختلقت درجاتهم
 ثم ما عرف عنه من حب للمزاح ، وقلة الكراث بالتقاليد والعادات ، وما تواضع عليه
 الناس ، وأخذوا أنفسهم باستترائه ، إلى ما شاع في عصره من تضارب فكري يصل
 أحياناً إلى التزق والحق ، واستبصار دنيى يدفع في كثير من حالاته إلى الفسوق والجبن
 والخلاعة والزندقة ، هذا إلى أوضاع اجتماعية شبيهة أحياناً بالتباين من شئ يصل
 إلى ثروات قارون إلى فقر مدقع يملك له الناس مراً وجوعاً ، إلى تفكك متر ، وتحيز طائفتي
 محبة ، وانتشار الظرف والجبن ، والتطفل والنفع ، وظهور طبقات البخل والفضوليين
 والحمقى والمتطهين والشار والموسوسين والمتعالمين (وسط سارت فيه الخفة والتكلم
 وجه الميل إلى العبث والتندر ومن هنا نشأ ميله الجزئى إلى المزاح شرطة ألا
يخرج هذا المزاح من حدوده ، وكان على الجاحظ من جهة ثانية أن يقام
 أثناء مكثه في بغداد تباراً عاماً من الجد والكاية والصرامة ، وهذا ما يهمل
 إشارات المدينة إلى نواكض الضحك (١) فتكمن هذا الفن من الجاحظ ، وتكمن

(١) أدب العرب ، مارون عبود ص ٤٠٢ دار الثقافة بيروت عام ١٩٦٠ .

الجاحظ منه ، فأنثر على أدبه في شتى اتجاهاته ، حتى أننا لا نجد له كتابا - على
كثرة كتبه - إلا وقد حوى النادرة والطرفة ، والتكم والسخرية ، بل لقد أنسرد
للسخرية بعض كتبه وسائله ، وكتاب الهجاء ، ورسالة الترتيب والتدوير ، بل إن عناوين
كتبه ووسائله تحمل التكم وتلهم رداء السخرى كرسالة فوط جميل الكدى ورسالة
العمل والمزور والمرجان والبرصان ...

كانت السخرية نقفا متفرقة ، فجاء الأسلوب ، بدائية الفكرة ، خشنة الطمس ، تعتمد
على الحكاية والسرد ، إلى أن أتى الجاحظ فجمع أوايد ما ، ولم شتات ما ، ووضع
لها الأصول والقواعد ، فاستوت على سوقنا ، فأنما راقها ، مستقل الشخصية ، واضح المعالم
وغرضا بخصه الأديب بقصيدة أو رسالة أو كتاب ، ما يشهد بوجاهة الجاحظ وحدت فكره
واقفانه لفنه الأنور لديه ، الذي كونه فيه عدة عوامل خلقت منه أستاذ السخرية
دون منازع .

١- أصله وركائبه

(٢) (كان جده الجاحظ أسود ، يقال له فزارة ، وكان جمالا لمعروين قلع الكائن)
وإذا كان جمالا فمن شأنه سعادة - أن تدور بينه وبين بنته أحداث مرحية ،
وطرف ووادره تخفف من متاعب العمل ، وضاء السير ، وأن تشب الحارات
والمنازعات التي ينطلق فيها اللسان بالنتم والهجاء تارة ، والسخرية والتكم تارة
أخرى .

ولم يحفظ التاريخ شيئا عن محبوب ، ولا عن بحر حتى تمسك عامل الرواية نفسى
سخريات الجاحظ ، وإن كنت أرى أن روح الخفة والضحك قد سرت إليهما من الجد فزارة ،
ومن طبعتهما الاجتماعية المحدودة الدخول ، ومن الهيئة العامة التي طائنا فيها .

(٢) مجمع الأدباء ، ياقوت ، الجزء ١٦ صفحة ٧٤ .

(١) هذا ما رواه الجاحظ أنه سبب الرضا الجاحظ ، وفي هذا يذكر أنه سبب
عنه الجاحظ كانت طبعه وفطرته وطبعه

على أن ما قدمته من سخريات محتطة من الجد قزارة ، ومن سخرية أم الجاحظ ، ومن طبقة والده وأجداده التي تتخسر فيها السخيرة عادة ، لا يتضح ليلا قاطعا على أنها أسرة عشت السخيرة ، ومالت إليها ، فليست عندنا أدلة على سخريات قزارة ولا محسوب ولا بحر ، وإنما هي ظنون واحتمالات وليست عندنا أدلة على توهم أم الجاحظ ، وإنما هي حادثة فردية لا تتضح ليلا على أنها مظهر من مظاهر السخيرة ، كما أن طبقتهم الدينية ليست بمرهنة على توهم في فن السخرية ، وإنما التائب عنها عادة واجتماعيا ونفسيا ، أن تكون مثل هذه الأسرة التي توفرت فيها هذه الأمور سخرية متبذرة .

والذي يجعل ذلك غالبا على الذهن ، وربما من الواقع ، أن السخيرة التي شربها الجاحظ ، وشاعت عنده ، وانتقلت إليها عبر القرون ، وتداولتها الألسنة في كل زمان ومكان ، لابد أن تكون وليدة عدة عوامل ، تأزرت وتضافرت ، حتى خرجت لنا الجاحظ الساخر ، ولابد أن يكون للورثة والجد والأب والأُم دخل فيها كبير ، إذ هم المنبع والأصل ، والمفلق ، والمعلم الأول الذي يسرى تملحه في نفس الطفل عن طريق التقليد والتشبيه والمحاكاة ، فلا بد أن تكون هذه الورثة قد أثرت في الجاحظ ، وطبعته على السخيرة ، وجعلتها تتجلى بدماه ، وتنفخ على لسانه حتى وصل بها إلى البراءة التي نراها في كتابه البغلاء ، وفي رسالة الترمج والتدوير .

٢- دماة خلقته ، وقبح صيغته .

كان الجاحظ قصيرا القامة ، صغير الرأس ، دقيق العنق ، صغير الأذنين أسود اللون ، جاحظ العينين ، مشوه الخلق ، مستهجن النظر ، مما جعل المتوكل يصرفه من تأديب أولاده بعد أن دعاه لذلك ، وأعطاه عشرة آلاف درهم ^(١) قال فيه أحمد بن سلامة الكتبي :

(١) وفیات الأعيان ، ابن خلکان ج ٤ ص ٢٨٨ ، المستطرف في كل فن مستظرف : الأبهشي

ج ١ ص ٩٢ ، هامش المستظرف وهو كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن حجر العمري وتاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان نقله إلى العربية : عبد الحليم النجار طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٢ ص ١٠٦

لويش الخنزير مسخاً ثانياً ما كان إلا دون فتح الجاحظ (٥)

رجل ينوب عن الجحيم بوجهه وهو القذى في كل طرف لاحظ

يعزى هو عن نفسه (ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيتهما في المسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أأزحهما، فقلت: انزلي كلتي معنا قالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا. وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقلت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، ففقت معها، إلى أن أتتني السي صانع يهودي فقال له: مثل هذا. وانصرفت فسللت الصانع من ثوبها - فقال: إني سألت إلى سي. وأمرني أن أنقل لها عليه صورة شيطان، فقلت: يا سيدي ما رأيته الشيطان! فأتت بك، وقالت: ما سمعت) (٦).

(إن لمظهر الإنسان وفؤاده أثر في شخصيته، فالرجل الصريح الجسم الحسن القامة، قد لا يحتاج في إظهار شخصيته، والتأثير على غيره، إلى ما يحتاجه الشخص النحيل الجسم، المشوه الخلقة، فبينما نجد الأول طبعاً... إن نجد الثاني... يتخذ أحياناً وسائل تمهانية أو تمهانية... وقد يضطر إلى المداعبة في حديثه، فالإنسان حينما يحسن تقصير من الناحية الجسمية مثلاً، تراه يعمل على أن يمد هذا الفراغ، ويكمل ذلك التقصير من الناحية العقلية أو الخلقية حتى يظهر شخصيته للملا... والجاحظ كان أديب العلماء، وحالم الأدباء، وما لقب بهذا اللقب الذي كان

مهبطاً إليه إلا لأنه كان جاحظ المينين بارزهما، (بسم الخلق) (٧) وحجوز المينين

دلالة على أن صاحبهما وقع مبتدأ (٨).

(٥) الجاحظ، جوف غريب ص ٢٠

(٦) أمراء البيان، محمد كرد علي ج ٢ ص ٤٦٤، ٤٦٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة

وانتشر سنة ١٩٢٧

(٧) في علم النفس، محمد إبراهيم ج ٣ ص ٣٨٩، ٣٩٠ ط ١ المطبعة المصرية عام ١٩٣٤

(٨) أخبار الحفني والمفلقين، ابن الجوزي ص ٢٨ ط المكتب التجاري للطباعة والنشر

والتوزيع بيروت -

فالدعوى غالباً ما يستعجز من قبح خلقته ، وشاعرة صفتها بالعلم والأدب ، بعد هذا خلقته
 ويستر نقمته ، وبالروح المرحية الفكاهة ، يخفف بها بعض ما يضطر في صدره ، ويتقبل
 بها ما يقال عنه في هدوء ، ورضا ، ويوطن نفسه على ذلك ، ويعدّها لسامع الكثير منسه
 ويذكر بها على الجلد ، وقوة التحمل ، ولا عاشر مثقلاً بالحياة ، ، وربما بها ، كما أن عليه
 أن يمد نفسه لمقابلة الذي يقال عنه ، أو يمكن أن يقال ، يملأ حله ، وتكم مسره
 يحسن الموضع ، ويلو عنان المسخرة ، فترتفع إلى قائلها ، محدثة المزج المضاعف ، والتمسك
 القاتل ، فتصير أحدى وثمة الناس ، كما أن مرحة ، وخفة روحه ، يظهر أنه بعدم الاكترات
 كذا يقال عنه ، والاستخفاف به ، حتى إنه لمسخر من نفسه ، ومن موهبه الجسمية ، وكان
 لسان حاله يقول لا يبدى لا بيد عمره ، وكأنه يرى أن سخريته من نفسه تخرس الألسن
 وتخلق الأتواء لأن الساخر منه لن يجد ما يقوله بعد ما قاله من دمائه ونوخته
 وقت يهخر من قبحته هيئتهم ليبين أن هناك من فاته في القبح .

وأدينا الجاحظ المطبوع على الفكاهة الساخرة ، المشهور ببرامته في الاستدلال
 والتعليل - حتى إنه ليحمل للنشء وضه - قادر على أن يجعل الجميل الوهم قزوا
 والبدر النحر قطعة من الفحم ، وفي مكتته بلا ذع سخرياته أن يخرس الألسنة اللبازنة
 ويخيف من تسول له نفسه أن يناله بلفظ جاح ، أو بإهانة هازلة .

(قيل لأبي هفان : لم لا تهجوا الجاحظ ، وقد تدّ لك وأخذ يختفك ؟ فقال :
 أمثلني يخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أربعة أنف لم أعت إلا بالصين شهرة ، ولو
 قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت في ألف سنة) (٩٦) ، ولقد وضع رسالة " الترهيب مسج
 والتدوير " يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، فطبقت شهرتها الآفاق ، واستمرت
 نموذجاً للمسخرية اللاذمة على مر الأيام ، وكر الأجيال ، ولو أنه انتفى فيها ناحية السب
 الصريح ، والهجاء المكشوف ، لما ظل لها هذا الأثر القوي ، ولما كتب لها البقاء
 والخلود .

والتاريخ يروى لنا عن كثيرين من سلبوا صحابة الوجه ، وجمال الخلقة ، وخصوا
 المهرج الفككة ، والطبيعة الساخرة ، فتشج فلاسفة الإغريق سقراط ، كان (قبسج
 المنظره ، فهو قصير بدني دسم ، بارز الصن ، كبير الأنف في قبح ، واسع الفم ، بالي
 الثياب) (١٠) ، (مشوه الخلق ، جاحظ الصن ، ضخم المنقش) (١١) وكان التذكّر
 من جملة أساليبه في تقرير فلسفته .

وبشار بن برد كان أعمى مشوه الوجه من أثر جدرى أصابه فصار قبح المنظر (١٢) وقد
 ضرب المثلد مقبحه وقبح الجاحظ ، قال مخلد بن علي السلافي في حياء ابن العدي ،
 رأيته لا تحب الود الا إذا هو كان من عصب وحلده
 أراني الله وحيدك جاحظيا
 وعينك عين بنار بن ببرد (١٣)
 وكثيرا ما عبر بشار الناس بعضي قلوبهم ولين كانت لهم عين غريان ، وقد جاء رجل يسأله
 من مكانه فوصفه له ، فلم يستطع معرفته ، فقاد به بنار إليه وهو يشد ساخره ،
 أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم
 وأبو المعينا ، كان أعمى ضربا ولم يحقه ذلك من شدة الخلق ، والسخرية مسن
 الطريق ، وإن كانوا من أقرباء الخليفة وأحواله .

وأبو الشفق مروان بن محمد كان مولى لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وكان
 قبح الشكل خلق الثياب . يقول عنه المرزبانى (أنه كان عظيم الأنف ، أهيت المنقش ،
 مكر المنظر) (١٤) . ويقول عنه ابن عبد ربه (كان أديبا ظريفا محارفا ، وكان صعلوكا
 مشهورا بالناس ، وقد لنم بيته في أطمار مسحوقه) (١٥) . وكان مع ذلك ساخر لا تدع الصخرية .
 (١) قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ص ١١ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩

- (١١) الجاحظ ، محمد عطية الإبراشي ص ٦ مطبعة تدمر مصر .
 (١٢) المنتخب من أدب العرب ، جمع طه حسين وآخرين ج ٢ ص ١٨٢ ط دار الكتب ١٩٢١
 (١٣) الجاحظ ، جون فريب ص ٢٠ الموسوعة في الأدب العربي ، دار الثقافة ط ١٩٧١
 (١٤) معجم النصارى ، المرزبانى صفحة ٢١٧ .
 (١٥) للمقد الفريد ، ابن عبد ربه ، الجزء السادس من صفحة ٢١٥ طبعة لجنة التأليف عام ١٩٤٩

وأبو دلالة كان أسود اللون حبشيا ، وكان عولى لبنى أسد وكان مشهورا بمسحون
المناداة والرج والسخر والإضحاك حتى من نفسه .

وأشعب كان أبوه من ساليك عثمان بن عفان ثم اعتقه فهو من أبناء السبيد ، وكان ندما
إلى الطلمح طفيليا بخيلا قصير القامة ، قبيح الوجه (أنرق أحول أكنف أقرع أفتح ، وكان
لا يمين الرأ ، ولا اللام ، يجعلهما ياء) (١٦) وكان مغرما بالضحك والسخر .

فولتير ومولير ورابليه وهم أشهر من نبع في السخرية في فرنسا ولدت مؤلفاتهم الساخرة
الآفاق كانوا ضامنا ضالا يتكون السخر والاعتلال يقول الأستاذ العقاد عن فولتير إن اسمه
كان مشهورا بصفاته وهزله ، ورجفانه من فرط المصيبة لأقل هياج يعثره . . . وكان
مولما بالهجاء اللاذع والسخر العرلم) (١٧) .

والجاحظ كان يشبهه من رجوه كثيرة فقد (كان فولتير عالما أدبيا ، وفيلسوفنا ساخرنا
وكذلك كان الجاحظ ، وكان فولتير كاتبنا من كتاب الثورة الفرنسية ، كما كان الجاحظ كاتبنا
للمحتركة ، ومهدنا للثورة الأدبية وذلك بتفريه موضوعات الأدب من أذهان العامة ، وكلاهما
كان ممتاز في أسلوبه بالسخرية والفكاهة) (١٨) .

وأعلم المبدع المضروب به المثل في الدطابة والسخرية كان (رتجبا بمعنى الكفة - كما
يقولون - لولا فصاحة لسانه ولولا أنه ولد وعاش في مصر ، ففطر على أخلاق أهلها ، وأخذ
بعبادتهم ، وسائر أساليبهم ، فقد كان خليط المشفرين ، أفسطالاً نف ، محرم المحدثين ،
ألمه الحارصين ، حفيظ شعر الرأس ، أما لحن جلده فأشد من نعمة الدجسوس

(١٦) الآتي في شرح أمالي القالي ، لأبي حنيفة البكري نشره محمد المنيز الهنشي ص ١٥٨ ط ١٩٣٦
ونقل عنه عبد السلام دارون في البخلاء للجاحظ صفحة ٣٧٩ .

(١٧) ساعات بين الكتب : عباس محمود العقاد الطبعة الرابعة ص ٢٦٨ مكتبة النهضة
عام ١٣٨٨ ، ١٩٦٨ .

(١٨) الجاحظ سلسلة تراجم ، أعظم الثقافة العربية ونواحي الفكر الأسلاف : محمد عطية
الإبراهيم مطبعة النهضة مصر .

وهذه العنيز البشرية كان (طويل القامة ، نحيف المود ، سحن الظفر ، قمحى اللون ، ولم يكن حلوا التقاسيم ، جميل الملامح ، وإنما كانت ملامحه لا يتفق بعضها مع بعض ، وكانت عيناه دائما حمراوين تتفتان اللهب ، أما أسنانه فكانت مشفرة غير منتظمة وكانت شفاهه مرتشتين تتلصقان للطعام ، وكان شعره متناثرا ، أما شعر حاجبيه فكان مبهثا ، حتى لا تستطيع أن تجمع شعرة على شعرة ، وكان البشرى أنه الشعر ، إذا ضحك تفرج وجهه من ثمر واسع ، وفمقة عالية ، ولم يكن أنيقا في ملبسه (٢٠) وهو من أصل السحرة .

وهو هؤلاء من عوضهم الله عن جمالهم خفة في الروح ، ولطفا في الطباع ، وحسنة في الأذهان ، وقدرة على السخريه .

ولقد كانت كل هذه الصفات في زميهم الجاحظ ، يستعين بها على مواجهة مجتمعه ويخفف بها حدة ما يؤلم من سخريات الناس فيه ، ويتخذها سوطا يرك به كبد المعتدين والمهلب ظهروا للأكبرين المارقين ، الذين يتدرون على قبيح خلقته ، ويهزأون بشكله وهيبته .

٢- طهيته وقطرته

لقد طبع الجاحظ على الروح والفقاعة ، وخلقت مع روحه الخفة والدعابة ، وسرى في جبلته السخرى سرعان الدم في شرايينه ، يحيل إليه ، ويتمشقه ، ويغترض أحاديثه ، وينشره في كتبه ، خالطاً الجد بالهزل ، ما زجا العنف والصرامة بالسخرية والتهكم . جاعلا لك سهلا إلى استرواح النفس وإحماضها ، وتخفيفها من ثقل الجد وألم الكسد ، فكان له هذا الأدب القادر الذي يمرى في النفوس ، ويعلق بالقلوب ، وتشرب إليه الأفاق .

(١٩) المختار ، عهد العنيز البشرى ج ٢ ص ١٢٦ مطبعة المعارف .

(٢٠) عهد العنيز البشرى ، جمال الدين الرمادى سلسلة أعلام العرب العدد ٢٤ ص ١١٥١

يجد فيه الجاد متعته ، ويجد فيه البازل متعته ، يحبه الشيء لما فيه من تناف ، ومشفقة
الذكي لما فيه من لمحية .

وحسبنا دليلا على براعته في السخرية ، وأنها كانت فيه فطرة وسجية أنه كان يبدأ
الناس بالتهكم منهم ، وأنه كان يسخر من نفسه ويرى سخريات الناس فيه دون فيض أو حنق
قال ، (ما أخجلني أحد مثل امرأتين) (٢١) وقال (ما غلبنى أحد قط إلا رجلا
وامرأة ، أما الرجل ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا برجل قصير ، بطون
كبير الهامة ، طويل اللحية ، ويده مشط مشطها ، فقلت في نفسي ، رجل قصير بطون
أعني ، فاستتره . فقلت ، أيها الشيخ ، لقد قلت فبك شعرا ، فترك المشط من يده
وقال ، قل . فقلت ،

كأنك صخرة في أصل حش
أصاب الحش طش بعد رش

فقال لي : اسمع جواب ما قلت . فقلت ، ذوات . فقال ،

كأنك جندب في ذيل كبش
تكدل هكذا والكبش يعش .

وأما المرأة ، فإني كنت مجتازا في بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمار
فضرطت الحمار ، فقالت إحداهما للأخرى : وى ، حمار الشيخ تضط ، فضاظني قولها
فقلت لها : إنه ما حملتني أنتي قط إلا اضطط . فضربت يدها على كف الأخرى ، وقالت
: كانت أم هذا منه تسمة أشهر في جهنم جهنم (٢٢) . وكما في قصته من اللهاة .

فهو يبدأ بالسخرية من عرته ومن لم يعرفه ، بسبب ومن فهم سبب ، ثم يروى سخريات
الناس منه ويخص بالذكر ما أفضحه وأخجله وظاه ، فالمرح من صميم طبعه ، والسخرية
لا تفارق لسانه ، ولعل ذلك هو السبب الذي حمله على استعفائه من ديوان الرسائل
أيام المأمون ، وجعله لا يطبق المكت فيه أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من كان طبعه السخرية

(٢١) رويت في هذه الرسالة سابقا .

(٢٢) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ج ١٢ ص ٢١٦ مطبعة السعادة علم ١٩٢١ .

بالفحاحة يتحذر عليه أن يجد نفسه تدفعه إلى المنزل وأن يفقد طبيعته بمقتضى
على الإطلاق ، وأن يجد أمامه الموقف الضاحك الساخر ، ويحس لسانه عنه ، وتحسنا
نومنا ، أوجدا ونومنا .

ولأن التمسك عاده ، والسخرية طبيعته ، فإننا لا نجد مولانا من مولاناته المتعددة
 خلا من السخرية ، ونأى من التمسك ، بل إنه خصص للسخرية كتابا برمتها .
 ومن ثم لا الجاحظ يكاد لا يضر شغفه ، لتتابع ابتساماته المرحمة ، وضحكاته المرحضة ،
 وهو بهذا يلتقي مع برنارد شو في فلسفته تلك ، فقد كان يقول ، إذا لم أضحك لسم
 يستطع الناس احتمالي (٢٣) . فكثيرا ما كان يخترع المثل ، ويخلق الأسباب ليمسك بسخر
 فإن لم يجد من يسخر منه ذكر بعض حوادث ساخرة ، أو سخر من نفسه .

واحال الجاحظ كان يسير في أسواق البصرة وفنداك ، يخترع هذا بكلمة ، ويتناول ذلك
 بسخرية ، يضحك من زى هذا ، ويذكر من شكل الآخر ، ولم لم تكن له مكانته في الدولة
 وصلته في العلم والأدب ، لتخيل مجموعات من الشباب تسير في ركابه ، وتصاحبه ألسنتي
 سار ، شتم بفكاهاته ، وتضحك من سخرياته ، وتطرب للضحك وتطليحاته ، ذلك بما جمل
عليه من طبيعة مرحية ، وروح ساخرة ، متهمكة بكل ما يقع تحت حسنها ، ويجول ألام ناظرها
 ما فيه من مزه وبعث من الذوق والعرف .

جميل أبو عثمان على العناية والسخر ، وقلة الاعتناء بالتقاليد والمادات ، والرسم
 الاجتماعية التي يأخذ الناس بها أنفسهم ، ويراعونها فيما بينهم ، يرى فيها قيودا ،
 ويكتف للسخرية ، ولجأفة للفكر الناضج ، والنفس المطلقة ، كما كان يفت التمسك للجمعية
 والمناقبة ، ويحقر التغالي في الآراء العذبية (٢٤) ولا يحفل بسلب خصومه بأثره .

(٢٣) بلاغة الكتاب ، محمد نبيه حجاب ص ٣٠٠ المطبعة الفنية الحديثة .

(٢٤) مصر الأمن ، الدكتور أحمد فريد رفاعي ج ١ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ط دار الكتب

بعضنا من ربيع قدره ، ومع ذلك لم يكن ما جئنا خليعاً ، بل كان لدينا خفياء ، ولو كان قسي
خفياء نقتل ، أو نرى دهنه رقة لا نأمنه خصره ، وجسمه ، والتموانيه ، ولصرهم على إطفاء ناره ،
وإخفاء ذكره ، واللعط من قدره .

وقد كانت خبرته بالبحر والسمك والحيوان والنبات والجمادات ، وكله باد واطلا
 لعلوم خبرته ، وفق حنكه ، وتعدد تجربته ، وكثرة أسفاره ، واستداد صوره من الأسماء
 والعدد التي جمعت السخرية كلها ، والطرز يدنه فبالتجارب خبرته سخرية العاقل الصانع
 والشير العجيب ، والظاهر المدرب .

كان يحسب السخري والفائدة من ألوان الصبغ ، وشدة الضحك ، والإضحاح طريقهما
إلى الإقناع والتدليل ، كما كانت السخري هذه طريقا لنقل القاري من فن إلى فن ، ومن
جيد إلى هزل ، ومن انقراض واكتساب إلى مزج وسرور لنقل النفس على الدرس بعد أن تستعيد
بساطها وتنشوق إلى مداومة القراءة ، كما كانت وسهلت إلى الجدة ، ولطائفه ،
وأسلوبه للتعليم والتفتيح يقبل عليه القاري في سرور وشغاسة ، ويتعلم أدق المسائل
وهو يظن نفسه بالمرح والمعب ، كما تعلم أطفالنا من طريق القصص والأضاحك .
أقبل الباحث على الدنيا ، وأحبها ، وضحك لها ، وتغافل بها ، حتى إنه يضحك
ويسخر ، إيمان مرضه ، وأليم فالحجسه ، يأكل ما يضره ، وفريد طعمه في الضحك
وسيلة للسخر . وقد روي ذلك في قصته مع محفوظ النقاش (١٥) . وسأرى هذه القصة في

كان الجاحظ ملتبساً على الخير، مجهولاً على الإحساس بالواجب (يرى الأشياء) ^{يلتفت}
 كما هي كانت، ثم يراها كما يجب أن تكون، ^{يلتفت} ولا يلاحظ أن يجد في كل شيء نقصاً، ولا يلاحظ
 أن يجد في كل شيء باعثاً على الأسى والأسف، ودافعاً إلى النقد والطمع، فيكون فضله
 ١٥٠ الهجلا، الجاحظ، تحقيق طه العاجري ص ١٢٢، ١٢٤ طبعة دار المعارف، كتاب
 الهجلا، من العوامر والبيان الجزء الثاني ص ٤٤، ٤٦ طبعة دار الكتب عام ١٩٣١

أكثر من رضاه وحرته أم من غرجه (٢١) فلهذه على ذلك التقص بالتمك والسخرية محققا
أمداده في إصلاح الفساد ، وتقيم المسج ، وفي تخفيف آلام نفسه ، وشفا غيظ قلبه ، وفي
إيلام الخصم والتكأة به ، ثم في أجل أقراض حياته وهو المرح والضحك والفكاهة .

وإذا كان بعض الناس يلزمه أن يقضى جزءا من وقته في الترويح عن نفسه ، وإذهب كلاله
وسآته ، وليستح روحه وحسه بسلامة بالموسيقى والغناء ، أو بطرحه النظر متأملا ما به مسج
الطبيعة ، أو يرسم مناظرها التي تروقه وتجدد به ، أو يغير ذلك ما يحبه ويهواه ، وينسبه
ألمه وشكواه ، ويجد فيه متعة وسرور ، فإن الجاحظ كانت تسليه الكلمة الساخرة
واللذعة الباردة ، يجيدها ويتقنها ، ويعد مراسيا ، فإذا هي سبيل مريضة تفجير
للضحك من أصاق قلوب السامعين سخرية واستهزاء ، كما تفجر الألم في نفس السخرية
فتمتد به ^{فتمتد به} ، وفي أروعها بعد ذلك مشرح الصدر من الخسر السيرة ، حيث أمتنع
نفسه ، ومارس هوايته وجرى مع نظراته وطبعه .

٤- مجتمعه وبيئته :

(أ) بيئته العامة :

نشأ الجاحظ (يبيع الخبز والسك بسميان) (٢٢) ويختلف إلى كتاب القرية يتلقى
مبادئ العلوم مع أمثاله من الصبيان ، وهذان مجتمعا يوجان بالوادع ، ويطلقان
بالأفكاه والطرائف ، ويمتدان على الفكاهة الساخرة والغمزة الضاحكة ، تنصب على
الرفاق ، أو المشترين ، أو المعلمين ، أو فخرهم من بجاوز المؤلف ، ويطلق على السرف
فإذا انتقلنا إلى المجتمع الواسع ، والبيئة الرحبة في الدولة العباسية آنذاك ،
وجدناها حافلة بكل شيء ، مليئة بكل عجيب ، مكتظة بشئ المتناقضات التي جمعت

(٢٦) مطالعات في الكتب والحياة : المقاد ص ١٥

(٢٧) مجمع الأدباء : دياقوت الجزء ١٦ ص ٢٤ تحقيق : أحمد فريد رفاعي .

وتراصت وتداخلت حتى التَحَارُّ العقول في تمييزها ، وكل الألباب وتمجيز عن إدراك الحدود والقوانين فيها ، وإصدار الحكم الصائب في حسنها أو قبحها ، فهناك الترف والسرف والصحة والفساد البعيدة عن التزم ، القريبة من الفوضى ، وأطراف الحشمة ، ونبس التقاليد ، والتحلل من التعاليم السامية ، والأخلاق الكريمة ، طرب وفناء ، وسر ورقص واتخاذ الندما ، والخلماء ، وقد مجالس الأنس والفكاهة ، ودعوة الخلل إلى العجسوس والمقصون ، وساعة الخمر ، والفزل بالمذكر ، ومعاملة معاملة الأنثى ، وذكر السموات والسموات يصريح أسائما دين خجل أو مواربة ، فقد طفت سموات النفوس ، ونزعات الحقول ، وخفت صوت العقل ، وخف زجر الدين ، وثارت الفرائز عارمة تعيب من العرام ، وتخضع للنزوات ، وترتكب كل إثم ، لا قانون يجره ، ولا سلطان يورع ، ولا عقل يفتح . هذا شأن الأشرار الواجدين ومن يسرون في ركابهم لا شيء في حياتهم إلا الخس العسبة أيا كان سبيلها ، وبما كانت طاقتها . أما الشطر الآخر من المجتمع ، فقد استرعى في قاع فقره ، وانكسرت في برقة إلاماته ، لا يجد ما يطعمه ، ولا يكاد يحظى بفئات الموائد فاحترف اللصوصية والسطارة ، وامتنع الدجل والسموذة ، وهد إلى الفس والسرقة ، والكذب والاحتيال ، وسلك في الحياة سهلا ليس بأقل أوجاجا من سهيل الأغنياء المترفين ، أولجا إلى الزهد والعفة ، وفتح بالدين ، ورضى بفتح الباقية ، وصدق عن مباحج الفانيصة ، مرغما مكرها لأن الله لم يمسطله في رزقه ، وأرضا قاتعا للوزع ديني ، وتقوى متمسكة في نفسه ، تعدل به عن المواقف والسموات ، وذلك عدد محدود لا يقاس بمسسن أطلق لشبهاته العنان ، ولم يعد يفرق بين الحلال والحرام .

هذا المجتمع المتقلب ، المائج المضطرب ، المليء بالمتناقضات ، غنى فاحش وسرا عريض ، بجانب فقر مدقع وإيلاق مقيت ، تقوى وزهد إلى جوار انحلال وفسق ، صلاح في ثياب فساد ، وفساد في إهاب صلاح ، مجتمع ينهر العجب ، ويدفع إلى السخر .

ترك فيه الجذور الأكبر من السواء الأعظم . التثبت عند الحكم ، والتوقف عند
المشبهة ، وأجدرت القيم ، وضاعت المقدسات ، وقل ذكر الحلال والحرام ، واختلست
الموازن ، وفستت المقاييس ، واختلط الحسن بالقبح ، والصالح بالطالح ، وانتشرت
الزندقة ، وشاعت الخرافة ، وعم الفساد طبقات الأمة على اختلاف نزعاتها .

وإذا كان بحيث السخرية مجازية إلا فليكن حده ، وجاناه طبعه ، وظهوره بغير
مظهره ، وبرزوه في غير مسه ، كما يكون لاجتماع الأضداد ، وتجاوز المتناقضات ، والخرق من
ما لوف العقل السليم والاستبانة بالمادة السارية ، فإن مجتمع الجاحظ يحظى من ذلك
بأرض نصيب ، فقد جاوز أغلب ما فيه حده ، وزاد عن طبعه كضار موضعاً للذم والميز
يقول الجاحظ (وأنا معين لك الحسن ، هو التمام والاعتدال ، ولست أعنى بالتمام تجاوز
مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة ، وكثافة الجسم ، أو عظم البارحة من الجوارح
أو سعة العين أو الفم ما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة
بشي كانت ليس نقصاناً من الحسن بل من حدت زيادة في الجسم ، والحدود حاضرة لأمر
العالم وسحيطه بقائه برهانه لموقفه لها ، فكل شيء خرج من الحد في خلق أو خلق -
حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور فهو تفرق مذموم (٢٨) وبهذا
وضع الجاحظ قاعدة القبح والمذموم ، الذي يسمونه ، وهذا به ، وقد ملأت هذه القاعدة
البحث على السخرية من الجاحظ .

شهد كل ذلك عن قريب ، وما يشه من كتب ، وانفعل بهؤلاء وبأولئك ، فإذا المجتمع
كله مهين ، للضحك والإضحاك ، يات على التهمك والسخرية تعصية للوقت ، وتضييعاً
للعلل ، أو استعانة على بأساء الحياة ، وخشونة المعيشة ، أو تملأ من متع الدنيا وإسعادها
للنفس ، والجاحظ يمارك في طبعه من لاجبة وقص ، يلتقط النوادر ، ويحفظ الطرف ،
(٢٩) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فكل صفحة ٦٥ طبعة ثانية المطبعة السلفية

وتتبع الفكاكات ، ورضي إلى الأحاديث البازلة ، فيجب فيها وضع ، ويصل ويشمل ،
 فتقوموا به في فن السخر ، وتتبع مداركه ، وتتفاعل مع ما يسمعه ويراه ، فيولد الجديد
 ونسج المجيب ويوشح كبه بتلك المضاحك ، فإذا هو كاتب ساخر ، وأديب متفكك
 وإذا الدنيا بأسرها تقبل على كتبه الساخرة ، ورسائله المتكئة ، فترى ألوانا من التمتة
 الذهبية ، وأنماطا من الكتابة المتعددة ، خلطتها الجد بالهزل ، والمجوس بالضحك
 والسخرية الملائمة بالسخرية الهادئة ، ما يشهد له بالحق والأستاذية ، ولولا الكتب ،
 وسمة الذرع ، وقوة التأثير .

ب - بيئة الفكرية ،

أما بيئة الفكرية فقد كان لها أكبر الأثر في نمو السخرية عنده ، وحذقه لها ، وراعتها
 فيها منذ نشأته في الكتاب مع رفاق الصبا ، وحين جلس مع المسجدين من أترابه في حلقاه
 تحتوى العلم والأدب ، كما تحتوى الظرف والتدبر ، والسخرية من آراء ، تنجيب الحق
 وتختلف المصداق ، وقد كانت تشبع بين رفقته الكتاب ، ورفقه المسجد ، فآخرات الصبيان ،
 وبياضاتهم ، وعلومهم ، وأدعائهم ، وما يتبع ذلك من تحقير بعضهم بعضا ، والجلو إلى السى
 للسخرية والتكبر ، والمز واللمز ، كسلاح لتحقير الخصم وإذلاله ، وكثيرا ما يكسبون
 الجاحظ هدفا للسهام ، ونصبا للطمان باللسان ، يستغل فيه الرفقة دامة شكله
 وشذاه خلقه ، واستغفاته وسبه ، فيسلقونه بالسنة حداد .

والجاحظ -- كما هو طبيعه -- لا يمكنه أن يقف في هذه المواقف مكتوف اليدين معقود
 اللسان ، وقد وهبه الله خفة الروح ، وبراعة المنطق ، ودلاقة اللسان ، ووضوح البديهة
 فإن لم يكن هو الهادئ ، فلا أقل من أن يرد السخرية بسخرية أنكى منها ، وأن يكيل
 الصاع صاعين ، فقد غطى على السخرية اللادعة ، والضحك أيا كان ، ومن البدهى أنه
 كان يدلي دلو ، ويصب فيه ، ويغمرنا بجمع سخرته ، فيغرق خصمه ، ويجعله يسبح
 فيغرق

لما كتبت سنة ثمان مائة

ولما كبرت سنة ثمان مائة (٢٩) وأنتها في العلم والأدب ، ولزمتهم ، ويشملهم
علمهم ، ويوتون بأديهم ، وفكاهاتهم ، فتأليفهم أيما تأثره وظهر ذلك في فكاهاتهم وسخراتهم .

ومن شيخ البصرة الذين ماكنوا يضحون فرصة السخرية إن منحت لهم ، ويخلقونها خلقا
إن لم تأت بهم طوعا ، أو بعزيمة محرم بن النقي (٣٠) . وقد كان فكه المجلس ولعبا

بالسخرية والتلويح ، والتسكيم والسخرية ونظم إبراهيم بن سيار النظم (٣١) ، وكان مشهورا
بالمراعاة والسخرية . وقد لاقه الجاحظ ملازمة عديدة ، فركب ألفها في صفحات عقله ،

ونزهات قلبه ، وآراء دينه . ونظم ثمانية الأشعر (٣٢) . وقد نقل عنه الجاحظ كثيرا ممن

أدبه كما كان أستاذة في الجون والفكاهة ، والنادرة اللاحقة (٣٣) . ومنهم أبو المذيل

العلاف إمام الاعتزال وكانت السخرية تنبع في أحاديثه . ومن أستاذته الذين يعملون أيضا

إلى السخرية أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٣٤) . وأبو سعيد عبد الملك بن قريش

الأصمعي (٣٥) . وأبو الحسن سعيد بن مسعدة الأحقشلي (٣٦) وقد كان بارعا في الفكاهة ، مشهورا

الخلق ، وأجمل ، وطالت ملازمة الجاحظ له وصحبته إياه لتناهما في الطبع والقبح (٣٧) .

ولقد تعددت في عهد الجاحظ الفرق الدينية ، وكثرت المذاهب ، وتوالت النحل ،

فكان ضياء الصابغة ، والرافضة ، والمرجئة ، والماتوية ، والنزاد شتية ، والجبرية ، والتونية ،

(٢٩) معجم الأدباء ، ياقوت الجوزي ١٦ صفحة ٧٥

(٣٠) وهو بقرى ، وكان إماما في اللغة والأخبار ، توفي سنة ٢١١ هـ

(٣١) أحد شيوخ المعتزلة ، وأستاذ الجاحظ في علم الكلام ، وكان بليغا الصنفونسي
بالبصرة سنة ٢١١ هـ

(٣٢) من زعماء المعتزلة كأبدي في أيام الرشيد ، لكنه استطاع في عهد المأمون أن يوسع
سياسة الدولة ، وأن يصحها بصيغة اعتزالية وأن يكون صاحب الكلمة الأولى في

القصر وسياسة ، وتوفي عام ٢٢٢ هـ

(٣٣) ضحى الإسلام الجزء الثالث ص ١٥ ، أحمد أمين طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦

(٣٤) كان إماما في النحو واللغة والأدب والتواء ، والغريب توفي عام ٢١٥ هـ

(٣٥) كان إماما لغويا أدبيا بليغا توفي عام ٢٢٢ هـ

(٣٦) كان عالما نعيما شهيرا .

(٣٧) سألني الأئمة الدالة على ميل أستاذته للسخرية واقتانم فيها في الفصل
الثاني من الباب الثالث (السخرية في قصصه مكانته بنده) .

والأصوية والفردية كما تعددت المدارس ، ولكن مدرسة طابعها ، وطريقة تفكيرها ، وأسلوبها
 في تناول الموضوعات المختلفة منها ، مدرسة الرها ، ونصبيين ، وحران ، وجنديسابور ،
 وشملت الثقافة الوافدة من هندرية ، وبلونانية ، وبارسية ، إلى بابلية وفينيقية ، ومصرية ،
 ورومانية ، وآشورية ، وكذلك انسية .

واكثرت طوائف المتكلمين في الدولة ، فكان هناك : النعمانية ، والأديانية ، والكتابية ، والفرجانية
 والمغندون ، والمغنون ، والاندما ، والعزديون من الخلقة والأمراء .

هذه الثقافات المتعددة ، والتحلل المتفاوت ، والمذاهب المتضاربة ، والمدارس المتنوعة
 والطوائف المتباينة ، ^{تصارف} الحتم أن تفتقر إلى ^{تصالح} وتصلح ، وتتمركز فريقتان لرأييه ومدارسه
 وبذلك ظهر : فمشيخ الهجاء ، وتشتت السخرية ، وكثير المعز واللمز .

والهجاء من وسائل دفاع الطبقات التي لم تأخذ من الثقافة بقسط وافر ، ولم تستطع
 أن تذهب طابعها ، وتخرج جملتها ، نواتجا ، فتندفع إلى السب والقذف ، والنتم الصريح
^{فريسية} إلى السخرية فريسية الفكر النقي ، والحق الناضج ، والبيئة المتحضرة ، التي ترى نفس

أبطالها الاتزان ، وامتلاك زلم الغضب ، والتميل من النصر في هدوء ، وقتله دون أن تسيل
 منه قطرة دماء ، أو يلاخذ قاتله بجزيرة ، وإنما يعق مسننين النفس ، مثلج الفلاد ، فيضدك
 من شدته على مقدار ما آلم السخرة وأوجعه .

ولقد عرف الجاحظ مجتمعهم ، وخير طوائفه ، واشترك معها ، محبذا رأيا ، ومعارضا آخر
 مرة بالعنف والقسوة ، ومرات باللين واللين ، وطورا بالهجاء اللاذع ، والدم الغيت ،
 وفي أغلب الأحيان بالسخرية المريرة والتكلم المعضن فقد آمن (بحرية الفكر ، ولوحج
 بها ، فلم يقلد غيره ، ولم يذب شخصيته في شخصية سواء ، ولهذا تكلم أشد التكلم
 بما لا يستقيم العقل ، واعترض على كثير من العلماء والفلاسفة فيها لم يقتنع به (٢٨)

(٢٨) الجاحظ ، أحمد الحوضي ص ٤٨ دراسات في الإسلام العدد ٢٨

وكان لعلمه واطلاعه أثران في ثقافته وأساذينه ، ولذا كان المرء حاذقا مجيدا ،
 واسع الاطلاع ، متمكنا من مادته ، فمما أقرب إلى التوهم ، وأميل إلى السخرية مــــمن
 يبدو فيه انحراف ، ويظهر في سلوكه احتياج ، وقد يلجأ إليها وقت فراغه ، ترويحاً
 عن النفس ، وتخفيفاً من ثقل الدرس ، وما كان كالجاحظ أحد في سعة اطلاعه
 وطرفه فثقافته وضواؤه (حدث أبو هاشم قال : لم أرقط ، ولا سمعت من أحب الكتب
 والمعلم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط ، ولا استوفى قراءته كما ثنا ما كان
 حتى أنه كان يكثر ، ولكن الوراقين عيبت فيما للنظر) (٣٩) . وكان علمه لا يقف
 عند حد ، يشهد بذلك قوله : (إذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للأخر شيئاً
 فاعلم أنه ما يزيد أن يفلح) (٤٠) وقول أبي الفضل بن العميد (ثلاثة علم الناس كلهم
 حوال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل
 وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ) (٤١) .
 وفي بلاط المتوكل على الله اتصل برجال تخصصوا في المنزل والفلاحة والسخرية
 (ولم يكن محمد بن سلف من خلفاء بني العباس يظهر في مجلسه اللعب والمضاحكة
 والمنزل ما قد استفاض في الناس تركه إلا المتوكل فإنه السابق إلى ذلك ، والمحدث
 له ، ففي بلاط المتوكل عرف الجاحظ أبا الصبر الباشي ، وأبا العنيس ، والجمال ،
 ولعله عرف أيضاً أبا الحبتاء الذي تربط به صداقة متينة ، كما تشهد بذلك النوادر

(٣٩) معجم الأديباء : ياقوت : الجزء ١٦ ص ٧٥ .

(٤٠) معجم الأديباء : ياقوت الجزء ١٦ صفحة ٧٨ .

(٤١) معجم الأديباء : ياقوت : الجزء ١٦ صفحة ١٠٢ .

هذه الهمم الفكرية المتوقفة التي خالطها الجاحظ ، واجتمع المائج المفسم
 والمتانفصم الذي عاش فيه ، وما نظر عليه أبو عثمان من عشق للسخر ، وحسب للدعابة
 والسخر ، وما رآه الله به من قبح شكل ونزى هيئة ، وما ورثه من أمه وأسرته ، كان له الأثر
 البالغ في نمو ملكة السخرية عنده ، والترقى بها إلى الحد الذي ضمن لبها على مسر
 للأجيال البقاء والخلود ، بعدها ، ذكاؤه ولطافته ورهافة حسه ، ودقة ملاحظته ، وقدرته
 على عقد المربط بين العناصر غير متجانسة ، وطبايعهم ، وقدرته على الابتكار والإبداع
 ومثاله مواضع الكلام ، واستطاعته أداء الصورة المثقفة البارعة ، بالمعبرة المناسبة السلي
 تضيف إليها الألوان والظلال ، مما جعله أستاذ هذا الفن ، والمقدم فيه .

..

..

..

الفصل الثالث

ملاقاته الاجتماعية وأثرها في شخصيته

عاش الجاحظ في مجتمع جمع بالمشائقات ، وبغضها له في حياة المشايخ ،
فارتكبوا الفكر جاحظين ، واندفعوا إلى الزندقة والإلحاد ، وأهدرت أقيم
وتجانت طابعهم عن كل حلال ، ورضعوا نصب أعينهم الباطل ، ليجمعونه من حله وحراره
ثم يمشرونه فيما تأمرهم به شيواتهم التي تتحكم فيهم ، وتعودهم إلى ذلك التيه اللجس
من الأكل ، أو يقضون أيديهم عليه بالخلع ، ويحملونه عدل أنفسهم مسكين ، متمسكين
بالمثل الذي شاع بينهم " الباطل الباطل وما سواه محال " (١) ، ويقول الشاعر أبي نواس

سأبني الفنى إما جليس خليفة نغم سواء أو مخيف سهيل

والجاحظ فرد في هذا المجتمع ، وظهر من أعلامه ، وأديب يرفع يده مشعل الهداية
وحمل بقلمه نوا التوجيه ، وأمام ديني يقم بمهام القيادة الدينية الممتدة على
الفكر والمنطق ، والسلك ^{والسداد} والإرشاد ، قد ركب في طبعه حب الناس على اختلافهم
تقد عايشهم ، مع تباينهم وتفاوت أقدارهم ، وتحدد لحدس ، وفقدت بينه وبينهم هملات ،
وتوطدت أواصر وعلاقات ، تبدأ ببائس السلك وصياده وشتره في سيجان ، وتمتد إلى
رفقة الكتاب من أبناء القضاة وغير القضاة ، وتسير في خطها لتصل إلى عشاق الله
والأدب في المريد ، ولرب القضاة والإخباريين من المسجديين ، ثم ترقى
إلى شيوخ الاعتزال ، وأئمة الكلام والنحو واللغة والغريب والحكمة ، وتصل في النهاية
إلى طبقة الوزراء والأمراء والخلفاء ، وهي بين هذا وذات تلتقي بالطفيليين والموسوسين
والحمقى والمتفلسين ، والشطار والباخلين ، والخلفاء والناجيين ، والمضحكين
الساخرين .

(١) من مقامات الحريري للشريش ٢ : ١٩٢ طبع بولاق .

في سمت الحب ، والحقيقة في هيئة الشربة ، رأى كل شئ ، يلمس غير إهابه ، ويمتنع بخير /
 فيه ، فلأن طبعهم ، ونفسه سمحة ، لم يقف من هذه الظواهر موقف القانط اليأس ،
 ولا التبرم اليأس ، لأنه كان يصرف النفوس ونوازعها ، والعقول ونوازعها ، فكل من الرج
 على اليأس ، وأخملت الشفقة اليأس ، فإذا به يستعين بالسخر أداته السحرية التي تحول
 القنوط فقاولا ، والتبرم انشراحا ، وإذا هو يضحك ويتكلم منها إلى الخطاء ، ويقوم الحق
 في حين رفق ، وكله لا يسخره ، وكأنه لا يقم ، وذلك أشد أثرا في الإصلاح ، وأبعد
 مخرجه ، فأعظم افتتننا في باب السخر ، وأرفع منارة في فن الأدب ، وأدب النفس ، وأدب
 الإنشاء .

اتصل الجاحظ بأساتذته ، وقد كانوا شيخ عصره ، ونوابغ زمنه ، وخلاصة جيلهم
 علما وأدبا ، ولازمهم طويلا ، وأخذ عنهم ، واقتدى بهم ، وكان السخر فيهم طبعيا
وجيلة ، فافترت المحاشرة ، وأثمرت المصاحبة ، ونضجت على الجاحظ فنونا وألوانا
 من ذلك الشدة الأولى اللادع ، فاق به أساتذتهم ، وأتى منه بالجديد الجديد
 والمبتكر المعجب ، تعددت ألوانه ، وتنوعت أنغامه ، فجاءت سخرياته سخرينات
 الذهن المتوقد ، واللغة العاتية ، والعقلية اللامعة ، والذوق العرف ، والفكر
 الحاد .

طالما ضحك مجتمع الجاحظ منه ، وسخروا من شوخته ، وتدنوا بيشاعة منظره ، وثقل
 ذلك على نفسه وآله ، وكان من الهدى أن يقابل السخرية بسخرية أنكى ، وأن ينوع
 وسائلها ، ويجيد تصورها ، وأن يكون للميوب الجمجمة في سخرياته نصيب ليعين أن غيره
 أقيح منه في شكله وصورته ، أو يشاركه قبحه ، أو يتصف بلون ألوان القبح ، أو أن
 قبحه في حركاته وإشارات ، أو خصائصه وسكانته ، أو في زيه وسمته ، أو في أدبه وشعره ،
 ومن هنا اتسمت سخريته بالخز المولم ، واللذع السام ، والافتتان ، والتجسيم ،

وضعه الثاني والأدب وصلة ذلك بمسخرته

نشأ الجاحظ بينهما فقرا في حجره ، التي رجت به سرهما إلى أتون الحياة القاسية . يكسب قوتها وقوته من بيع الخبر والسط في سجدان ، وكان خليقا بين وضع وضعه ألا يكون شيئا ، ولكن همه الجاحظ المالية ، ونفسه الطموحة ، وبغريته الوثابة ، أبت عليه إلا أن يكون جليسا للوزراء والخلفاء ، ومنهم الأديباء والشعراء ، وأن يرتفع اسمه تاجا فوق هام الزمان ، ويطلق بأدبه وعلوه جند العربية بقلادة من نور المعرفة .
مبتدئ .
تساقط في أوجها الوطن العربي التفسخ ، واضع يدهما ، مغترقا الحدود والسدود ، مبدد ادهما جوارح الطلبة في بلاد الغرب ، بل في كل مكان وصلته مؤلفاته .

رعى الجاحظ نفسه بنفسه ، على أن ما تكون العصامية ، وأولع بالثقافة والأدب منذ طفولته ، فكان يذهب إلى الكتاب نهارا ، ويكتري دكاكين الوراقين ، ويبعث فيها للاطلاع ليلا ، وكان يبيع الذهاب إلى المرشد ، يتلقى اللغة والأدب من الأعراب مشافهة ، ويضم بالجلوس في كحلق المسجد بين ، يتزود بالأخبار ، ويرى طعاما بالعلم ، ويشبع روحه بالثقافة والنادرة ، ثم اتصل بموسى بن عمران (١) الذي كان فاتحة عهد جديد له حيث أزال منه شبح الفكرة ، وفتح باب الخنى والجاه ، حين عقد الصلة بينه وبين أبي إسحاق النظام سبيل شيخ الاغترال ، وعالم الملأ ، والذي كان يحفظ القرآن والإنجيل والتوراة والزبور وثقا سرها والذي وضعه الجاحظ بقوله : إن الأواظ يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظام فتعلمت عليه الجاحظ ، وكلف به ، ولازمه

(١) موسى بن عمران ، موسى بن عمران ، يونس بن عمران ، شخصية واحدة ، محتزلى من أصحاب النظام وصلته بالجاحظ قدمة حولت مجرى حياته وجعلته العالم الأديب المحتزلى . وكان - طويلا والكذب لا يأخذان في طريق كما ذكر الجاحظ

في الحيوان ج ٥ ص ٦٨

(٢) في تاريخ المردك : « امرأة طامحة » « دوس طوع الطوف »
« دوس طوع الطوف » « دوس طوع الطوف »
« دوس طوع الطوف » « دوس طوع الطوف »
« دوس طوع الطوف » « دوس طوع الطوف »

الرهش ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفتح ، فقال الرجل : الفخ ما أنت
فيه ؟ فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويحمل محمد بن عبد الملك بأسرى
ويختلف إلى ، فهذا هو الفخ (٣) واستبعد أن يعنى الجاحظ ما يريد ، أو يكون
كلامه على سبيل الأمنية القاتلة التي يمكن أن يجود بها الزمان ، وأوافق كثيرا من
أدباء تلك المذاهب فيقولون أن ذلك كان منه على سبيل المزاح (٤) مع أن الجاحظ
من أعظم كتاب عصره وأعزهم إنتاجا وأحسنهم بياناً وأعلمهم لغة ، وقد رفض التصديق في
ديوان الإنشاء ، أو ليس من أبرز أشبه الكلام في زمنه ، ومن أشهر العلماء في أيامه
ومن أحب الناس إلى قلوب بني وطنه ، ومن أكثرهم خبرة وتجربة وثقافة بصيرة ، ومعرفة
بطبائع النفوس ، وهل في زمنه وبعد زمنه من لم يتمن أن يكونه ؟ وقد يرى أن مقومات
الوزارة لا تتوافر في محمد بن عبد الملك الزيات أكثر من توافرها في عمرو بن بحر
الجاحظ ولكنه لا يجزم أن يعنى نفسه بالخلافة وتربيتها قطع الرقاب .

(٣) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، المجلد ١٢ ، صفحة ٤١٩ ؟

أدب الجاحظ : حسن السكوت ، ص ٣٤ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٣١ ، للطبعة الرحمانية
الجاحظ : جورج غريب الموسوي في الأدب العربي ، ١٠ صفحة ١٧ ، ١٨ ط ٠ دار
الثقافة بيروت .

(٤) منهم جورج غريب في المرجع المذكور ص ١٧

واللعيب بالسخره ، ورسم الصورة المنزلية له بمنشبه خطوطها ومكوناتها ، والسميت بألوانها وظلالها ، وكشف السبب وإن دقت ومواطن التشبه مما خفت واستترت .

وحين علا نجم الجاحظ وطار ذكره ، ولسع اسمه ، عاش في كنف الأمراء والخلفاء ، وعلية القصر ، وصارت قصورهم نواديه وسطح رجاله ، وليس فيهم ينشئ ساحتها من المغنين والموسيقين

والعلماء ، والأدباء ، وأرباب الفكاكة والظرف من لاتصله بالجاحظ وتناجح قوته ، وليس بين الجلساء من يتردد في إلقاء طرفة ، أو رواية نادرة ، أو التحقيب على كلمة ، أو نقد رأي

أوزى لمؤلفكم مخلقه فبيحة ، وشبهه مقبلة ، ورأى فطير ، فقد أطلقت النفوس على سجيته ، وارتفعت الكلفة بين الصحبة ، وزالت الحجب ، واختفت الفوارق ، والجاحظ

قطب هذه الجتمعات ، وسجرت الزاوية فيها ، يدلى دلوه ، يذكي شرارة السخر الكاشفة في أعمقه ، فيشتعل لسيدها ، ويحلوا أوبرها ، ويحرق شواظها من استمداد لها ، فتجى

سخرياته حذرة ، وقيمة ناعمة ، ومترجة بثقافة عصره ، وسلاسة أده ، ودقة علمه ، منا سببة للمجتمع الراقي الذي تقال فيه ، بعيدة عن المباترات ، وخلفه مبطنه ، حتى لتبدأ

التفكير في مرموها بحث الانتباه من إلقائها ، ولا تحصل على المعنى إلا بعد تأمل وتدقيق ، أو تخال الكلام ملق على طبيعته ، لا يحمل في أحشائه سخرية ، ولا يحذر مرموها

ظاهر محتاه ، وذلل غاية ما يرض إليه الساخر ، ويتعنى الوصول إليه إلا ديب الناقد . كان للجاحظ في دولته وضع ممتاز ، غنى وأثر ، وجاه عريض ، أموال طائلة ،

وعظايا سامية وشاهرات متتالية ، وصدقات وطهدة لكبار رجال الدولة ، ومخالطة للوزراء والخلفاء تجعله فردا منزه ، وناديا لهم ، وسمعة عالية تطمع في المزيد .

سئل عن حاله فقال : (سألتني عن الجملة فاسمحوا مني واحدا واحدا ، حالي أن الوزير يتكلم برأى ، ويغنف أمرى ، ويواتر لخليفة الصلات إل ، وأكل من لحم

الطير أسنما ، وألبس من الثياب الهندى ، وأجلس على ألين الطبرى ، وأتكن على هذا

حتى أطلعه على علم الحقارة ، وخرجه أستاذاً في علم الكلام ، ومارس فيها دينياً
محتزلاً ، له طائفة تتبع مذهبه ، وتسمى باسمه (الباحظية) ، فارتفع ذكره ، ونبه
اسمه ، ووصل إلى الوزراء والخلفاء ، فأحبلوه من نفوسهم محلاً سريراً ، وانتدبه المتوكل
لتعليم أولاده ، وصدره الأمين في ديوان الرسائل ، وطلب منه أن يكتب في العباسية
والاحتجاج لها ، فكتب ، فأعجب به ، وأطراه ، وأجزل له المظلة ، فحسنت أحواله
وكرمت مولفاته ، وجمرت الأموال في يده ، وأصبح صاحب ضيعة لا تحتاج إلى تجديد
ولا تسديد ، ما أعطاه له محمد بن عبد الملك النيرات على إهدائه له كتاب الحيوان ،
وما منحه ابن أبي دؤاد حين أهدى إليه كتاب البيان والنبين ، وما أخذه من
إبراهيم الصولي لأنه أهداه كتاب التبر والنخل ، وما كان له من مشاهرات تجري عليه .
وفي كتاب الحيوان ، تتضح ثقافة الباحث ، والماء بمعارف عصره ، وما سبق عصره ، وأطلاع
على الثقافات الواقعة السائدة في زمانه ، وحضه لها ، واعتماده على المشاهدة ، والتجربة
الدائمة ، والخبرة العملية ، وتظهر جرأته في نقده لا يسهنه عقله من الآراء ، ولو كانت
لأرسطو صاحب الشفق ، أو لأشعنان من أعلامه ، كالنظام شيخ الاسترغال ، فيمسخ
فيها ، ونبه على خطئها ، وفهمها بمكانة صاحبيها ، فهو إنسان يفكر ويحس ،
وليس صنماً يجلس على عرشنا لخصه ، فهو يتأبط بحارب التنزه ، أو طوطمها
تلتفت حوله ، فالات الإجلال والتقدس ، بل هو لم وهم يتكسر للخطأ والزلل ، أجابة
لتركيب الإنسان فيه ، وما يمكن في جبلته من واقع ونوازع وفتات ، ومطامع وانفعالات وشبهات
وفي كتاب البيان والنبين ، ترى ثقافته العربية الأصيلة وتسلط بها ، ورفع منارها ، و
وحدة أصول البلاغة ، وتعدد معال الفصاحة ، وبراعة فن الخطابة ، وجودة
البيان ، ثم بحوث لغوية في العروف والألفاظ ، واللمن واللكة ، ولا تفارقه في صفحات
كتابه السخيرة اللادعة ، والفكاهة العريضة ، والمسة الضاحكة ، والوصف الرائع ، والخيال
المبارع ، والتصوير الفائق .

وفى بهلائه ، يفتح لنا عن فلسفة عميقة ، وفوق في قراءة النفس البشرية ، ووقوف على
 مواطنها وخلجاتها . وهو في هذه الرائع وفي باقي كتبه ، وسائر رسائله ، التي تتناول
 شتى العلوم والصارف الإنسانية ، وتكون دائرة محارف غير مرتبة ، متقف واسع الثقافة ،
 وطام غير العلم ، وباحت مجرب ، وأديب سلس الأسلوب ، جيد الصلوة ، وباحت ذهني
 اعتزالي ، مشطقي متحرر ، يستخلف العقل والدليل ، ويعتمد على الحجة والبرهان ، وفي
 ساحة نفس ، وإشراق روح ، ومباشرة تأخذ بجامع القلوب ، وسخرية قارصة ، ذات حبكة
 قلم دقيقة ، تضحك القاري ، وتتشطه ، وتدفعه إلى مزيد من الاطلاع والاستماع .
 وثقافته العربية أخذها من الكتب التي عكف على قراءتها ، ومن المريد السدي
 طالما غشيه ، ومن شيخها أمثال الأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري .
 وأتته الثقافة البيزنطية من طريق علماء الكلام وحججهم ، ومناجبة سلميه ، وأبي
 موية ، وحنين بن إسحاق ، وشعثون الطبيب .

وحذق الفارسية وأجادتها وصله . من كتب ابن العلقم ، وأخذ من أبي عبيدة
 وتوسع في الثقافات كلها ، بما كان يقرأ من الكتب كلها ،
 وقد كانت العربية والبيزنطية والفارسية يباين الفصاحة والمنطق والحكم ، والتسقيق
 والفضامة في التأليف في ذلك الزمان .

ونكفينا دليلا على رسوخ قدمه في الأدب ، وعلوكمه في العلم ، وإحاطته بثقافات
 عصره ، وما سبق عصره ، شيئا من الفضلاء له . قال أبو الفضل بن العميد : (ثلاثة
 علمي الناس كلهم فيها عيال على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة . . . وأما الكلام
 فعلى أبي البنديل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والمناجبة فعلى أبي عثمان الجاحظ^(٢))

وقال ثابت بن قرّة : (ما أحسد هذه الأمة العربية الأعلى ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب
والثاني الحسن البصري ، والثالث أبو عثمان الجاحظ ، خطيب المسلمين ، وشيخ التكلمين
ومدرسة المتقدمين والمتأخرين) (٣) . (وقيل لأبي الغيث : ليت شعري أي شيء كان
الجاحظ يجمع من ؟ فقال : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن) (٤) . قال
أبو محمد الأندلسي : رضى في اللجنة بكتب الجاحظ من جميعها (٥) .

وقد لقب بالجاحظ غير واحد ، اكتساباً للشهرة ، وظلماً للمجد ، وخلود الذكر ، فأبو
زيد أحمد بن سهل البلخي يسمّى " جاحظ خراسان " .

وأبو حيان التوحيدي الذي سار على طريقة أبي عثمان يلقبونه " الجاحظ الثاني " .
وإبن الحميد الذي قيل إن الكتابة الفنية تفتت به نعت أيضاً " الجاحظ الثاني " .
ومحمود بن عبد العزيز الفارسي لقب بهذا اللقب المحبوب " الجاحظ الثاني " .
وقد كان العلماء والأدباء يحثون من كتب الجاحظ ولحقون في اقتنائها والسؤال
عنها ، ويصحون في مكة في موسم الحج في عرفات سائلين من يمر بها ، طالعين إحضارها
كما فعل ابن الأختاش (٦) .

كان من الهدى وقد تميز الجاحظ مآقن المعرفة والثقافة ، نظريداً وعليها ،
وقيض على زمام الفصاحة واللسن ، وملك بمقله الحجّة والمنطق ، أن يكون أثراً عند
الخلفاء وأولى الأمر ، وأن يحل من نفوسهم محلاً رفيعاً ، بهنه شأنه ، ويحل الكتاب غيره
ويحتج المخطايا دونهم ، فتشبه كفتهم ، ويحمدونه على ما آتاه الله من فضله ، ويحمدون
عليه ، ويدبرون له الممالك ، فيتميمونه في دينه ، وفي خلقه ، ويحتفونه بالانحراف والزندقه

(٣) المرجع السابق صفحة ٩٧ .

(٤) جمع الجواهر : الحصري صفحة ١٦٥ .

(٥) أدب الجاحظ : حسن السندري صفحة ٧٦ الطبعة الأولى عام ١٩٣١ المطبعتا لرحمانيه

(٦) معجم الأدباء : ياقوت ج ١٦ صفحة

وكان حساده وشانوه إذا علموا أن الكتاب من صفاته تلبسوا فيه الحبوب والأخطاء
وتناولوه بالنقد والتجريح ، والهجوم لحره ، والسب الصريح ، فإن كان له ونسبه إلى غيره
من مشاهير الرجال مدحوه ، وأطروه ، وكأولاه الثناء ، ورفعوه إلى السماء ، وإعجابها واعتناها
وإن كان قليل القيمة ، رذل العبارة ، ومعنى هذا حقدهم وكراهيتهم الجاحظ ، وأنهم لم
بالأسماء اللامعة ، وعدم تمييزهم بين أسلوب وأسلوب - يرى الجاحظ ذلك في قوله :
كتب أولف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسه ، فلا أرى الأسماح
تصقى إليه ، ولا الإرادات تتغير نحوه ، ثم أولف ما هو أنقصه رتبة ، وأقل فائدة ،
وأجله عبد الله بن المقفع ، وأوسول بن هارون ، وأرغبرها من المتقدمين ، من صارت
أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويشارعون إلى نسخها ، ولا لشيء إلا لنسبتها
للمستقدمين ، ولما بداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ، ومناقضته علس
الناقض لتي عنى بتشيدها . (١٠)

رأى الجاحظ كل هذا من حساده ومساخيه ، واتي منه أشد المعاناة ، وحرف أن
نقدهم وعيبهم له ليس إلا من حقد ومودة ، وأنهم يريدون إطفاء ناره ، وإزال قدره .
ولكنه كان على ثقة من عبقرية ومزلة ومدركا أنهم لن يستطيعوا انتفاء أثره ، أو نسق
غيره ، فضلا عن اللحاق به ، وسأواته ، فأطلقوا لاستنهم العنان ، وأنهم وظلوا ينفروا
ولم يما ملهم الجاحظ بما عاملوه ، وأبت عليه نفسه الكريمة ، وحمته العالية ، أن يعترض
فيها تعزلا فيه ، وآهم أقل من أن يناصبهم الجدا ، وأحقر من أن يرفع في وجوههم
لواء الخصومة ، ولكنه مع ذلك لم يقف معطوفا لجهين ، مكتوف اليدين ، وإنما اختسار
الجزر والردع بما يناصب ففاحتهم ، سلاحه في ذلك المنعرج المعر ، والهمز والاستخفاف
والتيكم القاتل ، فتمت نصلة في صدرهم ، وسقام من لائن ملونه ، وتركهم به عرض
صائص الكرامة ، ساقط الروح .

١٠. التتبع والإشراف : المخطوطة من ٦٦ طبعة الصاوي سنة ١٢٢٨ ، رسالة فصل ما بين
المداد والحسد : الجاحظ من ١٠٨ - ١٠٩ من مجموعة رسائل الجاحظ لجنة
التأليف والترجمة والنشر .

ولقد كان كثير من مشهري الرجال ^{معتبين} انصفوا بالعقل والمنطق ، والقصاص ،
واللسن ، يسمون في بعض الأحيان ، وينحدرون في ^{مكة} فكرية ، يفتسموا غير المتقف ،
ويقف على الصواب فيما غير المتخصص ، فكان الجاحظ يمانع إلى تفقدهم ، ما خرا
منهم ، ومصححاً أخطائهم ، وله مع صاحب المنطق جولات في هذا الباب .
ولكثر ما كتب الجاحظ ، ولد سادة موضوعاته ، ولوقوفه على طوايا النفس البشرية ،
وشع كتبه بالضحك ، وبلاها بالنوادر والظرف ، وحشاها بالسخرية ، وربة نفس
إرضاء قرائه ، وطرده ^{الملح} التكلل من نفوسهم ، وتقلهم من فن إلى فن ، ومن باب إلى باب ،
ووضع على مائدة كتابه أطباقاً شتى ، تتناول النفس منها الحلوى الحامض ، والدسم
والسهل ، وتخرج بين هذه الأنواع ، لتتشط النفس ، وتستعيد همتها ، وتتخلص من
فتورها ، أو ليتناول منها كل شخص ما يلائم معدته ، ويغوى صحته ، أو لينتقي منها السر
الطيب المفضل لديه ، ولا نور عنده .

ولقد عاش الجاحظ أياماً مشقة ، وفشا مجالس الألسن واللبوء ، والوا إلى الضحك
وأغرموا بالسخر ، وقتوا بالهزل ، وشبأت بينه وبينهم أواصر مودة ، وروابط صهيبة
وجمعتهم علاقات وطيدة ، من اتحاد الشرب ، واتفاق المنزعة ، والإنجال على المرح والفكاهة
والهزل والسخرية ، فتبع الجاحظ معهم ، وجارهم ، وهذه ، وللفكاهة والسخرية
هذا المجال رحال ، وفي الأدب والتمزق وجمال ، فكان الجاحظ فارس حلبتهم
والمقدم نبيهم ، وصاح موسى التي تلقت ما بها تكون .

وكان الخلفاء والأمراء ، وذو الشأن في الدولة ، يميلون إلى الضحك ، ويحبون
السخر ، يتخفون بذلك من متاعب الحكم ، وصاح الفكر ، وكانوا يحشون بالضحك
الساخرين ، ويفرغونهم من مجالسهم ونفوسهم ، ويجزلون لهم المطا ، وكانت للطرف
النادرة ، والسخرية اللاذمة ، والمطاريحات الممازلة صولات وجولات ، والجاحظ
جليس الخلفاء ، والقريب إلى الأمراء والوزراء ، يمد يده الضاحك فيلقب الشاردة

وقصص الفائرة ، وحكك سخرياته ، ورسوم صورها ، ولونها بالوانها الزاهية التي تهيج النفس وتضحك الشكلا . وتمتبت بالمتكلم به وتجعله مزاة أظم المجلس ، يتوارى خجلا ، ويقطع المنا .

ولقد كان كالحياة الجاذب الفكرية والأدبية صلة وثيقة بسخره فهو :

١- عربي ، يمار على العربية وأبنائها ، ونسب إلهام كل فضل ، ويرجع لهم كل ثنوق وسبق ، فدم المبرزين في ميدان الخطابة ، والسابقون في محاج الشعر ، النابهن في العلم ، الطبعون ، الأذكاء ، لذلك يمز عليه أن يرى فيهم ضعفا ، أو يلمسح امعاجا ، فهو دائرا التصح لهم ، ووضع اليد على صوبهم ، وكثيرا ما كان السخر طريقه إلى ذلك .

٢- عالم ، من جلة علماء عصره ، محيط بمعارف زفه ، خبير بنفوس مجتمعه ، يمتاز بالتحقيق والتدقيق ، والبحث والتقرير ، وأجراء التجارب ، واستنتاج القواعد ، ولطف النظر ، وعدم التقيد بأراء السابقين أو المعاصرين ، يكره الجمل ، ويغل الرأى ، ويرشد إلى الصواب ، ويحث على التروى ، والنظر ، بأسلوبه الساخر الهادف .

٣- مفكر ، بل أحد عمدا لفكر في عصره وعصره ، خاض بحوره كلها ، وأقترف عليها جميعها فصار له رأيه الرصين ، ونظرة التي لا تطيش ، وقدرته على مواجهة الصواب ، وحل المضلات ، فهو يعمل دائما على تجنب الزلل والخطأ .

٤- أديب ، له دولة لعباسية ، بل أديب الأمة العربية ، رد للغة وثقها ، وأشاع فيها روائعها وبهجتها ، وطقن نظم الفصاحة ، وقاد . توافل الهلافة ، ونخض له حور ضياء عذال عصها وشرودها ، خبير مواطن الضعف فيها ، فنبه عليها وأماكن القصور فنده بها .

وكان السخر هو الضو الأحمر الذي يمشط في عيون الأدباء ، ليقفوا عند حد ود اللفة فـ كاتب ، رفيع الأسلوب ، فصيح الكلمة ، واضح العبارة ، حسن الأداء ، جهد السبك يتخذ الكلمة رسالة لإبراز الفكرة ، وتخفيف السلوك ، وتقصير الشذوذ .

١- معتزلى ، رئيس طائفة الجاحظية من المعتزلة ، يدافع عن مذهبه ويطاعل من رأيه ضد تيارات كثيرة ، وأهواء متجددة ، بجميع قنينة وأدلة ساطعة ، تلهم المعارض الخضوع والانتشاع ، وترك مؤاة بين الأهل والرباع .

٢- ناقد مرجه ، يرى المصحح فلا يسلط عليه ، ولا لخطأ ليعالج إلى تصحيحه ، والقصاد فيلدهه بمحول الإصلاح ، والشذوذ فيجمل السخر لجاهه .

٣- إذا كان هذا هو وضع الجاحظا لقائى والأدبى ، مرنه ، وطره ، وفكره ، وأدبه ، وكلمته ، وأفعاله . وقد روجحه ، وكانت هذه حياته وكلمته عصى بالظفر والتمذيب ، يهرق صريق ، ويسبب من الإصلاح والتوجيه وثيق ، وتمث على الصواب ، وترك الامحاج ، وتكشف المصوب أطم أصحابها أو تفضدهم على ملأ الأشهاد ليرتدوا ^{ورعوا} ، فلا يجب أن ترى التهمك بشيخ نى كلمته وولفاته ، والتصور السخر يوشح كنه رسالته ، يتخذ ذلك وسيلة للتقويم والتعلم ، أو الإحاضه ، أو التخفف من عنا الدرس . أو توشح الكتب والرسائل ، أو إزهاق الباطل ، أو إذلال الخصم ، أو غير ذلك من الأغراض التى يهيم السخر سلاحا يحققها به ، فإذا دس منقاد له ، ولولا تمت وطاة ضرها .

وأخيرا ، نقد مرى الجاحظ قد رنفسه ، وعلو شأنه ، وشغفه على معاصريه ، وقاس نفسه بشيخه ، فوجد البون ناسما ، والهوة سميقة ، فسخر منهم ، وهزى بهم ، وتكلم من تخلفهم ومهبطهم ، وإذا لسخر مظهر من مظاهر الإحساس بالرقعة ، وضرب من ضرب التمييز من العلو والسبق .

الهاباتك ليست
موضات السخرة في أدبيات

عاش الجاحظ في مجتمعه بمعين الخير النقادة ، ونكر الفيلسوف الحكم ، ورجح المرجح
الطروب ، فلمحت عينه النقادة كل عيب ، واهتدت بصيرته النقادة إلى كل نقص ، ووقفت
روحها البصافة على كل عيب ^{عرج} وانحراف ، فاستمان على عيوب الناس ونقا نصير ، وعلى أعيان
الحياة وشذائدها بالضحك والسخر ذلت تقويم والتعذيب ، وللتخفيف والترجيح ، وأباح
لنفسه المتكلم بالأصدقاء ، والسخرية من الأفعياء ، فسجل غرائبهم ، وشاذ أطوارهم
^{مكسج} أقوالهم ، ووردل أفعالهم ، وحبته منهم من شاء ، وسلط عليه الأضواء ، فكشف
عواره ، وهلاه بسوط سخره ، غير طامس ، بلومهم له ، وتشبههم عليه ، فإن براعة براعه ،
ونصاعة بيانته ، وحرقة برهانه ، ولذمة سخره ، ترد عنه كيد الكاذبين ، وسطوة المباجمين ،
وقفت قريبا بينه وبينهم ، تتكسر عليه سهامهم ، أو ترصد ثانية إلى نحرهم .
ولم تقتصر سخريته على الأصدقاء والمخالطين ، وإنما امتد ألقها ، وانفتح مجالها
فشمكت من عرفهم ، ومن سمع بهم ، ومن قرأ لهم ، بعضهم يصح باسمه ، وبعضهم
يستره ويكنيه ، يقول في ذلك ، (ولنا من تسمية الأصحاب المتشككين ولا غيرهم مسكن
المستورين في شئ . أما الصاحب فلنا لاسمه لهو ^{لونه} ، وواجب حقه ، والآخر لا نسميه لسر
الله عليه ، وما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نفس من خرج من هاتين الحالين
ولربما سمينا الصاحب إذا كان ممن يباح بهذا كثيرا ، ورأينا به نظرف ، ويجعل ذلك
النظرف سلما إلى منع شيء (١) .

سخر من كل تصرف غريب ، ومن كل قول عجيب ، وهزى من جاوز حده ، وخالف
مجتمعه ، وطعما في رده إلى نصابه ، ورجاه إلى قرايه ، أو رغبة في التسلية والضحك ،
والترجيح عن النفس ، وقد انفتح مجال السخرية أمامه ، وتمددت موضوعاته ، وأبلا مجتمعه

بأنماط من الناس ، وألوان من السلوك ، وأشتات من المذاهب تدور إلى السخرية
وحضر على التذمك ، فتناول الجميع ساخرًا متكلمًا ، تناول العلماء والفقهاء والقصاص
والرواة ، والمعلمين والفسرين والمحدثين ، والحقق والمنزويين ، والمعلمين والمبالغين
والمتطاولين والمخرفين والموسوسين والمنفلين ، ومن تبع شكلهم وسات خلفتهم .

جمل موضوعات سخرية كل من فيه عيب ومن الذي يخلو من عيب : تناول الجميع
بسخرة ، وتناول نفسه فيمن تناول ، مدنوا إلى ذلك بطبعه الفكه ، ونفسه لرضية ، وقطره
السخرية ، وما يجده في مجتمعه من تناثر ونضاد ، وأوضاع عقلية ، ولا يمكنه - وهو
الاهجبل على النقد ، المحطون على السخرية ، أن يترك هذه المعيرة دون أن ينه عليها
في غزوه خمر .

فلا عجب أن وجدنا تيارا لسخرية يسرى في كل كتاباته ، وينتشر في جميع ما أثار
عنه ، وما روى من أقواله ، ولو كان الموضوع جدا ، أو فكاره صعبة ، يهتلي ، بالأدلة
ويستند على البراهين ، أو دينا كتحليل آية ، وشرح حديث ، بل لقد أفره للسخرية .
رسائل كرسالة الترهيع والتدوير .

وقد تناول بسخرية شتى الموضوعات ، ومتنوع الأحوال ، وغريب الأوضاع ، ومن
أشهر هذه الموضوعات التي دارت عليها سخرياته ،

وإن كان محمداً مفراً بالجدام والفن والبرص والجرب ، أشعر الإنسان بالنفور والتقزز ،
وأبعد عن السخريه والتبكم .

وإن كان مرمياً مفزاً ، كما تساع العدوتين ، وضخامة الدين وقسوة الوجه من أثر
حريق مثله ، فإنه يبدو مخيفاً ، باعتنا على الملح وذلك يقهض نفسه ، ولا يحدث السخر
الذي أساسه هدوء النفس وبرحها .

فإذا كانت نفسية الإنسان مشقة أو مثقزة أو غرقة من موضوع معين ، فإن السخريه
منه محال ، لأننا لا نسخر إلا إذا كانت نفسيتنا مسترخية ، أو منفصلة انفعالا بسيطاً ،
لا يتعرض للأذى ، ولا يصرفنا إلى الألم ، ولا يقهض انهما طها ، أو يديج هدوءها ،
أما إذا كان السخر الجسمي شيئاً غير ضار أو يمكن تلفيه ، فإن السخر يزداد ويتضاعف ،
كالسخرية المبرجة ، وكذلك في الكلام .

على أن السخريه من التشويه الخلق لا توجد إلا في المجتمعات الهدائه ، التي
لم تقل غسلاً وفراً من الحضارة ، ولم يتمدب سلوكها ، ولم تستطع ضبط انفعالاتها ، وتتخذ
من الآم الغيرة ، وبالا دخل له فيه وسيلة للتميز والاستغناء .

وقد يفسد المجتمع الرافق من هؤلاء المشوهين ، ويغير منهم ، ولكن ليس ضحكهم
وسخرهم من صاها تهم ، وإنما من سلوكهم الضحك ، وأدعائهم ما ليس نهم ، كأن يبدوا القنم
في سمات الملاق ، والبهطين في صورة الضامر الخصر ، والسحق القلوب ، والأص في هيئة
حاد الإبطار ، ويصام مشوه الخلق بجمال ظلمته ، وبها صورته .

وإذا كان الحال كذلك في السخريه من الخلق ، ولاخيلة للمرء فيها ، ولا يستطيع
لها تغيير أو تهديلاً ، والموقف أقرب إلى الرثا ، والرحمة ، أو الخوف والفزع ، أو النفور
والتقزز ، منه إلى السخريه والتبكم ، فما بالك بالزى الخالف ، والجزء الشاذ ، والسمت
الغريب ، ما يختاره الإنسان وينقيه ، ويستطيع تغييره وتهديله ، ونظرنا إلى عقلية محضه

بعيداً من الانفعال الماكف في ^{الكلية} ان النفس لا تملك إلا أن تسخر من ليرة قيمة وسرولا
وأطال لحينه وحمل في يده مقالة ^{من حاشي} القدمين ، فهذا في هيئة غريبة ، ويطر مضحك .

من هذه الأنماط نتائج متعددة ملأت عصر الجاحظ فكتب عنها ، وسخر منها . يقول
(وكان إذا أكل ذهب عقله ، وحفظت منه ، وسكر وسدروا لونه وتردد وجهه ، وصب ،

ولم يسمع ، ولم يصر) ^(٣) . يقول في السخرية من هيئة رجل لم تعجبه : (كتب مجتازاً في بعض
الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين كبير الامة طويل اللحية ، ويده مشط بمشطها

نقلت في نفسي ، رجل قصير بطين ألقى ، فاستتره ، فقلت أيها الشيخ ، قد قلت فيك
ضميراً . فترك المشط من يده وقال ، قل فقلت ،

لأنك صموة في أصل حش أصاب الحش طش بعدش ^(٤)

ولقد أثبت الجاحظ عملاً أدبياً متكامل في السخرية من هيئة أحمد بن عبد الوهاب
والخطيب فيه من عيوب جسمية ، ورواية (أ لتربيع والتدوير) ^(٥) يقول الجاحظ (كان
أحمد بن عبد الوهاب مفروطاً لقصره ، ويدهن أنه مفروط الطول ، وكان مرهبا وتعسبه لسمه

جفركه ، واستفاضة خصره مدورا ، وكان جعد الأطراف ، قصير الأصابع ، وهو في ذلك
يدين السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه ، أخمص البطن ، معتدل القامة ، تام المظم

وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدهن أنه طويل السباد
رفع العماد ، عادي القامة ، عظم الامة قد أعطي البسطة في الجسم ، والسمنة

في العلم ، وكان كبير السن ، مقادير الميلاد ، وهو يدهن أنه معتدل الشهاب ،

(٣) الديخلاء ، الجاحظ . تحقيق له الحاجري صفحة ٢٦

(٤) ربح بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء ١٢ صفحة ٢١٦ وقد سقت في الرسالة

(٥) سأقول هذه الرسالة بالدراسة في الفصل الأول من الباب الرابع .

حديث الجلال (٦) فيها يخاطبه قائلا: (قلت البديع وأنت الميسر وأنت المطهر وأنت الوافر، وأنت المتقارب، فيما سمرنا جميع الأعراس به وباشخاصا جميع الاستدارة والطلوع... .. إن استفاضه عرضك أدخلت الضم على ارتفاع سحلك، وإن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولاً، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك) (٧)

ونظير هذا الدليل على ثقافة الجاحظ، ورقة خلقه، ورعا هبة عصره، وثقافة بهيته لأكثرهم سخر من الحبيب الجسدي كما يفعل من لم ينل تسطاً وأفراس خروب المحرفة، وإنما سخر من ادعاء ابن عبد الوهّاب ما ليس فيه، وعظموره في غير ثيابه، وقد رأينا الجاحظ يؤكد ذلك بتكرار كلمة (يهدى)، كان كذا ويهدى كذا. وكما رأينا فحسب قصة الرجل القصير البطين فإن مبحث سخر الجاحظ منه ادعاءه لثناقه، واتخاذة لحيمة تزده جمالا، واعتناقه بتشيطها.

وقد بحث كثيرا في مؤلفات الجاحظ، لأحصل على سخرنا به من الصوب الجعدي فوجدتها قليلة نادرة، تكاد لا تعد على أصابع اليد الواحدة، حتى الرسالة التي أنشأها للسخر خاصة، كان حديثه فيها من الصوب الجسمية ضئيلا، وانصب معظمها على النواحي الفكرية والحلمية، ولعل ذلك لأنه:

- ١- كان مشوها لخلقته، فكان يكره الحديث في هذه الناحية حتى لا تتألم نفسه الجريحة وحتى لا يفتح على نفسه أبوابا من الهجاء والتشهير ما كان أمراءه أن تظل موصدة حتى لا يلجها خصومه وما أكثرهم.

- ٢- كان متقفا متحضرا، ومن شأن المتقف المتحضر - كما قدمت - أن لا يهعن نفس السخر من صوب خلقية لا دخل لصاحبها فيها، ولا يمكنه تقويمها ولا جها.

- ٣- ولأنه صاحب الفكر والمنطق، ورجل العلم والأدب والثقافة الواسعة، فقد كانت نظروفه للثقافة والعلم والأدب على أنها القياس الصحيح الذي يبين مقام الرجال، ويرجع

ككتيم، أما المال أو الجبال، فإنما في الدرجة الأخيرة، أولا يمتد بهما في

ميزان الفضائل.

(٦) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ٨٢ طبعة ساسي طبعة أولى مطبعة التقدم.

(٧) المصدر السابق صفحة ٨٧ و ٨٨.

الفصل الثاني

غريبة الطباع والأخلاق

عن المجتمع العباسي من شدة أخلاقهم ، وحرية طابعهم ، ونبذت عن العرف تصرفاتهم
فانغمسوا في مردول المادات ، ويستدجن الأخلاق ، مستغلين الحرية الفضاضة المتاحة
لهم ، ولا يمتد إلى ما لا نهاية حتى لتلفس بالمفوضى والباحية ، آمنين بطش القانون
الغافلين ، وواخذته . ولم يعدم المجتمع طبقة من المصلحين ، والسياسيين على الخلق ،
المحافظين على كيان الأمة ، وقفت في وجههم ، وأخذت على أيديهم ، وحملتهم محطاً
للتفقد ، ومشار المسخط ، كان على رأسها أئمة الأمة القدي الذي سخر أدهم لخدمة
الحرب ، وناقدها الموهوب الكلمة ، الموهوب الأسلوب " الجاحظ " الذي أدخلهم آمنين
هزله ، وتخذهم وقوة السخره ، فجسم عيونهم ، ليرها في مرآة ضا نهم ، وشكوا
أما هم ، لميلسوها في نفوسهم ، وليلملوا بشاعة ما ركب في طابعهم ، وخرس في أخلاقهم ،
هولك نفوسهم تنهم الزجر والرذع ، وتهم الطريق لهم ، ليلملوا الطباع السليمة ، والأخلاق
القوية ، ويترسوا خطاياهم . فتحدث ما خرا من بخلهم ، وتطلقهم ، وجبتهم .
وخوفهم ، وكذبهم ، ومبالغاتهم ، وإهمالهم ، وشبههم موطعهم ، واحتياهم ، وخفتهم
وتصلبهم ، وتناول بجاد لسانه سائر طابعهم المعقولة ، وأخلاقهم البهيضة ، والتفقد
والتجريح ، وامتلأ بها أدهم ، وحملت سخرته .
وما تناول أشهر هذه الطباع ، وأبرز تلكم الأخلاق ، وأعرض بعضاً من سخريات
الجاحظ منها ، وتكمه بها ، ونبذت بأربابها .

١- البخل ، خاطر
يخس في خاطر البخل أن الناس يريد إنقاره ، وتنفي زوال نعمه ، وتحتال عليه
لتستلب أمواله ، فلا يريد أن يسلم على أحد ، ولا أن يكلم أحداً ، ولا يطلب منه إنسان
شيئاً ، أو يمرض يطلب شئ . إلا ضاق صدره ، وهدرت أنفاسه ، ودارت عينه ، كالذي

يخشى عليه من الموت ، فهو خائف وجل دائما ، يعتقد الشرقي جميع الناس قهلا
أن يفتنهم ، ويصرف طواياهم ، فهو في حرب مع نفسه وأهله وبنيته ، ومع الناس جميعا
ومع الحياة وتقلباتها ، ولا أيام ومشيئا ومشيئا .

والسخرية من البهيل تأتي من استمطام التائه العقبره أو من فخره الكاذب ، وأدائه
الباطل ، أو من تحليله لتصرفاته تحليلًا يفتيها بالكبر والجود ، أو بالحنن والتدبير
أو من تدقيقه المبالغ فيه ، واحتشامه المجاوز الحد ، حتى لا يبقى شيئا دون أن ينتج
به على أكمل وجه ، ثم ينتج بها تبقي ، ثم بها تبقي حتى لا يبقى شيء دون استغلاله ،
والاستفادة به ، وهذا الصرض لا يوصله كما يظن إلى ما يبغيه من راحة وطمانينة ، وإنما

يوصله إلى القلق المستمر على ماله وحرمانه من متع الحياة ، وإهدار كرامته بسبب
معارفه ، والسخرية منه لشدة جشعه ، ومع إعمال حيلته ، ودوام بقائه .

فما غطر عليه البهيل ، والتصق بطبعه وميلته ، تلمس الحلال وما يخاله براهين يرددهما
على نفسه بالتقصير ، وهو في ذلك فطن لبق ، يمدد إلى المنطق الخادع ، والسفسطة
والخالطة ، يوصل إلى الناس أنه كريم ، إلا أنهم يرددونه جذرا ، وهو مدعي أنه مخفي
لكبره لا يحبونه إلا مسرفا متلافا ، يريد أن يخذلهم عن حقيقته ، ويدخله نفسه ، فإذا
هو المختول المخذوع ، ولذا الناس يصرفون حقيقته ، ويقتنون على سره .

ولقد كثر البخل في عصر الجاحظ ، ولما تملكوا الثروات ، وتحكموا بأموالهم في المجتمع
ولحل السرف في كثرتهم ، وانتشارهم ، نشوء طبقة من التجار في البصرة وبغداد وبالقوى
المواضيه . وهذه الطبقة أفتت سرهما ، وأمتلك الأموال بعد فقره فعمرت قيمة الدرهم
فحرصت عليه ، وشعت به ، ثم إن ربح التجار الدافق والحدائقين ، وهو يذل جده من
أجل ذلك فما أحزاه أن يرضى ويخجل . يقول الثعالبي : " وسلموا أن البخل والنظر في
الطوفان مرقون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب الترويج والتكسب والتدقيق " (١)

(١) نمار القلوب في المضاف والمنسوب ، الثعالبي ، صفحة ١

خاص الجاحظ في باطن البهيل ، وعرف طويته ، وخبر سريره ، وما يخلل به نفسه من الآمال المراضحين يجمع لعال ، وما يحسن لنفسه من البهيل ودواعيه مدعيًا أنه الصلاح والعزم والاقتصاد ، وأن عدم إنفاقه المال إنما هو تدبير رزق ، فتدبر به ، وعرف كيف يسخر منه ويحقره .

ولقد سبق الجاحظ في الكتابة عن البهيل الأصمعي وأبو عبيدة وأبو الحسن العدائني ولكن كما يتقدم كانت تأخذ طريق السرد القصص ، ولا يتعمق فيها تحليلًا بالتأملات ، والغوص في أسرار النفس ، وتحليل البهيل ، والحركات النفسية التي تدخل البهيل كما فعل الجاحظ ، ذلك لأنه (مولع بهذا النوع من البحث والتفتيح للحالات النفسية الخفية ، وتبيين الحركات المشحونة المختلفة ، وملاحظة الصلات بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة من كلمة عابرة ، أو إشارة طائفة ، أو لفظة سرية مججلة) (١).

ولقد أقر البهيل كتابًا خاصًا من مؤلفاته هو كتاب البهلاء الذي أطلعنا فيه على تصرفات البهيل ، وما يحسن لنفسه من البهيل ودواعيه مدعيًا أنه الصلاح ، فتدبر به وعرف كيف يسخر منه سخرًا لا ندع يحقره ، ويأخذ يأكله . فالدرهم عند يماوى دية مسلم إن (الدرهم عشر الحشرة ، وإن الحشرة عشر المائة وإن المائة عشر الألف وإن الألف عشر الحشرة الألف ، أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية مسلم) (٢) وكيف يخرق الدرهم من حرزته ، ويوصف بعد ذلك بإيمان أو صلاح ، وقد طرد من جيبه ربيته دلالة الإسلام وقاعدته الأولى ؟ (إن البهيل يستكر ذلك ويقول : والله إن العوالم لينزع خاتمه للأمر بربه ، وعليه حسبى الله ، أو توكلت على الله ، فيظن أنه قد خرج من كلف السلج نذكره حتى يرد الخاتم في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخبر في كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو : إن هذا العظيم) (٣)

(١) البهلاء : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٥٠ المقدمة .

(٢) كتاب البهلاء : الجاحظ ، تحقيق العوامري والجار الجزي الثاني صفحة ٨٦ .

(٣) الصبور السابق الجزء الأول صفحة ١٦ .

وقد يصل الخيل بتدقيقه وتقديره إلى تتبع طعامه بالمعدة والوزن ، ومداومة التأكد من سلامته ، وبعد ذلك عن الأنواء ، وتطول مراقبته زوجته وأولاده وخادمه ، وسد السبل أمامهم وأخذ الصدود والمواثيق عليهم ، ألا يقرّبوا طعاماً لم يبحه لهم ، فإن داخله الشك ، أو ثارت في نفسه ريبة ، نصب لهم الشراب ، واتخذ صنوف الحيل ، حتى يرقمهم في مبالله وكثيراً ما تكون هذه الحيل خارجة على التأليف وفريضة نادرة ، تنزع الضحك وتؤدي إلى الاستهجان والسخرية ، بل إلى الاستهزاء والنور.

وهو الجاحظ لنا صورة ساخرة لشار (كان غلامه إذا دخل الحانوت يحتال ، فربما احتبس ، فاتهمه بأكل التمر ، فسأله يوماً فأنكر ، فدعا بقطنه بيضاء ، ثم قال : امضضها فمضضها ، فلما أخرجها - وجد فيها حلالة وصفرة - قال : هذا إياك كل يوم وأنا لا أقلم ، أخرج من داري) (٥).

وهو لنا صورة أخرى أشد بخلا ، وأكثر تنقيراً للنفوس ، في أسلوب ساخر لاذع ، يفضح الشح ، ويدين كيف يبلغ بصاحبه مداه يقول : (كان عندنا رجل من بني أسد إذا صمدا بين الأكار إلى نخله له ليلقط له رطباً ملأ فاه ماء ، فسخرأ به ، وقالوا له : إنه يشربه ، وبأ كل شيئاً على النخله ، فإذا أراد أن ينزل بال في يده ، ثم أمسك في فيه ، والرطب أصون على أولاد الأكرة وغير الأكرة من أن يحدث فيه أحد شطر هذا الطرء ، ولا يحضه ، قال فكان يملأ فاه ماءً أصفراً وأحمر أو أخضر لكي لا يقدر على مثله في رؤس النخل) (٦).

ولا يملك الصبر أمام مظاهر البخل الشديد التي رسمها الجاحظ ، وسخر منها ، وتوكل بها ، إلا أن يضحك ويضحك ، ويشارك الجاحظ سخريته وتذممه بذلك السخج ، الذي يفرغ عند سماعه لفظ الكرم ، ويصوت فرحاً إذا ذكر أمانه الإنفاق أو لا أعلم ، وهو مسخج ذلك يدعى الأريحية والسخاء ، والبذل والمطام ، وأنه يجد الراحة والسرور أن يهب أخاه شطر ماله ، يقول : (كان عندنا رجل مقل ، وكان له أبع مكر ، وكان مفرط

(٥) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٥٩ .

(٦) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٦٠ .

البخل شديد النج ، فقال له يوما أخوه ، ويحك ! أنا فقير محمل ، وأنت غني خفيص
الظمر ، ولا تعينني على الزمان ، ولا ترأسني ببعض مالك ، ولا تنقني لي من شيء ،
والله ما رأيت قط ، ولا سمعت بأبخل منك . قال : ويحك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا السال
كما تصب ، ولا أنا كما تقول في البخل ، ولا في اليسر ، والله لو ملك ألف ألف درهم
لوهبت لك منها خمسمائة ألف درهم . يا هؤلاء ! فرجل يهب ضربة واحدة خمسمائة ألف
درهم ، بل لا يسعه ويخيل . (٧)

وبما انتقل البخل لطول ملازمة أهله إلى حيوانا تسم وطيرهم ، فأخذوه بالتلقين
وحذقوه ، بالتدريب والتعلم ، واكتسبوا بطول المشقة ، ودوام الصحبة ، فصاروا في
جبلتهم طبعاً . قال الجاحظ ساخرًا من أهل مرو : (لم أراك في بلدك في بلدة قط إلا وهو
لاقط ، يأخذ الحبة بخنقه ، ثم يلقظها قدام الدجاجة ، إلا ديكه مرو ، فإنه رأيت ديكه
مرو تطلب الدجاج ما في منافقها من الحب . قال : فعلت أن يخلط شيء في طبع البلاد
وفي جواهر الماء ، فمن ثم سمع جميع حيوانهم . (٨)

والرفيف عند البخل عدل نفسه ، وعدل مروته ودينه بل هما أهون عليه منه ، (ولأن
يطمن طامن في الإسلام أهون عليه من أن يطمن في الرفيف الثاني ، ولشق صا الدين
أهون عليه من شق رفيف ، لا يجد التلعة في عرضه تلعة ، ويحدها في ثريدته من أعظم
النم) (٩) .

وتلك سخرية ببخل أهل مرو الذي يمدى رجالها ونساءها وأطفالها إلى حيواناتها
وطيرها ، وكان أسرى تشبعت ببخل أهلها ، ثم صارت هي أستاذة في البخل ، تطيع
من عاش فيها بظاهرها ، وتتضح عليه من محبتها لحرها وتقتريا .

(٧) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه العاجري صفحة ١١٥ .

(٨) كتاب البخل : تحقيق الصوامري والجامع ١ ص ٤٦ .

(٩) كتاب البخل : ضبط الصوامري والجامع الجزء الثاني صفحة ١٠٠ .

ظهرت في المجتمع العباس طائفة من الناس أحب طعام الضيمه وهامت به وطسك عليها سمها وبصرها ، فأقبلت على الولائم ، وحفلت بالأعراس ، ففتحت أخبارها ودارت في فلكتها ، وفتلت بالوانها ، رومت بنفسها في أحضانها ، وشاركت فيها دون أن تدعى إليها ، أكلت طعامها ومعداتها ملثمة لا تحتاج إلى طعام وحبوبها وافر العال ، وميوعتها مارة بالخيرات ، عرفت بين الناس بالشرة والنهم والطمع ، ونعت أربابها باسم الطفيليين نسبة إلى طفيل الأعراس أو العرائس زعيمهم في مله معدته من الولائم وسارته إليها بدعوة من نفسه ، يصفه الجاحظ بقوله : (كان بالكوفة رجل من بني عبد الله بن عطفسان يسمى " طفيل " كان أبعدا الناس من جمعة في طلب الولائم والأعراس ، فقيل له لذللك " طفيل العرائس " وصار ذلك نبراله ، ولقبها لا يعرف بغيره . فصار كل من كانت تلك طبعته يقال له " طفيلي " م (١٠) .

ومن صفات الطفيلي حسن المظهره وجمال الهيئة وخفة الوزن ، وإجادة الكتابة وإتقان الحديث ، والبراعة في شغص الأخبار ، والوقوف على غامض الأسرار . . . وقد كان طفيل الأعراس يقول : (وددت لو أن الكوفة بركة مصهجة فلا يخفى على من أعراسها شيء) (١١) ومن أجمل اعتذارات الطفيليين عن حضورهم موائد لم يدعوا إليها قول شاعرهم :

(نحن قسم إلى ذا دمعنا أجبنا)	وقتي تنس يدعنا التطفيل
ونقل علنا دمعنا فغبنا	وأثانا فلم يجدنا الرسول
وأني طفيلي طعاما لم يدع إلي	فقيل له : من دعاك ؟ فأثنأ
دعوت نفس حين لم تدعني	فالحمد لي لالك في الدعوة
وكان ذا أحسن من موهب	مخلفه يدعوا إلى الجفوة (١٢)

(١٠) البخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري ص ٢٨ .

(١١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٢) المختار ، البشرى الجزء الثاني صفحة ١٤١ .

والشره والطبع ، وإقبال على الأكل في يوم صفة مردولة ، ونقيضه سقوتة ، وبخاصة إذا كان ذلك على طعام غيره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذا الأكل الشره على طعام غيره لم يدع إليه ، ظهر لنا مدى قبح هذه الصفة ، ومهانة صاحبها .

وقد اتخذ التطفل مادة ثرة للسخرية ، ومحبنا لا ينصب للهزة والتهمك ، لعناقه مسا طبع عليه المجتمع ، وما تمارقه الناس ، وما رغبهم عادة تجرى مجرى القانون ، فالتناس لا يذهبون إلى وليمة إلا إذا دعوا إليها ، ولا يملكون من طعام غيرهم مستبحون الأكل إلا إذا أذن لهم فيه ، لكن الطفيل يدمر نفسه ، ويأكل ما رصمه الأكل ، لأنه ماله وحده وإن كان في ماله وطعامه رفيق الأخذ حذرا ، فإنه في مال غيره جشع مطلق ، كثير اللقم سريع الهضم ، له طرق في الوصول إلى القلوب ، تضمن له سرعة وصول الطعام إلى الأمعاء ، فهو يتصنع في ذلك الحيل ، ويتلطّفه ، ويدقّ تلطفه ، حتى ليحسبه أهل الزنج مسن أهل الزوجة ، فيجلونه ويكرمونه ، ويقدمون له أطيب الطعام ، ويحسبه أهل الزوجة مسن أهل الزنج ، فهو يمزونه مكانا عليا ، ويحلونه محلا سنيا ، ويصدرونه الخوان ، ويقتن هؤلاء في إ طعامه ، ويمن أولئك في إتحافه ، فيجول في العائدة ويصول ، ويكس ما عليه ما يودعه صندوق يظنه ، وإن كان مضمنا ، مكتظا ، وهو لبق مفتن ، له رؤا ، ويظهره ، وحسن سمع وحال أحواله ، حتى ليخدهم من أنفسهم ، وينصيحهم العرس بما فيه .

فإذا رويت نوا دره ، وذكرته حوادثه ، تخللها التهمك والهزة ، والسخرية والتمسخر ، فضحك ليجاوزته الحد ، وخرجه على العرف ، ونظرب لمن تأتبه ، ودقة احتياله ، ومهارة تصرفه ، ودعائه .

لم ينس الجاحظ - وهو الخير النقاد - هذا الصنف من الناس ، ولم يسلم من غضبه وسخطه ، فتناوله تناولا با رعا ، وجعله من موضوعات السخرية التي أودعها بطون كنه ، وأشاعها بين الناس في عصره ، وشناقلتها الأجيال بعد عصره ، فكلمين مرحين ، أو قارئين دا رسين .

ومن سخرياته في ذلك ، (كان قاسم شديد الأكل ، شديد الخطيئة ، قدر المأكلة ،
وكان أسخى الناس على طعام غيره ، وأبخل الناس على طعام نفسه ، وكان يحمل عسل
رجل لم يسمع بالحنطة ، ولا بالتجمل قط ، فكان لا يرضى بسواه على طعام ثمانية
حتى يجرمه ابنه إبراهيم ، وكان بينه وبين إبراهيم ابنه في القدر بقدر ما بينه وبين جميع
العالمين ، فكانا إذا تقابلا على خوان ثمانية لم يكن لأحدهما أيهاهما وشأنهما
حفظ في الطيبات ، فأخو يبرأ بقصة ضخته ، فيها ^{ثلاثة كروية} ^{إصمعة} ثمانية كروية الصمعة ، مقلدة بالكيل
من عراق ، بأكثر ما يكون من العراق ، فأخذ قاسم الذي يستقبله ، ثم أخذ ينفذ ،
وأخذ ما بين يدي من كان بينه وبين ثمانية ، حتى لم يدع إلا رقما قدام ثمانية ، ثم مال
إلى جانبه الأيسر ، فضع مثل ذلك الصنيع ، وراضه ابنه وسأله ، فلما أن نظر ثمانية إلى
الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوقة عارية ، واللحم كله بين يديه وبين يدي ابنه ، ولا قطمعة
واحدة بين يديه تنازلا فوضعا قدام إبراهيم ابنه ، فلم يدفعا ، واحتجب بها نفس
الكرامة والبر) (١٣) .

وكثير من الطفيلين كانوا على علم ، وخبرة باللغة العربية وآدابها ، وصرحوا بالكلام
وقد كان بعضهم يتخذ من ذلك دليلا على أحقيتهم في الطعام وأن الكلام له واقع حتما
وقدر عليهم ، وكتب في اللوح المحفوظ يقول أبو عثمان ، (وكان رجل يفتش طعام
الجوهري ، وكان يتحرى وقته ولا يخطئ ، فإذا دخل والقى بالكل ، وحين وضع
الخوان ، قال : لعن الله القدرة ، من كان يستطيع أن يصرقني عن أكل هذا الطعام
وقد كان في اللوح المحفوظ أني سأله : فلما أكر من ذلك قال له راجع ، تعال بالمعش
أو بالفداء ، فإن وجدت شيئا فإلن القدرة ، وإلن آباءهم) (١٤) .

(١٣) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجري صفحة ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٤) البخلاء : الجاحظ : تحقيق طه الحاجري ص ١٤٧ .

ويرى الجاحظ في قصة أحمد بن خلف الذي ورث مالا كثيرا ، (نقلت له - وقد ورث هذا المال كله - ما أبطل بك الليلة ؛ قال : لا والله ، إلا أنى تمنيت لي أجرة في البيت .
نقلت لأصحابنا : لولا أنه بعث العهد بالأك في بيته ، وأن ذلك غريب عنه ، لما احتساج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة ، وأن يتمتعوا الناس إلا في منازلهم ؛ ولزنا
على الرجل عند مثل هذه المسألة ، لا والله إلا أن فلانا حشني ، ولا والله ، إلا أن
فلا ^{فما عزم} لا يفتقر على ، فلما ما يستنى وشرط فلانا ما لا يكون إلا على ما ذكرناه قبل . (١٥) .

.. ..

٣ - البلادة والإحمال

إذا كان الشخص مملا ، بليد الإحساس ، خامد ، بالماطفة ، جامد الشعور ، يرى النير فلا يثور ، ويستغضب فلا يغضب ، كان موضوعا حيا للسخر ، ونموذجا رائعا للإضمار ،
وسبلا فكها للتمك ، وذلك لشدة زده عن مقاييس مجتمعه ، وظهوره بين الناس في مظهر غير
مألوف ، يناهضه المجتمع ويحاربه ، وهل هناك أذنى ^{أدنى} للسخرية والاستهزاء من يحتاج ماله
أو حقن حرمه ، وهو جامد صامت ، لا يبدى استنفاء ، ولا يظهر نفورا أو شقازا ، أو
من يترك ما يؤذيه ، ويلقى الناس دون أن يدفعه ويرفضه ، وإن كان قليل الثروة مبدل
الإزالة ، وهو السبب في وجوده ، والطفة في بقائه ؟ ؟

وقد كان الإحمال وبلادة الحس موضوعا لسخرات الجاحظ ، وكان له ضما مده لا يتفده ،
وسمين لا ينضب ، وبنائج متعددة ، ملأت مجتمعه نعالجبا بالسخر ، واجلها بكشف
معيها ، وهتك أستارها ، قال : (قال الخليل ، كان أبرقطة يستغل ثلاثة آلاف دينار
وكان من البخل بآخر تنقية بال ^{لوحده} إلى يوم المطر الشديد ، وألسل البهاق ، فبكرى
وجلا واحدا فقط ، يخزن ما فيها ، ويصبه في الطريق فيجرحه السبل ، ويؤذيه إلى القاة
وكان بين موضع بثره والصب قدر ما تنى ذراع ، فكان لكان زيادة درهمين يحصل الانتظار

شهرًا أو شهرين ، وإن هو جرى في الطريق ، وأدى به الناس (١٦) ، إنه البطل السدي
يؤدى إلى بلاد الشحرور ، وإسماعيل الواجب ، وهم إحساسا لهم ، بنفسه كما نمان له كرامته
واحترامه .

والشخص الممثل الذي لا يقدر مسئولية ، ولا يهتم بشخصية ، وسكانته في مجتمعه ،
ولا يهتم بها كفاء من المظهر ، ولست ، أ ، العلم والعمل ، فيستغف بمظاهر الأمور ،
ويعتبره بكل القيم ^{للمجتهد} ، ولا يهتم بمجتمعه ، ولا يهتم ، نتيجة إسماعيل ، ولا يهتم بمجتمعه ، ولا يهتم
ولا يحترمه ، وإنما يجعله محور سفره ، ومادة فائدة لهم ، والاستغناء ، وقد عرف
الجاحظ الممثلين ، وضررهم على أنفسهم ، وعلى المجتمع الذي يعيشون فيه ، فاعتقد
الشعرية منهم طريقا إلى إظهار مساوئهم ، وتبيين فعالهم ، وأتبع هؤلاء الممثلين عند
من ألقى كلامه على علته ، مع جليل خطره ، وبين خطئه ، لم يدقق فيه ، ولم يخلصه ، ولم
يرده ، وصورة لائحة ، وسوأة واضحة ، فأضر نفسه ، وأضر مجتمعه ، وأضحك الناس
عليه أبدا الدهر .

قال الجاحظ يضر من الممثلين ، الذين لا يشتهون من كلامهم ، ولا يهتمون علمهم
اللطيف ، ويلقونه دون فهم وتمحيص ، إن يعرف أصحاب التفسير يزعم أن الله عاقب الهيئة
حين أدخلت إبليس في جهنم حتى كلم آثم وحوا ، وخذلها على لسانها بمشر خصال
منها شق اللسان . قالوا ، ولذلك ترى الحية إذا ضربت للقتل كيف تخرج لسانها لتتري
للضارب عقوبة الله ، كأنها تسترحم . وصاحب هذا التفسير لم يقل ذلك إلا لحيمة كانت
عنده تتكلم . (١٧)

(١٦) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجر ، ص ١١٢ ، ١١٤

(١٧) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء السادس ، صفحة ٢٤٤ ، ٢٥

في الكذب والبالغة لغة :

الكذب والادعاء : والبالغة والغلو صفات خارجة عن القطر المستقيم والطباع
السوية ، فالكذب من الصيوب الأخلاقية التي تروى بالفرد والامة ، والبالغة السني
تصلك سبيل الادعاء والغلو والتطرف من الصيوب الاجتماعية التي ينكرها المجتمع ،
ويسعى جاحدا للتخلص منها ومن أضرارها ، فالكاذب والبالغ المدعي - وهو كاذب
أيضا يستخفان بحقل السامع ، ويتلاعبان به ، ويظنان فيه المذاجع والغفلة ، فإذا كان
السامع عالما حفيظا الأمر ، واقفا على تفصيلاته ، فإله طيبة حبه ، على كاذبه ونفخه
تأثر تصديقه وتأثر كرامته ، في صور مختلفة ، منها السخرية به ، بكشف قناعه ، وإظهار
ما حاول ستره وإخفاؤه ، أو بمباراته ، وإظهار رصدي كلاه ، ثم يقتله بألفاظه ، ويخرج
بلسانه ويوقعه في حياثه ، وفي الشراك التي أهداه فكانت مصيده ، وقاصمة ظهوره ،
فتقلب السخرية عليه ، ويصير هزاة بين أقرانه ، بعد أن كان يضحك ملء قلبه ، ويتشامخ
في أعفائه ، ويظن أنه الساعرا لسخان ، وأن سامعه هو الفاتل الضعيف .
والجاحظ يستغل هذه الصفة في بعض معاصره ، فيتهم عليهم بخرابهم ، وقائل
استكبره ، ونفخ من نفخهم . يقول : إن أحمد بن الخاركي كان يحملا وكان نفاعا ، وهذا
لفظ ما يكون منه ، وكان يتخذ لكل جبة أربعة أزراره ، يرى الناس أن عليه جبتين ،
ويشتري الأعناق والمراجين والسعف من الكلاء ، فإذا جاء الجبال إلى بابسه
ترك ساعة يوم الناس أن له من الأرض ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها ، وكان يكثر
قدور الخمارين التي تكون للنهيد ، ثم يتسرى أعظمها ، ويدرب من الحمالين بالكرام
كي يصيحوا بالباب ، يشترن الدالكى والسكر ويحبسون الحمالين بالكرام
وليس في منزله رطل ذهب (١٨)

(١٨) كتاب البخل : الجاحظ ، تحقيق النواصي والجام الجزء الثاني صفحة ٤٩

الحماية والرعاية ، ودرء الأخطار كالأب بالنسبة لأبنائه ، وكالمسرح بالنسبة لنزوحته ،
وكالجندي بالنسبة لوطنه ، وتحقيق السخر إذا [دعى هذا الجبان الشجاعة ، وأظهر
القوة والجلد ، وحاول ستر ما في نفسه من اضطراب ، أو اعتذر بعتدروهم ، واعتل
بمضلة مفتعلة ملققة يمين بها سبب احتجاجه ، ويتضاعف السخر إذا وقف السامع على حقيقة
الموقف ، وأدرك الخدمة التي ينسجها الجبان ، وأدعى عدم المعرفة ، وواقفه في كلامه
وجا راء .

ولما كانت هذه الصفة محيية بالنسبة للماحبين وكان ضررها يمتد إلى مجتمعه ، وألقا نون
لا يحاسب عليها ، ولا يفرضها للقوة على من اتصف بها ، ولا لمجتمع لا يقبلها ولا يرضاهما
ومن واجباته تقوم من شد من أفراده ، وحاد عن الجادة ، فقد ابتكر وسيلة للردج
ليس السلاح فيها العقوبة الجسدية ، ولا العقوبة المادية ، وإنما العقوبة المعنوية ، فلجأ
إلى السخر سلاحاً يشره في وجوه الجبناء ، علمهم يرمون ويتشجعون .

وقد وجدت هذه الصفة في كثير من أفراد المجتمع العباسي ، ولقطتها من الجاحظ
الناقذة ، عليه عليه ، وسخر منها ، واحتججنا أصاباً بها ، ورس الصور الكريمة التي عجز
تخفيض فيها ، وتشفر الناس منها .

يقول في كتابه الحيوان : (كان بها لهبرة شيخ من بني تيمل ، يقال له مروة بن
مرقد . نزل بني أخت له في سكة بني مازن ، وبناؤه من قريش ، فخرج رجالهم إلى
ضياهم ، وذلك في شهر رمضان ، وحققت السماء بطلين في سجدتهم فلم يبق في
الدار إلا كلب يصره ، فرأى بيتاً فدخل ، ولصق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء
فظفوا أن لها دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبي الأمز ، وليس في أبي رجل
غيره ، فأخبرته فقال أبو الأمز : ما يعني اللسنا ؟ ثم أخذ عصاه ، وجاء حتى
وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملا مان ، أما والله إنك من لمارف ، وإني بمسك
أيضاً لمارف . فبعل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا
دارت الأقداح في رأسك مثلك نفسك الأما في ، وقتلت دور بني عمرو ، والرجال خلوف .

والنساء يصلين في مسجد من ، فأسرقين . سواة والله ، ما يفعل هذا الأحرار . ليس
والله ما منك نفسك فاخرج ، وإلا دخلت عليك فصرمتك مني العقوبة ، أليس الله لتخرجن
أولاكم من حنته مشيئة عليك ، يلتقي فيها العيان كمرور حنطة ، ويصير أمرك إلى تباب ،
وتجس . سعد بهذا الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ما هنا وما هنا . . . ولئن فعلت
لتكونن أنتم مولود في بني تميم . . . فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين ، وقال : اخبرني يا بني
ما كنت مستورا ، إني والله ما أراك تصرفني ، ولو عرفني لقد قنعت بقولي ، واطمأنت إلي
أنا عمرو بن مرثد أبو الأعز المرثدي ، وأنا خال القم ، وحلدة ما بين أمهم ، لا يهصوني
في أمر ، وأنا لك بالذمة كليل خفي ، أصبحك بين شعبة أدنى وهاضي ، لا تضار ، فاخرج
فانت في ذمتي ، وإلا فعندي قوضتان إحداهما إلى ابن أخي البار الوصل ، فخذ إحداهما
فانتهما حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، الكلب إذا سمع الكلام أظسرق
وإذا سكمت وشب برئ الخرج ، فتصافيت الأعرابي أي تصافه ثم قال : يا ألام الناس
وأضعهم ، ألا يأتيك لك ، أنا منذ الليلة في زاد وأنت في آخر ، إذا قلت لك المودة
والبضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكنت منك تريح الخرج ؟ والله لتخرجن بالمقوعك ، أولا ليجن
عليك البيت بالعقوبة ، فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الصي ، فقالت : أمراهم
مجنون . . . والله ما رأيت في البيت شيئا . . . ودعمت الباب فخرج الكلب نداه ، وجاء
منه أبو الأعز مستلقيا ، وقال : الحمد لله الذي مسحك كلها ، وكفاني منك حيا . . . ثم
قال : يا الله ما رأيت كالليلة ، ما أرا ، إلا كلها ، أما والله لو علمت بحاله لولجست
عليه (٢٢)

(٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣
وسمه في عيون الاخبار ابن قتيبة الجزء الأول صفحة ١٦٢ ، ١٦٨ .

الفصل الثالث

ضمف العقول

إذا تنكح الجاحظ بالصوباء للجسمية ، وسخر من الطباع الضرية ، والأخلاق الشاذة
 ومثلاً بذلك أدبه ، وكثر نقده ، فإن تنكحه بضمف العقل ، وسخره من ثقافة التفكير
 وهو رجل العقل والفكر - يحتل من أدبه مساحة شاسعة ، ويتناول موضوعات كثيرة ، ينبه فيها
 الجاهل السففل ، والموسوس المخرف ، الذى يسير وراء الشائعات دون أن يتبنت
 ويتحقق ، ويرتد إلى صوابه ، ويوازن بين حاله تلك ، وما يجب أن يكون عليه .
 ومن أخطأ دركات الضمف العقلى "الجنون" وهو عيب يل مرض شديد الضرر بصاحبه ،
 ويخيره من يحاشره ، ومضية يتمذرع على من ابتلى بها وعلى مجتمعه التخلص منها ، لذلك كان
 مبغىاً للمنطق فى القلوب ، واخوف فى النفوس ، والرتاء لصاحبه ، والاكتئاب من أجله
 ولا يسخر منه إلا من غلظت قلوبهم ، وانحرفت طباعهم ، وخففت ^{ذهبت} نفوسهم ، والنزعات الإنسانية
 وباتت فى ضائقتهم بواعث المشاركة الجذائية ، فتلذذوا بمصائب الناس ونحسوا ليكائبهم
 وآلامهم .

لذلك لم نرا لجا حظ يسخر من فقد عقله بل أنصبت سخريته على ضماى العقول الذين
 يظهر من بظهور العقلاء الحكماء بمالم يعمد فهم وتصرف تدكباته إلى تسرفاته الشاذة
 التى لا تلحق ضرراً بالنفس ولا بالخبر ، فإن ألحقت الضرر كان فيها غشلاً لا يحرف
 النفس من مرحها وسرورها . ويذكر الجاحظ المثل على ذلك بقوله (ومن العجائين الأشراف
 ابن ضحيان الأزدي ، وكان يقرأ * قل يا أيها الكافرين * فقبل له فى ذلك فقال ، قد عرفت
 القراءة فى ذلك ، ولكنى لا أجل أمر الكفار) (١)

يرى الجاحظ أنه : (كانت بالكوفة امرأة يوماً يقال لها مجيبة ، فقدت مدلول فتى

(١) البيان والتبيين الجاحظ تحقيق عهد السلام ط ١٠٠٠ : الجزء الرابع صفحة ٢٠

كانت مجيبة أرضته ، فقال له بطلول ، كيف لا تكون أكرم وقد أرضعتك مجيبة ؟ فقال له
لقد كانت تنق لي اللبن فأرى الرخصة في طيرائه (٢) .

يقول الجاحظ ، (ومن مجانين الكوفة بطلول ، وكان يتشبه ، فقال له إسماعيل بن الصباح
أكرم الله في النسبجة مثلك . قال ، بل أكرم الله في العرجة مثلي ، وأكثر في الشبهة
عطلك) (٣) .

كان بطلول (جيدا) لقا كقربا مريه من يحب المحبة به فيقده . نحساقناه خراي
وحس على قارة الطريق ، فكلما قده إنسان تركه حتى يجوز ثم يصيح به يا فتى ، ثم
يذكرك فلم يمت بعدها أحد يقده (٤) .

ومن ألوان الضعف العقلي التي جعل بها أدب الجاحظ ، وثالث قسطا وفيرا من
عبه وسخره ، وقد لبا الأهواب والفصول غن كنهه .

الجهل والغفلة

الجاهل ، والفافل يسمران ضد قوا نون الطيبة ، لا يفرقان من أمرها شيئا ، ولا
يفرقان بين الشار والنافع . وقد يفعل أحد هما الشيء ، يعتقد أنه خير حظي ، والحق
أنه شر صريح ، وقد يلقى الكلمة يرى أنه بها استاذ الأماندة فإذا هو بهمان
سفلة ، وضوان جهلة ، وذلك ما يخرينا بالتكلم به ، وقد نمنا إلى السخرية منه .
وكيف يهلك الإنسان نفسه من الضحك والسخرية ، إذا جاهل غافل ، يعكس لا مسر
ويقلب الموازين ، ولا يسير مع تفكيراته ومجتمعه ؟ فإذا بلغ الجهل والغفلة الغاية
نظن أنه اللقيح للفقن ، وأعتقد أن ما سوا من الناس تافهة عقولهم ، كلية أنظارهم ،
واستخدم (طائفة) الاخفاء بطريقة معكوسة ، فإذا هو يحتجب من نفسه ، ويؤمن لثافته

(٢) المصدر السابق ، الجزء الثاني صفحة ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر ، صفحة ٢٢٠ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها ٢٢٠ .

النا من ^(٥) إيمان السخرية منه تبلغ ذراها ، وتتجاوز مداها ، وتفقد فيها الإنسان ما شاء له استنائه ، إذ ^(٦) (الشخصية تكون مضحكة على قدر ما تجادل نفسها تما ما) ^(٥) .

ولقد كان الجدل والغفلة موضوعا فسيحا للسخرية في أدب الجاحظ ، وهذا أنا وجهنا للتكلم والاستنزاع ، والضحك والإضحاك ، تنبيهنا إلى الأخطاء ، وحثنا على إقامة المعجزة ، فلما عشت الجاحظ هؤلاء الجمللة الأدياء ، والفانلين الأغبياء ، وسخر منهم وما كان أكرهم في مجتمعه - واتخذ من جهلهم وففتهم ، وضرورهم وتكبرهم ، وسيلة لإلهابهم بسياط هزئه ، ولادع سخريته ، فأحال اليك ضحكا ، ولاكتساب نشاطا ورجا ، يمدى ويرشد ، ويقنع ويقهر ، أو يطفئ لهيبا للقلب ، وقل الصدره هؤلاء .

أحوالهم تدعو إلى المصعب ، وتدفع إلى السخر ، فمنهم من يعتقد أن (القارة من خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان ^(٦)) . ومنهم من يروى أن الأسد في سفينة نوح عطف عطفة غريب من سخرية نوح ، سنانير فلذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد ، وسليح الفيل نوح خنازيره فلذلك كان الخنزير أشبه شيء بالفيل ^(٧) . لسخر الجاحظ من الأول بقوله : (فهل سمعت بحجة قلة أو بحيلة ، أو بأضعفكة ، أو بكلام ظمير على تلقيح حمرة يبلغ مؤن هذا الاعتلال) ^(٦) . وسخر من الثاني بقوله : (فنهني أن يكون ذلك السنور آدم السنانير ، وتلك السنورة حواء) ^(٧) . ويقول بعد ذلك : (وهذا الحديث ناسق عند المومنين ، ومن بعض القصاص) ^(٧) .

ومن هؤلاء الجمللة الفانلين ، الذين عاصروا الجاحظ ، وما ولهم أدبه بالسخر ، من كان يفترض فروضا غريبة ، ويدعي الكبر ، والبصر بالمنطق ، فيقول (لو كنت لسانا ، وأنا ابن من أنا منه ، لكت أنا أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، فكيف ^{كيف} وأنا أنا ، وابن من أنا منه) ^(٨) . أو يحلل لرأية تحليليا يحمل الدليل على نفسه ، هذا الرأي ويطلانه ،

(٥) الضحك : هنري برجسون ، ترجمه سامي الدري ، وهذا الله عبد الدائم صفحة ١٦

(٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠

(٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الخامس صفحة ٣٤٢ ، ٣٤٨

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٣١٥ ، ٣١٦

(قال لي عباس بن القاسم ، بأى شئ تزعمون أن أبا علي الأسواري أفضل من سلام أبي
المنذر؟ قال : لأنه لما مات سلام أبو المنذر ذهب أبو علي في جنازته ، فلما مات أبو
علي لم يذهب سلام في جنازته) (٩) - أو يخلط في الفاظه فيقول : (ولدت في رأس الليل
لنصف من شهر رمضان ، حسب الآن كيف شئت) (١٠).

أو يقول (تزوجت امرأة مخزومية من صها الجاج بن الزبير الذي خدم الكعبة) (١١)
يقدر تبليغ به الغفلة والجهالة إلى أن يكتب غير ما يسمع ، ويستل غير ما يكتب ، ويقرأ غير
ما يستل ، ويقرأ غير ما يقرا ، يقول الملاحظ فيه : وسكت كيسان - ولعله من أساء للأضداد
أثقلت عليه يوما ، عجبت لمشتري عدلوا بمشترها عمرو
فكتب أبا بشره وقرا أبا حفص واستل أبا زيد (١١)

والجاحظ من وراء هؤلاء ، يتمتعهم بسخرية ، ويوشدهم ، ويعين سوء مقالتهم بحبر
شبههم ، وهو في ذلك القائد الماهر ، والخبير العالم بطرائق النفوس ، وأن الجاحظ
عصى جميع ، وثائر شرود ، إن أخذ بالعرف والقدر ، طبع دليل ، إن عولج باللمن ، وطهب
بالبرادة والرفق . والعنف والقهر صفات الجاهل ، واللمن والرفق صفات السخرية
وقد كان الجاحظ بعيدا عن الهجاء ، بارعا في السخرية ، يفتن فيها ، ويتخذها
أداة لإصلاح وتوبيخ للجهلة الثاقلين ، مراعيًا حالهم النفسية ، ضاربا على الوتر العما من
في نفوسهم وهو اطفئهم ، فتصدر النخمة الشبهت على الخطأ في سلاسة ولونه ، لا تخرج ،
ولا تسيل الدماء .

وقد يكون
وقد يكتبون لما خرفنا لبقا ، بصرف الجمل والضماء ، كما يعرف القطة والذكاة
وهي مع ذلك عدم المعرفة ، فتعاقل ويتعاقب ، ويجاويز الجاهل النازل ، ويوافقه
على ما يقول ، ليسل منه إلى أقصى ما يريد . وقد يبدأ هو الحديث بخبرته ويولده

(٩) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عهد السلام حارون الجزء الثاني صفحة ٢٣٤
(١٠) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عهد السلام حارون الجزء ٤ ص ١٥ وفي نهاية

الآهي ج ٤ ص ١٢ .

(١١) جمع الجواهر ، العصري ، صفحة ٢٦٦ وزهر الآداب صفحة ٢٥٤ ط ١٩٥٢ .

وندمه ، ليرى أثره في نفس النافل ، وليفتح له بابا يلج به ، فيتردى في حلوة سديقة
 أنتهاكها له ، وهو تأمر بخوره ، هاتى * يتربطه ، وذلك مذهب الجاحظ الذى ينادى به ،
 ونحو قوله فى قوله : (إنا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالم ، وفى أى طبقة هموه
 وأردت أن تدخله الكبر ، فتفتح عليه ، ليظهر لك فيه المصدة من الفساد ، فكن عالما
 فى صورة متصل ، ثم أسأله سؤال من يطلع فى بلوغ حاجته منه) (١٢) . وهو يطبق ذلك فى
 قوله من قبله : ولست أن الشارى حدث أن الخلويع بحث إلى التأسين بجرب
 فيه سمس ، كما أنه يخبره أن عنده من الجند يحدد ذلك الحب ، وأن التأسين بحث إليه
 يدك أصره ، يهد أن طاهر بن الحسين يقتل هؤلاء ، كدس كما يلقط الديك الحب .
 قال : فإن هذا الحديث أناولته ، ولكن انظر كيف سار فى الاتفاق (١٣) وقوله : قلت
 للملك سرور ونحن فى طريق بغداد) ، (ما بال الفرسخ يكون فى هذا الطريق
 فرسخين ، والفرسخ يكون أقل من نصف فرسخ ، ففكر طويلا ، ثم قال : كان كسبرى
 يقطع للناس الفراسخ ، فإذا صنع صاحب القطيعة زاده ، وإن لم يصانع نقصه) (١٤)
 وقد يكون هذا التناقل والتباهل للثقة ، وسرما يستكن فى النفس جارة لمن معه ،
 ومداواة لهم ، حتى يمتدح عن أذاهم ، ويهرب من تدسهم وقواتهم . أو للسخرية فحسن
 انقلبت موازينهم فكروها الصواب ، فلهو بجا زيم على نفس قولهم بالتناقل ليمتدحوا فى خيم
 وليجنوا مرة جلداس . أو لتجسم الجبل والخفة وتدولها ليهضروا مدى نهجهم
 فى فخرهم فعملوا على محوها من أنفسهم .
 ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ قول المصطفى :

(١٢) الحيوان الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ١١

(١٣) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس ٣ صفحة ٢٢٧ .

(١٤) نفس المرحم والمصفة .

(وأنزلني طول النوى دار غرسة
إذا شئت لأقيت الذي لا أشأ كله
فعلقت حتى يقال سجة
ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله) (١٥)

(وقال آخر: تحامق مع الحق إذا ما تقهت
ولا فهم بالثوب فعل أخى الجبل
يخلط إذا لاقيت يوما مغلطاً
يخلط في قول صحيح وفي منزل
فاني رأيت العراء لم يفتني بحقله
كما كان قبل اليوم يسعد بالمقل (١٦)
وأنشدني آخر وللدهر أيام تكن في لهاة
كله يوم أبعد وأخلفاً
وكن أكرم الكيس إذا ما لقيت
وإن كنت في الحق تكن أنت أحقاً (١٧)

٢- الخرافات

والخرافات والأباطيل، واللقاء الخباك على الفريسة، واللمب بمقول الناس وإعطيا دمه
سهلة هينة، وخلت العامة وغداهم، وبخاصة إذا كان المختول المحدث يعتقد أنه
يقول أن يمدح، وميلبة للضمك، وأكبر داع للسخره والذي يقلب الأمور ويحكم الأوضاع
فيعتقد صدق الخرافات، ويؤمن بما يقوله المشعوذون، ويخضع لهم تمام الخضوع، أو
يقوم هو بالشعوذة فيصيد العقول، ويستخف بالألحاف ويغلب بالنفوس، مصدر من مصادر
التكسفر، ووضع جيد من موضوعاته، يدفعنا إلى الضحك والاستهزاء من باع ضيمه
ودينه ليكسب المال من طريق بناني الخلق والدين، والسخرية والتكلم من يقع تحت
سيطرته ويسير في ركابه، وينقاده انقياداً أعمى، يلقي فيه عقله وشخصيته، ويصبح لعبة
في يد المشعوذ الدجّال...

- (١٥) البيان والتبيين: الجاحظ، شرح هارون الجزء الثاني صفحة ٢٣٥، في ج ١ ص ٥ ٢٤
ج ٤ ص ٢١
(١٦) البيان والتبيين: الجاحظ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٥
(١٧) البيان والتبيين: الجاحظ، الجزء الرابع صفحة ٢٦

لم يحمل الجاحظ هؤلاء في كتاباته ، فجعلهم مجال سخرته وإضحائه ، طمعا في أن يهتبه العامة والخاصة لهذا الضرر الناجق ، والشر المستطير ، وعلامة خطر لمن يقصون تحت تأثيرهم ، رواية حمراء في وجوه المخرفين ، إنذارا لهم بانكشاف أمرهم ، واقتضاح سرهم ، ليرتدعوا ويحذروا ، فكانت السخرية في أدبه علاجا يعنى به ضماط المفصول من ضماط النفوس .

ولم يأخذ آراء الملباء المشهود لهم بالسبق والفضل قضية مسلمة ، بل عارض كل ما خالف عقله ، وسخر منه حتى ولو كان لأكبر فلاسفة اليونان أرسطو . قال عنه : (قال صاحب الملقط : ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية طبقون حية صغيرة ، شديدة اللدغ إلا أن تمالغ ^{تجرب} من بعض قدام الملوك . ولم أنهم هذا ، ولم كان كذلك) (١٧) وقال : (وقد زعم صاحب الملقط أنه ظهرت حية لها رأسان ، فسألت أمراها عن ذلك ، فزعم أن ذلك حق . فقلت له : من أي جنة الرأسين تسمى ؟ ومن أيهما تأكل وتعض ؟ فقال تأما المص فلا تسحق ، ولكلها تسحق إلى ما جئنا ، بالتقلب كما يتقلب الصبيان على الرمل . وأما الأكل فإنيما ^{تعض} بضمي وتتخذى بضمي ، وأما العض فإنيما تعض برأسينا معا ، فإذا به أكذب البيرة . وهذه الأجاديت كلها ما يزيد في الرعب منها ، وفي تمثيل أمرها) (١٨) .

وقال سائرا من بعض آراء علماء الطب في زمنه ، المشهود لهم بالصدق والفوق ، ولأنها خالفت تفكيره ، وشدت من عقله الحصف ، ومن عقل عامة الناس ، (خيرين ثمانية من أمراء المؤمنين الأمن أنه قال وقال لي يفتنهم بن جبريل ، وسلمويه ، وابن ماسويه أن الله باب إذا به ^{لغة الزبور} موضع لصحة ^{لغة الزبور} مني . فسلمني زبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة ، فما سكن إلا في قدر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج ، فلم يبق في يدي نظم إلا أن يقولوا : كان هذا الزبور حقا غائبا ، ولولا هذا العلاج

(١٧) الحيوان ١ : الجاحظ ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٦ .

(١٨) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الرابع ، ص ١٥٦ .

الملك ، وذلك هم إذا سقوا دجرا فضره أو قطعوا عرقا فضره قالوا أنت مع هذا
الحلاج الصواب تجد ما تجد ، فلولا ذلك كنت السلعة في تاريخهم (١٩)

وإذا كانت هذه هناء من أشهر علماء الأفريق وفلاسفتهم ، وسقطات تروى فيها
بعض الخدائ عسره ، نكتفينا بغير فكه ، وإياها يجرى قلمه في غير مما به ولا وجل ، فلا
غرو أن سخر من غيرهم ، وممكن ظمراة حنا وهم ، ووضح تخريفهم ، حين قال بعضهم ، لا يرى
قدهت بالفقر مع الغلول ، وتروى السلالة ، وجاوت الهاف ، ورضت عن الجن إلى السن
واصطدبت الشق ، وجاوت النسا من ، وصحبني الرئي (٢٠)

وحين استغل المتطهون في ضماياهم ضعف العقل ، فأتخذوا الحيل لا يترازا أموالهم
جعلهم الجاحظ من موضوعات السخرية في أدبه ، وضحك منهم ، وأضحك الناس عليهم أهد
الدهر ، يقول : (كان واحد يسخر بالناس في يدعي أنه يرقى من الضرس إذا ضرب على
صاحبه ، فكان إذا أنا من يشتكي ضرسه ، قال له إذا رقا ، وإياك أن تذكر إذا
صرت إلى فراشك المفرد ، فإنك إن ذكرته بطلت الرقية ، فكان إذا آوى إلى فراشه أول شيء
يحظر على باله ذكر الفرد ، ويبيت على حاله من ذلك الجمع ، ليندو إلى الذي رقا ،
فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : بعت رجلا ، فيقول : لملك ذكرت السقرد ؟
فيقول : نعم ، فيقول : من ثم لم تنتفع بالرقية) (٢١)

ونكتا بالبيان والتبيين ، والحيوان - وهذا أشهر كتبه وأرقصا قيمة - مفصّلان بالسخرية
من خرافات الصعيرين والقصاصين والدنويين والمتحدثين والرواة ، والمدعين العبا لخير

(١٩) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الخامس ص ٣٦٤ ، دارون ، ج ٥ ص ١١٠ طبع

طابع

(٢٠) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٤٧

(٢١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام دارون الجزء الرابع صفحة ٦٥

والأذكيه لابن الجوزي ص ١٢٦

ومن العلماء الذين يرون الأخبار لا يحدونها ، ومن يستحسن إليهم ، يأخذون

بأقوالهم ، محتدين على تقديمهم وسابقتهم :

وللجاء حظ في ذلك اليد الطولى ، يدها لينتشل من يدوى من أفراد أمته .

ويرقمها في وجه من أوشك على السقوط محذرا من ذرا .

ويخففها بالسخرية إلى المداومة على يرى فداحة ما هو فيه ، وما صار إليه ، فيقلع

ويرتدع .

ويبرس هذا الخط المستقيم الذي يحتديه أبناء أمته فلا يسيرون ولا يحيدون .

∴

∴

∴

وضع الأوضاع الدينية ، منذ عرف أستاذ النظام إلى أن صار رئيسا لمطابقة الجاحظية
المعتزلية ، إذ رأى الفرق المتعددة إسلامية وغير إسلامية ، كل يجعل غيره ، ويقيم
بالزينة والإلحاد ، والفرق من الدين ، ويختار له مكانا في الجحيم ، ويدين لنفسه الصلاح
ويضمها في أعلى عليين .

لقد انقسم المجتمع إلى أغنياء لا تحصى ثروا تهم ، وفقراء لا يجدون ما يقيم أولادهم ،
واستعمل الأغنياء أموالهم في شتموا تهم وبلادهم ، أو تهايموا في البخل بها ، وجعلوها
صدل أنفسهم ، وهم في الحالين يتخذونها أساس مجدهم ، وهوان شرفهم ، وشرطيها
يخضع الناس لهم ، تحفلوا بها ، ولم يهتموا بها سواها ، وارتكبوا كل منكر وهم في مأمن من
مخالفة ما دامت لهم الأموال التي تحميمهم ، وتصدقهم ، وهابوا الفقراء أن يوجه إليهم لوما
أوعيا ، وأن يفضل الخنى في صحة أوقوه ، أو يتمتع بحاسة فقدوها بعض الأغنياء . ومن
سخريات الجاحظ في ذلك قوله (^{وتج} بين أبلين كلم ، فأسمع أحدهما صاحبه كلاما
غليظا ، فرد عليه مثل كلامه ، فترأيتهم قد أنكروا ذلك إنكارا شديدا ، ولم أر لذلك
سببا . فقلت ، لم أنكروا أن يقول مثل ما قال ؟ قالوا ، لأنه أكث منه مالا ، وإذا جوزنا
هذا له ، جوزنا للفقراء أن يكافئوا أغنيانا ، ففي هذا الفساد كله إقرار جهنم بن
صالح ، كيف صار رباح يسمنى ولا أسمه ؟ ثم فهموا كثر منى مالا ، وسكت (١)

ونتيجة للخنى الفاحش كثر السر والخبث ، والإنفاق في غير الوجه الشرعي ، وتحكم
الدهوى في الأثرياء ، فشاغ فميم اللبوا لرقص والخلاعة والمجون ، وسجالس الألس
والشرابي ، واقتوا في الصيد ، وانفقوا كلابه ، واختاروا صفوة نواته ، وقضوا في ذلك
معظم أوقاتهم ، وانتشرت تجارة الرقيق ، وشاعت ، حتى أنه كان في بغداد شارع يسمى

(١) كتاب الخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامى والجبا ، الجزء الثاني صفحة ٤٨

تأخر الرقيق ، واقتوا الجوارى والقيان ، حتى ألف الجاحظ رسالة في القيان ، واتخذوا
 الخصيان الخدمتين ، والقيام بشؤونهن ، وكانت الجوارى والعظيمات يتألقن في ثيابهن
 ويتشبهن بالفلما ن في قصص السمر وتفصيل الثياب ، وقد صرّف في الأدب العربي باسم
 "الغلاميات" كما ^{أشهر} التفسير الفلما ن الذين كانوا يتشبهون بالنساء في اتخاذ وسائل
 للتمويه والمطراوة ، ولبس لعل العزكمة الموشاة ، ويمنون في القربى ولا تجعل ،
 والتعطر والادمان ، وتحاطوا الخمر سرا وعلاية ، حتى أن بعض الخلفاء كان يذمّه ،
 وأهل الجاحظ سيف نقده في هذه الأوضاع التي نبتت عن الذوق فسانها . يقول : ^{هذه}
 ما نزل شبيب بن زياد على شرب النبيذ فقال : لا أتركه حتى يكون شرعى . وقال
 السامون : أشربه ما استبسمته ، فإذا سبل عليك فاتركه (١) (وقيل الآخر : إنك لمن
 السنة . قال : أكل ليا ب البر ، وصغار المعز ، وأدمن لحظم البنفسج ، وألبس
 الكتان) (٢) (وقد يطلق البهيل على نفسه من اللون ، ويلزمها من الكلف ، ويتخذ من
 الجوارى والخدم ، ومن الدواب والعصم ، ومن الأنثى المحببة ، ومن البزة الفاخرة ، والشارة
 العنيفة ، ما يرى على نفقة الشخص العثرى ، ويضرب على جوده الجواه الكرم ، فيذهب
 ماله وهو مذمم ، ويتنبرح له وهو ملوم ، ويوطأ قلب عليه حب القيان ، واشتد بالخصيان
 وربما أفرط في حب الصيد ، واستولى عليه حب المراكب (٣) .

ويقول في رسالته (في الرد على النصارى) : (وما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم
 أنهم أصحاب الخصال من بين جميع الأمم والخصاء أشد العلّة ، وأعظم ماركبه إيمان
 ثم يفعلون ذلك بأطفال لا تفب لهم ، ولا دفع عندهم) (٤) .

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام ، رون الجزء الثاني صفحة ٨٢

(٣) كتاب الخلا ، الجاحظ ، شرح الموامى والجا ، الجزء الثاني صفحة ١٢٢

(٤) الخلا ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ١٥٤

(٥) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، يوشع فنكل ، المطبعة السلفية صفحة ٢١

ونتيجة للفقر المدقع ، والفقلة والخبا ، ظهرت طبقات من المكبرين والسطارة والطفيليين
والسخرئين ، والنشاشين المدلسين ، سلاحيهم الخداع لا يتقارر الاكوال ، والنموس
والنهب لا يستأرا را الترق ، يأخذونه دون كد ، ويحصلون عليه بإراقعة الوجه ، والجاحظ
من ورائهم ، يتابع سخرياته ، ويرصدونهم بنقده واستنزائهم ، ويضعونهم على الملأ فيقول عن
المكدين ، (قالوا ، وإنك لتعرف المكدين ، قال ، وكيف لا أعرفهم ، لم يبق في الأرض
مخطرائي ولا مستمرضى الأتقية ، ولا شحاذ ، ولا كفاشي ، ولا به نوان ، ولا قرص ، ولا عوا ،
والنصب ، ولا مزبدى ، ولا أسطيل ، إلا وقد كان تحت يدي) (٦) . ويقول في النشاشين
الغشيين ، (ثم لا يدع منقا ولا مكحلا ولا زائفا ، ولا يحونا را بهرجا إلا دسه فيه ، ودلسه
عليه ، واحتال بكل حيلة ، وتأتى له بكل سب) (٧) .

أما الأوضاع السياسية ، فقد شارك فيها الجاحظ مشاركة فعالة ، فكتبه : السياسة
والعشائرية ، وشاقبا لترك رماة جند الخلافة ، ووجع الإمامة ، والعرب والمعجم
والرسائل كلها شميات ، تبرهن على إسماة في الحياة السياسية ، وهو كما جيل عليه
يقعد ملها الأوضاع الغربية ، والأحداث العجيبة ، التي شارك فيها ، ومن أشهر هذه
الحوادث تنوير ابن الزيات ، فقد كان الجاحظ معها لابن الزيات الوزير وشرفا من ابن
أبي داود القاضي الذي استطاع أن يستعمل الخليفة المتوكل إليه - وكان عدوا للمعتزلة
والحرية الفكرية - فأسقط ابن الزيات ، وقتل به ، وكان ابن الزيات قد أعد تنورا به
سماير بالداخل ، يعذب به ، ويحرق المخالفين والمصاة ، فكان جزاؤه أن عذب به
لفض المتوكل عليه ، فهرب الجاحظ ، (فقبل له : لم يهرب ، فقال ، خفت أن أكون قاني
اتنين ، إذ هما في التنور) (٨) ولكنهم جاءوا به ، فغظروا له ابن أبي داود ، وقال :

(٦) كتاب الخلا : الجاحظ ، سن العوامى والجوارى الجزء الاول صفحة ٨٦

(٧) الخلا : الجاحظ ، تحقيق د. الحاجرى صفحة ٨٥

(٨) صميم الأدباء : يا قوت صفحة ٧٩ الجزء ١٦

(والله ما علمت إلا مقاساً للنعمنة ، كفراً للنعمنة ، معدلاً للمساوى ، وما غنى با ستصلاحي
لك ، ولكن الأهم لا تصلح منك لفساد طويك ، ورداً لـ دخيلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب
طبعك . فقال له الجاحظ ، خفض عليك أيديك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير
من أن يكون لي عليه ، ولأن أسيء وتحسن ، أحسن منك من أن أحسن نفسي ، وأن
تصفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني) (٨) .

وبدأ مع السلطان ، وسخر من هؤلاء الذين يثقون له بالمرصاد ، ويتأولون أعماله
وأقواله ، ويحيون حكمه ، ويخطون على أيامه وصره . يقول : (السلطان لا يخلو من
مطلوب قائم ، ومن محكم عليه ما خطه ، ومن معدول من الحكم زار ، ومن متعطل متصفح ،
ومن مصعب برأيه ، ذي خط في بيانه ، مولع بشحج الصواب ، والاعتراض على التدبير ،
حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لشئان الملكة يضع نفسه في موضع الرضا ، وفي موضع
التصفح على الخلفاء ، والوزراء ، لا يحدرون كان مجاز المذروا ضحاه ، ولا يقسمون
فيمكن للشك مستعلا) (٩) .

والأوضاع الثقافية التي سادت في هذا العصر كانت في كثير من أشكالها لا تعجب الجاحظ
ولا تلائم ثقافته ، فسخر مما لم يهضم عقله ، وولع بما جاني منطقته وفكره ، وعظم أصنام المجلس
وأفئده من رفيع مروضهم ، حين كنف عيوبهم ، وبين خذل رأيتهم .
رأى من المجلسين : من يعلم السببان القرآن والصليا ، الفناء ، ومن يحب من لم
يرما ، ولا يعرف أوصافها ، ولا شيعاً منها ، أكثر من كبتها ، أم عمرو ، ويظهر فرحاً بهذا
الحب ، ثم يهتز ويموت كدأ لسماعة خبر مروتها (١٠) ، ومن ينج نجاج الكلاب ليتجذب تليفاً
اخفى منه ، وكان يعرف مقدار حبه لكلها (١١) . ومن يجلس وحده في الكتاب وقد هرب

[٩] رسائل الجاحظ ، ١ الجاحظ ، ص ٢٠ طبعة دار النهضة - بيروت ، ومجموعة رسائل ،

الجاحظ ، ص ٣ طبعة التقدم طبعة ما مني .

(١٠) المستطرف في كل فن مستظرف ، الألبهشيش الجزء الأول صفحة ٢٤٢

وفي تراجم الأرواق ، ابن حجة الحموي الجزء الأول صفحة ١٨٠

(١١) المستطرف في كل فن مستظرف ، الألبهشيش الجزء الأول صفحة ٢٤٢

السبلان منه يتصارون ولربهم من بطشهم خاف إرجاعهم إليه (١٢).

ورأى الكتاب في تناقص على نيل المناصب ، وتضاع لتولى ديوان الإنشاء ، وتناقص في تدبير المكائد لبقى منتقم ، وهم مع ذلك (في الذروة القصوى من الصلف ، والسم ، الأعلى من البذخ ، وفي البحر الطام من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم أنه إذا مرض جنته ، وطل نذيله ، وقص على خذله صدغه ، وتحذف الشاهرتين على وجهه ، أنه المتعبد ليس المتابع ، والمليك فوق الحاكم ، ثم الناس فيهم إذا وطئ ، بقعد الرهاصة وتترك مشورة الخلافة ، وجبرت السلطة دونه ، وصارت الذروة أمانه ، وحفظ من الكلام نقيضه ومن العلم ملحه . أنه القاري الأكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم بالسلطان . ليكون أول يدويه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه (١٣) . (وجلس الجاحظ يوما في بعض ألدوا ومن فتأمل الكتاب ، فقال : خلق حلوة ، وشماثل مشوقة وتظرف أهل الفهم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقى عليهم الإخلاص ، وجدتهم كالزبد يذهب جلاء ، وكبته يحرقها السيف من الرياح ، لا يستدين من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة (١٤) . واثاب كراحتهم بعضهم ، وسهرهم بالوثيقة وتغلبهم زوال النص من أيمان منتقم . يقول لهم (١٥) : (كنتم أولاء حلات وضرائر أميات ليس حداة بمحكم محضا ، وحق بمحكم على بعض) وصور تافههم بقوله : (هم كالهريق من الكلاب في مرايضا) بهر هذا أصناف الناس فلا يتحرك ، وإن مر هذا كلب مثلهما نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله (١٦) .

(١٢) المستطرف في كل فن مستظرف ، الأبيشي الجزء الأول صفحة ١٤٢

(١٣) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، ط ٢ . يوش فنكل صفحة ٤٤ . رسائل الجاحظ حارون ١٩٢

(١٤) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، طبعة ثانية يوش فنكل صفحة ٤٥ . رسائل الجاحظ حارون

(١٥) ثلاث رسائل ، الجاحظ طبعة ثانية . يوش فنكل صفحة ٤٧ . رسائل الجاحظ حارون ١٩٢

مكتبة الخاني

(١٦) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوش فنكل ص ٤٦ الطبعة الثانية .

وكان (أبو) من طائفة من العلماء الذين...

إلى بريق الاسم المشهور، صار من النظر عما في الكتاب من نقص، ملتصقين له الملل
والمعادير، كما كانوا يمتحنون بكتب غيرهم فيضربون فيها ويهدلون. يقول الجاحظ
(كنت أولئك الكتاب الكثر الممانى، الحسن النظم، وأنسبها إلى نفس فلا أرى الأسع
تبقى إليه، ولا الإرادات تتيم نحوه، ثم أولئك ما هو أنقص منه رتبة وأقل فائدة، وأنحله
مهمل إلى بن العقيق، أو سهل بن حرير، أو غيره من المتقدمين، ومن صارت أساؤهم
في المصنفين، فيقولون على كتبها، وسارعون إلى نسخها، لا شيء إلا لتبتيها
للمتقدمين، ولما يداخل أهل حدة المصر من حشد من هم في عصرهم) (١٧).

وقد كان كثير من أهل مصر وعلماء يمدونه على ما آتاه الله من فضله وقد (صنف
كتابا من كتبه، ونسخه في الناس، فأخذ به بعض أهل مصر، فحذف منه أشياء
وجعله أصلا، فأحضره، وقال له، يا هذا إن الصنف كالصور، وإن قد صورت فسي
تضيق صورة كانت لها مئتان فمترتما أسمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلتوها
صل الله أذنك، وكان لها يداں فقطعتهما، قطع الله يديك. حتى مد أعضاء (١٨)
(الصور).

وكانت الأوضاع الدينية - في كثير من حالاتها - خارجة عن الفخار، بعيدة من
المتألف، فقد تعددت المذاهب والنحل، وانقسم علماء الكلام شيئا وأحزابا، وكثرت
الطوائف الإسلامية وغير الإسلامية، وتضاربت آرائهم، وكثر بعضهم بعضا، وشاعت الزندقة
والإباحية، وادعى البعض الصلاح والفق، وتعاملوا بالرها، وأتوا الذكرا، وتمشقوا
الفلان، واقتربوا النمان وغير القيان، واستجلوا الحرام، وأباحوا المنوع، وكانت
هذه الأوضاع تلقى من الجاحظ نفرا ومعارضة، ودعوة إلى التقويم والتبذير، عن طريق

(١٧) جوهرة رسائل الجاحظ، رسالة فضل ما بين الشريعة والحمد: ص ١٠٨-١٠٩.

(١٨) أمراء الديار، محمد كرد علي، ص ٤٦٥.

النبي عليهم ، وأصغر منهم . فمن سخره من مادة إثيان الضمان قوله : قال قاسم
التضار (قالتوى لى هرق حين تمت منها فقد الرجل من الغلام . . وقال فى غلام
له روى . ما وضعت يميني بين الأرض طيب منه) (١٩) . كما سخر من بعضهم لتركه الصلاة
بقوله من قاسم . (وأقبل على أصحابه وهم يمشون النبذ ، وذلك بعد العصر بساعة فقال
لبعضهم : قم صل فلتلك الصلاة . ثم أمسك عنه ساعة . ثم قال لآخر : قم صل وملك فقد
ذهب الوقت . فلما أكثر عليهم فى ذلك وهو جالس لا يقوم صلى . قال له واحد منهم :
فأنت لم لا تصل . فأقبل عليه ، فقال : ليس والله تمرنون أصلى فى هذا ؟ قلت : وأى
شيء أصلك ؟ قال : لا تصل لأن هذه العرب قد جاءت) (٢٠) .

وقد كانت الحالة الدينية فى ذلك الوقت تدور إلى القلق ، فقد ثمان كثير من الناس
فى أمر الدين وأكلوا الرذائع وأموال اليتامى ، يقول الجاحظ فى ذلك سخر : (قد كنت
أعجب من بعض السلف حيث قلل ما أعرف شيئا ما كان الناس عليه إلا الأذان . وأنا
أقول ذلك . . . ولو كانوا إذا جلسوا فى الخيش ، واتخذوا الحمايات فى الدور ، وأقاموا
وظائف التلج والرحمان واتخذوا القيان والخصيان ، استرد الناس واهتمهم ، واسترجعت
القضاة أموال اليتامى والعشيرة منهم ، لما دوا إلى دينهم وميشتهم واقتصادهم) (٢١) .
وأصبح ساكن الدار يمس إلى جيرانه ، ويخدع غلام صاحب الدار ، ويفسد جاريته عليه
يقول الجاحظ : (فإن كان الرسول جارية رب الدار أمدها ، وربما أحبلها ، وإن كان
غلاما خدعه ، وربما شطره ، وهذا مع التشرى على الجيران ، والتعرض للجارات ، ومع
اصطحاب طيورهم ، وتمريضنا لشكايتهم ، وربما استصنف عقولهم ، وطمع فى قسا دهمهم

(١٩) البيان والتميز ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ ، صفحة ١٢ .

(٢٠) البيان والتميز ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ ، صفحة ١٢ .

(٢١) البهلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى صفحة ٢٠٥ .

للسخريه اللون متعدد ، وطرق متوجه ، ولكل لون تأثر محدد ، ولكل طريقة لدرج معين
 بل إن لكل سخرية أثرها الخاص في نفوس السامعين ، وفي نفس السخرية ، لا يوجد في
 سواها ، ولا يؤدي غيرها مؤداها .

ويوقف معنى السخرية ، وقادراتها أثرها في النفوس ، على السخرية ، والسخرية والحضور
 والموقف العام ، والموقف الخاص ، والأسلوب الذي تقال به والمباراة التي لها تنطق ، كما أن
 للزمان والمكان دخلا كبيرا . وعلى السخرية أن يراعى كل هذه المكونات ، ويوازن بينها
 ويعطى التاسب لها ، والتفاعل بين عناصرها ، حتى يحقق للسخرية التفوق ، فتؤدي
 الغرض ، وتصيب الهدف . وتلك كلها خطوط مريضة يلتزمها الساخر ، فلا يهيد منها
 ولا يخرج من إطارها .

واللون السخرية ، وجوانبها الفنية ، أكثر من أن يحددها حد ، أو يحيط بها حد ، لأنها
 فن لا يخضع للقيود والرسم والحدود - شأن كل فن - والسماح فنان ، ينتقل من لون
 إلى لون ، يغير النادرة ، ويصيد النادرة ، وينوع في سخرياته ويبدع فيها ما شاء له
 ابتداعه ، ويبتكر أنماطا جديدة ، ويؤكد منها أشكالاً وضروباً ، أو يلقف القديم ،
 فيغير حاله ، ويحول ملامحه ، ويصفه بصفه ، ويحيد صدره ، ويصبه في قوالب جديدة ،
 تبدل إليها الأذهان ، وتشتط لسلامها الأذان ، فأنها من قبل ما وهنت وما سمعت .
 ولقد كان أبو عثمان الجاحظ أول من اتخذ من السخرية فناً أدبياً ، يشغف في جميع
 مؤلفاته ، بطريقته التي ابتدعها ، وهي خلط الجيد بالذل ، ومنج النسيجه بالفكاهة
 والتهريج من ثقل الدرس بالإحماض ، تشبيهاً للقاري ، وإيماءاً لروحه ، وتفتيحاً لذممه ،
 فقد كانت السخرية عنده من وسائل التحليم والتعفيف ، والتبهي إلى الخطأ ، والعيوب ،
 ليجنبها من وقع فيها ، ويحرف أضرارها من لم يقع ، فيبقى وحائزاً .

وما علم الجاحظ قد اتخذ السخرية فنا يقصدها لتأليف والتدوين في كتاب أو رسالة
 فمن حقها عليه أن يحذرها مستلزمات ، ويوفر لها أدواتها ، ويهيئ لها أسباب نجاحها
 وشوقها ، من معرفة بأحوال الناس ودخائلهم ، وآمالهم وآلامهم ، ويقف على متطلبات
 حياتهم ، ويدرس طباع النفس الإنسانية ونوازعها ، وهاداتها وتقاليدها ، وأسباب فرورها
 وانتماسها ، أو ضيقها وانقباضها ، ثم يتخذ العبارة الموجزة ، والأسلوب السلس ،
 والملفظ الخفيف ، ويعتمد على اللمحة والمسة ، والإشارة والكناية ، ويصعب عمله من قالب
 من التعريض والتلويح ، لتحقيق السخرية ما أراد ، منها ، وتجنئ نمراتها طيبة شبيهة
 وتخرج على حواك الأدب ناضجة ساخنة ، فتعطي نكتتها المحببة المنعشة ، رغم لدغها
 وحرارتها ، وتتفتح لها النفوس والحقول ، فتشط وتتدفق ، كما تختار التوابل اللاذقة ،
 وتتقن الأبرار الصريقة ، لتضاف إلى الموائد ، فتفتح لها الشهية ، وتشط المعدة ، وتتحدث
 الأمام .

والجاحظ - إمام هذا الفن - قد راعى كل ذلك وحققه ، ونشره في كتبه ، ونشره في
 رسائله ، فشر به واقتحم غار من غار وفرد بإماتته ، وصار علما على هذا اللون من الأدب
 حتى لتكاد تنسب إليه كل سخرية بارعة ، ويرجع إليه كل تبكم مرير ، ويوازن به كل كاتب
 ساخر ، وتعقد به منه وبين غيره المقارنات ، فينبهون به قولهم الذي يحذ في مقدمة المتكلمين
 الساخرين من المجتمع الذي عاينته ، فقد صاب لأنواع نكهته على رجال الدين ، ونظم
 الحكم بصفة خاصة وسجل ذلك في كتبه الحديثة ، ومسرحياته الخالدة .

{ فقولهم لا ينزأ بتعاليم الدين ، ولا يستخف بنظم الحكم فحسب ، بل إنه يشفق
 على هؤلاء الناس الذين خدعهم رجال الدين بخرافاتهم وأكاذيبهم ، ثم أولئك الذين
 فرر بهم رجال السياسة بمصير الكلام ، فهو يدعو الإنسان للتحرر من سلطان رجال
 الدين ، كما يدعو للشورى على رجال الحكم لا بالسلاح . . بل بالسخرية بهؤلاء وأولئك
 فللقارئ إذا ما انتهى من كتابه (كانديد) ارتسمت على وجهه ابتسامة اشفاق ، وأنبطت

والاحساس

منه ضدكمه تنكم . هي مزج من الاعتداد بالنفس ، واحصالي بفاضة الضير (١) .

الم يكن الجاحظ كذلك ، ساخرا بالجموع الإنساني فيعيب أصلا له وتصرفاته ، ونعمى عليه جهله وفساده ، ونظم الحكم فيه ، وقد سجل سخرياته من مجتمعه في كتبه ، وممن أشهرها : البخلاء ، والحيوان ، والبيان والتبيين وفي رسائله وقد خص بذلك رسالة يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ، كما أنه عاب الكثير من رجال الدين في تفكيرهم وأقوالهم وأفعالهم (٢) . لا يسخرية من الدين وإنما استهزاء بهم من رجاله الذين يلغون عقولهم وحارهم لا بالعلاج الحديث الذي يسيل الدماء ، وإنما بالسخرية المازنة البسني تريق الثرامة ، وهو لم يهزأ من صحيح الأحاديث ، وإنما من بعض تفسيرات وتأويلات لا يقرها عقل ، ولا يسميها ذوق ، فضلا عن عقل عالم عذوق أدب ، اشتغل بالتحقيق والتدقيق قرنا من الزمان ، (وما يتكلم أحد في أن الجاحظ إمام الأدباء في من الدقائق الجافة بالفاضة ، والمراوحة بين الجد والمستهزأ ، والضحك الموقر ، والانتقال من برهان بقطع إلى تنكم موجه ، وسخرية لاذعة) (٣) . في براعة ومهارة ، وبراعة كالمعال القاري والصاح ، فإن بدا عليه الكلال من طول الجهد أسفه هنا دقة ما خرقه يكن فيها نشاطه ودهاب سأمه ، وإن اشتغل في تقديراته وتصورات ، وسار في تيار ادعائه ، وعاجله بسخرية تصرفه قدره ، وتنبه إليه رشده ، وتوقفه عند حده ، فتكون أداة تمذيب وإصلاح ، مسجع

(١) سيكلوجية الضحك ، أحمد عطية الله ص ١٣٨ الطبعة الثانية . دار النهضة العربية

أكتوبر سنة ١٩٦٤

(٢) نكلامه من سفينة نوح وسنانيرها وفترانها والحجر الأسود .

(٣) الجاحظ ، أحمد الحوفي ص ١٠٠

محتفظ بالآلفة واستمرار للصدقة والعشرة .

وقد أبدع في سخرياته ، وأتقن ، وأتى ملها بالعجب العجيب ، ولونينا بالوان
تفانته ، وطهيمته بيلته عبقاً ثداً شه ، واتخذ من محاضره نتائج أدار عليها حوار ، وجعلها
معدناً للكمه ، وعدنا لسخريته ، ورسم لها الظلال والألوان ، قعد خطوطها ، وتلاعب
بأشكالها ، وفحص عند ستمها ، وهدم بناءها ، فعمادت مسخا مشوها يثوس الضحك ، ويدفع
إلى السخره ، وهذا ما نجبر عنه حديثنا (بالصورة الكاريكاتورية) . وهذا اللين (الكاريكاتيري)
السخرى يعتمد على التصوير لا على اللفظ وعلى التجسيم والتشخيص والمقارنه لا السب والشتم
والمبازرة ، وإنه يمتد كثيراً عن النسخ الأخر من الهجاء الذى يتضمن أنواعاً فاحشه
لأن الاتهامات والقذف كما يعتمد أيضاً من الهجاء الشعبى الذى يشبه (البرج) (٤) .

وسخرياته مستمد من الحياة الواقعية يتم فيها تمثيل الأشكال الظاهرة ، وتصوير
الهيئات والظواهر والحركات ، وهو موزن ذلك يفوض داخل النفس البشرية ، يجعلها ، ويصير
أحاسيسها وانفعالاتها ، وطهاها وانطهاها ، وأخلاقيها وسلوكها ، ويقف على مواطن
السخرية ، ويؤات الضحك ، ويجعل ذلك كله مدد السخرية ، وأصنافاً لتكماته ، فتأتى
سخرية حافلة بكل المضحكات ، مليئة بما يحسن الضحك به ويرده .

ولقد اتخذ لسخرية الجوانب الفنية التى تحقق لها النجاح ، وتوافر فيه الحوامل
التي هي : لها السبق والارتقاء ، فقد كان مرحة وخفيف الروح ، مستخفا بالحياة ، هازلاً
بأزائها ، لها حاد البصيرة ، باراً في التصوير ، قريباً في التعبير ، مبتكراً في الأسلوب
عليها ، باراً في الكلمات والألفاظ ، خبيراً بطلابح النفوس ملها بمعارف عصره ، ساهراً غير مجتمعه
كاشفاً دخائل محاضره ، بصيراً بما يختلج في نفوسهم ، راحلون شتره ، والظلمور

(٤) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، محمد مصطفى هداره صفحة

على خلافه ، نقادة ، بين الأمور بميزانها الصحيح ، فيلذع من يطغف الكيل ، أو يفسر الميزان ، ويرى به سلم سحرته ليرتدع ويرعى (٥) .

والذين يتحدثون من الشكافة والسخرية أو النادرة في أدبنا العربي بمائة وقد الجاحظ بمائة ، ويجعلونها مجالا للحوشم ، وسحرا لأحاديتهم ، قد يقسمونها حسب مدته من يحشرون منه ، فيجعلون بابا للسخرية من النقاد ، وآخر للسخرية من المحللين أو لدجالين أو المتطبين ...

أو يقسمونها حسب الموضوع الذي منه يحشرون ، أو حسب الخلق الذي يدبرون الحديث عليه ^{كالعقلاء} واللهفة ، والبلاغة والتلفظ والبخل والادعاء ، فيضمون كل نمط من هذه الأنماط في مجموعة خاصة تحت عنوان من تلك العناوين ...

وقد يكون هذا الضم وذلك الجمع بحسب الميول الجمادية ، فهذه سخریات من الصبيان ، وتلك من المور ...

وقد يضعون لكل سخرية عنوانا ، يستبطنونه من داخلها ، دون أن ينظروا المتشابه منها في صمت واحد ، فهذه سخرية تحت عنوان : الشبوبة وتلك تحت عنوان : أكلة منعت أكلات . ولكنني يروقني أن أقسم أنواعها ، وأعد ألقائها ، بحسب الناحية الفنية ، التي من أجلها كانت سخرية ، وأضع لها العناوين بحسب الأداة التي يستعملها السخرية . فتؤثر في الطامع الضحك والطرب ، وفي المستحکم به الانقباض والخضوع ، وتقسما بحسب أصولها ومواطنها ومثيرات الضحك فيها ، وأتم بدراسة تحليلية تكشف مصادرها ومضامينها وبراميتها ، ووجه الإبداع فيها ، وأرجو أن أحقق ما أجهت من ذلك في الفصول الستة القادمة إن شاء الله .

(٥) أوضحت ذلك في الرسالة في الفصل الثالث من الباب الأول " دوافعها وخصائصها "

وخراب من ألوان النقد ، وفن من فنون السخرية ، يعتمد على الألوان والأشكال ،
والأصوات والظلال ، والتشبيه والتشثيل ، ورسم الصورة المبالغ في حجمها ، أو الحركة مع غير
إيقاعها ، المستعمرة أعضا . ليست من جنسها ، فيقف الساخر عند جانب من جوانب
التنصير في جسد شخص أو شجرة أو سلحوسك ، فيبرزه إبرازا يلفت النظر إليه مع عدم مسن
للإلهام والساعات . ويضحه (كأننا نريد أن ينسى الضحك والحب الذي يمكن فيه إلى
أقصاه ، قراء ، ينتقد فرقة مثل تفرس حاجب ، أو انحناء أنف أو تجميد جبهة . أو
تتفاجئ عند ، أو طلي قطن ، أو ضيق عين ، ويكرر ذلك مشوها ، مستغلا للطبيعة والخلق^(١)
فيبرز الحركة التي قد لا ندرك ، ويسلط عليها الأضواء الكاشفة ، فيجعلها واضحة بارزة أمام
العين . كما نعلم أن يناحدها ، وتشددهم نحوها لهسخرها منها ، مع حرص السخرية على
سترها وإخفائها عن الناس حتى لا يهين بها . وهذا ما يضاعف السخرية ، ويبرزها قوة وإلام
وذكاء وحكم . حين يكشف القناع ، وتهبط السموات ، وتمتلك الأستار ، وبذلك تصبح الصورة
السخرية قوية التصوير من صاحبها ، لأن المصور غاص وراء المعاني الخفية فالتقطها ، وركز
على الجوانب الدائمة فأبرزها وبعث بها ، وفي غير نسبها وفي الوقت نفسه تصبح مثارا للضحك ،
وبجالات للسخر . لما بدأ في شخصية السخرية من تناقض واضطراب ، وتعارض بين ما هي عليه ،
وما ينبغي أن تكون عليه ، وبين ما يراها الناس عليه ، وما تدعي أنها عليه . (التنصير
في الضحك قد يكون في الأشياء الحسية الظاهرة ، فيضحك الإنسان من بعض الأوضاع الضريب
الضادة ، والميئات المتناقضة والأقوال الموضحة في غير مواضعها المعروفة . . . وقد يكون

(١) الفتاحة في مصر ، شوقي ص ١٥ كتاب اللال مطبعة اللال .

هذه التعديلات في النسب في الأمور الممنوعة والنفسية فتضعك مثلا من بعض التفكرات الخريبة
والصرفات الشاذة ، ونحن نجد في قصص الجاحظ النوعين جميعا (٧).

وعكس الصور الكاريكاتورية في عيود الفوضى والانحلال والاضطرابات ، حيث تضعف الروح
الجهامية ، وتفكك الروابط ، ويقل التساند ، وحيث لا يقوى المخلوب على الوقوف في وجه
المنالاب ، ولا يستطيع في نفس الوقت كبح جماح غضبه ، والسيطرة على انفعالاته ، فتصبح
الصورة الساخرة آنذاك أداة للتفيس عما تشعربه الجماعة من قلق وحيرة وخيبة ، وما
يشعر به الأفراد من آلام مكتومة ، وفيظ دفين يخشون مخبة إظهاره والإفصاح عنه ، وقد
يكون الغرض منها كما يقول لانسون (توجيه انتباه القارئ في لحظات سريعة خاطفة إلى
خصائص خفية ، موجودة في الشخص كى يؤولف من جماع هذه الخصائص المصرونة صورة
تدعو إلى الإعجاب إذا كان الغرض منها المدح ، وإلى التكميم إذا كان غرضها الكاتب
النقد والمجاء) (٨).

وما يحدث في تصوير الأشخاص بالألفاظ والمبارات من حيث يدم ، ونقض لأوضاعهم
وتشويه لمكوناتهم .

وما يمتري الصورة الأدبية الساخرة من تقديم وتأخير ، قلب وحذف ، وما يصيب الكلمات
المفردة من تصحيف وتحريف ، وزيادة ونقص .

كل ذلك ضرب من الكاريكاتير يحدث مثله في تصوير المظاهر والأشخاص بالقلم والفرشاة
فكلا النوعين تصوير مائل ساخر ، عابت بأعشاش الصورة ، هازية بمحالها ، إلا أن الأول أداة
الكلمة والمباراة ، وما هو إلا في معانيه وبيانه وديعته ، والثاني أداة القلم والفرشاة
وما هو في ألوانه وظلاله وأوضاعه وسريرته النوعين يكمن في حسن استخدام الأدوات ،
والتسيق واللامعة بين عناصر الصورة ، ومراعاة التناسب بين أجزائها .

(٧) في القصص في كتاب البهلاء : صفحة ٢٠ الطبعة الثانية .

(٨) أبو حيان التوحيدي : إبراهيم كيلاني صفحة ٦٦ ط ٢ دار المعارف .

ومثل التصوير الدريكى الذى يستخدم اللوحة والفرشاة ، ويتلاعب بالصورة ، ويغير
تكوينها وتساوتها عن التصوير المادى الذى يحكى المناظر كما هى ، ويكون الصورة
كما يراها ، ويرسمها بالفرشاة والمعادن والألوان ، بأن الأول يسجل ما وقعت عليه العين
وما استوعبته الحواس ، وما جاز فى الشعور ، واضطرب فى الوجدان ، وجاوز الحقيقة
المشاهدة ، والواقع الملموس ، إلى إبراز خفايا النفس ، وطوايا القلب ، نفس وقلب المصور
نفس وقلب المصور ، فنهضت الصورة عن حيثها ، ويطوى ظاهرها ، ليكشف باطنها ، فهو
تصوير من الداخل ، وللمصور الحرية فى التعبير فى مظهرها كيفما يراه .

أما الثانى فينقل المظهر الخارجى ، ويحافظ على مقاييس الأعضاء ، وحيثها وألوانها
كما هى ، وقد يتدخل فى الصورة بشئ من فنه ، فيضيف إليها القليل من الخطوط والألوان
ينزل منها بعض التعاميد والظلال ، تمسكها لها ، وإبراز الجمال لها ، وإظهار بعض تميزات
تحقيق عليها الرزق والهدوء .

وغيره من هذا النوع لثانى وبين التصوير الشمسى والضوئى لأن هذا الأخير ينقل
الصورة كما هى بصورتها وحاسنها ، دون أدنى تغيير ، فهو عمل آلى ، لا انفعال فيه
وما يلزمه من افتتان واختيار الناظر ، وانتقاء الزوايا التى يقف فيها المصور والمصورة ، وتفاوت
كمية الضوء الساقطة على بعض أجزاء الصورة ، لا أهمية له إلا فى جعل الصورة مطابقة
للأصل ، وغاية نتائج هذا اللون ، وأرض أنواعه : هو ما توافرت فيه أمانة النقل ، ورزقه
تدخل المصور مع الآلة ، وأقداره على التحكم فيها من أجل تحقيق هذه الغاية .
وأرض أنواع التصوير ، وأكثرها ليطة بالنفس ، وأشدّها التصاقاً بالنفس ، التصوير
الذئلى الأدنى بالكلمة واللمبارة والقصة والرسالة .

لأن الأديب يملك فى تصويره الدريكى كاتورى بالكلمة واللمبارة ما لا يملكه المصور بالفرشاة
والألوان أو آلة التصوير من الاسترسال فى التعبير ، والتخييل بالاشتقاق والتوليد فلا يزال

قلب الصورة وتعكسها ، ويرزأ أحشاءها ، ويغير ملامحها ، ويكسأ وضعها ويخرجها واحدة بعد الأخرى في أشكال وأوضاع مختلفة حتى يأتي على جميع السمات التي يحتلها المقام وقد صيبت في قلوبها رقة وأغربها في عبارات دقيقة فتجني صيغة متحركة ثم أبقت بالحياة مستدة الخطوط متلاحقة الحركات متتابعة التغيرات بخلاف صورة الفرشاة فإنها تكون خادمة هامدة لا ربح فيها ولا حياة ولا حركة ولا تسلسل ولا تطبيع ، وبخلاف صورة الآلة لأنها تنقل الأصل بدون تغيير فيه ودون كشف دخائله .

ولقد كانت أدوات التصوير البزلي التاريكاتوري الساعرة عند الجاحظ كثيرة مستومة ، استفادة يتخذ الكلمة أداة لرسم الصورة البزلية الساعرة ، ودليلا يفتدى إليها عند ادائها يلونها بها .

٢- وطورا يجعل السكون أو الحركة طريقا إليها ، رمزاً يدل عليها ، وإطارا يحتويها ويرزأ محالها .

٣- وكثيرا ما يستغنى المرأة النفسية المشفرة أو المعبدة لتعكسها اختفى في حنايا القلوب وزوايا الضمائر ، في صورة تخرج الخطوط وتثبت بالعلاج .

٤- وفي غالب سحره يحدد إلى الصورة القصيرة ، يجلي بها بعض مشاهد ما ، ويوضح بها الجوانب التي تضيئ على السخريّة اللون اللاق الذي أراد له .

٥- وأحيانا يلجأ إلى الصورة المصهية ، فتكون عناصرها متكاملة متأزرة يأخذ بعضها بحجز بعض ، وتتساند كلها في إيضاح الصورة العامة التاريكاتورية التي ارتأها .

٦- وقد نجد : كما في رسالة التزيين والتدوير - يوسع الصورة ، ويفسح مداها ويمسك

مخزأها ، ويمد أطرافها لتكون صورة كلية شاملة تتناول ، أحمد بن عبد الوهاب

في كل حركة وكل سكة ، وكل كلمة ، وكل جملة ، تشمل شكله وتفكيره ، وأدعاهم ونفجهم

وصفه وجهه ، وعاداته وطباعه ، وجل أخلاقه ، لأنها شرط تصور يعرض في دور الخيالة

أوفى كلية الطب أئمة طلابها ، يكشف عن موطن الداء ، ويصن تطوره ، ويحدد خطره ، وينقج
من هذه الشخصية ، ويرينا ظاهرها وباطنها ، وأتمها وخيالها ، وإن كان يبدإ إليه يبدأ
بالتضخيم والتحويل ، والتشيل والتجسيم ليتضح الخطر ، ويبين أبعاد الكارثة ، أو يصبغة نفس
قالب الصور المتحركة فاصدا المسح والتشويه فيكتسب الصفة الانزلية " الكاريكاتورية " الساخرة
التي تجلب لنا الضحك والسرور .

وهو لا يأتي في كل لون من هذه الألوان بسخريات تجري على وتيرة واحدة ، وتسير في
خط معين ، وإنما يجعل لكل منها ظاهرا خاصا ، وسطافرتها ، ووطنها للإضحاك ، وسرايدز
للنفس ، ويغري للقلب بها يبدع من صنعة وإبداع ، وما يعليه عليه فنه من إيجاده وإيقان
نفوس لكل منها مذاقا خاصا ، ولذا مغايرا ، وإن كانت جميعها تشترك في الإضحاك وجلب
السرور ، وتبيان عيوب السخرة وتجسيمه . فمن أدواته الساخرة :

..

١ - الكلمة : وتكون الكلمة أداة للتصوير المنزلي بتفسير بعض حروفها بالتقديم أو التأخير
أو الزيادة أو الحذف ، أو التضييف أو التحريف ، أو بالاشتقاق أو القلب ، أو بتحويلها
من معناها الأصلي إلى معنى آخر تحمله أو يمكن لفهمها أن يدل عليه ، وذلك كله
ضرب من الميت بصورتها وهبتها ، وشكلها وضمونها ومما ملكتها معاملة الأشخاص
الذين نهت بهم ، وتقلب أوضاعهم ، ونسخ أشكالهم بتحويلهم إلى الصورة العزلية
" الكاريكاتورية " مع بقاء العلاج الأصلية ، والخطوط الدالة على الشخصية التي تسخر
منها .

يقول الجاحظ : (أتيت منزل صدوق لي فطرقت الباب ، فخرجت إلي جارية سندية . فقلت
لها : قولي لسيدك : الجاحظ بالباب . فقالت : أقول الجاحد بالباب ؟ - على لفتها -
فقلت : لا ، قولي : الددق بالباب . فقالت : أقول : الدلق بالباب ؟ فقلت :

تفسير الجارية المفدية بعض الحروف في الكلمة بحروف قريبة منها في الحس والجبر
أحال الكلمة من معناها وصور الجاحظ تصورا هزليا ساخرا شوه عقيدته في الكلمة الأولى
وشوه كرامته في الكلمة الثانية وجعلها تؤدي إلى سخرية فاحشة غشى الجاحظ
مبتهما ، فاكفى من الغشمة بالإياب ، وولى الأعداء قاتلا للجارية ، لا غش شيئا .
وقالت أم ولد لجبرين الخطفى لمحمد ولدها : " وقع الجردان في عجان أمكم " .
فأبدلت الذال من الجوزان دالا وجعلت المعجين عجانا (١٠) .

فصارت الصورة بهذا التبدل ساخرة هازلة ، " كاريكاتورية " ماجنة ، تثير الضحك
بما أحدثته التبدل من معنى غير مقصود ، يس إلى التحدث ، ويخدش حيائها ، ويضحك
السامع لهذه الصورة التي شوهها للتصنيف والتحرش وهي خطوطها وضعت بمعناها .

٢- السكون والحركة .

وقد يتخذ الجاحظ من سكون الشخص وتصلبه ، وبلادة انفعاله ، أو من كظم حركاته ،
وتقيده جوارحه ، أداة للتسوير الهائز ، بإظهاره في مظهر الجبادات ، وفي سمت التماثيل
وإخماد كل حركة وكل حس فيه ، وفي هذا التحويل إلى ما هو أحط منه رتبة ، وأخس
شأنا ، تصوير كاريكاتورى يلغى إحساس الشخص ، ويفسخ طريقا للسخرية ، ويفتح
بابا للإضمار .

(٩) مجمع الادباء لياقوت ج ١٦ ص ٨٥ ، آداب العرب لبطرس البستاني ط بيروت سنة ١٩٢٤
مكتبة صا در .

(١٠) البيان والتبيين ج ١ ص ٧٢ تحقيق عبد السلام حارون ط ٢ سنة ١٩٦٨ مكتبة
الخانجي .

كما

كذلك أن تحويل الضمير القدرة الخاتمة إلى سيد جبار وفارس مغوار لين
من الكاريكاتير ، باللباس القم نوبا ، فضفاضا هو ثوب صلاب يتعثر فيه ويسقط ، أو بكسوة
العطاق نيا با صغيرة ضيقة ، من ثياب القم ، فتتمتق وتتقطع ، وتكشف من أعضائه وما حاط
ستره .

رؤى الجاحظ ، (كان أبو شعر إذا نازع لم يحرك يديه ولا عنكبه ، ولم يقلب عنقه ، ولم
يحرك راحته حتى كان كلامه إنما يخرج من صدع صخرة) (١١) . هذا السكون ، وذلك لتصلب
والجمود ، والخروج من المألوف - حتى ليذرفني خلد السليح أن الكلام إنما يخرج من صدع
صخرة أخذت سم أ بي شعر ، وهذا الصدع الذي بها هو الشق الذي نرى وجه أبي شعر
يخرج من جوفه الكلام ويسمونه قمه - رسم لنا الصورة الكاريكاتورية البولية التي تمسح كيان
أبي شعر ، وتشير سخريا تنا ، وتعلو قهقبا تنا .

وقد يكون نتائج الحركات وكثرتها ، والبالغة فيها ، أداة لرسم الصورة الكاريكاتورية
الساخرة ، التي تضحكنا ، لنا يبدو عليه صاحبها من حركات عشوائية طائفة ، أولاً
حركاته لا تعكس رد الفعل المطلوب ، وهو مع ذلك يكرها ، ويتأبها ، ولا يزال من كسل
حركة إلا سخرية .

والجاحظ يرسم لنا بمرآة صورة كاريكاتورية فذة ، يجمع فيها الجمود والتصلب ، مسج
خفة الحركة وتتابعها ، والإلحاح عليها ، وتتضاعف السخرية ، وترتفع قيمة الصورة ، وتمتد
المقارنة والموازنة بين السالطين المتماكستين ، اللتين تستدر كل منهما الضحك ، وتشير
التحكم والسخر ، فقد رؤى (أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال يجمع ويجمع ، ويثقل على
رجل من أهل العراق ، ليكيه ويكبه مثنوته ، ثم كان كثيرا ما يقلد ذلك العراقي

(١١) البيان والتبيين تحقيق عبد السلام حارون الجزء الأول صفحة ٧٧ .

لست أنى قد رأيتك بمرور ، حتى أكافئك لتقديم إحسانك ، وما تجده لى من البرنى كل قدم
 فأما ههنا فقد أثناك الله عني ، قال : تعرضت لذلك المراقى بعد دهر طويل حاجة
 في تلك الناحية ، فكان مما همون على مكابدة السفر ، ووحشة الاغتراب ، وكان المروى هناك
 فلما قدم ، مضى نحوه في ثياب سفره ، وفي حيلته وقلنسوته وكسائه ، لم يحط رحله عنده ، كما
 يصنع الرجل بثقته وموضع اسمه ، فلما وجدته قاعدا في أصحابه ، أكب عليه وناقته ، فلم يسره
 أثبتة ، ولا سأل به سؤال من رآه قط . قال المراقى في نفسه : لعل إنكاره إياي لمكان
 القناع ، فرى بقناعه ، وابتدأ مساء له ، فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى
 من قبل الصامة ، فنزها ثم انتسب ، ووجدت مسأله ، فوجدته أشد ما كان إنكارا .
 قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروى أنه لم يبق شيء يتعلق به المتناقل
 ولا لشجائل ، فقال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك (١٢) .

نفس الجاحظ الصورة الكاريكاتورية البازلة التي تجمع شخصيتين متناقضتين في إطار
 واحد أحدهما ساكن متعذب زميت ، والثانية متحرك متقلب كلما طاشت منه حركة تبعها
 بأخرى ، وبكرة الحركات الطائشة ، وبالسكون البالغ فيه ، وجمع التقيضين في لوحة واحدة
 تكمل الصورة وتوسع ، وتعمق السخرية وتتخلف .

∴

∴

∴

ج المرأة النفسية :

وأقصد بهذا ، أن يكشف لنا الجاحظ بواسطة تصويره الكاريكاتوري لقسوة الشخص
 الذي أمامه ، ويطلعنا على دخيلة أمره ، وخفايا سره ، وينقب عن الحبيب المستكنة في
 زوايا نفسه ، وينزل الضباب الذي يخلف به الشخص نقائمه ، ليبصمها عن الميون ،

وهذه الحجب والأستار التي سد لها بيننا وبينه ، ويظهر ما يظهر به ، وما يجب أن يرى نفسه عليه ، لنراه على حقيقته ، ونقف على طبعه وسجيته ، وقد بدأنا به ، وتجمدت أوزاره في هيئة موزية ، وصورة هائلة ، برز فيها الصيب والنقص وتضخم ، وضلل فيها الكمال والجمال ^{تبعز} أو تجمد .

كما تمكس المرأة المدحبة الرثيات في صورة ضخمة هائلة تقرب البعيد ، وتكبر الصغير تمكس امرأة الجاحظ الدارياكثورية خبايا النفوس في صورة قريبة مكبرة .

وكما تمكس المرأة القمرية الرثيات في صورة صغيرة متضائلة تبعد القريب ، وتصغر الجسم تمكس امرأة الجاحظ المزلية فضائل النفس البشرية في صورة هزيلة متداعية .

وقد تجمع امرأة الجاحظ النفسية وتليفه المرآتين معا ، وتؤدي مؤداهما في منظر واحد ، فتضخم جزأ ، وتضائل جزأ ، وتوضح صفة وتخفي أخرى ، قصدا إلى إبراز العيب ، وتجسيم الخلل ، ومرحا ولديها ما تأديا وتنوينا ، أو عظة وعبرة .

وحل كتابه البخلاء يجسم نفسية البخيل ، ثم يعكسها في صورتها المشوهة المحقرة ، إلا أنه يكبر الصورة ، ويحبث بملامحتها ، ويلتقطها من زوايا فنية تبرز ما خفي منها ، وتكتشف أدق تفاصيلها ، وأغصن خلجاتها .

والله صورة لصديق له رحسها بقوله : (وصديق كنا قد ابتلينا بمؤامراته فوجد كان ظن أنا قد عرفناه بالهزل على الطعام ، وهجم ذلك في نفسه ، وتوهم أنا قد تذكرنا أسره فكان يتردد في تكثير الطعام ، وفي إظهار الحرص على أن يؤكل ، حتى قال : من رشح يده قبل يأكل لم عرفناه دينارا ، فترى بنفسه أن غر دينارا ، وظاهر لاهته محتلم في رضا قلبه ، وما يخرج من نفع ذلك له) (١٢)

(١٢) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح العوامي والجزء الأول صفحة ١١٢ .

وتحقيق طه الحاجري ص ٥٥ .

يخلط بين اقتضاج أمره ، ووطن معرفة الناس نحوه ، فيسارع بهدم الظن ، وسفرا ليلته ،
 يدعوهم الى طعامه ، والإكثار منه ، والإلحاح عليهم في تناوله ، وإظهار حرصه على أن يتناولوه ،
 حتى إنه ليعاقب من ينتهي من الطعام قبل غيره ، بتغريمه دينارا . ولكن هذه
 المصنوعات التي أراد بها البرهنة على كرمه ، كانت الأداة التي تكشف حقيقته وتكشف عن
 كمن يخله ، وأكد اس لحظه ، وما يرجوه من تمويض ثقاته بما يجنيه من دنانير عقوباته .
 وقد برزت لنا هذه الصورة منعكسة على مرآة الجاحظ الكاريكاتورية المأثرة الحديثة .
 فأما ليلته ، وكشف عنه ، وجسمته وضخته ، وأظهرت السخاء الصطنع ، والوجود المعتدع
 في صورته المنزلة الواهية ، التي تخضع هامتها لملاق الهزل ، وسلطان الشح .
 وصورة أخرى ديجتها براعة شيخ الآخرين ، ورسمتها مخيلة المخطاة ، وكسبتها
 مرآة الحديثة ، التي تعظم الحقير وتضاعف القليل ، وتكبر الصغير وتغني الضئيل ، فجاءت
 صورة لفظية كاريكاتورية ، ناطقة صامتة ، ومتحركة ساكنة ، تمجذ ضماير بيت الصور الفتن ،
 ولا قوتها حلقا قريحة الرسم الملم ، وإن سكب الألوان ، وسد الخطوط ، وأسدل الظلال ،
 قال : (قال العكي ، كان لي ابن عم يقال له سليمان التري - سعى بذلك لكثرة
 ماله - وكان يقربني وأنا صبي إلى أن بلغت ، ولم يدب لي مع ذلك التقريب شيئا قط .
 وكان قد جاوزني ذلك حد البخلاء . فدخلت عليه يوما ، وإذا قداده قطعة دار صيني
 لا تسوى قهراطا ، فلما نال حاجته منها ، مدت يدي لأخذ منها قطعة ، فلما نظرت
 إلى لحيته يدي . فقال : لا تقبض وإنه سطر واسترسل ، وليحسن ظنك ، فإن حالك عندي
 على ما تحب ، فخذ كله ، فهو لك ، بنزيره وسعد انيمره ، وهو لك جميعا ^{نفس} ففتقر بذلك
 شبيبة ، والله يعلم أنني مسرورا وحل إليك من الخير . فتركت بين يديه ، وقسمت
 من عنده وحملت وحسني كما أنا الى المراق ، فما رأيته وما رأيته حتى مات) (١٤)

(١٤) كليب البخلاء ، الجاحظ شيخ الصوامير والجارح الجزء الثاني صفحة ٤٣ ، ٤٤

لقد عكست المرأة نفس سليمان ، وقاصت في أصاغة ، وأبدت عواره ، وإن ظهري صورة
كريم ، وهبة جواد ، يحظى كل ما أمانه ، ويمن في البذل .

كشفت نفسيته التي تعظم التافه ، وقدمه هدية فاخرة ، تسخر بها راضية ، وهبة هائلة
تغطيها كاملة ، دون أن تستبقى لها شيئا ، وتمدها خيرا طائلا ، تضر به من أهديت
إليه .

وهذه الأخيرة - وما أكثر الصور - أخذت بها امرأة الجاحظ لنفسه الكاركتورية طغى بخيلا
شرها ، يدعى إلى طعام ، فيس * الموكلة ، يعرف فوق حقه ، ويلتهم أكثر من طاقتهم
ولا يراعى من يشاركه الأكل ، ويقطرا السمن على الخوان ، وهذه القملة الأخيرة ، التي
يغمض سرها ، واللباع عليها ، هي التي تضخمها المرأة ، وتجعلها لب الصورة ،
ويمكن السخر ، ثم تنزل غرضها وتضي * جوانبها بأن الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسه
فيكون اللدس كالديع له ، وبأنه طلق امرأته لأنها غسلت خوانا له بها حارة ، وكان الوجه
أن نسعه .

وعانا

قال الجاحظ في كتابه البخلاء : (قال أبو إسحاق إبراهيم بن سمار النظم : **بيانا** جار لنا
فأطعمنا تمرا ، وسمننا سلا ، ومن على خوان ليس عليه إلا ما ذكرت ، والخراساني معينا
يا قل ، فرايت يقطر السمن على الخوان ، حتى أكثر من ذلك ، فقلت لرجل إلى جنبى ،
مالأى فلان يضع سمن القم ، ومن * الموكلة يعرف فوق الحق ؟ قال : وما عرفت
عليه ؟ قلت : لا والله ، قال : الخوان خوانه ، فهو يريد أن يدسه ليكون كالدسوخ
له . ولقد طلق امرأته وهي أم أولاده لأنه رآها غسلت خوانا له بها حار . فقال لها :

علا مستصحب (١٥) .

(١٥) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، شرح المصاير والجامع ١ ص ٥٥٥ ٥٦

١- الصورة القصيرة :

وقد يمد الى الصورة القصيرة المدخلة فيجعلها أداة تمكنه وصول شئته وتكون صورة خيالية ساخرة عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو غيرها من ألوان المجاز أو تكون صورة مضحكة كما في الصين حركات (بهلوانية) على خلاف المؤلف فتعبر عن شخصيته على حبيها وتوضح جوانب من سلوكه فتعطي الصورة غرضها وتبلغ هدفها وتضمن الإيضاح والإيجاز ومن صور تلك :

(١) تغذى أبو السرايا عند سليمان بن عبد الملك - وهو ولي عهد - وقداه جدي فقال له سليمان : كل من كليته وإنما تزيد في الدماغ فقال : لو كان الأمر كذلك لكان رأس الأمير مثل رأس البغل (١٦).

قصده سليمان أن أكلها يجلب للدماغ صحواً ومغنا في التفكير وبقطة وللدخس حدود وقوة وفطنة فانصرف ذهن أبي السرايا الى الحسيات وأهل المنويات واعتقد أن الأمر كبير حجم الدماغ أو تظاهر بهذا الاعتقاد جعلها للمضخة ثم رد على الأمير مدلالاً على نفاق رأيه ومشوها ملاحظ جسمه حيث اختار له الصورة الكاريكاتورية اليسوفة فأمر من جلوسه أمامه وولي عهد تميز له الأيل أن يكون خليفة المسلمين وجسمه جسم آدمي ورأسه رأس بغل ولعله أراد التمرض بشيء الأمير كما أن قول سليمان كل من كليته وإنما تزيد في الدماغ وقد يكون تعريضاً ^{أيضاً} بقصر عقل أبي السرايا ليكون تعريضاً بتمريضه.

(٢) اجلس علي بن إسحاق بن يحيى مع بعض مشائقي فقال المصكر وجامع النخاس بجوار : فقال علي : لمن في تقويم الأبدان وإنما نحن في تقويم الأعضاء ثم أنف هذه خمسة وعشرون ديناراً وثمن أذنيتها ثمانية عشر وثمان عشرين سنة وسبعين.

(١٦) سليمان والتميم : الجاحظ : الجزء الثاني صفحة ٢٢٨ تحقيق مازين : ص ١٧١

تحقيق السندوني .

ومن رأينا بنير شي من حواشي ما نديار . فقال له طعنه المتعاضل : ما هنما
باب هرا دخل في الحكمة من هذا : كان ينهى لقدم هذه أن تكون لسانك وأصابع
تلك أن تكون لقدم هذه ، وكان ينهى لشفتي تلك أن تكون لقر تلك وأن يكون حاجباتيك
لجبين هذه : نفسى مقص الأعضاء (١٧)

والكارها تور هنا ناجم من تجزى الأعضاء ، وجعل كل عضو مستقلا من غيره ، ويقوم وحده ،
وحدد ثمة المناسب له ، وأنه شخصية قائمة بذاتها . كما رسم هذا صاحب المتعاضل
صوراً مركبة من أعضاء غير متألقة ، باستبدال كل جارية عضوا من جسمها بمعضو من
جسم غيره .

(ج) (وكان أبو نواس يرتضى على خوان إسماعيل بن نبيخت (١٨) ، كما ترتضى الأهل
في الحضرمي طول الخلعة ، ثم كان جزاؤه منه أنه قال ،

خبز إسماعيل نالوشككم منى إذا ما شق بركسا (١٩)

فقد صور أبو نواس على طعام غيره ، يأكله في نهم ورجح كالإبل ترتضى في الحضرمي طول
الخلعة ، تصبر هازي . هائل ، يوضح هيئته المقيمة حين يتناول طعام غيره ، وتلك سخرية
لاذمة من طريق الكاريكاتور تقابلها صورة أخرى لخبز إسماعيل الذي يشبه الوحش ، يمكن
أن يرقا إذا شق .

(٢٠) (٢١)

(د) (قيل لأبي العمار جبين : كيف وجه محمد بن يحيى على غذائه ؟ قال : أماناه

نعمنا فجنون . وقال فيه أيضا : لو كان في كفه كرخدر . ثم لعب به لعب الإبل بالأكرة .

لما سقطت من بين أصابعه حبة واحدة . وقيل له أيضا : كيف صغافه على الخبز خاصة ؟

قال : والله لو أتيت إليه من الطعام بقدر ما إذا حبس نزل السحاب لوشه ما تجاني من

(١٧) البياض والتبين : الجاحظ : الجزء ١ لرايح صفحة ١٦

(١٨) إسماعيل بن أبي سهل بن نبيخت من سيرة البصرة ومن جلساء الأمين وهو فخر الساجد
ابن نبيخت النظم المعتزلي الشهير .

(١٩) الهذلاء الجاحظ : تحقيق طه الحاجري صفحة ٧٢

(٢٠) أبو العمار جهمين أو جهميز مدني صاحب ثوبا در كفه كان يتجرعها في الصفاق . اتصل
بمحمد بن يحيى البرمكي ، وممن بن جعفر ، وكانا يملانه بالرشيد .

(٢١) أحد أبناء يحيى بن خالد البرمكي . حسب أبيه بكية المايكة إلى أم المايكة

ضيف (٢٢).

لقد صنع له الجاحظ بعض "كاريكاتوريات" ، وضع عليه حدود بعضهما أو حركتهما حركة دائرية مضطربة ، ثم جعله خفيف الحركة "بملوانيا" لولعب بكر خردل ما سقطت منه واحدة ، ثم وضع مدى شحه وتقديره وأنه لو ألقيت إليه كومة طعام ارتفعت حتى وصلت السحاب ، فنعشه السقوط ، لم يتجعد عن ريف ، وسخو به ، وذلك حتى تظهره معتمد على المنهيات السقي تجسم الصورة وتبرزها .

هـ - (ولم أر مثل أبي جعفر الطرسوس ، زار قوما ، فأكرموا ، وجعلوا في شارع وسيلته غالية فحكته شفته العليا ، فأدخل أصبحه فحكها من بالطن النقة ، مخافة أن تأخذ أصبحه شيئا إذا حكها من فوق) (٢٣).

والصحيح بهذا تصويره ، ضيق الحدود ، ولكنها مقلنة للوضع ، متمسكة باللاج ، دفع الطرسوس إليها ثلاثي يخله ، رواه شحه ، فجاءت كاريكاتورية ومقصدة من نفسية صاحبهما ، ساخرة من انقلاب الوضع ، قدمنا إلى الاستمراء والاستبداد ، وخاصة إذا شوهدت بالعميان ، وقد أدرك الجاحظ أن التصوير بالكلمة لن يكون له سرعة وتأثير ، وشدة فاعلمته في النفس ، حتى أدانته للسخرة ، كالتصوير المصحب بالحركة والإشارة ، والذي تشاهد فيه الشخصيات وكلامها وحركاتها ، فقال معقبا : (وهذا شبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكام يمشون بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كل شيء ، وعلى حدوده ، وحققه) (٢٤).

و - (قال سجاد : وهو أبو سعيد سجادة ، ناس من الموازية إذا لمسا الخفاف في السد الأشهر التي لا ينزمن فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدا ميم ثلاثة أشهر

(٢٢) البخلاء : الجاحظ ، تحقيق الماجري ص ٢٢ . شرح العوامري ص ١٤١ ج ١

(٢٣) البخلاء : الجاحظ ، تحقيق طه الماجري صفحة ٥٨ .

و على أعتاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة أشهر ، مخافة أن تجرد نعالهم أو تنقب (٢٤) .

وتخلل صورة إنسان يسير على أطراف أصابعه ثلاثة أشهر رافعا عقبه متحملا الضرر والآلام ثم يمكن وضعه فيسير ثلاثة أشهر أخرى على عقبه ، رافعا أطراف أصابعه ، لا شيء يدفعه إلى ذلك غير النجس والكثرة ، ثم التصوير الحبيب ، والرسم الكاركتورى الرقيق ، الذى ابتكره خطاط الجاحظ ، وحدث خطوطه المنزلية بمقرته القذة الموائية ، التى تعشق المخرة وتغمر بالتحسين ، وما يخلج على الصورة الظلال والأكوان ، ويضيف لها البريق واللحمان بغير طريقة المشية ، وتماكس الوضعين قوله : " إذا لبسوا الخفاف فى الستة الأشهر التى لا ينزفون فيها خفافهم " ففى ستة أشهر كفاة لا يلبسون الخفاف ولا يقرّبونها والشرط الثانى من العلم شرطه تطرين ، شرطه يسرون فيه على صدور أقدامهم ، وشرطه يسرون فيه على أعتابهم . ففى القصة تصوير هنلى للخليل بلغ مداه ، ولضماح الدحية جاوز منتهاه ، وسخرية وحت على السخرية بدلا ، العراوة والذين كحصاروا أضحوكة الدنيا ، بما خلج عليهم الجاحظ من صفاته وما وضعهم فيه من إطاره برزوا منه صورة مجسدة متحركة مشوقة الطامح مسوغة البهجة مسقوفة الحركات ، آلهة التصرف .

وبين هذه الصورة السابقة ، ومن الصور اللاحقة مرثا ونعرف أن الجاحظ كان مصورا طاهرا ، يرى النظر الضرب ، والبهجة التلافة ، ويلج فيها الخرق على الإلف ، والاعتدال من الصرف ، فيسلط عليها عدسة وجدانه ، ويجهزها ويعدّها فى صوان نفسه ، ثم يختار منها فترة من الزمان لتتمت أكوانها ، ويقوى طلاؤها ، وأخيرا يظهرها ويجليها آية فى الافتتاح ونموذجا فى الروعة والإحسان .

٥- الصورة الفسيحة ،

وقد يتخذ الصورة الفسيحة ، والمشود الصريح ، والهيئة الخارجة عن نطاق المقبل
أولاً لمعرف المواد مادة لرسم الصورة الكاريكاتورية بوصفها يضعه على فرشاة مزينة ،
يلون به الطائر ، ويصوره اللامح ، ويخلق الصورة المسوخة ، التي تنصع من صاحبها
وتبرز بطلانه ومخجلات نفسه ، وبها يما عظمه ، ثم تضخم عليه وتضاعف شهرته ، ومن أمثلة
ذلك :

(أ) ما كان من أبي مافن إلى جبل النمر : وكان جبل خرج ليلاً من موضع كان فيه
خفاف الطائف ، ولم يأمن المستقنى ، فقال : لو دقت الباب على أبي مافن ، فبست
عنده في أدنى بيت ، أو في دهلوز ، ولم ألبه من مؤنن شيئاً حتى إذا انصدع عود
الصبح ، خرجت في أرائل المدلجين ، فدق عليه الباب دق واثق ، ودق بدل ، ودق
من يخاف أن يدره الطائف ، أو يفتوه المستقنى ، وفي قلبه الزكامة ، والشفقة باسقاط الشفقة
فلم يشك أبو مافن أنه دق صاحب ددية ، فنزل سريعاً ، فلما فتح الباب نصر بجبل بصير
بذلك الموت ، فلقد رآه جبل واجماً ، لا يحير كلمة ، قال له : إني خفت محرة الطائف ، وجبل
المستقنى فقلت إليك . ، لا أبيت عندك . فتساكر أبو مافن ، وأراه أن وجهه إنما كان
بسبب السكر . فخلع جوارحه وخبيل لسانه ، وقال : سكران والله ، وأنا والله سكران ، قال له
جبل : كن كيف شئت . نحن في أيام الفصل ، لا شتا ولا صيف ، ولست أحتاج إلى سطح ،
فأقم ممالك بالمرء ، ولست أحتاج إلى لحاف ، فأكلتك أن تؤجرني بالدار . وأنا كما تسرى
قل من الشراب ، شهيمان من الطعام . ومن منزل فلان خرجت ، وهو أخصب الناس ، خلا .
وأنا أريد أن تدعني أغنى في دهلوزك إقامة واحدة ، ثم أقص في أرائل الصكرين . . قال
أبو مافن : وأرض منته وفكته ولسانه ، ثم قال : سكران والله ، أنا سكران ، لا والله ما أقل
أبي أنا ، والله إن أنهم ما تقول . ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره
قد وضح ، وأنه قد أظف ، لنظره حتى وقع على هذه الحيلة (٢٥)

فهذه صورة مسوخة للصديق الذى يتذكر الصديقة ، وهو واثق أنه لن يملكه طويلا ، ولن يضيق عليه فى عينه ، وكل ما ينفى عنه ما استراحة فى بيته ، أو غفوة فى دلالته ، يأمن بها المصير واللصوص ، ولكن أبا مان يدعى السكر ، وتقدان الحى ، وعدم الإحسان بها حوله ، أو الإدراك لما يقال ، ثم يتخذ الصورة الموشحة فيخلع جوارحه ، ويخيل لسانه ، ويوحى منه ، وفكه ، ولسانه ، وأخيرا يلقى فى وجه صديقه الباب ، ويظن أنه قد مثل فأجساد التشيل ، وقد أوضح المذر ، وأنبج عن السب ، وألطف النظر ، ولم يعد واقعا تحت طائلة اللوم ، ولا تنال بالتصير ، وأن جبل قد انزلت عليه الحيلة ، ولم يظن بصاحبها بخلا ، ولا سوء ضيافة ، لأنه كان غائبا عن وجهه ، فاقدا رشده ، بما شربه من خمر .

ب - اختفى محمد بن أبى المولود (مرة شربطه - وهو يهتداه - وأخذها فائقة عظيمة وفانى بها ، وارتفع فى ثمنها ، وكان قد بعد عهده بأكل السمك ، وهو بصرى لا يصبر عنه ، فكان قد أكبر أمره هذه السمكة لكثرة ثمنها ، ولسنها عظمتها ، ولشدة ندمته لها ، لم يظن حينئذ نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرق بأطاييسها ، وحسر من لداية ، وصمم صدحا ، هجعت عليه ومضى السدى ، فلما رآه رأى الموت الأحمر ، والظلم الجارف ، ورأى لحن المقضى ، ورأى قاصمة الظهر ، وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلى بالتين ، فلم يلبث السدى حتى قور السرة بالمبال ، فأتاه على ، فقال لى : يا أبا عثمان ، السدى يحجبه السد لما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعا ، فأقبل على السدى فقال ، والسدى يحجبه الأتقاء ، فما فرغ من كلامه إلا والسدى قد اجترق المتن كله ، فقال يا أبا عثمان ، والسدى يحجبه المتن ، ولم يظن أن السدى يعرف فضيلة ذنب الشبوط وذو ذنبة لعمدة ، وظن أنه سيلم له ، وظن معرفة ذلك من الخاض ، فلم يدر إلا والسدى قد اكتمح ما على الوجهين جميعا ، ولولا أن السدى أبطره وأقله ، وأكده ، وبلا صدره ولله خيلا ، لقد كان أدرك منه طرفا ، لأنه كان من الأكلة ، ولكن الشيطان من أهوان السدى عليه . فلما أكل السدى جميع أطاييسها ، وبقي هو فى النظارة ، ولم يبق فى يده

ما كان يأمله في تلك السمكة إلا الفيظ الشديد ، والغير الثقيل ، ظن أن في سائر السمكة ما يشبهه ويخفى من قرنه ، فبذلك كان عزاه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماق سمكه ، وحشاشات نفسه ، فلما رأى السدري يغري القرى ويلتهم التهاما ، قال : يا أبا حسان ، السدري يحببه كل شيء . فتولد الفيظ في جوفه ، وأقلقت الرعدة ، فخبثت نفسه . فما زال يقى وسليح ، ثم ركبته الحمى . وصحت توبه ، وتم عزفه في ألا يلاكل رضيعا أبدا . ولا زهدا ، ولا يشتري سمكة أبدا ، رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه ألا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها (٢٦) .

وتلك صورة كاريكاتورية لابن أبي اللؤلؤ ، توضح التواءات التي تبرز في سجيته ، وتظهر التمرجات المنبثقة خلقه ، والتواءات التي يفصح عنها سلوكه ، والتي يلمحها المجاهد من خلال حركاته ونظراته ، وما ينطق في باطن كلماته ، وتشد خطوط البخل ، وخطوط النهم إلى الأكل ، فتضاعف أثقالها ، وتسمى أعراضها ، وتكون إهداءها الأسود نفسية محمد ، فإذا هي قاتله حالكة ، ملأها البطر والتقل ، والكبد والفيظ ، وإذا الصورة متحركة مضطربة مرتعشة ، وإذا الحركات متوالية متتابعة بين في وسليح وحس ، فأخسدت بمجاميع الصورة فتبرز ما هنا عنيفا .

لقد أوضحت الصورة أن من مظاهر اهتمام محمد بالسمكة ، وإقباله عليها ، واحتفائه بها كرة قضيا ، وسنينا وعظما ، وشدة شغفه لها ، وظنه الانفراد بأطاييفها ، وشروط نفس تناولها . ثم بينت بواعث غمه وكرهه وهي : دخول السدري عليه وأمامه الشبوبة ، ودخول الموت الأحمر ، والتنين المفرح ، والحرث العفص ، وإقبال السدري على أكلها لا يفرق بين جسد ردي ، ولا يصرفه عن أكلها صارف ، ثم ضياع ماله ، وعدم انتفاعه به ، وتسميم جوع محمد وشدة شغفه ، إلى أكل شبوطه ، وأخيرا أمانيه التي تقبر مع كل جزء من أجزاء الشبوطه يقبره السدري في كهف بطنه ، قور السدري السرة بالمبال في حاجت نفس

(٢٦) كتاب البخل : الجاحظ ، ضبط المواصي والجبار من ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ الجزء الأول

١٠٠ ، ١٠١ الحاجري .

محمد وصلاح . السدري يعجبه السر . ثم قيل على القفا فالتهم جانبه فصاح ابن أبي الطول
السدري يعجبه الأفتاء . ثم اجترأ لثمن كله فجار محمد . السدري يعجبه الثمن . وكان
محمد يعني نفسه بعد كل جزء يلتزمه السدري بأن الباقي سيخلص له . ولكن السدري يخيب
ظنه . ^{ويزجج} غيظه بمطابقة اللقم . وسلب الشبهة أنلاهما نلوا بعد نلوا . وارتاحت
نفس محمد بعض الشيء حين ظن أن الذئب سيعلم له . وإذا بالسدري يزدرد . ولما لم
يبرح . أمامه من الأطباء ^{الشيء} . احتسب ما ذهب في باب كره . وأرضى نفسه بأكل ما يقبى
من الشبهة عليه يذهب جوده . لكن السدري كان يفرى القرى . وبأني على كل شيء . ويعجبه
كل شيء . حتى لم يبق من الشبهة شيء .

لقد صورنا لباحظ نفسية محمد . وما كان يحترق قلبه من غم . وما كان يصيبه من صدع
والسدري يتابع لكل الشبهة . فيبطره ويثقله ويكده . ومحمد لا ينال منها شيئا . لأن الشيط
ملا قلبه . وكان من أهوان السدري عليه . فلم يقرب الطعام . وخلص للسدري . صورته تصويرا
هزليا . كما رثا نورا جعل كل حركة من السدري تحث بقلبه . وتطير له . وتزيد حتى الشيطان
نفسه . وتغيب في جوانبه أملا في الأكل . كان يريد تحقيقه . وكان سمدا قدر ترجع تحبسه
للنار . كنهنلى ويضطرب . وقد سدت نوافذه . وأنتج تصاعد بخاره . والذي يخفف سميره .
فكاد ينفجر . لولا أنه كان بين آونة وأخرى ينفث نفثة مكتومة . السدري يعجبه السر .
السدري يعجبه الأفتاء . السدري يعجبه الثمن . ثم يصدر أخيرا نفثة طهيلة . وهما
جما غيظه . وفائن ألمه . السدري يعجبه كل شيء . ثم يكن الندم والتوبة عن أن يأكل
أحد . أو يقرب سكا .

محمد (صحبني مدفون النقا من مسجد الجامع ليلا . فلما صرت قرب منزلة . وكان منزله
أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي . سألتني أن أبيت عنده . وقال : أين تذهب في هذا
المطر والبرد . ومنزلي منزلك . وأنت في ظلمة . وليس معك ناره . وهدي لي ألم ير النام مثله .
وصرفنا هيك بجوده . لا تصلح إلا له . فلت معه . فأهبطا ساطع . ثم جاعني بجسام

لها ، وطبق تمر . فلما مدت قال : يا أبا عثمان ، إنه لبأ وظلعة ، وهو الليل وركوده ،
ثم ليلة مطر ووطوية ، وأنت رجل قد طمعت في السن ، ولم تنزل تشكو من الفالج طرفا ، وما زال
الغليل يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست بمصاحب عشاء ، فإن أكلت اللبأ ولم تنال السخ ،
كنت لا آكل ولا تأركا ، وحرنت طبعك ، ثم قطعت الأكل أشهر ما كان إليك . وإن بالفت
بقا لي ليلة سحر من الاحتمل بأمرني ، ولم تعد لك نبيذ ولا صلا . وإنما قلت هذا
الحكم لمثلا تقول غدا ، كان وكان ، والله قد وقمت بين ناي أسد ، لأنني لو لم أجعلك
به وقد شكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه . وإن جئت به ولم أحذر كفته ، ولم
أشكره كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق علي ولم ينص . فقد برئت إليك من الأمرين جميعا
وإن شئت فأكله وموتة أو إن شئت فمحننا لاحتمال ، ونم على سلامة .

فما ضحكك قط كضحكى تلك الليلة . ولقد أكلته جميعا ، فما مضى إلا الضحك والنشاط
والسرور ، فيما أظن . فلو كان مص من يفهم طبيب ما تكلم به ، لأنني على الضحك ، أو لقضى
علي ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب (٢٧)
وهذه صورة أخرى كاريكاتورية ، عميقة الأفوار ، فسيحة الابداع ، معتدة الخطوط لمخيل
تفاج ، يدعي الذم ، فيدعو صاحبه للنزول في ضيافته ، ويالج عليه أن يقبل دعوته ،
ويرفض في البيت ضده ، والجلوس إن ما تدعه ، ويشهى له الطعام ، ثم يقع بين شقي قص
نفسه ، ويجري رضى رضا ، يخله وشحه ، وإدعائه ونفجه ، نفجه يحته على المبالغة
في إكرام الضيف ، وتقديم الطعام له ، ويخله يلاى به إلى اختراع الحلل ، وانتحال الأسباب
واقفا من البراهين التي تدفع بالزائر بصيدا عن طعامه ، ليحفظ كاملا لم نفسه يد .

(٢٧) كتاب البخلاء : الجاحظ ، شرح المومني والجامع آ ص ٤٥ ، ٤٦ مطبعة دار

دعا محفوظ النقاش الجاحظ الى منزله ، وحبب إليه البيت عنده ، وهدد الأسباب التي
تدعوه لقبول دعوته ، والاستجابة لضيافته ، واستعمل لذلك أساليب التخوف والترهيب ،
فبين المخاوف والمخاطر التي يتعرض لها إن لم يصح الكلامه من « مطر هرد وظلمة » واستعمل
أساليب الترهيب والتشويق ، ليقبل ضيافته ، فذكر أن طعامه شهي : لها لم ير الناس مثله ،
وتعربلج حدود الجودة ، والجاحظ في رأيه - لا يصلح لشئ من الطعام إلا له .
فيقول الجاحظ الشر ، وغب في الشر ، فقبل دعوته ، وهال معه إلى منزله ، ولكن الشخ
يتضح في تصرفات النقاش ، ويظهر رضا عنه ، ويطل برأسه من حوله ، ومن بين ألفاظه ، ومن
خلال تصرفاته ، لقد دعا الجاحظ ليظهر له جودة وأريحية ، فلما قبل الدعوة ، وطعت الطامة
حفته نفسه الكثرة ، وزجرته ، فاخترا لحدل البارقة ، وانتفى الأدلة الخائفة ، لهضمه من
الأكل ، ولهميد لنفسه الباهجة حدودها ، واستقرارها ، فأبطأ ساعة في إحضار الطعام الذي
لا يوجب إحضاره الإبطاء ، إن هو جام لها وطبق تمر . فلما دعا الجاحظ يده إلى الطعام
ولكن ينهض ألا يدها بعد هذا الإبطاء الذي هو بمثابة الامتناع من الدعوة والرجوع فيها
هاجت كوا من الشخ في نفس النقاش ، وتأججت نار البخل في قلبه ، فاحتمل الحيل ليضعه
من الطعام ، وقد لبس ثياب صديق ناصح ، وإعاب الخ شقيق ولا زال في سمت الكرماء
وهيئة الأسخياء ، فحشد له كل المواعيل التي تمنعه من الأكل ، وتصرف رغبته عنه ،
فلا لطعم ثقيل غليظ ، واللبل راكم دواؤه ، والأعضاء لا تشط ، والهضم لا يستقيم ، والجو
مطر رطب يؤدي إلى الانكماش والانقباض ، فيتوقف الهضم أو يبطئ ، وقد كبرت سنه ،
تضعفت أجزء الهضم عنده ، وفقدت قدرتها على امتصاص الطعام ، وتشيل الغذاء ، وهو مع
ذلك من مضائق الفالج الذي يتقل جسمه ، فلا داعي للطعام حتى يكون خفيف الجسم ، يشبط
الحركة ، ثم إن الفليل يسر إليه فيداه شرب الماء مع الرطوبة والهردة والفالج ، وفي
ذلك إرهاب له ، لا يحتمله جسمه الواهي ، وأضاف إلى ذلك أنه غير معتاد العشاء
فيكون أكله - إن أكل - على خلاف عادته ، وفيه من القسوة ما فيه .

على أنه لو ضرب بذلك كله عرض الدائبة ، وصم على المشاء ولم يمتطرقه على غاسد رغبته
ولم يمتحن غطل ما هو مقبل عليه ، وظلته شهوة الأكل ، فلما أن يأكل قليلا ، أو كثيرا
فإن أكل قليلا كان لا أكلا ولا تاركا ، ومرهض محتته ، وفتح شهوته ، ثم قطع الأكل أحيى
ما يكون إليه ، وأكثر اعتداله منه قبل بدنه ، وإن بالغ في الأكل كانت ليلته سوء لما
يصحه من ألم ومرض ، وما يجلبه على محفوظ من غم وكبد ، ولم يمتزله نداء ، ولم يمتد له
نهيذا ولا عملا .

ثم بين أنه يمحضه النصيح ، وأنه يؤدى ما تفرضه عليه الصداقة ، وأنه يرى من دونه
إن أصابه ضره وأنه ما قال ما قال إلا ليدفع من نفسه اللوم والثأب إن وقع به شره ثم
بين موقفه من ضيفه ، بأنه إنما أتاه بالطعام حتى لا يتدمر بالهزل ، ونصحه حتى لا يمتد
بغيت الصحبة ، ثم جملة مختارا بين أكلة وموتة ، وبين جوع وسلامة .
لقد التقطنا لبحاظر هذه الصورة الكاريكاتورية بعد مدة سخرة ، وسلط عليها الأضواء من
أشعة قهقهة ، واستعمل ألوان البرق والتملص فلون يبا نفسه انقا شه ودمغها بالهزل
والقفره وجعلها تدافع من نفسها مدعية أنه الترجيح والإرشاد ، وتغنى الهزل بشتى
العمل ومختلف المعاذير .

صور نفسية متضاربة متمازجة ، منقسمة على نفسها ، لها طبيعة باخلة متآصلة ، ومظهر
خادع كاذب ناتج ، وينشأ الصراع بين الباطن والظاهر ، كل يحاول أن يغوي ويغلب
ويقول الاضطراب النفسى ، والواجب الداخلى ، ولجأ النقاد إلى العلامة والتوفيق بين
الضدين بالتحال الملل ، وخلق الأسباب لإرضاء النفس ، والتوبة على الخير ، واعتناق
أساليب الخداع ، وألوان الإيهام ، لعل الجاحظ يقع في حباله ، ويمتد فيه الكبر ،
فيغتر بالغممين ، المادى ، والمعنوى ، الاحتفاظ بالطعام غير مفقود ، وإنبات صفة الكرم
والجود .

والجاحظ يعلم ما يدور في نفس محفوظ ، وما ينجس به خاطره ، وما يحاول به أن يخذل
الجاحظ من حجج عقلية ، وتقسيما منطقية ، وبراهين جدلية ، وما يبدو عليه من شبهة
النصح ، أو لكمه ، فيضحك لفصلته ، وتكلفته السخا ، وتلفيقه الملل ، ويتعالي ضحك سخرته
وتعكسا ، ويأتى على الأكل كله ، نكايه به ، وإثمانا في خيطة ، وجلبا للرح والضحك ، وما
يولد من أدله ، وما يتكلفه من أقيسة . ولقد ضم الأكل للرح والضحك ، ولو كانت هناك
رفقه جميع وترى وتشارك لتضاعف الضحك ، ولما تده ، وكأ نهم مرأيا تتكلم عليها ، الضحكات
فتزيد وترهب .

د - (كان عندنا بالمدينة رجل قد كثر عليه الدين ، حتى تزارى من غرامه ، ولثم منزله
فأثاه فخرج له عليه شيء يسير ، فتلطف حتى وصل إليه ، وقال له : ما تجعل لي إن أنا
لذلك على حيلة تصير بي إلى الظهور ، والسلامة من غرامك ؟ قال : أقضيك حقه ،
وأزيدك ما عندى ما تقر به عينك ، فوثق منه بالآيمان ، فقال له : إذا كان خدا قبل الصلاة
مرخا منك يكمن بابك وشاهك ، ويرثوي بسط على دكانك حصرا ، ويضج لك نكتا ، ثم أمسك
حتى تصبح ويهر الناس ، ثم تجلس ، وكل من يمر عليك ويسلم انبع له في وجهه ، ولا
تزيدن من التبع أحدا كاتنا من كان ، ومن كلمك من أهلك أو خدمك ، أو من فخرهم ،
أو عترهم أو غيره ، حتى تصير إلى الزوال ، فإذا كلمك فانبع له ، وأياك أن تزيد ، أو غيره
على التبع ، فإن الزوال إذا أيقن أن ذلك منك جد ، لم يشك أنه قد مر عليك عارض
من حسن ، فدخل منك ، ولا يغرى عليك ، قال : نفعل ، فمر به بعض جيرانه فسلم عليه ،
فخرج في وجهه ، ثم مر آخره ، ففعل مثل ذلك ، حتى تصاح غرامه ، فأثاه بعضهم
فسلم عليه ، فلم يزد على التبع ، ثم آخره فتملقوا به ، ففرغوه إلى الزوال ، فساله
الزوال ، فلم يزد على التبع ، ففرغوه معهم إلى القاضى ، فلم يزد على ذلك ، فأمر
بهمه أياها ، وجعل عليه العميون ، ولك نفسه ، وجعل لا ينطق بحرف سوى التبع ، فلما
راى القاضى ذلك فأمر بإخراجه ، ووضع عليه العميون في منزله وجعل لا ينطق بحرف

الإلتجاف ، فلما تقرر ذلك عند القاضي ، أقر قريته بالكف عنه ، وقال : هذا رجل يستلم
فككت ما تناء الله تعالى ، ثم إن قريته الذي كان عليه الحيلة آتاه متقاضيا لعدته
فلما كلمه جعل لا يزيد على الإلتجاف . فقال له : عليك يا فلان أو على أيضا ؟ وأنا علمتك هذه
الحيلة ، فاجعل لا يزيد على الإلتجاف ، فلما يمش منه انصرف يائسا ما يطالبه به (٢٨) .

صورة كاريكاتورية ساخرة لمباطل يوحى دفع ما عليه من مال ، فإذا حل الأجل كوالا يجل
وأخلف الوعد ، وهو لا يكفى بالمطل ، وخلف الوعد ، وإنما يتمدى ذلك إلى الكذب ،
والهرب من الضمان ، والتوازي بعيدا عنهم ، وحسب نفسه نى منزله ، وعدم السماح لأحد
منهم بمقابلة محبلا منهم ، واكتفاء لشروطهم . ثم يمدى له القدر غريبا ، يده على حيلة
يتخلص بها من غراماته ، ويتمدد بدفع دينه ، وزيارة ترضيه ، وتقر بها عينه ، وتظير الحيلة
التي ستظهره ، وتزيل دينه ، وتزج همومه ، وكانت الحيلة أن يتقمص شخص قلب ، ويرد على

الكلام بالإلتجاف ، فيظن الناس أنه به لومة ، تحفظ كل ما عليه من دين وفعل ، وتنجت
الحيلة ، ولكنه يتبنا وزمدا ، فبأكل الدين ، وخلف الوعد ، مع من علمه الحيلة ، ورسول
له الضمير ، يريد أن يوجهه أنه مريض فعلا ، وأنه ينجح حقيقة ، ونسى بل تناسى أنه أستاذ
ومبتكر الحيلة ، وصاحب الخدمة .

لقد أظهروا لباحظني مظهر العجوزين ، فأبدل تصرفه ، وظهر سحنه ، وأخبر لسانه
وقلب بصوته نجاحا ، وضرب بين عقله وبين ما يراه ويصحه بحجاب ، وكأنه لا يرى ، ولا يفهم
فإذا هو صورة مشوهة لإنسان مخبول فزع عقله ، وتنازل عن كرامته وإنسانيته وقلب وضمه
وحقيقته ، واتخذ لنفسه صوت قلب ، فأبدل بالكلام بهاجما .

(٢٨) لصيوان ، لاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ج ٢ ص ١٧١ و ١٧٢ مكتبة مصطفى

وحوى الاطار صورة مسوخة ، مؤطرة للصورة الأولى ، ومتممة لها ، لغيره أراد أن يخلص

بماله ، ويضاعفه ، مقابل تعلم ذلك المدين حيلة ينجو بها من دائته ، وتكفه من

الظهور أمام الناس بعد طول احتجاب وخوف ، وكانت الحيلة ، أن يبيع الناس ، ويبدو

في هيئة من به لم ، ومن أصابه من ، فإذا به يتفنن الاداء ، ويبدع التمثيل أمام الغرباء

بأعظم الخوالي ، وأمام القاضي ، فقير جشع ، وسقط فليزته . وبأى التفرغ غربه ، مطالبها

بماله ، وبالزيادة الموعودة ، فيصاب بخيبة أمل ، ويرتد كئيد في نحره ، وتصيب الحيلة

صاحبها بشروها ، وتحرق محملها بشراؤها ، وتقلب الأمور عليه ، فتكون خسارته المادية

مضاعفة ، فلا يحصل على الزيادة ولا على أصل ماله ، وخسارته المعنوية كبيرة ، إذ لجأ

إلى الكذب والتضليل والاحتيال ، وتقلب صورته وتنبؤ محالها ، كان أستاذًا فصار تلميذًا

لتلميذها . ظن نفسه خبيرًا فظنا ، وحسن التدبيره وأصبح الحيلة ، فإذا به فريسة لكائسه

وصريع حيلته ، وإذا الذكاء غبا ، والاحتيال حرق ، وإذا صورة المدين تنغير ملامحها

وتتغير خطوطها ، وتختلف ألوانها عدة مرات ، كانت بسيطة سا دجة ، قلقة حائرة ، تتوارى

عن الميئون ، وتتخفى من الأنظار ، ثم برزت في صورة مجنونة ، وهيئة كلبية ناعمة ، فزادت

السذاجة ، وظلها البله ، ولمتصك ثم انتهت إلى ذكاء حاد ، ومراعاة وتفوق ، حين تغلبت

على من احتال لها ، وانصرفت عليه ، ولم يصر في يده قليل ولا كثير .

إن مراعاة الجاحظ ، ودقة براهمه ، وازدحام رسمه وألوانه ، وروعة بلاغته واتقانه ، وعزله

وسخره ، وتصويره وسمره ، قد منحها الصورة الكاركاتيرية ، التي التقطتها مخيلته ، فعبثت

بها ، وركبتها بالينزل والسخر ، وأحالت محالها ، وقلبت سجنها ، وفبرت صورتها

البهيمية أو العقلية أو النفسية أو الاجتماعية ، فكشفتها لنفسها وللناس ، وجسمت ميونها

وأبرزت ضعفها ، وفبرت نسجها تنغيرا مضحكا مازلا ، فجاءت أبة الآيات ، وهرمان التفوق

والسوء الفكري والأدبي .

ولكن أكانت مخريات الجاحظ ، وصوره المزلية ، التي أنهتها في كتبه ، من صنعه سدى
ولحمه ، ومن بنات أفكاره خلقا وإيجادا : فهو ربيب المعنى والفكرة واللفظ والأسلوب ، والتكوين
الفني ١١ .

أم سيقه بهذا غيره ، وخطها قلم قبل قلمه ، وللسابقين المعنى والفكرة ، وللجاحظ لرونق
والديماجة ، والأسلوب السلس ، والتصوير الرائع ، والصياغة المحبوبة ١٢
أم نقلها من غيره ، ورواها عن أسلافه ، وأطلع عليها في كتبهم فأنهتها في كتبه ، فليس له
منها إلا فضل الرواية ، ودقة الحفظ ، وأمانة النقل ، وتخليت التراث ١٣

لا شك أن الجاحظ خالق الكثير من هذه المخريات ، ويستدع العديد من تلك
(الكاريكاتيرات) فهو مؤلف مواقفها ، ومنسق مناظرها ، ومسمى الجوانب المناسبة والبيئة
الصالحة لها ، ورأس الانفعالات ، ومحدد الحركات والإشارات ، وصاحب الحديث والحوار
ومجرد المضحكات على ألسنة أناس لم تصدر منهم ، سواء أكانوا حقيقيين أم وضعيين ،
ما ابتدعهم فكره ، وصورتهم له مخيلته ، فهو مسمى الشخصيات ومحركها ، ومنطقها
ومضحكها ، فالأسلوب أسلوبه ، والفكرة فكره ، والتصوير الفني ، والحكمة القصصية ، والكلمات
الساخرة ، من صنعه وتقديره والعمل الفني بأسره من ابتكاره والوجه الدسيسة
التي يقدمها على مائدة كتابه من ابتداعه ، فله بذلك فضل سبق ، وجودة الإنشاء ، وبراعة
الإخراج ، وروعة التصوير ، وله تحية تقدير وإعجاب من علم النفس والاجتماع واللغويات ومن في
القصة والرسالة والكاريكاتير لما قدمه من خدمات ، وما استحدثه من إضافات :

وقد صرح الجاحظ بابتداعه المخريات ، وابتكاره المضحكات ، وخلق الصور المزلية
كما في رسالة التريح والتدوير ، وغيرها ، من المخريات التي لا يشك أحد في أنها من
إنتاجه ، وما لا تحتاج في إثبات نسبتها إليه إلى سوى الأدلة والبراهين ، يقول (كان
أحمد بن عبد التواب مفطر القصر ، ويدعى أنه مفطر الطول ، وكان مرهما ، وشعره

لصفة جفرية ، واستفاضة خاصرته مدورا (٢٩) . ونقول : (فلما طال اصطبارنا حتى بلغ
 المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ، وألف سبيله ، رأيت أن أكتب قناعه ، وأبدي صفحته
 للعاصم والهادي ، وسكان كل شؤركل مصر ، بأن أسأله مائة مسألة أهذا فيها ، وأعرف
 الخاسر مقدار جهله ، وليسأل عنها كل من كان في مكة ليكفوا عنا من غيبه ، وليردوه بذلك
 في ما هو أولى به) (٣٠) .

لهذه الأسئلة السخيرة إذن من صنع الجاحظ وانتظاره كما يقول ، ولا دخل لأحد فيها
 كما أن سائر الأوصاف المنزلية في الرسالة من نتائج تريحته :

وتما كذا نسبة السخيرة إليه حينما لا يكون نحل ولا إضافة كلامه إلى غيره أو روايته عن غيره
 تروية في خرافات بعضها المفسرين ، وفيما روى عن خلق السنانير والخنازير ، وما قيل عمن
 علاج لسمة الزنبره وما جاء في وصفه المرازمة .

وقد تحتاج في التمييز بين فكرته وأسلوبه ، وبين فكرة وأسلوب غيره إلى تلمظ وتدقيق

بحظر ، لنصرف أي السخريات له ، وأيتها ليست له ، ولنميز النحيل من الصحيح ، فقد (يخيّل
 إلى القارىء بادي الرأي إن يقول الجاحظ حدثنا أو أخبرنا ، أنه يسوق كلام غيره كما في
 رسالة الكندي مثلا ، ولكن حقق النظره وأعمل الفكره فليست في البطلة ترى لغير الجاحظ
 قولا ، ولا غير أسلوبه أو أسلوبها ، ولا غير روحه رسا (٣١) وإنما ولد لها هو ، ووضع أحاديثها
 وافتنع فيها ، ونسبها إلى غيره ، وليست نسبتها إلى غيره دليلا على أنه ليس صاحبها ،
 فإن (أسلوبها وطريقة وضعها ، ونحى الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوى المحجة ، واضح
 الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها) (٣٢) وإن كان قد نسبها إلى غيره ، ولم

(٢٩) رسائل الجاحظ ص ٨٥

(٣٠) رسائل الجاحظ صفحة ٨٦

(٣١) كتاب الهخلا ، من الجاهل والموامري ص ٦

(٣٢) الهخلا ، الجاحظ ، تحقيق الحاجري ص ١٠٠ القصة

هذا كما كان يسمع في عصره من توليد يهرنه الجاحظ وذكره ، ويصف به غيره في قوله : (ولو
 أن رجلاً أتى نادراً بأبي الحارث جمين ١٠٠) (٢٢٣) وقوله هو ، وهو في طريقه وينتمجه نفس
 شبيه حين كان يلف الكتب وينسبها ، إلى غيره من مشاهير الكتاب لتسيع وتذيع ، وتكسب
 المصيرة والجد ، بقوله : (كث أولف الكتاب الكثير المعاني ، والسمن للنظم ، وأنسبه إلى
 نفسى فلا أرى الأساع تخصى إليه ، ولا الإرادات تتم نحوه ، ثم أولف ما حو أنقص منه رتبة ،
 وأقل فائدة ، وأنحله عبد الله بن الحقيق أو سهل بن هارون ١٠٠٠) (٢٢٤) .
 وقد يسبقه غيره إلى سخریات وصور هزلية ، ويتحدث بها رجال قبله ، وهم أرساب
 فكثرتها ، وواضعوا أسماها ، ولكنه يتناول هذه الفكرة بدبياحته المشرقة ، وتصويره البديع
 وقصصه وقصصه ، وتحليله النفس ، ويتمهد ما بالتفقيح ، والتعذيب ، والتظيم ، والتسقيح ،
 ليحذف منها ، ويضيف إليها ، ويغير هيئتها ، ويصحبها في غير قالبها . فتبعد من أصلها
 وتتبدل صورتها ، وتستحيل صورة أخرى جديدة هو أحق بها وأصلها .

وبنت ذلك ما يرويه في كتبه من عور ساخرة ، ومن قصص ومواقف هازلة ، صدرت عن رجال
 سبقوا عصره ، وماتوا قبل مولده ، لم ير الجاحظ مواقفهم ، ولم يعيش أحد اثنا ، وإنما سجلها
 في كتبه منسوبة إلى أصحابها ، بعد أن نقلت إليه ، وطرقت مسعمة ، أو بعد أن اطلصح
 عليها في كتابات غيره . وما كان أكثر اطلاعه - ولكن بأسلوبه هو ، وطريقته في التصوير
 والأداء ، وذلك كحديثه عن عبد الرحمن بن أبي بكرة الذي أكل (على خوان معاوية
 فرأى قمم عبد الرحمن ، فلما كان بالعشى عرج إليه أبو بكرة ، قال : ما فعل ابنك
 القلقامة ؟ فقال ، اعتل . قال ، مثله لا يخدم العلة) (٢٢٥) . روايته السخریات
 لبشام بن عبد الملك ، ومعاوية ، وأشب ، وهو يطلب ابن عبد المعز ، وللال بن أبي

(٢٢٣) الإخلاص ، الجاحظ ، شرح الجامع والصوامير ص ٢١

(٢٢٤) رسالة فصل ما بين المدواة والجد من مجموعة رسائل الجاحظ ص ١٠٨

(٢٢٥) الإخلاص ، الجاحظ ، تحقيق طه العاجري صفحة ١٥٢

برقة (٣٦) وغيرهم وغيرهم .

يقول الدكتور عبد الكريم الأشرفي كلامه من فن القصة في كتاب **الخيال الجاحظ** ،
(نأقهل على الموضوع . يجمع الحكايات والقصص والنوادر والاحتجاجات ، ويجهد كتابتها بأسلوبه
الخاشر ، قيلون المشاهد ، ويدخل النفوس ، ويظهر الملوك ، ويصنع الحوارا لغنى المترابط المركب
للدقيقة ، حركات الوجه واليد ، والعين والفم ، ويصنع الحوارا لغنى المترابط المركب
ويستعين بموهبته في الإضحاك ، والوقوف على منبرات الضحك ، في الكلمة والطبع والإشارة
تفهمها من معنى في خلال ذلك نظرت إلى الحياة والإنسان ، ويكتب هذا كله بلغة الطيحية
الهيطة (٣٧) .

ويقول جويج غريب في كلامه عن **خيال الجاحظ** ، (ومع ذلك فهو لم يقتبس من سابقه
سوى عشرين نادراً كما يقول . أما ما وضع على ألسنة الكثيرين من نوادر وأخبار وأحداث
فليس في ذلك دليل على أن أبا عثمان يسوق كلام غيره) (٣٨) .
وقد تكون السخريات لغيره ، لم يخرمها هو ، ولم يبتدعها ، ولم يغير صورتها ،
وإنما ذكرها في مؤلفاته ، ونقلها إلى كتبه كما هي ، دون تعديل أو تبديل ، فله بذلك
تكراراً على غلبه التراث ، وأحياناً الآثار الأدبية ، وإبراز صور الحياة في عده ، وأقبل
عنده ، ثم إنها أوضحت لنا جانباً من أدب الجاحظ ، وتذوقه ، وثقافته ، وأطلعنا على
إحساسه الفني ، وشموره بالجمال الأدبي ، وعنديه للكتابة نوره ، وللصورة الرائقة أناس
وجدت ، فهو يلتقطها من مكثها ، ويختارها لكتبه ، ويعرضها لقصده ، ويضربها إلى
نواهد ، وساخراً ، به ، مثلنا من صاحبها ، كرسالة سهل بن هارون (٣٩) . والشعر
السخر الذي تناثر في مؤلفاته ونسب إلى أربابه .

(٣٦) **الخيال الجاحظ** : تحقيق طه الحاجري الصفحات : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .
(٣٧) محاضرات الموسر الثاني عام ١٩٦٤ / ٦٣ الجزء السابع مطبعة الوزارة بدمشق
صفحة ٢٢٩ .

(٣٨) **الجاحظ** : جويج غريب ، صفحة ٢٢ .

(٣٩) يرى الصوامري والجامح أن رسالة سهل بن هارون له حقيقة . كتاب **الخيال** ص ٦٠ .

وقد ينقل بعضها لارفة فيه ، واعتزاز بنسجه وحياتك ، ورافة صورته ، وإنما لينقد ما يروى
 منه وقصة من يريد أباء أن يشير باللقمة إلى قطعة الجبن من بعيد دون أن يمسها حتى
 لا تصاب بتقلص . فيقول : (ولا يحجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإعراف لرافة له ، وإنما
 تعكس ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله أو حجة أو طريقة . فأما مثل هذا الحرف
 فليس ما نذكره) (٤٠) .

ولعل كلام الجاحظ نفسه ، وحديثه عن سخريات من البخلاء ، يفيد ما أوضحت من أخذه
 طرفاً من السخر من أصابعه ، وابتداعه طرفاً آخر ، ^{ورواية} وليست سخريات تناولها بقله وأسلوبه
 وإن كانت أنكارها وحوادثها لغيره . قال : (هذه ملقطات أحاديث أصابعنا وأحاديثنا
 وما رأينا بمعينتنا ، فلما أحاديث الأصمى ، وأبى عبدة ، وأبى العمى ، فإن لم أجد منها ما
 يصلح لهذا الموضع ، إلا ما قد كتبت في هذا الكتاب ، وهو بضعة عشر حديثاً) (٤١) .

٦- الصورة الكلية الشاملة ،

وقد يفصح الصورة ، ويوسع مجالها ، ويد أطرانها ، لتشمل شخصية بأسرها ، يتناولها
 من جميع نواحيها ، ويكشف تفاصيلها ودقائقها ، ويفصح عن نزواتها ونزواتها ، وآمالها وآلامها
 وحقيقتها وخيالها ، ورائدتها وروعتها ، ويوضح لنا موقفها من الناس ، ومن نفسها ، وتسم
 موقف الناس منها ، ولا يكتفى بإبوابها ، وإظهار مخبئاتها ، ويضلع منورها ، بل يعمق
 بقلها منها ، ويقلب نسبها ، ويبرز أعضائها وتركيبها ، وقلوبها ونفسيها وانفعالاتها ،
 في عرضها فن ، وتصوير ضاحك ، ورس كاريكاتوري حازل ، يشوهها ويصغرها ، ويجهضم
 معنوياتها ، ويشخص أوهامها ، ويضخم مآدق منها ، فإذا هي امرأة أطمع الناس
 وإذا بها صورة فريدة في نوعها ، عجيبة في بابها ، لا تالها يد الفنان ، ولا يمسها

٤٠ كتاب البخلاء شرح الموماري والجام الجزء الثاني صفحة ٥٨ .

٤١ المصدر المذكور صفحة ٨٢ .

مثل أديب ، ما يكتب لها المجد والخلود .

وأنت الآن أمام عمل متكامل الخلق ، تلم الفصح ، أمام رسالة طويلة في الصخرية مسنن
شخصية واحدة امتدت فغطت أكثر من خمسين صفحة ، تظهر فيها براعة الكاتب ، وسمعة
نوعه ، وامتداد نفسه في هذا المضمار ، هي رسالة الجاحظ في أحمد بن عبد الوهاب
البحلي التي سخر فيها منه فخلد له بذا صورة كاريكاتورية ، رسم بساخرته خطوطها ، وفي
بها خيرة ألوانها ، وأضاف إليها من مزج روحه ، وخفة ظله هضارة تثبت ألوانها ، فلا
تسمى ، ولا تتجرد ، على مر الأيام ، ثم أساطها بإطار من الفكاكة والرح ، يجذب إليها
كل ناظره ، ويلقيها بالقلوب والخواطر ، فلا تستطيع من أسرها فككا .

وجدر بنا أن نتناول الرسالة ، ونمن فيها النظر ، ونحلل ما فيها من كاريكاتير ،
نفس جديدة بذلك ، باعتبارها أول عمل فني طويل متكامل في ميدان السخر ، ولد شابا
يتضح قوة وصيرورة ، ولا زال شابا فتيا حتى يومنا .

فها بنا الآن إلى تلك الرسالة ، نطلع على شخصيتها فنلاحظ الأديبة النقدية من خلالها
وحتى اللغات الفنية ، والألوان البنزية ، والابتكار والمبقرية ، ولنتأكد أن الرسم بالكلمة
قد بلغ الرسم بالفرشاة ، وأن الأديب البار يرضى النظر حقه ، والصحرة متطلباتها ، فنروع
وتعبر ، أكثر ما يؤديه الرسم ، ويقوم به المصور ، ويبتدعه النحات والمثال .

رسالة التزيين والتدوير

رسالة كهذا أبو عثمان الجاحظ في أحمد بن عبد الوهاب ، يسخر فيها منه ، ويتهمك
به ، وهي أول رسالة في اللغة العربية ، كتبت في هذا الغرض ، واختصت به ، وصورت
السخرية تصويراً كاريكاتورياً مازلا ، تناوله من جميع نواحيه تناولا بارعا ، وسخر نفسه

وتفهمه تفوقه وأسبقية .

تلك فكرة عاجلة عن الرسالة ، ونبرة مختصرة عن محتوياتها ، وأسلوبها ، وموضوعها ،
وما ياتى ، وطرق الاقتان فيها ، أما تصورها ، وتفصيلها ، ونواحي الفرق فيها ، وجوانب
من السخر التي تفرها ، فأليك هذا ، بعد أن تعرف الشخصية التي سخر منها وبواعث
السخر ، ودوافعه ، ليها .
الشخصية التي سخر منها ،

إن الشخصية التي سخر منها الجاحظ في رسالة التريح والتدوير ، وسلط الأضواء الكاشفة
على زواياها المجهولة ، وتطهرت واتضحت ، ووضع عليها مجهر سخطه وعزته فتمت وعظمت ،
وعت بدقايقها وتفاسيها فتمحرت وتكررت ، واستطالت ثم تقبضت ، وألهمها بيمين عزته
فتشوهت وتفرحت ، لا بد أن يكون لها شأنها وخطرها ، حتى يناسبها الحد ، ويحبس
قلبه للحديث عنها فترة من الزمان ، ويستطيع أن يستخلص معلومات عن هذه الشخصية
من كتابات الجاحظ نفسه ، نفس خبر برهان ، وأولى دليل ،

يذكر لنا الجاحظ أن صاحب هذه الشخصية هو أحمد بن عبد الوهاب وقد صرح بذلك
في مستهل رسالته فقال : (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط القليل) (٤٣)
وقد أشار إلى هذه الرسالة وصرح باسم صاحبها في كتابه الديوان ، فقال : (فان أعجبك
هذه المسائل ، واستطرت هذا المذهب ، فاقرا رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب) (٤٤)
وقد صرح بمضامنه وهي الكتابة في قوله : (فاقرا رسالتي إلى أحمد بن عبد الوهاب الكاتب) (٤٥)
وقد تبين لنا أنه من كتاب الأمراء ، لا من كتاب الديوان فقد قال : أبو الفج الأصفهاني
(وكان لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد) (٤٦) . وكما
أوضح لنا أن القبيلة التي ينسب إليها بمنية قحطانية في قوله : (ولم أزم أنك رجل يمان

(٤٣) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص ٨٥ طبعة دار النهضة الحديثة بيروت سنة ١٩٧٢ .

(٤٤) الديوان ، الجاحظ ، الجزء ، صفحة .

(٤٥) نفس المرحج ونفس الصفحة .

(٤٦) الاغانى ، أبو الفج الأصفهاني الجزء الثاني عشر صفحة ١١٠ مطبعة التقدم .

لولا ذلك لكان في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان (٤٧) ، ثم صرح باسم قبيلته " بجيلة " في قوله : (والله لكن رمتني بجيلة لأرميك بكافة) (٤٨) ، وقد كان مذهبه التشبيه ، والقول بالبداء ، والرفض . يقول الجاحظ له : (فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل واطلها وما فيها مجال ، وما فيها فاسد ، فأنظر نفسك قراءة كتي ، ولزهم باي ، وابتدى بنفسك التشبيه ، والقول بالبداء ، واستبدل بالرفض الاعتزال) (٤٩) ، ويقول : (وما الحجسة في الرجعة ، والقول في الناسخ ، ومن أين قلتم بالبداء) (٥٠) ، ويقول : (وحتى لو كنت أعلم الرافضة لقلت في طرفه ٠٠ رأيت رافضي) (٥١) ، ولا بد أن يكون ابن عبد الوهاب شخصية نابذة ، لها مكانتها بين الناس ، ووزنها بين الكتاب ، وأهميتها في الدولة ، ولا غفيل يناسب الجاحظ - القصة - العداء رجال من عامة الشعب ، ورفقاء الأمة ، ومطيل السخيرة منه ، سفيرة يظهر القصد منها ، ويتضح السرفي أن إطلالتها شفاء لتنظيم قلبه ، وضيق صدره .

وقد كانت للجبلى مكانته المرموقة في الدولة ، وله أحياء الذين يدافعون عنه ويستند إليهم عند اشتداد الكرب ، ومن وجلاء الدولة ، وأولى الشأن فيها ، كصالح بن علي ، وسليمان بن وهب ، وجعفر الخياط ، يقول الجاحظ في الرسالة : (لكن نهضت بمصالح ابن علي (٥٢) لا نهضت بأحمد بن خلف (٥٣) ، وبإسماعيل (٥٤) بن علي ، ولئن صلت علي

(٤٧) مجموعة رسائل الجاحظ ، ص ١٢٢ طبعة دار النهضة الحديثة ببيروت عام ١٩٧٢ .

(٤٨) المصدر السابق صفحة ١١٨ .

(٤٩) المصدر السابق صفحة ١٢٠ .

(٥٠) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .

(٥١) المصدر المذكور صفحة ١١٩ .

(٥٢) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس قائد من قواد الدولة العباسية وأمير من أمرائها تنهج

مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حتى قتله في مصر ، تولى إمارة الحج عام ١٤١ هـ

(٥٣) محمد بن خلف كان يهاجر الجاحظ وكان مشهوراً بالبخل وله في كتاب البخلاء أحاديث

وكان الجاحظ يمتدحه ويغفره .

(٥٤) إسماعيل بن علي هو أخو صالح بن علي وكان من قواد الدولة العباسية ، تولى

إمارة الحج سنة ١٤٢ هـ

(٥٥) سليمان بن وهب لأدمعك بالدمع كهن وهب، وثلاث تمت على بمائة جعفر الخياط
 لأبيهم بمائة وهب الدلال (٥٦) ، كما كان من أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات كما يذكر
 أبو الفتح الأصفهاني في كتابه الأغاني (٥٨) ، وفي ذلك الدليل على أن هناك من كانوا يلازمونه
 ويعتمد عليهم في الشدائد، من كانوا ذوي أهمية في الدولة، وصدارة في المجتمع العباسي
 ولا يلحق بهم أن يلازموا ويشدوا عضد ابن عبد الوهاب إن كان من رعا الناس ودهمائهم
 ولا يلحق به، بل يجوز أن يشتصّر بهم إن كان من كبار العامة، ثم إن من يقف من الجاحظ
 موقف المعارض الناري في المذهب والآراء الدينية وصناعة الكتابة، وفي القبيلة التي ينتسب
 إليها، وفي الأنصار النجدين، الساعدين عند الشدائد، لابد أن يكون له شأنه وخطره
 ويكفي لرفعة قدره، واستداد سلطته أن يكون صاحب ابن الزيات، وندم جعفر الخياط،
 ومحمدا صالح بن علي، وسليمان بن وهب.

الدائح إلى تأليف الرسالة،

كان لأحمد بن عبد الوهاب - كما أسلفنا - كبير من رجال الدولة الذين يمس عدونه
 وشؤونهم، ويحذرونه عند الضائقة، ويوصل بهم على من يمترضه بأذى، ويثاله بمسوء
 ومن كان كذلك كانت له منزلة الرفيعة في المجتمع، وشأنه المسمية بين عظماء الدولة،
 ولدى رجال الحل والعقد في الأمة، وليس يحسد أن يكون قد احتل المركز المرموق
 من قلوب الخلفاء والأمراء والوزراء، وذلك في عصر الغضب في نفس الجاحظ، ويعمم
 على الحق، ويترك نارا لم يطفئ فقد كان الجاحظ يرى نفسه في غير مكانه، لم يقدر حق
 قدره، ولم يوضح حيث ينبغي أن يكون، وأنه لو أنصف لكان هو الخليفة، ومحمد بن عبد
 الملك الزيات بأمره، ومحمد بن وهب، وسواء أكان ذلك منه على سبيل الفكاهة

(٥٥) من كبار رجال الدولة العباسية وكان زيرا من وزرائها.

(٥٦) كاتب عالم شاعر توفي عام ٢٤٧ هجيرة تقريبا.

(٥٧) مجموعة رسائل الجاحظ صفة ١١٨ طبعة بيروت دار النهضة العربية سنة ١٩٧٢

(٥٨) الأغاني، أبو الفتح الأصفهاني، الجزء الثاني عشر صفة ٢٢، ٣١ مطبعة التقدم

والمن أم على سبيل الاعتزاز بالنفس والاعتراف برقعة القدرة إلا أن المؤكد أن الجاحظ كان طليعة ، ذا آمال عراض ، وتقدم في الحياة ، وارتقاء في معارجها لا يعرف المصير والكلال ، ومن الصعب على من كان هذا طموحه ، وتلك آماله ، أن يرى من حواطر رتبة وأقل منزلة ، قد نال فوق ما ينبغي له ، حتى ليكاد يعملوه أو يساويه في الشرق والمكانسة ، والجاحظ الذي ينفر من الظلم ، وينفض السكوت على الضيم ، ويكره التسليق إلى الجسد بآلة غير شريفة ، والتسلل إلى السعال في غفلة الرقيب ، لا يستطيع قلبه الساخرون صمت ، وإزاء هذا العرق ، فشره سلاحاً يتاراً ، وبمضما يستأصل تلك الزيادة غير الطبيعية التي نصت في شرف ابن عبد الوهاب ، وثأت في قدره ، واختار الكارماتور ترياقاً يبيد نفسية الهجلى إلى حالة من التوازن والاعتدال ، وينفى ما أصابها من أورام ضخمت شخصيتها ، ونفخت كيانها .

وكان ابن عبد الوهاب كاتباً ، وكان الجاحظ يكره الكثير من أنماط هذه الطائفة ، ويعيبها كثيراً بها ، ويرأى من الثقافة وقلة الفطنة ، وضعف الأداة ، في مستوى ينزى بتلك المهنة الرفيعة ، ويحط من قدرها ، لا يهتمون إلا بمظهرهم فإذا انتشت عقولهم ، ووقفت على دخالهم ، هالك الجبل والحق ، وسوء التدبير ، وضلالة التشكير ، وذلك ما جعله يترك الديوان سريعاً عولم يطق أن يمكت فيه أكثر من ثلاثة أيام مع أمثال هؤلاء الكتاب الذين وصفهم بقوله ، (إن قبح الكتابة ينزى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيمها قط تولاها بنفسه ، أو شارك كاتبه في عمله) (٥٩) (وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خلق حليوة ، وشمائل معشوقة ، وتظرف أهمل القلم ، ووقار أهل العلم ، فإن ألقمت عليهم الإخلاص ، وجدتهم كالزبد يذهب جفاً ، وكهنة يحرقون الذهب من الرياح ، لا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة) (٦٠) ، فقد امتلأ قلبه بكرههم ، وقد كان لابن عبد الوهاب من تلك الكرامية

(٥٩) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنتل صفحة ٤٢ الطبعة الثانية المطبعة السلفية ٨٢ هـ

(٦٠) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوشع فنتل صفحة ٤٥ الطبعة الثانية المطبعة السلفية ٨٢ هـ

أو في نصب جبرته الجاحظ برسالة طويلة ساخرة وخصه بها ، شفاء لضيظ نفسه التي ، ترى فيه النظرة ولا ترى الخبرة ، وتظنرا لصنعة الشريعة في أيدي الأخصاء المفلوكين .

ثم إن الجاحظ كان ساخرا بظلمه ، ميلا إلى الفكاكة بفطرته ، يطلبها ويلتمسها في شقي مواطنها ، ويولدتها ويشق منها الرائق إن لم يجدها أمله ، ويخترعها ويستمدحها إن لم تسعفه حافظته ، رواية المأثور منها ، ويتخذها أداة تعاص وأسلوب ودع ، وشعلة يهدي بها الضال ويحرق بها الغافل ، إن لم يستجب لتوجيهاته ، فسلطها على ابن عبد الوهاب ففسخه ، وتركه صريح هنزه ، وقتل تشككه قال في كتابه الحيوان : (٦١) (والحديث من مسخ الحضب والجري ، ومن مسخ الكلاب والحكاة وأن الحمام شيطان ، من جنس الزناج الذي كنا كتبنا به إلى بعض إخواننا من يدعي علم كل شيء ، فجعلنا هذه الخرافات وهذه القطن الصغار من باب المسائل نقلنا له ما الشقاق والصبيان وتكوير ودركا داب ومن قاتل امرأة مقبل) ويقصد بذلك أحمد ابن عبد الوهاب لورود هذه الأسئلة في رسالته .

وقد كان ابن عبد الوهاب في صيته وسجنته ونفسه وعقليته ، صورة متناقضة ، تدفع الجاحظ بها طبع عليه من حب للمع والفرح ، وما يفرق في جهلته من لهج بالسخر والطعن ، وما انفصلت به نفسه من كره له ، وخصب عليه ، إلى أن يتناولها بقلمه ، فيرسم لها الخطوط ، يطهرها ويحرقها ، ويقتلها ويدورها ، ويمهت بطولها وحرها ، ويضي عليها الظلال ، ويسكب فوقها الألبان فلا دأى صورة مشوهة ، ولوحة للقيح مبيسة ، يساعد في ذلك ، ويده بالخطوط والأصابع ، والمعاني والأفكار ، ما كان عليه ابن عبد الوهاب من قسور ودانة ، وبهاة بهفارة عليه ، ووفرة أدبه ، والجاحظ ينظر إليه بحسن الزاوية ، ويراها بلحاظ البزء ، ويعلم غروره ونفجه ، فيوسمه هنزا ، ويحول مسخا ، ويصوره تصويرا كأنه كثريرا ، يفصح عن خفاياه ، ويفضح بكنهاياه ، ، فنضدك ونفقه ، ونسر ونمعد .

كان الجاحظ فيجب الوجه ، مشوه الخلق ، إلى الحد الذي جعله يقول : (ذكرت للمتوكل
 ثلثاً بـ محض ولده ، فلهذا رأيي استهجن نظري ، لأمر لي بمشورة آلاف درهم وعرفني) (٦٢)
 وربما كان ابن عبد الوهاب جميل الوجه وسينا يدلل أن الجاحظ لم يتعرض في رسالته
 للسخر من وجهه . . . فغاضه ما عليه ابن عبد الوهاب من عبادة ، وفيه ما عليه وجهه هو من
 دسليمة ، فغضب إلى ابن عبد الوهاب فيه ، وأحفظ عليه شوبته وأوسعها هزلاً وسخرًا ليهتف
 ما ملأ نفسه من ألم ، وكبرياء من تشويه فكان هزله بعيداً عن الوجه منصباً على خلقه وطبعه
 وقوله ، وقصره وتدوير بطنه ، مما لنا في ذلك ، متخذاً للكارهيات أداة للسخر والتشويه .
 وربما تاه ابن عبد الوهاب بنفسه ، واقترب بمنصبه فاعتقد أنه فوق الجاحظ ، وأن يسده
 لن تالم ، فعابه ، وهزى به عباداته وهجاء مستغلاً في ذلك منصبه ونفوذه ، وصحبته
 كبار رجال الدولة ، وكرر ذلك منه ، حتى ضاق به الجاحظ بعد طول اصطياره ، فألف رسالته
 في السخرية منه ، وطويلة بمقدار حبره عليه ، لادعة بمقدار ما حبس في نفسه ، وكظم في قلبه
 وما يهدد ذلك قوله في الرسالة : (قلنا طال اصطيارنا حتى بلغ الجهد منا بولغنا لمعك
 مذهباً ، وألف سبيله ، رأيت أن أكشف قناعه ، وأهدى صفحته للحاضر والبادي ، وسكان كل
 قعر ، وكل مصر ، فإن أسأله عن مائة مسألة ، أجزأنيما وأعرف الناس مقدار جهله ، وليناله
 منها كل من كان ^{فريق} ، ليكشفوا عنا من غريبه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به) (٦٣) ، وقوله ،
 (فأتيت والله يا أخي تعلم علم الاضطراب وطعم الاختيار ، وطعم الأخبار ، أتيت أشد منك
 عقلاً ، وأظهر منك حزماً ، وألطف كعبداً ، وأكرع علماً ، وأوزن حليماً ، وأخف روحاً ، وأكرم
 عينا ، وأقل غشاً ، وأحسن قداً ، وأبعد غوراً ، وأصعب طرفاً ، وأكرم ملحاً ، وأنطق لساناً ،
 وأحسن بهاناً ، وأجهر جدارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشد ومن العلم ، وتتفق من

(٦٢) وفيات الأعيان : ابن خلكان الجزء الثالث صفحة ١٤١ تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحسين . مكتبة النهضة سنة ١٩٤٨ .

(٦٣) مجموعة رسائل الجاحظ : صفحة ٨٦ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ دار النهضة الحديثة .

الاختبار ، ونحوه نفسك ، ونحوه قنن قدرك ، ونحوه بالشباب ، وتقتيل بالمراب ، وتحمب
 بحسن اللقاء ، وليس عندك إلا ذلك ، ثم تزامر البحار بالجدائل والأجسام بالأعراض ، ولا
 يتأخر بالجزء الذي لا يتجزأ (١٦٤) وفي ذلك الدليل على أن ابن عبد الوهاب كانت بينه
 وبين الجاحظ ملاحاة ، ومناقضة ، وأنه طه نفسه على الجاحظ ونحوه بمخالفته ، وحظ من قدر
 الجاحظ ونزل به إلى الدرك الأسفل ، ما حدا بالجاحظ أن يرد عليه ، ويذكر به ، ويطلب
 كلامه ، وكان الرد هذه الرسالة الصادرة .

اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك بن أبيان بن حمزة المعروف بابن الزيات وشأه حينئذ
 صداقة وطيدة ، ثم حدثت بينهما جفوة ، وقد اتصل كذلك ابن عبد الوهاب بابن الزيات
 وطرب منه ، وغربه إليه ، وربما انتحزا ابن عبد الوهاب هذه الجفوة فأطلق لسانه في الجاحظ
 ليزداد قربه من الحلويات ، وربما كان السبب في الجفوة الواقعة منه ، وللشاية به ، وربما تألم
 الجاحظ لأن ابن عبد الوهاب حل محله ، فثارت نفسه ، وكان ذلك سببا في إنشاء الرسالة .
 فإن الجاحظ بالاعتزال ، واتخذ مذهبها ، وبنوا كلامها ، ونهج فيه ، وانفرد ببعض مسائل

خالف فيها ما عليه عامة المعتزلة ، وأفرده بطريقة اعتزاله خاصة ، نسبت إليه ، وتحتسب
 جماعة سميت باسمه ، فنصار زعم الطائفة الجاحظية المعتزلية ، واعتق أحمد بن عبد الوهاب
 الهجلى الرضى والتشبيه والقول بالهداية ، فخالف مذهب الجاحظ الكلامى ، وارضه ، والجاحظ
 رجل الفكر والعنق والكلام ، فينصب نفسه مدالعا ما يراه حقا ، ويسخر ويهزأ بكل ما يعتقد
 خطأ ، ويظلمه ، ومن ثم هذى ابن عبد الوهاب ، وهاب مذهبهم ، وضالة شكرهم ، وحملهم
 ونزقهم ، وسمت سخريته ، وانقبح مداهما ، فشميلت جسمه وخلقه وكل شيء فيه .

التصوير المثلّي في الرسالة :

تطالعنا رسالة الترييح والتدوير بالوان من السخره يدّه ، وصور من المنزّه مشوّقه ، تناول
فيها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب ، ونسخه فرمت بشكله وهيئته ونزى ، بأخلاقه وآدابه ،
وتحكّم بشأحه تفكّره ، وقلة تدبيره ، وزرعي لجهله وجهه ، وبالعائنه والاعماله ، وكذبه واقترانه
وا تخذ لذلك الأساليب التي تزلّم وتزوي ، وتصبّ فتصنّ :

فتارة يرسم جسمه بحباراته ، ويصوره بألفاظه ، رسا مشوّما ، وصورة مسوّخة ، يدوره فيها
ويكره ويهقره ، ويقلّله ، ويلقى التناصب ، والمساحات بين أعضائه ، ثم يطمه ويظلمه ، ويعدله
ويقيمّه ، ويهاد بين أعضائه ، ويند في قائمه وهامته ، فخره ينكش وينقبض ، ثم يطول وينمسط .
وطورا يرنعه إلى درجة الكمال ، ويخلق عليه شخصية (السيوريان) ^(السوريان) ويجعل الكمال الخلق :

والخلق مجتمعا فيه ، وتابعين منه ، وما في الناس منهما إنما هو خيط وصلب به ، وشعاع
من شعله مده ، إليهم ، فبهيرهم ضيا ^{ضيائه} ، فاذا احسن الناس إذا قمس بحسن طلعتة نفسها ،
وإذا ذكّاهم ، وألميتهم إذا وزنت بذلكه وألميته جهلا ، وحقا ، عزّاه ، وسخرائه
من طرف خفي ، أشا ر إليه إشارة ، وأما إيما ، أو ترك الموقف يدل عليه ، ويرشد إليه
وكثيرا ما يحقد الموازنات بينه وبين غيره ، من سبقوه ، ومن عاصروه ، فيجعل كفته راجحة
وعظمته لائقة ، ويصوره في أوج العالي ، وفي قمة الانكسار ، قد فاق كل مشهور فيها شهره
فاذا هو وحيد دنياه ، وضوءها فريدا في بابه ، وفرضه من ذلك السخرية ، والاسدّة
الزراية .

وأحيانا يصح بصيوره ، ويدله على مخازنه ودنوبه ، هلكته يرتدح عن غيه ، ويتبين مدى
قبحه وحملوه ، فيعرف لنفسه قدرها ، ويضمها في مكانها .

وقد يوازن بين نفسه وبينه ، موازنة بين عملاق وقزم ، ودرة وحصرة ، وبشخص صفات كل
منهما ، ويجعلها بإزاء بعضها ، فتبين عظمة العظم ، وتضاعف ، وتتضخّ شاهة التافه
وتتمو ، فلذا البين لنا سح ، والهرة سحرية ، والمسافة الفاصلة بينهما هائلة .

وطورا بقلب الحقائق ، ويصحح ما يجمع الناس على قبحه ، ويهين فضله وثوقه ، ويرهن على صحة ما ذهب إليه ، ويحدث به ابن عهد الوهاب ، ويجعله من خصائصه ، ويميزه السبق فاق هذا بنى جلدته .

وأكثر الرسالة محفود على إخراجها بالأسئلة ، بمسألة له ما تقسالة يكون جوابه فيها المص
والعصر ، نادا هو صورة مجسمة للجسد ، وتعودج للسفوف والطيش

وعلى ذلك فالصورة (الكاريكاتورية) الأدبية أنصح مجالا ، وأرجب صدرا ، من أن تقتصر على المسخ الجسدى ، والتشويه المضموى ، بل إن العبث بتفاصيل الجسم ، وتشويه معالم النفس ، وانعدام التلازم بين العاطفة والمقل ، والجسم والروح ، والعاديات والمعنويات وفقدان التوازن بين الأمور الحسية والعقلية ، ووجود التضارب بين صفة وصفة ، والتعكير من الاضطراب والتردد فى تصرف الشخص ، وشذوذه سلوكه ، وتصوير ذلك فى عبارة ساخرة هازلة كل هذه الألوان ^{من} الكاريكاتير ، وكلما قد استهيا بمرآة الجاحظ ، وكونت منها صورة أبسن عهد الوهاب ومشت بها من جميع نواحيها .

مسألة

فلنصاع إلى صورة ابن عهد الوهاب التى أنتجتها هبة الجاحظ لشرف له فضله ، ونعتق
بأهقيته وحذره ، كنستمع بنقوشه وتصاويره ، ثم نغفر بوجوده بين أديان المريريقوفكريا .

∴

∴

∴

١- العبث بتفاصيل جسمه :

٢- الصورة تخالف ظاهرا :

يستعمل الجاحظ رسالة الترييح والتدوير رسم الصورة الدنزية الضاحكة لجسم ابن عهد
الوهاب ، فيمد يده بالتشويه فى خطوط عرض ، وخطوط طول ، فيطيل خطوط العرض ، ويقوسها
ويدورها ، ويجعل خاصرتة مستقيمة ، وخطه أماه مستدة ، ورأسه كرة هائلة ، ويضبط على

خطوط الطول من أطلاما بهنفة فتناصر خطوط العرض فى تحقيق حد فيها من استدارة

الرأس والجسم ، ثم يضبط على خطوط الطول من أسفلها ، فيقتصر أصابعه ، وتجمد أطرافه

وتكش معظم فخله ، وتتقارب مفاصلها ، ولو وقف المنظر عند هذا الحد الذى نجد فيه
 ابن عبد الوهاب مكعباً مريحاً مدوراً ، والذى حدا بالجاحظ إلى أن يسوق رسالته " التريح
 والتدوير " معنا لطرب ، واستولى علينا الضحك ، ولم نسطيع كتمان ما فى نفوسنا من سخر ،
 أو حس أدينا من الإشارة إلى تلك الصورة عجيبة وانسراحا ، ولكن المنظر يتسع ، وتكون
 له خلفية يقطع عليها ظله الذى يختلف من الأصل ، ويتأى عن الحقيقة فهو طويل الباد ، رفيع
 المهاد ، أخص البطن ، رشيق متيق ، على خير ما يكون الاكتمال الجسمانى ، وهى أتم ما
 يكون التناسب بين الأعضاء ، فتتضاف السخرية ، وهو الموقف اللزلى ويتعاضد ، حين تقارن
 بين الحقيقة والخيال ، والواقع والانداء . يقول أبو عثمان (كان أحمد بن عبد الوهاب مفرد
 القصر ، ويدهى أنه مفرد الطول ، وكان مريحاً ، وتحسبه لسمعة جفرته ، واستفاضة خاصته مدوراً
 وكان جمده الأطراف قصير الأصابع ، وهو ^{في} ذلك يدهى السباطة والرشاقة ، وأنه متيق الوجه
 أخص البطن ، محتدل القامة ، تلم العظم ، وكان طويل الظهير ، قصير عظم الفخذ ، وهو
 مع قصر عظم ماقه ، يدهى أنه طويل الباد ، رفيع المهاد ، عادى القامة ، عظيم اللباسة
 قد أحلى البسطه فى الجسم) (٦٥) .

ب - القلاب الصورة ظلاً والظل صورة :

وتكثر ادعاءات ابن عبد الوهاب ، وتتوالى افتراءاته والجاحظ يجاريه ، ويجسم له
 أوهامه ، ويقلب حقيقته ، ويستعمل لذلك أسلوب المخالطة يحول به الظل أصلاً ، والأصل
 ظلاً ، فيغير خطوط الصورة ، ويبدل الألوان ، ويمكس الأوضاع ، فيجعل الظل حقيقته وجوهره
 وأصله الذى يعلمه الله ، وينكره الناس ، من طول وجمال ورياقة ، وكأنه الصورة رسمت
 قهيل للغروب ، ويجعل أصله وحقيقته ومنظره الخارجى الذى يظهر به أمام الناس ظلاله ، ورسمها
 مشوها لحقيقته ، يبرز فيه قصره وظلظه واستدارته وكأن الصورة قد رسمت وقت الزوال ، والناس

لا يستطيعون أن يثبتوا جماله كماله ، لأنهم يدركونه بحواسهم التي تخدعهم ، فنظروا لهم
 قصر وعرضه ، وإن كان في الحقيقة طويلا جميلا ، وقدود مشوق .
 ومن جنوحه إلى المنطق ، واستمسا له أساليب الجدل ، يبين لهم أن استقاضة مرضه هي
 التي جعلته يدور قصيرا ، وما ذلك إلا من خداع الحواس وكذبها في إيصال المعلومات
 الخارجية ، ولكنه في حقيقته طويل يعلم ذلك الله والراسخون في العلم الذين يعتمدون
 على العقل إذ هو الحكم والفصل .
 على أن الجميع يحكم - حسا وتلا - بطول باده راكبا ، وطول ظهوره جالسا ، وإن
 كانوا يختلفون في طوله قاتما وضطجما ، والله يعلم والذين يؤكد أنه في الساتين طويل
 على ما يسميه الناس في غيره ينزل شينه إن نسب إليه ، فلكل كان واسع الجفيرة فهو قدود
 ولكن كان مستفيض الخاصرة فهو رقيق هذا رقيق ، لا يؤثر فيه النفس لأن كماله يطفى عليه ،
 ولكن كان المرض يمتدح في بعض الأحيان ، والطول يمتدح في بعض الأحيان فإن أحسن
 يمتدح في كل الأحوال ، لأنه ضم إلى مرضه الطول ، وجمع من كل نوع ما به يمتدح ، فهو
 الطويل والعديد والبسيط والستار ، وهو الفرد الأرحم الذي جمع الاستدارة والطول .
 يقول الباحث ، (قياسك الذي إليه تنسب ، وبذلك الذي إليه تذهب أن تقول ، وما على
 إن رأي الناس مريضا ، وأكن في حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي
 الحقيقة قدود رقيق . وقد علموا أبقاك الله مع طول الجهاد راكبا طول الظهر جالسا ،
 ولكن بهم فبك إذا امتا اختلاف ، وطولك لهم إذا اضطجعت مسائل ، ومن غرب ما أعطيت
 وديح ما أوتيت ، أنا لم نر قدودا واسع الجفيرة غيرك ، ولا رقيقا مستفيض الخاصرة سواك
 فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب ، فما عسر أجمع الأراض
 وأنطقا جمع الاستدارة والطول ، بل ما يملك من أقاربكم ، وتتماظك من اختلافهم ،
 والراسخون في العلم ، والناظرين بهم لفهم يحملون أن استقاضة مرضك قد أدخلت الضم
 على ارتفاع سلكك ، وأن ما ذهب منك مرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولكن اختلاف

في طورك لقد اتفقوا في حركه ، و قد قد سلموا لك بالبر شطرا منتموك بالظلم شطرا
نقد حصلت على ما سلموا ، و أنت على دعواك فيما لم يملوا بولعمري إن الحيون لتخطي
وإن الحوا من لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ،
كان زماما على الأعضاء ، و عيارا على الحواس (٦٦) .

وإذا دقت في الصورة واستطنتها لمحت المتمكن في طياتها ، و السخرية في زواياها ،
والتعصير المزملي يمكن في تضامنها ، وقد أطف النجاذب الضميمة ، و أتم الحكمة ، و جاء
بالسخر منقما مدكلا لا يكاد يبين إلا بعد فحروايمان ، و لفقة صياغته و رامة صناعته ، و ذلك
لدليل الاقتان ، و سر التثوق .

نقد صور القبح في صورة الحسن ، و موهبه علينا ، و زوره لنا ، و دلال بمنطقه عليه ، و أرائنا
الأصل والظل متعاكس الوضع ، و رسم السخرة مجعما للمتناقضات ، و مخرضا للأضداد ، و قلم
لنا باطنه و ظاهره ، و خياله و حقيقته ، ثم أبدل بالواقع الخيال ، ثم أضاف إليه أجل ما في
الوجهين ، و أحسن ما في التقيضين ، و كان العبت باهن عبد الوهاب قد امتد إلينا محشر
قراءه ، و كأنه الصورة قد نضحت علينا سخرية أركنتا و شئتت عقربنا ، و سارت بنا في دروب
تحتاج منا إطالة الفكرة ، و إدامة الفطنة ، و لنفوس غوصا ، و لنقط الدر من بهارها ، و شئتت
طبيعة الصورة المزمزية الكارثية تنورية التعمدة التواضع ، و لتشابه العلاقات ، الرئيسة
فركية متلاحما يؤكد في النهاية إلى المزمز ، و الاستخفاف ، و التصوير الغد الذي أتته
في رسالته .

ج) الاحتياج لفضيلتي العرض والقصر .
ثم يحتج بأنه لو سلم بحرضه لكان ذلك من أسباب قتاله ، و لم يؤد به إلى نقصان ،
نقد (وجدنا الأفلاك وما فيها ، و الأرض وما عليها على التدوير دون التطويل ، كذلك
الحق والشر والحب والشر ، و قلمت و أريج و إن طال فإن التدوير عليه أغلب لأن التدوير

عليه أن التدوير قائم فيه موصلاً ومفصلاً ، والطول لا يوجد فيه إلا موصلاً ، وكذلك
 الإنسان وجميع الحيوان ، قلت ، ولا يوجد التربع إلا في المصنوع دون الخلق وفيما أكره على
 تركيبه ، دون ما خلا رسم طبيعته ، وظن أن كل مربع نفس جوفه مدور ، فقد بان المدور بفضل
 وشارك الطول في حصته (٦٧)

ولننظر إلى ذلك المبحث المنطقي ، والتلاعب العقلي ، أليس فيه السخر بآين هيد الوهاب
 والمترجم بمقلد وجهه ، ورسم الصورة الكاريكاتورية المترددة بين تفضيل القصر أو الطول
 وبين الحكم على جسمه بالقصر أو الطول ، وبين جعلهما في جسم واحد ، وكأن ابن هيد
 الوهاب قطعة من الصلصال ، تارة يمدّها ويطيّلها ، وأحياناً يكورها ويديرها ، وطوراً يعطيها
 البسطة في الطول والخرى ، أو يجعلها قصيرة طويلة معا ، وإن كان لا يستطيع الصور أو
 الرسم أو النحات أو النال أن يجعل القصر والطول لجسد شخص في صورة واحدة كما فعل
 الجاحظ ، وإن تضاعفت جهودهم ، وكذا قرائدهم ، واستغفروا منهم ، نفس لصيته يعبت بهذا
 كلفاً شاملاً ، ويلبسها الملابس التي يريد ، ويصنعها كما يحلو له ، فمعه صنعة التصويرية ،
 وأداة البنيانية ، وأصابعه الفكرية ، وسبقه التي تتجج المجيب ، وتلد الضريب ،
 وهو يعرف قصر قامته ، وامتداد عرضه ، وأن القصر هي جسمي ، والتكوير صفة تم ، ولكنه
 بما طبع عليه من عناد ولجاج وأدواء ، يدافع عن قصره ، ويحامي عن تدويره ، ويكثر لجدل
 حولها ، وإلا تيان بما يشبه الأدلة على محال هذا القبح ، وثوائد ذلك النفس ،
 ولا شك أن قلب حفيظة الأشياء ، وإلا لعاج على إنبات ما هو عكس طبيعتها ، وتصوير
 الاضطراب النفس ، والقلق الفكري ، في صورة مزلية ضاحكة ، ضرب من الكاريكاتير ، يقول
 الجاحظ ، (وأنتك تقول ، إن كان الفضل في النكابة ، أو في الشدة والصلابة ، ففصار

كل شيء أشد ضرا ، وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وجلدا ، كاللحجارة أصلها الحصى ،
 وكم لحيات أفتلها الجارات ، وكذلك أحرار الطهر ونفاثها ، وصغار البرافيت وكبارها ..
 واحتجبت بأن الحسن والفضل لصغار ما في الإنسان كالناظرين والأثنين وحببة القلب وأم
 الدماغ ، وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه وأمدت شخصه أسع الانهدام إلى بدنه والانحطاط
 إلى ظميره ، وأن التقصير لا يتقوس ظميره ، ولا يعلى خلقه ، ولا يضطرب شخصه ، ولا يمحى عظامه
 ويسمه كل باب ، ويقطعه كل ثوب ولا يخرج رجلاه من النعش ولا تفضله عن الفراش (٦٨) .
 ويستدل على فضل القصر على الطول بقوله : (إن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا
 لفضيلة العرض على الطول ، وذلك كقول الشعراء :

ورصف العلماء ، وقال الشاعر ،
 كأن بلاد الله وحى مريضة على الخائف المطلوب كفة حائل
 ولم يقل كأن بلاد الله وحى طويلة وقال آخر ،
 وحى الأرض للمرضى مذهب ولم يقل الطويلة . وقال ،
 ولا تصمدانى بآرك الله فيكما على الأرض ذات العرض أن توسعاليا

وقال الراجز

تقطع أرضا وتلاقى أرضا إن البلاد غلبتني مرضا
 ولم يقل طولا . وقلت ، لولا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الجنة بالعرض دون
 الطول حيث يقول جل ثناؤه : (جنة مرضيا كمرض النساء والأرض) (٦٩) .
 د - تحسین ما قبح فيه :

وقد ينبغي تعجا آخر في رسم الصورة البزلية ، فلا يتناول العيوب ، والنقائص المتضخم
 والتضخم ولا يجعلها كما هي عليه من قبح ، ولا يذكر صفاتها العادية ، وأوصافها الجنسية

(٦٨) المصدر المذكور صفحة ٩١ ، ٩٢ .

(٦٩) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ٩٢ .

بصفاتها الحقيقية ، وإنما يجعلها ، ويعسها ، ويبدعها ويظهرها ، ويمتدحها محاسن ومفاتن
تحقق لصلحتها الجمال ، وتبرز الفتنة ، فيرسم لها الصورة المثالية الفاتنة الحسن ، الرائعة
الهاء ، ولكنها تكون كاريكاتورية من طريق التضاد وقلب الحقائق ، فما فرضه المدح ، ولا قصده
كشف مفاتن الجسم ، وإنما الهدف التشكيك والبلبل ، وإظهار السامع صورة رائعة الحسن لما
لا حسن فيه ، فإذا شاهد الأصل أو كان يعرفه ، كانت السخرية اللاذعة والتهكم الموجه ،
وتعقق للمتل بمناه ، وأدت الصورة ما صورت من أجلك . يقول الجاحظ : (قد علمت - حفظك

الله - أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة ، وضخامة البنية ، وحرور العين عوجود
القد) (٧٠) فأما حرور العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبت بهجته وطلحه بالإلحاح أبانك الله به
من الشكلة ، فإنها لا تكون في اللطام ، ولا تشارك الكرام . وقال الشاعر :

ولا عيب فيها غير شكلة ^{من عينها}
كذلك عتاق الطير شكل عيونها . (١)

الوزن

وقال آخر :

وشكلة عين لوحبت ببعضها ، لكنت مكان النجم مرأى ومسمما .

فأما سوادنا لناظره وحرور الحاجر ، وشذب الأشقار ، ورقة حواشي الأجفان ، وتعلل أصل عنصرك
وبجاري أعراقتك (٧١) . (ولولم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجفنة ، وضد

الوصف والمدح ، هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس ، وأبيض من النيث ، ولأوأ حسن
من هم الحلبة ، وأنا لا نستطيع أن نقول في التفريق : كأن عينه إبريق فضة ، وكأن قدمه

لسان حبة ، وكأن عينه مأوية ، وكأن يظنه قبطية ، وكأن ساقه بردية ، وكأن لسانه ورقة
وأن أنفه حد سيف ، وأن حاجبه خط بقلم ، وأن لونه الذهب ، وأن عوارضه البرد

١٧٠ المصدر السابق ، صفحة ٨٢ .

٧١ المصدر المذكور ، صفحة ٩٤ .

(١) الشكلة : حمرة في بياض العين ، ووجع في العين ،
والرجل الشكلى : العين
والأساس : العين

وكان فاه خاتم ، وكان جبينه هلال (٧٢) ، وهي حملت النساء أجمل منك ، ولربما رأيت
الرجل حسنا جميلا ، ودلوا ملجأ ، وحنينا رشيقا ، ونخما يتجلا ، ثم لا يكون مؤزنا الأمضا
ولا مقدود الأجزاء ، وقد يكون أيضا الأقدار متساوية ، وفيه مقاربة ولا متفاوتة ، ويكون
قصدا ، وقدارا عدلا ، وإن كانت دقائق خفية لا يراها إلا الأسمى ، ولطائف غامضة لا يعرفها
إلا الذي ، فأما الوزن المحقق ، والتعديل المصحح ، والترتيب الذي لا يفسده الضرس ،
ولا يحصره النحت ، ولا يتمل جاذبه ، ولا يطغى في التويه ناعته ، فهو الذي خصصت به
دون الأتنام ، ودام لك على الأيلام (٧٣) .

٢- مجاوزته حدود الكمال ،

أسر رفته فوق قدره ،

ويتأرجح الجاحظ تصويره ، فيمد خطه من خطوط الجمال والكمال في الصورة الكلية
الشاملة ، يرفع به ابن عبد الوهاب فوق قدره ، ويضحه أكثر من طاقته وما تحمله أخلاقه
وغلفته ، وإذا هذه الرفعة مبالغة ، وحمل ثقيل يثن ثعته ، وإذا اجسمه يخفق وقد
غطاه هذا الجمال الممار ، ونفسه وقد علاها الكمال الطارف لا تكاد تبين ، وهيمته وجبلته
لا تستطيمان أن تتوضعا بمتطلبات هذا الكمال ، ولا أن تتكاهن مع ذلك الجمال ، وإذا
خطا الرفعة والكمال خط نقص وانحطاع ، يفسح عن الحبيب ، ويدل على البخاري ، ويشير
إلى صيحة إلى نفس واهية ، وهزبة خائرة ، وضعات شواها متناثرة فتكدست عليها مساحيق
الجمال ، فتصبت من تحتها عرقا يسيل مع هذا الخلط من المساحيق في خطوط
تحمل ألوان الطيف ، وهوامل التشويه والقبح ، ثم أنها للتجميل ، حيث وضعت في
غير موضعها ، وبكميات وافرة ، وهذا ما أراد الجاحظ الرسم للصورة حين مدخطه ،

(٧٢) المصدر السابق ، صفحة ١١١ ، ١١٢ .

(٧٣) مجموع رسائل الجاحظ ، صفحة ١١١ .

لسمكان (من جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أنبت من عياننا ، وفطرك أرجح من جسدنا
 وهذا منك أجود من تفكرنا ، وفعله أرفع من وصفنا ، وحيثك أصيب من حضور السادة ، وحيثك
 أئتم من مقام الظلمة) (٧٤). (إن تفتيت فالرشاقة والمليح ، وإن تسمكت فالرهبانة والإخلاص
 وإن ترزنت فثقلان ذو الهشوات ما يتحمل) (٧٥).

ب- شوقه على المخلوقات :

ثم بعد خطا آخر من خطوط الكمال والجمال في القصيدة ، إلا أنه أطل حجباً ، وأقلظ
 سكة ، وأعلى في باب الرقة والكمال مثلاً ، وأضواني مقاييس الحسن والجمال بها ،
 يتجاوز به الحدود ، ويخترق الحدود ، ويوقع ابن عبد الوهاب إلى مرتبة لم تخلق إلا له
 ولم تقدر إلا على مثاله ، لا يشرك فيها القدر ليلته ، ولا النسيب إبان نواله ، ولا يدانيه
 المقربون الأخبار ، ولا اللاتكة الأبرار ، أجمل من كل جميل إذا ازدعى به جماله ، وليس
 فيه من النقص ما يعتريه في بعض أحواله ، فالحسن قبح إذا قيس بحسنه ، والقبح حسن إذا
 كان فيه ، وانضم إلى صفاته ، وبعض الجاحظ في رسم هذا الخطك ونزد في طوله ، ويضاف
 من سكة ، حتى يصل به إلى السعال ، ويصيرهما من الوهم ، وإذا الصفات كلها متباركة ،
 والبهاء منقوض ، انهدم من طول ما ارتفع ، وسقط لكثرة ما أضيق إليه فما احتمل . وإذا ابن
 عبد الوهاب كما هو بهيئته وتكوينه ، وفصره وتكوينه ، وقطعه ولادته ، يجمع في زوايا النسيان
 ويرتدى أخلاق الأخلاق ، وإذا ما كنا نراه طويلاً مريضاً سميكة ، سد الأفق ، وحجب الشمس
 دخان ذهب مع الريح ، وقبيل الفضة السوداء ، التي كان ينبت منها مكانها معترقة .
 يقول الجاحظ ، بل يرسم الجاحظ ، (وَأَنْ أَبْقَاكَ اللَّهُ أَمْسَقَ إِنصَافَكَ كَمَا أَمْسَقَ الْمَرْأَةَ
 الدُّسْنَ) ، وأتملم خضوك الملحق كما أتملم التفقه في الدين ، ولربما ظننت أن جورك

(٧٤) مجموعة رسائل الجاحظ : صفحة ١٠٩

(٧٥) المصدر المذكور : صفحة ١١٠

إنصافهم آخرين ، وأن تعمدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة العجة

بالنبهة ، ومقاومة الاختيار ، بالاضطرار ، واليقين بالشك ، واليقظة بالحلم ، إلا الذي خصصت

به من إيتار الحق ، وألهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أجه ما تكون إلى الابتكار

أَنْ مِنْ مَا تَكُونُ بِالْإِثْرَةِ وَأَنْتَ مَا تَكُونُ إِلَى الدَّيْلَةِ فَقَرَأْ أَنْتَ مَا تَكُونُ لِلْحُجَّةِ ظَلَمًا (٧٦)

{ وهل في تمامك ريب حتى تعالج بالحجة ، وهل رد فضلك جاسد حتى ينبت بالهيئة ، وهل

الملك خصم في العلم ، أوند في القيم ، أومجار في الحكم ، أوضد في الحزم ، وهل يتبلفك

الحمد ، وأيضرك الصين ، وتسمو إليك النى ، أرمطع نيك طامع ، أرمطاطى شاك باغ

وہل پطیع غافل ان یغورک ، او یاتنف شریف ان یقصر دوتک ، او یخنج عالم ان یأخذ منک ،

وهل غاية الجميل الا وصفك ، وهل زين البليغ الا مدحك ، وهل يأمل الشريف الا اصطفتك

وهو بقدر المليونف إلا خياك ، وهل للظول عرض سواك (٢٢) .

وفي هذه الخطوط الكاركتيرية قلب الحقائق ، ولغز الرصف درجة الاستعالمية

واللهم بالسحرة ، ينقله من حال إلى حال ، ويحمله في مواقف متضاربة ، يمكن أن تكون له

كما يمكن أن تكون عليه ، تر إرجاعه إلى حالته الأولى ، وصورة القبيحة بعد إذ صاب كل

جمال عنده •

وما حوذا الجاحظ يوازن بينه وبين القمر في الحسن والجمال ، والحلاوة والجلال ، فميز

القمر ضليلا نضوا ، وسحوبا سخئا ، يزيد وينقص ، وينخسف ويهتق ، أما هو ^{فدائم} الكلل

لا يحتمل نقصان عولا يعتمد على غيره ، نأرى التوقد ، روحاني البدن ، وهذه الصفات

غير المحقولة ، تنى السخر وتضخمه ، وتجعل الصورة بعيدة عن الأصل ، ويل مضادة له

(٢٦) المصدر المذكور صفحة : ٩٢

(٧٧) الصدر السابق صفحة : ١١٠

وتلك صفات الكارينات . يقول : (وقد علمنا أن القمر هو الذي يضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجبال ، وهو مع ذلك يبدو ضللاً نضواً ، ومحمواً شخفاً ، وأنت أهدأ قمر بدر رغم غير تم مع ذلك يحترق في السرار ، ويتشامخ به في الساق ، ويكون نجماً كما يكون سعداء ، ويكون نجماً كما يكون ضراً ، ويقصراً لكان ، وشعب الألوان ، ويختم فيه اللحم ، وأنت دائم ^{المن} البهجة ظاهر السعادة ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسب من أمراء ، وتكن من أشعبه ، وكل أنه قد حقق حسنة الحق ، وشأنه الكلف ، وليس يذوق التوقد واشتعال ، ولا خال من البياض ، ولا مثلاً في محيطه يره ، ويكسو ظل الأرض ، ثم لا يحترق ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يحترق الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهراً التلم ، دائم الكمال ، سلم الجوهر كريم المنصهر ، ناري التوقد ، هوائي الذهن ، دري اللون ، روحاني البدن ، وإن احتجوا عليك بالجزر والمد ، احتجبت عليهم بالحلم والعلم ، وإن طامعتك اختيار واعتبار ، وطاعت طبعك واضطرار ، وإن له سيرة قد قصرت عليها ، وشأنك لا يجاوزها ، لا تمكده البدوات ، وليس في قواء فضل للتصرف ، وكل أن ضياء مستعار من الشمس ، وضياءك عارية عند جميع الخلق ، فكم بين المميز والمستعمر ، والمتبين والمضمر ، بين العالم ومن لا حسن فيه) (٧٨) وإذا كان التبرج السابق قد شبه ابن عهد ألوهاب بن محمد هو القمر ، وأخذ يحوره وقلبه ، ويتأوله من جميع زواياه ، ومن شتى اتجاهاته ، وفي مختلف أحواله ، حتى استقصى منه جميع أوجه الشبه ، واستخلص ما فيه من معاسن ، ثم أوضح الفروق بين طرفي التشبيه ، وأبلغ حتى قلب الحقيقة وقلب التشبيه ، وجعل الفرق أصلاً والأصل فرعاً ، بل جعل المشبه في القصة ، حسن صورة ، وماء طلمة ، وأعطاه من الامتيازات ما لا يوجد في المشبه به .

فإنه لا يقتضى بمنظر واحد ، وشبه به مفرد ، لأنه لا يراه - وإن تماشى حسنه ورواه
 كافيًا في وصف المشبه ، وأما زج العوسج ، فعدد المشبه به في حسن انتقاء ، ويدفع
 اختصار ، ثم التقط لأحمد من صفات الجمال أبرز ما في كل شبه به ، وأروع ما به يتصف ، فجعله
 وجه شبه ، وأبعد ، باقى الصفات بها في بعضها من تبحر قد ينال ظله المشبه ، فيقل وجوده
 بخلافه من قيمته وجلاله ، وتلك طريقة رائعة في التصوير ، ولكن أخذ المشبه من المشبه
 به ليجود ما فيه وأبدعه ، وجمعه من كل شيء أكبره وأثنته ، وتكرار ذلك في سائر التشبيهات
 لشبه واحد ، دون أن يسه من أحدها شبهة سوى ، مخالفة وظلوه ، وارتقاء بأحمد إلى درجة
 خيالية بعيدة عن الواقع ، مخالفة لطبيعة البشرية بل لطبيعة المخلوقات كلها ، وتجرده
 من إنسانيته ، وإبعاد من صورته ، وهذا يبين الأصل والحقيقة ، ويأثر الوهم والخيال ،
 فالصورة هنا بعدت عن الأصل بعدا غير مسحتها وأوضاعها ، وبدل معالمها وأوضاعها ،
 والقصد من ذلك التفتك والتميل ، لأن الجاحظ لا يقصد المدح ، وإنما يريد التشويه والتميل
 كما يتبين من سائر الرسالة ، ومن أسلحه في قوله : (وطباعك - جعلت فداك - طبع الخمر
 إلا أنك خلال ذلك ، وجوهك جوهرا الذهب ، إلا أنك روح كما أنت ، وقد حوت خطا ل النيات
 إلا ما زادك الله عليه ، وأخذت خصال المشتري إلا ما فضلك الله به ، وجمعت خلال الدر إلا
 ما خصصت به دونه ، فلك من كل شيء صفوة ولها به ، وشرفه ودياره) (٢٦)
 ج - مصرفة كل شيء .

ومن خط الرفعة والكمال ، والتشويق على الكائنات يتفرع خط المصرفة التي جازت الحدود
 وخبرت الأولين والآخرين ، فوجد ابن عبد الوهاب قد حازها متفرقة ومجتمعة ، وثالثا قديما
 وحديثة ، ويغني كل لون ، وأحسن كل ضرب ، وكان بهذا أستاذ الأساتذة ، وسلم الأعداء ،
 والمسئول عن العلم والفنون ، وأقيم عليها ، في كل عصر وحيل ، والجامع لها مبعث شدة

والعائز عليها وإن دقت وخفت ، لا تعترض علمه عقبات فلا ينقص أو يتبدل على مر الأيام .

وباستطالة هذا الخط ، وسجاوذه المدى يحدث التشويه في الصورة ، لأنه إن كان لا يتلام مع باقي الخطوط ولا يتناسب مع أطوالها ، فإن النظر يكون سيئ التركيب ، محيب التكوين مسوخا ، كمن يرسم صورة شخص ، ويجعل أنفه في حجم جسده ، وإن تلام مع سائر خطوط الصورة يرضى التناسب بينه وبين أجزائها ، فإن ذلك غير كاف لخلق الصورة الجميلة ، أو السليمة على الأقل ، إذ لابد من التلازم مع الأصل ، والمطابقة للواقع ، فالصورة السليمة الجيدة في عرف الفن ، ما تلاصت خطوطها مع بعضها ، ورضى التناسب بين أجزائها ، مع تلاصقها ككل مع الأصل الذي عنه نقلت . وهم التلازم بين الصورة والواقع تشويه لها ، ومسوخ لكليتها كصعلوك في ملابس ملوك ، أو كمن يلبس لباً ما يفضل من جسده من كل جانب ، فهو يتخجل فيه ويتعشر .

والجاذب قد وضع صورة ابن عبد الوهاب ذلك الوضع المشوه المنزلي بشقيه ، فجعل خط المرفق في بعض المواضع يناسب سائر خطوط الصورة في الطول والاتساع ، ولكنه لا يتفق مع الأصل ، كما جعله أطول من سائر الخطوط في مواضع أخرى ، فهدت الصورة في كلا الموضعين كاريكاتورية هزلية . تضحك المشاهد سرورا وانشراحا وتمسرى عنه ، وتبكي صاحب الصورة غما وكندا حتى تمض عينيه . يقول زعم التصوير الكاريكاتوري الناطق ، أبو عثمان عمرو

ابن بحر الجاحظ ، في أحد من هت الوهاب : (وقد تعجب ناس من إظالتي في ومن كرة مسألتي وتمجي من تمجيهم أشد ، والذى كان من أفكارهم أعظم ، ولورؤي في العلم رغبتي ، ورأوا فيه مثل رأيي ، وكانوا قرأوا كتابي إليك في شهوتي ، وأيام شباب رغبتي لاستقلال من ذلك ما استكروا ، ولا استقصوا منه ما استطلوا ، فإن أدت لي أظفيري ، وإن تجد على أعلنتهم ، وستقل ما دناك إلى التوبة بذكرى ، وتمريف الناس مكاني ، وقد تعرفت على شهوتي

والتقاضي، وغردى واستوحشى . ولولا أنك جعلت فداك مسلطاً فى كل زمان ، والغاية
فى كل دهر . لما تفردت بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسى فى الجواب ، ولكك قد كتبت
أذنتى مثلاً لمرسئم . لأفلاطون ، ثم لأرسطاطليس ، ثم أجبت معبد الجنى ، وغيلان
الدمشقى ، ومرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وطى بن خالد الأسوارى ،
فترية كك ، والناس تحت جناحك ، أحق بذلك ، وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على
ذلك أحرص ، وبه أعتنى (١٠)

د - خرج جماله من القاييس :

وهنا يضيف الجاحظ إلى صورة ابن عبد الوهاب ، أصبغا جديدة ، وألوانا فريدة ، يجعله
هذا عجبا غريبا ، لاند له ولا مثيل لجماله . بل إن حسنه تخطى القواعد ، ونأتى عن القاييس
وحارت فيه الأفكار . فلا يدرك الناظر سره ، ولا يعرف أين مأناه (وما ندرى فى أى الحالين
كنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكل ، إذا فرقتك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا لك ،
أو إذا تأملنا بحضك فأما كهل نفس التى لم تخلق إلا للتقبل والتوقع ، وهى التى يحسن بحسنها
كل ما اتصل بها ، ويحتال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندرى الناس فى يدك أحسن
أم القلم أم الرمح الذى تحمله ، أم البصرة أم الحنان الذى تمسكه أم السوط الذى
تعلقه ، كما أصبحنا وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل ، واللغة
أم مخط اللحية أم الاكليل أم المصاية أم التاج أم الحماة أم الفناج أم الفلنسة فأما قدمك
ففى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم الحميد الأقصى كما يعلم الغريب الأدنى ،
لأنها لم تخلق إلا لتعبر شمر عظيم ، أو ركاب طرف كريم ، وأما فمك فهو الذى لا ندري
أى الذى تنفخ به أحسن ، وأى الذى يبدونه أجمل الحديث أم الشعر أم الاحتجاج أم
الأمر والنهى أم التسلم والوصف . وطى أننا ما ندري أى السنك أبلغ ، وأى بهانك أشقى

أقلعت أم خنكك أم لظك أم إشارتك أم عقدك ، وهل البيان إلا لفظ أو خطأ أو إشارة أو عقد
 وأنت في ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحد هم وأعيدك بالله ، وأنت تجوز الخاية ، وتغرق النهاية (٨١)
 لقد شغل جمال ابن عبد الوهاب العلماء والأدباء والفكرين ، واحتل قلوب النساء إسماء
 وأحرارا ، نبيات وأبكارا ، وأحدثا لقلبي والخمرة في نفوس الرجال ، فما يأمن أحد على مرسة
 وصار ابن عبد الوهاب فكر الناس وديانتهم ، وشغلهم في يقظتهم وسنامهم ، وكأنه كل شيء ،
 وكان العالم بأسره أحمد بن عبد الوهاب ، وهم يقفون عجلة ألام جماله ، وتضطرب مقاييسهم
 وتضخم موازينهم ، وتلك الصورة الكارثية قريبة من المذهب الرنزي ، والمذهب السريالي
 ففيها مع قلب الحقائق ، وخلق الصورة الرائعة الحسن لمن لا حسن فيه ، وجعل الحسن
 وصلة للقيح ، وعلى مقدار ما ارتفع الحسن وساقى الصورة لم يرتفع مؤثر القبح ، ولا في الأصل
 أقل ، في الصورة مع هذا إيماء وتلويح ، وخفايا ودعاه ، ووصف شيء ، والمقصود وصف شيء
 سواء ، وحديث من حسن روايته ، والمراد قبح ودعامة ، وتلك سائر الرنزية ، وخيال بعيد
 يقرب من الأوهام ويصل إلى درجة ما نراه في المنام من أحلام ، وتلك خطا نحو المذهب
 السريالي . ذلكم أبو عثمان وإفتانه ، وسمرته السريالية والرنزية في الأدب والتصوير
 فهل أن يعرف العالم اسم السريالية والرنزية ومعناها في الفنون وقول أن يوك هذا أن
 الأدبيات الخربيات اللذان ضم أدباء الغرب ، بل وأدباء العرب
 أنهما صا حبا المذهبين ، وابتدعا هما على غير مثال عودون احتذاء ، بقول ابن بحر :
 (وقد أصبحت وما على ظهرها هود إلا وهي تمثر بأسطك ، ولا فنة إلا وهي تنقى بمدحك
 ولا فنة إلا وهي تشكر تباريح خيلك ، ولا محجوبة إلا وهي تنقب الخروق لسوك ، ولا عجز
 إلا وهي تدعوك ، ولا غير إلا وقد شقي بك ، فكم من كيد حري مضجعة ، وبصرحة مفرقة
 وكم حشاخاق ، وقلب هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم مسجري
 مولدة ، وفناة محذبة ، قد أقرن قلبها الحزن ، وأجهد عليها الكد ، قد استبدلت

بالحل المظلة ، وبالأثر الوحشة ، وبالكتميل المرء ، فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائسة
 مجهولة ، يمد طرف ناصح ، ومن ضاحك ، ونهج ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة
 تتوهج ، ولهب حستك أبقاك الله ، الذى تبقى معه توبة ، أو تنج معه عقيدة ، أو يدم
 معه عهد ، أو ينبت معه غم ، أو يمل صاحب الثبت ، أو يتسع للتخير ، أو يندب فيه لغيره ،
 أو يهذب خوفه ، هو أعزك الله شئ . ينقض المادة ويقتضى الفنة ، ويصجل من الرينة
 ويهطج بالمرى ، ويتوهمه العواقب ، ولو أدركت ابن الخطاب لصنع بك أعظم ما صنع بنصر
 ابن الحجاج ، ولو كيك بأعظم ما ركب بعجمه السلى ، بل لدعاه الشغل بك إلى ترك
 التثاقل بدما ، والضيظ عليك إلى الرحمة لهما ، فمن كان عيب حسنه الإنراط ، والطمع عليه
 من جهة الزيادة ، كيف يروم عاقل ، أو ينقصه عالم ، فلا تعجب أن كنت نهاية البعة ،
 ونظية الأنفة (١٢)

هـ - حياته سبقت آدم :

ومن الكاريكاتورى الرسالة : البالغة والفيلسوفى طويل عمر ابن عبد الوهاب ولم يحبل
 حياته إلى غير غاية ، حتى لا تصرف بدايته ، وجعل مولده من الخفى الفاضل الذى لا يستطيع
 أحد أن يقف عليه ، لا تطوئه فى مجاهل الزمن ، وتتأرجح الحقب عليه ، مع زم أحمد
 أنه محقق الشهاب ، حديث العيلاد ، وذلك يسلنا إلى التناقض الواضح بين حقيقته
 التى يراها الجاحظ ، وبين ما يزعمه أحمد :

والتناقض والاختلاف الجوهرى بين الأصل والصورة ، بكثرة الخطوط التى يحدتها الصور
 فى تقاسم الوجه ، وتتميز بها ، وبانحناء خط الظهر وتقرينه ، وتغيير الأصابع بتحويل
 لون الشعر إلى الأبيض الناصح بعد أن كان أسود فاحما ، ضرب من التصوير الدزلى
 ولون من الكاريكاتور :

كما أن بين الأصل والصورة تشاقضا أعظم ، وغضاريا أعم وأشمل ، يصل إلى الصمت بالمقول
واللهز والاستخفاف بصاحب الصورة ، بتصويره في شكل غريب ، ووضع مستحيل ، يجعله
أقدم من أبيه ، ومن رأس قبيلته بجيلة ، بل أقدم وأسن من جده ، لأعظم قططان ، وهذا القدم
جعله مستقل أما را لمحمدين ، يعتبرهم أطفالا إذا قيسوا به ، فنوح في قياسه لم يعش
طويلا ، فما خمسين وسبعين سنة بالعمر الشديد .

يمكن للصورة أن مبرعن امتداد مرابن عبد الوهاب بطول اللحية وبياض شعرها ،
وقضض الجلد ، وانحناء الظهر ، وكلال الحصر ، وورن الجسم وتخاذله ، ولكنه مهما بالغ
وامتلك المريحة الذهبية ، والموضبة الابتكارية فإنه لا يمكنه أن يجعل هذا البعد المرشبا
ولا يستطيع أن يجعله أقدم من أبيه ومن قبيلته ومن نوح وآدم ، ويقتل يمكنه أدراك ذلك
في صورة كاريكاتورية أو غير كاريكاتورية . ١٤

ولكن براعة الجاحظ المصرية ، وبراعة التعبيرية ، وقدرته الفنية ، أتاحت له ذلك ،
وأباحته حرية استخدام الألوان والخطوط ، فاستطاع أن يجعل مرابن عبد الوهاب تجاه
أفلاطون وأرسطوطاليس يناظرهما ، ويصاحب نوحا في سفينه ، ويحرف الإنسان من خلقوا ،
ويشاهد الجن قبل أن ينجبوا ، ولأنه ليس إنسيا ، ولا جنيا ، لأنه أقدم من خلقهم ، ولم
أولم أنك رجل يمان لولادة لك في قططان ، كيف وأنت أقدم من قططان ، ومعدن عدنان ،
ومن القرن التي خبرا لله من كرتيا ، ومن آياتها وأجدادها ، ولكك منهم بالهوى والنصرة

ولأنهم كانوا لك أحشاما وصنيعة (١٢) . فخيرني مدجري بينك وبين هرمس في طبيعة
الملك ، ومن سمالك من أفلاطون ، وما دارني ذلك بينك وبين أرسطوطاليس ، وأي نوع
اعتقده ، وأي شيء اخترت ، فقد آبت نفس غيرك ، وآبت أن تتشفي إلا بخيرك (١٤) (أنيك

(١٢) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٢٢ .

(١٤) المصدر المذكور صفحة ١٠٦ .

لا تعد عروج عرا ، ولا التجمي بها ، وإنك قد فت التار يخات ، وجزت حساب البوارات ،
 واستقلت الأحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما استطالت بأصا رها ، ولا فرحت بطل
 (١٥٠) يا مها (١٥٠) قد لنا هدت الإنس مذ خلقوا ، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا ووجدت الأشياء
 بنفسك خالصة ومنزوجة ، وأغلا وموسومة ، وسالمة ومدخولة (١٦٠) .

..

..

..

٢- مقارنته بالشاعر :

وقرن الجاحظ ابن عبد الوهاب في الصورة المنزلية القترامية الأطراف التي رسمها له في
 رسالته للترويج والتدوير بشعرى الرجال ، ويجعله نداليم ، بل يرفعه ليتشوق عليهم ، ويبدعهم
 فيها شهرا به ، حلما ولما وحكما ، وزانة وفروسة ،
 وأرقالة عليهم مجتمعين ، وغرفة على كل منهم في أبرز ما عرف بإجادته له ، مع ما
 أترعن ابن عبد الوهاب من غرور وادعاء ، وما روى عنه من جمل وفي ، يدل على أن
 الصورة لم يرد بها المصور تخطي صاحبها وتهجيله ، وإنما أراد تشويده ، واللمسه ، وتشجيم
 ميم ، وخطائه ، وإبرازها مقارنة بالمحلد ، في منظر ساخر مقلوب ، جعل المحامد مثل من
 المساوي دركات .

وهذا تنبيه بكاركتير صور . بالقرنة لنخس يقف على رأسه ، فقيه مع الطرائف والتكبيس
 قلب العناق ، ووجه الأشياء معكوسة الوضع ، فالأعلى أسفل ، والمجد والرفعة ضمة
 وانعطاط ، وما روى ابن عبد الوهاب ، في الكاريكاتور اللغز له ، والشخص الذي يقف
 على رأسه ومثله في الكاريكاتور العرسم ، أن العالم محتدل ، وأن الانقلاب إنما هو

(١٥) المصدر السابق صفحة ١٦٠ .

(١٦) مجموعة رسا لى ، الجاحظ ، صفحة ١٠٢ .

في وضع كل منهما ، وفي هيئته
 ومن هذه الخفلة والتكيس ، رؤية الأشياء مقلوبة ، والحكم عليها بحكمها تستحقه
 يستند السخر قوته ، ويبلغ التصوير المنزلى ذروته ، وما ذلك على الجاحظ بمنزحين يمكن
 الله ليقول : (وأشهد بعد أنك تغاشن صروبين بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تظافره وتطاوله ،
 وتغنى من حنارقه ، وتكر فضل نوره ، وتستجمل النظام ، وتستبرد الأصمى ، وتعنفى قيس
 بن زهير ، وتستغفل الأحنف بن قيس ، وتبارز أبا الحسن على بن أبي طالب رضى
 الله عنه ، ثم تخرج من حد الخفلة إلى حد العراء ، ومن حد الأحياء إلى حد الدامنة) (٨٧)

في التصريح بمعيه

قد يصح بمعيه ، ويجأر بهينه ، وذلك فأدرك في الرسالة ، وأتدرسه أن تكون المصير
 المصحح بها جسمية ، أما الغالبية المعطى لسخره في الرسالة فإنها تنصل بالناحية العقلية
 أو النفسية أو السلوكية ، حين يرى شذوذها والتواءها ، وهو لا يبلغ في ذلك حد التصريح
 قالها ، إذ هو رجل الفكر الدقيق ، والنفس المرحمة المنبسطة ، والأكذب الراقى ، ومن كان
 كذلك قل تصريحه بالمعيب ، وإدراك المخازي ، وكشف الحورات ، وإن كان قصده الإصلاح ،
 لأن كشف المعيب ، وذكرها دون مواربة أو تستر ، وبخاصة إذا كانت جسمية ، من صفات
 الضمير الذي لم يترس بالأدب ، والفظ الذي لا يحفل بالناس ، أو الوقاح الذي لم يحاشر
 فيها السخرية والرواح ، أو الجاهل بمسائل الإصلاح والتقصير ، ولم يكن الجاحظ واحدا
 من هؤلاء ، لذلك اتخذ الأسلوب اللين ، والعبارة المخلفة طريقا للسخر ، وصيغها
 للتصوير البائس ، يرى أنها أكثر إيجاعا ، وأعين على تحقيق الغرض ، وأرقى بمن يؤد
 إصلاحهم وتقويمهم ، وألحق بمخاطبة العلماء والأدباء ، وعلية القوم ، فابتعد ما أمكنه عن
 السبب الصريح والمباشرات ، والمهجا المفضح ، واتخذ السخر والتصوير المنزلى طريقا

لأيهام الميرب ولاجبا .

ومن حبيب ابن عبد الوهاب التي صورها الجاحظ كاريكاتوريا غاب عن وأوجع .

أ . ادعاه ما ليس فيه .

ولذا الميرب أحمية في تشويه الصورة ، وتلطيف معالمها ، وتجميلها بالسوا ، حتى بدت كما هي عليه ، من وجهتين :

أولاً : لأنه دافع عنها ، ومرض ويعل ، وأقبح صفة توصف إلى العلماء والمفكرين الذين يعتمدون على التحقير والتجربة والواقع ، بل إنهم دائما ينقصون نفوسهم عظمتها ، ويهضمونها حقها من السمو والرفعة ، فهم أرفع من أن يتصفوا بالتفخ والادعاء ، وقد كان الجاحظ عالما وفكرا ، وليسوقا ، فكان هذا الميرب أشد ما ينظفه من يتصفون به ، فما بالسك إن كانوا لا يتعلمون من العلم بسبب ١٤ +

ثانياً : لأنه ينع الصورة لنا من السخ ، وضحا من الشذوذ ، وكثيرا من التافهين الحقيقة والادعاء ، كما يحدث التافه في الصورة الكاريكاتورية بين عضو وضو ، وبين الصورة بريمتا ومن نقلت عن ، فيلادى بها إلى التشويه والسخ ، والسخر منها .

ولقد اتخذ الجاحظ من هذا الخط الأسود في نفسية ابن عبد الوهاب مطلقا لرسم الصورة المزلزلة له ، فقارنه بالحقيقة لتبين التناقض ، فيشافظ النخل والبز ، فقال : كان أحمد بن عبد الوهاب مقرط القصير ، ويدعى أنه مقرط الطيل ، وكان مرها وتحببه لسمعة جفرت ، واستغاضة خاضعة مدورا ، وكان جمع الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة ، وأنه عتيق الوجه أخصى البطن معتدل القامة تلم العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه ، يدعى أنه طويل الباد ، رقيق المهاد ، عادي القامة ، عظيم البامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والصحة في العلم ، وكان كهر السن مقام الميلا ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد ، وكان ادعاه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة عنها على قدر غباوتها عنها ، وكان

كثير الاعتراض لهما بالمرأى ، شديد الخلاف ، وكذا بالمجاذبة ، متناهما في المنفعة مؤثرا
للمعالية ، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطورة عند قصر الزاد ، والعجز
عند التوقف والمحاكمة ، مع الجهل بشرة المرأى ، وضيق نساء القلوب ، وبكده الخلاف ، وما
في الخوض من اللغو لداع إلى السوء ، وما في المعاندة من الإثم لداع إلى التارة
وما في المجاذبة من الفلكد وما في التثالب من فقدان الصواب وكان قليل السماع غمرا
وصحفا غفلا ، لا ينطق عن فكر وثيق بأول خاطر ، ولا يفصل بين اعتزام المنع واستبصار الحق
بعد السوء ، فكذب ولا يفهم معانيها من مستند العلماء من غمرا أن يتعلق بهم بسبب وليس
في يده من جميع الآداب إلا الانتماع لاسم الأدب (٨٨)

وهذا يلزم ما قلناه آنفا من أن تصرع الجاحظ بالمصوب نادر ، والأكثر منه أن يتناول
المصوبية الجسمية ، لأنه هنا ما تناول المصوب الجسمية إلا ليصل منها إلى أحد هوي
النفسي وهو الادعاء ، بل يمكن أن أقول إنه لم يتناول المصوب الجسمية وكل ما ينحصر
فيمنه ويحييه هذا ، الادعاء والكذب من طريق ذكر الواقع ثم ذكر النقيض والافتراء .

ب - جهله بالبدعيات :

وضيف الجاحظ إلى الصورة الأدبية الخلطة خط الجهل ، لتكتمل معالمها ، وتظهر
من جميع نواحيها ، ويتم التشويه والسخ فيها ، فتبد صورتها الصورة ، ويحجز الفطنون عن
اللاحق به ، وهل في مقدرة الصور أو الرسم أو المثال أن يبد في الصورة خط جهل ؟
وذلك عند أبي عثمان أرق خط بالتشويه ، لأنه من الأدباء العلماء المفكرين ، الذين يجلون
المقل وقد سوتهم ، ويحرقون الجهل ، ويعتقونه ، يرونه أنهم القهائج ، وأهشع الصفات ،
وأمر كل داء ، فلما أراد أن يكو صورة ابن عبد الوهاب البشاعة والشناعة ، اتخذ الجدل

ومد

له رداً ، وَوَحَّدَ خَطوطه ، وحاك خيوطه ، وسجج منه للنسوة نرجه بها ، بعد أن أجلسه على مرضى الأدماء الواهي ، فكشف خلا ، من كل فكر سديد ، ومنطق رشيد ، وخير مقيد ، ومرضه للقرى في حوة ساحقة ، وتحقق ما بقى من إنسانية ، وأرانا ظلمة عقله المائلة ، ووجهه النضيد ، والجمل تشبه للعقل ، وتحقير للمرض ، وطلب لأهم ما به الإنسان إنساناً ، وإبراز له في صورة أدبية ومثيقة غير آسنة ، تتدفع الملاحظين في اللسعة العابرة ، وحتى إذا تأملوا باطنها لا صفة وحقيقة غير آسنة ، تتدفع الملاحظين في اللسعة العابرة ، وحتى إذا تأملوا باطنها وكشفوا أغوارها ، برزت لهم الخدمة ، واتضعت اللبنة ، وفهموا مرض الكاريكاتير ، فسخروا وطكروا ، واستولت البهاشة على وجوههم ، وصرت البهاشة قلوبهم ، يقول الجاحظ ، (كان قلل السماع غمرا ، وصغفيا غفلا ، لا ينطق من فكر وثيق بأول خاطره ، ولا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستنصار الحق ، بعد أساء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب) (٨٤) وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استبها ظا ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عيانا وأنت لا ترضى بعبء العيان حتى قدعوا له ، ولا ترضى بالعبء إليه حتى تعادى فيه ، ولا ترضى بالمداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرتاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون الثالث ، ولا بالتالد دون الأمرار التي تسرى والمواليد التي تنح) (٩٠)

ج - عدم قاطعية التعلم ،

وإذا كان ابن عبد الوهاب في الصورة متشككاً الجميل ، منكراً المعسوس ، فإننا نراه نفس زاوية أخرى من زوايا الصورة مخلق العقل معجوب الفكر غير قابل للتعلم ، كل شيء با لنسبة له فامض مستغرق ، لا يدرك حقيقته ولا يفهم معناه ، إلا بعد الجهد الجسيم ، والزمن المديد ، فقد أبت عليه طبيعته وجيله أن يكون للمعرفة مدخل إلى ذهنه ، فقد خلقت صفحة عقله بيضاء ناصعة ، تعكس أشعة المعرفة الساقة عليها ، وتردها دون أن

(٨٤) المصدر المذكور ، صفحة ٨٥ و ٨٦

(٩٠) المصدر السابق ، صفحة ١١٩

تورثها ، أو ترك عليها بصانها ، ولو أن قتل ابن عبد الوهاب أعيد صهره وتشكله
 لما قبل بطبعه الصبر والتشكيل ، بل لما لأن ، ولا أثرت فيه حرارة ، وقول له الجاحظ
 (وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فتعنى من ذكره لك غموضه عليك
 واستتاره هناك ، وعلمت أني لا أقدر أن أعبره لك دون ، وهرطويل ، ولا أضحك معناه دون
 ترويب كثير) (١١٩) ، ويقول له ، (وأنت - جعلت نداه - لا تعرف هذا ، ولو أدخلت الكبر ،
 ونفخت عليك إلى يوم ينفع في الصدر) (١٢٠) ،
 - التواء طياته -

وكما فعلت الصورة الكاركة في الصنع والتشويه في جسم ابن عبد الوهاب ، فجعلته
 قصيرا مرهبا مدورا ، فقد فعلت ذلك بنفسه وظلته وطعامه فجعلته ملتويا معقدا ، وما
 جعل للجاحظ الطبيب ليعطل الصورة بالأشعة الملونة ، تبرز خفايا ، وتبدى تشويهااته ،
 بل تصيد إلى تشويهه فشيئا ، فلا ترى من الصورة إلا الهيكل العظمي والأورام والكسور
 والاتراصات ، ثم يضعه على مائدة التشريح ، يخرج أعضائه ، ويقص جرائمه تحت مجهر
 هنري ، فتعظم وتطاف ، ويكوى بجسمه موطن الكرامة ، وتزيل بهضه فاسد الأحناء ،
 لعل الكرامة ينتج ، والكسر تجبر ، والأورام تنزل ، ولكن نفس ابن عبد الوهاب قد
 خبت ، والأورام فيه قد انتشرت ، وهل الجاحظ حينذاك لا ينفذ إلا في تشبيه الناس
 صحت الوقاية بينهم مظاهر الالتقاطات والتشويهاات في طباع ابن عبد الوهاب وسلوكه ،
 للحظة والالكلية آلت إليه حاله ، وللمح والسرور ، لأن طباعهم سلكت ، ونفوسهم
 اعتدلت ، وقولهم صحت ، ولنستمع إلى الجاحظ الطبيب يخاطب مريضه ، مبيها نتيجة
 التحليل ، ويحس الأشعة ، (وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مباينة
 المصنفين في تعظيم المنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع الحقائق مرتبة ، وأن الإقرار

(١١) مجموعة رسائل ، الجاحظ ، صفحة ١٢٢

(١٢) المصدر المذكور ، صفحة ٨٦

بما يظهر للمعين ضمة ، وأن الشهرة بالمبالغة رتبة ، أظهر القصر عندك حجة أنهم
صوت ، وأخلقهم للنسبة أصلهم وجها ، وأحسنهم تحية أقلهم تعرجا ، وأكثرهم عسك
إنصافا أكثرهم شجبا ، تعصفا لمنوره وتكلف بالجمع ، وتما في الوقاح ، والأدب
عندك من يحجب أحاديث الجلساء ، واعترض على فواد الإخوان ، وفرضي قفا النديم ، وضرب
للحائم ، وأغنى الماقل ، واستقل الظريف ، وحسن على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة (٩٢)

..

..

..

هـ - موازنته بالجاحظ ،

وأما في كشف شهوة ابن عبد الوهاب ، وتضخم عيوبه ، ووضعه أمام مشاهد يس
في صورة ضاحكة ساخرة ، جعل صورته تماثل صورة الجاحظ ، في وضع لا تتم فيه المقارنة
ولا تصح الموازنة ، لما بينهما من تماثل في جبل الصفات ، وتولد السخرية في اللوحة
من هذا البعد الشاسع ، ومن أن الموازنة بينهما كالموازنة بين الضدين ، والجمع
بين النقيضين ، وليس حول الجاحظ بالموازنة تبيان أوجه الاتفاق ، ونواحي الاختلاف ،
لأنه لا اتفاق وإنما المراد السخرية ورسم الصورة المزلية المضحكة ، لمشوه مسخ ،
يوضع بإزاء كامل جميل في لوحة واحدة ، وهذا الاقتران وحده كتيل بالتشويه والإضحاك .

يقول الجاحظ حين يعرض صورتين من الناحية الجسمية : (فأما البهائم والقائمة ، فمن
يعدل بين الشاة والكرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان ، وبين رجلي الطحان ، وسيف
بمان ، وإنما يكون التمثيل بين أكثر الخيرين وأقصر الشرين ، وبين المتقاربين دون
المتباعدين ، فأما الخيل والحمل ، والحمام والجبل ، والسم والغذاء ، والفقر والغنى
في هذا ما لا يخطئ فيه إلا من ، ولا يكذب فيه أحد) (٩٤)

(٩٢) لمصدر السابق ، صفحة ١١٩ ، ١٢٠

(٩٤) المصدر نفسه ، صفحة ١١٩

وحين يمرضهما من الناحية الفكرية والصفات الخلقية ، (وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل واطلبها ، وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها قاسد ، فألتم نفسك قراءة كتيبي ولقومي يا بني وأبنت ينفعني التشبيه والقول بالهداية ، واستبدل بالرفض الاعتزال ، وإن أفتكر منك بعد التمكن والهدى ، جهد التفرع والشذوذ فلا يحق الله إلا من ظلم) (٩٥)

(فأنت والله يا أخى تعلم علم الاضطراب و علم الاختيار و علم الاخبار أرى أشد منك حذرا ، وأظلم منك حزنا ، وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأزهد حلا ، وأخف روحا ، وأكرم عينا وأقل غشا ، وأحسن قدرا ، وأبعد غورا ، وأنصح طرفا ، وأكثر علما ، وأنتطق لسانا ، وأحسن بيانا ، وأجدر جسارة ، وأحسن إشارة ، وأنت رجل تشد من العلم ، وتتقى من الاختيار ، وتحمي نفسك وتختر من قدرك ، وتتهب بالثياب ، وتتبل بالمرائب ، وتتحبب بحسن اللقاء ، ليس بذلك إلا ذلك ، فلم تراع البحر بالجدول ، والأجسام بالأغراض ، وما لا يتأذى بالجزء الذى لا يتجزأ) (٩٦)

وحين يمرضهما من ناحية النسب والأنصار ، (والله لئن رميتي بهيجلة لأرميك بكائة ولئن نهضت بمال بن على لأنهض بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على ، ولئن صلت على بسلیمان بن وهب لأدمنك بالعسن بن وهب ، ولئن تبت على بقاءمة جعفر الخياط لأجهن عليك بجسة وهب الدلال ، وأنا أرى أن تقبل العافية وترغب إلى الله تعالى فنى طول السلامة) (٩٧).

وبذلك يتضاءل ابن عهد الوهاب ، أمام الجاحظ المملوك ، ويكأن يدوب ضعة وانحطاطا .

(٩٥) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١٢٠

(٩٦) المصدر المذكور ، صفحة ١١٨ ، ١١٩

(٩٧) المصدر نفسه ، صفحة ١١٨

٦ - قلب حقيقته :

وقد يقلب حقيقته ، ويغير معالنه ، ويبرزه في صورة كاريكاتورية شاذة قصد الى السخر
ورقة في الإضحاك ومن الجوانب المزلية ، والأصباغ الكيماوية التي يضيفها إلى صوره
فيكون التفاعل القوي ، والمرح الظاهر والخفي .

٧ - جمعة التناقضات :

فمن التناقضات الفنية لصورة ابن عبد الوهاب المزلية ، أن يجعله الجاحظ محققا
للتناقضات ، وذلك يؤدي بالصورة إلى التضارب والتشبه والحمد عن الحقيقة والواقع ، بل
إنه يبعد بها عن المحقول والممكن ، ويخلق الشخصية الفاضلة المعقدة ، بل الشخصية
الروحية الخرافية المسوخة التي تجلب دهشنا ، لبراعة تأنيبه بوجوده مسخه ، وسخرنا لما
صارت عليه من خروج عن الإلف ، ونفور من العقل ، كما تسخر من غريب البيئة والأبليس
يقول مخاطبا ابن عبد الوهاب : (فأنت العديد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب
فما نسرا جمع الأعاريف ، وما شغوا جمع الاستدارة والطول) (١٨) . وفيك أمران غريبان وشاهدان
بديهان جواز الكون والفساد عليك عتاقورا لتقصا ن الزيادة إياك ، جوهرك فلنك وتركيبك
أرض ، فيك طول البقاء ، ومعك دليل القناء ، فأنت علة للتضاد وسبب للتناهي ، وما ظنك
بخلق لا تنزه الإحالة ، ولا يفسده التناقض) (١٩) .

ب - جد قصد به المنزل :

لقد تحدث حديثا جادا وصادقا المنزل ، ويؤدي محاسن ابن عبد الوهاب في وطرى
معامده ، والقصد همزه ولمزه ، وتشبيهه ونمزه ، كمن ينحت تماثلا من الحجر ثم يظلمه بالذهب
في صنعة جيدة ، وتوهمه متفنن ولكنه يترك جزءا صغيرا من جسمه دون طلا ، فيفضح به
أمره ويبتك ستره ، ويدل به الناظر على رثائه لزائف ، ويذكره الكاتب ، وقد تمسك

(١٨) مجموعة رسائل : الجاحظ صفحة : ٨٩ .

(١٩) المصدر المذكور : صفحة : ٩٩ .

ولو لم يكن من المجيب إلا أنك أزل من تعبد الله بالصبر على خطأ الحسن ، وبالنكسر
على صواب لذهن . لقد كنت في طوولك آية السابحين ، وفي مرضك مناراً للضالين (١٠١)
(ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ، ومن القناعة والإخلاص ، إلا أنك ترى أن ما عند الله
خير لك مما عند الناس ، وأن لظلم الحق أحب إليك من الظلم الظاهر . كان في ذلك
ما يشهد لك بالإنصاف ، ويحكم لك بالتوفيق (١٠٢)
جد - التلاعب بمقله .

وقف الجاحظ من عقل ابن عبد الوهاب وشكده موقف لأعجب الكثرة من كرمه ، يقذفها
إلى أحلامه ، ثم يتركها تنبسط . يعنف في ضربها بقدمه ثم يلين ، يفضها حتى يهجر حجتها
ويستدير جرمها ، ثم يطويها بإفراغ الهواء منها . أو يتلاعب به لمب العين بدمية التورية
البيضة ، رطبا بخيط من المطاطه يرسو بدا إلى أسفل وإلى اليمين أو اليسار أو يقلبها
ويرقصها ، وهو آسر وصولها إليه ، وارتدادها عنه ، وامتلاكه إياها مادام الخيط في يده ،
وهي لا تملك لنفسها حولا ولا حيلة . أو يفعل به ما يفعل بالصور المتحركة في دار الخيال
أو بالمعاني الخشبية في المسح الضاحك . وإذا كان التلاعب بهذه الجواهر باعثا على
انزعاج النفس ومجبتها ، فلا على حذق اللاب وممارته ، فإن اللاب بمقل ابن عبد
الوهاب - الآتي - يضيف إلى الانزعاج والبهجة ، والحذق والمباراة ، والهنر والاستخفاف
والفنن والسخر ، وحرية الحركة وحفا في المسح والتشويه ، حيث طمس آدميته رغم وجودها
وأبطل تفضات عقله وألفاه ، وهو يحمله في رأسه ، وذلك محط البطلان ، ودار الخسر ،
يقول الجاحظ : (وأما إدراك الشخص البعيد ، وفراغك الكتاب الحقيقي ، ونقص

(١٠١) المصدر السابق : صفحة ٨٩ ، ٩٠

(١٠٢) مجموعة رسائل ، الجاحظ : صفحة ٩٢ .

الغنام قبل الطمع ، وفيه المشكل قبل التأمل ، مع ومن الكبر ، وتقادم الجلال ومع
تخون الأيام ، وتنقص الأيام ، فمن توتيا ، البند ، وترك الجناح ومن الجمع الشديدة ،
وطول استبدال الخضرة ، فأنت يام حين تصلح ما أفسد الدهر وتسترجع ما أخذت
ملك الأيام لكنا قال الشاعر ،

وقد لعب البنيان واحد ودب الظهر
(١٠٣)
وهل يصلح المطار ما أفسد الدهر

موقف ترجى أن تكون فتية
قدس إلى المطار ميرة أهلها

وأرا سخون في العلم ، والناطقون بالقوم ، يحملون أن استفاضة عرضك قد أدخلت

الضم على ارتفاع سلكك ، وأن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولكن

اغتنفوا في طولك لقد انفقوا في عرضك ، وإن قد سلوا لك بالرم شطرا ، وضحك

به نظم شطرا ، فقد حصلت على ما سلوا ، وأنت على دواك في ما لم يسلموا ، ولمعنى

إن الميمون لتغطي ، وإن الدواك لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا الكاذب ، وما الاستبانة

(١٠٤)

الصحيحة إلا للعقل ، إذا كان زماما على الأعضاء ، ويغار على الدواك

أما إتمامه بالاستئلة ،

وهو وجه إليه الأسئلة الكثيرة ، وقد بلغت مائة مسألة ، يعرف قصور من إجاباتها ، ليس

كسولة ، وضلالة حصيلته ، وضوب قريحته ، ثم يحيله إلى كتبه المديدة ، يلتبس الإجابة

بها ، ويتعلم بين دفتيها ، ليظلم له الأستاذية ، والحدق والمبقرة ، ولا يهضم

الجاحظ جرابه ، ولا يحنه رجوه إلى كتبه ، وليس فرسه إزاحة قياح جيله ، وإنما وكده

المثراية يحمله وحله ، والطير يسقطه وتحميه ، ويضعه في إطار قاتم من البلاد والبلادة

وجعله كاريكاتير مشوها لمن يدعي العلم ولا علم لديه ، ولعن يفاخر بذلك ، وقلمه

بمع بطيقات الظلم ، ولعن يطاول أستاذة وخاشنة ، وهو أحط من أن يكون تلميذه ، وقد

أوضح الجاحظ الطريقة التي بها يذله ويسخه في رسالته ، وهي الأسئلة التي يلقيها
إليه ، ويطلب جوابها منه ، ثم التشهير به ، يجعل كل من يلقاه يسأله إياها ، ويصرح
بها ، وذكر السبب الذي من أجله سأله للأحرجه ، وكشف للناس وله جبال جهله ، ورم
الصور والمشوهة لعقله ، إنه سبب شريف ، وفرض نبيل ، هو كشفه أمام نفسه ، لكشف
من غربه ، ويعدل من سلوكه وقوله . وقد ذكر ذلك في رسالته بقوله : (فلما طال إظهارنا
حق بلغ المجهول منا وكدنا نحتك مذهبه ، وثأف سبيله ، رأيت أن أكشف قلعه ، وأبدي
صفحه للحاضر والبادي ، وسكان كل ثغر ، وكل مصره بأن أسأله من مائة سؤالاً أمراً فيها
وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ، وليكفوا غنا من غربه ، وليردوه
إلي ما هو أولى به) (١٠٥)

وهي الأسئلة التي وجهها إليه ، (خبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه ، في أول
ما أنشئ في إنائه أكان بحراً أجاجاً استحال عذبا زلالاً أم كان زلالاً عذبا استحال أجاجاً بحراً
خبرني كيف صار الماء أبيض من الفلك ولا يكون إلا في بطن الأرض ، وهو أشبه بالسوا ،
كما أن الهواء أشبه بالنار) (١٠٦) . (خبرني عن الزرافة أين ولد الناقة أم من الضبع
ومن الشبوط أين ولد البني أم الزحر ، وخبرني ما نقا مغرب وما أبوما وما أمها ، وهل
خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقيمًا وجعلوها أنثى) (١٠٧) . (خبرني من
خلق الخريف وقاتل سعد بن النقي ومن الذي استوى عمرو بن عدى ، ومن صاحب عارة
ابن الوليد ، ومن يصرع منم الأصحاب ، ومن يرى المرض ويستشفى العقلاء ، ومن
فصل ما بين الشيطان والجنى ، وما بين الجن والجن عمن طعنه الجذف) (١٠٨)

(١٠٥) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ٨٦

(١٠٦) المصدر المذكور ، صفحة ٩٨ .

(١٠٧) المصدر نفسه ، صفحة ٩٩ .

(١٠٨) المصدر نفسه ، صفحة ١٠٤ .

وهكذا كانت الرسالة ميدانا فسيحا للسخرية ، وسجلا رحبا للاستعزاء ، والإيجاع ، تناول
 فيها الجاحظ شخصية ابن عبد الوهاب فسخها ، وتلاعب بها وصورة قزما غشلا ، ثم ألهمه
 رداه نضا فاما من أروية الكمال والجلال فتعثر في ثيابه وتزويى ، حتى أصبح سخرية الباطنيين
 وأصحابه الضاحكون ثم خلق منه هذه الشيا ، وأظهر عوراتهم أمام الناس ، وعلى سلا
 عدهم وخساسة عرته ، محسوسة مجسدة ، وبالحق في هذا التجميع مبالغة ساخرة ، فظهره في
 صورة كاريكاتورية تدعو إلى الرجز وتشتت الباطنيين على الإسراع بالسخرية .
 والجاحظ يتلاعب به ، يرفعه ويخفضه ، ويقتصر ^{وتقدم} غيره ، ويدنيه ويقصيه وقد لله ثم يتجزه ،
 ثم يتركه هؤلاء الباطنيين ، وأصحابه الساخرين ، وما مثله معه إلا كقط وقع في حباله فأره فهدو
 يتلاعب به ، ويقتاده ، ثم يظهر الخفلة منه ويتساءل ، حتى إذا أمن التآمر ، وأذهب للقرار
^{فيه} ثم يفتنه ويحبسه ، ذلك المصائد الباطنية ، فشد حباله حولها ، فلا يروى منه ، ثم يظهر له
 الصداقة ويحميه الإخاء ، وطيب الصحبة ، ليتفرغ نفسه ، ويغتر ربه ، ثم يكرهه بالهجو
 ويلاحقه في لطائفه ، وذلك أشد ألوان الإيلام ، وأعنف أنواع التمهيد .

تلك رسالة الترهيج والتندير ، التي حققت الكاريكاتير ، وارتقت بفن السخر وأطلعتنا على
 جوانب عديدة له ، وفنون مختلفة الألوان ، شبيهة الطعم ، من اللذع والقرص ، والهجاء
 الذي وقت به المدنية ، ولطفته الحضارة ، فسلكت به طريق التصوير المضحك ، والسخر المر
 فالمعتمد على المقابلات وعرض المتناقضات حين تناول الجاحظ صاحبها ، وأخذ يقلبه بمسويل
 يديه ؟ بحيث به قبل أن يقتله ، فلماذا به شكل غريب ، وخلق عجيب ، وقرور وحسد ، وجمل
 رجلا جده مع حسن القامة ، وعظم البامة ، وحرور المين ، وطيب الأحدة ، ثم يلجأ نيسا
 يتناول ، ويخالق في سرد النكتة ، ونفس السمر في الدسم ، حتى ترك صورة أوقعة تضحك
 القارئ ، وشعيب المتألمين على مر العصور (١٠٦) . وقد عدد الجاحظ نفسه أقراض

كتاب التربين والتدوير ^{ومن فولدت} ، وأعجب به وأرضاه (مع ما فيه من الأخلاق من أشكال وأعداد ^{ومن الجدة والنزل} ، ومن الحدة والإطلاق ، ومن الاستئناف والقطع ، ومن التحفظ والتضييق ، ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تفرغ معجب ، أو كشف سر أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو وقع سار ، أو ساذجة ظريف ، أو مسألة عالم أو مارة حافظة ، أو تبديد على الطريق ، أو تجديد الذهن) (١١٠)

ورأى الأستاذ أحمد أمين في الرسالة ^{الرسالة} للباحث أكثر مما رآه الجاحظ ، ذلك أنه : استطاع أن يجعل لنا موضوعا علميا ، بل لعلميا أحسن رسالته لمن شاء أن يعرف ^(١١١) أسس المنطق العلمية والعقلية والأدبية والفلسفية كان يشغل الناس في عصر الجاحظ

وقيل المذكور طه حسين عاخرها بالرسالة ^{في} مبينا ابتداء الجاحظ وطول نفسه (ويقال جدا أن نثر في رسالة التربين والتدوير التي يجوبها الجاحظ أحمد بن محمد الموهب .

فستجدون هذه الرسالة طويلا تبلغ خمسين وثلاث صفحة ، وهي من أولها إلى آخرها هجاء ، وهجاء لم يقصد فيها الجاحظ إلى الجدة وإنما النزل .

فقد تولى أمين الشعر العربي الذي يستطيع أن يبلغ في الهجاء بعض ما بلغه الجاحظ في رسالته هذه ؟ وأين القصيدة التي تبلغ في الطول والتفنن ما بلغه الجاحظ ، وقوم يستطيع أن نقرأ هجاء جرير وهجاء الفرزدق ^{الفرزدق} وهجاء الأخطل ، ولن نجد فيها نهجنا

بعض أن يقاس بهذا اللون ما لدى عبده في كتاب الجاحظ) (١١٢)

وأقول : لقد سمعت أن أجمل رسالة التربين والتدوير وما موضوع بعض ، ورأيت أن فيها القافية للخطبة ، والقدرة على إعطائه متطلباته ، وبدء بالبناء صرا لا لزوم لخلق بعض

(١١٠) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٢٢

(١١١) ضحى الإسلام ، أحمد أمين الجزء الثالث صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ الطبعة السابقة مكتبة

النهضة .

(١١٢) من حديث النضر والنثر : طه حسين صفحة ٥٦ مطبعة دار المعارف بمصر سنة ٦٥

مثلاً ، حتى يمكن التصريح بأن الرسالة صورة واضحة لأدب الجاحظ ، ولوجه وفيلسوفه
وفلسفته ، واتجاهه في الحياة ، وأن المدارس مستطعم من خلالها أن يقف على نفسه الجاحظ
وخصاله ، وخلقته ، وحياته ، وبراعة منطقته ، وطواعية قلعه لخلجات فكره .

وأما الرسالة الأولى من نوعها التي تناولت السخرية في فنن وابتداعه ، صسط وإيجاج ،
بجذب الأنظار ، وبلغت جهد الزمان ، وأن السلاج السعري فيها ، والأداة الأدبية التي
لم يهتق إليها ، كانت لتصوير المزلي الواسع الإطار ، والمتفرج الخطوط الزاوي الألوان .

ولكنني أردت أن تكون دائرة بحثي أوسع ، ولا تمتنع بالجاحظ أكثره ، ولأشبه نفسه وأدبه أعق ،
ولأضيقه عجباً وطرباً ، وهماً ، وسخراً ، ولأرتوي في توبة وترو من الأدب الصاخر
عنه ، الذي نشره في رسائله ، ونشره في سائر مؤلفاته ، وهو أن أقصر على هذا اللسان
من التصوير الموزلي في رسالته الأولى كان قد جمع فأبى ، وقدح فأبى ، وأصباح فأبى .

الفصل الثاني

سخرية المواقف

يمتدح المرء كل يوم الكثير من المواقف والمديد من المشكلات ، وهو يواجه كل موقف متجاذبة ^{تعد} حلا ويهرب منه بلباقة ، ويحل كل مشكلة بشئ من الجدة ، قد يكره وقد يقل ، ^{وأيضا} لأهمية المشكلة ، ومدى إغراقها له ، وقد يكون الحل ببعض العمل ^{بذليل} أو بغيره ، ^{وبأسامة} سخرية من المصير ، وسخرية مريرة تصل التفاؤل والرضا ، وتغلب المشكلة أو تتعدها .
 وتواجه المواقف بالأسى واللقوط ، من صفات التبريم بالحياة ، والواقعية ، والوقوف أمامها بالصراحة والسف ، من عادات الخشيق الفظه الذي لا يأبه بالناس ولا يكسرت بقلوب لم صحتهم والانحسار من الوقوف ذلك وانكسار من صفات الفاتر الرمديد ، الذي يخاف المواجهة ، ويفرق من المواجهة .

وحل المشكلات بالضمير واللقى - إن اعتبرنا ذلك حلا - دليل الامتداد على القوة العقلية ^{المجربة} والقدرة الجسدية ، وذلك شأن من لم يزل يحظ من التعليم ، ويحفظ من الحقل والتدبير ، فيندفع جسده ، سابقا ومضة نكرة .

وفضها بالشعر والسلب من خصائص ذي اللسان البدي ، والفلق الدين .
 وما يجتهد بالضحك والابتسام ، والسخرية والتعريض ، طبيعة التعلم الساذج الناضج الفكر ، الواقع السهلة ، الذي يدرك باللين والضحك أكثر مما يتألم فيه بالمنفذ والقوة ، فيحل مشكلاته ، ويقتل خصمه ، وهو مطمئن النفس ، مستريح الالهال ، يضحك على شدته وقسوته ، ومن حشوا حياجه ، ويخرج بقتله ، الضمير في دمه ، ويحل روحه بمنظره ، وقد آمن أن
 وعند مجبرته أو يحاسب على قتله .

كان لجام طمن هذا الطراز الأخير ، الذي يجابه المواقف بالسخرية ، ومعالج المشكلات بالضحك ، وواجه الخصم بالدين والاستخفاف ، لم يكن اعتبارا بالحياة ، حاشا عليها ، بل

كان مرحاً ومثلاً ، يجب الحياة بكل ما فيها وإن تصالحت على جسمه الأضداد ، ولم يكن خشناً قطاً ، وإنما كان لها سهلاً ولم يكن خائراً جباناً ، بل كان جريئاً مقداماً ، يفقد ما لا يبرقه ، ويتناول بلسانه الحاد ، من حاد ، ولو كان أستاذة ، ولم يحل مشكلاته ويواجهه بحلقة المضرب والتحل والقوة الجسمية لأن تلك عدة من لا تفكر له ، وحيلة من لا حيلة لديه ولم يلجأ إلى السب والشتم والمجاء ، بل اتخذ الطريق اللين في التفرج والتأنيب ، طريق الاستمالة والمخبر ، وأحب من اخذوه لدم طريقاً ، ورى سخرياته وسخرياته في مواجهة المواقف التي اعترضتهم ، كما رى كلمات لهم في مواقف طبعتها بالسخر والتكلم .

وأحب - كما وعدت - أن أبين الجوانب الفنية عند الجاحظ ، التي جعلت السخرية سخرية وأضع اليه على الممانى التي من أجلها أضعكت وأبكت ، فأقسمها بحسب فنيتها في المواقف التي استلزمها إلى أربعة أقسام :

١- الأجوبة الساكنة .

٢- التخلص الفج .

٣- حسن التعامل .

٤- ظهور ما في العقل الباطن .

١- الأجوبة الساكنة :

قد يحاول الرجل أن يسخر من طبعه ، ويضحك منه ، فيبدأ بالعبث به ، فإذا شدد هذا الموقف فإننا نضحك لهذه السخرية ، ونسخره ذلك العبث ، ولكن ضحكاً يزيد ويشدد ، ويصير تقييدات عالية النخبة إذا حاول التكم أن يسخر بمسامحه ، فيلويه السامع عن قصد ، ويغمد عليه خطته ، ويرد كيداً في تحرره ، فيقلب عليه سخرته ، ويحول إليه مسار سخره ، فيحميه ويصممه ، فإذا هو الصيد بعد أن كان الطائد ، وتتضافر السخرية ويحسب التكم ، ويتضافر التكم الأول لأن السخرية أتته من عدة نواح :

ب - أنه أعمم وأجزم ج - أنه صار عذفاً للسياح ،
وقصبا للطمان .

وهذا اللون من السخرية يحتاج الى حقيرة فذة ، وذلك لئلا يظن من قدرة على محرفة ما يروى
عليه المتكلم ، وسرعة في الإجابة ، وحضر للهدية ، فمجباً خصه بالقول الناعم ، والسخرية
للإدعة على غير عوق ، وبجرعه مرارة كاسه .

والجاحظ أستاذ هذا الفن ، قد برع فيه ونفع ، واشتق منه الرأى ، وشقق منه أنشاما
جاءت ضربه من المعجب ، وبرزت من البرعة ، وإثان الطمعة . نعم ذلك ،

١ - قال الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجاؤا بالقول ، فأراد الزيات أن
يذهب الجاحظ ، فأمر أن يجعل في جوفه لجزء الرقيق من الصخرة ، فأسرع الجاحظ
بالأكل ، فنفذ ما بين يديه ، فظل له ابن الزيات ، تشمت سواك قبل سماء الناس
فقال الجاحظ . (لأن فيها كان رقيقاً) (١)

أراد الزيات السخرية من الجاحظ ، ومن سرعة أكله ، وشدة دمه ، فقال له وقد مدت
ساعة خالية فكلت تشمت سواك قبل سماء الناس ، فأجابته إجابة سريعة وأعية ، على طريقة
الاستكراه ، قائلا ، لأن فيها كان رقيقاً ، فذكر السبب الذي من أجله تشمتت سريراً ، وكان
رداً مضحكاً فيه سخرية بالزيات الذي أراد خداعه ، والعبث به ، والسخرية منه ، فكشف خصلته
ورد عليه سخريته وكان لسان حاله يقول ، ما أنا بالنعم إلى فالودجك ، ولا بالقسر
الذي يخدم ، ولكن هذه طريقتك في إكرام ضيوفك .

٢ - قال الجاحظ ، جاءني يوماً بعض التلاميذ ، فقال ، صفت أن لك ألف جواب
صكت ، فحلطني منها . فقلت ، نعم ، قال ، إذا قال شخص ، يا زنى ، يا ثقل اللوز .

(١) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، ١ لجلد ١٢ صفحة ٢١٨ مطبعة السعادة

أى شئ أقول له ! فقال ، قل له صدقت (٢) ، والسخرية هنا واحدة الموقف ، محسرة
من سمور الجاحظ نحو هذا التعليل ، ناشئة من الجواب غير المتوقع ، وما فيه من غصير
واستهانة ، وإقرار السب والشتم ، فى حين أن الجاحظ ، يقف موقف المعلم والناصح ،
ويتخذ الرجل ناقدا والمريد ، فإذا به يوطئه ويسخر منه . أما الجواب فصكت حقا
ففى ^{سبيل} ~~سبيل~~ ^{للمشايخ} ~~للمشايخ~~ ^{سبيل} ~~سبيل~~ حتما عند طبع كلمة صدقت ، أو كان الجاحظ يقول له بئس
بفعل ^{بفعل} ~~بفعل~~ ^{بفعل} ~~بفعل~~ صادق لأن تلك سببية نيك .

٢- (قال الجاحظ ، ما غلبنى أحد قط إلا رجل وامرأة ، أما الرجل فإني كنت مجتازا نسي
بعض الطريق فإذا أنا برجل قصير بطين كبير القامة مؤثر بمشتر طويل اللحية وبسنده
مشد مضطربا ، فقلت نى نفس ،

رجل قصير بطين أبيض ، فاستقرت به ، فقلت أيا الشيخ ، لقد قلت عليك شعرا وفكرت المشط
من يده وقال ، قل ، فقلت ،

أصاب العرش طش بمد رش

لذلك صغرة فى أصل حش

فقال لى ، اسمع جواب ما قلت ، قلت ، مات . فقال ،

تدل دل هكذا والكش بطن (٣)

لذلك جندب فى ليل كهن

وأما المرأة ، فإني كنت مجتازا فى بعض الطريق ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على

حمار ، فضرطت الحمار ، فقالت إحدىهما للأخرى ، وى حمارة الشيخ تضربه فناظنى

قولها ، فقلت لها ، إني ما حملتني أنت قط إلا ضرطت ، فضربت يدها على كتف الأخرى ،

وقالت ، ما نت أم هذامته تسمة أشهر فى جهنم جهنم (٤) .

(٢) أبو عثمان الجاحظ ، د . محمد خفاجي ، صفحة ٢٠٠

(٣) تاريخ بغداد الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٦

(٤) الأذكار ، صفحة ١٧٤ تدقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق .

قلت نظر الجاحظ للقادة ولقطعت عنه الفاحصة ما رآه في الرجل من فتوه خلقي
وتنازع بين أعضائه معجبه بدور عليه من اعتزاز بالمظهر واعتناؤهم بجمال السمات واستقراء
لكن إجابة الشيخ كانت بارقة لاذعة وذلك إلى الجاحظ سخره فأنهم وألهم :

وأما المرأة فقد رأتني نظرا لجاحظ وحارته التي أصدرت هذا الصوت القبيح ما
يدعو إلى الاستغراب والتعجب فاستغربت بلطف وتذممت في رقة ولكن سوط سخر
للياحظ لفتحها فألهما وظن كلامه لا يهبط له ولا يعقب عليه وقد كانت المرأة أروع
سخرية وأبدع إجابة حين سخرت به وبأمره ووضعتني في صورة هزلية أسكتة وحقرته
فلم يملك إلا الاعتراف بقصوره وتخاذله .

١- (حدث أبو العينا محمد بن القاسم قال : صرت إلى الجاحظ فقلت له : جئتكم مسلما
واقبلني للتي على حاجة لبعض أصدقائي ، وفي كذا وكذا . قال : لا تشغلنا الساعة من
العامة ، وترى أخبارنا ، إذا كان في غد وجئت إليك بالكتاب فلما كان من غد وجهه إلى
الكتاب . فقلت لا يني وجه هذا الكتاب إلى فلان ، ففيه حاجته . فقال لي : إن أبا عتيان
يحميد النور . فنهض أن تفض ، وتظن ما فيه ، ففعل ، فإذا في الكتاب : هذا الكتاب
من لا يعرفه وقد كلمني فيه من لا أحب حقه ، وإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددت
لم أذكرك فلما قرأت الكتاب مضيت إلى الجاحظ من فوري . فقال : يا أبا عبد الله قد
علمت أنك أنكرت ما في الكتاب . فقلت : أوليس موضع نكرة . فقال : لا . هذه غلاصة
بني من الرجل فبين أعتني به . فقلت : لا إله إلا الله : ما رأيت أحدا يظلمك ولا ما جعلت
عليه . من هذا الرجل علمت أنه لما قرأ الكتاب قال أم الجاحظ عنده الآي في عشرة آلاف
... . ولم من يماله حاجة . فقلت له : ما هذا لأنت شر صدقنا . قال : هذه غلاصة
بين أنكره . فضحك الجاحظ . (٥)

ابتداء الجاحظ بالسخرية ، فجعل كتاب الوصية لا وصية به ولكنه الرجل ليقراء لعله يفتق
فوق الجاحظ ، وضح ما توقعه .

وأراد الجاحظ أن يتخلص بلباقة من السخرية الأولى ، ويجعل في الوقت نفسه من هذا
التخلص سخرية أخرى ، فذكر أن ما ظنه الرجل سخرية به ، ليس إلا علامة بينه وبين الرجل
لتقليد ما يطلب .

إلا أن حامل الوصية لم يندع ، وكان السخر سخرين ، وكان الجاحظ من نفس المصنف .
ما أضحك الجاحظ طرية للباقة الرجل أو تخفيفا لما أصابه من استنزاء ألمه ، أو سخرية
من نفسه لوقوعه في محالته ، فلم يجد ما يقول إلا الضحك .

قال المصباح لحيى بن سعيد بن الماس ، أخبرني عبد الله بن حلال صديق
إبراهيم أنك تشبه إبراهيم . قال : وما ينكر أن يكون سيد الإنسان يشبه سيدا لجن (٦)

وفي ذلك تخلص رافع ، وإجابة مسكتة ، ورقة للسخرية وقد أراه المتكلم انفعال والتمسك به
حرد فيه كثر من النوص والأهلية وسخرية من يحيى أغفلت سخرية المصباح ومطت مسن
قدوما وقدره .

٦- (جاء رجل إلى وجيه وقال له : أنا جارك ، وقد مات أخي فعرلى بكفن . فقال
الوجيه : لا والله ، ما عندي الميراث . ولكن عد إلى بعد أيام فستجد ما تريد . قال :
فعد فلج الميت إلى أن يقيم عندكم ثم .) (٧)

وجعل تكفين الميت ودفعه يمكن فيهما تأجيل ، أو انتظار عدة أيام يحود بعدها الرجل
لما حدث من الكفن . لذلك جاءت السخرية بانه لا ذمة ، تقترح حلالا ليس رجل كما أن
كلام الوجيه حل ليس يحل ، إلا أن الوجيه لم يرد السخر لكن الرجل أراه السخر

(٦) السديان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس صفحة ١٢٠

(٧) البيان والتمهين ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١١ ، جميع الجواهر

والفرج

والنضج والإفهام والتجرب

١- (روى أن العجرا الأسود كان أبيض فسدده المشركون ، فقال الجاحظ كان يجب أن يذهب المسلمون حين أسلموا) (٨)

٢- (قال الجاحظ ، قال الهمداني لشريك القاضي - وصديق حموي عنده - نحو شهد عليك من كنت تقبله ، وأراد أن يضرب يدهما ، قال شريك ، من سألت عنه ؟ لا يقال من حموي غير أمير المؤمنين ، فإن زكيتك نيكته - فقلها عليه) (٩)

٣- (قال المصولي ، قال الجاحظ ، قال ثمامة ، دخلت إلى صديق لي أموره ، وشركت حماري على الباب ولم يكن حمي غلام ، ثم خرجت وإذا فوته صبي ، فقلت ، أتوكب حماري بنسور إذني ؟ قال ، خفت أن يذهب فدنطته لك . قلت ، لو ذهب كان أحب إلي من بقاءه . قال ، لا ، لأن كان هذا رأيك في الحمار ، فاعمل على أنه قد ذهب وحب لي) (١٠)

٤- (دخل رجل من بني مخزوم وكان زهريا على عهد الملك بن مروان ، فقال له عهد للملك ، أليس قد ردتك اللعل عقيبك ؟ قال ، أوجي إليك لقد رد على عقيبك فاستحي ، ولم أنه قد أساء) (١١)

١٨ امرأه بيان : محمد كرد علي : الجزء الثاني صفحة ٤٦٨ .

١٩ الأذكياء : عهد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي طبعة دمشق ص ١٦٦

١٠ الأذكياء : صفحة ٢٤٤

١١ البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ٧٥ .

الفج

٢ - التخلص القبح :

إذا وقع شخص في ورطة ، وتأنى الموقف ، وضاعت السبل ، وأصل فكره وقدج زياد عقله ، فأضاع له
الظلمات ، وكشف الصمليات ، وأفسح السبل أمامه ، وأوجد الدلول لأزماته ، فخرج من
محنته أقوى صودا ، وأكثر مرانا ،
وما أبدع قول الشاعر :

جزى الله الصائب كل خير
عرفت بهما دوى من صديقي

وقول بعض الفلاسفة : السم الذي لا يقتلني يزدني خبرة وتجربة .
فإن ضاق عظمه ، ولم يسمحه تفكيره ، وحاول أن يخرج من ضائقته خروجا منكرا ، أو يتخلص
منها تخلصا فجاء ، يفصح عن عقله المحدود ، وذنه الكليل ، المكدود ، سخرنا منه ، وهزئنا
للقبح فخلصه .

(٢)

وقد احتوى أدب الجاحظ على سخریات من هذا اللون . منها :

١- (قيل لوزع البشكري : قم فا صعد المنبر ، وتكلم ، فلما صعد ، رأى وجوه الناس يخومونه
يقال : لولا أن أرا تي حلتني على إتيان الجمعة اليوم ما أتيت وأنا أكسودكم أنما طالق
ثلاثا) (١) .

لقد أجمعه الموقف ، وقد لمانه ، وهربت الكلمات من فمته حين رأى الناس ينظرون إليه
ينتظرون نصي كلامه ، وجليل عظاته ، وهو لا يجد في صدره فصيحاً ولا هنيئاً ، ولا تتحرك
شفته بوظ ولا بقصة ، تتذكر موقفه من امرأته ، وأنها سب مازقة ، بدفعها إياه إلى
الصلاة ودار ذلك في عقله فصار كلماته : اما نعم ، وكان خطبة أشهد فيها الناس أنفسهم .

طلى امرأته ثلاثا لقد كانوا ينتظرون منه خيراً فقال شراً كانوا ينتظرون وظه فسموا
هجره ، وإذا تخلى من ورطة وقع فيها بورطة أخرى أقوى وأكبر ، وإذا وجد في موقف يعلم

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني صفحة ٢٥١

(٢) كيف عيسر هذه العنصر والنزاع أدب الجاحظ في الخيرة

النا من كفاه له ، فنطق فورما يقولون ، وفعل خلاف ما ينتظرون ، كانت السخرة الحقة
والمنز العرج ، والضحك القائل .

٢- (خطب مصعب بن حيان - أخو مقاتل بن حيان - خطبة تكاج ، فحضر فقال : لقنوا
موتاكم قول لا إله إلا الله . فقالت أم المروص ، عجل الله موتك ، ألهذا دعوتك ؟ (٢)
المروص من وسهجة ، والموقف يستلزم أن يكون فيه كل فخر مبيح ، فإن كان إنسان
مهموا فليست له أو ليتأساه أما ذكر الموت في الأفراح ، فشيء تشتم منه النفوس ،
وتجفل له الطباع ، لعدم مراعاة الموقف ، وقد فعل ذلك مصعب ، وتصرف تصرفا فجعا ،
وتخلص تغلضا ، كان هو السقوط بعينه ، وذلك يدعونا إلى السخر من مقاله ، ويدعو أم المروص
إلى أن تتعنى له تمجيد موته ، ثم تقول هازلة : ألهذا دعوتك ؟ فقد دعوه ليلقي خطبة
تكاج لا خطبة تأبين فلما حصرأ بن ، فوقع في أشد ما سقط فيه ، وكان كالاستجبر من
الوضاء يا لكار .

٣- (قال إبراهيم بن عاصم بن عاصم : كنت عند أحمد بن الخاركي إذ مر به بعض الباعة فبصاح :
الخن الخن . فقلت / وقد جاء الخن بعد ؟ قال : نعم ، وقد جاء وقد أكثرنا منه ،
فدعاني الميظ عليه إلى أن دعوت الباع ، وأقبلت على ابن الخاركي ، فقلت : ويحك ؟
نحن لم نسمع به بعد ، وأنت قد أكثرنا منه وقد تعلم أن أصحابنا أترف منك ، ثم أقبلت
على الباع ، فقلت : كيف تبيع الخن ؟ فقال : ستة بدرهم . قلت : أنت ممن يشتري ست
غواشات بدرهم وأنت تعلم أنه يباع بعد أيام مائتين بدرهم ثم تقول : وقد أكثرنا منه ، وهذا
يقول ستة بدرهم ؟ قال : وأي شيء أرخص من ستة أشياء بشيء . (٣)

(٢) البيان والتبيين / الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٢ ص ٢٥٠ ، تحقيق السندوني ج ٢ ص ١٧٩

(٣) الإخلاص ، تحقيق طه الحاجري ، صفحة ١٢٦ و ١٢٧ .

أحمد بن الخاركي كما يقول الجاحظ كان بخيلا نقاجا^(٤) ، إني أنه أكثر من الخن في
 بالكثرة ، وثغته مرتفع ، فسخر منه ابن هاني . يدمرته البائع ، وسأله عن النسي ، وبيان
 فداحته بالنسبة للحر الخاركي ، وحاول ابن الخاركي التخلص من موقفه ، والبريق من المأزق
 الذي نجا بنفسه فيه ، فلم يحسن ذلك ، وجاء تخلصا محتسفا ، منافيا للعقل ، وهو يعتقد
 أو يوهنا أنه يقول صوابا ، وأن له في ذلك عذرا مقبولا ، وأنه قد أكثر من الخن فملا
 لرخص ثمنه ، وثغته قيمته ، فستة أنبيا^(٥) ، يثنى واحد ربح وفهم ، وهذا التخلص الطعيف من
 موقفه المحرج هو سبب سخرنا ، وبعبث ضحكنا .

٤- قال ابن حسان : كان عندنا رجل مقل ، وكان له أخ مكره ، وكان مغرط البخل ، شديد
 النج ، فقال له يوما أخوه : ويحك ! أنا فقير مميل ، وأنت غني خفيف الظفر ، لا تميمني
 على الزمان ، ولا تواسيني بهضم مالك ، ولا تشج لي من شيء ، والله ما رأيت قط ، ولا سمعت
 بأبخل منك ! قال : ويحك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول
 في البخل ولا في البصر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم ، لو هبت لك منها خمسمائة ألف^(٥)
 درهم ! يا هؤلاء ! فرجل يهب ضربة واحدة خمسمائة ألف يقال بخيل !^(٥)
 أخفى الرجل في موقفه أمل الناس ، فقد بين له أخوه العذر في ساءلته ، وكشف له
 وللناس باطله ، وألزمه عيبه ، وشعر ببخله ، وما طلب منه إلا درهمات تميمه على سد أفواه
 أولاده الجائعين ، ولما أراد الخروج من المأزق ، والإفلات من حيرة الموقف ، لم يقلج ، إذ
 خلق محزنة أخاه على أن يمتلك ألف ألف درهم ، فكان أسلوا ردلا ، وخلطبا فجاء ، أضحك
 الناس وأضحكنا ، فسخرنا منه وسخرنا .

(٤) كتاب البخل الجاحظ : شرح العوامي والبيان الجرج الثاني صفحة ٤١

(٥) البخل الجاحظ : تحقيق طه الحاجر ، صفحة ١١٥

٦- (صعد على أرطاة على التبره فلما رأى جماعة الناس حصر فقال : الحمد لله الذي يطعم هؤلاء وسقيهم) (٦)

٦- (بينما معاوية بن مروان واقف بدمشق ينتظر عيد الملك على باب طحان وحوار له يدور بها لرجي ، وفي عنقه جليل . إذا قال للطحان : لم جعلتني خلق هذا الحمار للجلجل ؟ قال : ربما أدركتني سائمة أو نعسة ، فإذا لم أسمع صرعا للجلجل علمت أنه قد قام فصحت به . قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم مال برأسه هكذا وهكذا - وجعل يحرك رأسه بينة وسرة - ما يدريك أنت أنه قائم ؟ فقال الطحان : ومن لي بحمار يعقل مثل عقل الأمير) (٧)

٧- (أدعى رجل على النيسابور بن مظهر الفأفأ أنه سرق بغلا ، فقال له الوالي : ما يقول ؟ قال : ما أعرف ما يقول شيئا . قال : أصلحك الله ، إنه سكران فاستكفه . قال : لا شيء . يستكفني ؟ آكلت البخل) (٨)

٣ - حسن التعليل

وهو أن يخبر المتحدث علة للشيء . ليست هي العلة الحقيقية له قصدًا إلى المخبرية ورفقة في الإضاح .
فالصالح حين يرى المتكلم قد انتقل بفكره من الشيء الذي كان متوقفاً تنتظره الأذهان وتترقبه الأذان ، إلى شيء آخر لم يكن متوقفاً ، ولكنه حل لطيف واجابةً لطيفة ، قصد بها المخبرية ، وقال بهذا إلى الإضاح ، وتفعل نفسه بهذا الموقف ، وتشرح لهذا التلطف .
ومن الثالث :

(٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٥١

(٧) البيان والتبيين الجاحظ ، صفحة ٦٦١ موعين الاخبار ، ابن قتيبة العبد ٢٠٢ مطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

(٨) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢٤

والمتكلم حين يترك المسئلة الحقيقية ، ويغتر حيلة أخرى فإنه يحقق السخرية من السامع ،
بإظهاره له الشيء في غير موضعه وتعليقه الموقف بما ليس حيلته ، فهو يستعين به ويقدمه
السابق أو يبين برأيه واقتداره على امتلاك نواحي الكلام ، وضمان المعاني ، وأنه تسمى
مرتبة أعلى من مرتبة محدثه وأرفع ، وهو بهذا التحليل الحسن يرد الاعتقاد السائد ، ويلقي
السبيل السابق ، ويوضح لهم سبب استحدثه ، كان غامضا على أذهانهم ، ولا يخفى ما في
ذلك من تفهم واستملاء .
والجاء محمد بن جرير كثيرا من سخرياته ، يمكن الإضحاك منها ، وهو السخرية فيها حسن
التحليل . يقول :

(١) الحسن المجتهدون الأشراف ابن ضحيان ، وكان يقرأ " قل يا أيها الكافرون " فقل له في ذلك
فقال : قد عرفت القراءة في ذلك ، ولكن لا أجل أمر الكفار^(١)
أخطأ ابن ضحيان في قراءة القرآن ، فدله الناس على خطئه ، ورفوه الصواب ، وأصبح في
موقفه هذا متحذرا من عدم الحفظ ، ويحتمل قواعد النحو ولكنه تدارك الموقف وجعله له بعد أن
كان عليه ، فقد ادعى أنه يعرف القراءة المتبعة ويستطيع أدائها ، ولكنه تمعد القراءة على
الوجه الذي قرأه ، ولم يخطئ . حين قرأ الكافرون بالجهر ، وجبته في ذلك ، علم إجلاله
الكافرون ، فهو من أجل هذا لا يقرأ الكافرون بالرفق . لأن الكافر أحقر من أن يرفقه ابن
ضحيان ، وإنما مكانته عنده الأرض فهو لذلك يجبره دائما ، فحطل لخطئه بحيلة طريقة ساخرة
فيها من الكافر ، محقرا إيما . وحسن التحليل في هذا الموقف في حاجة إلى بصيرة بالنحو
ومعرفة لقواعده ، حتى تعرف مراد ابن ضحيان ، ووجهته المؤدية إلى السخرية ، وكيف
كانت كلمة الكافرون أو إهدال الواو في الكلمة مؤذيا إلى عدم إجلالهم .

٢- قال الجاحظ ، رأيت جارية بسوق النخاسين ببغداد ، يتأدى عليها ، وهي خدما
خال ، قد عوت بها ، وجعلت ألقبها ، فقلت لها ، ما اسمك ؟ قالت ، مكة فقلت ، والله أكبر ،
قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود ؟ قالت لي ، إلهك مني ، ألم تسمع قول الله
تعالى ، لم تكونوا بالنيه إلا بشئ إلا أنفسكم (١) .

رأى الجاحظ الجارية مكة فاعجبه ، وأرادك وصلها ، ورغب في التمتع بها ، واستغل الاسم
المشترك مكة ليكني ويصيح ، وأراد بجملة قرب الحج ، الرقبة في قريتها ، وطعمه في زيارتها ،
وهي بالحجر الأسود عما يريد أن يقبله منها ، فانتقل من حيث إلى حيث ، ومن كفاية إلى
تورية إلى مجانة وأجابه الجارية بما يلائم أسلوبه ، ويوائم طريفته ، ويتناسب مع الموقف الذي
وجدت فيه ، وكان حسن التعليل لعدم نيل شئ منها باستخدام الآية الكريمة هو سوط العفر
وشواظ الميز . وتظهر في هذه الأمثلة براعة استخدام الألفاظ والعبارات ، وترتيبها
طريفا وسخرا .

٣- (مرأيت علقمة يجلس جماعة من بني ناجية ، فكبا حماره على وجهه ، فضحكوا منه . فقال
عليهم السلام : إنه رأى رجلا في قريش يسجد) (٢)
ضحكوا من الموقف ، وسخروا حين كبا حمارا بن علقمة ، فباللهم سخرية بسخرية ، بل يناديهم
أن ما ظنوه كبا ليس به ، وأوضح لهم خطأ ظنهم ، فالحمار لم يكب ، وإنما تمدد أن يخر
ساجدا ، إكراما لوجهه قريش ، وتغطيا لأقدارهم .

(١) الآذنين : عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي ص ٢٦٢ ط دمشق
(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام حارون الجزء الرابع صفحة ٥ .

نقد جيا • بحلة حسنة ليهين خطأ دليعه على كلب إن الموقف لا يتطلب أن يقرن بـ كلب ،
لأنه مقرر بـ كلب آدمي منذ الغداة •

١- ظهور ما في العقل الباطن •

مطامع المرء لا تنف عند حد ، وأما له لا تنف إلى غاية ، وكلما حقق مطعماً ، وقال أملاً ،
تجددت له مطامع وانتهت في فكره آمال ، وهذه المطامع وظلم الآمال لا يستطيع
تحقيقها كلها ، وما لم يستطع تحقيقه لن ينتهي بانتها الآمال ، بل يترسب في عقله الباطن ،
وينكشف في زاوية من زوايا ، ولكنه لا يجهولاً يخمد ، وإنما يتخبر بين الحين والحين ، فيضيئ
ويستريح ، ويظفر على السطح ، ويرز إلى عالم الحقيقة والواقع •

وما يفعل به الإنسان ، فيأخذ الكثير من تفكيره ، ويستولي على عقله ، يجعله فسير
منته تاماً لغيره ، فتكون رأيه غير واضحة ، وكلما تهاهت تاهت ، فإذا كلمه أحد ، ربما
أجاب على غير كلامه ، أو خلط بين الإجابة من كلامه وبين ما يدور في نفسه ، وذلك الخلط
بين ما يدور في النفس وما يتطلبه الموقف يدعو إلى السخريّة ، ويحقق لنا من ألوانها ، فإذا
رويت لنا هذه العبارة الخلوة سخراً من قائليها ، لما فيها من فقدان التجانس وانعدام
التلاقي ، ولما تنصحه منه ما كان المتكلم يخفيه ويصر على كتمان ، ويحاول جاهداً أن يظل
مستترا لا يقف على حقيقة أحد ، فتكشف أستاره ، وتبتك حجبته ، فإذا هو واقف أمام
الناس عارياً ، فتضحك متهمكين ، وتضيقه ساخرين •

وقلت لسانه تلك ، تطلعنا على دخيلة نفسه ، وطبيعة تفكيره ، وحقيقته بين الرجال ،
فنصرف قدره ، وسكون نفسه ، وحشيه ونده ، أو يخله وتثيره ، أو تفعه وأدعاه ، فنسخر
ونطفر •

والسخريات التي تتناول المواقف التي يظهر فيها ما في السور معرجا بالحقيقة الخارجية

كثيرة منقشة في أدب الجاحظ • ومنها •

١- (كان محمد بن راشد البجلي يحدى وبين يديه شيوطة ، وحياط يقطع له ثياباً وراية ملحظ الشيوطة . فقال : قد زست أن الثوب يحتاج إلى خرقة فكم مقدارها قال : ذراع في مرقع الشيوطة (١)

كان الخياط جائماً مغرم بالسلك ، فأخذت الشيوطة كل تفكيره وملكته عليه حواسه فلما كلم ابن راشد كان فكره ونظره في الشيوطة فخلط الكلام الخارجى بعديت نفسه ، فظهر شوقه وتعمقه إلى الطعام واضطرب موقفه حين يدعو إلى السخر والضحك .

٢- (قال الجاحظ : قلت لأبي سعيد الطقيلي : كم أريمة في أريمة ؟ فقال : ريتين وقطعة لحم (٢) و (قل لطقيلي : كم اثنين في اثنين ؟ قال أريمة أرفقة (٣) .

والجائع يرى في أحلامه الخبز واللحم ولا ينظر لشيء إلا على أنه يؤكل أو يشرب أو أنه شبع مثلاً : أو جائع ضامر ، فحليته يسيطر عليه في أتوالة وأعماله ، والموقف هنا يستحق للمضاحكة ، ونجيب السخر : وقد نهجت السخرية من ريتنا نماذج من الرجال جعلوا عقولهم في لمعائهم ، لو أمعاهم في عقولهم ، قدمك عليهم الأكل والخرب أقطار نفوسهم ، وهم جوانب حياتهم ، كما أنها نابعة من الخلط في القول ، والإجابة بما ليس بجواب ، واخلط الظاهر بالباطن ما يدل على تهليل الفكر ، واضطراب الخاطر .

٣- (ما تلاه من قرآن غام في طامون ، فحفر أعرايس قلبه للخلاص بدرهمين ، فلما أعطوه الدرهمين قال : دعوهما عندكم حتى يجتمع لي محكم من ثوب (٤) .

-
- ١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق السعدوني ج ٢ ص ١٢٧ ، وتحقيق هارون ج ٢ ص ١٧٨ .
- ٢) الأذكياء ، عبد الرحمن بن الجوزي تحقيق أسامة عبد الكريم الرضاقي صفحة ٢٢٢ طبعته دمشق .
- ٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق النور الدين البزري الثاني صفحة ١٣٥ ، وتحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ١٨٧ ، والأذكياء ابن الجوزي صفحة ٢٢٢ طبعته دمشق .
- ٤) البيان والتبيين الجزء الرابع صفحة ١١ .

ليس هنا شكوك للطعام والشراب ، ولا جمع المال وتكثيره ، وإنما المشربة من كلام الأبرار
لأنه أظهر أفعاله ، وهي وإن كانت تحقق له النفع إلا أنها تجلب لغيره ضرراً يوازى أضرار
أضرار نفعه ، فهو يمتنع أن يموت الكثير من أفراد هذه الأسرة ، ويحتاجهم الطامعون
فمع موت كل شخص دمهان له ، ومن حفره قبره مكانه ومكانه تلك في موقفه هذا جديده باتت
بمجاناة الذود ^{بل قصته بغير} تصانف في النشوق والمجدد عن الملائكة على قصته بقصر نظره ، وتفاهة عقله ، وتبعته إلى
المشربة هذه ولا متبذرها •

الفصل الثالث

سخرية التضاد

من الجواب التي تولد السخرية وتثير النفس للجزء والضحك ، أن يظهر المرفق غير مظهره ويظهر الشخص غير إهابه ، أو يتصرف على عكس ما عهد فيه ، أو يصنع لنفسه موضعاً ليس له لاله أو يتحدث بكلام متناقض ، وأفكار متعارضة ، أو يظلم بينه وبين ضده في الشكل واللون ، أو الرتبة والستة ، أو الخلق والعلم ، أو التصرف والسلوك . فالقضاء هو العمل المشترك ، والقاسم الأعظم بين السخریات على تنوع أضرها ، واختلاف طموها ، وتعدد أساليبها لا تكاد عند سخرية منه ، أو تتفصل من مجال جذبه ، أو تتبعد عن دائرة فكره ، وإن كانت تختلف من ناحية وضوح هذا المنصر أو خفائه ، وظلته أو كثرته ، وبالنسبة لمعامل آخر ، فيد يكون أكثر بروزاً ، وأسطع ضياءً ، وأظهر في تحقيق السخرية ، ومنعت الاستمرازة فتسبب اليأس وتضم به ، وإن كان التضاد لا يزال يمكن بين طياتها ، ودشوجنها كما :

سخرية الكاريكاتور كما قدمت - يحمل فيها التضاد علوه ، ونهد يده اليمنى بجذب يدها اليسرى للأصلية ، ويعد يده اليسرى يقرب بها الصورة المسوخة ، ومن هذا التقارب بين المتباعدين والجمع بين المتعاندین المتضادين .

الأصل والصورة ، تتفحج شرارة السخرحين يلتقيان كما تتفحج شرارة البرق بين السحابتين المتضادتين الموجبة والسالبة عند التقائهما فتتحرق وتنصق .

وسخرية المواقف - كما شاهدنا - يشترك فيها التضاد ، بين الموقف القائم والموقف الذي يجب أن يكون ، ومن التأثير بينهما - والأصل أن يتحدأ - تنهق السخرية منهبت الضحك لمخالفة المرفق ، والمخرج من الإلف .

وسخرية الحركة - كما سيأتي - منبهها التضاد ، حيث وجدت الحركات الكثيرة المعارضة للوضع الطبيعي ، والحركات القليلة الثابتة ، والمعاد توالى المرفق بهتان أن تكون كمشيرة

ملاحظة ، أو وجدت الحركة بدل السكون ، أو السكون بدل الحركة ، فحدث الضد ، وتنتج
المكسرة ، فتثور النفس ، وتنتج السخيرة ، وينضح الينز ، ينسائمات وضركات وتقيقات ، بهقدار
حق السخيرة ، وخفا ، المغارقة .

وسخيرة الكلمة آتية من وضعها في غير موضعها ، أو تحميلها معنى غيرها ، أو معنى غير
مقصود ، أو التلاعب في مواضع حروفها ، بتقديم أو تأخيراً وحذف أو زيادة ، ومن الكلمات
غير المشوقة ، والمعنى غير المقصود ، والحرف الموضوع في غير محله ، والشكبة الناجمة
من ذلك تكون السخيرة والاستخفاف .

والسخيرة الذهنية ، أساسها ، تناقض المعاني ، وقلب الأفكار وتباين مفاهيم العبارة في
ذهن المتكلم عما هو في ذهن المخاطب ، وإظهار الإساءة في مكان الإحسان ، أو العزل
في موطن الجسد ، وذلك تتحقق السخيرة وتوجد ، حيث وجد المنصر الأساس لوجود علوص
وضع الشيء في غير موضعه المألوف . وللتضاد صور فنية ساخرة ، يخلب فيها ما سواه ،
ويطمس من الجوانب الداعية إلى الينز ، ماعداء ، ويقف فيها على قدميه ساداً الأتقى ، مستقلاً
بالفدح والإضمار .

ومن صوره : ١ - التناقض في المقالة ٢ - المفارقات ٣ - القياس القاسد .

∴

∴

∴

١ - التناقض في المقالة :

التناقض في الكلام دليل التناقض العقلي ، وإذا كانت العقلية متناقضة سخرياً من
صاحبها ، لخروجه عن الفكر السليم ، والرأي الرصين ، وإبطال كلامه السابق بكلامه اللاحق
وإبطالهما معاً بتمارضهما ، لأن السامع لا يدري ما يقصده المتكلم ويصد ، إذ هو مهمل
غامض متضارب ، لا يحمل معنى يقبله العقل ، ويلطخ بالنفس ، بل لا يحمل معنى على
الإطلاق لأن آخره أولى أوله .

ولما كنا نسخر من يرجع عن رأيه القديم ، أو يغير موقفه وقد خلا إلى نفسه وقلة الوقت الطويل ، ونفراً بمن ينقض عهد ، حين يحمل الفكر والتدبير ، وله من الأسباب ما يستدفعه إلى ذلك ، كطعمه في مال ، أو رغبته في جاه ، أو طلبه منعة ، أو أن نسخره وأن نستخف ونهزأ ، من تناقضت عبارته ، وتضاربت عقليته ، وخلطت كلامه ، فلم نعد نؤمن بجهته وفكرته ، وصار إلى الغيابة والبلاهة أقرب منه إلى الفهم واستقامة العبارة .

ولمؤلا : أشلة زخر بها أدب الجاحظ ، وشاعت في فنه الساخر منها ،

اسم قال الجاحظ ، دخلت واسط فبكرت يوم الجمعة إلى الجامع ، فمعدت ، فلوأيت على رجل لحية لم أأ أكبر منها ، وإذا هو يقول لأخيه : انظر السنة حتى تدخل الجنة . فقال له الآخر : وما السنة ؟ قال : حب أبي بكر بن عفان ، وثمان الفارق ، وعمار الصديقي ، وولس ابن سفيان ، ونحوه بن أبي شيان . قال : ومن محاربة بن أبي شيان ؟ قال : رجس صالح من حملة العرش ، وكاتب النبي صلى الله عليه وسلم ، وختمه على ابنته عائشة (١) .

جميع الشذوذ أسباب الوقار وعظمة المظهر ،

١ - فمرو في الجامع بكرة الجمعة ٢ - له لحية ٣ - لحية فائقة فارسية ، لم يهر الجاحظ أطول منها ٤ - يحفظ الناس ، ويعرفهم أصحاب الرسول عليه السلام (وهذا)

المظهر دليل السمو الديني) . وإذا عظته جعل تناقض فيها كل كلمة ما بعد ما ، إذ يلعب الرجل إلى غير أبيه ، ويلصقه بخير لقبه أو ركنيته ، ثم يزيد خلطه ، ويهتف خطبته في آخر مقالته - فحامل العرش - في واسع علمه - رجل ، هو كاتب الرسول ، وهو ختمه ، وعائشة ابنة الرسول (وهذا الخبير دليل البلاء والمنة) فتناقض المظهر مع الخبير ، وتضارب الكلمة مع ما يقتضيه هذا ، الكثرة وذلك التركيز - صحت السخره وأسس

(١) أخبار الحمقى والمغفلين : ابن الجوزي صفحة ١٨٢ المكتبة التجارية للطباعة والنشر

المنز والاسخفاف .

(٢) قال رجل : تزوجت امرأة مخزومية من صمها الحجاج بن الزهير الذي هدم الكعبة (١)
كيف تترجى المرأة صمها ؟ وكيف يكون الحجاج النقي صمها وصى مخزومية ؟ وكيف يكون الحجاج
بن الزهير ؟ وهو ابن يوسف النقي ، وكيف وصى هدم الكعبة ؟ هذا التناقض المركب ،
يعمل المجهل المركب ، وذلك يجعلنا نضحك ضحكا متواصلا .

(٣) قال الجاحظ : (موت بمعلم وقد كتب لثلاثم ، وإن قال لقمان لابنه وهو يخطه يا بني
لا تقصص رويك على إخوانك فيكيدوا لك كيدا وأكيد كيدا فمعلم الكافين أصلهم رومدا
لقلت له ومالك ؟ قد أدخلت سورة في سورة ؟ قال : نعم ، إن كان أبوه يدخل شعرا نسي
شعره فأنا أيضا أدخل سورة في سورة ، فلا آخذ شيئا إلا أنه يتم شعرا (٢)
والتناقض هنا تاني من إدخال سورة في سورة ونحو آية بآية والسخر هنا ليس بمشبه
بالله ، والشرف ، لأنه مقصود متعدد ، بل ناج عن الذكاء والافتتان ، معاقبة للأب
الذي يدخل الشعر في الشعر ، فيكون الجزاء من جنس العمل ، وتكرر السخرية على الأب
وقد نالت من جراء هذا الخلط ، وإدماج الآيات ، وقد يقال المعلم منها شيء ، ونتيجة
تكرار الكلام مواضعه ، في مقابل تمن بخس دواحم معدودة احتجنا الأب ، وهو
رجل لدين ، وفارس المبادئ والقلم .

٤- (سئل رجل عن مولده ، فقال : ولدت رأس الهلال ، للنصف من رمضان ، وبعد العيد
بثلاثة أيام ، فاحسبوا الآن كيف شتم (٣) فكل جملة في العبارة تناقض الأخرى ، ومن المحال

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٥

(٢) أخبار العتيق والمغفلين ، ابن الجوزي صفحة ١٤٢ طبعة بيروت .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٥ .

جمع النقيضين ، لذلك سخرنا من عقل المتكلم ، وتضارب جملة .

٥- (خرج أبو شيان للمحج ، فهكى أبنائه ، حرله ، فقال ، لا نيكوا بأبي ، فإنني أريد أن أضحي عندكم) (٥) .

٦- (دخل كزيم السدوسي على بلال بن أبي بردة ، فدعاه إلى العشاء ، فقال ، قد مكثت . قال ، وما أكلت ؟ قال ، قليل أرز فأكثرته) (٦) .

٢- الفارقات

من الجوانب الفنية التي تحقق السخرية ، وتخلق جوا من العنكم والاستعزاء ، أن يجعل الشيء في غير مكانه ، ويوضح الأمر ممكن موضعه ، فيبدؤا فيها في مكانه الجديدة ، تابعا من موضعه الأصل ، ولما كان المكان لا يناسبه ، والموضع لا يلائمه ، لا تسلك عليه ، أو ضيقه منه ، أو تناقضه معه ، انفسج الهجاء للسخرية ، واتجمعت الألقاب بالفضائل .

ومن الألقاب التي اتخذها الجاحظ لفارقات ، وذكرتها كتبها كنه ، وسخرت منها على لسانه

فكشاعتها الفكاهة والمج :

أ- للجواب غير المتوقع ب- الدليل المضاد ج- النتيجة المعكوسة

د- اجتماع المتضادين .

١- الجواب غير المتوقع ، الذي لا ينتظره السامع ولا يخطر بهاله ، لعدم احتمال التوقع

له ، أو لغرابية منزه ، أو لوجود ما يصادفه . ومن أمثله ذلك ،

١- (تحمل أبو عبد الله الكرخي اللحياني إلى الخربة ، فادعى أنه فقير ، ووطن أن ذلك

٥) المرجع السابق صفحة ١٥ والحققت الترتيب الجزء الرابع من ٢١٥ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ .

٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤٥ ، أخبار العنق والفقيرين لابن

الجزوي طبعة بيروت صفحة ١٨٢ عيون الأخبار ج ٢ ص ٥٢ .

يجوز لمكان لمكة وسعة ، فالتقى على باب دار البواري ، وجلس مجلس إليه بعض الجوانه
فأتاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، رجل أدخل أوصيه في أنفه فخرج عليه دم ، فأى
شئ يصنع ؟ قال : يحتجم . قال : تعددت طبيباً أو قعدت فقيهاً ؟ (١)

وضع المكوي نفسه في غير مكانه ، ومرو على الناس بسلامته وجميل روايته فلما سئل وأجاب
ظهر مقطعه ، وهوت مكانته كمثل سؤال الفقيه ، فأجاب إجابة الأطباء ، والوضع المسلم
أن يجب إجابة الفقيه ، ليناسب الخبر المظهر ، ونشأ السخر الإجابة غير المتوقعة ، لأنها
لا تناسب الموقف ولا غرض السائل وقصد من سؤاله ولا هيئة المسئول وسعة وإدما ، وهذا
اللتقاء ، وتلك المسارقة هي التي ولدت الاستعزاء ، وجعلت السائل يسخر منه قالوا :
تعدت طبيباً أو قعدت فقيهاً ؟

٢- (قال الجاحظ : كان يأتي رجل فصيح من المجمع ، قال : نقلت له : هذه الصحاح
وهذا البيان لوا دعت في قبيلة من العرب لكنت لا تأنق فيها . قال فأجابني إلى ذلك ،
لجعلت أحفظه لسماحتي حفظه وهذه هذا ، نقلت له : الآن لا تنه . فقال : سبحان
الله ؟ إن فعلت ذلك فأنا إن دمى) (٢)

ولم يكن الجاحظ يتوقع الجواب المذكور ، لأنه يعرف أن الرجل من تاه عليه أو لم يتسمه
وأن الرجل يؤكد للجاحظ الذي اختلج له هذا النسب . أنه من تلك القبيلة العربية فعلاً
والسخر ناتج من الجواب الغريب الذي لا يتوقعه الجاحظ والذي يخفى الحقيقة عن من يعرف
حقيقته ونسبه الطارف والتاك ، بل لمن ابتدع له هذا النسب وأوجده ، وظلله ودارسه
عليه .

(١) العميان الجزء الثالث صفحة ٧ ، ٨ ، البيان والتبيين الجزء الثاني صفحة ٢٢٢ ، عين

الأخبار ٢ ص ٥٤

(٢) مصحح الأدب ، ياقوت الجزء السادس عشر صفحة ١٤ مطبوعات دار الشؤون .

٣- (دها بعض السلاطين مجنونين ليحركهما ، فيضرك ما يحيى ، فليدأ سمعها
 وأسمعها غضب ، ودها بالسيف ، فقال أحدهما لصاحبه ، كنا مجنونون فعزنا ثلاثة (٣)
 لم ينتظر السلطان أن تكون إجابة المجنون بهذه الحكمة ، فاجتمع في المجنون خيال
 وفلسفة ولذا بالسلطان مجنون والمجنون حكم ، وفي القضاء وقلب الموضع السخر والموسر
 والضحك والمرح ولا ينشج .

٤- (قال الجاحظ : رأيت بالعسكر امرأة طويلة القامة جدا وحن على طعام ، فأردت أن
 أتا زوجها ، فقلت : انزلي حتى تأكل معنا . قالت : وأنت ناصد حتى ترى الدنيا (٤)
 هـ (سئل بعض الجبان ، كيف أتت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمحاصي ، وأرقمه بالاستغفار (٥)
 ٦- (كان رجل يقول أفسى بكاء ، وكان الأفسى ربما عثر العترة ، وزكب التكة فيقول :
 اللهم أهدل لي به قائدنا خيرا مني ، فقال القائد : اللهم أهدل لي به أفسى خيرا مني (٦)
 ب- الدليل المضاد ، الذي يتخذ برهانا للرد على ما يقال ، وحجة مضادة لما يحدث
 وهو في الوقت نفسه غير الملحق بالحقبة ، وغير الدليل المنقذ الذي يسلكه العقل الواضع
 الجاد للبرهنة والاستدلال ، وقد انتفعت ضديته الفاحصة المنزلية ، فأشبه العلة في مظهرها
 والدليل في صورته ، عاينهما في الإقناع والإغواء ، فشيء ضديته لما يقال ،
 وضديته للدليل الجاد ، وإن كان يلبس لبوسهما ويتبرهن بفرزتهما ، وذلك سر السخر
 ونوع الاستهزاء . ومن أمثلة الجاحظ في ذلك :
 ١- قال أبو إسحق : مروان بن محمد ، في طعام جعفر بن أبي زهير ،

- (٣) البيان والتبيين ، الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثاني صفحة ٢٢١
 (٤) الأذكياء ، ابن الجوزي صفحة ٢٦٢ ، عين الأخبار ٢ ص ٤٧
 (٥) الديوان ، الجاحظ ، الجزء السادس صفحة ٥٠٦
 (٦) الديوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٠ ، ٣١

حسبت الخبز في جوار السحاب

رأيت الخبز عز لك حتى

ولكن خفت مرزاة الباب (٧)

وماروحتنا لتذب عنا

للألمة الحقيقية للترويح ذب الذباب خوفا من سقوطه على الطعام ، وانتقال الفلانة

إلى لواقطة بأرجله والجراثيم المنتشرة في جسمه إلى الطعام ، ولكن أبأ الشفق صرف نظره عن

هذه الملحة وطواها ، وضرب عنيدا صفحا ، وذكر علة للذب مشتركة ، ووجه الجمع مخترعة قاصدا

بها السخرية من البخل ، والتعكم بالشح فزعم أن جعفر بن أبي زهير إنما ذب خوفا

من نفس الطعام بسلب الذباب بعضه ، والسخرية بهذه الطريقة أشد إيلاها ، وأقوى إيجالا

لنفس التعكم به فكأكثر سرورا ، وأعظم إضحاكا وإنما لنا للحضور والسمعين .

٢- (وهو الأسد لأهل قافلة) ، فتبرع عليهم رجل ، فخرج إليه ، فلما رآه سقط وتركه الأسد

فشدوا عليه بأجمعهم ، فتخلى الأسد ، فقالوا له : ما حالك ؟ قال : لا بأس ، ولكن الأسد

.. في سراويلي (٨)

أراد أن يؤرم الحضور أنه يفره وأن شيئا لم يحدث له ، وأنه جرى مقدامه مدح الأسد

وخاف مخبة ذلك وقامت حين يروى وقد امتخت ثيابه ، فحطل لهذا الالتجاء بحلة غير حقيقية

وحمله دليل البسالة والشجاعة ، وهو في الحقيقة دليل البخل والفق ، والذي ينزل انضباط

الأعضاء ، وهوى الصامات والعضلات ، هربا من تأنيب الحاضرين وتخفيفا لألمه النفسي ،

في الصورة تضاد ومفارقة ودليل مضاد وتصوير الأسد بصورة طخرة ، كما أن فيها سخرية

بعقل أهل القافلة ، وجرهم إلى اعتقاد ما ليس حقيقى وسخرية بالرجل إذ ظن منطقية

علمته ، ووضع حجة .

(٧) كتاب البغلاء ، الجاحظ ، شي الخوامري والجامع ص ١٢٢ وتحقيق طه الحامري

ص ٢٢ ، ٢٣

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ج ٤ ص ٧ ، وتحقيق الشاذلي ج ٣ ص ٢١٥

٢١٦ ، ومثله في أخبار الحمقى والمنفكرين لابن الجوزي ص ١٦٨ .

٣- (حدثني جعفر بن أخي وأصل قال : قلت لأبي عبيدة : قد أحسن الذي سأل امرأة من اللحم فقال : أكله السور فوزن السور ، ثم قال : هذا اللحم ، فأين السور ؟ قال : ^(٩٩) في ذلك تعرضي .

أكل السور اللحم فإذا وزنا السور وضمتنا في الكفة الثانية وزنه السابق مع وزن اللحم حتى يتساويان ، ولكن الرجل حين وضع وزن اللحم في الكفة تماثل مع وزن السور فقال مقاتله الطائفة ، فهو يسخر من امرأته إذ ظهر كذبها في نظره لذلك قلب العبارة قائلا هذا اللحم ، ولم يقل هذا السور ، ونحن نسخر منه فإن ما ياكل يعض ويخج بهيذا من البدن ، فلا يزيث وزن القط بمقداره كما اعتقد ولا لصار السور في حجم الأسد والنمره بل في حجم القليل أو أثقل ، على مقدار ما أكل فكلهم الرجل صورة لدليل ، وخدعة لحجة وتهكم بامرأته ، وسخر من عقلها وهو في الوقت نفسه سخر من الرجل وتشكوه لأنه أتسق بالدليل الذي يحمل في جوفه أما مرة بطلانه .

٤- (يقول المروزي : لولا أنني أبني مدينة لبنيت آريا لدا بقى ^(١٠٠))

ج- النتيجة المحكوسة : يحدث التضال ، وتتولد المفارقة ، وتشتأ المفاجأة ، ومن حدوث غير المتوق ، ومن الجريد المبدول ، والتجربة المخف بها ، الصالح في انتقاء عناصرها ، تنبعها النتيجة الفاعلة ، التي تغلب الأمل الملوخمية وتذهب بالتمصيص والكند أدرأج الرياح ، وتأتي بالغاثة كأعنف ما تكون ، وعلى عكس ما يرتجى ، وضد المادة والصرف بل قد تحدث النتيجة العا مولة إذا لم يوجد انتقاء ، ولم يبالغ في الاحتراز ، وتوكت الأمور تجري كما شئت لما المقادير ، وهذا ما يضاعف السخر ، ويقد أتون المز . ومن ذلك ما ذكره الجاحظ في قوله :

(٩) كتاب البخل : الجاحظ ، تحقيق الصوامي والجام الجفر الثاني صفحة ٢٦

(١٠) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجري صفحة ٢٧

١- (إنما اشتري جارية تركية جميلة - رجاء أن يترك منها ولدا يكون بمرسديا ودكاه تولد له ولدا جاك بقبحة وجهها) (١١)

وفي هذه النادرة تضاد ومفارقة ونتيجة محسوسة فقد اختار الجاحظ الجارية التركية جميلة ولتتم لها طمعا أن يترك ابنها جمالها ، وكان هو ذكيا ولكن قبيح الصورة ، فطمع أن يترك ابنه ذكاه ، فإذا النتيجة جمع الخلق للمبشرين ، وحيازته التقيصين وفي ذلك سخرية بالجاحظ لعدم فهمه ما ينتظر ، وهذا ما يشتبه .

٢- (وأما بيت أنا رجلا عينا يدهن عليه بقود قال : إذا رأيت الشيء يعجبني وجدته سحابة تخرج من عيني . وقال وسبع بقرة تحلب فأعجبه صوت شخبها فقال : أيتها هذه ؟ فخافوا منه ، فقالوا : الفلانية الأخرى ورواها - فسلكتا جميعا المرى بها ، والموى عنها) (١٢)

والجانب القبيح الذي جعلنا نسخر أن النتيجة عكست بل صحت نحن نسخر من الرجل المبين ، وسخرنا يشتد إن كانت منه لا تعجب ، وسخرنا المتزايد في هذه النادرة لهذا ولأن البيئة لم تجد ، والتورية لم نقد ، بل أتت بنتيجة عكسية مع حدوث النتيجة المعتادة فسلكت البقرتان مما وجدت خلاف ما ينتظر مع ما ينتظر .

٣- (كان عندنا رجل أحذب ، فسقط في بئر ، فذهبت حديقته وصار آذره ، فقل له : كيف تجدك ؟ قال : الذي جاء شر من الذي ذهب) (١٣)

د - اجتماع الضدين ، وقد تشبأ الفارقات من اجتماع الضدين ، ووضعها بازا بعضها ومقابلة كل منهما بالآخر ، فيتضح قدر كل منها ، ويظهر مدى عوار أحدهما إذا قيس بالآخر ومدى كمال الثاني إذا وُزن بالأول ، أو يذكر الرجل لنفسه صفة تافهة إحدى صفات المعترف

(١١) أمراء البيان ، محمد كرد علي الجزء الثاني صفحة ٢٥٨

(١٢) الديوان ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ١٤٢ تحقيق هارون ط ١٩٦٥ .

(١٣) الديوان ، الجاحظ ، ج ١ ص ١٧٧ ، ج ٢ ص ٩ ، جمع الجواهر ، للنصري صفحة

بها ، والشهوة عنه ، ويدهى اجتماعها معانيه . ووضع الضدين في إطار واحد ، أو
 ليوصلها شخصية واحدة ، أحد النسبة اللهب المتدلعة والناتجة من ذلك السخر المستفزة
 التي يولدها التضاد ، وتذكيبها المفارقة ، وقد عرف الجاحظ لها لديها فذكرها في كتبه
 وشبهه .

ثم (إن عشرين أي ربيعة إنما سمى باسم عشرين الخطاب ، ولأنه لعله ولد في عشرين ، ولما
 كان بعد ذلك ذكرها فساد هذا صلاح ذلك ، فقالوا ، أي باطل وضع وأي حق رفع) (١٤)
 فإسم عرسيمان ، أحدهما فاسد مني ، الخلق يميل مع الباطل ، والثاني صالح
 طيب الخلق يرفع لواء الحق ، فاجتماعهما - وهما التضادان - في الاسم الواحد
 صبره كما اجتمع له وضع ورفع في وقت واحد ، والتضادان لا يجتمعان ولا يرضعان ، كما
 يقول الشاعر ، فاجتماعهما وارتفاعهما هنا أمانة السخر وهو المزمار ، إذ التضاد ليس
 على حقيقته لأنهما شخصان وليسا صفتين ، وإلا لكان الكلام خارجا عن حدود العقل .

ثم (كان إلهام سم بن هانئ^(١٥) يدهى بحضرة أبي إسحاق علم الحساب ، والكلام
 والهندسة ، واللحن ، وأنه يقول الشعر . فقال أبو إسحاق : نعم لم تعطك نفسك
 هذه الأمور ، فلك أن تدعيها عندنا ، فكيف صرت تدعي قول الشعر ، وأنت إذا رويت
 لغورك كسرت ؟ قال : فإنني هكذا طبع ، أن ألقية إذا قلت وأكسرت إذا أنشدت .
 قال أبو إسحاق ، ما بعد هذا الكلام) (١٦)

(١٥) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٨٤ ، والبيان والتمهين ، الجاحظ ، الجزء

الثاني ص ١١ تحقيق هارون ط ٣ سنة ١٩٦٨

(١٦) كان ماجنا خليفا وكثير العبث متمردا . كما ذكر الجاحظ في البيان والتمهين ج ١

ص ٩٣ تحقيق هارون .

(١٦) الحيوان الجزء الثالث صفحة ١١٠

يبلغ ابن هاني في سعة معرفته ، ويدق تحصيل العديد من صنوف العلم والشعر ،
ولكن أبا إسحاق الذي يصرح كنهه فيباليغته ينقض كلامه سخريته بأنه يكسر الشعر إذا رآه
تكيف بكفه قوله ابتداءً ١٧ و يجيبه ابن هاني مستترا في أنه عالم أتيها يشبه الحجة كبروت
بها من قبضة أي إسحاق ، أن طبعه أن يقول موزنا ويروي مكسورا ، وتلك سفسطة وتناقض ،
وحركات عشوائية لتأني مصيدة ، وجمع للضدين فإن من لا ينجح في سلامة إنشاءه يتعسر
عليه أن ينجح في سلامة إنشائه ، وهنا يكرر أبو إسحاق بسخريته أخرى على طريقة التضاد ،
وذكر الشيء والمراد نقيضه ، فيقول : ما بعد هذا الكلام كلام .

٣- (رأيت أريحة أشياء لم أر مثلهم ، رأيت سائلا يسأل في العلم ، وأخذ مواعيد من ثمه
إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلما يعلم الصبيان القرآن والصبا يا الضعفاء ورأيت جحاما بالكونة
بحجم بنسبة إلى الرحمة ^(١٧) البتة إنما بهما ، ورأيت حاملين يحملون جفازة كلها أعيرا
وضموا من رؤوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر ^(١٨) .

٣- القياس القاسد :

ومن الجوانب الفنية التي تحقق السخرى وتمطى اللسان (اللزلة المبدعة) وتدخل
في النفس السبع والمتعة أن يقيس التكلم قياسا قاسدا ، لضعف في عقلية ، أو لجبريل
بمبادئ المنطق والقيا من ، أو لعدم اتباعه ما أو لوضوحه في خدعة ، ويكون السخرى أرقى
وأثني إذا كان حارفا متبها ، ولكنه هدف إلى العبث بعقل محدثه ، واللعب بمفكيره ، ورغب

(١٧) الرحمة عقيدة قوم يقولون بأن الإنسان بعد وفاته لابد حائد إلى هذه الدار طال
الزمان أو قصره وكان السيد الحميمي الشاعر من يقول بهذا القول فجاء رجل يسأله
أن يقرضه ما ثم دينار على أن يرد لها عليه بحث الرحمة فقال السيد فيوم يضمن لسي
أنك لن تعود حمارا ؟

(١٨) أمراء البيان الجزء الثاني صفحة ٤٨٤ .

في إقناعه بالبرهان السادس ، وبالجدل الساقط ، وهو يدعي صلاحهما ، ويوضحهما بالدليل
لهرب من مأزق ، ويخرج من ضيق ، وقد يكون المخاطب بحاجة ، ويقع في خيالاته أو سائر
وبجاريه لأنهم أكثر منه ذكاء ، طمعا في كشف ما عنده ، وثقيا كوامن نفسه ، ليتضاف مسخره
ويزيد مراحه . ومن تلك الجوانب في أدب الجاحظ :

١- (قال عباس بن القاسم لأبي عبد الملك الذي كان يقال له خاق : بأي شيء تنصون أن
أبا علي الأسواري أفضل من سلام أبي السدر - من أصحاب القرامطة غير السيح - ؟ قال :
لأنه لما مات سلام أبو السدر ذهب أبو علي في جنازته ، فلما مات أبو علي لم يذهب
سلام في جنازته .) (١)

قاس خناق الثائب على الحاضر ، والمجاز على القادر ، والميت على الحي وذلك قياس
ناسد وواضح البطلان ، وإن بدا في صورة القياس الصحيح الذي ينتج الحجة المفعمة ،
والدليل الإرادج ، فقرأى الفضل للأسواري حيث قدم مكرمة وتبدأ لسلام ولم يقابل سلام مكرمة
بمكرمة مثلبا عولا رد له ما يوازي جميله - وهذا حدث فعلا - فحق للأسواري الفضل ، وكان
خناق يشترط لكي يكون سلام فاضلا كالأسواري أن يقوم من قبره فيشيع جنازة الأسواري
كما شيع هو جنازته حتى لا تكون له زيادة فضل ، ويكون تشبيها في مقابل تشييع . وهذا
القياس القاسد الموه بطلا الصحة ، هو الذي يبعث فينا السخره ويعمل بنا إلى
الضحك .

٢- (روى أن أعرابيا اشتد به البرد ، فأصاب نارا ، فعدنا منها ، يصطلي بها وهو يقول
اللهم لا تحرقنيما في الدنيا ولا في الآخرة) (٢)

أدوات النار جسد المقبور ، وأحسن بالانتعاش ، فأنفجرت أساريره ، وشكر الله على

(١) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني صفحة ٢٣٤ هارون ، وشله في أخبار

الحق والخطئين ص ١٨٢ و ١٨٣ وفي العقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥ ط سنة ١٣٥٤ هـ

(٢) كتاب الحيوان : الجاحظ : الجزء الرابع صفحة ٤٨٥

نحمة النار ، فطلب منه ألا يحرقه منها ، ولكنه قام بالأخرة على الدنيا فظن النار في الأخرة
نحمة ، فطلب من الله ألا يحرقه منها في الأخرة أيضا ، ولذلك دعا عليه ، صرعه عن الانتباه
إلى خطره القياس الفاسد حين شعركه الدقة ، والمهذو من انتفاضات البرد ، وارتجاج
النفس والجسم .

٣- (وحدثني أبان بن عثمان ، قال ابن أبي ليلى ، إنني لأسأير رجلا من وجوه أهل الشام
إذا مر بجمال معه رمان ، فتناول منه رمانة ، فجعلها في كفه ، فحجبت من ذلك ، ثم رجعت
إلى نفسي ، وكذبت بصري ، حتى مر بمائل فقير ، فأخرجها ، فناولها إياها ، قال ، فعلت
أشئ رأيتما فقلت له : رأيتك قد فعلت عجبا . قال ، وما هو ؟ قلت : رأيتك أخذت رمانة
من جمال فأعطيتها سائلا . قال ، وإنك من يقول هذا القول ؟ أما علمت أني أخذتها
وكانت سيئة ، وأعطيتها فكانت عشر حسنة ؟ قال ، فقال ابن أبي ليلى : أما علمت أنك
أخذتها فكانت سيئة ، وأعطيتها فلم تقبل منك ؟) (٢)

عجب ابن أبي ليلى من الرجوع لسرقته رمانة ، ومن ثانية حقيرة بالنسبة لآلافه المولقة ،
وجاهته المبرورة ، فكان بذلك محط للسخر ، إلا أن ابن أبي ليلى كذب بصره لمسلم
التاسع فلا عرفنا بين وجاهة الرجل وسرقته الرمانة ، فلما رأى يعطيهما للفقير علم أنه
أخذها ، فحدثه في ذلك منكرا ما خرا ، وسر سخره ، القضاة بين سرقته وتصدقه ، ولكن
الرجوع عن تفكير ابن أبي ليلى سقيما ، فسخر منه قائلا له ، وإنك من يقول هذا القول ؟
ثم أوضح الحجة والبرهان ، وأتى بالقياس والدليل ، ليبان صحة ما فعل ، وفضل
ما أقدم عليه ، وأنه لم يفعل ذلك إلا لذكائه وفطنته ، وللتقرب إلى الله حتى تضاعف حسنة
مسرقة الرمانة سيئة ، والتصدق بها عشر حسنة ، ولكن ابن أبي ليلى رد عليه سخره ،
ودفع حجته بحجة أقوى منها . نبضت لها فهدمتها ، وصيرت الرجل هوأة في شكره وقاله

(٢) كتاب الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ١٧ تحقيق عبد السلام محمد هارون ط ٣

وفعاله ، لا يستطيع بعد ذلك أن يجادل أو يحلّز فقد كشف النقاب عن ما بق غافل فاسد
القياس منقوضاً لدليل *

٤- (سرقتم نمل عامرين عبد الله الزبيدي فلم يتخذ نملاً حتى مات ، وقال ، أكره أن
أخذ نملًا ، فلمل رجلاً يسرقها فيأثم) (٤)

لم يشأ عامر أن يتخذ نملًا ، وأراد أن يعمل لذلك ، وأن يأتي بالأدلة والبراهين
على صحة ما ذهب إليه فذكر علة فاسدة ، وقياساً خاطئاً فذكر أن العلة تقواء وورقة ، وخشية
أن يحاقب الناس بسببه ، وأن يكون هو الوسيلة إلى تشجيعهم على السرقة واكتساب الأثم ،
فامتنع عن شراء نمل وتعمل في ذلك المشاق إرضاءً لله ونشراً للفضيلة بين الناس والحلقة
القاسدة والقيا من الفاسد هما سبب السخر وسحور الهز والضحك .

(٤) البيان والتبيين : الجاحظ : الجزء الثاني صفة ٣٤٩ تحقيق هارون ط ٢

الفصل الرابع

مخرجة الحركة

الحركة في بطلها وقيلها ، وأسرعها وخفتها ، داعية السخر ، ورسول الاستهزاء ، إن خرجت من المتكلف ، وجازت المتعارف ، وكذلك هي إن كثرة وتتابعت ، أو طاشت وانعدم جد وانحسار ، ونحو السخر منها ، ويتضافعه الهز بها ، إذا صدرت من الزيت الركين ، أو الرصين الزين ، أو صدوت إلى من عرف أنها موجهة إليه فتجاهلها ، أو أعلى استجابة مضادة لها تنوره ، أو غمها على هكس وضعها ، وعن ذلك في شدتها ونفوذها إن رمز بها صاحبها إلى خلاف مضمونها .

والحركة كما تكون موضع السخر ، وداعته وسحركه ، تكون رمزه وأمارته ولدليله ولفظته كالغمز بالمهين ، أو تحريك الحاجبين أو مط الشفتين ، أو الإشارة بالأصابع ، أو إخراج اللسان أو قهر ذلك من مائر الحركات التي تعبر عن السخر ، وتصحح به . والمخرجة في أدب الجاحظ تشمل كل ذلك . على ما ذكرت في أول الرسالة (١) . بيد أن الحركة التي تنفذ السخر وتعتبر هذه عقيلة في أدب الجاحظ بل نادرة ، ولذا لاقه لسانه ، وسطوع برهانه وجزه بوانه . فالكلمة في لسانه ، أخف وأسرع من الحركة في عضلاته ، وأصح أداء ، وأقوى تمهيدا ، وهو الجسوى المقدم ، الذي يذبح بالكلمة ، ولا يدارى أو يدارى أويدها بالاشارة ، وهروب الكلمة المأخوذة وشوخ الحياة لها زنة ، يقولها ويروها ، تميم السخرة بالهكا ، وتحبس الحضور بالضعك والمكركة .

والحركة كما تكون جسمية عنوية تهمشا على السخر ، تكون نفسية أو عقلية ، كطالات التردد والقلق ، والاضطراب النفسي والمقل بأنواعه ، فتتحوينا جهة التيهك بالهز .

وقد كان الجاحظ النقيس ، الثاقب النظرة ، يستشف حركات النفوس ، ويخلص القلوب ويشتات العقول ، ويصرف ما يضطرب فيها ، ويضطرب داخلها ، كما يرى الحركات الجممية ،

(١) الفصل الأول من الباب الأول حـ المخرجة عند الأدباء .

والإشارات المغلفة ، فمنهم من يراها المأخر ، ويلج مقراها الهائل ، أو يدرك خروجها
 ورونها ، فلهذا خوضها ، ويحكم بها ، ولو وجدت فيه ، أو حدث له ، وهو في ذلك ينقش
 الحركات النورية النادرة ، أو الكسرة المتعاقبة ، أو الموجبة من صخر جوف إلى عظيم خطوره ،
 لا يستطيع دفعها ، ولا يملك إبطالها ، فيسكنها في اللفظ المبرر ، ويسكنها في الحياة
 الآسرة ، وينشئ منها القصة متلاحمة الأجزاء ، متشابهة التسميع ، فتصوبها النفوس ، وتبش
 الأقدار ، وتفتاد الأبواب ، لا تملك مع كل حركة الأسرار ، وتفتتقها وضحا ، لا تستطيع كبح جماح
 أو إخفات نهريه .

ولستم إلى شيخنا الجاحظ يمرض طينا عبد الله بن سوار الرصين الركين وقد انقلب حاله
 فكثير حركاته ، عوطا ، شذاته ، ويؤيد الهز ، به التامه الحقيق ، فلم يسطع دفعه ، وهو المظلم
 البظلم . يقول :

(كان لنا بالبصرة قاضي قال له عبد الله بن سوار ، لم يرا الناس طاك قط ولا زهتا ولا ركنا
 ولا وقورا معلوما ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته ، مثل الذي ضبط وملك .
 كان يصلى القداء في منزله ، وهو قريب الدار من مسجد ، يأتى مجلسه ، فيحسب ولا يتكى .
 فلا يزال منتصباً لا يحدرك له عضو ، ولا يلتفت ، ولا يحل حبوته ، ولا يتحول رجلاً عن رجل ، ولا
 يفتقه على أحد شقيقه ، حتى كأنه بنا ، حتى كأصغره نصوة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى
 صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ، ثم يرجع لمجلسه
 فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى محله ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك
 إذا بقي عليه من قراءة المهدود والشروط والوثائق ، ثم يصلى العشاء الأخيرة وينصرف .
 فالحق يقال لم يبق في طول تلك العدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ،
 ولا شرباً ، ولا غسوة من العشراب .

كذلك كان شأنه في طول الأيام وفي قضاها ، وفي صوفها وفي شتاها ، وكان مع
 ذلك لا يحرك يده ، ولا يهز رأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوحى ، ويبلغ بالكلام المسمى

التكبير .

بها هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله ، ونرى الساطعين يوسن يديه ، إلى سقط على أنفه
 ذباب ، فإطال المكث ، ثم تحول إلى موق عنده ، فصرام الصبر على سقوطه على الموق ، وعلى
 عضيه وثقا ، فخرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غور أن يحزن ثأريته أو يغضن وجهه
 أو يذب بأصبعه . . فلما طال عليه ذلك من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقة وقصد إلى مكان
 لا يعمل العفافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل ، فلم ينهض ، فمداه ذلك إلى
 أن وإلى يوسن الإطهاق والفتح ، ففتحن ريشا سكن جفنه ، ثم عاد إلى موقه بأشد من مرتبه
 الأولى ، ففمس خرطومه في مكان كان قد آذاه قبل ذلك ، فكان إحطاله له أضعف ، وجزءه من
 الصبر في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، ونرى فتح العين ، ونرى تتابع
 الفتح والإطهاق ، فتحن عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فلما زال يلح عليه
 حتى استقر صبره ، وبلغ مجهوده ، فلم يجد بدا من أن يذب عن عينيه بيده ، ففتكل ،
 وهو القوم إليه ترفقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتحن عنه بقدر ما رد يده ، فوسكت حركته ، ثم
 عاد إلى موضعه ، ثم الجأ إلى أن يذب عن وجهه بظفر يده ، ثم ألجأ إلى أن يمسح
 بين ذلك ، ولهم أن فصله كله بموسن من حضرة من أمثاله وجلسائه .

فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ،
 وأستغفر الله ، فلما أكثر من أعجبه نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يحزنه من ضعفه ما كان
 منه مستورا ، وقد علمت أن عند الناس من أزم الناس ، فقد غلبني وتضخني أضعف خلقه
 ثم تلا قوله تعالى : " أن يسلبهم الذباب حيويا لا ينتقدوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب " (١)
 فقد تناول الجاحظ ابن سوار القاضى قصوره لنا زميتا ركنيا مقصلا ، لا يتحرك ولا يشعور
 ولو استطاع أن يمنع نفسه من الخروج لمنعه ، كأنه تثال حجرى ، أو صورة معلقة على جدار واليه
 والتصلب مثار للسخر ، وموضوع للدهز ، ولكن التهمك به يزداد ، والمخرقة منه تتشف ، حين يلح

(٢) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٣ تحقيق عبد السلام محمد هارون وطبعها

عليه الذباب الذي يتلطف به ويلين ، ويقلل حركته أولا ، ثم يمتد ويثقل تدريجيا حتى يصل
إلى قمة خفه ، واذا انه ابن سوار ، وفن خرطومه في مؤق عينه ، وابن سوار يتركه أولا لفاهة
ضوره ، ولكنه لا يصبر على ضوره الجسم ، ولجا جه السخيف ، فيحرك عينيه تحريكا خفيفا ، ثم
عديدا ، ثم متابعا ، وأخيرا يذبه يده ، ويكبه ، ثم يكرر ذلك ، وهو الساكن الزهت ،
والرصين الركبن ، وما يزيد السخر لظا ، فإن الجيخ يرتقيونه ، وهو قاضي القوم ، وصاحب المكانة
في الدولة ، والمشهور بالركانة ، والرزانة ، وليس لتلك الحادثة سابقة عنده ، فيخفون معرفتهم ،
ويظهرون جيلهم ، ولكنه يلحظ انكشاف أمره ، وهتك ستره ، فيحتذر من ذلك ، وتزداد السخرية
حين يحتد رطما فعل ، وكأنه أتى أمرا إذا ، ونهيا لا كفارة له ، فيقول : أسيده أن الذباب
ألج من الخفضاء ، وأرض من الغراب ، ثم يمتد بقرينه ، وشبهته بذلك بين الناس ، ويقرم حجزه
وهو القاضى المهيب ، أما م الذباب الطغم الضميل ، ولنا مع كل حركة من الذباب ضحكة موم
كل حركة من القاضى سخرية ، وقد م الجاحظ أداني السخريات ، زاد مع وأكثر الحركات ،
وتناولها من جميع الجهات بالقصص والتدقيق ، يتابع الأحداث ، ويسلم الحركات ، ويتعسق
الجزئيات حتى يصل إلى العقدة ثم الحل ، وكأنها مسرحية هازلة ، أو رواية ساخرة رغم قصر الزمن
ونيف فترة العرض ، وفي ذلك شاهد على براسته ، وجود صياغته ، ويد مع حكمة لقصصه ، وروايته
وليف مع الذباب سر طنية ، وليق الجاحظ معه كذلك ، ولتكن الطدنة وقعت له ، وجرت فصولها
معه ، وليكن هو موضوع السخر صاعه ، وصوجد ، ونشئه ، وروايه ، وكاتبه :
يقول : (غاما الذي أصابني أنا من الذبان ، فإني خرجت أسخمين عند ابن البارك ، وأريد
ديرا للومع ، ولم أقدر على دابة ، فمرت في عشب وثبات ملثف ، كسورا لذبان ، فمقط ذباب
من ذلك الذبان على أنفي فطر دته ، فحول إلى عيني ، فزدت في تحريك يدي ، ففتحني
في بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني - ولذبان الكلا والقياض والياض وقع ليس لغيرها -
ثم طاد إلى ، فمدت إليه ، ثم طاد ، فحدثت بأحد من ذلك ، فلما طاد استعطت كس ، فذبيت
به عن وجهي ، ثم طاد ، وأنا في ذلك أحت السمر ، أوكل بسرعتي انقطاعه في ، فلما طاد نزعت

طيلسانى من عثى ، قد بهت به عنى يدل كى ، فقلط طود ، ولم أجد ثم حيلة ، استعملت المدور ، فعدوت منه عوطا لم اتكلم بشله مذكت صبيا ، فقلقانى الأندلسى ، فقال لى : " مالك يا أبا عثمان ؟ هل من حادثة ؟ " قلت : " نعم أريد أن أخرج من موضع للذبان على فيه سلطان " ، فضحك حتى جلس وانقطع عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تعاهد جدا (٣)

يسخر الجاحظ من نفسه وما حدث له ، ولطالما فعل ذلك ، وسخرية الشخص بنفسه دليل المرح والمهاطة ، وعدم التعميد أو التزم ، والابتماد من قيود المظاهر والقيود ، وهى فى الوقت ذاته برهان الثقة بالنفس ، والاعتراف بالكفاءة ، وأماوة السمو ، والارتفاع فسوق مستوى الأحداث ، واتخاذ الناس أصدقا ، وأعدانا ، ينقض إليهم مكنون نفسه ، ويوح لهم ينقضه ، ويدخل على نفوسهم المرح والابتهاج ، وذلك مكات الجاحظ الذى نراه فى القصة يسخر من حركاته وهياجه وانغماله ، وهذه السرخم عدوه لتسلط الذباب عليه ، وعدم إمكانه الهرب منه ، أو الهدم عن متناوله ، وأساس السخرى من غيره ، وجوانبه الفتنه التى خلقتها ونشأت : تغلب الحركات الضعيفة الرقيقة من الثافة الذى لا عقل له ، على الحركات القوية المنوطة من المظلم الذى ، ثم تأبج الحركات وتدوجها من الخفة إلى المنف ، ومن البطال إلى السرمسة فممن جدوى ، ومسطرة الذبان على الجاحظ ، وإتلاك أمره ، وتصرفه فيه كما يهوى ، وكان الذبان هو الأمر الناضى ، ثم استباح حركة الجاحظ حركة الذبان خفة وشفة ، ومطاطا وسرعة ، ثم تنوع الحركات حسب عدة الموقف .

يقف الذباب على الأنف أولا ، ثم يطرد ، يرفق ، ثم يتحول إلى العين ، ثم يزداد حركة اليد الداردة ، ثم يعود الذباب للوقوف على عين الجاحظ ، فيمرد الجاحظ للذباب ، ثم يلمسح الذباب فيمرد الجاحظ ، ثم يزداد عنفه ، ولم تعد اليد كافية فى طرده ، فيستعمل كفه ولكن الذباب يزيد إلحاحه ، فيزيد الجاحظ عنفا فى الذب ، واستمطالا لاداة أكثر فاعلية من اليد والكف ، فيمزج طيلسانه بذب به ويسرع الخطا ، ويغذ السرور ، ولكن الذباب يلاحقه ، ويلحقه

(٣) الجحوان : الجاحظ : الجزء الثالث صفحة ٣٤٦ تحقيق عبد السلام محمد هارون وطبعها

تتهجرى الجاحظ ، ويشتد عدوه ، ويقطع المسافة الشاسعة ، عاديًا كما لم يفعل مذ شابهه ،
وكان كما يظهره ، أو أرق من تنساب نحوه لتشمشم ، إلى أن يلقاه الأندلسي منكراً حالته
جاءه من هيئته التي لا يدرك ما تأها ، وإن كان يعلم مدى بشاعها ، من جرى الجاحظ ، واضطراب
حركته ، ونزعة طيلسانه ، وسوء حالته . فلما أخبره الجاحظ أن الذبان هو الطائر ، وسخر به ،
وضحك منه ، وازداد ضحكه وقوى ، فاهتز جسمه ، وارتخت أعضاؤه ، واختلت مفصله ، حتى
هجزت من حبله ، وتربح فجلس يوالى الضحك ، ويتابع السخر ، والجا حظ لمدة هلمه ، فهاهل
ما حوله ، وما آل إليه أمره ، يحدو ويحدو ، ويضم انقطاع الذبان منه ، ولم يصدق بانقطاعه
حتى تعاهد جدا .

ومثل تلك السخرية ما ذكره الجاحظ عن المراقى مع المروزي ، وقد والى المراقى حركته
ويتابع طرق الاندفاع من نفسه ، فضاقت مطاولاته ، وإن كانت الحركات هنا تتنازعها في السخريتين
السايطنتين بأنها صادرة من آدمي إلى آدمي فإن لم تلتق الاستجابة التي يطلبها العقل
أو لم تلتق استجابة أصلا ، تتأفف السخر ، وظلا صوت الضحك . يقول الجاحظ : (ومن
أطعيب أهل مرويا سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر ، وذلك أن رجلا من أهل مرو كان لا يزال
يجمع ويتجر ، وينزل على رجل من أهل المراقى ، فيكويه ويكفيه ، موته ثم كان كنهول ما يقول
لذلك المراقى : ليت أئني قد رأيته بمرو ، حتى أكافئك لقديم إيمانك ، وما تجدد له لسي
من البر في كل قدمه ، فأما كنهول فقد أشك الله في .

قال . فصرخت لذلك المراقى بتقد هو طويل حاجة في تلك الناحية ، فكان ما هون
عليه مكابدة السفر ، ووحشة الاقتراب ، مكان المروزي هناك ، فلما قدم ، مض نحوه ، ونسسى
شباب سفره ، ونسى عمامة وقلنسوته وكسائه ، أبط وحله عنه ، كما يصنع الرجل بثقته ، ووضع
أُمنه .

فلما وجده قاعدًا في أصحابه ، أكب عليه وطأقه ، فلم يره أنهته ، ولا سأل به سؤال من
وآه قط . قال المراقى في نفسه : لعل إنكاره رأيي لمكان القناع . فرى فيقناعه ، وابتدأ

مسألة ، فكان له أنكره ، فقال : لعله أن يكون إننا أتى من قبل الصمامة ، فنزعا • ثم
انتمى ، ووجد مسألة ، فوجد أنه ما كان إنكارا • قال : فلهذا إننا أتى من قبل
القلنسوة •

والمعزى أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل ، قال : لو خرجت من
جلدك لم أعرفك (٤)
أكبر العراق المعزى ، ووجد له الإلزام في كل قدمة ، حتى صار كما يبدو للمعزى
والعراق من خلاصاته وأصفياءه ، واعترف المعزى بالإلزام ، وأظهر الخجل من تعداد الضائفة
والعراق في إكرامه ، وتنبى أن يرد بعض هذه الأيادي للعراق إن حقق حلمه فزاره
في منزله ، واهتم الحظ ، وقرب تحقيق الأمل ، فقد عرضت للعراق حاجة جهة المعزى ،
فخرجت نفسه لأنه سيلتقي بصديقه ، ولما قابلته في أصحابه أكب عليه وعانقه ، فلما وجدته تحرك
له ولا استجاب لمنافه ولا أفتبه ، ولا سأل به سؤال من رآه قط ، فطاشت حركته وضاع حواسه
وأصبح على الملأ ، ولكن العراق يحرف منزلته من المعزى ، ومكانته في قلبه ، وسابق فضله
عليه ، فيعتقد معنى المعزى رؤيته ، وحب استضافته — كما ذكر له بالعراق ، فظن أنه بما
عرفه لقناعه ، فخرج للقناع ورماه ، وابتدأ مسألة ، فكان الإنكار لثاني مرة أشد ، ولم يسم
تعد حركته بدمية قناعه ، وظن — لوجه المعزى وتبين صداقته به وسبق إنعامه عليه — أنه لا
يزال به جاهلا ، فخرج صامتا ، فوجد أنه إنكارا له ، فطاشت الحركة مرة أخرى ، وفوتها
عليه المعزى ، فظن أن القلنسوة ربما كانت سبب خفائه وما نزع ظهور ملامحه ، ففهم بها ،
ولكن المعزى علم أن تغافله وتجاهله قد نضب ، وأن الرجل قد اتضحت قسماحه ، فلم يعد
يخفي على من يعرفه ، ولم يبق هناك شيء يتحمل به في إنكاره له ، فجاءه ، بأنه لو خلج

(٤) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط المواضع والجامع الجزء الأول صفحة ٥٢ ، ٥٤

كل ما يليه لما أجدها عودى لوخلع جلده لما جنى فائدة لأنه مصر على إنكاره .

ومن كثرة الحركات وتواليها ، وتقلب المراتى ، وخلعه باليه قطعة إثر قطعة ، دون

تحقيق نتيجة . ومن تجاهل المروى ، وأدعاه الخفة رغم مخالفة المراتى فى إطعامه وإيواء

وأكرامه ، وتكثار ذلك منه مرات عديدة حتى انعقدت صداقة ظنهما وطيدة . ومن التضاد بين

موقف المروى من صاحبه عند زيارته العراق ، وهند زيارة المراتى له . ومن الأمانى المستحيلة

التي تنهاها المروى ، وعدم العمل بموجبها عندما تحققت .

من ذلك كله يخضر عود السخر ، وتتضرأوراقه ، وتسقى شجرته ، وتفتح أزهارها لتعطى

شظايا شبيهة ، محببة إلى القلب ، وتمر النفس ، وتضحك الصبوس .

واليك سخرية أخرى عما دها الحركة الجسمية المتولدة عن الحركة النفسية ، ثوبها حركات

مقل للبهيل ، وانتباهه فى الحفظ والتمعن ، يقول أبو عثمان .

(ولم أرى أبى جعفر الطرسوسى ، زارتوما فأكرموه وطيبوه ، وجعلوا فى شارب وسيلته

قالية ، فحركه شفته العليا ، فأدخل أصبعه شحكها من باطن الشفة ، وخافة أن تأخذ

أصبعه من القالية شيئاً لهذا حكها من فوق ^(٥))

إن حركة الأصبع التي صدرت عن الطرسوسى حين حك به شفته العليا من الداخل فسي

التي ولدتا للسخر ، وأشاعت الضحك ، لمرآيتها وندرتها ، والتوائها فى إصابة الفرض ،

وطرافتها فى نيل المقصد ، وقد دعمها إلى ذلك حركة نفسية تتبع من داخل البهيل الذي

يخاف أن يضيع شئ من القالية الموهوبة له ، وحركتها نبضة عقلية التفتت فى ذهن الطرسوس

تمككه من حك شفته دون إضاعة ذرة من الطيب ، فالحركة هنا مركبة : جسمية ونفسية وفلسفة

أفصحت عن الطرسوسى ، وغرقتا سلوكه وتكبره وإذخيلة نفسه .

(٥) كتاب البخل : الجاهظ ، ضبط المروى والجام الجزء الأول صفحة ١٠٨ ، بتحقيق

الطرسوس بخیل لحزه لا يتطیب إلا هبة من الناس، ثم يحرض على بقاء الطیب نفس
جسمه آیا ما إلى أن یجود الزمان له بطیب، وقد حكته شفته العليا التي وضع عليها
الغالية، فأدت إلى احتیاج بشرتها، فوقع بين حجرى رضى، وشق مقص، وتارة عطلان
متضادان كل منهما یسبب له الأذى، إن حك شفته ضاح جزء من الطیب، وإن لم یحكما
استمر تأذ به بها، وهنا تجرز عقوبة البخیل یتنزل عليه الثبیب والإلھام، فیصل إلى الحل
الذى یرضیه ویسره، وهو حك الشفة من باطنها، ولكن هذه الحركة الضئيلة أنصحت من
الطرسوس من جمیع نواحیه، وصورته فی كل اتجاهاته، وعرفت أساليبه فی الحیاة، وشرحت
لنا على تفانیم بخله وحرصه وتثبیره.

وأذا كنا لا نملك أن نقتنا من الضحك عند سماع هذه النادرة أو روايتها أو كتابتها،
فما ظنك بما لو رأيتها عيوننا، وكما تحضر الموقف ونظارتها، إن ضحكنا حتما سيشد،
وسخرنا قطعا سيتضاف، فإن للمشاهدین الأكثر أضافا، للقصة المكتوبة أو المروية،
ولذلك عجب الجاحظ على هذه النادرة لطرافتها بقوله: (وهذا وشبهه إنما یطیب جدا
إذا رأيت الحكاية بحینك، لأن الكتاب لا یصور لك كل شیء، ولا یأتى على كنهه، ولکن
حدوده وحقائقه) (٥).

وذلك نادرة أخرى من نوارده أعثمان، وسخرية من سخرياته أساسا الحركة غير
اللائقة بعد البالغة فی الحركة المناسبة لللائقة ثم التعارضین الحركین، یقول:

(حدثنی العلی قال: بت عند إسماعیل بن فزوان، وإنما بیئنی عنده حين علم

أنی تمشیت عند مویس، وحملت معی قرية نبيذ، فلما مضى من اللیل أكثره، وركبني
النم، جعلت فراشی البساطه ومرتقی یدی، ولیس فی البيت إلا مضی له، ومرتقة
وخدة، فأخذ الخدة فرفى بها إلى، فأبیتا، وردتبا علیه، وأبى وأبیت، فقال:

(٥) كتاب البخل، الجاحظ: ضبط المرامى والجامع الجزء الأول صفحة ١٠٨، بتحقيق

سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرقك وتمدى فضل الخدة ؟ فأخذتها ، فوضعتها تحت
خدي ، ففتنى من النعم إنكأرى للموضع ، ويسر فراشي .

وظن أنى قد نمت . فجاء قليلا قليلا حتى سل الخدة من تحت رأسى ، فلما رأيت قد مضى
بها ضحكى ، وقلت : قد كنت من هذا غنيا قال : إنما جئت لأسوى رأسك ! قلت : وإنى
لم أكللك حتى أوليت بها . قال : كنت لهذا جئت فلما صارت الخدة فى يدي نصيبت
به جئت له ! والنبذ - ما علمت - والله يذهب بالحفظ ^(٦) أجمع .
فكرة الحركات المتعددة بين عرض الخدة ، ودفعها ، وتبادل تلك الحركات ، ثم انتصار
الحركات السليمة على قبولها ، تتبعها حركات نوع المكنى ، ثم حركة التردد والتلصص ، والعش
الوحيد ، فاستلال الخدة ، والمكنى مع ذلك منتبه متيقظ يرقب كل ذلك ، على حين يظن
أبن غزوان غفوة ونومه ، ثم تتأقفا الحركات الأخيرة مع الحركات الأولى ، هو سر السخر وصاده
لما كان أفضاه عن هذه الحركات التى عرض بها الخدة ، وما حدث لها من دفع ورد وإيهاء ،
يحد المرض والإلحاح ، ثم أخيرا القبول ، وما كان أفضاه عما استتبع ذلك ، من ترقب نومه ،
وترى غفوة ، ثم استلابا للخدة من تحت رأسه ، ولكنه أراد أن يفوز بالحسنين : الكسر
الذى يريد أن يحترف به المكنى بإيثاره على نفسه وتفضيله ضيقه ، والاحتفاظ بمناحه دون أن
يسمه خد غفوة .

وقد سخر المكنى من تلك الحركات وضحك ، وقد سخرنا نحن وضحكا ، وازداد سخرنا
من الحركات الفكرية ، ولوثيات النفسية التى علل بها ابن غزوان تصرفاته ، فقد أحسنى
أنه إنما يسئل ليسوى رأس المكنى فوق الخدة ، فأثمه هذا بأنه أخذ الخدة ووضى بها
وليس الأمر تسوية رأسه ، ثم احتج عليه بأن النبذ والسكدر السبب فى نسيان سبب مجيئه ،
لما نمنز إلا والخدة فى يديه برفم أنه إنما جاء لنير هذه الحلة ، وكأننا ظنه سببا
كأفيا ، وحلة قوية ، وهذا واضحا يقبله المكنى ويرتضيه .

(٦) كتاب الخلاء : الجاحظ ، ضبط العوامى والجامم الجزء الثانى صفحة ٥٥

ومن الحركات الفلسفية التي تكاد تخلع قلب صاحبها وتطيرليه ويتخذها المتحدث بامنا إلى
السخرى وموضوالة ما حدث به وأل كان بفارس قال :

(هنا هو يومنا في مجلس وهو مشغول بمسألة وأمره وقد احتجب بجلده ، إذ نجم شاعر
من بين يديه ، فأنشد شعرا ، مدحه فيه وقطره وسجده ، فلما فرغ قال : قد أحسنت . ثم
أقبل على كاتبه ، فقال : أعطه عشرة آلاف درهم . ففرح الشاعر فرحا يستطارله ، فلما رأى
حاله قال : وإنى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ! اجعلها عشرين ألف درهم .

وكاد الشاعر يخرج من جلده : فلما رأى فرجه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر
تضاعف القتل ! أعطه يا فلان أربعين ألفا . فكاد الفرج يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له
أنت .. جعلت فداك - رجل كرم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحا زدتنى فسي
الجائزة وشيئ هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعاه وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما
وتأمره بأربعين ألف درهم ! قال : ولك إوتريد أن تحطيه شيئا ؟ قال : ومن إنفاذ أمرك
يد قال يا أحمق ، وإنما هذا رجل سربا بكلام وسريرة بكلام ! هو حين ضم أنى أحسن مسن
القرء وأشد من الأسد ، وأن لسانى أقطع من السيف ، وأن أسمى أنفذ من السنان ، جعل
فى يدي من هذا شيئا أرجع به إلى شئ ؟ ! ألسنا تعلم أنه قد كذب ! ولكنه سربا
حين كذب لنا ، فنحن أيضا نسرره بالقول ، وتأمره بالجواز ، وإن كان كذبا ، فهكس
كذب يكذب وقول يقول ، فلما أن يكون كذب يصدق ، وقول يقفل فهذا هو الخسران
الذى ما سمعت به ! (٧)

إن الحركات اللبائية التي فعمت نفس الشاعر والفرج الطلق الذى امتلك قلبه وشاعره
حين أمره لوالى بالهبة ، هى مبعث السخرى ومولد المزح . ويتحقق هزئاه ويتضاعف
سخرنا ويدهو حين تعرف أن الوالى لا يريد لبطائه النفاذ وإنما هى المود فماسب .

(٧) كتاب البغلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامى والجامم الجزء الأول صفحة ٥٩ ٦٠٠

والكلام الذى لن يجاوز الآذان والقلوب الذى لا يستبهم فعل وتنفيذ . ثم تلج ثلاثا
الوالى يحقل الشعر وعواطفه ، فيمد الحبل لأماله ويرضى له العنان ، ليفرق فى خيالاته
وأوهامه ، فإنه حين رأى تضاعف هياجه ، وشدة اضطرابه ، وحركته النفسية المائجة وفورعة
الذى قد استطاعه مخبره ، وطبع فى زيادة السخر والمرح ، بزيادة الحركة والمهيجان
اللاجحة من زيادة العطاء ، وضاعفه ، فقطع عاف فرج الناعرة ، ولم يستطيع السيطرة على
حركته وانفعالاته ، فكان أن يخرج من إرهابه ، والوالى يسخر فى نفسه ، ويضحك ملء قلبه
ويطبع فى العزيم من السخر والمرح ، فيضاعف الهبة مرة أخرى فتشتد حركة الشاعر النفسية ،
وتضاعف انفعاله ، ويهيج وجدانه حتى ليكاد الفج يقتله ، فيضاعف فرح الوالى على مقدار
ما تضاعف الهياج ، وشاقت الحركات فى نفس الشاعر ، ويصل السخر أوجه ، على مقدار
ما وصل الفج ، ولا يتهاج فى قلب الشاعر .

تحركات الشاعر لنفسه ، واضطراباته العاطفية ، وضاعفة العطاء ، قولا فقط . من أجل
نحوها واطرادها هو الجانب الفنى هنا فى السخر والمحرك والمهيج والمرح والضحك .

ثم تنتقل إلى شيخ بنى نمشل مأهرا الأعزمية . بن مرتد ، لثرى قصته مع كلب وتتابع الحركات
النفسية للجبان يظهر الشجاعة ، ثم يعود إليه قلبه ، فيخفق ويذل ثم يرجع إلى العنف ثانيا
حين يصف خصمه ، وأخيرا نرى أن جنبه وفرته كانا من كلب سييس .
(قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخ من بنى نمشل يقال له عروة بن مرتد ، نزل ببغداد
أخت له ، فى مكة بنى مازن ، ونزأخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك فى
شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين فى مسجد من ، فلم يبق فى الدار إلا كلب يسمى ،
فراى بيتا فدخل ، وانطق الباب ، فسمع الحركة بخبر الإماء . فظنوا أن لصا دخل الدار
فذهبت إحدىهن إلى أبي الأعز ، وليس فى الحي رجل غيره ، فأخبرته فقال أبو الأعز :

ما يبتغى اللعنا ! ثم أخذ عصاه فجاء حتى وقف على باب البيت ، فقال : إيه يا ملأمان !
 أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضا لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شريت
 تحاسا خبيثا ، حتى إذا دارت الأقه أج في رأسك فتك نفسك الأمانى ، وقلت : دور بني عمرو
 والرجال خلف والنساء يصلين في مسجد من فاسرقين ، سوءة والله ، ما يفعل هذا الأحرار
 لبس والله ما فتك نفسك ، فاخرج ، وإلا دخلت عليك فصرمتك منى العقوبة ، لأيم الله لتخرجين
 أولا هفتن هفتة مشنومة عليك يلتقى فيها العيان ، عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تباب ، وتجي :
 سعد بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هكنا وهكنا . . . ولكن فعلت لتكونن
 أ شام مولود في بني تميم . . فلما رأى أنه لا يجيبه أخذ باللين وقال : اخرج يا بني وأنت
 مستور ، وإني والله ما أراك تعرفني ، ولو معرفتي لقد قنمت بقولي ، وأطمأنت إلى أنا موقف
 من مرشد أهر الأهر المرندى ، وأنا خال القص ، وحلدة ما بين أمهينهم ، لا يحصونى في أمر
 وأنا لك بالذمة كميل خفوه ، أصيرك بين شحمة أدنى وأتقى ، لا تنفارقا فخرجت فأنت في ذمتي
 وإلا فان عندى قوصرتين إحداهما إلى ابن أختي البار الوصل ، فخذ إحداهما فانتبهدها
 حللا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق
 وإذا سكت وثب يربخ المخنخ ، فتبانت الأعرابى أى تماقطه ثم قال : يا ألى الناس
 وأضعهم ، ألا يا نيك ، أنا منذ الليلة في واد ، وأنت في آخر ، وإذا قلت لك السوداء
 ولا بهضه تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تربع المخنخ : والله لتخرجين بالمفوضك ،
 أولا لجن عليك البيت بالعقوبة . فلما طال وقوفه وجاءت جارية من إماء الص ، فقالت :
 أعرابى مجنون . . والله ما أرى في البيت شيئا . . ودفعت الباب ، فخرج الكلب ندا
 وحادا عنه أبوا الأغز مستلقيا ، وقال : الحمد لله الذى مسحك كلبا فوكفاني منك حربا . .
 ثم قال : يا الله ما رأيت كة لليلة : ما أراء إلا كلبا ، أما والله لو علمت بحاله لولمت عليه .
 (٥)

تظهر في القصة الحركات النفسية التي تتأبأ الأعر وتتنازع ، وتظهر جهته وتكلفه الشجاعة
 فقد امتشق عصاه ، ووقف على باب البيت ، يدهد اللص ، ويشتبه ، ويمنف ، ويمنى عليه سرور
 خلفه ونماله ، وما منى به نفسه من سرقة البيت حين غاب الرجال وانكسار ، فلما مكست
 ولم يجبها به أبو الأعر ، وخاف هجمته ، فليجأ إلى اللين والراودة ، فبعد بالمفوعة ،
 وتكلم ، لا يذبه أحد ، وضاه يمدية من نبيذ ، والكلب يقفز ويب إن سكت أبو الأعر ، ويمكن
 إن تكلم ، مما جعل المرثدى يتماقت ، ثم يلجأ إلى المنف ثانية ، حيث لم تجد الملاينة
 ولم تشد الملائقة ، ولم يظهر اللص بأسه فيرميه المرثدى ، وظال كلم المرثدى ووقوفه ، وانتظار
 الإماء ، وكثرت حركة الكلب ، يطلب التخرج .

ولا شك أن حركات المرثدى النفسية ، واضطرابات الداخلية التي تبين في حمله العصا ،
 وفي تهديده ووعيده ، يتبعه لينه ومراحمته ، ثم غفه وشدة ، وحركات الإماء حين انصق
 للكلب على ما ظننه لصا ، ثم حركته حين المرثدى ، حين لجأ إليه ، وحين وقف بجانبه
 ينتظر انتقا من اللص ثم حركة الأمة أخيراً حين فتحت الباب ، ثم خرج الكلب شدا ، وابتعاد
 المرثدى عنه مستلقيا ، ثم الخاتمة التي تنبر السخر والسرور ، حيث لال من المنزل وأزما هو
 كلب ، ثم تخلص المرثدى من موقفه الخجل ، واحتفاظه بشجاعة الدعاة ، حين أوهنا أن
 اللص الذي كان في البيت مسخه الله كلبا ، وكفاء حربا ، إكراما له ، ثم تراجع من دعواه
 واعتزاه مؤغرا بأنه كان كلبا ، ونصيه أن لو عرف حقيقة لهيجم عليه ، فيحمد على ذلك ،
 ويمنبر بالشجاعة بين الناس .

تلك كلها حركات تحدثها الجاحظ في قصة ، وسبكها بفنيته ، فكانت آية الآيات

في اليزه وضوئج التماذج في سخرية الحركة .

وأسبق أخيرا حركة تجعلنا نسخر من البخيل الفحيح حتى على نفسه التي بين جنبيه ،
 تلك قصة (البل الناعية ، صاحبة الخالية من الشيعة ، فإنها ما زالت ترقن قميصا لها وتلبسه
 حتى صار القميص الرقاع ، وذهب القميص الأول ، وفقد كساءها ، ولبست حتى صارت لا تلبس
 إلا الترقو ، وذهب جميع الكساء . وسمت قول الشاعر :

الهم قميصك ما احتديت لجبيه فإذا أضلكت جبيه فاستبدل

تقالت ، إني إذن خرقاء ! أنا والله أحوج الفتى ، وفتى الفتى ، وأرفع الخرق ، وخرق الخرق (٩)
 تلك نماذج لسخرية الحركة عند الجاحظ ، عرضتها ، وحلتها ، وحليت الناحية الفنية
 فيها ، ووضعت يدي على جانب السخرينها ، والعامل الذي من أجله نضج ونطرب ،
 وأضحت كيف ولدت الحركة السخرية ، وكانت مشغل الهوى ، ونار الاستغفاف ، وقد وجدنا
 لكل سخرية طمعا خاصا تتميز به ، ونكمة محببة تشرك بها ، ولذا محبنا لا يشركها فيه غيرها
 وتلك سمات الفنية ، وأمارات المبقرية .

سخرية الكلمة

الكلمة : أداة لتعمير السلسلة السائلة ، وسيلة نقل الفكرة من عقل المتحدث والكتاب إلى عقل المستمعين والقرّاءين في سلامة ووضوح عوي أخف في التفاهم ، وأقدر على التعمير من الحركات والإشارات . ولها غير معناها اللغوي : المعنى البلاغي والمعنى الخاص بها في الصبغة والمعنى المقصود بها في الموقف العام والخاص والإشعارات ~~للمعنى~~ والإيحاءات التي تخالف معناها ، وتسمى مدلولها ، والنقطة للصوتية التي تضي على المعنى صفا ، وتحدث في النفس تأثيرا وحزة .

لم يست الكلمة إذن مجرد لفظة ، إنها موسيقا وفكرة وإحساس وانفعال ، هي كائن حي يعيش في عقلنا ، وتنطق به ألسنتنا ، ومقدار ما نملك الكلمة ، ونظن استعمالها ، تكون قيمتها في الحياة . ونحن في المناسبات والمصائب ، ولا أعد الحقيقة إن قلت : إن الكلمة هي الرجل . والكلمة في فن السخرية لها أهميتها ومكانتها ، وقدرتها على اللذع والإيذاء ، والدمار واللعز ، ولتعمير والفخر إن أريد بها ذلك وقصد بها الإيحاء والتفريق ، لها في معناها من انفعال ، ولها يتلاعب بها صاحبها بالهدف منها ، أو لإنهاء عليها ، أو تعميلها أكثر من معناها ، أو بتحويلها إلى غير المعنى المقصود بها ، أو بتقسيمها ، أو بإبدال حروفها ، أو بالخطأ في نطقها نحيها أو لغويا أو لفظيا ، أو بالتعمر والتقصص ، والتشدق بها بتخوير جرمها ، أو بالخلط بين حرفيها ، أو بينيها وبين غيرها . والسخرية تحتاج إلى مقدرة لغوية خاصة ، وتفهم لمعاني الكلمات ومراميها ، وخبرتها سمعة ، باستعمالها ، وإدراك وإحاطة بمعانيها ومضامينها ، وما يختبئ داخلها .

وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن النفس ، أن السخرية عنوان البراعة لغويا ولابدل ثقافته ، وروح نفسيته ، وكشاف عقليته ، ومقياس رقيه أو تخلفه من جميع نواحيه ، فقل لي من تسخر : أقل لك

من أنت ، وقل لي كيف تسخره ، أدلك على ثقافتك وطبيعتك وحيثك .

ولقد عرف الجاحظ للكلمة السخرة - وهو ريب الكلمة الساخرة - أهميتها ، وإمكانيتها
وما في طاقتهما من مد السخرى بألوان فنية ، وأنماط صحيحة مطربة ، تنوع فيها وتلاعب بها
وحسب بتركيبها ، واتخذها أداة هزئة ، وممول سخرة ، ونخمة شديدة ، وسوط تأديبه ،
ومن الأنواع التي شاعت في أدبه ، ولجج بها لسانه ، فأكسبت الكلام سخرا وضحت فيه
ضحكا وطربا .

- ١- التلاعب بالألفاظ والمعاني
- ٢- الخلط في الألفاظ
- ٣- الخطأ في الحروف والحركات
- ٤- الاشتقاق
- ٥- التفسير
- ٦- أسلوب الحكم

١- التلاعب بالألفاظ والمعاني

من الألوان الفنية التي تلون الكلام بأصباغ السخرة ، أن يترك المتكلم اللفظ التفسير
الاستعمال ، والواضح المعنى ، إلى لفظ آخر قليل الاستعمال ، يحتاج في فهمه
إلى تأمل ، سخرة بأغلام العاشرين ، وتلكما بسطحيتهم ، أو سخرة بالموضوع الذي
يحدث فيه ، أو الشخصية التي يتناولها كلامه ، وقد يجمع السامع للفظ فيصره عن وجهه
المراءى إلى غيره من الأوجه قصدا للضحك والعبث ، أو التوجيه والنصح أو يجمع لفظا
على غير ما نطقه صاحبه ، فيجيبه بها سمعه وتوهمه فيأبى الجواب غير مناسب للسرور .
وسر السخر هنا ماعته ، أن الحضور يتوقعون كلاما غير الذي قيل ، والمتكلم ينتظر
جوابا يناسب سؤاله ، وكلاما يلائم كلامه ، وهو يبحث عنه فلا يجده ، وإنما يجده
كلاما مخالفا ليس بينه وبين كلامه صلة ولا رباط ، إذا السائل في واد والجواب في واد آخر

ومن علم التراب ، وظهور التناقض ، والمعاني الأمور لتشتت السخرية .

إن الساخر قد يحاول أن يكسب الألفاظ قهراً معانيها الواضحة ، فإذا اكتشف السامع أن ما يقصده هو هذا المعنى البعيد الذي لم يتطرق إلى ذهنه في مبدأ الأمر سخر من فهمه الأول لمعنى الجملة .

وقد يسخر الجيب ، ويتمكن بالسائل ، باستعماله اللفظ في غير معناه المتعارف ليس الأذهان ، تهرباً من الإجابة ، وخوفاً مما يترتب عليها إن كانت صريحة صحيحة ، أو لطيفة في نوال ، أو ليبين ثمة السؤال ، وتبع موثقه .

وقد يتلاعب بالمعنى عن طريق الطع والشر ، واللف والتمص ، والتواء الأسلوب ، وهداع السامعين ، والإجابة على غير السؤال ، وإيهام الإجابة عنه ، سخرية واستهزاء ، مما يهتاج إلى غرض للوصول إلى رابطة بين المعنيين وكشف ما يغلط هذه الصلة من غرض أو إيهام .

إن الساخر قد يكون أسلوبه في الهزئ ، وطريقته في السخرية تحويل الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى آخر تحتمله ، أو تفسيرها تفسيراً مغايراً لما يقتضيه السياق والموقف ، بحيث مما يقصده المستكم ، وما ينتظره السامع . . . ويأخذ الساخر في هذا اللون ، وضع الشيء في غير موضعه المألوف ، وإخراجه في صورة طريقة غير متوقعة ، مع ما فيها من تفسير سليم للكلمة يناد به الحبث والمروء ، والمج والسخر ، وهو وإن كان حقيقياً فيها إلا أنه يعمدها عن معناها الجاد ، وينحربها ناحية المزمل واليهز . ومن أمثله ذلك عند الجاحظ قوله :

(قال قاسم تذهب والله مني الأطييان قلت : وأي شيء الأطييان ؟ قال : قوة اليمين والرجلين) ^(١) ففسر الأطييين بقوله معناهما الشائع . والأطييان عند العرب : الأكل

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق دارين ص ١٢٣ الجزء الرابع ، تحقيق السندوني

والنعم ، أو الأكل والجماع ، أو كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : الأضيان ، التمر
واللبن ، وتفسير الكلام بغير معناه المتعارف تلاعب بالكلمة وهي محتوية على دعوى للسخرية
والضحك .

(مثل من رجل ، فقال : إن له شرفا ، ويثا وقدما ، فنظروا فإذا هو ساقط من السفلة
فقال له في ذلك ، فقال : ما كذبت ، شرفه آذناه ، وقدمه الش ، يعني عليهما ، ولا بد من
أن يكون له بهت يأري إليه) (٢) . و (هذا مثل قول القائل حين سئل عن رجل في تزويج
امراة . فقال : آزين المجلس ، نافذ الطعنة ، فحسبوه سيدا فارسا ، فنظروا فوجدوه خياطا
فسئل عن ذلك فقال : ما كذبت ؟ إنه لطويل الجلس ، جيد الطعن بالإبرة) (٣) وهذا
ضرب لطيف من السخرية يدخل على النفس البهجة والسعي ، حين يفسر الكلام بغير ما يتوقع
وما أشبه هذا بما يشيع بيننا الآن من قولهم : إن أي يرفع الناس ويخفضهم بظرف إصبعه
فلما بحثوا عن معنائه وجدوه : عامل مصدق : أو قول أحدهم : إن أي يصفق له الناس .
يقصد أنه : جرسونا .

وقد تحول المتكلم كلمته إلى معنى آخر غير معناها اللغوي ، فسمى الش : بغير معناه ،
ويخلع عليه غير صفته ، ثم كما وسخرا فقد يحال السامع تثبت هذا الاسم الجديد ، والتأمل
لصحته ، والبرهنة على أن الأول لم يستعمله في غير معناه ، وهذا من كل ذلك نورا لسخرية
ومضاعفة لاستغرابه أو صلاح ذات الالبين . . . والناحية الفنية في سخرية هذا اللون :
تسمية الش : باسم شئ آخر أرفع منه رتبة أو أقل ، ثم الإتيان بهرمان مفتعل على أن

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ص ١٢ الجزء الأول

صلحصة ٣٢٧

(٣) المصدر المذكور صفحة ٢٢٨

هذا الاسم له حقيقة ، تذكرا واستمرا ، فيكون موطن سخره كمن ينادى الخادم بلقب
سيد ويصمى أنه لقب له أيضا ، أو ينقش ريش الخراب بالوان ريش الطاووس ، فإذا ما تبينا
الحقيقة وظهرت لنا الخدعة التي هي ممكن السخر ضحكنا وطربنا . ومن ذلك قول الجاحظ
(قال ابن حديقه لرجل رأى معه خفا ، ما هذه القنصوة ؟ فاحتكموا إلى عرياض فقال
عرياض هي قنصوة الرجلين ^(٤)) فقد أتى عرياض لفظ القنصوة كما هو ولكنه جعله
حين أضافه إلى الرجلين إلى معنى آخر ، يقصد تلطيف حذره وعاطفارا بن حديقه فـ
مظهر من لم يدع ، عن طريق استعمال اللفظ استعمالا مهيئا أدى إلى سخرية ظاهرها
الإيهام والإقناع كما تقول الجاحظ عرياضها السخر واللب بالمقول نتيجة التلاعب بالألفاظ
وقد يكون الكلمة دالة على جنس متبع المعنى ، ومنهج المدلول ، وتطلق على كل شخص
غير معروفها شخص نفسه ، ويستعملها استعمال الملم . . . ولنا حبة القنية للسخر هنا
أن التعريف لا يفيد ، إذ أنه ليس بتعريف ، فالجنس لا يدل على الشخص ، واللفظة
صالحة لكل فرد ، ويزيد السخر إذا جاءت الإجابة عازمة بما يدفها المخاطب المتكلم
وكذا أنها تعريف له ، ولم عليه ، وفي ذلك يقول الجاحظ ، (كان عمرو بن ميمون يجلس
في داره ، وكان لا يدع بابا مفتوحا ، فإذا فرغ من شأن قام بنفسه حتى يفتح له ، فأثبت
الباب يوما ، ففرقه فقال ، من هذا ؟ قلت ، أنا . فقال ، ما أعرف أحدا يسمى أنا ^(٥))
وقد يكون مبعث السخر اللف في المعنى ، والدوران في التعمير ، وبذل الجهد ،
وتحمل المشقة ، لمحاولة إخفاء المعنى المباشر الذي قد يهيج ويهيج . . . والمسة القنية
السخر هنا ، التعمير على السامع ، والعجز ، بحقله ، والتلاعب بالكلام رياء ، ألا يفهم
أولئك جديده الأمر ، وفق المضمين ، واحتياجه للتدقيق نظرا فلوخذ السخر بذلك

(٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع ، صفحة ٨

(٥) الحيوان ، الجاحظ ، صفحة ٢٢٧ من الجزء الأول ، محاضرات الأدباء ، ج ٢ ، ص ١٠

وحيث له ذمته ، فإذا تبين بعد ، سطحية الفرض ، وأنه كان يمكن أن يؤدي بكمالات قليلة لا تقطع تحبا ولا جهدا ، سخر من نفسه ، ومن كده وجده وسخر من الحكم الذي نجس

اللعنة : فوسخرنا نحن منهم معا ، ومن أمثلة ذلك ما رواه الجاحظ عن أبي الحسن : (قال :
وكان رجل من أهل الري يجالسني : فاحتبس مني ، فأتيته ، فجلست معه على يديه وادنا رجل
يدخل ويخرج ، فقلت : من هذا ؟ فسكت ، ثم أعدت لمكت ، فلما أعدت الثالثة قال : هو
فهي أخت خالتي) (١٩)

وقد يكون الحرف في الكلمة موحيا للمتكلم بمعنى من المعاني ، يعتقد أنه يدور معه وجودا
وحدا ، لا شراكه في عديد من الكلمات تحوي هذا المعنى وتدل عليه . ولكن لما لم
يكن هناك دليل مقنع وبرهان يؤكد هذا الرأي الذي يعتمد على الحدس والمصادفة ،
وكالت القاعد والمخترعة تتخيم أكثر ما تستقيم ، كان رأيا تسلا بفكرة خاطئة تنهوا السفس
المخترعة من صاحبها ، وشبه عقله . . . وبعبارة أخرى : سذاجة العقل مسج
انما الحكمة ، وكشف المحسوس ، والإتيان بما لم يأت به الأوائل .

(قال الشيخ الأباض - وقد ذهب عن اسمه وكيفية ، وهو هل كان أمي بكربن بديرة -
وحري يماضي في من ذكر التشيع والشيعة ، فأكثر ذلك ، واشتد غضبه عليهم ، فتوهمت
أن ذلك إنما اعتراه للاباضية التي فيه ، وقلت : وما على ابن سألته ؟ فإنه يقال : إن
السائل لا يعدم أن يسمع في الجواب حجة أو حيلة أو ملحة ، فقلت : ما أنكرت من التشيع
ومن ذكر الشيعة ؟ قال : أنكرت منه مكان الشين التي في أول الكلمة ، لأنني لم أجسد
الشين في أول كلمة قط إلا وهي مخطوطة مثل شجر وشرو وشیطان وشغب وشج وشمال
وشجن وشيب وشين وشراة . . . قلت له : ما سمعت متكلما يقول هذا ، ولا يلقه ، ولا
يقول لهؤلاء القوم قائمة بعد هذا (أ) ، وفيه من المخروفر ما تقدم قول الشيخ فسي
آخر القصة : فما سمعت متكلما يقول هذا ولا يلقه ، وهو هنا يظهر استحسانه لأبي
الاباض ، وطريقه : بأن براعته عزفت عن ذهنه ، وصح تأمله وأرجع اكتشافه لا يلقها غيره .
وهذا ضدهما يبطئه ، وعكس ما استقر في نفسه ، وضاعف السخرية حين قال : ولا تقم
لهؤلاء القوم قائمة بعد ذلك على طريق ذكرنا ضد وتعجب القاصد تيمنا وحرًا
وهو يظهر المواقفة الوا لاقتناع بما قيل .

(أ) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٢ ، ٢٣ من الأخبار لابن قتيبة الدينوري

٢- الخلط في الألفاظ .

إذا وضع المثلث لفظا مكان لفظ فتغير المعنى ، أو قدم لفظا على آخر فحدث الخلط في الجملة ، أو خلط لفظين ببعضهما ، وصيرهما كلمة واحدة ولانهم المعنى واستغلق ، كسان مدعاة للسخر ، وسخطا للمز ، ويحدث ذلك منه من غفلة أو من جهل أولا براءه في الكلام أو بسطرية فكرة أخرى على عقله ، غير ما يحدث فيه ويخلط به ويدهج به يدخل هذا في ذلك ، فتسخر منه ، وتضحك لكلمات التي يترجى في إطار غير معناه ، وظهرت في غير مكانها ، وعلى غير صورتها ، وكأنها تفكرت لأصولها ، ولتستجاب غيرها التي لا تناسبها ، فحدث فيه مشوشة تدعو إلى التعميب ، وتشير التسخر . ومن أمثله ذلك ما رواه الجاحظ .

١- (قال نفيس لغلام لي ، الناس ولك أنت حياء كليم أقرا ، يريد ، أيت أقل الناس كلام حياء) (١) .

خلطنا المعنى إذ ضللت الألفاظ طريقا ، وسكت في غير منازلها ، ومارر الكلام لغوا لا يحصل له ، ولا دلالة يعطيها للسامع . إن السامع ليسخر من ذلك اللفظ السندى حفظ عدو الألفاظ ، فألقاها كما جرت على لسانه ، ليعرف أن يراسي بهذا العلاقات والروابط وذلك يشير إلى ارتباك عقليته ، واضطراب ذهنه .

٢- قلت لنفيس ابن بريدة هذا الصبي ، من أي نس ؟ أأعلمو ؟ قال ، من أصحاب سنده نعال يريد أصحاب النعال السندية) (٢) .

فقد قدم نفيس الصفة على الموصوف ، ووضعها في غير موضعها ، فألوف ، وسر الخضر هنا قلب الأصل فرعا وجعل الفرع أصلا ، وكأن السند في نظره تصب إلى النعال وتعرف بها .

١ البيان والتبيين ، الجاحظ / تحقيق هارون ج ٢ ص ٢٦٤ ، وتحقيق السندون ج ٣ ص ٢٢٦
 (٢) أعلام العرب كورص ٢٧ تحقيق هارون ، وتحقيق السندون ص ٢٢٦ ج ١ ص ١٦٦ هارون

٢- قال الجاحظ: (وأما نفيس غلام فإنه كان إذا صار إلى فراشه في كل ليلة في سائر السنة يقول في دعائه: اللهم علينا ولا حولنا) (٢)

لم تحدث السخيرة من التقديم والتأخير فحسب، وإنما لأن تبادل الكلمتين موضعيهما، قلب المعنى، فصار الكلام دعاء عليه، بعد أن كان دعاء له، لو أبقاه على أصل وضعه اللهم حولنا ولا علينا، وقد حقق هذا السخر نقل الكلمات وتحريفها من مواضعها، فصارت السخيرة قوية، ذات طائفتين مدحى الفطن.

٣- قال قاسم التمار: (فالتوى لى عرق حين قدمت منها مقعد الرجل من الغلام) (٤)
أراد قدمت منها مقعد الرجل من المرأة. فجعل الغلام مكان المرأة، وأبدله بها ضم
إن هذا الإبدال يضاعف السخيرة من قاسم فإنه جعل نفعه محل الشهات والانتقام بالغلمان
ثم إنه مجاوز للمعتاد من التمييز، والنفس تسخر من المخالف وبخاصة إذا اتجه ناحية
الضعف، أو اكتساب الصفة الذميمة. ويتضاعف السخر إن كان المعنى غير مقصود.

٤- (قلت لغلامي نفيس: بعثتك إلى السوق في حوائج، فاشتريت ما لم أملك به، وتركت كل ما
أملك به) قال: يا مولاي، أنا ناقة، وليس في ركبتي دماغ) (٥)
أراد وليس في رأسي دماغ فأبدل الكلمة، فصارت العبارة ضرباً من اللفظ، الذي يثير
السخر، حيث فقدت معناها، وربما أراد أن ركبتي لا تحمل فيها فوله أنه أراد إبدال الكلمة
وقصد بها اتبعه سيده بإبدال ما يظلمه منه بما لا يظلمه، جعلها للمرج وطلباً للسخر، فهو
غلام الجاحظ، والمحاورة تمدى.

٥- وقال في مفضل اسمه كيسان: كان يكتب غير ما يحسب، ويستحق غير ما يكتب، وقرأ غير
ما يستحق، ويطلب غير ما يقرأ أمليت عليه يوماً.

(٢) البيان والتبيين ١ لجاحظ، تحقيق هارون الجيه الرابع صفحة ١٩

(٤) انضويتر: لسابق صفحة ١٢

(٥) المصدر المذكور ص ٢٦، أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي صفحة ١٧٦

(٦) أخبار الحمقى والمغفلين: ابن الجوزي صفحة ٨١

بمعترا أبا عمرو

صحبت لمعشر عدلرا

تكتب أبا بشره وقرأ أبا حفصه واستهلى أبا زيد (٦)

فهذا الخلط الكبير والخط الشديد ، دليل الغفلة ، وهم استروا الطبعة الهندسية فإن هذا اللفظ بأخر محتمل متقبل ، وفي أنه قد يجلب السخر ، ولكن تراكم الأخطاء فيفسد لا يتأتى في مثل الخطأ عادة ، ويؤكد السخر الشديد ، والضحك العنيف ، والهمز المركب لخرج الشخص عن طبيعته الإنسية السوى وعقليته ، وما يضاعف السخرية ، ويطول الضحك أن الغفل السعكيان مع تجرده من الكيس وفقلته طبقات متراكمة ، وحيلة ظلمات بعضها فوق بعض ، ولا سم الشخص بالنسبة لأعماله : إما تلازم وتاسب فيخرج الصدر وتمش النفس إن كان شريفا كريما .

وأما تضاد وتماثل (٨) فيتولد الهمز ، ويتزايد السخر وقد يكون الاسم القبيح مناسبا للفعل القبيح ، فنهتزا أيضا ونضحك .

٧- (قال الشاعر) ورأى رجلا اسمه وثاب واسم كلبه عمرو . فقال :

من التوثيق أسيابا

ولو قويا له اللـ

وسمى الكلب وثابا (٩)

لسمى نفسه عمرا

فلجتماع الاسمين في الكلب وصاحبه ، وتسمية كل منهما بما يجب أن يكون للآخر ، وإيراد الكلب في سمت الأدمي ، وللأدمي في سمت الكلب ، وإعطاء كل منهما شيئا من مظهر الآخر

٧- كعجل ، الذي أراد فقاعين قومه الذي جاء الأكل في السباق ليمسحه الآخر .

ب- كلقمان الذي تكبر قلبه ويأكل من الكبر رسا ذكر ذلك في الاسطفاق .

٨- كقفوس قلام الجاحظ الذي يدعو كلامه للسخر منه ، والتعكم به .

ب- وقا بين الأعز الجبان الذي سبقت قصته من الكلب في سخرية الحركة .

ج- ومثل كيسان الذي ذكرنا الآن قصته .

د- ومثل الرجل وثاب الذي سمى كلبه عمرا في السخرية الآتية .

(٩) المدهون ، الجاحظ الجزء الثاني صفحة ١٩٤ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨) ، ومثله لسي

الحقد الفريد لابن عبد ربه ، المجلد الثاني صفحة ٢٩ .

بين انعدام التماس بين الاسم والسوى ، وبين الطرافة ، والتمزية في تبادل الاسمين ، يكون

السخر والاستمراء .

١- (دخل آخر على رجل يأكل أترجة يحصل ، فأراد أن يقول : السلام عليكم . فقال :
عليكم) (١٠)

فقد أدهج الكلمتين في بعضهما ، الحمل ، والسلام عليكم ، فصار كلمة واحدة مخمسة ، وذلك
حين غسل بالحمل وشغف به ، فسيطرت معدته على لسانه ، بدل أن يسيطر عليه عقله ، فكان
عقله في معدته ، وكأنه حيوان لا فكر له إلا في الطعام . وذلك محور السخر ، ومدار البز
يحمو في نفوسنا وسببه انه اج الكلمتين الموحى باندماج عقله وظنه .

٢- (قيل لطفيل : كم اثنان في اثنين ؟ قال : أربعة أرفقة) (١١)

فسخر الكلمة هنا ناشئ من زيادتها ، فكلمة أرفقة لم يسأل عنها ، ووجودها في الإجابة
كشف نفسية الطفيل ، وأرانا ما يدور بعقله ، وكيف استلكت معدته ولم تفكر ، وكيف أحلسم
لها قياده ، وذلك لأمية السخر والتسخر .

٣- الخطأ في الحروف والجمل :

من الصور الخطأ للكلمات أن يغير التكلم حرفا من حروفها ، أو حركة من حركاتها
فيخرج بها من معناها إلى معنى آخر ، قد يقصد ، وقد لا يقصد وسر السخرية أن
الكلمة لم تعد تفصح عن نفسها ، ولم تنطق لها هجيتها ومقوماتها ، لقد انسلخت من مفهوميها
إلى مفهوم جديد ، ربما كان عكس مفهوميها الأول ، واتخذت صبغة من تبدلت بعض أعضائه

(١٠) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق هارون الجوزي الثاني صفحة ١٧٨ .

(١١) البيان والتبيين : الجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ١٢٥ السندون ، ١٢٥ هارون . وفي

الأدب : لابن الجوزي صفحة ٢٢٢

أوقفت ، أو زادت ، ولا يخفى ما في ذلك من تشويه ومعنى يؤدي إلى السخرية والاستهزاء .
وهي وإن انحرفت بمحض الانحراف في مظهرها ، فقد تنجست كل التجويز في مدلولها وبمعناها
وإن كان ذلك داعيا إلى السخرية من الكلمة ، لخلل في بنائها ، أو نقص في حروفها أو نقص
المعنى ، فإنه أيضا يثير الهمز ، والاستخفاف بالنطق بها ، بحيث يظهر بظهور الطفل ،
الذي لا يمكنه النطق السليم ، أو الأصب الذي يتأخر عليه الكلام المستقيم ، وتكسر بين
شفتيه الحروف ، وتشتت في فهم الألفاظ ، أو يؤدي بها بلكة لا يستطيع التخلص منها ، أو يعقب
بعض حروفها أو يبدلها . فبذلك السخرية من معنى ، ويشع الضحك ويعلو ، إذا كان المعنى
الجديد يخالف المعنى الأول ، أو يؤدي إلى التصريح بذكر عورة ، أو إلى إلحاق صيب
خلق بالمتحدث أو السامع ، أو إلى إيقاعه في مأزق يصعب خلاصه منه . . كما يتضاعف السخر
إن أظهر المتحدث نقصه بها يقول من كلمات خاطئة ، أو حاول أن يفهم به كلام غيره الصحيح
في عظه ، فإذا لفظه أشد اعوجاجا ، ومعناه أكثر سقوطا . وتبلغ السخرية أوجها إذا كان
المتكلم صائب اللفظ والمعنى ، فعدل هذا له كلامه بالخطأ البين . واللفظ الضحرف ، وقد
اعتقد صواب لفظه ، وبراعة أسلوبه ، وأنزل نفسه من التكلم منزلة المعلم والأستاذ . . .
أمثلة هذا الجانب الثاني للسخرية في كتابات الجاحظ ما حدث به عن نفسه قال :
١- (أتيت منزل صديق لي ، فطرقت الباب ، فخرجت إلي جارية سندية . فقلت لها : قولي
لسيدك ، الجاحظ بالباب ، فقالت : أقول الجاحظ بالباب ؟ — على لفتها — فقلت لها :
قولي الحديث بالباب . فقالت : أقول الحديث بالباب ؟ فقلت : لا تقول شيئا فخرجت .)
فتضير الجارية السندية حرقا من لقب الجاحظ بحرف قريب منه في المخرج والجرح ،
لصحب في نطق الجارية ، أو لخطأ في سماعها ، أو حال الظمة من معناها ، وألقى ما بين
بحر صفة خلقية مزولة ، ولما تصقت به لأدلت ، ونكست رأسه ، وجعلته موضع همز على مسر
الأيام ، واقتسمها خصومه للتشهير به ونادوه الجاحد أو الحلق ، وقد شعر بحقيقة اللقب

(١) أديب العرب : بطريرك البستان ، معجم الأديب ، ما قوت الجزء ٦ ص ٨٥ طبعة دار

المعرف نقول الأدباء ، قائلًا للجارية لا تقول شيئا .

٢- قال قيل مولى زياد له ، (أهدوا لنا هماروحه) يريد حمار وحش . فقال زياد ، ما تحسول

وبك ؟ قال ، أهدوا إلينا أيرًا . يريد عيرا . فقال زياد ، الأول أهون عنكم ما أراد (٢)

والخطأ هنا جرباً أيضاً إلى اللفظ القبيح ، فقد أبدل الحاء هاء في الأول فتغيرت سحكة الكلمة ، وتجردت من معناها ، وصارت بأصوات الميميان أنبه عني ذلك ما يدعوا إلى السخر أمّا السخر في التسمية التي قلب فيها الميم ميمًا فأنكى وأبشع ، لأنه ذكر العورة صراحة . لذلك قال زياد ، الأول أهون ، وما يضاف السخر أن قيل لم يقصد المعنى المضحك ، وإنما تلك لكثرة تسميته في لسانه قلب بعض الحروف حقيقة كلامه الجدة ، ولكن مظهر الكلمة وصورتها بالنسبة للعربي الذي يسمع هزل ومجره تستحق السخر والمزح وبخاصة مع كلمة أهدوا .

٣- (وقال بعض الشعراء في أم ولد له يذكر لكتبتا :

أول ما أسمع منها نسي السحر تذكيرها الأنثى وتأنيت الذكسر

والسوءة السوء في ذكر التفسر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر ، قالت الكمر (٣)

ولا زالت السخرية هنا تنبع من تغيير الحرف الذي يؤدي إلى غير العادة ، ونحو جملة التصريح بالصورة ما هو غير مقصود للجارية ، كما أن هناك سخرًا آخر ناشئًا من قلبها النوع الإنساني في محادثته أو الكلام عنه يجعل العزيت مذكرا والمكسر .

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٧٣ ط مكتبة

الطائفة ومثله في كتاب الحيوان للجاحظ الجزء السابع صفحة ٢٢٢

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول ، صفحة ٧٣ ، ٧٤

ومن الأخطاء النحوية التي تولد السخرية حين تتغير حركة الاعراب أو حرفه وخاصة إذا تتأملت التفسيرات ، وتوالت الأخطاء ، وإذا صدرت من يدعي إجادة النحو واللغة ، وإذا كانت ممن يتفاسح ويتذلق ، قول الجاحظ ،

كنت (ماسرجويه الطبيب) جدد محاذين سميد بن حميد الحميري . فقال : ماسرجويه ، إن أجد في حلقى ببحا . قال : إنه عمل بلغم . فلما جازه قال : أنا أحسن أن أقول بلغم ولكنه كلفني بالعربية ، فكلمته بالعربية (٤).

أخطأ ماسرجويه فقال بلغم بضم الباء والخين هو اعتقد أن تلك لغة عربية فصحة ، ثم جعل الفصي عامية ، فقال بعد أن جازه : إنه يحسن قول بلغم بالفتح ولكنه ضم ليكون كلامه عربيا فصحا كما كان كلام محدثه ، ولو نظرنا إلى كلام محدثه لوجدناه قد فك الإيقاع وذلك غير فصيح فتعريب الكلمة بغير حركتها ، وقلب الفصي عامية ، والنطق الخاطيء على أنه العربي الفصح سبب السخرية ، وأما من انتهمكم .

٢- (كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان ، فجملا يلحنان فقال الحاجب : قوما قد أوردتما أمير المؤمنين قال عمر : أنت آذى لي منهما) (٥)
لم يترك الحاجب الرجلين يلحنان ، ولكنه طلب قوامهما ، وكأنه فصيح نحوي ، يؤذي به اللحن ويؤلمه ترك قواعد اللغة ، وكأنه لا يخطئ لغويا ، ولا ينزلق لسانه فلما تكلم ظهر سقطه فكان ألحن منهما ، وكان أشد إيلادا للخليفة . ووجه السخر باللحن أولا ، واستكراه الحاجب له مع أنه أشد لحنا ثانيا ، واستأفوه القضاة ، ووقوفه مرقف الأشخاص ، ثم انتفاع حاجته إلى معلم ويؤدب .

٣- (ارتفع إلى زياد رجل وأخوه في ميران ، فقال : إن أبونا مات ميران أخينا وب على مال

(٤) المصدر المذكور ، الجزء الثاني صفحة ٢١٨

(٥) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

أبانا فأله . فأما زياد فقال : الذى أضمنت من لسانك أضرب عليك ما أضمت من مالك ،
وأما القاضى فقال : فلا رحم الله أباك ، ولا نفع عظم أخيك اقم فى لعنة الله (٦)

هذه الأخطاء النحوية المتكررة ، والتي لا تطرد حتى فى خطبها تجعلنا نسخر ونهزأ
ومخاصمة ذلك نأتألم عليه القوم وفصحائهم لذلك جاء كلام زياد والقاضى ساخرًا من الرجل
ومن أبيه وأخيه إذ لم يقوما على تربيته وتهديب لسانه فدعا عليهما القاضى ولعن الرجل ،
وسخر زياد من الرجل مبينا فحش خطئه ، وعظم جبروته وأن ما ضاع من لسانه أضرب عليه ما
ضاع من أموال .

ثم وأختم هذا اللون من الأخطاء بالنحوية والنحوية يسخرية أيسر ، وتكلم أرجح من نفع
بنفسه بين العلماء فأخطأ ، وكلمة صوبوا له أخطاءه أخطأ ، وهو فى كل توجيه ليس
يخطئ خطأ مخايلا ، مع إمكانه البعد من كل هذه الأخطاء ، والشجى من ركوب الهمز
باختيار اللفظ السهل فيبعد به عن الممازى والعزالي .

(قال يوسف بن خالد السعوى لمرو بن عبيد : ما تقول فى دجاجة ذبحت من
فقاها ؟ قال له عمرو أحسن . قال : من فقاها . قال : أحسن . قال : من فقاها . قال
عمرو : ما عناك بهذا ؟ قل من فقاها واسترح) (٧)

٤- الاشتقاق :

إن العبث بالكلمة عن طريق تقسيمها إلى جزأين يحمل كل منهما معنى ، ويتكون معنى
الكلمة منهما معا ، أو من طريق التعليل لتسمية الشخص أو غيره تحليلا لا سندله ، ولا دليل

(٦) المصدر المذكور الجزء الثانى صفحة ٢٢٢

(٧) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق هارون الجزء الثانى صفحة ٢١٢

عليه . أو من طريق مشاركة الاسم لصفة من صفاته ، ضرب من الفكاهة والمزح ، ولون من السخرية
 وسخرية المتكلم من السامعين واللمب بعقولهم وما وقرقيها ، وسخرية السامع من السامعين .
 بمن يقول ذلك ويدعيه ، مبعثه الاشتقاق وتلصق الصلات بين معنى الاسم وصفات سماه ،
 وإن تأت ومحدث وظهر فيها التكلف والاحتيا .

يقول الجاحظ : (وبعض المفسرين يزعم أن نوحا النبي عليه السلام ، إنما سمي نوحا لأنه كان
 ينوح على نفسه ، وأن آدم إنما سمي آدم لأنه حذى من أديم الأرض . وقالوا ، كان لونه نسي
 أديمه لون الأرض ، وأن المسيح إنما سمي المسيح لأنه مسح بدهن البركة . وقال بعضهم ، لأنه
 كان لا يقيم في البلد الواحد . وكان كأنه مسح بمسح الأرض) (١) .

ويقول : (كان عبد الأعلى إذا قيل له ، لم سمي الكلب قلطيا ؟ قال ، لأنه قل ولطى ا ولذا
 قيل له ، لم سمي الكلب سلوقيا ؟ قال ، لأنه يستل ويلقى ا ولذا قيل له : لم سمي
 المصفوفصقرا ؟ قال ، لأنه مصى وفر) (٢) .

وهذه التأويلات كلها على سبيل المزح واللمب والدعابة والمزح (٣) ، والسخرية الآتية من
 الاشتقاق ، والمبت بالكتابة ، ويعقل السامع بتوجيه غير وجهته .

وما يبعث السخران يشتق المتكلم صفة قبيح من اسم الشخص وتكون تلك الصفة حقيقية
 فيه ، فيصير العلم بأنه الصفة توكما وهزا ، وقد روى الجاحظ من ذلك هذه السخرية
 (أكل أعرابي نع أبي الأسود الدؤلي ، فرأى له لقما منكرا ، وهاله ما يصنع . قال له : ما اسك
 قال : لقمان . قال ، صدق أهلك ، أنت لقمان) (٤) . فاشتق من طريقته في الأكل صفة تشترك
 مع اسمه في اللفظ ، وكأنه إنما سمي لقمان من أجل لقمه ، أو كأن أهله عرفوا صفته في قابل
 أي ما قسموه بها .

- (١) كتاب البخل : الجاحظ ، ضبط العوامى والجام الجزء الثانى صفحة ٧٤١٤ . (تحقيق الحاجى
 (٢) كتاب البخل : الجاحظ ، تحقيق العوامى والجام ج ١ ، ١٣ ، ١٦٠ . (تحقيق الحاجى ١٠٦
 (٣) كتاب البخل : الجاحظ ، شرح العوامى والجام نهاية صفحة ١٣ من الجزء الثانى .
 (٤) البخل : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجى صفحة ١٥٣

هو الشعر :

وهو لغوي ^١ الكلمات الخشنة النخمة ، القلقة في الأذن ، فائدة الاستعمال ، وجميعها

مع بعضها في مدة جمل ، قصداً إلى إظهار البراعة اللغوية ، ودلاً بكرة المحفوظ منها

تعالياً وفخراً ، وفي الوقت نفسه ^٢ مزاً بالسامع وسخراً بحيث لم يصل إلى هذا المستوى اللغوي

الرفيع ، في نظره - وهذا وإن كان يسبب سخر المتكلم بالسامع غير أيضاً سر سخر السامع

من المتكلم ، ولهذا أهمية عظيمة في مضاعفة السخرية وطرافتها ، لأن كلا منهما يهيئ الثاني

خارجاً عن الصرف والإلف والفكر لصاب ، وتبلغ السخرية مداها إن ورد السامع على المتكلم

بطريقته تلك ، وتحدد السخرية بأن يأتي بالفاظ أشد خشونة من الفاظه ، وأكثر تنافراً في

حروفها ، وقد يتقيها لأمعنى لها ، إيماناً في السخرية والاستهزاء ، وريبة في مل قلبه

بالعبارة في تفسيرها ، والمصير على اعترافه بجهله معانيها ، فيضيف إلى سخره منه ،

وسخر السامعين به ، بسخره من نفسه ، ويصير أضحوكة الجميع .

وفي كتاب البيان والتبيين للجاحظ أمثلة لذلك ، منها :

١- (قال أبو علقمة النحوي : يا آسي ، اني رجعت إلى المنزل وأنا سقي لقس ، فأتيت بشنشفة

من لوية ولكيان وقطع أقرن ، وقد غدرن هناك من سمن فرفاق شر شغبان ، وسقيط عطعط .

ثم تناولت عليهما كأساً . قال له الطبيب : خذ خرفقا ، وسفلقا ، وجرفقا . قال : ويلك ؟

أي شيء هذا ؟ قال : رأي شيء ما قلت ؟) (١)

٢- (قال زيد بن كثة : أعتيت بني كثن هؤلاء ، فإذا عرس ، ولىق الباب فادرنقى ،

وادمج فيه سرعان من الناس ، وألصقت ولىق الدار ، قد لظني الحداد دلة هورقي على

قمة رأسي ، وأبصرت شيخان الحى هناك ينتظرون الغزية ، فحجبت إليهم ، فوالله إن زلفا

(١) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٧٠

نظار نظاره حتى غفل الظل ، فذكرت أخلاقي من بني تير فقصدتهم وأنا أقول :

تركن بني كشي وما في ديارهم عوامد واعصوبن نحوي بني تير .

إلى محشرهم الأنوف قراهم إذا نزل الأضياف من قمع الجزر

وانصرفت ، وأتيت باب بني تير ، وإذا الرجال صفتان ، وإذا أرباب كثيرة ، وطبقة لاتحصى

ولعمان في جثمان الأكلم (٢)

٣- (مرأبو عاتمة النحوي ببعض طرق البصرة ، وما جئت به مرة ، فوثب عليه قم منهم فاقبلوا

يعضون إيماناً ، ويؤذنون في أذنه ، فأقلت منهم ، فقال : ما لم تكأ كما تر على كما تكأ تكون

على ذي جنة ، افرقعوا عني . قال : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية (٣)

٤- (هلع بأبي علقمة الدم فأتوه بحجام ، فقال للحجام : اشدد قصب الملازم عوارف

طببات المشارطه وأسح الوضج ، وجعل النزح ، وليكن شوطك وخزا ، ومضك نوزا ، ولا تكون

أبياً ، ولا ترون أتبياً . فوضع الحجام محاجمه في جوفه ثم مضى (٣)

..

..

..

٦- أسلوب الحكم :

والمراد به هنا أن يسأل شخص من من ، فنكون إجابه على غير ما يقتضيه السؤال وننتظر

السائل صبره ، إذ يلوى المخاطب الجواب ونحو به ناحية أخرى غير ما يقتضيه ظاهر السؤال

وفرض السائل ، وصحور السخرية بعد الجواب عن هدف السائل من سؤاله ، مما يترتب عليه

إهدار السؤال ، وعدم الاهتمام برفقات السائل ، وتركه محتاج النفس ، حائراً لفكره والمخاطب

يتمتع ذلك فيحول إجابته عن القصد السوي استمرا بالأسئلة ، ولما لثقه سؤاله ، ولما لإحراج

(٢) المصدر السابق ، الجزء الرابع ، صفحة ١٠٤٩

(٣) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٢٢٧٩ ، ٢٨٠

السامع ، وأما لتوقع عقوبة أو سقوط في كمين ، إن كانت الإجابة صريحة مباشرة فإذا لم يتلق
السائل الجواب المناسب ، اعتقد فساد سؤاله ، أو ضعف تركيبه ، أو عدم استواء الفاظهم ،
فيذكره بطريقة أخرى ، فيكون الجواب على الثلث الساخر الأول ، وفي ذلك ما فيه من الصمت
والاستهزاء . • ومن ذلك :

١- ما حدث بين خالد بن الوليد ومن بعد المسيح بن عمرو بن قيس النساء ، فقد (قال له
خالد : من أين أتيت ؟ قال : من صلب أبي . قال : فمن أين خرجت ؟ قال : من
بطن أمي . قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض . قال : فقيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال :
قال : ما سنك ؟ قال : عظم . قال : أتعقل ، لا عقلت ؟ قال : أي والله وأقيد قال : ابن كم
أنت ؟ قال : ابن رجل واحد . قال : كم أتى عليك من الدهر ؟ قال : لو أتى على شيء ، لقتلني
قال : ما تريد في مسألتك إلا عسى ؟ قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك (١)

٢- (وقال العجلاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أفسدتا لأن فأجمعه ، قال :
أفسدتا ظاهرا ؟ قال : بل أفسدتا وأنا أنظر إليه . قال : أتعرفه ؟ قال : أتعرفه فإره
فأحفظه (٢)

٣- (أراد رجل أن يكذب بلالا ، فقال له يوما : يا بلال ، ما من نومك ؟ قال : عظم .
قال : فكيف جربه ؟ قال : يحضر ما استطاع . قال : فأين تنزل ؟ قال : موضعا أضع فيه
رجلي . فقال له الرجل : لا أتعنتك أبدا (٣)
وروى هنا كيف سخر بلال من الرجل وأجابه بإجابات طير مباشرة ، وفوت عليه قصده (وهو
تكذيبه) ، وأفحمه وأخجله ، وجعله هزأة ، وناله بسخرية القارعة ، التي جعلته يقلع صا هو
فيه قائلا : لا أتعنتك أبدا ، فقد أراد أن يحرقه فأحرق هو ، ونصب له الشباك فوق هوفيه .

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني صفحـة ١٤٧ ، ١٤٨

(٢) المصدر المذكور صفحـة ١٤٨

(٣) المصدر السابق الجزء الرابع صفحـة ٦٨

٤ - (قلت لأعرابي : أتدعز إسماعيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء . . . قلت : أفقدت فليطعن ؟ قال : إني إذن لقوي) (٤)

٥ - (قيل لأعرابي : أتدعز الدج ؟ قال نعم . قيل له : فقلها ميموزة . . فقال لها ميموزة . قيل له : أتدعز الترس ؟ قال : نعم . فلم يدع سيفها ولا ترسا إلا همزه . فقال له أخوه وهو يمشي به : دعوا ! إني فأنه يدعز السلاح أجمع) (٥)

والسخر هنا من إجابة الأخ غير المتوقعة التي تحمل المزح وتضير المطلوب من السؤال ، وتحميه ناحية التمسك والطنز .

٦ - (قدم آخر على صاحب له من فارس ، فقال : قد كنت عند الأمير ، فأبى . . . قال : ولاني قفاه !) (٦)

(٤) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٢٠ بالذكريه صفحة ١٢١

(٥) المصدر المذكور صفحة ٢٢١ و ٢٢٢

(٦) المصدر السابق : الجزء الرابع . صفحة ٥٦

وهي إحدى الجوانب - بل أهم الجوانب - التي شاعت في أدب الجاهل المأخوذ
وانشئت في المؤلفات، فاحتلت مساحة واسعة من إنتاجه، تتناسب معه كرجل فكر، وفنسان
مخبر، وأمد به علم غزير، ومعرفة مسرطة، عميقة وشبت جذورها خبرة بالناس وأحوالهم، وما
يدور في داخلهم، وأعطى لها نكهتها ولذتها، المأخوذة ونطقها، وسرعة خاطر، وحضور
جواب.

ولذا كان الجاهل قد اعترف من كل علم ونهل من كل فن، وأتقن المهنات المهنية
والذهنية، فامتلك زمام الكلام، وأدب الفكر، فلا عجب أن تأتي مخبراته قارعة طارئة، وأن تكون
مخبرته الذهن الحاد، والفكر المحكم، أهم ما يعنى به، لأن الملمة أصفاؤه، وبالأدباء جلساءه
والمتكلمين والمفسرين خلطاءه، ومخبراته إنما تكون مع هؤلاء الذين يلتقي بهم، ويحيا بينهم
ويناقش معهم، ويكون موضعها ما قد من أقوالهم وأعمالهم، وخالقتهم وخلقهم، لأنه ما يقع
تحت حسه ويكون في مجال سمعه وبصره، ولأن العلم والأدب أكثر ما يجذب انتباهه، وأمد ما
يخار عليه ويحب حمايته، والذود عنه، فتأتي مخبراته رقيقة ناعمة، تتناسب علمهم، وتتماشى
مع أدبهم، عميقة مسترة، ثلاث شقائقهم وذلاهم، لا تكاد تدرك إلا بعد تأمل وتفكير،
ومعد انقضاء فترة على إلقاءها، يحلل فيها العقل وجهتها، ويبرهن تعاريفها، سواء نسى
ذلك ما ابتدعه، أو ما ولده، أو ما اختاره ليحكى من غيره، لأنه أكثر ما يعجب به هذا
اللون الدقيق.

ولذا كان للعلماء في بعض الحالات شعور، وفي بعض الأوقات جهل وطيش، ونفس
بعض التصورات حق موعنة، لا يقع فيها الحب الماذج.
ولذا كان للمتكلمين والمفسرين والمحدثين هفوات وتغابات، لا يسقط فيها المأخوذ
والأمن.

ولذا كان للادباء في مواقفهم - أخطأ - نحوية ونحوية وروائية وروائية ، وشهادة من ،
وظائف الفاظ ، وفتح نظم ، لا يتحدر إليها العربي السوقي .

ولذا كان للجاهل مدعى العلم ، وللبيد مدعى الشعر ، وللغفم المتأخر بالشجاعة
والذكاء ، قصص ونوادير ، يتضح فيها أمرهم وتظهر للناس حقيقتهم ، ويدين بهاؤهم وعصرهم .
فإن ذلك لما يوجب نيران السخيرة ، ويصمر أتون الهز ، في نفس الجاحظ ، والفيسر
على العلم والأدب ، ويدفع به دفعات قوية إلى رفع صوت السخر ، يؤدب هؤلاء هؤلاء ، ويوضح
لهم المحجة ، ويضع على جانبي طهقتهم السرى لملمهم يرشدون ، تهفوة المالم في علمه .

وهفوة الأديب في أدبه ، وهفوة المتكلم والمفسر والحدث فيما يتناول ما تخصص فيه ، ووقف
عمره عليه ، وهفوة الجاهل والغبي ، والأحقق والموى ، والمتفاح المتعالم ، جريمة وجناية ،
وسوءة وميانية في حق العلم والأدب والفن ، وفي حق الإنسانية لأنه أحد أفرادها ، وليس
يكون جزاؤها أقل من المخرا المؤذى ، والهز ، المرهق ، وما أحد لمان الجاحظ ، وما أقطع
وأنزع الفاظه السنونة الحماة ، وما أهول سخره حين يفتح السخرة على سقوده .

لقد كان للجاحظ في ذلك أنان ، وحول وألح ، أخاض بها ما بقى من عقل العقلاء ،
وصح ما تناثر من كرامة الوقورين ، وأضحك الناس عليهم أهد الدهر ، وجملهم الشل والنونج
في هذه البابية .

ومن الجوانب الفنية التي تناولها للمبت بآذان الظارحين الطارقين ، فنوع فيما
والبيد يسخره كرامة أصحابها ، وثلاثهم بمقولهم وأغلاهم :

- | | |
|----------------------|------------------------|
| ١- ادعاء الحق | ٢- الغفلة والتغافل |
| ٣- الغفلة في البديهي | ٤- الحل الذي لا يصلح |
| ٥- الاحتجاج للبديهي | ٦- الاحتجاج للذهب طامد |



١- ادب الطوق :

قد يكون المرء عالما في ناحية من الحوافر الإنسانية ، مجهزة المصلحة ، متقنا ، قادرا طمحا
أن يطبق العلم على العمل ، وأن يبتكرها لم يكن له وجود ، وأن يجعل من الأشياء التافهة
أشياء جليلة ، يرفعة القدر ، فيخدم نفسه ، ويخدم الإنسانية وقد تمتع به قديما لا يستطيع
تذليلها وقد يقع في أخطاء ، ولما لم يدرك ضررها ، وهو مع ذلك يوالى بحوشه ، ويستترشد بأرأه
غيره ، ويعترف لنفسه قدرها ، ولا تمنهه نقصا فهي مجتبا بذلك على احترامه ، ويجبرنا على
تجليله وإجلاله .

وقد يكون المرء فحج التفكير ، سقيم الرأي ، محروفا بذلك بهن الناس ، مشهورا هدهم
بحبائمه ونجائمه واقترابه من البله والحمق فتدعونا هيبة العديدين إلى الرثا له ، والشفقة به
والحذب عليه ، أكثر مما تدعونا إلى الصخره والتهمك به :

وقد يكون المرء خامل الذكر ، غاد الهمة ، خائر المزينة ، نكسا في التفكير ، يقف في
الصف الأخير من بني مهنته ، لكنه يمدى الإلتان والإجادة ، والحدق والنهغ ، والصر بأصو
لا يستطيع غيره مهنا بلغ أن يتوصل إلى دقائقها ، ويصلح على خباياها وأعماله وأقواله تدفع من
عقل خرب وتفكير سقيم وجبيل وقفل . . . إن رؤيتنا ظاهرا حاله وسماها ادب ، وبنا لسمه
مع معرفتنا بحقيقته ، واطلاعا على باطنه ، صرح لنا بالتناقض الواضح بين الظاهر والباطن
والحقيقة والخيال ، تدعونا إلى التهمك به ، والمخزية منه ، ولذمه بقاوص الكلم ، وضربه ولزبه
لأن ندومنا تنفعل لهذا الملك الغريب والعزاج المريب ، والتناقض بين الواقع والادب
انفعال مريح وسرور ، فتزداد المخزية ، وتمتع بالاشماعة وتبلغ قمة الضحك ، حين نأشبهه نفس
ادبائه ، ونشاركه في كلامه ، ونظهر له الإصفا ، والتلذذ على جمع غير حديثه ، وندبر كلامه
ونظهر له الإصفا ، والتلذذ على جمع غير حديثه ، ونوهمه أنه الفطن اللبق ،
والبليغ المنطيق ، الذي وصل إلى عالم يصل إليه غيره من بني البشر .

فضل الشيخ على الشاب : تهنئكم بأدبائه الحذق ، ومعرضا بتفاهة مملوكاته ، ووركوته الصمب
فقط لا يستحق شيئا ، وإذنا ، غيره في تعلم مثل هذه الأمور .

لقد رتب الجاحظ الصخرة هنا ترتيبا فيها دقيقا ، لتؤدي غرضها ، وتقتل بنارها :

أ - بدأ بالقسم بالله الواحد ليبدل على أهمية القسم عليه .

ب - أكد هذا القسم بأن واللام وأهمية الجملة .

ج - كرر هذا القسم المؤكدة ثلاث مرات إيمانا في التأكيد ليصدق ان سامعون العبر .

د - أكد في آخر قسمه بجملة يمين يا لله يما لنى الله فيها يوم القيامة .

هـ - ثم تبدأ سائلة تهنئات الجاحظ : أشهد أنك لا تأكله ولا تدقه : صرح أن الجملة مثمة

إلا أنها تجعل العام يستحضر في ذهنه صورة المبرور وهو يأكله ويدقه .

و - وفي قوله علمنا ما علمك الله سخرية طائلة حيث جعل نفسه طالبا للمعلم وأجبا للحصول عليه

وقد جعل معرفة هذا من الأسرار الإلهية التي يهبها الله لعباده المخلصين بالإلهام

والفيض والكشف .

ز - وأخيرا يختم هذه بقوله : يميننا وشبهه يعرف فضل الشيخ على الشاب ، وكان السزير

ما ظهر إلا ليحصل هذا العلم ويقضى عونه في معرفته .

٢ - (ادعى المكي البصر بالبراذين ، ونظر إلى البرذون وأقف ، وقد ألقى صاحبه في نيه اللجام

فراى فأس اللجام ، وأين بلغ منه ، فقال لى : الصجب : كيف لا يذره القى ، وأنا لو أنه خلت

أصمى الصخرة في خلق لما بقى في جوفى شئ ، إلا خرج ؟ قلت : الآن علمت أنك تهصر .

ثم مكث البرذون ساعة يلوك لجامه ، فأقبل على وقال لى : كيف لا يبرء أسنانه ؟ قلت :

إنما يكون علم هذا عند البصراء مثلك . ثم رأى البرذون كلما لاك اللجام والحديدة سال لمامه

على الأرض ، فأقبل على ، وقال : لولا أن البرذون أفسد الخلق عقلا لكان ذهنه قد صفا . قلت

(٢)

له : قد كنت أشك في بصرك بالدواب ، فأما بعد هذا علمت أنك فيه)

هذا هو المكي الذي يدعى معرفة كل شيء ، ويصعب أن الناس يعرفون جليل قدره ،
وعظيم قيمته ، فيخبطونه نعمة الذكاء ، يدعى المعرفة بالبرهان ، ثم يفضح نفسه
بأخطاءه ، تفصح عن شرط جهله ، وتنتهي من أدائه وكذبه ، والجاحظ - الجبريم - يتخذ من
أدائه المعرفة طريقا للسخرية منه ، فيلغظه اللغظه تلو اللغظه ، وهو - لجهله - لا يلمح مغرته
ولا يفهم حزا ، ويظنه يمدحه حين يقول له : (الآن طمت أنك تهضر) ، حين يقول : (إنما يكون
علم هذا عند البصراء مثلك) ، وهذا قال : (كنت أعلم في مصرك بالذواب ، فأما بعد هذا
فلست أعلم فيه) ، وإنما تسعد الجاحظ هذا الإطراء ^(١) ليزيد المكي من أسئلته ، ولينصحه من
بخطايا فكره ، وليدفعه إلى التفتيش والتقصير ، وسطولة الاكتشاف والاستبصار والاستدلال ، ووضع
القواعد الكلية ، ولينفضح ما بداخل نفسه من تدهانات يظنها العلم الفاضل على الأذهان ، فيعبره
السخرية ، وتنتهي نفس الجاحظ ونفوس قرائه بالمسرح والعبور .

هذا الجاحظ في مخروم من : (كان المكي طويها ، وطوبى العجج ، وطوبى الجليل ،
عجيب الحلل ، وكان يدعى كل شيء على غاية الإحكام ، ولم يحكم شيئا) ^(٢)
٣ - (قعد قدام زياد رجل ضائع - من قرية باليمن يقال لها ضاع - فنادى من دأره
فقال له : أيها الأمير ، لو كنت علمت باب مشرقها قبل مغربها ، هاب مغربها من قبل مشرقها)
فقال : أتى لك هذه الفصاحة ؟ قال : إنما لو سميت من كتاب ولا حساب ، ولكنها مسمن
" ذكاوة " العقل ، فقال : هلك الناس عري ^(٥))

فهذا الضائع يدعى العلم والفهم - صيته بأرائه وأفكاره ، وهي ليست وليدة تعلم ،
ولا نتاج مهارة ، وإنما هي دليل الذكاء الفطري ، وإمارة العقل النهر الطين وهو هنا ينقد
هندسة الدار ، وينقض أوضاع أبوابها ، فباب المشرق يجب أن يكون قبل المغرب ، ويحل مكانه

(٤) الحيوان : الجاحظ : الجزء الثالث طبعة ١٩٣٨ بتحقيق عبد السلام هارون ص ٣٢٥ ٣٢٦

(٥) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الثالث صفحة ٢٤٠

في المشرق باب المغرب . وبلغ زياد خلطه وخطه . فهو غرضه على طهارة قلب المصنف
وعكسه ، قائله : أنى لك هذه الفصاحة ؟ ووطن الفاضل لدرطه بفسه ، أنه ينطويه
حقيقة ، فيزداد غروره ، ويهاهي بنفسه وذلك أنه ، وأن هذا العلم الحقن ، والرأى الباهر ،
لم يتعلمه من كتاب ولا حساب ، ولكنها الذبارة ، فيخطئ خطأ لغويا شفويا يجمع فيه مسح
فجائه حقيقة الفاذة ، وذلك أمر عليه من رأيه القطور الذي يهاهي به .

٤٠ وقد يعبث الجاحظ بالمحكاة لقون فيزداد اقتنائه في المخرومهم ، فيدبر لهم الحمل
وينصب الفخاخ ، ويضع لهم بداخلها حلوا الحديث ، ويحبب الخير ، ليجذبوا إليها ، وينخدعوا
فيها بما فيها ، فيسقطون لغفلتهم ، وخطيق عليهم ضافها ، فتري القوم نفسها صرى كأنهم
أعجاز تخلق خافية . وقد وقع المكن في تلك الحالة التي يروى لنا الجاحظ أن رتبها قاسلا :
(قلت مرة للمكي : علمت أن الفاري حدث أن المخلوع بحث إلى المأمون بجواب فيه ستم . كأنه

يؤبره أن فده من الجند يحدد ذلك الحب ، وأن المأمون بحث إليه بمد يدك أعور ، يهتد أن
طاهر بن الحمين يقتل هؤلاء كلهم كما يلقط الديك الحب . قال : فإن هذا الحديث أنا ولدت
ولكن انظرو كيف صار في الآفاق) (٦)

لذا ابتدأ الجاحظ حديث المكي بكلمة اختاره ولقبه ، يهتد الميت بالمكي ، والمخروسة
منه وما شهره من ادعائه الحق ، والفخر بعلمه وحقه ، فكانت إجابة المكي كما توقعها
الجاحظ ، فخرا بالمرفان ، وادعاء الحق ، وإبراز نفسه في مكان الراوية الثقة ، والذي تصرى
أحاديثه ، وتتناقل رواياته ، وقد قرى في الآفاق ، ثم ترجع إليه ظننا ، ولم يكشف المكي بأن يندى
أنه أول من روى القصة ، بل ادعى أنه ولدها واخترها ، دون أن يكون شيئا قد وقع
هـ (خطب إلى الجماعة فقال : إن الله لا يقر ما د على المصالح ، وقد أهلك الله أمة عظيمة
في ناقة ما كنت تساوي ما تقي درهم . نفس : قوم ناقة الله) (٧)

- (٦) الحيوان : الجاحظ : تحقيق عبد السلام محمد هارون الجزء الثالث صفحة ٣٢٧
(٧) البيان والتهين : الجاحظ : ج ٢ ص ٢٣٦ ، المقصد الفريد : ابن عديمه : ج ٤ ص ٢١٥ ،
وأخبار الحقي والمفطلين : ابن الجوزي ص ٩٦ .

فقد ادعى معرفته الناقة ، وكأنه طينها كما يوقف على خصائصها ، وسواها ، ويحسبها وكأنه
مجهول في تقويم النوق ، حاذق في تحديد أثمانها ، تكلت ناقة صالح هذه ، ثمنها أقل ممن
ما تقي ، درهم . ولقد مخرضه الحضور واشتهروا بالحدقة بين الناس ، ولصقت به حدلقته في
هذه النادرة ، نضى بأحدرا ، ونصب إليها : مقوم ناقة الله .

٦- ومن ادعى الحدق لون يبالغ فيه صاحبه ، ويدقق أشد التدقيق ، ويغوص ويغمق ويحشم
نفسه المناء ، ويلزم ظله الكلف ، ليؤدي المعنى على حقيقته ، دون زيادة أو نقصان ،
والمعنى لا يحتمل كل هذا الثمن ولا يستحق كوكب تلك المظالم ولا يمكن للمقل معرفته
على التحديد ، والفرق بينه على التحديد ، ويضئ على التقريب سهل قبول ، لا يضر ولا يفيد ،
فهذا الجهد الفائح ، والتعب المهدور ، والثروة النفيسة التي تضطرب وتتفعل ، وتبرز صاحبها
هنا للوصول إلى الحقيقة بخلافها ، هي التي تهزنا لنسخر ، وتجذبنا لتبهكم ونهزأ ، ونضيق
على رتبنا ضغفلات ملاحقه ، لنواصل الضحك والقبضه . ومن أشد هذا اللون :
أ- (قال قاسم التمار : بينهما كما بين السماء إلى قريب من الأرض) (٨)

ب- (قال قاسم التمار : رأيت إبيوان كسرى كأنار نعت عه الأيدي أول من أس) (٨)

ج- (قال الفقي : أظطرت انارحة على وثيف وزيتونه نصف ، أو زيتونة وثلت ، أو زيتونه ،
وثلى زيتونه ، أو ما أعبه ذلك ، بل أقول : أكلت زيتونه وما ظم الله من أخرى . فقال موسى
إن من الورع ما يخضه الله - علم الله - وأظن ورعك هذا من هذا الورع) (٩)

٧- ومن ادعى الحدق لون يخطئ " المتكلم في معاني عباراته ، ونصب الأشياء إلى غير ما
هي له ، ويتعارب كلامه حتى ليكاد يلتصق بكلام السريين ، وصايره السامع في ذلك وجاؤه
وهو مستمر في حدلقته ، تياه بمعرفته ، صلف بالتميته رغم الوخز الخفي ، والمخسر المستر
الذي يلذعه به السامع ، ولكنه ههنا غل غل ، بل ينظم الإطراء والتقصير ، والمديح والإدجاب
ومنه :

(٨) البين والتهين : الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ١٢
والنار الثاني في ثمار القلوب في الضاف والنصب : الثمالي صفحة ٤٢ (م)

(٩) العيوان : الجاحظ : الجزء الثالث : صفحة ٤٣ ٤٤

(قال الجاحظ : حدثني ثمانية من أمراء قال : فشهد رجل يوط من الأيام ، وقد قدم خصما له إلى بعض الولاة ، فقال : أصلحك الله : ناصي رافعي جبهتي مشبه مجر قدري ، يشتم الحجاج بن النضر الذي هدم الكعبة على علي بن أبي ميثبان ، فليمن معاوية بن أبي طالب ، فقال له الوالي : مم أصعب ؟ من علمك بالأنساب ؟ أم من معرفتك بالقبالات ؟ فقال : أصلحك الله ، ما تخرجت من الكتاب حتى تعلمت كل هذا) (١٠)

٢- الغفلة والتفاهل :

المغفل يرى ما ليس موجودا ، ويغتر في نفسه أمرا ، يناقضها طبعه ، ويتناقض مسموع جهلته وخلقه ، ويرى للشيء علة هي أبعد ما تكون عنه ، ويرى ما لا يراه الناس ، ولا يصرحوا بصره لا يراعي المقام ولا ما يناسب الحال ، يتكلم حين يجب السكوت ويسكت حين يجب الكلام ، فإذا تكلم جاوز الموضوع واقترح الحلول التي تكون سببا في زيادة التعمق ، فهو في واد والناس في واد آخر ، فهو في ظلم الخيال والأوهام ، وهم في ظلم الحقيقة والواقع ، فهو إذا في مجتمعهم وتصرفاته نابعة من تصرفاتهم ، وكلماته تنور تفكيرهم ، ومخبرياتهم ، فهم يشكك الناس فيه أمثله ، وهو يظنه إكبارا وأعجبا ، فيتكبر ضحكهم وحقق ، وتتوالى مخبرياتهم وتضخم ، وهذا شهر بذلك بين الناس ، فتصير رؤيته باعثة على السخرية جالبة للضحك والتهكم ، وهو لا يعلم حقيقة أمره ولا مقدار غيائه وجهله ، بل وما ظن نفسه ، ظلم انطباعه ، وذكر الأذكاء ، هين المسمى فلاجه ، واطلاعه على غاشحاته : وفيه يقول بهزبن المعمر :

(١) أخبار العشق والمغفلين لابن الجوزي ص ١٥٠

وإذا الغي رأيته مستغنيا

أفيا العليوب وحيلة السحال (١)

يقول صالح بن عبد القدوس :

ولن فناء أن تشبه جاهلا

وصب جهلا أنه منه أنهم (٢)

أما المتفائل : فعاقب لبق ، وكس فطن ، يتخذ ثياب الغلظة ، ويرتدي إهابا

ليصل إلى غايته ، ويحقق أماله ، وهو يستطيع يتفائله أن يحرف أقدار الناس ، ويهاجم نفوسهم

وقد اتخذ الجاحظ المتفائل أداة للمعرفة وحث عليه فقال : (إذا أردت أن تعرف مقدار

الرجل العالم ، وفي أي طبقة هو ، وأردت أن تدخله الكبر وتتفخخ عليه ، له ظيرون لك فيه الصحة

من الفساد ، فكن عالما في صورة متعلم ، ثم أسأله سؤال من يلج في بلوغ حاجته منه (٣)

كما اتخذ سلمة للشكاه ، وأبانا للزجاج ، وكما جعله بابا فيها من أيوانها المسخر

المتنصر ، يلج فيه في رفق وأناة ، ويوسوس منه على حسب رغبة السخرة وهواه ، وهو أبقية على رأسه

ومداه ، لينفض ما أملاكه فقله من ثغافات ، وما اكتظ في نفسه من متناقضات ، قال الشاعر :

ليس الغبي بعيد في قومه

لكن سيد قومه البتائيس

ومن أمثلة الغلظة واليقظة في أدب الجاحظ الداعية إلى السخر ، والعجبة له :

(ب) (إن رجلا قال لصاحبه : أبوك الذي جهل قدره ، وتعدى طوره ، ففشق المصا ، وشارق

الجماعة ، ولا جرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم حلب قال له صاحبه : دعني من ذكر هزيمة أبي

ومن أسره وقتله وحلبه . أبوك هل حدث نفسه بشئ من هذا قط) (٤)

(١) البيان والتبيين : الجاحظ الجزء ١ ص ٢٤٥ هـ ٤ ص ٢١ م

(٢) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٢٤٦ هـ ٤ ص ٢١ م

(٣) الميوان : الجاحظ : الجزء السادس صفحة ٣٦

(٤) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ١٠١ وفي البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٠ م

فقل الرجل الثاني عن أن هذه صفات ذم ، واعتقد أنها صفات مدح بها الرجل كنهها في الإنسان بوجودها في أبيه ، فشاخر بها الرجل الأول ، وبعبارة بطلاقة أبيه وأنه لا يرضى إلى الحال ، ولا يطمح إلى نيل المجد كما فعل والده .

٢- (حدثني ثمانية طال : مررت في قب مظر ، والأرض تندية والسما مغيمة ، والريح شمالية ، وإذا شيخ أصغر كأنه جراكزة ، وقد جلس على قارعة الطريق ، وحجام زنجي يحجمه ، وقد وضع على كاهله وأخذه حجمة لأنها قعب ، وقد هس دمه حتى كاد يستغرقه . قال : فوقف عليه وقلت : يا شيخ ، ألم تحتجم في مثل هذا اليوم ؟ قال : لكان الصغار الذي في (٥))

الجورطب والأرض تندية والسما مغيمة ، والريح شمالية وليس ذاك يوم حجارة لأنها تكون من احتياج الدم ، وشدة اندفاعه في الشرايين ، وذلك أغلب ما يكون في الحر الشديد ، وإنكر ثمانية علي الشيخ : أحتجامة في مثل هذا اليوم ، وصغره الشديدة ، والدم المنير الذي امتص منه ، وسمة المحجمة التي لأنها قعب ، وهذه العوامل كلها تدعو إلى الإشفاق والرحمة وتوجب المخر والمرح ، لأنها تؤدي إلى موت الرجل ، ولكنها ستكون محنة على المخر ، وستكون كل جزئية منها مؤيرة للبهمة ، حين تسمح الرجل يخرج عن سبب احتجامة قائلا : لكان الصغار الذي في ، فتنضح فقلته وجهه لته وضحالة تفكره ، وارتكابه ما يهدد صغاره ويهدد أجله ، وهو يظنه داء ، وروائع دائه ، وروقتا إياه يتداوى من دائه بما يمكن لهذا الداء ، وهو طوله في جسمه وهو فاضل عما هو فيه ، يرى الأمور معكوسة ، والأضباع مقلوبة ، يجملنا نخس من فقلته وزوقه ، فهو ليس مريضا بالاصفرار وإنما مرضه جهله وحقه :

لكل داء داء يستطب به
إلا الحاقه أمت من يداويه

(٥) جمع الجواهر : المصري : تحقيق البجاوي الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ هـ صفحة ١٨٧ ، ١٨٨
والحيوان : ١ الجاحظ : ١ الجزء الثالث صفحة ٢٢ تحقيق هارون .

٣- (قال الجاحظ ، مورت بحمص ، فمرعتر يتيمة جبل ، فقال رجل لرجل معه ، هذا الجبل من هذا العتر ؟ فقال له ، لا ، ولكنه يتم في حجورهما)^(٦)

ومن الجبل الشديد ، والغيا المتراكم ظن العترة من الجبل ، وذلك بعدد ما إلى السخرة وتزداد السخرة وتغزرجين ينكر عليه صديقه قوله نظنه مازلا زكنا ولكم حيسن يدل برأيه نتبين سقطه ، وأنه ليس أقل جملا من الأول ، فنفسك عليه أضعاف ما ضحكنا من الأول لأنه حاول تبيان ذلك ، فكان غيا وسفها .

والجاحظ يطرب لهذا اللون ، ويستظرفة ، ويقول : (وأنا أستظرف أهرين استظرافا شديدا ، أحدهما استماع حديث الأعراب ، والأمر الثاني احتجاج متنازين في الكلام ، وهما لا يحسمان منه شيئا ، فإنتهما يثيران من غريب الطيب ما يضحك كل شكلان وإن تشده وكل فضبان وإن أحرقه لسيب الغضب)^(٧)

٤- وهذا آخر يظهر في سمع العالم المنطيق ، فتركب الأتمية ، ويأتي لها بالمقدمات ، والنتائج ، ومقدّماتها وهم ، ونتائجها خلط ، واستشهادات جملة وخبط ، وتسخر من شاعة عقله ، ومزيد جدله ، ومنطقة الكاذب ، وعلمه الخادع كما في السخرة التالية ، (كان عندنا واحد يتكلم في البلاغة ، فسمعتة يقول : لو كنت ليس أنا ، وأنا ابن من أنا منه ، فكنت أنا أنا وابن من أنا منه ، وأنا ابن من أنا منه)^(٨)

٥- (كان واحد يسخرنا لناس ، ويدهم أنه يرقى الضرس إذا ضرب على صلحبه ، فكان إذا أتاه من يشتكي ضرسه قال له إذا رقا ، إياك أن تذكر إذا صرت إلى فراشك القرد ،

(٦) أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ، نسخة بيروت ، صفحة ١٧٦

(٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثالث ، ط ٢ عام ١٩٦٥ .

(٨) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثاني ، صفحة ٢١٥ تحقيق عارف ، ط ٢ ص ٢٤٢ .

تحقيق السندوين ، وفي أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ، نسخة ١٧٥ و ١٧٦ .

الجاحظ
في
الحيوان

يقصد السخرية ، فهو قاضٍ لها ذهب الناس عنه فلم ينقص * وشأن السخرية هنا ،
التفاؤل ، وادعاء أنه يحمل لصالح الرجل ، ويريد راحته ويساعدته على ما يشاء ، وأنه يمدحه
ويطري صلاحه ، وهو يعلم أنه يضربه ويؤذيه ، وينفر منه صيده ، ويحبط عمله * فقد لهرس الجاحظ
ثوب راحب ، وإن كان مضطرباً من خبث وعداؤه وتربى بنى حمل ، وإن كان له يوغان ثعلب
ولدغ دساس .

٧- (قال الجاحظ : قلت للمكي : ما بال الفرس يكون في هذه الطهق فوسخين ، وألفرسخ
يكون أقل من مقدار نصف فرسخ ؟ ففكر طويلاً ثم قال : كان كسرى يقطع للناس الفواسخ ،
فإذا صانع صاحب القطيعة زادوه ، وإن لم يصانع نقصوا) (١١)

ابتدأ الجاحظ حديثه للمكي بسؤال فيه التفاؤل ، وادعاء الجهل بمسألة يريد مسـ
المكي أن يوضحها له ، رغبة في السخرية منه ، فلم يظن لذلك العنى ، بل صدق أنه يسأل
له عرف أمراً بهجسه ، وشتمين أن يتخذها الجاحظ حجة في الإجابة على سؤاله ، ثم صدق -
لخفته - القضية ، وأن الفرس يزيد وينقص ، ثم أجاب إجابة خاطئة ، وظلّ تحملاً فابداً
تجمل جهلاً مركباً ، جعل السخرية منه تؤدى غايتها وتصل إلى مداها ، فيضحك الجاحظ
من قلبه ، ويشارك في ألقها تبا قول الشاعر العربي :

ولما رأيت الجمل في الناس فانبهت
تجاهلت حتى ظن أني جاحظ

ج- الخطأ في الحديث .

إذا جاوز النسي حذره ، وخالف طبعه ، وتقد اعتداله ، كان طاراً للتعال ، وسجالاً للبعث
من كوائمه ، وهو من مخالفة ، وإن عظم ، أو اتجه مخالفتهم نحو المظنة ، انفعلت النفس
بالإكهار والإجباب ، وإن انحط من درجته واتجه إلى ناحية النفس ، وهما النفس البسي

السخرية منه ، والتكلم به ، أو رحمة والإشفاق عليه ، أو النفر والاستغناء عنه ، على قدر نوع
النقص ، ودرجة المخالفة .

فالطالب الصغير الذى ينظم الشعر يدعونا نعرفه إلى الإجاب به ، والعرض الذى يجهل
لأنه لا يستطيع السير يثير فينا الشفقة والرحمة ، والطبيب الذى يضرب المريض يدعونا إلى
النفر والاستغناء من فعله ، والذى يخطئ فى الهدايا ، ويتناقض مع أسرار المصالحات
يكون مجالاً للسخرية والتكلم ، حيث يظهر فى مظهر النبى الخادم للذنوب ، ونقصه
من مقالته ، ونسخر من ثقافته . ومن أمثلة ذلك فى أدب الجاحظ :

١- (قال الجاحظ : نسبت كىتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى ، فقلت لأمهم أكنى ؟
قالوا : بأى عثمان) (١)

وهل هناك أمر يدعى أوقع من كنية الشخص حتى ينساها ثلاثة أيام إن ذلك
لا يتأتى منه إلا إذا ذهل أوجع ، أما أن يكون فيه بعض العقل ، فإننا لا نملك غير
السخرية منه ، والاستغناء به ، ورواية نادرته لمن يعرفه ومن لم يعرفه طلباً للضحك ، وجلباً
للسرور والمرح . وطرباً للأمر الغريب ، والخبر العجيب .

٢- (خطيب عتاب بن ورقاء : فبحث على الجهاد ، فقال : هذا كذا قال الله تبارك وتعالى :
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغائبين خبر الذبول) (٢)

فالمعرض الذى يحرف القرآن ، ويحرف الشعر ، ويفرق بينهما لأول وهلة ، كيف يخلط
بينهما فيقول الشعر على أنه قرآن كرم ؟ إن ذلك يدعونا إلى السخرية ، بل إن غير المعرض
لو خلط بين الشعر والقرآن لضحكنا وسخرنا . ولا أن أمر القرآن أشهر وأجل من
أن يخفى ، ولا يخلط بينه وبين الشعر لا يكون عند من له أدنى إلمام بلغة العرب .

(١) مجمع الأدباء / ياقوت : الجزء ١٦ صفحة ٢٥ ، تاريخ بغداد ، الجزء ١٢ صفحة ٢١٤

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق هارون : الجزء الثانى صفحة ٢٣٥ ، ٢٣٦

وهين الأخبار : ابن قتيبة ج ٢ ص ٤٩ ، المعقد الفريد ج ٤ ص ٢١٥

٣- (كما في منزل صاحب لنا) إذ خرج واحد من جماعتنا ليقبل في البيت الآخر، فلم يلبث ساعة حتى سدعناه يصيح أوه .. أوه .. قال : فنهضنا بأجمعنا إليه فزعمين • قلنا له : مالك !! وإذا هو نائم على شقة الأيسر وهو قابض على خصيته بيده ، فقلت له : لم صحت ؟ قال : إذا غمرت خصيتي اشتكيها ، وإذا اشتكيها صحت ، قال : نقلنا له : لا تفرهما بعد حتى لا تشتكي • قال : نعم إن شاء الله (٣)

فإذا يفرخصه بيده ، فيصيح ، ثم يعود إلى غمرها ، فيعود إلى صراخه ، دون فائدة تعود عليه من الغمز أو الصراخ ، وهو لا يعرف أن الغمز سبب الصراخ ، ويخطئ فيظن له سببا آخر ، فلما عرف بأنه يجب أن لا يفرخص خصيته حتى لا يصيح ، ابتدعت نفسه ، وسكن جأشه ، وكأنته لما وقع على مفتاح سرعجيب ، وهم طلمس أمر غريب ، لكنه لا يزال يشك في فاعليته ، فقال : نعم إن شاء الله .

٤- (أعطى المحلل ابنه درهما ، وقال : زنه ، فطرح وزن درهمين ، وهو يحسبه وزن درهم فلما رجع وجد زالا ، فألقى معه حبتين فقال له أبوه : كم فيه ؟ قال : ليس فيه شيء ، وهو ينقص حبتين) (٤)

فقد أخطأ في الأمور الهندسية عدة مرات : ١- طبع وزن درهمين ٢٠ - ألقى معه حبتين حين رجده زالا ٢- قال عن الدرهم ليس فيه شيء ٤ - اعتقد أن الدرهم ينقص حبتين • فإذا كان الدرهم أمامه ، وقد أمسكه بيده ، ووضعه في الميزان فكيف يكون لا شيء أو ليس له وزن ؟! لهذا سخر منه الجاحظ ودعانا للسخرية منه ، وما عنى السخر وقواه أن هذا الابن لم يكف بقوله إن الدرهم ليس فيه شيء ، بل قال : وهو ينقص حبتين • وتلك جهات فنية دقيقة في السخر قائم بحبكتها أستاذنا الجاحظ

(٣) أخبار الحمقى والمغفلين ، ابن الجوزي ، ص ١٩٠ بالحيوان ، الجزء الثالث صفحة ٣١

(٤) البيان والتبيين ، الجزء الرابع صفحة ٢٥ ، ٢٦

٤- الحل الذي لا يصلح ،

قد يقتجج الرجل لأمر من الأمور حلا يرى فيه صلاحه ، فإذا فيه فساد ، أو يراه مكسبا تحقيقه ، فإذا بعصير كل المسر ، أو محال الوقوع ، وقد يكون الحل سبلا ميسورا ، والأمر عاديا بسيطا ، ولكن أحدهم يقتجج حلا يعقده ، ويخلق منه مشكلة يصعب الخلاص منها وتلك الحلول التي لا تصلح ، تسخر منها ، وتنتهك بها حرماتها ، لما فيها من مجافاة العرف ومجانبة الصواب ، وظهور المرء بظهور مقليل الثروات وكشف الكريات ، ونزول التكبيلات ، فإذا به يوقع فيها ، أو يزيد الأمر سوءا وتعقيدا .

ومن أمثلة هذا اللون الفني السخري كتابات الجاحظ اللاذعة ،

١- (مرض فتى عندنا ، فقال لعمه : أى شئ تشتتى ؟ قال ، رأس كيشين . قال ، لا يكون ! قال ، فإلى كيش^(١))

والجانب الفني هنا للسخر طلب المحال ، ثم اظهار التنازل عن كثير من الشروط ، وتغيير الطلب بما يمكن ، فإذا به لا يقل مسرا واستمالة عن الأول .

٢- (أتى قوم عباديا فقالوا : نحب أن تملف فلانا ألف درهم ويؤخره سنة . فقال : هاتان حاجتان ، وسأقضى لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، أما الدراهم فلا تمسك علي ، ولكنى أخره سنتين^(٢))

وذلك لا يصلح ، لأنه ليس بحل ، ولقد سخر بالقوم حين قال : وسأقضى إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، وسخر ثانيا حين اعتذر عن ما يقصدونه وهو المال . وسخرية ثالثة هي التأخير سنتين . فأتى شئ يؤخر ، وإنما كانت تلك سخريات لأنه اقتجج حلا غير صالح للتطبيق العملي ، ولا يمكن إبدازه إلا في الرموز الخارجه ، ولأنه يرى أمرا على غير

(١) البيان والتبيين : الجزء الثاني صفحة ٢٤١ ، العقد الفريد : ابن عبد ربه ج ٤ ص ٢١٩
(٢) البيان والتبيين : الجزء الرابع ص ٢١٥ تحقيق هارون ج ٣ ص ٢١٥ تحقيق حسن السندوي

ش .

٣- (أرسل ابن لجيم فرسالة في حلبة فجاء سابقا ، فقال لأبيه بما أبته ، بأى شئ أسميه ؟ فقال : افقأ إحدى عينيه ، وسه الأمر) (٢)

لم يجد في الفرس علامة مميزة حتى يسميه بها كالأدغم أو الأصوب أو غير ذلك من أسماء تطابق لونه أو بعض سمات فيه فناقترح قطع عينه ثم يسميه بالأعور - ذلك الاسم السدى أعجبهم لمطابق الاسم مساهم . وذلك العمل غير صالح في الصرف والمقل ، وهل تكون

مكانة السابق ببقى ، منه إلا في نظر عجل ١٨

∴

∴

∴

من الاحتجاج للبدوي .

الأمر البدوي معروف ، مسلم به ، لا جدال فيه ولا نزاع ، ويجب أن يلتصق إلى المخاطب دون تأكيد ، ولا احتجاج ولا دليل .

فإذا طال المتكلم الاحتجاج عليه ، وأتى بالبراهين له ، كان في ذلك السخرية بالسامع كأن المتكلم انتزع جملة وقبائح ، وقصر عقله عن معرفة البدويات ، والمتكلم أيضا ينعوضا بذلك إلى السخرية منه ، لأنه لا يعرف الأمور ، ولا الناس ، ولا يدرك أحوال المخاطبين ، وقامات الكلام .

ولقد سخر الجاحظ من هؤلاء ، وروى نواتهم واحتجاجاتهم ، ومنها :

١- (خطب قبيصة - وهو خليفة أبيه على خراسان وأتاه كتابه فقال : هذا كتاب الأمير وهو والله أهل لأن أطيعه وهو أئى وأكبر مني) (٤)

فالطاعة واجبة للأمير سواء كان أباً أم غير أب ، أكبر منه أم أصغر . ثم إن الجميع

(٢) المذكور بتحقيق السند بين الجزء الثاني صفحة ١٦٣

(٤) البيان والتبيين ١٠ لجاحظ ، الجزء الثاني صفحة ٢٤٩

السلطة واجبه للأبير سواء كان أباً أو أخاً . ثم إن الجمع يعمون

على الهداية أن تبيضة ابن الأثير ، وما دام ابنه فهو أصغر منه فاحتجاج قبيضة لذلك

الهدى هو الجانب الذى من أجله صار الكلام مخفية .

(٥)

٢- (ذلك لم يكن أباً ، وإنما كان ولداً) (٥)

(قال أبو دينا هو موطن كان أخاً فقد ينهى أن ينصف) (٥)

إن الهدى أن ينال الأخ ، أكثر من الإنصاف ، فنتحيز له ونعطيه فوق حقه ، وننصره ونعينه ولو كان هو الباقى ، وهذا لا يحتج له ، لأنه مسلكتى غريزة الإنسان وحياته ، ومن الضاربة

أن تحتج له . إلا إذا تجردنا من عواطفنا وأردنا العدل والإنصاف ، والحق فإن التحيز حينئذ يحتاج إلى العجج والبراهين .

وقد احتج أبو دينا لما لا يحتج له ، وذلك منيع السخر ، وقد اختار لذلك كلمات منها :

(وإن كان أخاً) وهى التى أعطت السخرية مغزاها ، ولذعها . ومنها (فقد) التى للتقليل ،

ثم كلمة (ينهى) ولم يقل يجب مثلاً ، وكل ذلك جعل للسخرية مذاقها ، وحسنا على التكميم

بمن يحاول أن يعطى الإنسان بعض حقه ، وأن ينصفه من المعتدين عليه ، على الرغم من

أنه أخوه . وكان الأخوة عنده موجبة لظلم الأخ ، والحمد من إنصافه ، والتعصب ضده .

والأول ينفق بين الأب والوالد ، وكأنهما متضادين ، وكأن أحدهما ذم وسوء والثانى مدح

وطراء ، أو كأن الشخصيتين متناقضتين .

∴

∴

∴

٦- الاحتجاج لمذهب قاسد ،

وكما أن الشئ إذا كان يهدينا فاحتجبتنا له ، وأدى ذلك الاحتجاج إلى السخرية

والتمسك بالصحق والمجج له ، فكذلك إذا كان المذهب قاسداً ، والرأى خاطئاً فإن الاستدلال

على صوابه ، والبرهنة على صحته ، مع ظهور سقطها ، واتضاع زللها تعودنا إلى السخر ،
وتحدثنا على التيكم والاستبزاء ، وللجاحظ سخرياته من المذاهب الفاسدة التي يبرهن
عليها أصحابها من المفسرين والحدثين والعلماء ، يبراهين جدلية واستدلوا لها
بأدلة منسوبة ، تحمل معها دليل بطلانها ، وأمارة فسادها . . . ونحوها .

١- (وزعم بعض المفسرين : أن السنور خلق من عظمة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلعة
الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة النار ، وشكوا
إلى نوح ذلك سأل ربه الفتح ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخرته
زج سنابير ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكيفهاهم
مؤونة الجردان ، ولما تأذوا بهرج نجوسها شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره
أن يأمر الفيل فيسلح ، فسلح زج سنابير فكيفهاهم مؤونة راحة النجوس ، وهذا المحدث يست
نافق عند الحوام ، وعند بعض القصاص) (١)

(لذلك كان السنور أشبه شيء بالأسد . . . وكان الخنزير أشبه بالفيل ، قال كيسان : فينبغي
أن يكون ذلك السنور آدم السنابير ، وتلك السنورة حواويها) (٢) .

لما رأى بعض المفسرين التشابه بين الأسد والسنور ، وبين الفيل والخنزير ، فاجتمعوا القصة
واحتجوا إليها بوجود التشابه ، وحججهم واهية ، ودليلهم إنما ينطق عند الحوام وبعض القصاص
وعلى ذلك فهذا السنور آدم السنابير ، وتلك السنورة حواويها - كما روى الجاحظ من كيسان
وهذا سخر منه فيج تفكيرهم ، وفساد مذهبيهم ، كما أن رأيي في رواج هذا الكلام عند الجمال
من الحوام وبعض القصاص سخرية لاذعة للمذهب والاحتجاج له .

(١) الحيوان الجاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

(٢) ج ١ ص ١٤٦ من المرجع المذكور .

٢- (ومعنى أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب العية - حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلمه آدم على لسانها - بمشرخصال ، منها شق اللسان ، قالوا ، فلذلك ترى العية أهدأ إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما يصنع المترحم من الناس بإصبعه إذا برحم أو دعا لترى الظالم حقبة الله تعالى لها) (٢)

وذلك أنهم رأوا لسانها المنطق ، فاخترعوا مذهباً يبين علمهم وقولهم ، فقالوا ما قالوا وأتوا بما يشبه الدليل على رأيهم واعتقادهم ولما كان رأياً فاسداً ، وقد هب لا سند له كان رسول السخر عرقائد الهزء .

٣- (وزعم زياد شت ، وهو مذهب المجوس - أن الفأرة من خلق الله ، وأن الشورس - خلق الشيطان ، وهو إبليس ، وهو آهوس ، فإذا قيل له ، كيف تقول ذلك ؟ والفأرة مفسدة تجذب فتيلة المصباح فتحرق بذلك البيت والتبائل الكثيرة ، والمدن العظمى ، والأراض الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال وتعرض دافع العلم وتكب الله ودقائق الحساب والصلاك والشروط ، وتعرض الثياب وربما طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع الحاف غيراً لا وتعرض الجرب وأكبة الأسقية ، والأرتاق والقرب فتخرج جميع ما فيها . . . والناس ربما اجتلبوا السنابير ليدفعوا بها بواثق الفأرة ، فكيف صار خلق الضار المفسد من الله مؤخر النافع من الضر من الشيطان ، والشورس يحرق كل شيء خلقه الشيطان من الحياة والمقابر والجلدان وبنات وردان ، والفأرة لا تنفع لها ، وموتها عظيمة . قال ، لأن السنور لو مال في البحر لقتل عشرة آلاف سمكة ، فبلى سمعت بحجة قط ، أو بحيلة أو بأصحوكة ، أو بكلام ظهر على تلقيع حرة يبلغ من هذا الاعتلال ، فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم) (٣)

(٢) ج ١ ص ١٤٦ من المراجع المذكورة

(٣) الحيوان والجاحظ ، الجزء السادس من صفحة ٧٤ ، ٧٥ الجزء الرابع صفحة ١٦٤

وتلقى سخرية الجاحظ من هذه القصة وسورة في تسميتها حجة أو حيلة أو أضحوكة ،
أو كلاما تكلف صاحبه المؤمن النقال للاعتلال له والاحتجاج لإنهائه مع نساؤه وخطئه ،
ثم قوله « فالحمد لله الذي كان هذا مقدار عقولهم واختيارهم » وفيه سخرية بتفاهة هذه
العقول وصغارها وشكر لله على ما خلقهم عليه من ضلالة حتى لا يطيقون مناقضة الدين
الإسلامي .

الباب الخامس

دلالة سخرية الجاحظ على

.....

لم يتمسك الجاحظ بالاختصاص بين بعينه ، أو يقصر نفسه على علم بذاته ، أو يضع عقله في دائرة محصورة ، كما فعل علماء زنه ، وأدباء عصره ، وإنما كتب في كل فن هو خاض بحار كل علم ، وأبت عليه نفسه الطلحة ، وقلة الموانى ، إلا أن يكون أمة وأن يكون مصرا ، وأن يحرق في داخله جيلا من الزمان ، ومن العجيب أنه رغم هذه السيادة الواسعة في العلم والامتداد غير المحدود في الأدب والفن ، كتب أجود من المتخصصين ، وأرقى من ضيقوا على أنفسهم المجال ، وانتحوا زاوية من المعارف لا يجاوزونها ، خوفا من العثرة وطلبها للإجادة ، ورغبة في التدقيق والتعميق .

وما أدري أأسلك الجاحظ في سبط علماء الحيوان فيكون واسطدسم بكتابه "الحيوان" ؟ أم في سبط علماء الدين فيكون إمامهم في كتابي "حجج النبوة" "والرد على النصارى" ؟ أم أجعله في مصاف الأدباء فيكون رأسم في كتابه "البيان والتبيين" ؟ أم أنسبه إلى الفشتين المتفكرين الساعرين فيبذهم بكتابه "البخلاء" ورسالة "الغريب والتدريج" ؟ أم أصنعه مع علماء الكلام فيكون الدرة والذرة ، وشيخ الاستتال ، وإمام الطائفة الجاحظية ؟ أم أجعله ناقدا من الناقدين فينتقد هم ويخطئهم ، كما في سائر مؤلفاته ؟ ويجوز لي أن أضمه إلى كتاب الديالين فقد مارسا المهنة ثلاثة أيام ملاً فيها الروح روح زميم سبل بن هارون لرقا من أقول نجم الكتاب ؟ ويصح لي أن أجعله من الكتاب غير الديوانيين على نحو ما رأى عليه إسماعيل بن سليمان فأصيب كيدا لحقيقة ، ولا أبعد عما أجمعت عليه الخليفة .

والحق الذي لا هراء فيه ، والرأى الذي يخرجني من هذه الضائقة ، أن أضفه بكل ذاك وأن لا أجعله أسير علم معين ، أو فن محدد ، وإن خرج بكتابه عن الحدود والقيود ، وحقق الحرية بكامل معانيها ، فكتب في جميع معارف زنه ، وما قبل زنه ، وفي سائر فنون عصره وما قبل عصره ، وقارن ووازن وبحث وبحث واستدل واستبسط ، وحرب وحقق ، وما ريس بنفسه الأعمال اليدوية ، ولكن الذي يجمع ذلك كله على اتساعه ، ويشارك فيه رغم امتداده واتساع

بأنه هو " فن السخر " فما من كتاب من كتبه ، أو رسالة من رسائله ، في جد أو هزل ،
إلا وللسخر فيها نصيب ، حتى آراءه في تفسير القرآن ، وشارحه أحاديث الرسول ، وفتاوى
فقهاء الشريعة ، لم تخل من سخره جماعته ، بل لمثلها كانت أعنف الهجمات ، وذاذا
عن الإسلام وحفاظا على حرية الفكر الديني فيقاله فيه مجال .
ونستطيع من خلال سخرات الجاحظ ، المبتوثة في كتبه ، والتي تحسوى ما كان نسي
مجتمعه الذي طيشه ، واخفط طبقاته ، وعرقيهم من كذب ، أن تكون صورة واضحة عن عصره
وموضعه ، وأن نستلهم رسائله وضائره الكشف عن نواحي الحياة التي سادت مجتمعه ، الاجتماعية
أو سياسية ، علمية أو أدبية أو ثقافية ، وأن نجز الأخلاق الناعمة في زمنه ، والمعتقدات
السيطرة على أذهان معاصريه ، وأن نتبين مقاييس الحسن والقبح في نظرهم ، فلأدب
البنافل مجال يعجز عنه الأدب الجاد ، وللقن الساخر رجال يلكون بالكلمة والحركة
والإشارة ما لا يملكه الموضح ، والمدقق ، والمالم المحقق .

..

..

..

الفصل الأول

الحياة الاجتماعية والأوضاع السياسية

أ- الحياة الاجتماعية

إذا تقرينا سخرات الجاحظ ، وتبعنا مراسيم ، واستبطنا مدلولاتها ، أمكننا أن نقف ضلعا على ما يبرز للنواحي الاجتماعية ، التي صبغت عصره بمصبغة خاصة ، وتركت بصماتها واضحة في أدبه قد دل عليها ، وتنبير اليها ، وتبر لنا الطريق ، لنستشف ما كان عليه المجتمع في تلك الحقبة من الزمان .

ونحن حين نتأمل ذلك ، ونستوحى السخر كشفه ، نتفج لنا حقيقة الحياة الاجتماعية في العصر المباني ، ونعرف مظاهرها .

١- فنعرف أن الثروات قد تضخت ، وتجمعت في أيدي نئات من الناس بشت هذا خزانة لهم وضائق منها ورهم ، منهم الطبقة الحاكمة ، من الخلفاء والوزراء ، وصال الخلافة عيسى الأقاليم ، والطبقة المساندة لهم ، من رؤساء الجند ، وكتاب الديوان والقضاة ، ورجال الضرائب ، والطبقة التي تحمل على تثبيت الملك ورعي الدولة ، ونمضتها الفكرية والأدبية كالعلماء والمترجمين والكتاب والطبقات التي تمت إلى رجال الحكم والرياسة بواشجة كالضمران والمعتن ومن يدخلون البهجة والمسرور في قلوب الخلفاء ، وحاشيتهم ، من مخرجين ومضد كين ومقاة ، كما كان للطبقات التي تتحكم في أقوات الشعب من كبار التجار والصيارفة ثراء عريض ، فامتلكوا الأموال الطائلة ، والجياد الفارحة ، والضياع الواسعة . وسخر الجاحظ الذي أخذ بيدنا إلى تلك الحقائق ككبر موفور نفسه ،

(١) حدثني المصري ، وكان جار الدارديشي ، وماله لا يحصى . . .

(٢) قال المكي ، كان لأبي عم يقال له سليمان الكثير ، سعى بذلك لكثرة ماله . . .

(حدثني أحمد بن المعنى عن صديق لي وله ، ضخم البدن ، كثير العلم ، فاشي لثقة عظيم الولايات . . .)

فهؤلاء من بلغت أموالهم حدا لا يستطيع حصره ، وتسمت ضياعهم ، وهظمت ولاياتهم فما يمكن الوقوف على حدودها .

وهناك من كان وفرا الثراء إلا أنا نستطيع حصر أمواله ، وشعبته ثروته منهم أبو قطبة فقد كان أبو قطبة يستغل ثلاثة آلاف دينار . . .

(وأما زبيدة بن حميد الصيرفي ، فإنه استلف من يقال كان على باب دارة درهمين وقبواطا ، فلما قضاه بعد ستة أشهر ، قضاه درهمين وثلاث حبات شعير فاعتاظ البقال . فقال : سبحان الله ! أنت رب مائة ألف دينار ، وأنا يقال لا أملك مائة فلس ، وإنما أعيش بكدي ، وباستفصال الحبة والحبثين . . .)

(ومن طباطب البخلاء أحمد بن خلف البزهدى ، ترك أبوه في منزله يوم مات ألفي ألف درهم ، وستمائة ألف درهم ، وأربعين ومائة ألف دينار ، فاقصصها هو وأخوه حام قيسل كفته ، وأخذ أحمد وحده ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم ، وسبعين ألف دينار ذهباً عينا فقا قيل وأزنة جيا دا سوى الحروش . . .)

(١) البخلاء : الجاحظ : ضبط الحوامى والجام الجزء الثانى صفحة ٦٠

(٢) المصدر المذكور : صفحة ٤٣

(٣) المصدر المذكور : الجزء الأول صفحة ١٠٤

(٤) المصدر المذكور : الجزء الثانى صفحة ٢٩

(٥) المصدر المذكور : الجزء الاول صفحة ٧١

(٦) اعتقد أنه أحدث بن خلف المذكور فى رسالة القريش والتدوير قول الجاحظ (لئن نبضت بمصالح بن علي لأقضض بأحمد بن خلف) وعلى ذلك لمؤ من مشاهير رجال الدولة

وذكرى السلطة والنفوذ الذين يستحان بهم ويحتسب
(٧) كتاب البخلاء : الجاحظ : ضبط الحوامى والجام الجزء الأول صفحة ٧٨

وكان البعض يمتلك الأراضي الواسعة المساحة ، الكريمة التربة ، الجيدة الخلة ، لا لوفرة
الفتح ، (قال الخليل السلولي : أقبل على بيتا الثوري ، وكان يملك خمسمائة جرسب
ما بين كرمين الصدقة إلى نهر صرة ، ولا يشترى إلا كل فوة ، وكل أرض مشهورة بكرم التربة
وشرف الموضع ، والخلة الكبيرة) (٩)

ومن اقتنى : لجيان الواغرة العدد سلم بن قتيبة ، (وكان سلم بن قتيبة يركب بغلة
وحده ، وسعه أربعة آلاف رابطة ورأه الفضل بن عيسى على حمار وهو أميره فقال : بذلة
نبي وقمود جبار) (١٠)

وقد حصل الجاحظ نفسه على الأموال الطائلة مما كتبه للخلفاء والوزراء والقضاة
وجوهر الدولة ، ويروى ذلك عن نفسه قائلا : (أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن محمد
لملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي
إبراهيم فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزنن والتخل إلى إبراهيم بن الحباس
الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار) (١١) انصرفت إلى البصرة ومضى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد
ولا تسويد (١٢)

٢- ويحرف أن البخل قد تمكن من نفوس كثير منهم ، وأن الخج ضرب قبابه ودق أوتاره ،
وأقام معهم ، وملك على بعضهم عقله وحسه ، فلا يفكر إلا في المال ، ولا يحضر أن يتحرك

(٨) أبو عبيد الرحمن الثوري وكان تاجرا من تجار البصرة وسريا من سواها .
أ. كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجامع الجزء الثاني صفحة ٥

(٩) كان أبوه من أمراء الدولة العباسية ، وكبار القاتحين فيها ، وتولى هو البصرة في
آخر عهدها . وفي عهد العباسيين ولاه أبو جعفر المنصور عليها .

(١٠) كتاب البخل ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجامع الجزء الثاني صفحة ١٦٥

(١١) صحيح الأدب : ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ١٠٦

إلا لجمعه وخزنته ، وحبيته حتى عن عياله ونفسه ، وقد أرا قمره ، مع وفرة ماله ، وكثرة ناطقه
 وإقامته ، وقد ألف الجاحظ كتابه البخلاء ، وصح فيه بأسماء بعض مشهورهم في عصره ، يخاص
 في أصنافهم ، فاستخرج مكونات نفوسهم ، وكشف مدعى السخا ، وأصحاب النج منهم ، وقد
 استعظمنا بما كتب في ذلك السفر الجليل أن تقف على هذا اللون من العيوب الاجتماعية
 في عصره ، وتعرف مدى تغلفه في أبنائه جيله ، وما كان لهم فيه من فنون ، بلغت حد العجون .
 فهذا أحمد بن خلف الذي ورث آلاف الدراهم والآلاف الدنانير سوى العروض يتحدث عنه
 الجاحظ قائلا : (نقلت له وقد ورث هذا المال كله ، ما أخطأك الليلة ، قال : لا والله ،
 إلا أنني تمسيت البارحة في البيت ، نقلت لأصحابنا ، لولا أنه بعيدا لبعثت بالأكل في بيته ،
 وأن ذلك غريب منه ، لما احتاج إلى هذا الاستثناء ، وإلى هذه الشريطة) (١٢)

وهذا أحمد بن المشي الذي حدثنا عن صديقه وصديق الجاحظ وكان فاضل الخلة ،
 عظيم الولايات يقول عنه : (إنه إذا دعا على ما كدته بفضل حاجة أو بفضل رفاق ، أو غير ذلك
 رد الخادم مع الخباز إلى القهرمان ، حتى يصبك له بذلك إلى صاحب المطبخ) (١٤)

وخالد بن يزيد مولى الميمالية - هو خالون المكدي ، وكان قد بلغ في البخل والتكدية
 وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد) (١٥)

وآخرى تاجر البصرة الوافر الثراء ، والذي كان يملك خمسمائة جريب من أجود راضي
 البصرة ، وأكثرها خلة عيادتنا عنه الخليل السلولى قائلا : (أقبل على يرمي فقال لسي
 حل اصطبحت بلاء الزيتون قط ؟ قال : قلت : لا والله ، قال : أما والله لو فعلت ما نسبته
 قال : قلت : أجل ، إني والله لو فعلت ما نسبته) (١٦)

(١٢) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، ضبط ، مؤامري والجام الجزء الأول صفحة ٧٨

(١٤) المصدر المذكور صفحة ١٠٤

(١٥) المصدر السابق صفحة ٨٥ ، وتحقيق العاجري ص ٤٦

(١٦) كتاب البخلاء ، الجاحظ ، مؤامري والجام ، الجزء الثاني صفحة ٥٥

وقد كان أحمد بن الخاركي بخيلاً ، وكان ثغاباً - وهذا أقيظ ما يكون منه - وكان
يتخذ لكل جبة أربعة أزرار ، يرى الناس أن عليه جبتين ، ويشتري الأعداق والمراجلين
والسيف من الكلاب ، فإذا جاء الحمان إلى بابه تركه ساعة ، يوم الناس أن له من
الأرضين ما يحتمل أن يكون ذلك كله منها (١٧) ، ويقول أبو عثمان (كان أبو سعيد المدايني
إماماً في البخل عندنا بالبصرة وكان من كبار المسلمين ومياسيرهم) (١٨)
قد احتكر مواال ، وعظموه وقد سوه ، حتى صار سمعهم وبصرهم تنق قلوبهم على أنفهم
بنيته وتتردد ، أنفاسهم في صدورهم مع تردد الدرامم والدنانير في مخزائهم ، واعتبروه كما
قال الجاحظ ، (الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رعي الدنيا) (١٩) وكما قال حمدان
بن صباح ، كيف صار رباح يسمحن ولا أسمعهم ، فأنفقوا أكثر مما أنفقوا (٢٠) واعتبروا الدرهم
أساس الثروات (وهل اجتمعت أموال بيوت الأموال إلا بدرهم من ههنا ، ودرهم من ههنا) (٢١)
وإن الدرهم يرتفع إلى دية مسلم ، (سأل خالد بن حفص أن رجل فأعطاه درهماً ، فاستقله
السائل ، فقال : يا أحمق ! إن الدرهم عشر الفسرة ، وإن الفسرة عشر المائة ، وإن
المائة عشر الآف ، وإن الآف عشر الفسرة الآف أما ترى كيف ارتفع الدرهم إلى دية
مسلم) (٢٢) وإن في تعظيم الدرهم تعظيم للإسلام ، فكان الدرهم عندهم هو الإسلام

(١٧) المصدر المذكور صفحة ٤٩ -

(١٨) البخل ، تحقيق الحاجري صفحة ١٢٧

(١٩) المصدر المذكور صفحة ١١٦ الجزء الثاني ، ضبط المواضع بالجام

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ٤٨ الجزء الثاني ، ضبط المواضع بالجام

(٢١) المصدر المذكور ص ٦٥ ، تحقيق الحاجري ص ٣١

(٢٢) البخل ، الجاحظ ، ضبط المواضع بالجام الجزء الثاني ص ٨٦ ، وفي المزمع
في علم اللغة لجلال الدين السيوطي الجزء الثاني ص ١٢٧ مطبعة محمد علي
صبيح

والدين ، (إني لما غلبتني يوما شيموتي ، وأخرجت يوما درهما لقضاء وطري ، ووقعت بيني
علي سكتة ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت في نفسي : إني إذ أن لعن الخاسرين الضالين
لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئا عليه " لا إله إلا الله " وأخذت بهدله شيئا
ليس عليه شئ ، والله إن المؤمن ليرثه خاتمه للأمر بريد ، وعليه " حسبي الله " أو " توكلت
على الله " فيظن أنه قد خرج من كف الله " جيل ذكره " حتى يرد الخاتم في موضعه ! وإنما
هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهما عليه الإسلام كما هو ! إن هذا
لمعظم (٢٣)

..

..

..

٢- ونحرف أنه إذا كان هؤلاء قد ضيقوا على أنفسهم وفي أموالهم فضل ، وهذا هم نفس
المال والمتاع ، والضياح متسع ، فإن غيرهم من حاز الثروات ، وملك الأموال ، قد سخا
وجاد ، وأنفق الأموال في الكلال والعمام ، وتفتح بها ، ولها حتى وصل إلى الخرق
والسقم وقد اتسم المصركه بما لمعرف والترق ، وأمتلأ بمظاهر الفخامة والأبهة ، والمتسع
الحسية التي ملبوا منها ، وانغمسوا فيها ، فأكثروا من الجوارى والقيان ، واتخذوا الإماء
والغلمان وانتشرت تجارة الرقيق ، وكان لهم الخصيان الذين يقومون بخدمة نساءهم
وخدمة نسائهم وإمائهم ، حيث تهيأ القوة والجلد ، والانتهاك على النساء ، وانتشر الخفا
وأهمل الخاسون بالجوارى اللاتي يصلحن للرقص والألحان ، فحلموهن ، وأكدهن ، وقالوا
في أثمانهم ، واشتد إقبال الخفا ، وعلية القم على اقتنائهم ، وقد أقيم سرقة القم وزلاهم
بالصيد والقنص وتربية البزاة والصقور والكلاب ، واتخذوا الحمامات في الدور ، وأقاموا عليها
وظائف التلج ، وملكهم الجاحظ من سخرات بيتوتة في كتبه المديدة قد أرشدنا إلى هذه
الأكوان من حياتهم الاجتماعية . يقول : (باع نخاس من أعراى غلاما ، فأراد أن يتبرأ
من ميه ، قال : اعلم أنه يبطل في القراش . قال : إن وجد فراشا قليل فيه (٢٤)

(وكانت ههنا ما عند القنصل إذ جاءت جارية أمه) (٢٥) وكان الممدى يحب القيان وسامع
الفتاة ، وكان معجبا بجارية يقال لها جوص (٢٦) .

وليس أرى على اتخاذ الإمام والجواري والقيان وانتشار ذلك في مصر المباحس
مما كتبه الجاحظ في رسالة كاملة سماها (٢٧) رسالة القيان ، وما جاء فيها (لم ينزل للملوك
والأشراف إمام يختلص في الحوائج ، ويدخل في الدواوين ، ونساء يجلسن لنا مثل خالصة
جارية الخيزران ، وعتبة جارية ربيعة ابنة أبي العباس ، وسكر وثركية جارتى أم جعفر
ودقاق جارية المباشرة ، وظلم وفسططينية جارتى أم حبيب . . . وحمدونة أمة نصر
بن السندی بن شامك . . . ولقد نظر العالمون إلى سكرتقان ، أحررة أنت أم ملوكة ، قالت
لا أردى إذا غضبت على أم جعفر قالت : أنت ملوكة ، وإذا رضيته قالت : أنت حرة) (٢٨)
وقد راجت تجارة الرقيق (فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومة والمشاركة بالثمن
ويحتاج البائع والمشتري أن يتفقيا الملق ويتأمله تأملا بينا يجب فيه خيارا لروية) (٢٩)
وامتلك أغنياء الدولة آلاف منهم فقد (أهدى محمد بن سليمان بن البصرة إلى الخيزران
مائة وصيفة في يد كل واحدة منهم جام من ذهب وزنه ألف مثقال ملوكة مسكة) (٣٠) .

(وكان لجعفر بن سليمان ألفا عهد من السودان خاصة ، فلم يكون ليت شعري غيرهم
من البهيض ومن الإمام) (٣٠)

(٢٥) البخل : الجاحظ ، شرح العوامى والجلال ، الجزء الثانى صفحة ٢٧

(٢٦) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق دارون الجزء الثالث صفحة ٣٧٠

(٢٧) ثلاث رسائل من ع ٥٢ إلى ٧٦ .

(٢٨) ثلاث رسائل من ٦٢ .

(٢٩) المصدر المذكور ص ٦٥

(٣٠) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندوين من ١١٥ من كتاب الجاحظ فضل هاشم على عهد

عاد عليه بالإطارة والصب ، وكان يقول : خمشنى أرضيها ، خمشنى من يشى ، وبقى أبدا ،
ووشى أخف ، وأنا أفضلهم أيضا بفضل الحكمة وجود الآلة (٢٦)

٢- ونعرف أن حدة الكين قد فترت ، وأوامره قد تركت ، ومن أهم مظاهر ذلك : تماطى
التهيد والخمر ، ونجسها وشرابها ، والتشاد ذلك بين طبقات المجتمع ، وعلى رأسهم
الخلقاء والزوايا ، واقتضا ، وفتحوا فى صنعها وتغييرها وتمتيعها وشربها صابحا وصاء
وقبل الأكل وبعد ، وفى أثنائه ، وحتوا على شربها ، فقد قال الجاحظ : (عدل عادل شبيب

بن زيا ، على شرب التهيد ، فقال : لا تركه حتى يكون شرعى) ، (وقال الباقون : أشربه
ما استشعته ، فإذا سئل عليك فتركه) (٢٧) قال ابن جمانة الثقفية : عجت من ينع
التهيد طالبه ، لأن التهيد إنما يطلب البهر فصد ، أو يوم حجابة ، أو يوم زيارته زائداً أو
يوم أكل سكا طرى ، أو يوم شربة دواء ، وهو شى . يمدن طلبه ، وتمد من هبته ، ويمد من
موقفه (٢٨) . ويحدثنا الجاحظ عن ثامر بن جعفر فيقول : (وشرب مرة التهيد ، وشاء
المشى ، فشق قميصه من الطرب ، فقال لولى له يقال له التخلل وهو إلى جنبه : شق
أيضا أنت سويلك تهيدك) (٢٩) . يقول : (كان كثيرا ما يقول لندائه : إياكم والأكل على
الخمار فلا تروا الخمار والشرب) (٣٠) (وسكر ليلة ليلة فكسا ضد يقاله فصيحا) (٤١) .

- (٢٦) كتاب البخل : صفحة ٣ ، ٤ ضبط المواوى والجامم الجزء الثانى .
(٢٧) البيان والبيان : الجاحظ : تحقيق عهد السلام محمد هارون الجزء الثانى ص ٨٢ .
(٢٨) البخل : الجاحظ : شى المواوى والجامم الجزء الثانى صفحة ٥٨ ، ٥٩ .
(٢٩) المصدر المذكور صفحة ٢٧ .
(٣٠) المصدر المذكور صفحة ٣٤ .
(٤١) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٢٢ .

(يقول المروزي للزائر إذا أتاه وللجليس إذا ظال جلوسه : تخديت اليوم ؟ فإن قال : نعم قال : لولا أنك تخديت لخديتك بغداداً طيباً وإن قال : لا قال : لو كنت تخديت لسقيتك خمسة أقداح) (٤٦) .

وكان أحمد بن الخاركي (يكثر في قدور الخمارين التي تكون للتبذير ثم يتعدي أعظمها) ويهرب من الحمالين بالكرا (٤٣) . وكان محمد بن أبي العليل (كثيراً ما يقول لأصحابه إذا بكروا عليه لم لا تشرب أقداحاً على الريق فأنما تقتل اليدان وتغفل لأنفسنا قليلاً فأنما تأتى على جميع الفضول ، وتشبه الطعم بعد ساعة) (٤٤) .

بل لقد كتب الجاحظ رسالة في مدح التبذير بحث بها إلى الحسن بن وهب ومنها : (إن التبذير إذا تمشى في عظامك ، وأنت تبس بأجزاءك ، ودب في جناتك طعمك صدق العس ، وفراغ النفس ، وحملك رضى الهال يخلو الذرع ، قليل الشواغل قدير المهن ، واسع الصدر ، تسبح اليوم ، حسن الظن) (٤٦) . ورسالة أخرى في الشارب والمشروب (٤٧) .

•••

•••

•••

وتعرف من سخريات الجاحظ ، طوائف في ما تكلم ، وأطمعهم المحبة إلى نفوسهم وآداب الموائد في مجتمعهم ، ومدى احتفاء المباحين بالأكوان وتكلمهم في ضحكها ، والناسيات التي يطعمون فيها الناس ، ويجمعونهم على موائدهم ، ويخون فيها بالطعام ،

(٤٢) المصدر السابق صفحة ٤٥

(٤٣) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٤٩

(٤٤) البخلاء : تحقيق المصنف واللباس ص ١٨٤

(٤٥) رسائل الجاحظ : جميع حسن السند من صفحة ٢٨٥ إلى ٢٦٢ الطبعة الرحمانية

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ

(٤٦) المصدر المذكور صفحة ٢٨٨

(٤٧) رسائل الجاحظ : جميع حسن السند من ص ٢٧٦ إلى ص ٢٨٥

ينفقون فيه الآلاف .

فن منا سيات الإطعام ما ذكره الجاحظ في قوله ، (وربما كان إيتلافه في البرص والخس
والوليمة مما يرافقه في الإعذار وفي الحقيقة والوكيرة) (٤٨) ومن إسوافهم قوله ، (وقد رأيتاه ينفق
على مائدة تعرفنا كسب ألف درهم في كل يوم ، ويحده في كل يوم عرس) (٤٩)

وقد ينفقون في الموائد ، ويتأثرون فيها ، فتأثي على هيئة تشريح الصدور ، وضيق النفوس
جملاً ولم يدا ، محترقاً بشي الجباسع القم أن يمد يده إليها خشية إفساد تلك الروعة ،
ونفق هذه الهندسة ، والجاحظ يرى من واحد من هؤلاء أنه كان يتأثي في الكلام ،
(وينصفه صنعة ، وبديهة تهيئة من لا يريد أن يفسد فضلاً على غيره ذلك) وكيف يجترأ الضرس
على إفساد ذلك الحسن ، ونفق ذلك النظم ، وعلى تفريق ذلك التأليف ، وقد علم أن حسنه
يوشم برآن جماله يبيح منه (٥٠)

وقد كانوا يحبون السمك ، ويخرمون به ولا يصبرون على بعده من طعامهم وبخاصة أهل
البصرة ، ومن أنواعه البني ، والزبد ، والشبوط والجواقة والثلاي ، ويقص علينا الجاحظ
قصة لمحمد بن أبي المول فيقول ، (اشترى مرة شبوطاً ، وهو بهشاد ، وأخذها فأنقصة
عظيمة ، وظل بها ... وارتفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهده يأكل السمك ، وهو يصري
لا يصبر عنه) (٥١) وكان الجاحظ في صباه يبيع السمك بسيحان بالبصرة :

(٤٨) كتاب الخلاصة ، ضبط الحوامي والجانب الجزء الثاني صفحة ٩٩

(٤٩) المصدر المذكور صفحة ١٠٠

(٥٠) المصدر المذكور ، الجزء الأول صفحة ١٣٠

(٥١) المصدر السابق صفحة ١٨٦

ومن ألوان الأطعمة المحببة إلى نفوسهم ، والتي يتسابقون إلى التهامها من على صدور المرائد ، ما تحدث عنه الجاحظ بقوله ، (وإن الطباخ ربما أتى باللون الطريف ، وربما قدم الشيء الضريب ، والمادة في مثل ذلك اللون أن يكون لطيف الشخص ، صغيرا لحجمه ، وليس كالطهيشتانية ولا كالبريسة ، ولا كالنجلية ، ولا كالكرنية) (٥٢)

ومن أجزاء الحيوانات والطيور التي يفضلونها في الأكل على غيرها ، ويعدونها أطيب ما فيها اللحم ، وكبد الدجاجة ، وكلية الجدى ، وفانصة الكركي ، وحبضة البقيلة ، وصدور الدجاج ، وشاكلة الحمل ، وسرة النضر ، وأسقاطا لقراخ ، ودهاغ رأس السلاء : (٥٣)

ومن آداب الموائد التي تجب مراعاتها ، وآداب من يشارك في المائدة أن لا يستأثر بها لخب ، ولا ينتهز بيضة البقيلة ، ولا يلتهم كبد الدجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلاء ، ولا يختطف كلية الجدى ، ولا يزدرد فانصة الكركي ، ولا ينتزع شاكلة الحمل ، ولا يقتطع سرة النضر ، ولا يعرض لميرون الرأس ، ولا يستولى على صدور الدجاج ، ولا يسابق إلى أسقاطا لقراخ ، ولا يتناول إلا ما بين يديه ، ولا يلاحظ ما بين يدي غيره ، ولا يتشهى الضرائب ولا يمتحن الإخوان بالأمور الثمينة ولا يمتلك أسرار الناس ، بأن يتشهى ما ضمن أن لا يكون موجودا) (٥٣)

ومن النصائح التي يأخذ بها الأباة ، والمديون صبيانهم وفتيانهم لاحترام من يلاكلونهم ما ذكره الجاحظ في قوله ، (أي ينبغي ، عود نفسك الأثرة ، وسجاءة الهدى والشهوة ولا تتهش بنش الأناس ، ولا تخصم البراءة من ، ولا تدم الأكل إدامه النعاج ، ولا تلثم لقم الجمال ... واحذر سرعة الكلمة ، وسرف البقعة) (٥٤) وفي قوله للأكل ، (إياك

(٥٢) المصدر السابق صفحة ١٢٤ ، ١٢٥

(٥٣) المصدر السابق صفحة ١٢٣ ، ١٢٤

(٥٤) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ١٩ ، ٢٠

ولهم الصبيان عوشره ١ لزراع ، وأخلاق النوائج ، ووعظك خبط الملاحين والفحلة ، ولبش
 الأعراب والمهنة ، وكل ما بين يديك ، فلما حقاك الذي وقع لك ، وصار أقرب إليك (٥٥)
 وفي نهاية من قبح المزاولة على لسان أبي فاتك ، (الفقى لا يكون نشافا ، ولا نشالا ،
 ولا مرسالا ، ولا لكما مولا مصاصا ، ولا نفاضا مولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مخرولا ، ولا محلقا
 ولا مسوقا ، ولا مبلعا ، ولا مخضرا) (٥٦)

باعتبار
 من الجمل

٦- وضرب ملامحهم وأنواعها كما أخبرنا الجاحظ في تشايف سخره حين قال : (يظنوا
 كل شيء لكر ، فانه أبقي) رأيت البيطنة الواحدة تقطع أربعة أقصص ، والعمامة الواحدة
 تقطع أربعة أز (٥٧) حين قال : (ومن الإصلاح الواجب قلب خرفة القلنسوة إذا اتسخت
 واجعلها حبرة فلانها ماله مرجوع) (٥٨) ويقول : (واشترت ملاءة مذارية ، فلبستها ما شاء
 الله رداء ، ولمحفة ، ثم احتجبت إلى طيلسان فقطعتها - يعلم الله - فلبستها ما شاء الله ، ثم
 احتجبت إلى جبة ، فجعلته - يعلم الله - ظمارة جبة محشوة) (٥٩) وفي قصة المراقبي
 مع العززي يقول المراقبي : (لعل إنكاره إياي لكان القناع ، فليس بفناءه وأبتدأ سأل نفسه ،
 فكان له أنكر . فقال : لعله أن يكون إنما أتى من قبل العمامة ، فنزعها ، ثم انتسب وحدث
 مسألة فوجد أنه آتد ما كان انكارا . قال : فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة) (٦٠) (وسكر زبيدة
 ليلة فكسا صدقائه قميصا . فلما صاروا لقميص على التذم خاب الهدوات ، وعلم أن ذلك من

(٥٥) المصدر المذكور صفحة ١٢

(٥٦) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ١٢٢

(٥٧) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ٨

(٥٨) المصدر المذكور صفحة ١٠

(٥٩) المصدر المذكور صفحة ١٠ ، ١١

(٦٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٤٤

هشوات السكر، ففى من سامة إلى منزله فجمعه بذكرنا لامرات (٦١).

(والخلفاء عمة ، وللقضاة عمة ، وللبقالين عمة ، والأمراب عمة ، وللأفقا عمة ، وللدوم والنصارى عمة ، وأصحاب التشاخي عمة . . . ولكن قوم زى . فللقضاة زى ، ولأصحاب القضاة زى ، وللخوطة زى ، وللكتاب زى ، وللكتاب الجند زى . ومن زهم أن يدركوا الحبور وإن كانت المبالغ لهم مفرضة . . . وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب ، فزهم من يلبس المعطنة ، وزهم من يلبس الدراعة فزهم من يلبس القبا ، وزهم من يلبس البازيكند ، ويعلق الخنجره ، يأخذ الجزه ويتخذ الجفة . . . وزى مجالس الخلفاء فى الشتاء والصيف لورش الصوف . . . وكانت لشعرا . تلبس الموشى ، والعطما ، والأردية السود وكل ثوب مشهور (٦٢) فقد عده الجاحظ من أنواع ملابس رجال ونساء عصره : القميص ، والمعامة ، والإزار ، والقلنسوة ، والعبرة ، والمطرفة ، والرداء ، والطهلسان ، والجببة ، والقناع ، والبرنكان ، إلى غير ذلك مما كان يستعمل فى عصره من خفاف ونعال مندية ، وازيكند ودراعة وقبا . . .

٢- الأوضاع السياسية :

عاش الجاحظ فى البصرة لها سن ، وامتدت حياته فقامه فتن من الزمان شهد فيها :
١- لدولة الصباسية إبان نهضتها ، وحفوا ن مجدها ، وقد جلس على كرس الحكم ففسد حياته اثنا عشر خليفة ، فقد ولد فى خلافة المندى ، وكان صبيا فى خلافة الهادى ، وشابا فى خلافة الرشيد حيث رأى مصارع الهراكية ، وشاهد المصراع بين الأمين والمأمون ومضر عصر المعتصم الذى قوى فيه نفوذ الترك ، وحدث الواثق الذى أبدى الاعتزال وناصره والمتوكل الذى ضعفت بهتة قوة الخلافة وهبطت ، وسيطرة بني العباس عليها ، تسم

(٦١) المصدر السابق صفحة ٧٢

(٦٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق حارون ، الجزء الثالث صفحة ١١٤ ، ١١٥

خلافة المنصور والمستعين والمعتز ، وما في خلافة المعتز .

ولقد كان للجاحظ شأن في الدولة ، وكان له في حكامها ، فقد جالس القضاة والوزراء ، وحدث بينه وبينهم صداقات ، كما جالس الخلفاء ، وصار مقربا منهم ، وأثورا عندهم ، يكتب لهم الكتب التي تريد ملكهم ، وتثبت دعائهم ، ويحضر مجالس التسميم وطربهم ، ويشارك فيها بمخمره ومضاميه ، واختلاطه هذا بالطقوس الحاكمة ، نتج عنه على أمور الدولة ، ففهم كثيرا من شئون الحكم والسياسة ، وشاهد انقلاب الحال بمرور الساعات القليلة ، ورأى الفتن تنسج ولد سائس تحاك ، والتكيد يكال ، وقدنا له منه جانب .

ومن ثانيا سخريات الجاحظ نستطيع أن نمشط ما كان عليه عصره من أوضاع سياسية ، - كان كبار رجال الدولة ينفلون في مناصبها فلا يثبتون على حال ، ولا يطمنون لما تجي به الأيام ، فلم يكن أحدهم يأمن على نفسه العزل ، وعلى أمواله المصادرة ، وعلى جسمه التعذيب والتكيد ، فقد ابتكروا آلات التعذيب ، التي تطمس في التعذيب إنسانيته ، وتجرد من الرحمة والشفقة وتطمس في التعذيب هيئته وصورته ، بل تصدقه بقاءا تذروه لرياح . وكيف يأمن ؟ ومن أثبت له أن يطمئن ؟ وهو يرى في كل يوم حادثة وكارثة ، ويشهد مصرع صديق أو عدو ، وسجن قائد أو وزير ، والنوب على خليفة أو وال ، وقتله ليحل غيره محله ، واستباحة أمواله وأهله ، وكلما تغير الخليفة تغيرت حاشيته ، واستبدلت بطلانته ، وطرد أتباعه من ديارهم ، ومزقوا كل منق . وشاهدنا على ذلك تنويع الزيات ،

فقد كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ثم للوائق من بعده ، وكان محمد صديقا للجاحظ ، فقد اتصل به ، وصاحبه ، وأهداه كتاب الحويان ، ولما مات الواثق ،

وتولى المتوكل الخلافة ، وكان في نفسه شيء من أبن الزيات كما كان عدوا للمعتزلة ، استطاع أحمد بن أبي دؤاد القاضي أن يستغل الموقف ويثير نار البغضاء ، ويسعسر

أثنى الغضب بين الخليفة والوزير ودفعه إلى ذلك كراهيته ابن الزيات لما كان بينهما من منافسات ، فأوفى صدر العسكر ، فأسقطه ابن الزيات ، وقتله به ونكل ، وبادخاله تنورا بداخله مساهرا محبوا ، كان ابن الزيات قد أمد له لحيق فيه خصومه ، فكان جزاءه ما يستحقه .

وهذا كذا في كتابه معجم الأدبا * طرفا من القصة فيقول :

(حدث إسحاق الموصلي ، وأبو العلاء قال ، كنت عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات ، فجيء يا لجاحظ مقيدا ، وكان من أصحاب ابن الزيات وفي ناحيته ، فلما نظر إليه قال ، والله ما علمت إلا امتا سببا للنخبة ، كعورا للصنعة مفعلا للمساوي ، وما فتني باستصلاحك لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويك ، وردا في داخلك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك . فقال له الجاحظ ، خفف عليك ، أريدك الله - فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك ، لأن أسوء وتدمن ، أحسن منك من أن أحسن نفسي . وأن تنفو عن حال قدرتك أجمل من الانتقام مني . فقال له ابن دؤاد ، قبلك الله ، ما علمت إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت نياحك أطم قلبك ، ثم اصطفت فيه التفات والكفر ، ما تأويل هذه الآية ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذتم ألم شديد ؟ قال ، تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاض . فقال ، جيئوا بحداد فقال - أعز الله القاض - ليفك عن أولي يدي ؟ فقال بمل ليفك منك ، فجيء يا لحداد ففتمز بعض أهل المجلس أن يحلف بساق الجاحظ ، ويطلب أمره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال ، أهل عمل شهرني يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساني ، وليس بجذع ولا ساجدة ، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه) (١) وكان الجاحظ قد هرب قبل ذلك خوفا من أن يناله ما نال صديقه ابن الزيات ، فلما قبض

عليه (قيل له: لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون لاني اثنين إلها في التور) (١) يريد
 تنورا ابن الزيات وشيخ الجامع ظالي ما وقع لأحمد بن حنبل من الخليفة المعتمد في مسألة
 خلق القرآن، فيقول: / فحين لم نكفر إلا من أوسمناه حجة، ولم نمتحن إلا أهل النجدة،
 وليس كشف التستر من التجسس، ولا امتحان الظن من هتك الأستار، ولو كان كل كشف
 هتكا، وكل امتحان تجسسا، لكان لقاضي أختك الناس لستر، وأشد الناس كشفًا لمورة
 ولذين خالفوا في العرش إنما أرادوا نفي التصبية فخطبوا، ولذين أنكروا أمر الميزان
 إنما كرموا أن تكون الأعمال أجساما وأجراما غلاظا، فإن كانوا قد آجأها فلا سبيل
 عليهم، وأن كانوا قد أخطبوا فإن خطأهم لا يتجانبهم إلى الكفر، وقولهم وخلافهم
 بعد ظهور الحجة تشبيه للخالف بالخلق، فيبين المتدين أبن الفسق (٢) لأعلامه خطيب الرضا
 ٢- وكان للخلفاء والحكام أعداء يكيدون لهم، ويتهمون أخطائهم، ويحرضون عليهم
 لضراكتهم، أو للارم في طعائهم، وقد يكون السلطان عادلا، رحيبا بدميته،
 ولكن رجالا منهم يريدون الحصول على غير ما يملكون، ولا استيلاء على ما لا يستحقون،
 يرضون أنفسهم فوق قدرها، ويحسبون أنهم هم حصوا حقوقهم، فيثألون على السلطان
 وينقمون ويخطون ويشتبهون، وقد بين الجاحظ ذلك في رسالة إلى الفتح بن خاقان حين
 قال: (إن السلطان لا يخلو من مثاول نائم، ومن محكم عليه ما خط، ومن ممدول من الحكم
 زار، ومن متعطل متصف، ومن معجب بآية، ذي غطل في بياضه، مولع بتجوين الصواب
 والاعتراض على التدبير، حتى كأنه رائد لجميع الأمة، وكل لسان السلطنة، يضع نفسه في
 موضع الرقيب، وفي موضع المتصف على الخلفاء، والوزراء، لا يحذرون كان مجال العذر

(١) مجمع الأدباء، ياقوت، الجزء السادس عشر صفحة ٧٩، ٨٠

(٢) أمراء البيان ج ٢ ص ٢٦١

واضحاً ، ولا يقف فيها يكون للشك محتجلاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب
 وأنه لا يعرف ما درأ لأى من لم يشهد موارده ، ولا مستديره من لم يعرف مستقبله . ومن
 محروم قد اضطفته الحيوان ، ومن لثم قد أفسد الإحسان ، ومن مستبطن قد أخذ أضاف
 حقه ، وهو لجبله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن
 حقه لموجب ، ومن مستتردد كـ لوار جميع للسلطان سالف أيامه البهيم عندده ، وجمعه
 السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً ، قد غره الإملاء ، فأهبطه دوام الكفاية ،
 وأفسده طول الفراغ ، وصاحب فتنة خامل في البرية (١٠٠) (٢)

وكان الخليفة يقف حائراً في موقفه من هؤلاء ، ومن وزرائه وبلانته وصنائعه ، وقد تكون
 هناك خيانات في صلب الملك لا يستطيع الخليفة كشفها ، فيكون موضع سخط وسخط قد من
 الرعية ، مع بره سادته ، ورعايته شئون دولته ، (حدثنا أحمد بن أبي دؤاد قال ، قال لى
 المؤمن ولا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزراءهم هؤلاء يستطيعون أن ينظروا بالعدل
 بين الملوك وساداتهم وقاداتهم ، وبين عشائهم وظانهم ، وذلك أنهم يدرون ظاهر حرمة
 وخدمة ، واجتبا د وفضيحة مودون إيقاع الملوك بهم ظاهراً ، حتى لا يزال الرجل يقول :
 ما أوقع به إلا ضربة في ماله ، أو ضربة في بعض ما لا تجود النفس به ، ولعل الحسد والملافة
 وشبهة الاستبداد اشتكرت في ذلك . . . وهناك خيانات في صلب الملك ، أو في بعض
 الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للمعانة موضع المودة في الملك ، ولا أن يفتح لتلك المعونة
 بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد وعلى علمه بأن
 طوره غير مبسوط للمعانة ، ولا معروف عند أكثر الخاصة (١) (٢)

(٢) مجموعة رسائل ، الجاحظ صفحة ٢٠

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٧ .

باعتبار قدرها بالزمان

٣- وكان جند الدولة المدافعون عنها خليفاً من أجناس متعددة ، منهم العرب والترك والهنود والخراساني والمولى ، وكانوا متعددين متعاضدين حين كانت الخلافة قوية ، تقضى على زمام الحكم ، وتصرف شؤون الجند بحزم وصلاية ، ويقول أبو عثمان في كتابه " مناقب الترك وجامعة جند الخلافة) :

وذكرت أبقاك الله - أنك جالست أخطا من جند الخلافة وجامعة من أبناء الدعوة ، وشيوخاً من جلة الشيعة ... وأن رجلاً من مرفى تلك الجامعة ... زم أن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام ، خراساني وتركى ومولى وبنوى ، وأنه أكثر من حمد الله وشكره ، على إحسانه وشعبه ... حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناس المتباينة ، والأهواء المتفرقة (٥)

وكان الجند في مبدأ الأمر لا يلتفتون إلى هذه التفروقة كثيراً ، ولا يؤثر فيهم اختلاف الجنس تأثيراً يلقى بهم إلى اللدائس والخيانة أو القتل ، وإنما كان وكدهم الدفاع عن الإسلام ، ومن خليفة المسلمين ، بل لقد حاول كثير من مفكرى الأمة ، وشعب الجاحظ ، أن يهدم هذه الفوارق أو يخفف من حدتها ، أو يقرب بين هذه الأجناس ، ويوحد الصلات والوشائج التي تجمع شتاتهم . يقول الجاحظ مخاطباً ابن خاقان : (إنك اعترضت على هدنة المتكلم المستبد ، وعلى هذا القاتل المتكلف ، الذى قسم هذه الأقسام ، وخالف بين هذه الأركان ، وفصل بين أنسابهم ، وفرق بين أجناسهم ، واعد بين أنسابهم ، وأنسك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقذعت أشد القذع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من سن الاتفاق أو من شئ يقرب من الاتفاق ، وأنتك أنتكرت التبايد في النسب ، والتباين في النسب ... وزعمت أن اختلاف التركى والخراساني ... كالاختلاف ما بين الطائسى الجبلى والطائسى السبلى . وزعمت أن هؤلاء لم يختلفوا في بعض اللغة ، وفارق

بعضهم بعضها في بعض الصور ، فقد مخالفت عليا تسم وسفلى تسم وحجز حوازن ونصحاء العجاز
في اللغة ... وزعمت أنه أراد الفقرة والتخريب ، وأنت أردت الألفة والتقريب وزعمت أيضا أن
الهنوي خراساني ، وأن نسب الأبناء نسب آبائهم ... وأن الموالي بالمعرب أشبه ... وبولس
القوم من أنفسهم ، ولولا لمة لمة للتسبب ... ثم زعمت أن الأتراك قد شاركوا هؤلاء القوم في
التسبب وصاروا من العرب بهذا السبب ... على أن ولاد الأتراك للهاب قد شروا لمصاص عهد
شافي (٦) .

ما المبررة ؟

٤- وكان للدولة عدة دواوين لتظيم شئونها السياسية ، وتصريف أمورها الحربية بتوجيه
المكاتب ، وتظيم الحساب ، وتحديد الأرزاق ، منها : ديوان الإنشاء ، وديوان الجند ،
و ديوان الخراج ، ولكل ديوان رئيس يتولى تنظيمه ، ويشرف على إدارته ، وتحت يده عدد من
المكاتب يوجههم ويرشد لهم ، ويتقادون له ، ويصرفون بأمره ، يقول الجاحظ ،
(ومن كتاب الجند محمود بن محمد الكرم^(٧)) . وشهم زيد بن أيوب الكاتب ، عمل في ديوان الجند
أربعين سنة ، ثم صار في آخر أيامه قوادا ، يحيى بن أكرم القاضي^(٨)) (واستكتب الرشيد يزيد
بمادة ان علي ديوان الخراج^(٩)) (ثم لم يبقوا بهذا كاتبة حتى ولي المأمون ، فقسم محله
ابن أبي البعاس الطوسي ، فهو انتشرت اسماءه بالعراق ... واستخلف حفص بن علي
ديوان الخراج ، وكان ركهما لسمائته ... وكتب لهم عمرو بن سمدة وكان رسائليا ثقلا^(١٠)) .

(٦) المصدر السابق صفحة ٢٢ و ٢٤

(٧) ثلاث رسائل ، الجاحظ ، نشر يوتج فنكل ، الطبعة الثانية سنة ١٢٨٢ صفحة ٤٩

(٨) المصدر المذكور صفحة ٥٠

(٩) المصدر السابق صفحة ٤٧

(١٠) المصدر السابق صفحة ٤٧ و ٤٨

(واستقضى على ديوان الخراج والجند إبراهيم الحاسب ، والحمد بن أبي المشرف فلحق
إبراهيم من سائر الآداب والعلم علم الحاسب بقطر ، ولم يفرغ إليه من قضية ولا رأي حتى
هلك (١١) .

واشتهر كتاب الجند بالشعر والطبع ، وظالما ما يكون له السبب خفضهم ، والخط من
أقبحهم . يقول الجاحظ عن إبراهيم الحاسب كتب ديوان الجند ، (فكان الذي وضعه
وأدناه ، شرحه ، وحى علة قائمة في كتاب الجند خاصة) (١٢) . على أنه كان نهم من نبل
أخلاقه ، وارتفعت همته ، واشتهر بين أصدقائه وزملائه بالعفة وكلم الصبر ، وارتفاع الهمة
وظارت شهرته حتى وصلت إلى الخليفة ومن تلاه من خلفاء ، وذلك مثل المصطفى بن أيوب يقول
فيه ابن جرير :

(ولم يبلغني أنه كان في ولاية ديوان الجند ولا في كتابهم مثل المصطفى بن أيوب في
نبله ، وارتفاع همته ، وكلم صديقه ، وظالما ما جعل مذهبه ، وشدة صوابه ، حتى صبره وتحميه به
فكان الباقون يحرفون له ذلك ، ومن بعده من الخلفاء ، فثبتت طائفة من أئمة ولايته ،
وحمد أنه) (١٣) .

وقد كان صاحب الخراج ينال رزقه أضعاف أضعاف ما يناله صاحب ديوان الرسائل
كما كان رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج أضعاف ما يوزن المصدر لكتب الخليفة ، مع
نيل الكتابة الرسالية ، وعظم غنائها ، وأصالتها عند الخلفاء ، ولحتميتها ، إلى المكاتب
والعمارة ، وبذل الجند ، والتأنق والافتتان . يقول أبو عثمان : (وسبك بقو أنهم
أخصم في الرزق مرتبة ، وأعظم غناء أقلام عند السلطان خلا . يوزن صاحب ديوان
الرسائل - ولسمانه يخاطب الخلق - المشر من رزق صاحب الخراج ، ويوزن المصدر -

(١١) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٢) المصدر السابق صفحة ٤٨

(١٣) المصدر السابق صفحة ٥٠ ، ٥١

مخطه يكون جمال كتب الخليفة - الجزء من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج ، لا يحضر
 كاتب الرسائل لثابتة ، ولا يفرج إليه في حادثة ، فإذا أتم الزيادة التدبيره وتقرأ منها
 على التدبيره طرحت إليه رقعة بمعاني الأمر لتسقى فيه القول ، فإذا فرغ من نظامه ،
 واستوى له كلامه ، أحضر له محرراً ، فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأصبح السائل من
 الاختلاف ، فإذا انقضى ذلك فهما والمواضع (٢٤)

وفي عهد المأمون نال بعضا لجند أرواقا سنوية لا تناسب ما يقدمونه من خدمات و
 وما يقدمونه من جهده ، ودخل فيهم من ليس منهم من الأعراب والأنصار ، فعهد المأمون
 بتصنيفهم إلى حميد بن عبد الحميد ، ولكنه حكم بالمدى والمصيبة والتصنيف - فتعاضل
 عليهم ، وخفصاً زناهم ، ولكن المأمون تدارك ذلك ، وأمرهم بأعطياتهم تامة ، وقد دلتنا
 البياحظ على ذلك في قوله .

(وكان حميد بن عبد الحميد - عند دخول المأمون مدينة السلام - وحده مكون المهرج
 وغود الثائرة - رفع إلى المأمون ، يذكر أن في الجند مثلاً كثيراً ، من دخل فيهم
 بسبب تلك الحرب فـ... أيام الأجناس ، وهم قوم من غير أهل خراسان من
 تشبه بهم ، وأدى إليهم من الأعراب والبلغة ، ومن لا يستحق للديوان وقوم من أهل خراسان
 صارت لهم الخواص المشبهة ، لم يكن لهم من العنايا ما يستحقون به مثلاً ، وذكر أن بيت
 المال لا يحمل ذلك . رسال المأمون أن يوليّه تصنيف الجند ، ولم يكن مذهب حميد
 في ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقة على بيت مال المسلمين ، ولكنه تمصب على أبناء
 أهل خراسان ، واضطفن عليهم محاربتهم إياه أيام الحسن بن سهل من ولد محمد بن
 أبي خالدة وغيرهم ، وما كانوا قد انتحروا به من تلك الوقائع والمنازعات ، وما ذهب له من
 الأموال بذلك السبب ، فوال المأمون التصنيف ، وأمر للجند بمقتضى شمسهم ، فولس
 حميد الخطاء والتصنيف محمود بن عبد الكريم الكاتب ، وهو محمود ماضي حميد فتعاضل

على الناس ، و يستعمل فيهم الاحكام والايمان ، وخلص الارض الى ، و اسقطها عنواص ، و جعلت
في الكور ، و انسى على اهل الشرف والهيئات ، حسد الهم ، و شفا ، لفضل صاحبهم ، و انسى
على اهل الشرف والهيئات ، حسد الهم ، و شفا ، لفضل صاحبهم ، و تقصد لهم بالكور
والتعنت ، فاستمعت طائفة من الناس من التقدم الى المطاع ، و تركوا اسمايم و طائفة
انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراة ، و نسقط بذلك السبب بشركتهم ثم ان المؤمنين امر
للناس بتنام اعطيتهم ، و اكتسب سمود بن عبد الحكم المذمة و بار بالعتة في حال
يخداه و في مجالسها و طرقها (١٥) .

ف قد اتخذ الخلفاء والوزراء و لكتاب و رجال السياسة في الدولة العجائب ، و يقفون على
أبوابهم ، و يمنعون الدخول إلا بإذن من صاحب المجلس ، و قد اكتسبوا ذلك من الفرس ،
الذين أناموا العجائب ، إتاما لمظاهر الفخامة و العظمة ، و اعطاهم الحكم حبيب و عزته ، و طلبا
للأجفة لا يستعملهم ، و للشيء للنظر في شئون الدولة و دولته ، و العزف على أنفسهم أن
يشتالهم فشتال ، أو يتألمهم أحد بغيره .

و في أدب الجاحظ العاخر ما أرشدنا إلى هذا ، و أطلعنا عليه ، يقول : (خبرت
أن أبا المتاهية أتى يحيى بن خاقان يوما لهسلم عليه ، فلم يأذن له حاجبه ، و نائب صرف
وأناه يوما آخر فصادفوه حين نزل ، فسلم عليه ، و دخل يحيى إلى منزله ، ولم يأذن له ،
فكتب إليه أبا المتاهية من ساعته رقعة فيها :

فما هذا بدولك من خيالي
ألا لك الأمان من السؤال
لا طلب مثلكا بدلا بحالي
بأيهما شئت فما أبا ليس

أراك حين ترى خيالي
لعلك خائف مني سؤالا
كعبتك إن حالك لم تل من
وإن اليسر مثل اليسر عندي

فلما قرأ يحيى بن خصالان رقبته ، ووثق بأمانه إياه من السلطان ألان له ، ونجى العاجب ،
فوجدته قد انصرف ، ولم يمت إليه ، ولا التقيا بعد ذلك (١٦)

وقد ألف الجاحظ كتابا كاملا في هذا الشأن سماه (كتاب العجائب) وما جاء فيه ،
(حجب ابن أبي ظاهر باب بعض الكتاب) (١٧) (وحجب أبو المتظمية باب أحمد بن حسن
يوسف الكاتب) (١٨)

(تلى أبو حنبل لعلي بن يحيى يعالته في سبيله .
أما حسن رقبا حقا بحق ككرويت المواقية
أحجب دونك شر العجا ب وتدخل دون بنو المتظمية (١٩)

وقد كان للبرامكة وزراء^١ لو شيدوا الأمانى الطولى في ازدهار الدولة ، وصم الرخاء
وازدهار الحياة ، بما وهبوا الناس من مساحتهم وكبرهم ، وما أنفقوا على الأمهات
غيره حتى لقد كانت أيامهم رياض الأئمة كما يقول الجاحظ في قصته مع واحد من قيسية^٢
فلم يركب حيث قل له : (رحم الله أسلافك ، وأباك المسعور^٣ ، فقد كانت أيامهم رياض
الأئمة ، ولقد رأى بهم الخلق خورا كثيرا ، فسقوا لهم زواجا) (٢٠)

(١٦) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوثق فكل صفحة ٤٥

(١٧) رسائل الجاحظ : جمع حسن السندون : كتاب العجائب

(١٨) المصدر السابق صفحة ١٦٤

(١٩) المصدر المذكور صفحة ١٧٤

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٧٠

(٢١) مآذكر القصة في الفصل الأول من الباب السادس

بالخدمة التي كانت تؤديها في الجاهلية أسواق عكاظ وبيضة وذي السجار .
وكانت الوراقة صناعة رائدة ، والرواويون علماء ، أديبا ، مبرشون ، مرمون .
هذا إلى مجالس الأئمة والمفاكية ، ومباريات المناظرة والمعارزة .

وكان السجدة معونة علميا أديبا ، تشرح فيه العلم المنفرد والمفصلة إلى جانب العلم
الدنيوية ، وتتدارس فيه الأدب والشعر ، وتتحد فيه حلقات ملقمة من الرواة .

فإذا أضفنا إلى هذه الثقافات العربية الأصيلة ما وفد إليها من الثقافات الأجنبية ،

اليونانية ، والفارسية ، والهندية وغيرها ما وصل إلى أيدي المهاسين ومقولاتهم ، وأدراكها
المدى الواسع ، والآفاق الرحيب ، والانطلاق الذي تميز به الفكر والأدب والفن في ذلك العصر
ما كان له الأثر الفعال في غزارة الإنتاج وصفه ، ومهمنا الملاحظ مثلا على ذلك هو لغات
العديدة التي نشأت من لغات السلاف والآداب في إجادة وإحكام .

وكان لعلوم الكلام الأثر الذي لا يمحى في النهوض بالدين ، وتصحيح العقيدة ، وتثبيتها

في القلوب ، حيث يعتمد على البرهان والإقناع ، كما كان المشهد الذي أرفق قواعد المنطق
والاستدلال ، وارتقى بأداب البحث والمناظرة ، وانتدى بها إلى التقنين والتعميد .

ولم ينش ذلك من بقاء طبقة في الأمة ترتفع في جملتها ، وتميز في سذاجتها وقيلتها ،

وتفوق بالخرافات والأوهام ، وتتقاع للزيف والأباطيل ، وإن كانت سمة العصر علمية ،

وأديبها أدبية فنية ، إلا أن هذه الطبقة كان جملتها نسبيا ، لا إشاعات العلم من حولها

تلقى عليها بصيصا من نوره ، ويجعلها في منطقة الظل ، لا منطقة الإطلال .

وقد انتهر جماعة من الناس هذه الغفلة والجمالة ، فجعلوها مصدر رفق لهم ، فاحرقوا

المسودة ، وتخذوها بضاعة رائجة ، يبيعونها في سوق الجمل ، فيرمون ويثرون ، ولجأ

بعضهم إلى البخل والخدع ، يعطف بها قلوب الناس نحوه ، ويخفي نفوسهم بالهذل والمطام

فنيان منهم أصحاب ما يناله من حرقة يحرقها ، ومنه يمتدحها .

ولم يقع الثاقلون والجيال في الخرافات وحدهم ، بل وقع فيها العلماء والفسيون ،
والعذثون والمتكلمون ، وذب هؤلاء أقبح ، وحريتهم أرفع وأشجع ، وتعليم الجاحظ يسخره
وسلط عليهم شعاع عزته ففضحهم وأحرقهم .

وقد آن لي بحث هذا الإجمال أن أمد إلى التفتيد والاستدلال ، وأدلى التي
أستضيء بها في هذا الباب وفي الباب الذي يليه من تسع الجاحظ ، وما ذكرته في سخره
قد يقصد به ما إليه قصدت ، وقد يذكره وصلة إلى غيره ، وقد يجي به عرضا لمستطرادا ،
إلا أن منهجن - كما أسلفت - أن أستدل بسخره على غيره ، ولذا لوضوح الباب الخامس
كما أستدل به عليه ، وذلك موضوع الباب السادس .

فهنا بنا إلى سخره الذي استهبطنا منه ونشتط ما كان عليه غيره من علو ومخارف
ومقانات وآداب .

كان الكتاب المدرسة الأولى لتعليم الطفل وتربيته في العصر المباسي ، وكانت الكتاب
منتشرة في القري تعلم الأطفال القراءة والكتابة وحفظ القرآن وغير ذلك من المبادئ التي
تناسب عصر الطفل ، وكان يشرف على الكتاب معلم ، يقوم بتعليم تلاميذه وتوجيههم ، وقد
ألف الجاحظ كتابا في نوادر المعلمين^(١) وجاء في كتابه البيان والتبيين باب ضاوي^(٢) (باب في
ذكر المعلمين^(٣)) ، وباب ثان جعل عنوانه (باب منه آخر^(٤)) ، ونقل من الحكم والشعر ما
يلزم به ، ويحط من أقدارهم ، ويتعمد في قولهم وكرامتهم^(٥) . فقال : (ومن أشمال

(١) المستطردح (١) ٢٤ وما بعدها ، ثمرات الأوراق ١٨٠ ، الجاحظ في البصرة وخذاد

وسامرا ١٠٥ ، ١٠٦ أمرا ، البيان الجزء الثاني ص ٤٦٦ ، ٤٦٧

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٤٨

(٣) المصدر السابق صفحة ٢٥٠ (٤) هنا توسع في الجملة على المعلم ، وفي نسخة نفس الكتاب
بصورة واضحة .

الإمامة ، أحق من معلم كتاب ، وقد ذكرهم صلاب فقال :

وكيف يهجي الرأى والعقل عند من
يروح على أنثى ويخدع على طفل

وكيف يرجى الرأي والحقل عند من
يقول على أنى وجه من الوجوه (٤)
وقول بعض الحكماء : لا تستنبطوا محله ولا رأي ضم ، ولا كثيرا لقعود مع النساء

(وقد سمعنا قول بعضهم: الحق في الحاة والمسلمين والمزاولين. قال: «والحاة أقل وأسقط من أن يقال لها حق» وكذلك المزاولون لأن الأحق هو الذي يتكلم بالصواب الجهد ثم

من أن يقال لها معنى ، وكذا في قوله تعالى : (٥) وعلى ذلك نفس المعلمين من يتكلم بالصواب الجيد ، وتكون له في بعض
 الأحيان أخطاء فاحشة . وهذا هو رأي الجاحظ ، وقد استنقذه من حكاية من علم صهيون

في كتابه ، ولا أرى بأساً من إيرادها هنا ، قال : (دخلت يوماً مدينة ، فوجدت فيها مجلساً
في هيئة حرمته ، فجلست عليه ، فرد علي أحسن رد ، ورحب بي ، فجلست عنده ، واحتك في

القرآن ، فإِذَا هُوَ مَا هَرَفِيهِ ، ثُمَّ قَاتَمَتْهُ فِي الْفَقْهِ وَالنَّحْوِ وَهَلَامِ الْحَقُولِ وَأَسْمَارِ الْمَرْبِ ، فَإِذَا هُوَ
 فِي الْآيَاتِ وَقُلْتُ : هَذَا وَاللَّهِ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْهُ عَلَى تَطْيِيقِ الْكُتُبِ . قَالَ : نَكَمْتُ أَخْتَلَفَ إِلَيْهِ

وَأَمَّا الْبَابُ فَهُوَ مَعْنَى الْبَابِ وَالْأَبْوَابُ مَعْنَى الْبُيُوتِ وَالْأَبْوَابُ مَعْنَى الْبُيُوتِ وَالْأَبْوَابُ مَعْنَى الْبُيُوتِ

وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك . قد دخلت وخرجت وقالت : يا أسير الله قد دخلت إليه ، وأردأ به جالس ، فقلت : اعظم الله أجرك ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس

فوالدك ؟ قال : لا ، قلت : فأخوك ؟ قال : لا ، قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . قلت : وما هو

(١) المصدر السابق صفحة ٢٤٨.

(٥) المصدر المذكور صفحة ٢٤٩

(٦) يقصد كتابه في نوادر المحامين الذي كان قد ألفه على ما تقدمت به وعلى ما سيأتي

قال حبيبي . قلت : في نفسي ، هذه أول الناحية قلت : سبحان الله ! السماء كثيرة
وستجد غيرها . فقال : أظن أني رأيتها ^{قلت} هذه منحة ثانية ثم قلت : وكيف عرفت من لم
تراه ؟ فقال : أعلم أني كنت جالسا في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا
عليه برد ، وهو يقول :

يا أمم كرمي جزاك الله مكرمة ردى على فؤادي أيها الناس

لا تأخذين فؤادي تلحين به فكيف يلعب بالإنسان إيتانا ؟

قلت في نفسي : لولا أن أم صر هذه ما في الدنيا أحسن منها ، ما قيل فيها هذا الشعر
فمشتقتها ، فلما كان منذ يومين هو ذلك الرجل يحينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأمر صر فلا رجعت ولا رجع الحمار .

فعلمت أيها ما نت ، فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب ، وجلست في الدار ، قلت يا هذا ،
إني كنت ألفت كتابا في نوا دركم مشرا للمسلمين ، وكنت حين علمتكم عزمت على تكميله بوالآن
قد قويت عزيمتي على إيقائه ، وأول ما أبدأ بك إن شاء الله تعالى :

وقد قسم الجاهل مجلسي زفه إلى ثلاثة أنواع : ١- علموا أيها الخاصة : ٢- علموا

أولاد الملوك ، وهم جميعا في الطبقة العليا ثقافة وأنها ولما ، لا يتصفون بحماسة ، ولا تعزيم

ثقافة ٣- أما النوع الثالث فعلموا كتاب القري ، وفي هؤلاء حق ، كما أن فيهم ثقافة ، شأن

كل طائفة ، وكل أيها مدينة . يقول : (والمسلمون عدى على ضربين ، منهم رجال ارشعوا عن

تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارشعوا عن تعليم أولاد الخاصة

إلى تعليم أولاد الملوك) تنقسم المرشحين للخلافة ، فكيف تستطيع أن تزم أن مثل على بن

حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستور الذي يقال له قطرب ، وأشباه هؤلاء . يقال ^{يقال} لمع حمزة ؟

ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي ، ومنهم ، فإن ذهبوا إلى مجلس كتاب

التي ه فإن لكل قسم حاشية وسفلة ه فما هي في ذلك إلا كغيرهم ه وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء ه وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء (٧)

وقل ذلك فاني أجهل أن كلامه السابق عن حسن المسلمين إنما يقصد به من ندر منهم ومن شد من مملعي أولاد الجامعة فحسب ه الذين يخلطون في بعض الأحيان ويغفون ه أما الضمير اللذان ذكرهما ففي القمة والسفام ه ويلحق بهم غالب مملعي أولاد الجامعة فحسبهم

الشعراء والفقهاء ه والخطباء كما يقول ه وقد أعجب الجاحظ كل الإعجاب بمعلمين بالمصره لا يزال يذكرهما عند صباه ه ويحشد انكساراً قائماً بمعلمين حديثي عهد به حيث كان صبياً فحسب كتابهما ه يقول ه (وكان قدنا بالبصرة رجلاً أروى لصنوف العلم ه ولا أحسن بياناً من أبي العزيز وأبي عدنان المعلمين ه وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا) (٨)

وكما كان الكتاب المدرسة الأولى للتعليم والتثقيف في مصر المباس ه كان المسجد المدرسة الثانية ه يرتش إليها من الطلاب من جاوز المرحلة الأولى (٩) فيجد فيها شفاء نفسه وثقافته ه والمديد من الأساتذة ه الذين يدرسون شئ المعلم وأوان المعارف ه فيختاروا لأساتذة كما يختار المعلم التي يرضيها ه والآداب التي تصادف من نفسه هي ه ثم ينظم نفسه في حلقة من حلقات المسجد بين ه يسبح ونظم ويناقش ومعارض حتى يحلج عوده ه ويملك زمان نفسه ه

وقد أرشدنا سخرات الجاحظ إلى هذه المدرسة وما تدويه من علم في قوله ه (قال الخليل ه جلسنا لثوري إلى حلقة المعلمين في المسجد ه فسمي رجلاً من مباسيرهم يقول ه بطنوا كل شئ لكم ه فإنه أبش ه ولأمر جعل الله دار الآخرة باقية ه ودار الدنيا فانية) (١٠)

(٧) البيان والتبيين ١ الجزء الأول صفحة ٢٥٠ و ٢٥١

(٨) المصدر السابق صفحة ٢٥٢

(٩) البخلاء ه الجاحظ ه شمع المؤامري والجامع الجزء الثاني صفحة ٨٨ البخلاء ه تحقيق

وقد عقد الجا حظ فصلا طويلا من كتابه **الخلا** يجعل عنوانه : (قصة أهل البصرة من

(١٠)

المسجد بين) وفيه يقول (قال أصحابنا من المسجدين : اجتمع ناس في المسجد من

يتحمل الاقتضاء في النفقة ، والتمية للمال من أصحاب الجنب والتمتع . . . وكانوا إذا التقوا

في حلقهم تذاكر وهذا الباب ، وتطارحوه وتدارسوه) (١٠) ويقول في قصة عهد النور كاتب

أبراهيم بن محمد الله بن الحسن : (ثم صلى معهم في مصلاتهم ودخل ، ثم صلى بهم ذلك

وجلسه والضم عرب ، وكانوا **يفيضون** في الحديث فيه كرون من المشعوذ والساحد والمثل ، ومن

(١١)

الخبر الأيام واللقاءات)

ويقول : (وكان جعفر بن الحسن أول من اتخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن في مسجد

البصرة) (١٢) (ومن القصص موسى بن سيار الأسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته

بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه الشورى به . . . ثم قص في مسجده

أبو علي الأسواري وهو صديق قائد ستا وثلاثين سنة فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة فما

ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظا للمسير ولوجوه التواريخ ، فكان ربما يقرأ رواية واحدة

في عدة أماكن كان الآية ذكر فيها يوم يدر وكان هو يحفظ ما يجوز أن يلحق في ذلك من

الأحداث كثيرا ، وكان يقر في فنون من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك) (١٣)

نحدثنا عن أبي وائلة (أبا من معارية العزى القاضي القائف ، وصاحب الزكن ، والمعروف

بجودة الفراسة) (١٤) يقول : (أبى حلقة من حلق في شرق مسجد دمشق فاستولى على

(١٠) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٦٢

(١١) المصدر السابق الجزء الثاني صفحة ١٦٠

(١٢) البيان والتبيين ، شرح هارون الجزء الأول صفحة ٣٦٢

(١٣) المصدر السابق صفحة ٣٦٨ ، ٣٦٩

(١٤) المصدر المذكور صفحة ١٨٠

الجلسه ورواه احمد دسيا هاد البيهة نَشْفَانَا سَتِيَا لَوَايَه ، فلما عرفوه اعتذروا اليه وقالوا له : الذئب قسم بيننا وبينك واعتقنا في زي مسكين فكلمنا بكلام الملوك (١٤) . وقال رجل من أهل الشام : كنت في حلقة أبي سهر في مسجد دمشق نذكرنا الكلام وبراعته والقصص ونهاشم (١٥) . (ومن القصص : عهد الله بن عراوة بن عهد الله بن الرضين ، وله مسجد في بني شيخان) (١٦) . وقال شيخ من أهل المسجد : ما كنت أريد أن أجلس في قسم إلا وطمع من يحدث من الحسن وينشد للفرزدق (١٧) .

وإذا كانوا يتلقون المبادئ الأولية للمعلم والثقافات والكتابة الخطية في الكتابات ويتلقون المعارف وحفظ القرآن وتفسيره والأخبار والسير والقصص في المسجد ، فقد كانت هناك مدرسة ثالثة لتعليم اللغة العربية نطقاً وإيشاداً ، وتدريباً للسان على تجنب الزلل والمثارة وتعميداً والانطلاق ، وتنقيته من شوائب الألفاظ ، ومن اللحن والتعريف ، تلك هي مدرسة المريد . وهو سقى من أحواض العرب بالقرب من البصرة ، على فرار عكاظ في الجاهلية وكان الأعراب يقيمون به ، قال الجاحظ : (جن أعرابي من أعراب المريد) (١٨) ، وكان يقصده المتأدبون ليتلقوا الفصاحة مثالية من العرب الخضر ويطلبون على جيد الشعر ، ورائع الخطب ، ويتأملون فيها يكون من نقد وتوجيه ، فتطبخ العربية في آذانهم ، وتستقيم في ألسنتهم .

يذكر لنا أستاذنا الجاحظ هذا في قوله رواية من الجارود ، (قال : عليهم بالعرب) فإنه يظن الفكرة ، ويجلوا لبصره ، ويجلب الخبره ويجمع بين ربيعة ورضي (١٩) ومن أمثلة

(١٤) المصدر المذكور صفحة ١٨

(١٥) المصدر السابق صفحة ٢٦٤

(١٦) نفس المصدر صفحة ٣٦٨

(١٧) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٢٢٠

(١٨) المصدر المذكور الجزء الثاني صفحة ٢٥٤

(١٩) المصدر السابق الجزء الأول صفحة ٤٤٥

ما يرويه الجاحظ لنا من نقد حدث في العريد قوله ، (قاتل العجاج ابن الأشعث في العريد
نخطب ابن الأشعث فقال : "أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا لا كما يبق من ذنوب
الفرقة ، تضرب به عينا وشعلا ، فما تلبث أن تموت " . فمر به رجل من بني قشير ، فقال
" تعي الله هذا ورأيي ، يأمر أصحابه بقتل احترام من عدوهم ، ويهدم الأضاليل ، ويضيئ
الأبصار طيل " . وناس كثير يرون أن الأشعث هو الحسن بن القشيري (٢٠) يقول الجاحظ
عن نفسه (قد أدركت رواية المسجد بين والعريد بين ومن لم يرو أشعار الجانيون ، ولصوص
والأعراب ، ونسب الأعراب ، والأرباب ، والأقطعة القصار ، وأنصار الجند ، وأنصار النصفه ظرهم
كانوا لا يبتغون من الرواة ، ثم استبرأوا ذلك كله ، ووقفوا على قصار الحديث والقصاص
والنقد والتفت من كل شيء ، ولقد تدهت بهم وما هم على شيء ، أحرض منهم على نسيب العباس
ابن الأحنف ، فهاهم إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب ، فصار زهدهم في شعر
العباس ، بقدر زهدهم في نسيب الأعراب ، ثم رأيتهم منذ سنين وما يروى عنهم نسيب
الأعراب إلا لا حدث السن ، قد ابتدأ في طلب الشعر ، أو فتيان مشغول (٢١) . وهذا
عرض لنا الجاحظ المسجد والعريد ، وما كان يدور فيهما ، وكيف تطورت المادة التي تشد
وقال ، عبر من الزمان ، هو حياة الجاحظ ، الذي لاحظ هذا التطور ، وسجله في بيانه
وقد نبهت المناظرات العلمية في هذا العصر وكانت ولله العلم وكثرة الاطلاع ،
وكان يهدف بها إلى الوصول للحقائق ، وتجميع الآراء في رأي ، وقد دعا المؤمن إليها ،
حدث عليها ، وشارك بنفسه فيها ، وكانت له قدم راسخة ، وذهن وقاد . وقد عرض الجاحظ
لنا إحدى مناظراته مع المرتد الخراساني فأنعموا لجنة وأرسلوا إلى الإسلام بمناظرة أخرى

(٢٠) المصدر المذكور صفحة ١٥٥

(٢١) المصدر المذكور الجزء ١ لواء صفحة ٢٢

(٢٢) المصدر المذكور الجزء الثالث صفحة ٣٢٥ ، ٣٢٦

مع الزنديق الذي أخبره قال بعد ثلثيها (وجملة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين والزنديق

الذي كان يكنى بأبي علي ، ولد لك عندما رأي من تطويل محمد بن الجهم ووجز
المتبى ، وهو فديم القاسم ابن سيار ، فقال له المؤمن : أسألك من حرفين فقط ، خبرني
هل ندم موسى قط على إيسائه ؟ أو لكون نحن لم نندم على شيء كان مناقض ؟ قال : بلى
ندم كثير من المستنمين على إيسائهم . قال : فخيرني من الندم على الإيساء إيساء أو
إحسان ؟ قال : إحسان قال : قال : فالذي ندم هو الذي أساء أو غيره ؟ قال : الذي
ندم هو الذي أساء . قال : فأبى صاحب الخير هو صاحب الشره وقد بطل قولكم ، إن الذي
ينظر نظرا الوعيد غير الذي ينظر نظرا الرحمة . قال : فأبى أزم أن الذي أساء غير الذي
ندم . قال : فندم على شيء كان منه ، أو على شيء كان من غيره ؟ فقطعه بمسأله ، ولم
يثنى ، ولم يرد حتى مات (٢٣)

وكان للترجمة دورها الخطير في نقل الحضارات ، وإثراء الأفكار ، وتلاقح الآداب
ومعرفة الكثير من العلم والفنون ، والوقوف على عادات الأمم المنقولة عنها ، وطباعها ،
وتقاليدها ، والاستفادة من كل ذلك ، وقد صيرت اللغة العربية الكتب المترجمة ، وصيحتها
في قالب العقيدة العربية ، وأضافت إلى هذه العجينة المصهورة ، تجارب العرب وحضارتهم
وزكائهم ، وتركت عليها من بصائهم ، وصور عقولهم ، وألفاظ لغتهم ما جعلها تتناسب
إلى العرب من استحقاق ، وتلحق بهم لحاق الولد بأبيه ، ورت هيئته وسعته ، وطباعه
وروحه ، فصار صورة منه ، ونموذجا له .

وقد كثر المترجمون في العصر العباسي نتيجة الإثابة على ما يترجمون ، ونقلت
العلم والفنون والآداب ، وترجمت عن الهندية والفارسية واليونانية ، وإن كانت الترجمات

قد بدأت بخطى وثيدة وحلة في المصرا الأموي ، كما يقول الجاحظ في البيان والتبيين (وكان
 خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وفصيحاً جامعاً ، وجيد اللأى كثير الأدب ، وكان
 أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء) (٢٤) فقد انفتح باب الترجمة في المصرا المباس
 على مصراعية ، بسبب هذا الاختلاط والامتزاج بين العرب وسائر الأمم ، واجاء لغتين فأكثر
 ورفية في معرفة ما عند الأمم الأخرى من ثقافات ، يحفزهم في ذلك الرغبة في رفى الدولة
 وفتح لواء حضارتها وتشيها مع ما غيرها من ترف ورفى ، ثم ما أحتاج الترجمة فوجد من عزائدهم
 من غامر النعم التي شيع عليهم ، ووافر الأموال التي ينالونها جزاء الترجمة والنقل ، يقول
 الجاحظ : (وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحولت آدابنا للفرس ، فبعضها
 ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقى شيئا) (٢٥) . وقد قرأوا بالكتب المترجمة وروفوا لها
 تقدمها ورفوها ، وأنها المبرج الذي يصمد عليه البليغ والحكم والخطيق ليهل إلى السى
 الكمال . يقول : أبو عثمان ، (من أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويصرف الغريب ، ويشتجر
 في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروت . ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالعوائب
 والمبر والمثلث ، والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة ، فليأخذ في سيرة الملوك ، فهذه
 الفرس رسائلها وخطبها وألفاظها وسانيها ، وهذه يونان رسائلها وخطبها وملكها
 وحكمها وهذه كتبها في الضطق التي قد جعلتها الحكاء بها تعرف العرف من الصحة ،
 والخطأ من الصواب ، وهذه كتب الهند في حكمها وأحوالها وسيرها وملكها ، فمن قرأ
 هذه الكتب ، وعرف معنى تلك العقول ، وراى تلك الحكم ، عرف أين البيان والبلاغة

السابعة
 (٢٤) الخطيب والتبيين : الجزء الأول صفحة ٢٢٨
 (٢٥) الديوان / الجاحظ : الجزء الأول صفحة ٧٥

وقد كان أكثر النقلة والمترجمين من لا يمدن العربية ولا يفهمها ، وكانت ترجمته
إما ترجمة حرفية وهي لا تؤدي المعنى في استقامة وسلامة ، وأما ترجمة المعاني بفهم
فهمها واختيار الألفاظ العربية التي تؤدي هذه المعاني في وضوح ودقة ، وهذا النوع
من الترجمة هو الذي يجب أن يكون - على أن مهمة المترجم شاقة صعبة تتطلب معرفة
اللغتين واللغتين معرفة جيدة وذلك لم يكن متوفرا إلا في النادر كما يقول أبو عثمان ،
(إن المترجم لا يؤدي أبدا مقال الحكم على خصائص معانيه وحقائق مذاهبة ، ودقائق
اختصاراته ، وخفيات حدوده فلا يقدر أن يوفيهما حقوقهما ، ويؤدي الأمانة فيهما ، ويقسم
بما يلزم الوكيل ، ويجب على الجري ، وكيف يقدر على أدائها ، وتعلم معانيها ، والإخبار
عنها على حقها وصحتها ، إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصانيف ألفاظها
وتأويلات مخارجها مثل مؤلف الكتاب وواضعه ، فمضى كان ابن البطريق ، وابن نعمة ،
وأبو مرة (ابن مرة) وابن ندر ، وابن وهيل ، وابن العلق ، مثل أرسطاطاليس ، ومضى
كان خالد مثل أفلاطون ؟ ولا بد للمترجم من أن يكون بهانه في نفس الترجمة في وزن
علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمقول إليها حتى
يكون فيهما سواء رعاية ، ومضى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين علما أنه قد أدخل الفهم
عليها ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها ، وتمتدح عليها ، وكيف
يكون تمكن اللسان منها مجتمعين فيه كتمكه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة
فإن تكلم بلغة واحدة ، استغرقت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين على
حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أصغر وأضيق

والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البقة مترجما
 في واحد من هؤلاء العلماء ، وهذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللغون ،
 فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين (٢٧) وهذه الآراء تتطابق مع أحدث الآراء وأهمها
 في ترجمات الكتب في عصرنا الحالي .

على أن هناك من الأفاضل المدودين من كان يلاذى الترجمة على أحسن ما تمكن
 وكانت فصاحته في اللغة العربية المترجم منها توازن فصاحته في اللغة الفارسية المترجم إليها
 وقد عد الجاحظ من هؤلاء موسى بن سيار الأسواري قال عنه : (ومن القصاص موسى بن سيار
 الأسواري ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ،
 وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتعقد العرب من يمينه ، والفرس من يساره غيظاً الآية
 من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرهما لهم بالفارسية
 فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذاً اتقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة
 منهما الضم على صاحبتها ، إلا ما ذكرنا في لسان موسى بن سيار الأسواري (٢٨) .
 وكما كان المترجمون يجعلون على الجوائز السنوية والأعطيات الهدية ، فقد كان

كتاب العربية وشعراؤها ، وشماها خليفة ، يخطون بالبناء والمال معه وينعمون بقدرهم
 من الخليفة ورجال الحكم في الدولة ، كما كانت مجالس الخلفاء والانس ميدانا حافلا بأطبيب
 الأدب ، وشعبي المتن الروحية والجسمية . يقول الجاحظ عن نفسه : (أهديت كتاب الحيوان
 إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف ديناراً وأهديت كتاب البيان والتبيين
 إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف ديناراً وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم

(٢٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٧٥ ، ٧٦

(٢٨) البيان والتبيين ، الجزء الأول صفحة ٣٦٨

وكان الممدى يحيا لتيان وسام الغناء ، وكان محييا بجارية يقال لها جوهرة
 وكان اشتراكا من مروان الثاني ، فدخل عليه ذات يوم مروان الثاني وجوهرة تشبه فقال
 مروان :

أنت يا جوهرة عسدي جوهرة في بياض الدرة المستورة
 فأذا غنت فنار ضروست قدحت لي كل قلب شورة
 فأنشده الممدى ، وأمر به فدع عن عنقه ، إلى أن أخرج ، ثم قال لجوهرة : أطرهني . فأنشأت
 تقول :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأنت من كان فيك يلم
 وأبرزتني للناس ثم تركتني لوم غرضا أرى وأنت سليم
 فلما أن قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمي من قول الوشاة كلم

فقال الممدى :

ألا يا جوهرة القلب لقد زدت على الجوهرة
 قد أملك الله بحسن الدل والنظر
 إذا ما صلت يا أحسن في خلق الله بالزهرة
 وضيت فتاح الهمم لك من ربحك بالمنبر
 فلا والله ما الممدى أولى منك بالنسب
 فإن شئت فقل كـ خلق ابن أبي جعفر (٣٢)

وكان الخلفاء أنفسهم علماء أمثالهم ، وخطباء فصحاء ، ومناظرون بارعون ، وشعراء
 مجيدون ، ونقداء يزنون ما يسمعون بميزان قريحتهم الحسان الذي لا يخطئ ولا يحمس
 وكانوا يفتنون على مقدار الإجابة يقول المنصور لمن معجده فأعطاه فاستقل الأعرية أما
 نحن فلا تكلفي إلا بالتي هي أحسن (٣٢) . وقد رأينا من قبل مناظرتين للعالمون أخيراً فهما

مناظره وألفه الجنادل . كما رأينا نقد المنصور للشاعر ابن هرة ، كما سمعنا شعر المهدي في جاريته جوهر ، وإليك رأي الجاحظ في المنصور . قال ، (كان المنصور داهيا أريبا مصيبا في رأيه سيديا ، وكان مقدما في علم الكلام ، وكثرا من كتاب الآثار ، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين معروف عندهم) (٣٣).

وقد انتشرت العلوم في المنصور لباسي نتيجة النقل والترجمة ، وتشجيع المؤلفين بالعمل الوافر ، ولنا صب الرقيقة ، فكتبوا في الطب والكيمياء والحيل والنجم والفلك والهندسة ، وتناولوا جميع المعارف الإنسانية بالبحث والدرس والتدوين . ومن حديث خالد بن يزيد يروي الجاحظ بعض هذه المعارف ، (عرفت خدع الكائن ، وتدسيس الحراف ، والإلم بذهب الخطا والعياف ، وما يقل أصحاب الأكتاف ، وعرفت التجسيم ، وألحجره والطق والفكر ، إن هذا العلم لا يجتمع مثله أبدا إلا من مماناة ركوب البحر ومن مصل السلطان ، ومن كيمياء الذهب والفضة ، قد عرفت الرأس حق معرفته ، وفدست كسرا الإكثير على حقيقته ، ٥٠٠ سألقن إليك علم الإدراك ، وسبك الرخام ، وصنعة القسيفلاء ، وأسرار السيوف القلعية ، ومقاتير السيوف البانية ، وعمل القرموش ، وصنعة التلطيف على وجهه) (وسمعت أبا حكيم الكيمائي وهو يقول لشامة بن أسود : قلنا لكم إننا ندلكم على الإكثير ، فاستقلتم الخمر) (٣٥).

وفي كتاب الحيوان للجاحظ تعدد له لبعض الكتب والمعارف والعلم التي شاعت في عصره . قال ، (ها هنا كتاب من بيننا وبينكم مثل كتاب إقليدس ، ومثل كتاب جالينوس ، ومثل الجسطى . . . وسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والخطق والهندسة

(٣٣) المصدر المذكور ج ٣ صفحة ٢٦٧

(٣٤) كتاب البخلاء . الجاحظ ، ضبط العوامي والجامع ، الصفحات ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٩٠٨ الجزء

الأول .

(٣٥) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٦٠

ومعرفة السموم والفلاحة والتجارة ، وأبواب الأصباغ والخطوط والألات ، وهم أتوكس
 بالحكمة والمنفعة التي في الحمامات وفي الاضطرابات ، والافسطونات وآلات معرفة السمات
 وحكمة الزجاج والنسج ، والاسرج والزنجفور والازورد ، والأشربة والأنهجات والأيا رجات
 ولكم المعينا والنشادر والشبه ، وتحليل الحيطان والأساطين ، وروما مال منير إلى القوم
 ولم صبا الزنج ، واستخراج النشاستج ، وتحليل الخيش ، واتخاذ الجمازات ، وحصل
 الحركات (٢٦) .

واهتموا بالكتب ، وشدوا في طلبها ، وحشدوها في خزائنهم وتنافسوا في اقتنائها ،
 وفي غلاء سحرها في ذلك الزمن الذي كان يعتمد على النسخ ، وانتشرت الورقة ، وراجت سوقها
 بين الرافدين من بينهم طائل الأموال ، يقول أبو عثمان : (حدثني موسى بن يحيى قال :
 ما كان في خزانة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ) (٢٧) .

وقد برعوا في الطب ، وتقدم على أيدي مشاهير رجاله في ذلك العصر ، ولاسي راجا
 وانتشارا ، واستخرجوا الحقاير من الأعشاب وغيرها ، واستنبطوا الأدوية بالخلط والتقوير
 والتخمير ، واتخذوا الصيدليات معامل لأدويتهم ، وتاجر لبيعها ، وقد كان النصارى ممن
 غير العرب كسلوية ، وابن ماسويه ، ويختشع بن بيزيل وششون وشكة وازيز قد اتخذوا
 الطب كمالهم ، ووفقا عليهم ، ومن كان مسلما ، وامتنع الطب كدست مذبذبة ، وسأيت حالته
 يقول أبو عثمان عن أسد بن جاني : (كان طبيبا فأكد مرة ، فقال له قائل : ا لسنة وريفة
 والأمر غرناشيه ، وأنت عالم بولك صبر وخدمة ، ولك بيان ومعرفة ، فمن أين تؤثني نفسي

(٢٦) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول : الصفحات : ٨٠ ، ٨١ ز ٨٢

(٢٧) الحيوان : الجاحظ ، الجزء الثالث : صفحة ٣٨٥

هذا الكلام ؟ قال : أما واحدة فإني جندهم مسلم ، وقد اعتقد القم قبل أن أطلب ،
 لا بل قبل أن أخلق ، أن المسلمين لا يفلحون في الطب ؟ واسى أسده وكان يهني أن يكون
 اسى صليبا ، وسرايل ، ويوحنا ، وييرا . وكيتي آيو الحارث ، وكان يهني أن تكون أهرسي
 وأوزكيا ، وأبو إبراهيم . وعلى رد : قطن يهني ، وكان يهني أن يكون رد : حيدر أسود ،
 ولفظي لفظ عربي ، وكان يهني أن تكون لغتي لغة أهل جنديسا (٢٨) ومن المشاهير
 كما ذكرت وكما ذكر ابن بحر في سخرياته ثمنون . قال : (حدثني شتون الطبيب قال : كنت
 يوما عند ذي اليمطين طاهر بن الحسين ، فدخل عليه أبو عبد الله البرقي ، فقال طاهر
 يا أبا عبد الله ، مذكم دخلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة
 فقال : يا أبا عبد الله ، سألتك عن مسألة فأجبتنا عن سائلين (٢٩) وما سرجويه . يروي
 الجاحظ (مراسرجويه الطبيب يحد مغازي بن سعيد بن حميد الحميري . فقال يماسر
 جويه : أني أجد في نفسي بعضا . قال : فإنه عد يلغم ، فلما باز قال : أنا أحسن أن
 أقول يلغم ، ولكنه كلمني بالحرية ، فكلمته بالحرية (٣٠) ويختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن
 ماسويه . يقول الجاحظ : (خبرني نامة عن أمير المؤمنين العباس أنه قال :
 قسما لي لسي يختيشوع بن جبريل وسلمويه وابن ماسويه وإن
 وسلمويه وابن ماسويه وإن الذي باب إذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن (٣١) وقد بحثوا
 وقد بحثوا في الأطعمة ومكوناتها وطبائعيها ، وألقوا في ذلك الكتب يقول الجاحظ (وما
 أتته قول هذا بقول ما سرجويه فإنه وصف في كتابه طباع جميع الألبان (٣٢) كما كان

(٢٨) كتاب الخلافة : الجاحظ : ضبط العوامي والجام : الجزء الثاني صفحة ٤ .

(٢٩) الحيوان الجاحظ : ج ٣ ص ٥٨ . أخبار الحمق والمغفلين : ابن الجوزي ص ١٢٧ .

(٣٠) البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق حارون : الجزء الثاني صفحة ٢١٨ .

(٣١) الحيوان : الجاحظ : تحقيق حارون : الجزء الخامس صفحة ٣٦٤ .

(٣٢) الحيوان : الجزء الثالث صفحة ٢٧٠ .

السنديون يشتمون بالصيدلة . يقول ابن بحر : (واستقر محمد بن السكن أبا روح قريشا
 الهندى فكسب له المال العظيم ، قتل صيدلانى عندنا إلا وله ظلم سدى) (٤٣) وقد اجتلب
 المهاجرون من الهند الأطباء يقول الجاحظ (قال محمد بن الأعمش : قلت ليهذه الهندى أيام
 اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند مثل منكبواكيس وقلبرقل وسعد بانه وقلان وقلان . . .) (٤٤)
 ومن سفريات الجاحظ عرفنا طبائع الأمم ومجاداتهم ومجاليدهم ولغاتهم وأديانهم وعلومهم ،
 نتيجة اختلاط العرب بهم فى المصر المباحس ، والاحتكاك معهم فى المعاملات ، والاطلاع
 على علومهم ومعارفهم وأديانهم ، وشافيتهم ، والرحلات المتبادلة بين بلادهم فعرفنا الكثير
 من القس والدم والهند والنزج والترك . يقول الجاحظ نقلنا من راسد الأخير : (لم ألتق بأكل
 الاثرقط إلا من النزج وأهل أصبهان ، فأما النزجى فإنه لا يتخور وأنا أخير ، وأما الأصبهاني
 فإنه يهيم القهقهة ولا يأكل من غيرها ولا ينظر إلى ما بين يديه من القهقهة) (٤٥) . ويقول
 الجاحظ : وقد علمنا أن النزج أقصر الناحية ودية ، وأد علمهم عن معرفة الماتية ، ولو
 كان سخا وهم إنما هو لدلال حدهم ، ونقص معلوماتهم ، وقلته معرفتهم ، لأن يهيم لفارس أن
 تكون أبخل من الدم ، وتكون الدم أبخل من الصقالية) (٤٦) وما يدل على أن الدم أبخل
 الأم أنك لا تجد للجود فى لغتهم اسما ، يقول : إنما يهيم الناس بها يحتاجون إلى
 استعماله ، ومن الاستغناء يحفظ التكلف . وقد فهمنا أن ما يدل على غش القس وانسه
 ليس للنصيدة فى لغتهم اسم واحد يبين المعانى التى يقع عليها هذا الاسم (٤٧) . وقد ذكرنا
 أن الأم التى فيها الأخلاق والآداب والحكم والعلم أربع ، وهى : العرب والهند وفارس

(٤٣) المصدر السابق صفحة ٢٣٥ .

(٤٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٩٢ .

(٤٥) الخلاء تحقيق الحاجى ص ١٩٦ .

(٤٦) كتاب الخلاء ، الجاحظ ، ضبط المعامري والجامم الجزء الثانى صفحة ١٠١ .

(٤٧) الخلاء ، الجاحظ ، تحقيق طه الحاجى صفحة ١٩٥ .

(٤٨) (إن الزنج مع العتارة ، ويحيط بها العتارة ، ومع كلال الحد ، يحفظ الحد ، وهذا
الغرض لتطيل الخطب ، وتبقى في ذلك جميع المعجم ، وإن كانت معانيها أجنبية وأغلفة
وأنما ظاهرا أخطأ وأجهل ، وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس
وأعد بهم كلاما ، وأسلمهم مغربا ، وأحسنهم دلا ، وأشدهم فيه تحكما أهل مرو وأفصحهم
بالتأدية الدرية ، وباللغة الفارسية أهل قصبة الأهواز ،

فصل في معرفة العرب

ولقد استأيدت فلصاحب تفسير الزمزم (٤٩) (جملة القول ، أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب
والفرس فلما ألهم الله محمدا ، وكتب مخرجة ، لا تصاب إلى رجل محرف ، ولا عالم
موصوف ، وإنما هي كتب متروكة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة ، وللمؤمنان فلسفة
وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بلى اللسان ، فهو موصوفها لبيان مع فلسفه
بتحيز الكلام وتفصيله ومعانيه وخصائصه ، وهم يزعمون أن جالينوس كان ينطق الناس ، ولم
يذكروا ما لخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفي الفرس خطباء (٥٠) (ولكن لنفسه
خبر تدور في أكثر كلامها ، كبحر استعمال الهمز للسين ، والجواقة للميم ، وقال الأصمعي
لهم الهمز خاد ، ولا للفرس ثاء ، ولا للمصريين ذال (٥١) وكان للمنهول صحيفة في البلاغة
توضح قواعدهما ، وتبين حدودهما ، وترسم صفات الخطباء الهلبيين ، (قال محمد ، أهر الأشعث ،
قلت ليهلوه الهلندي ٥٠٠ ما البلاغة عند الهلندي ؟ قال بديلة ، وعندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ٥٠)

(الهمز)

(٤٨) البيان والتبيين ، الجلد ١ ، تحقيق عبد القادر بن عبد الرحمن ، الجزء الأول ، صفحة ٢٨٤

(٤٩) المصدر السابق ، الجزء الثالث ، صفحة ١٢ و ١٣

(٥٠) المصدر السابق ، صفحة ٢٢ و ٢٨

(٥١) المصدر السابق ، الجزء الأول ، صفحة ٦٤ و ٦٥

للثبوت بملك الصحيفة المتراجعة فإذا فيها (٥٢) لا قيل للمفارقة ما الهلابة ؟ قال : معروفة

الفصل من الوصل • وقيل لليوناني ما الهلابة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام

وقيل للرومي ما الهلابة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البتاحة • والخزارة يوم الإطالة • وقيل

للهندي ما الهلابة ؟ قال : وضع الدلالة واختصار الفريدة وحسن الإشارة (ص ٤)

والى جانب هذه العلم الوفيرة • والمحارف البشيرة • ورقى الفكر وحدة الذهن

وجلى الصميات • وكلف المبهمات • وحدت فكاك من المجتمع • لم يبال ولا زالت تحبس ففسى

جمالها • وظن بالخرافات والشموء • والرقى والمزائم • ويستغل أدها • الطب والكخلا

على العلم جيلهم وفلتهم فيخرج الدهى الكخيد حولهم شباه • ويقضى منهم القرائن فيمنى

ويقرى • ويملك المقار والضياع • أو يستحوذ على عقول العامة والفوق • وينال الجاه

والشبهة • ولولا • ما نجى سخر الجاحظ منها • (كان رجل يرقى الضرس بسخر بالتاس

ليأخذ منهم شيئا • وكان يقول للذي يرقى • إياك أن يخطر على قلبك الهلابة ذكر القرد • فبهت

وحمد • فيكره إليه • فيقول • لملك ذكره القرد • فيقول • نعم • فيقول • من ثم لم تثنى القردية (٥٣)

وضها • (تقول أبو محمد الله الكرخى اللحيانى إلى الخزينة • وأدى أنه نقيه • وظن أن

ذلك يجوز • لكان لصيته وسعته • فالتقى على باب دار الهزارى • وجلس • وجلس إليه

بعض البيران • فأتاه رجل • فقال • يا أبا عبد الله • رجل أدخل • صيحه • فى أنه فخرج

عليها دم • فأى شى • يصنع ؟ قال • يحتج • قال • تحدث طبعها • وقعدت فقيها • (٥٤)

وطها • (خبرني شامة عن أمير المؤمنين المؤمن • أنه قال • قال لى بختمش من جبريل

(٥٢) المصدر المذكور • صفحة ٩٢ (٤٩٥) البيان والتبيين ج ١ ص ٨٨

(٥٣) الديوان • الجاحظ • تحقيق عبد السلام هارون ج ٤ ص ١٤٤ طبعه عام ١٩٤٠

(٥٤) والأدعية • ابن الجوزى • تحقيق أسامة عبد الكريم الرفاعي • طبعه دمشق سنة

(٥٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٢ • الديوان ج ٣ ص ٨٠٧ • صيون الاخبار ج ٢ ص ٥٤

وهو القائل : (من لم يظن نعمة قراخ من سكره فعارضه والله السقم) ثم راجع فراضه
حتى صرح به من الخبرات (٥٩) . ألهم هذا ما ينهني عن صفتنا الصارخ العجوة الذي

يتبعه الطائفة في علوها وإسفافها. وانعناثها حتى يصرعها بهيم الأجزاء .

عمره وبعده علماته في حشره

وهذا هو الجاحظ يصرع من جهل أن صفة من صفة علماته في حشره الغضابي طعن

الجن . واستدوائهم الإنس وقتلهم . ويؤكد لهم : أن هذه خرافات ملأت أذهانهم .

فما يستطيعون منها فكانا . وأنهم لأغراض في نفوسهم يرون الصحيح . وصحرون السقيم .

فيقول : (وزعمهم أن الجن خفت حروبهم أمة . وخلفت هوداس بن أبي عامر . وخفت الفريش

العشي . وأنها قتلت سعد بن عباد . واستوت معودين على . واستوت عارفة بن الوليد .

فأنتم ^{أولئك} تعلمون بالخرافات . أقول على رد الصحيح . وتصحيح السقيم . بعد تعليق الحديث

المشهور إلى أحوالكم (٦٠)

الفصل الثالث

الأخلاق والمعتقدات

يعتبر المصري المباحى عصر الحرية بأجلى معانيها ، وأبعد مراحليها ، حرية نفس
اللغة ، وحرية في السلوك ، وحرية في الأخلاق ، وحرية في المعتقدات ، حرية تحريم صن
الإباحية ، وفتح إلى القوض والمصحبة ، وتنسب إلى المحلل ، فلم يعد الخلق خطيئة ،
ولا للدين صولة ، ولا للدولة هيبة ، فأهدرت القيم والنس المحسن بالقبح ، والخير بالشره
بل انقلبت الموازين ، فصار القبح حسنا ، والشر خيرا ، وكثرت المنزوات وشاعت الأراجيف
والترجمات ، وشمل الفساد نواحي الحياة .

فالدولة المصرية التي كانت تميز هيبتها الدنيا ، صارت الصولة عنها للبلاد والترك
والويل ، وأصبح للشعرية قوة وميزة ، غشمت أعينها قوة العرب ، وخنق نفوذهم ، فوجدوا
لم ليس يجرى ، ورفعه فوق قدره ، وأدخل الأعاجيب في روح الشعب ، بل في قلوب الحكام
وحلية القم أنهم أصحاب العبد والمز والعضارة ، وأنهم أرفع كعبا من العرب ، وساعدتهم
على مخالفتهم ، وشيع مذهبهم ، وآآ الناس في كتبهم المترجمة من علم ومن منطق ، وسأ
شاهدوه من تسلطهم على الحكم والرياسات وملاكهم نواحي الأمور ، وزلم الخليفة ، حتى
لم يعد للخليفة إلا الكرسي والمظفر ، أما تصريف أمور الدولة ، وتنظيم شئون الرعيانة
ففي أيدي غير عربية ، وأمرنا لبرا مكة معروف مشهور ، وتحكم الترك في الخلافة السياسية أجمل
من أن يخفى .

والأمة الإسلامية التي اتحدت بد ينها ، وتمسكت به ، وسكنت له ، ونفت عنه الشوائب
والأضرار غزتها الديانات المختلفة ، المسيحية ، اليهودية ، والمسيحية ، وغير السابوية
كالمجوسية والمناوية والزراذشتية ، والتشوية والدحرية والطائفة وصار لكل دين أنصار وأتباع
وأعوان ودعاة ، وبعوت عبادة ، زما الإسلام إلا دين بين هذه الأديان المتعددة ،

شمر قميصك واستمد لنا بل
واحذرك جميعك للقضاء بهم
واخفض جناحك إن مشيت تخشعا
حتى تصيب ودعة ليتيم

وحين أكلت الأمانات الأمانة والأوصياء ، ورتع فيها المعدلون والصراخون عرجب حفظها ودقنا
وكان أكل الأرض لها خير من أكل الخثون الفاجر ، واللحم الغادر وأنا اليوم أنيس
عن الحاربة والوديمة ، ومن القرض والقرض ، وأكره أن يخالف قولي فعلى . . . إن الناس
فاغرة أفواههم نعمون عنده درا حم ، فليس يضحون من النهم إلا اليأس ، وإن طعموا
لم تبقى رغبة ولا ثاغية ، ولا سيد ولا لبد ، ولا صامت ولا ناطق إلا ابتلعوه والتهموه (١)

ويصور ما كان عليه الصبايون وغير الصبايين في عصر من استبانها وأمر الدين
والدم بالهوى ، والرغبة في الفلج والنفع بقوله : (وقد ترك هذا الجعور الأكبر ، والمواد
الأخضر ، لا تتوقف عند الشبهة ، والتشبه عند الحكمة جانباً ، وأعرضوا عنه صفحا ، فليس إلا ، لا
أ ونعم . . . ولا أن قولهم فلا ، موصول منهم بالخشب ، وقولهم نعم ، موصول منهم بالرضا
وقد عزلت الحرية جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن . قال
صروبن العارث : كما يكفئ من الرجال ذا الرأي والنفع ، ونحن اليوم نتناها (٢)
ثم يصور طائفة أخرى من اللثام الطغام ، الذين فسدت أخلاقهم ، ونكبت عن الصواب

طبا نعمهم ، فيقول : (وضرب آخر من الناس ، هج هاج ، ورع مشعر ، لا نظام لهم ولا
اختيار عندهم ، أصلب أجلاف ، وشباه الأعراب لا يقترون ، لا تدفع صولتهم إن أهاجوا ،
ولا يمين . . . هيجانهم إذا سكوا ، إن أخصبوا طفوا في البلاد كأن أجدوا آتروا العناء
ثم هم مولكون بيفض القاذن ، وأهل الترا ، والنمعة ، يفتنون النكبة ويشتون بالعمرة

(١) كتاب البخل ، الجاحظ : من العوام والبنات الجزء الثاني صفحة ١٧٠ ، ١٧١

(٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عهد السلام هارون الجزء السادس صفحة ٨

فج الأمة في المارية كحكم الخدمة وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة وأن الأمة مال كالذهب والفضة وأن الرجل أسمى ببيتته من الشريب وأولى بأخته من الهميد ، وأن الهميد أحق بالنيرة والقريب أولى بالألفة ، وأن الاستزادة في النمل كالأستزاه في الحرب (٥)

أما الأدهاء ، والسرقه والاحتياك ، والكدي والتسول ، في صرا الجاحظ ، فقد أطلقنا عليها في بخلائه ، وأرانا إياها على صفحات سفره ، فعرفنا شدة التصاقها بأخلاق عصره ، وشيوعها في أبناء جيله ، وأنهم كانوا يتباهون بها ، ويجعلونها من أبواب الظرف واللباقة . قال علي لسان (خالد بن يزيد مولى المصاليه) هو خالوهم المكدى وكان قد بلغ في البخل والتكدي وفي كثرة المال المبالغ التي لم يلفها أحد (٦) (أنا لوديب مالي لجلست قاصدا أو كلفت في الآفاق ، كما كنت - مكديا ، اللحية والفرة بيضاء ، والعلق جدير طل ، والست حسن ، والقبول على واقع ، وإن سألت عني الدنيا أجايت ، وإلقليل من رحمة الناس خير من المال الكثير وصرت معتالا بها ثماره واستعملت صناعة الليل ، وأخرجت قاطع طريق ، وأصرت للقمع مينا ، ولم يجهدوا - سل عني صماليك الجبل ، وزوا قبل الشلم ، وزط الأجام ، ورعوس الأكراد ، وردة الأعراب ، وفثاك نهر بطه والصوم القصر ، وسل عني القيثانية والقطرية ، وسل عني التشبية ، ودباحي الجزيرة ، كيف بطش ساعة البطرية ، وكيف حيلتي ساعة الحيلة ، وكيف أنا عند الجولة . . . نكم من دينا مرقد نقيتم هوكم من مطبق قد أفضيته ، وكم من سجن قد كابدتم) (٧)

ومع أن خالوهم هذا كان عالما قصاصا بليغنا داما متكلما وكان أبو سليمان الأحرور وأبو سعيد المدايني القاصان من فطامته (٨) إلا أنه كان مكديا كما رأينا - معتالا موهبا ،

(٥) البخل (١) لجاحظ : تحقيق طه الحاجري صفحة ٤

(٦) المصدر المذكور صفحة ٨٥

(٧) المصدر المذكور صفحة ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥

(٨) المصدر السابق صفحة ٨٧

شحيحا ، مع كثرة ماله ، ووفرة غناه ، قالوا له : (إنك لتعرف العكاذين ؟ قال ، وكيف لا أعرفهم ؟ ألم يبق في الأرض مخطران ، ولا مستعرضا لأتقيته ، ولا سعادته ولا كفايته ، ولا بانوان ، ولا قرسيه ، ولا مواجعه ، ولا مشعب ، ولا مزيدي ، ولا اسطيل ، إلا وقد كان تحت يدي ، ولقد أكلت الذكري ثلاثين سنة ، ولم يبق في الأرض كمي ، ولا مكده ، إلا وقد أخذت العرافة عليه) (٩)

ويقول عن بعض سكان الدور في زمنه من فسدت أخلاقهم ، وكثرت خدمهم ، فأضرروا بالدور وأصحابها ، وبجيرانهم ، وأعملوا فيها لسوقة والتخريب ، وأظفوها بأعمالهم ، ورقة دينهم ، (ثم لا يدع مترسا إلا سرقة ، ولا سلما إلا حمله ، ولا نقضا إلا أخذه ، ولا برادة إلا مضى بها معه ، ولا يدع دق الثوب والدق في الماوان والسجبان في أرض الدار) (١٠) (ثم إن كانت الفلة صامحا دق أكثرها مقطعة ، وإن كانت أتبعا أو أرباما دقها قراصة مفتقة ، ثم لا يدع مزابقا ، ولا مكهلا ، ولا زائفا ، ولا دينارا بهرجا ، إلا أنه فيه ، ود له عليه ، واحتمل بكل حيلة ، وشأني له بكل سبب . فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئا ، حلف بالشموس ، أنه ليس من دراهمه ، ولا من ماله ، ولا يله قطعه ، ولا كان في ملكه ، فإن كان الرسول جارية رب الدار أفسدها ، وإن كان غلاما خدمه هذا مع الإشراف على الجيران ، والتمرض للجارات ، ومع اصطلياد طيورهم ، وتعرضا لشكايتهم ، وربما استضعف عقولهم ، وطمع في فسادهم وقبائحهم ، فلا يزال يضرب لهم بالأملاني ، ويخبرهم بالشهوات ، ويفتح لهم أبوابا من التفات لينبئهم ، ويرجع عليهم حتى إذا استوتق منهم ، أهملهم ، وحرق بهم ، حتى يتقوه يبيع بعض الدار ، أو استرمان الجميع . . . وربما استأجر إلى جنب سجن

(٩) المصدر السابق صفحة ٨٦

(١٠) المصدر السابق صفحة ١٥٠

لينقب أحده إلى به ، وإلى جنب صراف لينقب عليه ، طلبا لظلم العملة والسمعة ، ولظلم
المدد والأمين (١١) .

ومن مظاهر الاستيلاء بالدين والمقدرة ، والانتماء إلى الطلقات والشبهات ،

والحب من الخبز الحسية ، التي نفرت منها الأديان جميعها ، بل نفرت منها الطهاغ

المستقيمة ، والفطر السليمة ، والعقول الذكية الحسنة ، انتشارا لزنا والخلاعة ، والمطاردة

والتجشيش ، وصل بهم الانحطاط الخلق ، والدنيا النفسية ، والطبع الساذج إلى اتيمان

الذكريان والبهائم ، بل إن هناك من القلمان من عرف بين التان وشيريان فلانا يتعصقة

ويهم به ، وأنه مختس به ، أتورلده ، يفضل على تسائه وجوارية ، في قضا شهوته ، والاحتجاج

به . ومن سخريات الجاحظ التي أوضحت لنا ذلك قوله في الخبر : (هجاحاد بين الزرقان

حساد الواوية ، فقال :

نجم الفتي لو كان يعرف به ، وفيهم وكنت صلاته حساد

مدلت مشافره الدنان فأنته ، مثل القدم يستبها العداد

وابيض من شرب المدامة وجده ، نهاضه يوم الحساب سواد

... فقد رأيت جماعة ممن يحاقرون الشراب قد عظمت آفهم ، وصارت لهم خراطيمهم

منهم روح الصائغ ، وبعد الواحد صاحب اللؤلؤ ... (وامن كثر) (١٢)

وكانوا يمدحون النهي وشاربه ، ويكثرون من الشرب وإن كان على الريق ،

ويكثرون عليه ، ويكثرون الشرب على الريق دليل الفتوة ، وإذ بان الشواب ، مع ما تيسر

من دواء . قال الجاحظ في روايته من محمد بن أبي المؤمل : (ومن لم يشرب على الريق

(١١) الصدر المذكور صفحة ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥

(١٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٥ ، ٤٤٦ تحقيق عبد السلام هارون ط

فيموت في القنطرة ، وليس في أصحاب النبوة ، وإنما يخاف على كبد من سورة الشرايط
على الطريق من بعد عبده ، بالحم ، وهذه الصبغة تغسل عنكم الأوسار ، وتبقى التخ ،
وليس دواء الخمار إلا الشرب بالكبار ، والأعشى أن أعلم به حيث يقول ،
وكأن شرب على لذة ، وأخرى تدانيتها بها (١٢)

ووضعوا القواعد التي تجعل الخمار والزمار والمغنى في أكل ما تكون الصناعة
التي يتولاها ، (قال إبراهيم بن هانئ : . . من علم آلة لزور أن تكون الزامرة سوداء ،
ومن علم آلة المغنى أن يكون غاره البرذون ، براق الثياب ، عظم الكبر ، سى الخلق ،
ومن علم آلة الخمار أن يكون ذميا ويكون اسمه أدين أو ثلوثا أو ما زاردا نقادار أو مينا
ويكون أرقطاً ثياب مختم الحنق) (١٤)

وكانت الجوارى والقيان تملأ أرجاء المدن والقرى ولهن سوق في بغداد يسمى سوق
الخامسين يحرض فيه للبيع والشراء فيحدث السر والتقليب في هذه السلع وتكثر الممازلة
والمطاردة ، وقد رأينا من قبل حكاية الجاحظ لجارية السوداء مكية رويته في الحسب
وتجيب العجرا الأسود ، كما دلنا الجاحظ على أخلاق القيان وتعرضهن للقصد حتى صار
فيهن طبعها وخلقة يقول في رسالته القيان (وأكرأمرها قلة الناحية ، واستعمال الشرير
والعديلة في استطاف ما يحويه المربوط ، والانتقال عنه ، وهي اجتمع عندها من مروطها
ثلاثة أو أربعة ، على أنهم يتحاضرون الاجتماع ويتغايبون عند الالتقاء ، فتبكي الواحد
بمعين ، وتضحك للآخر بالآخرى ، وتغمر هذا بذاك ، وتعطى واحدا سرها ، والآخر ملابستها
وتوهم أنها له دون الآخر ، وأن الذي تظهر خلاف ضروريا ، وتكتب لهم عند الانصراف
كتبا على نسخة واحدة ، تذاكر لكل واحد منهم تبرها بالباقيين ، وعرضا على الخلوقة

(١٢) كتاب الجحلا ، الجاحظ ، تحقيق المومني وألجام الجزء الأول صفحة ١٨٥

(١٤) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٩٢ ، ٩٤

دوليم ، فلم يكن لا يلبس شوك يقتل به ، ولا علم ينعوا له ، ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان
لكفاء ، وليس هذا بذيهم لمن ، بل من قوط المذبح (١٥) ، وقول : (وكيف تعلم القينة من
الفتنة ، أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكسب الأهواء ، وتعلم الألسن والأخلاق بالمشاة
وهي إنما تنبأ من لدن مولدها إلى أروان وفاتها بما يصدر عن ذكرها لله من لحو الحديث ،
وصنوف اللصق والأخا نيت ، وبين الخلعاء والجبان ... وتروى الحادثة منهن أربعة آلاف صوت
فصاعدا ... بنيت كلوا على ذكر الزنا والقيام بالمشق والصبوة والشرق والغلبة ، ثم
لا تنفك عن الدراسة لمضاعفاتها ، منكبة عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله
تجشيشه ، وإنما بهم مراودة (١٦)

ولم يقتصر الأمر على القيان بل تجاوز من إلى العرائر بل كلن وبنى ، وانتقل
الزنا إلى اللواط وإلى إتيان العريانات ، وقد أوردنا الجاحظ إلى هذا الشئ الذي
كان في عصره ، من خلال ثمكة وسخره . قال حكايمة عن قاسم : (قال لثوى لى عرق حوين
تعدت منها محمد الرجل من الغلام) (١٧) . (وقال في غلام له ربيب ، ما وضعت بيني وبين
الأرض أطيب منه) (١٧) . (وكان قاسم التمار عند ابن لأحمد بن عبد الصمد بن عيسى ،
وهناك جملة ، فأقبل وحيد المعتصم يمرض له بالخلمان . فلما طال ذلك على قاسم أراد
أن يقطعه عن نفسه بأن يمرضه هو أن ذلك القول عليه فقال : اشهد واجمعا أنى ...
الغلمان ، واشهد واجمعا أنى أطعم الصبيان ، والفتة الفتاة تروى الأخوين المذليين
وكان يصادفها في مجلس الاعتزال . فقال : سمعت بقول : اشهد واجمعا أنى لوطى ، أى أنى
على دين لوط ، قال القم بأجمعهم : أنت لم تقل اشهد وأنى لوطى ، وإنما قلت :

(١٥) ثلاث رسائل : الجاحظ ، بنبريوش فنكل ، رسالة القيان صفحة ٧٢ ، ٧٣

(١٦) المصدر المذكور ، صفحة ٧٣ ، ٧٤

(١٧) البيان والتحسين تحقيق عبد السلام هارون ، صفحة ١٣ الجزء الرابع

أشبهوا جميعاً أنى ... الصبيان (١٧) ومن طيبة الناس وأولى المناصب والرأى فسى
الدولة من كان يحمل قواداً ، ومن رجال الدولة المدعوين من كان يحشق الفلمسان
ويبدل لهم الملح ، وبأمر لهم بالفرض ورائع جمالهم وبراعة صورهم وحسن قدودهم يحيط
أبر عثمان إن زيد بن أيوب الكاتب حمل فى ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار فسى
آخرأ ياد قواداً لحى بن أكرم القاضي . وذلك أن المؤمن أمره بفرضه نصير يحسى
بن أكرم أمر ذلك القرض إلى زيد بن أيوب وأمره ألا يفرض إلا لمرى بارع الجمال وحسن
المقد والصورة فكان أمر ذلك القرض مشهوراً متمالماً ، ففى ذلك يقول الحسن بن عيسى
الحداوى لزيد بن أيوب :

يا زيد يا كاتب فرض الفراش أكل هذا طلب للعاش
مالى أرى فرضك حملانهم يثبت فى القرنين قبل الكباش (١٨)

(وكان ومن ... الهفلات فجلس يوماً يخبر عن رجل كيف ... بكفة وكيف أنكسرت
رجله وكيف كان يتألم ، قال : كان يضع تحت رجله لينة فينما هو ينعى فيها إذا انكسرت
اللينة من تحت رجله وإذا أنا على قنار) (١٩)

(... رجل كلفة ، فحقدت عليه ، فلما طال عليه الهلا رفق رأسه فصار رجلاً يطلق عليه من سطح
فقال له الرجل : اضرب جنبها فلما ضرب جنبها ، وتخلص قال : قاتله الله أى ... كلفات
هو (١٨) (٢٠)

(١٧) لها من القيمين الجاحظ ، تدقيق هذا السلام حارون صفحة ١٢ الجزء الرابع .

(١٨) ثلاث وسائل ، الجاحظ ، بشر يوشع فذلك صفحة ٥٥ .

(١٩) المصدر المذكور صفحة ١٤ .

(٢٠) البيان والتميز ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ١٥ .

وللخرافات في العصر الحباسي تصيب راف وافر ، نتيجة العلم المنقول ، والمعارف
 المتحولة من لغتها إلى العربية بما فيها من خير وشر ، ورف وأباطيل ، وأكاذيب وأساطير
 ثم بما يضيفه العرب إليها من معتقداتهم الخرافية ، وقصصهم الوهمية ، وما يختصمون ويولدون
 لأغراض اجتماعية أو سياسية ، دينية أو دنيوية ، وكان الكوريون بما ، ويجزم بصحتها
 وسدادها ، وقد كشف لنا سخر الجاحظ الكور من الخرافات التي كان يعيش فيها عصره ،
 فقال حكاية عن بعضهم ، (أي قديمتي القوم الغول ، وتزوجت السحلاة ، وحايث
 (٢١) الهامات ، ورقت عن الجين إلى الحن ، واسطدت الشق ، وحايث النسناس ، وصحني الرئي)
 (وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش ، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عاض
 الصبي ، لم ينزع منه من لحمه حتى يسمع نقيق حمام رومش ، فما أنسى نغزي من سنن
 الخفاش ، رومشي من قوم ، وإياها يذكرك القول ، إلى أن بلغت (٢٢)
 ومن الخرافات المزورة ، المثقنة الصنع من بعض الحواة في خلافة المنصور ، والستى
 اكتشفها السامع فنزى بها وسخر من المتحدث بما يروي الجاحظ في كتابه الغذاء
 الحيوان قال ، (زم ابن أبي العجوز الحوا أن الاناس صم ، فلذلك لا تجيب الرقي
 ثم زم لي في ذلك المجلس أن أمير المؤمنين المنصور أراد امتحان رقي حية ، وأن يتعرف
 صحتها من سمها ، وأنه أمر غاصوا له أنسى من رصاص ، فجاءت ولا يشك الناظر فيها ،
 وأنه أقر بالزائدا في موضع من السقف ، وأنه أحضره ، وقال له ، إن هذه الأكفسي
 قد صارت في هذه الدار ، وقد كرهتها لكائنا ، فإن احتلت لي برقية ، أو ما أحببت
 أحسنت إليك . قال ، إن أردت أن آخذها صرمت ، ولكن أرتبها حتى تنزل ، فوثاها
 فلما رأها لا تتحرك زاد في رفع صوته وألقى قناعة ، فلما رأها لا تتحرك نزع صامته وزاد

(٢١) كتاب الخرافات الجاحظ ، ضبط المصاحف والجوامع ، صفحة ٨٨ .
 (٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٧ .

في رفع صوته ، فلما رأى ما لا تتحرك نزع قلنسوته وزاد في رفع صوته ، فلما رأى ما لا تتحرك نزع
ثيابه وزاد في رفع صوته ، حتى أقبل وتبع في الأرض ، فلما فعل ذلك سأل ذلك الرصاص
وذاب حتى صار بين أيديهم ، فأقر عند ذلك النصور بجوده رقيقته . فقلت له : ولك انصت قبيل
أن الأفاعي لا تجيب الرقى لأنها لا تسمع وهي حيوان ، ثم رصت أنها أجابت وهي جماد (٢٣)
ولم تقتصر الخرافات على عامة الأمة وحدها ، ومن لم يمتوا إلى العلم والدين
بسبب وثيق ، وصدق عريق ، بل امتدت إلى العلماء ، ووجدت لها في نفوسهم ركنا تأوى إليه ،
وتتفت سمرها من خلاله ، فيها يكتبون ويفسرون ، وامتد تأثيرها إلى خاصة المتكلمين والمفسرين
والحديثين ، وأهل الرأي والتدبير ، يقول الجاحظ مكلخرا من مزاج بعض العلماء : (نرم
لن بعض العلماء من قدروى الكتب ، أن حية يقال لها الداس تلدولا تبيض ، وأن أنثى النمر
لم تضع نمرأقط إلا وصحه أفسى . والأعراب قرع أن الكأة تبقى في الأرض فتعظم مطقة صهيبة
فيستحيل بعضها أفاع ، فسبح هذا الحديث منى بعض الراساء الطائنين ، فزعم أنه ما من كأة
ضخمة فتأملها ، فإذا هي تتحرك ، فتمض إليها فتلقمها فإذا هي أفسى ، هذا ما حدثته
من الأعراب حتى برئت إلى الله من عيب الحديث) (٢٤)

(وما لا أكذب لك من الأخبار المجدية التي لا يجسر عليها إلا لال وقاح ، أخبار
بعض العلماء ، وبعض من يؤول الكتب ، زعموا أن الضيق يكون عاما ذكرا واما أنثى . وقال
الفضل بن إسحاق : أنا رأيت العفص والهلوط في فحن واحد ، ويؤمنون أن النمر تضع في مشقة
واحدة جروا وفي عنقه أفسى قد تطوقت به) (٢٥)

(٢٣) المصدر المذكور الجزء الرابع صفحة ٤١٩ ، ٤٢٠

(٢٤) المصدر المذكور صفحة ٢٥

(٢٥) المصدر السابق الجزء السابع صفحة ٤٩

(وهم بعض المفسرين أن السور خلق من عطسه الأسد ، وأن الخنزير خلق من

(٢٦)

سلعة القيتل) وسئلوا عن قوله تعالى قل أموت برب الفلق قالوا : لا أول وأد قسى

جدهم ، ثم قعدوا يصغونه (٢٧) . (وكان إبراهيم يقول : لا تكثر سلوا إلى كثير من المفسرين

وإن نصبوا أنفسهم للعامة ، وأجابوا على كل مسألة ، فإن كثروا منهم يقول بخير رؤية ،

على غير أسس ، وكلما كان المفسر أقرب خدعي ، كان أحب إليهم (٢٨) .

كان العصر السياسي يعج بختلف المذاهب ، وشق التحول ، وأنماط من الحصبيا

واللوان من الديانات ، وعديد من الطوائف ، كل يحاسي من رأيه ، وقد اتفق من مذهبه ، ويتمصب

لأبنا جلدته ، ويضع غيره ، ويحاول إخماله .

وقد كان للشميرية شأن خطير ، فهي السور الذي يتخرفني عظم الأمة العربية ،

والدولة الإسلامية ، ومن كما أعطانا الجاحظ صورة عنها ، تهافت العرب والإسلام يقول :

(والشميرية والآزلية مردية ، المبهضيون آل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ومن فتح

الفتح ، وقتل المجوس ، وجاء بالإسلام ، تزيد في جشوة همهم وخشوة ملهمهم ، وتنتهي

من نعمهم ، ورفافة همهم (٢٩) . ويقول : (أعلم أنك لم تعرفوا قط أمتي من هؤلاء الشميرية

ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استملاكا لمروضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل قنبا من أصل

هذه التحلة ، وقد شفى الصدور منهم طول جنم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن

في قلوبهم ، وخليان تلك الأراجيل الفائرة ، وتسمرت تلك أثيران المضطربة (٣٠) .

(صار ولاية أمونا في هذا الدهر الصعب والزمن الفاسد أشد استهصارا في التشبيه من

(٢٦) المصدر السابق ، الجزء الرابع ، صفحة ٣٤٧

(٢٧) المصدر السابق الجزء الأول ، صفحة ٣٤٤

(٢٨) المصدر المذكور ، صفحة ٣٤٣

(٢٩) انظر الجاحظ ، تحقيق طه الجاجري ص ٢٨٨ ، شق المراءى والجاني ص ٢٠

(٣٠) البيان والتهنيد ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ٢٩ ، ٣٠

عليتنا ، وأعلم بما يلزم منه منا ، واكشف للقنا عن رؤسائنا ، وصادقوا الناس وقد انتظموا معاني
 الفساد أجمع ، وبلغوا غايات البدع ، ثم قتلوا بذلك المصيبة التي هلك بها عالم بعد عالم
 والحمية التي لا تبقى دينا إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من
 مذهب الشصوية ، وما قد صار إليه العوالي من الفخر على العجم والعرب (٣١) .

أما الديانات غير الإسلام فتمتددة فبجانب المسيحية واليهودية وجدت الزرادشتية ،
واللماوية ، والتوبة والكهنة ، والمجوسية ووجدت الفرق المتصارعة ومنها الديصانية
والنابتية ولكن مذاهب أتباع وأنصار ويؤيدون يدافعون عنه ويحاربون وكثرت المذاهب فمضى
كل دين صار الخلاف بينهم شديدا ، وكثر الجدل والخلاف ، وهم جميعا يؤكدون للإسلام
ومنهم من التمسك به

قال الجاحظ في النصارى : (ودينهم يرحمك الله) - يخافون الزندقة ، ويناسب
في بعض وجوه قول الدهرية : وهم من أسباب كل حيرة وشبهة ، والدليل على ذلك أن
لم يقرأ أهل ملّة قط أكثر زندقة من النصارى ، ولا أكثر تحميرا أو مترجعا عنهم ، ولذلك شأن
كل من نظري الأمور الخافضة بالحقول الضيقة ، ألا عى أن أكثر من قتل في الزندقة ممن
كان يقتل الإسلام ويظهره ، وهم النسطورية ، وآباءهم وأما نهم نصارى (٣٢) . (على أن هذه
الأمّة لم تبتد باليهود ولا الجوس ولا الصابئين كما ابتليت بالنصارى وذلك أنهم يسمعون
المناقض من أحاديثنا ، والضعيف بالإسناد من روايتنا ، والفتناب من آي كتابنا ،
ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عننا عوامنا ، مع ما قد يحملون من مسائل الملحدين ،
والزنادقة العلّامين ، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون
على القوى ، ويلبسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم

(٢١) رسائل الجاحظ، الجاحظ، جمع حسن المنبوي، صفحة ٢١٩.

(٣٢) ثلاث رسائل الجاحظ : طبع يوشع فنكل صفحة ١٧

وأنه ليس أحد أحق بمحاكمة الملحدين من أحد (٢٢) وقال عن معتقدات اليهود ساخرًا
(لهم علق أن النظر في الفلسفة كفره والكلم في الدين بدعة وأنه مجلبة لكل شهية، وأنه
لا علم إلا ما كان في التوراة، وكتب الأنبياء، وأن الإيمان بالطب وتصديق الشجون من
أسباب الزندقة، واخرج إلى الدهرية، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة، حتى أنهم
لهوهم من المشهور بذلك، ويعبرون كلم سالك سبيل أولئك (٢٤)

وقال في الزنادقة: (والزندقة لم تكف أمة، ولا كان لها ملك ولا مملكة، ولم تنزل
من مقول وحارب ومناق) (٢٥) (وليس في كتبهم مثل سائر ولا خبر طريف، ولا صنعة
آداب ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا استخراج آلة،
ولا تعلم فلاحنة، ولا تدبير حرب، ولا منازعة من دين ولا منازعة من نحلة، وحل ما فيها
ذكر النور والظلمة، وتناكب الشياطين وتساعد المقاريت... وكله عذري وخرافة وسخرية
وتكذب) (٢٦)

وتكلم كثيرا عن الجوس وقرتهم ومذاهبهم وسخر من مبادئهم وقال لهم هو كثيرة كلامه
عن أنما هم يودوا ناتهم، دليل اطلعه عليها، وسخرته بها، وانتشارها في عصره، وبين
أهل جهاه، ولا غرابة فمؤدين الفرس الذين مكوا للمهاجرين، وتعتوا من المهاجرين،
وصارت لهم الدمية والصولة والمثورة والوزارة.

يقول عن اعتقادهم في مبدأ خلق الإنسان: (وزعم الجوس أن الناس من ولد موشة
وموشة، وأنهما تولدا فيها بين أرحام الأرضين، ونطقين ابتردا من بين ابن هريرجين
قتله هريرج حشرات أصحاب الاتيين كثيرة في هذا الباب) (٢٧)

(٢٢) المصدر السابق صفحة ١٩ و ٢٠

(٢٤) أمراء البهاون، محمد كرد علي ج ٢ ص ٣٦٩

(٢٥) البهاون، الجاحظ، الجزء الرابع صفحة ١٢٨

(٢٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ٥٢

(٢٧) المصدر السابق صفحة ١٩٠

ولما الصواب عنده ، والحق في حكمه ، أنه والبدنية حيان وأنه والسيح سيان ، ليس
 القبح عنده إلا ما خالف هواه وأن مدار الأمر على الإخفاق والدرك ، وعلى اللذة والألم
 ولما الصواب فيما نال من المنفعة ، وأن قتل ألف إنسان صالح لعائلة الدرهم الولدي^(٤٤)
 ومن سخرياته تتضح عقائد المانية أتباعها في . يقول (إن المانية تزعم أن العالم
 بما فيه من عشرة أجناس ، خمسة منها خير ونوره وخمسة منها شر وظلمة ، وكلها حاسة وحارة
 وأن الإنسان مركب من جميعها على قدر ما يكون في كل انسان من رجحان أجناس الخير
 على أجناس الشر ورجحان أجناس الشر على أجناس الخير)^(٤٥)

ويضرب بدم اللؤلؤ الساخر يشبههم فيه بمن من يصور قلبه فيحسب الخطأ والجبل
 في غيره ، ولما هو متصل فيه ضايح منه يقول : (إن أنا ساهمين جعلوا الأسباب والمعاني
 وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها فخرجوا إلى الجحود والتكذيب ، حتى أنكروا
 خلق الأشياء ، وزعموا أن كونها بلوحي لا صفة فيه ولا تقديده فكانوا بمنزلة عريان دخلوا
 داراً قد بنيت أثنى بنا ، وقرنت أحسن فرش وأعدت فيها من ضروب الأطعمة والأشربة
 والآتيب ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقديره فجعلوا يحسون فيها معجوبة
 أبصارهم فلا يصفون هيئة الدار وما أعدت فيها ، ويحسب عند الواحد منهم بالشئ ، قد وضع
 في موضعه ، وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالحق فيهم ، فقد مر وتخطوهم الدار وبانيها)^(٤٦)
 ويفسر معتقد المانية وهم فرقة من الجحود (زعمت المانية أن أصل العالم
 إنما هو من ضياء وظلم ، وأن الحار والبارد واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هي
 نتائج على قدر ما تتزاجها)^(٤٧)

(٤٤) أمراء البيان : محمد كرد علي ج ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

(٤٥) الحيوان ، الجزء الرابع صفحة ٤٤٢

(٤٦) أمراء البيان ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٤٧) الحيوان ، لاحظ ، الجزء الخامس صفحة ٤٦ .

أما المذاهب الكلامية في الإسلام فكثيرة كثيرة ، وبين أربابها تعارض وتضارب ، حتى
 ليكر بعضهم بعضا وينزده ، على أنهم جميعا من برع في الفلسفة والمنطق ، ومارس الملاحظة
 والمعاينة ، وهربا لحجج والبراهين ، والسفسطة والجدل ، وقال من الملوك النصيب الأوفى
 يقول الجاحظ مبينا ما يجب أن يكون عليه المتكلمون من علم وفقه : (ولا يكون المتكلم جامعا
 لأقطار الكلام ، متمكنا في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين
 في فقه الذي يحسن من كلام الفلسفة هو العالم عندنا هو الذي يجمعهما) (٤٨)

ثم يدفع المتكلمين مرتبة سنية لجودة الأصول التي يبنون عليها ، وصحة المقاييس التي
 يقسمون بها ، ويعني أن يكونوا أصحاب المهن والفنون حتى يأتي نتائجهم لأصوح فيسه
 ولا ثلثة فيقول وكلامه ينطوي على السخرى طبيا ، عصره ، (ما كان أحوشنا ، وأحوى جميع المرضى
 أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتائج
 هذا المتكلمين ، ومن تلقب ^{تلقبهم} لهم ، لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد) (٤٩)

ثم يدفع المحتزلة على سائر المتكلمين ، وأربابهم بن سيار الهلخي الشهير بالنظام
 "أستاذ" على سائر المتكلمين فيقول : (لولا مكان المتكلمين لميلت الموازن من جميع
 الأمم ، ولولا مكان المحتزلة لميلت الموازن من جميع النحل ، فإن لم أقل ، ولولا أصحاب إبراهيم
 وإبراهيم لميلت الموازن من المحتزلة ، ثاني أقول ، إنه قد أُنيج لهم سبيل ، وفقى لهم
 أصولهم ، واختر لهم أبوا با ظهرت فيها النعمة ، وشملتهم بها النعمة) (٥٠)

ولو ذهبنا لعدد المذاهب والنحل ، وننتج المعتقدات والمطل في سخر الجاحظ
 لفلان بن القمام ، ولأسلنا هذا المبحث إلى التيه اللجي ، الذي فيه شقوق ، ويغرق بحثنا
 معنا ، وإنما اكتفينا بالمذاهب المشهورة ، والمعتقدات السائدة في عصره وأجلنا في
 قولنا إن لكل مذهب ممالك وشعاب ، واتجاهات وانقسامات تهمدنا عن موضوعنا ، ونحن في
 حاجة إلى الحق ، فيه حتى نؤتيه حقه إن شاء الله

(٤٨) المصدر المذكور ، الجزء الثاني صفحة ١٣٤

(٤٩) المصدر السابق ، الجزء الخامس صفحة ٥١

(٥٠) المصدر المذكور ، الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

الفصل الأول

خلقته وأخلاقه

إذا تجرد المرء من النوى وهند عن التحيز، وثأى عن النج والتزبد، وتخذ الصدق رائده، والصراحة مسلكه، ثم نظى بحسن عقله إلى هيئته وصورته، فتحدث عنها، وإلى خلقه وطباعه فأبرزها وأوضحها، فإنك لن تجد كتابا يبلغ ما بلغ، ولا مؤرخا أو أدبيا يصل إلى عمق ما وصل، ولن يعرف حقيقة الإنسان أكثر من نفسه، ولن يفرس في أغواره ويظن ما فيها على السطح غير غوامس ما هو يعرف حناياها وخفاياها، لأنه ما يشأ من تشاها عرشها أطوارها، وشعها وصورها، في يقطبها وشعها، وفردحها واكتئابها، ومرف ما انبطت عليه من عيوب وحسنات، وما توكلت فيها من هياج وانفعالات، وما استكن داخلها من آلام وآمال، وذلك الغوامس المأهرا الخيرة الذي تتوافر فيه هذه الصفات هو الشخص نفسه، الذي نريد أن يكشف نفسه بنفسه، وقد يكون ردى العبارة، فج الأسلوب بدائي التمييز، ولكنه مع ذلك قادر على الإنصاف عن نفسه، وذكر حقيقة خلقه وتصرفه أكثر من رهب البياض عروق الفصاحة وداخا اللسان، لأننا لا نريد التزبد والترقيق، ^{والإفلا} والتوسيع، وإنما رائدنا إضاح الحقيقة، وكشف المستكر، وإبراز كما هو خيره ونسره، فإذا كان هذا المرء نصيحا، بآخ الآراء، وذكر القلب، فطن العقل، فقد اجتمعت الأدوات، واكتملت الخطوط، وهزت الصورة واضحة، وناطقة، لا لبس فيها ولا غموض، وأستاذنا الجاحظ خير من توفرت لديه الشروط واجتمعت في واحتمل الخيوط ليزر لنا حقيقة، ويجلى واقع، ويصيب من نفسه مؤرخا لنفسه، ومن عظم حاكما على عقله، في حياض واجباية، ومساطة ربيع، نستشفها من سفره، ونقتصبها من نكاشته ووطنه، فيبرشنا بنفسه إلى نفسه، وتستدل به عليه.

كان الجاحظ قصيرا القامة ، واسع الدفتين ، قبيح الشكل ، مستنقع الخلقه .
 أما نثره ، حينه ومجوده فلانه إنما لقب "الجاحظ" لذلك ، كما لقب بالحدادي للسبب
 نفسه . يقول ياقوت في كتابه معجم الادباء : (روى أصحابنا أن الجاحظ صار إلى منزل بعض
 إخوانه ، فاستأذن عليه ، فخرج إليه غلام مجيب ، فقال : من أنت ؟ قال : الجاحظ ،
 فدخل الخلام إلى صاحب الدار فقال : الجاحظ على الباب . وجهها الجاحظ ، فقال صاحب
 الدار للخلام اخرج فانظر من الرجل ، فخرج يستخبر عن اسمه . فقال : أنا الحدادي .
 فدخل الخلام فقال : الحدادي . وسميها الجاحظ فصاح به في الباب : ردنا إلى الأول (١)
 وأما قصراته منه فلما رآه في قوله : (رأيت بالمسكرا امرأة طويلة القامة جدا ، ومن على
 طعنها ، فأردت أن أمانعها ، فقلت : أنزل حتى تأكل من هنا . قالت : وأنت فاصمد حتى
 ترى الدنيا) (٢) وهذا دليل قصره والنصاف بالأرض .
 أما قبح خلقته ، وبشاعة هيئته فمستدل عليها من سخرياته بنفسه قال : (ذكرت للمعتمد
 لتأديبه به خروجه ، فلما رأيته استهجن نظري ، فأمرني بمشوه آلاف درهم وعرضي) (٣)
 وقال : (ما أخجلني أحد مثل امرأة تهن . . . وأما الأخرى فلما أتتني وأنا على باب داري
 قالت : لي إليك حاجة وأريد أن نغشي معي ، فقمتم معها إلى أن أتتني إلى صانع
 يهودي ، فقالت له : مثل هذا . وانصرفت . فسألت الصانع من قولها ، فقال : إنها أتت
 إلى نفسها وأمرتني أن أنقل لها عليه صورة شيطان . فقلت : يا سيدي ما رأيت الشيطان .

(١) معجم الادباء ، ياقوت ج ١٦ ص ٨٥

(٢) الأديب ، عهد الرحمن بن الجوزي صفحة ٢٦٢

(٣) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ج ٣ ص ١٢ ، ثمرات الأرواق ، ابن حجر الحموي ، هامش

المستطوف ١ ص ١٢ .

لأنت بك ، وقالت ما سمعت ^(٤) ويدري (أنه) اشترى جارية تركية جميلة رجاء أن يلقى منها ولدا يكون بمحضها ، وكأنه ، فولدت له ولدا ، جاء به معه وجعلها ^(٥)

ويبرز هنا سؤال ، يستدعيه الموقف ، ويطلبه المقام ، ويتصل بموضع البحث أوتى اتصال .
وما الذي يدفع الإنسان إلى أن يسخر من نفسه ؟ وما الأسباب التي جذبت الجاحظ إلى السخرة من شكله ، وأوضاعه الناس من خلقته ، ومن بعض تصرفاته ؟
وأجابني عن هذا السؤال تكون بتعداد الدوافع ، وذكر الأسباب التي من أجلها يكشف صاوته وثقل ثقته ، ويفصح عن عيوبه وسقطاته ، ويدعو الناس إلى السخر منها ، وللتعديف مراقبه .

ولم وأول تلك الأسباب في السخرة ، خفة روحه ، ونشاط نفسه ، وبعده عن التزمت وبهله إلى الضحك والإضحاك موجه للسخر مع احترامه شعور غريزي وأحاسيسه ، تدعو إلى منه أن يجعله موضوع سخره ، فيضحي بنفسه ويسخر منها ، فهو يبال بها بتركه في حق نفسه ، وما تقصه من كرامته ومروجه جلها للضحك ، ورفية في التثنية والامتناع ومن أشد ذلك عند الجاحظ فصحت مع الذبان ، وقصته مع القصيرا لبطيخ الألس ، ومن المرائين اللعين كانتا لمران جانبه وهو يركب حمارته ^(٨) .

وقد يقصد به سخره التفسير عن غيظ مكبوت ، وألم دفن ، وكثر من حبهبه ، فيطلب الصريح من طريق السخرة ، عليها تخفف لواعجه ، وتبدى تألوه ويصدا على نفسه وحجته وواقفه ، خيرا من الزمان ، وهزه بالأحداث ، وكأنه بذلك يتمال على كوارث الأيام ، وهو يمارق قاتبا بها وقع له فيها ، قصته مع المتوكل حين صرفه من تأديب ولده فيسحق خلقه ^(١) .

(١) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ج ٢ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥

(٢) المزيج المذكور صفحة ٤٥٨

(٣) القصص ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٣٤٦

(٤) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٦

(٥) الأذكياء ، ابن الجوزي ، صفحة ١٧٤

(٦) انظر الضممة السابقة رقم (٣) بالهامش .

١- وقد يكون سخره من نفسه لفرض حفيف ، وفكرة مأكرة ، يرض من ورائها إلى صرف الناس من عبور ومن البرز بنفسه ، وإلى الضحك من كلامه ، والتكلم بقصته ، فيتبدل السخرته استطلافاً لمعانيه ، وأعجابها بما يرويه ، كما روى الجاحظ في قصته مع الفلام المجنى وسيد (١٠)

٢- وقد يسارع بها لسخر من نفسه ، ويبدأ ريد كرمسا وشه ، فلا يدع لخصه مجالاً يطعمه فيه ، ولا يترك مخمراً يشفي منه حقد قلبه ، وفل نفسه ، وهو بذلك يكتب عدوه ، ويسد عليه المنافذ ، حتى قد تغني شيئاً من ألمه ، فيظل مرجل الفيظ يفلو في قلبه ، لأنه كان يريد امتلاك نظام المبادأة ، وتعداد المريب بنفسه ، وتنسيق الكلام حسب إرادته ، ولكن السخره سبقة إلى ذلك فأنجمه ، وكان سخره من نفسه انتقاماً من خصه ، وتنفيهاً له ، ومن ذلك ضد الجاحظ كما يتذكر التي يروي فيها ما حدث له مع المرأة التي أخذته إلى الصانع ، وقصته مع المرأة الطويلة التي كانت بالسكر (١١)

٣- وقد يسخر من نفسه ، قبل أن يسخر منه غيره ، ومع أنه إفصاح عن مبهمة ، وإبراز لنقائصة إلا أن فيه حظاً من كرامته التي تسقط لوعابه غيره ، لأنه هو الذي لمزكامة نفسه وأوضح الخلل في قوله وتفكيره ، وأظهر التشويه في خلقته وتركيبه ، وكأنه يقول : يهدي لا يهيد هو فيفضح نفسه في جرأة وشجاعة قد يحمد عليها ، ومن هذا اللون سخرية الجاحظ من نفسه لتسببه كنيته وسؤاليه عنها (١٢) ورأيه القاسد فيما فعله الخفافيش (١٤)

٤- وربما كان سخره لإنسان من نفسه سخرها له من مأرق ، أو جأ لها له خيرا ، أو دافعا عنه ضرا ، حيث يحمل المرح في نفس من أراد ضره محل الخضب والانتقام ، فيجد يده الراحة

(١٠) انظر الصفحة السابقة أو التي قبلها رقم (١) بالهامش .

(١١) انظر الصفحة السابقة رقم (٤) بالهامش .

(١٢) انظر الهامش السابق رقم (٢)

(١٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، الجزء الثاني عشر صفحة ٢١٢

(١٤) الحيوان ، الجاحظ ، الجزء الثالث ، صفحة ١٦٧

التي يجعلها الضحك ، مكان نار الحقد الذي يدفعه إلى التشنج فيعقو ويصغ ، وقصة تور
ابن أبي دؤاد الذي أحرق فيه ابن الزيات ثم هرب الجاحظ خوفاً من أن يكون ثلثي
اتهم إذ هما في التورع كما ذكر حين سأله ابن أبي دؤاد ، لم هربت - شاهد طاق
على هذا الضرب من سخر الشخص بنفسه ، فان ابن أبي دؤاد علمه السخاينة ، وضع منه ،
وفك قوده ، وكسبه ، وأجلسه في مجلسه ، وأقبل على حديثه وملاطفته .
على أن ضحك الإنسان من نفسه ، وسخره من خلقته كخلقته أو تصرفه ، ومبعته فيه ، من النفس
وهناك الطبع ، ولها قوة وكياسة ، وسرعة خاطره ، وبعد نظره واستنائه بالحياة ومطالعها ، وذلك
يقوى السخرونية ، ويجعل له طمحة عنكته ، لأن الماخ هو موضوع السخرة وأصلها ،
ومشيتها ، والمطعة بها عواقب حرك والمضحك ، ويظل القصة والفتوح بها .
أما أخلاق الجاحظ فأول ما يطلعنا منها تكلفه بالفكاهة والبرج ، وولمه بالضحك والسخر
وذلك ما نرى في جل تصرفاته ، ونستشرف في سائر مؤلفاته عند أن تجد له كتاباً أو رسالة أو حديثاً
مأثوراً ، فخلوا من تكلمة من مزاح ، ولذع سخره ، فلم يكن الجاحظ بالكاثر المأثور
والعقوب الكالم ، ولربما كان متغافلاً بالحياة ، محباً لها ، مقبلاً عليها ، مستحيماً بأرائها ، خبرها
وتصفتها ، فعرف لها طبعها المتقلب ، من ليونة وقساوة ، وكلاوة ومراة ، فأتخذ من البرج
ترياقاً يلطف به شرها ، ومن السخر دواءً يطيب به أدرانها ، حتى ليضحك إبان شغوغته
ومرضه ، ويولع بالناس ، ويركبهم بسخوه ، مع فالحة ونقرسه ويتكلم حتى يصل تكمته إلى أخلاق
شيوخه وأساتذته ، بل يصل تكمته إلى سلوكه هو وأفكاره وتصرفاته ،
لقد ضحك الجاحظ ما أمكنه ، وضح الضحك ، ودعا إليه ، وحث عليه ، يقول : (وإنسا
أستظرف أومين استظرافاً شديداً : أحدهما استماع حديث الأرواب ، والأمر الآخر
احتجاج متنازعين في الكلام ، وهما لا يحسمان منه شيئاً ، فانهما يثيران من غرسيب

باب سائل ، ولعن حائل ، نقلت للجارية : لا بد من النظر إليه . فقال : هذا رجل ورد
صرة ، وسعى ، ويريد أن يقول : رأيت الجاحظ ، فأذن لي ، فكشخت وسلمت ، فوددنا
بلا فقال : من تكون أمرك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحمه الله أسلافك وآباءك المسحاة
كانت أيامهم رياح الأزفة ، ولقد رأى بهم الخلق خيرا كثيرا ، فسقيا لهم ورعا . فدمرت
وقلت له : أنشدني شيئا ، فقال :

لئن قد كنت قهلي رجال فطالما مشيت على رسل فكتت المقدما
ولكن هذا الدهر تأني صروقه فتبهم مقروضا وتقتض مسسبرما
نمضت فلما قربت من الباب قال : يا فتى ، أرايت مفلوجا ينقمه إلا هليلج ؟ قلت : لا
ل إلا هليلج الذي معك ينقمض ، فأبحث إلى منه . فقلت : نعم وجبت من وقوه على
بهرى . ثم كتني له ، وبعثت له منه شيئا (١٩) ونعم أشد تعجبا من وقوع الجاحظ على هذا
لغيره ولا تفسير له ، إلا ما وصفت به الجاحظ من تقير وتقيب .

أحب الجاحظ أ ساذقة وأصدقائه ، ومدحهم ، ووفى لهم ، وحفظ لهم واجبات الاستاذية
بالصدقة . فأعجب بالنظم أنها وإعجاب وقال عنه (إن لم أقل : لولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم
لملكت المولى من المحقرة ، ظننى أقول : أنه قد أنجى لهم أمورا ، واختصر لهم أهوايا
ظهرت فيها النعمة ، وشكلتهم بها النعمة) (٢٠) كما قال عنه : إن الأرائل يقولون
في كل ألف ستة رجل لا نظير له ، فإن كان ذلك صحيحا فدوا إبراهيم اسحاق النظم (٢١)
كما مدح أباهم بأنه (لم يكن في الأرض خارجي ولا جبان أعلم بجميع العلم منه) (٢٢)

(١٩) جمع الجواهر ، المحصى : صفحة ٢٠٣ ، زهر الآداب ص ١٩٨

(٢٠) ١ لحيوان ، الجاحظ : الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

(٢١) أمراء البها ن ، الجزء الثاني صفحة ٣١٧

(٢٢) ١ البها ن والتبيين ، ١ الجاحظ ، الجزء الأول صفحة ٣٤٧

كما أعجب بهوس بن سيار الأسارى وقال صلى (كان من أعاجيب الدنيا) وكانت فصاحته بالفارسية
 في وزن فصاحته بالعربية (٢٣) فقد كان يعرف لكل ذي حق حقه، ولكل عالم فضله، ولئن تناول
 البعض بسخره، فإنما ذلك دليل الحب، وطرح الحسنة فلهذا الكلفة، والاصق بالقلب
 لأنه لا يسخر إلا ممن لا تقضيه السخرية بقول: (ولمنا من تسمية الأصحاب والخمسة
 ولا غيرها من المستويين في شيء) أما الصاحب فإنا لا نسمية لحرفته، وواجب حقه، والآخر
 لا نسمية ليستر الله عليه، ولما يجب لمن كان في مثل حاله، وإنا نسمي من خرج من هاتين
 الحالين، ولربما سمينا لصاحب إذا كان ممن يحتاج بهذا، ورأى بناءً يظرف، ويجعل ذلك
 ا لظرف سلباً لفتح شيء (٢٤) أليس ذلك دليل المحبة والولاء والاحترام وحسن الصديقة
 وقد كان يتحجج من ذكر ما يسوقهم لأنه يحتم الملاءمة فلا يجب أن يذكر صيغهم وإن كانت
 تهم، وإذا كان ذلك يفضيهم، يقول: (ولولا أن أكون فيها بائناً للملاءمة خاصة، لصورت لك
 في هذا الكتاب بعضاً سمعت من أبي عبيدة، ومن هوأ بعد في وقتك من أبي عبيدة) (٢٥)
 ويقول في كتابه الهخلا: (إن ههنا أحاديث كثيرة من أطلعنا منها حرفاً عرف أصحابها،
 وإن لم نسمهم، ولم نرد ذلك بهم) (٢٦)

كان يرى أن الإنسان يجب أن يلقى جزاء علمه، فلا يلقى به أن يدرسه ولا يصح
 أن يرفق علم فوق قدره، أو يكون حيلة تمنع من دماؤها، أو عيلة تلف على غيرها
 لترشق وتفسد، فذكره للمتصقين بالأدب، والمتفكرين على العلم، والرجلين، وكان يفت
 الشفاعة لأحدهم لأنه يعتبرها شأناً، ولا يستعين بها في السفر، ولا تقبلها نفسه،
 (حدث أبو المينا ومحمد بن القاسم قال: صرت إلى الجاحظ، وقلت له: جئتكم مسلماً

- (٢٣) الهيمان والتهين، الجاحظ، تحقيق هارون ج ١ ص ٣٦٨
 (٢٤) الهخلا، الجاحظ، شرحاً للموامي والجام الجزء الأول صفحة ١٠٧
 (٢٥) البيان والتهين، الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الرابع صفحة ٢٤
 (٢٦) كتاب الهخلا، الجاحظ، ضيف العوامي والجام الجزء الأول صفحة ٣٠

وقاضيا للحق ، ولن حاجة لبعض أصدقائي ، وهن كذا وكذا . قال : لا نشتغلنا بالساعة من
المحادثات ، ونحرف أنفسنا ، وإذا كان في خد وجهك إليك بالكتاب ، فلما كان من خدوجه
إلى الكتاب ، نقلت لابي ، وجه هذا الكتاب إلى فلان ، وفيه حاجته . فقال لي : إن أبا
عثمان بعيد الغور ، فينبغي أن تغضه ، وتظنر ما فيه ، ففعل ، فلذا انى الكتاب ، هذا
الكتاب مع من لا أعرفه ، وقف كلنى فيه من لا أوجب حق ، فلان قضيت حاجته لم أحسنه ،
ولن رده له لم أذنت (٢٧)

من أبلغ أخلاق الجاحظ (ولعمري النقد) ولو ذهبتا نعت نقدنا لمجربنا ، لأنه في كل
صفحة كتبها ، وفي كل مجلس تكلم فيه ، وهو نقد العالم الجرب ، الجدى ، الشجاع - وشهد
فصلا خاصا لجرا ، في النقد هو الفصل الرابع من هذا الباب - ويكفي الآن أن نقول إنه لم
يجد شيئا في غير موضعه إلا نقد ، وإن كان ممن لم يعرفهم ، ولم يجدتهم ، ولا قابلهم من
قبل ، وقد أشرت في أوائل هذا الفصل إلى قصته من البطين الأيسر ، ومع المؤلفين
الذين سخرنا منهم ، وهو يركب حماره ، ومع المرأة الطويلة جدا التي قابلها بالمسكرة ،
فما بالك بمن ما شرهم ، ودأب لقائهم بهم ، وخبر سلوككم موقف على هفاتهم .
كان مضطرا لما لم يروى ولنفسهم وأنا بهم ، مجلا للإسلام ، مناخلا عنه ضد أمواته ، وقف حياته
على خدمة العرب وكنتهم ، والإسلام وجها لله ، ومهاجرتهم من كل نقي ذرف ، وكتبهم
الكثرة الشجرة دليل صدق على ذلك ، فقد ألف كتابه الحيوان ، لإظهار ما في الحيوان
من العجج على حكمة الله العجيبة ، وقدرته الباهرة . وألف كتاب البيان والتهذيب وحشد
فيه الكثير من خطب العرب وأشعارهم وأمثالهم ، وتناول الهلافة والبيان إيجابا بالسب
ولفتهم وقضا حاتم ، كما ألف كتب (الاجتهاد) لنظم القرآن ، وخلق القرآن ، الرد على من
ألحد في كتاب الله ، فرق ما بين النبي والعتن ، كتاب القرآن ، الرد على النصارى واليهود

عند الصبح

عند الصبح

عند الصبح

عند الصبح

قول الدهرية ، وهم أصحاب كل حيرة وشبهة ^(٣٠) . وعزوا اليهم السبب في انتشار البدع والكفر الذي يهدم الإسلام يقول : (فلولا متكلموا النصارى ، وأطهارهم ونجسوها صار إلى أغنيائنا وظرفائنا ومجاننا وآحدائنا شيء من كتب الباطنية والديوانية والمرفضية والفلانية ، ولما عرفوا غير ذات جلاله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم) ^(٣١) .

وسخر من التسمويين ، لطمعنهم على العرب ، وقضهم من لغتهم ودينهم ، ووضعهم العرب في درجة أقل من درجتهم ، وفضهم الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام يقول ابن بحر : (وقد طمعت التسموية على أخذ العرب في خطبها المنعقدة والقناة والقضب) ^(٣٢) . (اعلم أنك لم تعرفوا قط أشقى من هؤلاء التسموية ، ولا أعمى على دينه ولا أشد استملاكا ^(٣٣)) ^(٣٤) . (وللتسموية والآراء مذهبة المهضوم لكل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه)

وسخر من بلاغات الأمم الأخرى كالهند والفارس والرم والزيج ، وأوضح مكانة اللغة العربية للعلاقة بين هذه البلاغات الأقزلم التي تحب وتتمند . يقول : (كل كلام للفارس وكل معنى للمعجم إنما هو من طول فكرة ، ومن اجتداد رأى ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومساورة ومن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شيء للعرب فإنما هو مذهبهم وأرجالهم ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجابة فكلوا استماعة) ^(٣٥) .

— وتمكم بخير اللغة العربية من لغات رآها لا شيء يحتاج المعية ، ومتطلبات التقدم

(٣٠) ثلاث رسائل ، الجاحظ بشر يوشق فنزل صفحة ١٧

(٣١) المصدر المذكور صفحة ٢٠

(٣٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٢٨٣

(٣٣) المصدر السابق ، الجزء الثالث صفحة ٢٩

(٣٤) البهلاء ، الجاحظ ، ضبط العوامي والجامي الجزء الثاني صفحة ٢٠٢

(٣٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الثالث صفحة ٢٨

ولم يظهر له خلل من بعض حروف الهجاء التي أُنبتت لها لمسة فلا يستطوع أبنا هذه
اللغات المختلفة نطق هذه الحروف (قال الأصمى : ليس للبرص ضاء ولا للقرص ثناء)
ولا للمريان ذال (٢٦)

وهي بالخرافات التي شاعت في أمته ، رغبة في ردعها إلى الصواب ، وحفاظاً على أن
تكون خير أمة أخرجت للناس ، تتبصك بديتها الإسلام ، والفتوى ولقطة المدينة * ومن
تلك لخرافات ما رواه الجاحظ في الحيوان : (قد سمعت منه يذكر أن كبراً ذن الإنسان دليل
على طول عمره ، حتى زعموا أن شيخاً من الزنادقة - لعنهم الله تعالى - قدسوه لتضبط
عقله ، فعلم إليه غلام سدى كان له فقال : أليس قد رقت يا مولاي أن من طالت أذنه طال
عمره ؟ قال : بلى ، قال : فما هم يقتلوك ؟ قال : إنما قلت : إن تركوه (٢٧)
ولئن سخر بخرافات عصره وما قبل عصره ، فإنما فعل ذلك حتى لا يلحق بأبنا * أمة العرب
المسلمين شي * من ضلالاتهم وأباطيلهم ، ولينبههم إلى استخدام العقل والنطق ، وعدم
أخذ الأقوال قضاها لا تحتل النقاش ، وإن شهد صاحبها بالعلم والعرفان ، فالعالم يخطئ
وخطؤه أشد من خطأ الجاهل ، وأبعد أثراً .

ذكر الخرافات
التي خربها
الجاهل
من
الخرافات
التي
خربها
الجاهل
من
الخرافات

في هذا نكون قد أكدنا أن الجاحظ وضع نصب عينيه خدمة اللغة العربية وآدابها ، وخدمة
الدين الإسلامي وأهله ، وأن جميع نتاجه ، وكل سخرياته كانت من أجل هذا الهدف
الذي تنظم من دونه الأهداف ، ولعل في ذلك الدليل البين على أنه عربي أصلي .
وأن الدم العربي الفوار يملأ عروقه عزرة وإلهامه نهدي من لغة آباءه وأجداده ، عروقه ودين
قومه وعشيرته .

ومن أخلاق الجاحظ : يمدح من التقليد والاحتذاء ، واستحالة بنفسه ، فما سلم
بغير من الأخبار ولا ارتضى رأياً من الأراء ، قبل أن يعرضه على عقله فيفكره ، ويحمل فيه
فكره فيثبت ، ولو كان رأياً دينياً عقائدياً ، لقمه جمل ، أو عالم تحريده .

(٢٦) المصدر السابق ، الجزء الأول ، صفحة ٦٥

(٢٧) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس ، صفحة ١١٧

وما تدرس في كتابه وتأليفه خطأ من سبقه ، أو عاصره ، وإن أجبت الناس على ما احتسبه
وفوقه ، بل كانت له طريقة خاصة ، وأسلوب معين ، يتميز من كتابها عن غيره ،
وبهذا وضع بين مشايبه فإنه يشير إلى النسق الجاحظي ، والأصلح العثماني ، وهذا على ابن
بهر أوضح دلالة .

وما نهج في مذهبه الكلامي نهج آسائذته الاعتراليين ، بل اختص بآراءه ، وانفرد
بما قوال ، جعلته متميزا عنهم ، واعتقت آراهم جماعة ، نسبت إليها ، ونسبت باسم صاحبها ،
وهنت بين المتكلمين باسم " الجاحظية " . . .

لقد كان يشك حتى يصل إلى اليقين ، فيمتنقه بكل وجدانه ، فيثبت به لا يرتد عنه ، ولا
يبتنى ، وكان يحتبرا لشك المرحلة الأولى للوصول إلى الحقيقة ، ويقول في ذلك (اعرف
مواضع الشك وحالاتها المرجحة لها ، تعرف بها مواضع اليقين ، والحالات المرجحة له) (٣٨)
لم يكن الجاحظي بالزاهد المتسك ، ولا بالمتحلل المتمك ، وإنما كان معتدلا قسما
دينه ، معتدلا في دنياه ، أدى واجبات دينه ، وفروضه ، ودعا المسلمين إلى الشكر في
ملكوت السموات والأرض ، وأمنى ساعات حياتهم الكثرة في الدفاع عن الإسلام ، وإعلاء
شأن المسلمين ، ومشاهدة الجاحدين ، وحثاية المارقين ، وحبب إليهم دينهم ، كما
حبب إليهم دنياهم ، ثم تمتع بما هيج الحياة ، وزينة الدنيا ، والطيهار من العرق ، فأكل
وشرب ، ولعب ولعب ، وضحك وسخر ، وسبح الشنا ، وحضر مجالس الطرب والموسيقا ،
فقال عظه من الدنيا ، ولم يقصر في حق الآخرة ، وذلك هو الاعتدال ، والحد الوسط
المدون بين التفريط والإفراط . يقول : (ولا نهى بالشنا) إذا كان أصله شمرنا
مكسونا نغما ، فما كان منه صدقا فحسن ، وما كان منه كذبا فقمي . وقد قال النبي صلى
الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة " . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه " الشعر
كلام ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح " فإن كان إنما يحرم لأنه يلبس عن ذكر الله .

لقد نجد كثيرا من الأحاديث والمطامير والمشارب، والنظر إلى الجنان والبراهين، واقتصاص
الصيد، والتشافل بالجماع وسائر اللذات، تصد وتلقى من ذكر الله تعالى، فيعلم أن
قطع الشهوة ذكر الله من أمكه ذلك أفضل، إلا أنه إذا أدى الرجل الفرض فبذره الأمر
كلها له مباحة، وإذا قصر عنه يلزمه العائم، ولو سلم من اللذات ذكر الله أحد طمس
الأنبياء عليهم السلام. هذا سليمان بن داود عليه السلام آلهاء عرض الخيل عن الصلاة
حتى غلبت الشمس فترقبها، وقطع رقابتها (٢١).

(حدث أبو الزيال الحديث بمر من رأى، قال: حضر عولية حضرها الجاحظ، وحضرت
عولية أظهر فضيلتها وما صلى الجاحظ، وحضرت صلاة العصر فضيلتها وما صلى الجاحظ، فلما
عزفتا على الانصراف، قال الجاحظ لرب العزلة: إني ما صليت لذهب - أو لسبب - أخبرك
به. فقال له: أ وقيل له: ما أظن أن لك مذهباً في الصلاة إلا تركها) (٤٠).

وتنوس الكلام عن أخلاق الجاحظ، بصفة حار مؤرخوا الأدب في نسبتها إليه وتنبه بينهم
خلاف من أجلبا، من صفة البخل، والسبب في حده يتم منها كتابه "البخل"، وما ذكر
فيه من توادهم ومجاورتهم، وإجاءته ذلك قبل كان الجاحظ بخيلا، وهو من أجل هذا
يحتج للبخل، ويحلل للشح، ويذكر الأدلة والبراهين على صحة هذا المذهب، ويحسبه لنفسه
ويحسبه للقلب، فيسميه بأسماء مدحوه، لا اقتصاد، والتدبير والعزم، والإصلاح، ويضيف
أحاديث نفسه، وخلاجات قواديه إلى غيره من الرجال فيتكلم بلسانه وينسب لهم ما يدور في
قلوبهم، وهو بين أن وآخر يلزم البخل ويحسبه، ويخبر عنه ويروي عنه، حتى تتبين الحقيقة على
القارئ، ويهتدى الأمر فيخيّل إليه أنه إنما تحدث من غيره، وروى قصص من رأى يخلم
والعزم، من ذكر أسماهم، وإن كان لا يحجب بهم، ولا يذهب مذاهبهم عن مذهب القارئ.

(٢١) ثلاث رسائل، الجاحظ، نشر يوشع فinkel، صفحة ٦٤.

(٤٠) تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٢١٧.

أنه قد تم من وصفهم ، وهو في واقع الأمر يعلمهم الجراح ، ويوسم لهم طريق الدفء

التي تهيئ لهم آراء الكرام الأسخياء

يحيى هذا الرأي جماعة من الأستاذان الفاضل ، أحمد المومني ، وعلى الجاني في
تقديمه لكتاب "البخلاء" ويؤكد أنه يقولهما ، (لأن الولوع بالنفس يجب إلى النفس المتحدت
عنه ، وإلا فافضة فيه فلا من عرف الجاحظ وأن من أبهى صفاته ، أن يستعمل يجب أحيانا
بإعلان ما لا يجب ، رجع أنه كان بخيلا ، وأخرى ، أنه جديها نقل في الكتاب رسالتين ،
إحداهما لأبي الماص بن عبد الوهاب ، في ذم البخل وللآخرى لابن القوام ، في مدح البخل
وتدريج أن الرسالتين بقلم الجاحظ لأن الأسلوب أسلوبه والبرق روحه ، والتعريض تعبيره ،
ولأنه لم يستعملهما في غير كتاب البخلاء ، أسهب في الثانية وأجاد ، وصار فيها رجال ،
وأفاض وأطال ، وأكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال الحكماء ، وتقل فيها من
نقل إلى فن ، فيها الإسراف والإعطاء ، من ميزنا البخل والإكدا ، (٤١) فنقولهما إن غناه

واعتسالم الدخوله وما كان فيه من ثروة لا يثنى من أن يكون بخيلا (نقله هو نفسه في كتاب
البخلاء) أن كثرة المال وكثرة الإنفاق ، لا تمنع المرء أن يكون بخيلا ، ضللك الله ، من يسل
المرء (٤٢) ثم يقولان ، (وقد وقفنا بعد هذه المظنون على خبر من أن أبا عثمان كان
بخيلا مشهورا بالبخل في عصره ، فقد جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي والجزء ١٢
صفحة ٢١٧ ، "سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول ، قال لي إبراهيم بن محبوب ونحن
ببغداد ، ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت مالي وله ؟ قال ، إنك إذا
انصرف على خراسان سأ لوك عنه ، فلو دخلت إليه وسمعت كلامه أثم لم يقل لي حسني
دخلت عليه يوما ، فقدم إلينا طبقا عليه وطيب ، فتناولت منه ثلاث وطبات وأمسكت ورفعه
إبراهيم فأنشأ عليه أن يسكن ، فرفعتي الجاحظ ، فقال لي ، دعه يافقي ، فقد كان

(٤١) كتاب البخلاء ، ضبط وشي ، المومني والجاني خالف الجاحظ والجزء الأول صفحة ١٦٥

(٤٢) المصحح السابق صفحة ١٦

عندى فى هذه الأيام بعض الخوانى ، فقد سمت إليه الرطب ، فاستبح ، فاحلقت عليه ، فأبى إلا أن يبرقس بثلاثمائة وطية * وفى هذا الخبر دلالة على شهرة الجاحظ بالهزل . وذلك لأن إنسانا لا يستبح بعد ثلاث رطبات ثم يشتركلى صاحبه بالامتناع ، إلا إذا عرف أن صاحب الرطب بهزل . ثم إن قول الجاحظ : دعه يافق ، يحمل معنى كبرا من الاستسلام ، والصبر على المصيبة ، لمن يفهم أسلوب الجاحظ ، وطرائق تصويره . وأحد إخوان الجاحظ هذا الذى أبى أن يبرقسه إلا بأكل ثلاثمائة رطبة ، إنما كان يقصد إغاضته ، والنكاية به ، ولا يكون ذلك إلا إذا عرف به بالهزل ، والرطب رخيص فى بغداد ، ولا يدرج بالاحتياط لأن يصاب فى ثلاثمائة رطبة بالهزل (٤٢) .

وبما روى هذا الراى الدكتور طه الحاجرى ، فيقول (وهذا كله كلام ملقى على عواصم ، ولا تدرى كيف ذهب عن الأستاذين الفاضلين أن يستنفا هذه السخرية التى تشتم نفسى كلام الجاحظ . وما يرسل من القول على ألسنة البخلاء ، بل كيف غاب عنهما أن أول ميزة لرجل الفن وأظهرها أنه يستطيع أن يتكلم بكل لسان . ويصطنع كل هيئة ، ويتغافل إلى السى براطن النفوس لمختلفة ، فيشرف عليهما ، ويخالطهما ويصورا لحركات المختلفة التى تدخلها ويميز الشخصيات المختلفة بجميع منفعها نجا ، من الحيات والحركات والكلمات . فإذا كان الجاحظ قد أجاد فى رسم شخصيات البخلاء فى كتابه ، وفى إنطاقها بما هو أشبه بها فإنما ذلك فى حقيقته مظهر من مظاهر تلك العزيمة الفنية القوية ، لا أنتم أنتم آثا ربهله وكرازة يده ، ولا يجب أن نخلع على رجل الفن الواحد جميع الصفات المتناقضة التى وصف بها شخصياته ، وأبرزها نبييا (٤٣) .

٤١) المرجع السابق صفحة ١٦

٤٢) البخلاء : الجاحظ ، تحقيق طه الحاجرى ، المقدمة ، صفحة ٣٤ .

ولي بعد ذلك أن أقول :

إن ما كتبه الأستاذان : السوامي والجلال في تقديمهما لكتابتنا لبخلاء ، وما كتبه الدكتور طه الحاجري في مقدمته لكتاب البخلاء ، لا سند له ولا دليل عليه ، وإنما هي شكوك وظنون لا تنهز نموش الدليل المقنع : ، والحجة القارعة ، فكلام الأستاذين منقوض لأسباب :
 ١- إن الجاحظ يتسم بالفكاهة والعي ، والدعابة والسخر ، ويشتبه بين أدبائه عصره وفير عصره ، بالاحتجاج للنسي ، وضده ، ومدح الشئ ، ثم ذمه ، لإظهارا للبراعة البيانية ، والقدرة الذهنية ، والذخيرة المنطقية ، وقد فعل ذلك في عدة مواطن ، ففعل الكتاب وذمهم ، ومدح المعلمين وذمهم ، ومدح الوراقين وذمهم ، ومدح العلم وذمها ، وما لتالي مدح البخل وذمه ، وقد كتب في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل ، غرض الموضوع حق ، وبين من لطيف الخدع ، وفرايب الحيل مالا ييلفه كيد . فويل كان الجاحظ بذلك أحد لصوص النهار ، أو زعيم سراق الليل حتى نتمسه إلى البخل إن كتب فيه ، لا قطعاً فإن ميزته الأدبية أن يجول في كل غرض ، ولا يعجز عن تناول أي موضوع ، وأن يستطيع الأمور ، ويتصق الشخصيات ، يتكلم عن البخل حتى نظنه بخيلاً ، ومن الكم حتى نحسه كريماً ، ومن اللصوصية حتى نخاله لرئيس المقدم في البسط والنسب وذلك دليل الاقتدار والمارة الموهبة الفنية ، والسيطرة القلمية :

ولما كان رحمه الله يشعر بما ستأتي به الأيام من معارضين يسبون إليه اعتناق المذاهب والأخلاق التي يتحدث عنها كما فعلوا في عصره ، فسجل لهم ذلك في كتابه الحيوان فقال :
 (ويحتج بحكاية قول العثمانية والضاربة ، كما سمعني أقول في أول كتابي وقالت العثمانية والضاربة كما سمعني أقول قالت الرافضة ولزيدية حكمت علي بالنصب لحكايتي فبلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي وهلاكت عندك من الفالية لحكايتي حجج الفالية ، كما كتبت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة (٤٤) . وكأنه من برزخه يقول للأستاذين : وحكما علي

بالهزل لحكايتي أقوال البخلاء وللهم وأسأئدهم ، فبلا حكتشا هلى بالكم لحكايتى فضائل
الكرماء ، وبراهمين الأجواد الأسخياء .

٢- إنه كتب كتابا لبخلاء لواحد من رجال عصره كما يقول فى مظلحه : (قلت اذكر لى
توارد لبخلاء واحتجاج الأشياء وما يجوز من ذلك فى باب الهزل وما يجوز من
فى باب الجد) (٤٥) فكتب له ما أراد ، ووفى الموضوع حقه ، كما كتب له الكتب من قبل
قوما ما حقها ، وقد كان معروفا عنه أنه يكتب كتبه استجابة لرفها ت رجال من طلبة عصره
ويصدقها لهم ، ويغال جزاء كل منها آلفا لدنانيره فكان من الهدى أن يكتب من احتجاج
الأشياء فى رسالة ابن التوام فى مدح البخل ، وأن نواه قد أسهب وأجاد ، وقال وقال
وأغاضى وأطال واستكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث ، وانتقل من فن إلى فن مطعها
الإسراف والإعطاء ، فزينا لبخل وإكدا - كما ذكر المواهب والجام - لأن هذه طبيعة
الكتاب ، ورفقة من تنبأه ، والسبب الذى من أجله أنبئ .

٣- أما تلقين الجاحظ بخلاء العجج على حسن الاتصاف بأدبار المال ، وتسميه الصلاح
والحزم والتدبير الذى هو صا د الحياة المسترزة الفاضلة ، فإنه أرق أنواع المستسر
والهزة ، من طريق ذكر الضد والتقيض ، والذم فى صورة المدح ، والتأنيب والتشهير ،
فى صورة النصيح والإرشاد ، وللجاحظ فى كتابه ولوع بقل هذا اللون الأدبى الهللى
ملا به رسالة الترييح والتدوير تنكها بأحمد بن عبد الوهاب :

٤- إن إجادة الجاحظ كتابته عن البخل ، وحده الملل والبراهمين فى مدحه ، فى
الرسالة التى كتبها على لسان ابن التوام ، يدل على أن البخل ليس من طبعه أكثر مما
يدل على أنه من صفاته لأن العدة لا يتكلف العجج والبراهمين ، ويتأنيق فيها ، ويصنى
نفسه شقتها إلا إذا أحسن ما يحتج له ليس من طبعه ، فهو يحاول بما أوفى من جوده

أن يثبتته ويؤكدته ، فهو يكثر من الأدلة ، ويلجأ إلى الجدول والسفينة لعلها تعهد وتجدى
 - ويصترف الأستاذان بأن رأيهما في بخل الجاحظ يقوى على الظن - وهو كذلك فعلا -
 ولكلهما يستدلان بقصته مع ضيفيه ، وقد أطمعهما الرطب على بخله .

ورأى أن في القصة لونا من فكاهة الجاحظ ، التي ما كانت تفارقه حتى تفارقه روحه ،
 وليس فيها دليل بخله ونسجه ، فقد قدم طبق الرطب وكان يحكه ألا يقدم ، أو يقدم رطبات
 محدودة ، على مقدار شحمه . وإسماك أبي بكر بعد ثلاث رطبات لا يدل على بخل صاحب
 الرطب . فربما أمسك وقارا واحتشاما وهو بحضرة الشيخ الجليل ، وربما أمسك لينصرف
 إلى محادثة الشيخ والأخذ عنه ، فكره انشغاله بالأكل ، ولعله أشار إلى صاحبه بالإسماك
 لما أمسك من أجله ، أو لمسرعه فعاله وتناوله الرطب في شواهة ، ألا تشعر عبارة (ويرى نفسه
 إبراهيم) بمسرعه الأكل وقدر المأكلة ؟

ويوق الجاحظ أبا بكره وقوله له : دعه يا فتى ، أذلك دليل على البخل أم دليل على
 الكرم ؟ إنني أعتبره دليل الكرم ، فقد كان يوسع الجاحظ أن يتناضى عما كان بين الرجلين
 ولا يتكلم ، وكأنه لم ير شيئا ، وحدث الامتناع من الأكل بأيسر طريق ، ولكن نظرة الجاحظ
 لأبي بكر ربما كانت نظرة عتاب ، أجهلها بقوله أمرا ، دعه يا فتى ، أما بقية القصة فمن باب البخل
 والإضحاح ، والسخرية من الرجل الذي امتنع عما من تناول الرطب ، وأهدى تعفقه وتأنسه

ثم التزم ثلاثمائة رطبة ، ليس في ذلك ما يدعو إلى رواية قصته والتعذر بهذا ؟
 وكلام الدكتور الحاجز في نقض رأي الاستاذين مقبول مستجاد ، مدعوم بالدليل المستقيم
 لكنه نقض بخله ، ولم يثبت صفة بدليها ويرى من عليها .

طوبى أصف الجاحظ بالاعتدال ، فلا هيبة للشيخ الكره ولا بالمسرف المتلاف ، فصفته
 هنا معتدلة لا تتصل بأحد النقيضين ، ولو أنه كان بخله ، أو كرمه لما سكنت المورخون

الفصل الثاني

علمه وأدبه

رضي فقرا الجاحظ وموزه ، وصخره وشبهه ، وشاعته خلقتهم ، وقواته علمه ، وسعة للمحصل
 منذ نمومة أظفاره ، منذ رجا في هذا المجتمع العاج ، قطرة من محيطه ، ليكسب قوته وقوت
 أمه ، مما يفضل عليه بيع الخبر والسك في سحان ، فقد كسب كل الدلائل تشر بمولد
 مهقرة فريدة ، وترشد إلى قرب ظهور عالم فذ ، وأدب علقى ، وكان الزمن ينهر بأصمته
 إلى هذا الصبي ، أليزي الهيئة ، ألهنح الخلقة ، الذي لا يحسن أحد بوجوده ، ويظهر إليه
 نظرة خاصة ، على أنه سيكون في قابل أيامه ذا شأن وخطر ، فقه كانت أمارات النجابة
 تبد عليه ، وسخايل الذكاء تنبع من عينيه ، ووضعت في القراءة والحرفة لا تعترف بالحدود
 والقيود ، فبدأ يتعلم القراحة والكتابة وما دى الدين والمليح في كتاب أبي الفزد وأبي
 عدنان ، وكاننا صالحين نصيحين قال حينما ألياحظ ، وما كان عندنا بالهجرة رجلا
 أرى لصنوف العلم ، ولا أحسن بيانا من أبي الفزد وأبي عدنان المحققين ، وحالهما حسن
 أول ما أذكر من أيام الصبا (١) ، وفتحت عليه علوم العلم ، فحشق الكتب ، ولزمها يرتشف
 من رحيقها ، إلا أنه كان صديقا لا يرتوي من هذا العمل الذي يحسن في نفسه وقليبه
 بالظن الدائم إليه ، فكان يطلبه في أماكنه وظلته ، ولا يمتعه من ذلك فقره ، ولا يعرفه
 سميه في الحياض فركه ، بل كثيرا طاجع وأهل علمه في سبيل الكتب ، ومن ذلك ما يرى
 أنه طلب الطعام يوما من أمه فجاثته بطبق فمكثا ربه ، فقال لها ، ما هذا ؟ قالت ، هذا
 الذي تبي . به (٢) .

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول صفحة ٢٥٢

(٢) أمراء البيان ، محمد كرد علي ج ٢ ص ٢١٨ ، النسخة والأمل للعرفاني ص ٢٨

ولقد وجد في الكتاب بلس نفسه ، وهواه قلبه ، فاستفاض من النظر إلى ما في أيدي الأفتية
 بما لنظر إلى ما في الكتاب من دبره وانصرف عن البحث فيها يذهب لقوه إلى البحث عما يذهب
 جملته ، وأراد أن يكون وراء الشكل القبيح الذي تزدريه الأيمن ، وتقر عنه ، نفس مشرقه
 وحلق نير ، يسعى لهذا الناس ، ولحون في نيل ما عنده منكما ، فجعل الكتاب سبيله إلى
 ذلك ، وصديقه وبرعده ، وحاله وقوام به هنا فمن هنا آخره فأقبل عليه ، وجعله عدل نفسه ،
 وتبين روحه ، وكانت له في قلبه منزلة أمان عدا في قوله ، (الكتاب وهواه يلى علما ، وظرف
 حشى ظرفا ، وطنا شجن مزاجا جدا ، إن شئت كان أبلغ من سبحان وأثل ، وإن شئت كان
 أعمى من بأقل ، وإن شئت ضحك من نوادره ، وإن شئت عجب من غرائب فرائده ، وإن شئت
 ألهتك طرائفه ، وإن شئت أشجيتك مواظمه ، ومن لك مواظمه ، ومزاجه منهنه هناك ،
 وهنا طق أخرس ، وبهارد حاره ، وفي البارد القار يقول الحسن بن هانئ ،
 قل لزجير إذا انشئ رشدا
 أقلل أو أكثر فأنت مهذار
 منعت من شدة البرودة حشيتى صرت عندي كلك التماس
 لا يعجب السامعون من صفيتى كذلك الفلج بارد حار (٢)
 ويقول : (وهبت الكتاب ولا أعلم جارا أبوه ولا خليطا أنصفه ولا رفقا أطوعه ولا محلسا
 أخضع ...) (٤)

ولم يكن لعمره وإملاقه - يستطيع أن يشتري الكتب التي تشبع بهمه ، ولغلاء أسعارها ،
 ولكثر ما يقرأ منها ، ففتش ذهنه عن أكثر ما كان الواقين ليل ، بهت فيها للقراءة والنظر
 لأن (من أحتاج تحركت حسنه ، وكثر تفكيره ، وصيب القى أنه يوثق الهلابة وفوضا -
 (٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق حارون ، الجزء الأول ، صفحة ٣٩ ، ٣٩ الطبعة الأولى
 (٤) المصدر السابق ، صفحة ٤١

المفكر أنه يبحث الفكر (٥).

ورأى القراءة وحدها غير كافية في تكوين العقل ، وتوجيه الفكر فأحسن حاجته إلى السماع
والنقاش ، فجلس في حلقات المسجد بين ، وشارك فيها ، وأراد تقويم لسانه ، وتعديل لهجته
في دولة حوت العديد من أجناس البشر ولغاتهم ولهجاتهم ، وتوسيت ألفاظها إلى
ألسنة العرب البخلص ، وانتشر اللحن ، فسمى إلى العريد - عكاظ الإسلام - بطلق الفصاحة
بمشافهة الأعراب المقيمين حوله ، وقد قال في ذلك ، (وقد أدركت رواة المسجد بين والعريد بين)^(٦)
وهو مع ذلك لا يكتف من القراءة ، ولا يمل الاطلاع ، ثم اتحل بمشاهير مصره علما ونقدا وأدبا
واعترالا ، وجا لسمهم ، وباحثهم ، وأخذ عنهم ، وروى لهم ، وقد كانوا غرة في جبين الزمن
وتاجا على علم العلم والأدب ، وشموسا تشع نقدا ولعنا وكماء منهم أبو يوسف صاحب أبي
خليفة ، والنظام ، وشامة ابن الأكرس ، والسوى بن عدي ، وهنيد بن حارون والأصمى وأبو
عبيدة معمر بن المنى وابن كركرة ، ويحيى بن تميم ، ويحيى بن مالك عمرو بن كركرة مع من جالست من رواة البهتاديين
فما رأيت أحدا منهم قصد إلى شعري النسيب فأشده ، وكان خلف يجمع كل ذلك)^(٧)
ويقول عن أبي عبيدة : (لم يكن في الأرض خاير ولا جملي أعلم بجميع العلم منه)^(٨)
ويقول عن شامة بن الأشج : (ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي ، كان يلح من
حسن الإقناع مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان
يلحه ، وكان لفظه في فن إنشائه ، ومخناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك

(٥) البهتاد ، الجاحظ ، ضبط المواضع والنجاش الجز الثاني صفحة ١٢٦ .

(٦) البيان والتبيين ، الجاحظ ، الجزء الرابع صفحة ٢٢ .

(٧) المصدر المذكور صفحة ٢٣ و ٢٤ .

(٨) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٣٤٧ .

يأسرع من معناه إلى قلبك (١). ويقول عن النظم إنه (ما رأى أحدا أعلم بالكلام والفقه منه) (٢) (وإن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظيره ، فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظام) (٣).

ولما توسعت الدولة في الترجمة ، وظلت العلم والآداب والثقافات الأجنبية إلى الفلسفة العربية ، وصار هذا الفيلسوف من المعرفة في مشاكل الحبيب ، حب الجاحظ بقرا ويستوعب ، ويتفوق فوله جديدة من مجالي العلم والأدب ، ويقاين بوزان ، ويبحث وينقد ويؤثر بهذه الثقافات ، فأفادته أيضا إفاضة ، وخاصة المنطق والفلسفة اللذان أحدثا الأثر الكبير في تحليله واستدلالاته ، وآرائه ، ومذهبه الكلاسيكي ، وسفسطه وجدله في بعض الأحيان ، وما أضفاه من معلومات عن الحيوان من كتاب أرسطو كما ذكر في مقدمة حياته .

وهذا يتم نضج الجاحظ الذهني والأدبي والعلمي والثقافي ، وتوجه إلى التأليف والتصنيف ، وخدمته الدولة واللغة والإسلام ، وهو في هذه المرحلة العلمية الأدبية الشائقة التي بدأت بمعرفة القراءة ، وانتشرت بسقوط أجلاء الكتب على رأسه فأخذت أناسه - ضايع على أحكم ما تكون - المعاصية الفكرية ، رين نفسه بنفسه ، وهذب عقله فوصل لسانه ، ورس لنفسه المخططة وتتبع خطوطه ، فما أنتم حتى كان ما أراد ، قد تحقق ، وارتقى من بائع خبز رسل إلى جليس أمراء وخلفاء ، ورئيس طائفة اعترالية تمت باسمه ، وصاحب ضيعة لا تتعجز إلى تجليل ولا تسيد ، ودعوات جويحة إليه من الخلفاء ، ملحة في الكتابة لهم ، والشخص إلىهم ، ويظهر فخمه ، ينال على الرتبة ، وليس أجود الطبرى وألينه . سأله رجل عن حاله فقال : (حال أن العزيز يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويؤثر الخليفة الصلات إلى لسي

(١) المصدر المذكور صفحة ١١١

(٢) البراء البهاني ، الجزء الثاني صفحة ٢١٧

(٣) السويدي نفسه والصفحة نفسها

وَأَكْرَمَ من لحم الطير أسفكتاه ، وأليس من الثياب البهاء وأجلس على آيين الطيرى ، وأتقى
على هذا الرش ، ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالنبي . فقال الرجل : الفج ما أنت
فيه ! فقال : هل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى
فهذا هو الفج (١٢) .

وكان وكده دائمة فى رحلة حياته مع العلم والآدب ، أن ينتقى الأجود ، ويختار الأمل ،
فانتقى من الكتائب : كتاب أبي عدنان وأبي الزيد ، واختار للسمر والأخبار ورواية الآثار ،
المسجد بين رغب لتقويم لغته ولسانه ، المرید ، حصن اللغة وشعرها ، وأرتضى من علماء
الكلام النظم وشاعره بن الأشرس ، ومن اللغويين الأصمى وأبا عبيدة ، ومن الحكماء ابن
جناح ، ومن النقباء أبا يوسف ، ومن القصص النضار موسى بن سيار الأسوارى ، فترس
على أيدي كل هؤلاء فخرجوه ناهية عصره ، ووحيد دهره ، حتى نأق أساتذته وذمه ، أضاف
إلى ذلك تربية الزن له ، وكثرة رحلاته ، واحتكاكه بصنوف الناس ، ومواكبته أحداث أمته ومشاركته
فيها زهاء قرن من الزمان ، وصادت له التريية تربية طيبة ، وتنبه أصيلة منذ ذا من أسباب التمسو
والسوق ، أدى بالجاذظ إلى أن صار قمة عصره وما بعد عصره إلى اليوم .

ولقد ساعده على ذلك ذكاء لمع ، وقريحة مؤتية ، ورفهة فى التعلم والتفوق صادقة ،
وقوة حافظة ونقرسة ، وتذكر لما مر به منذ طفولته حتى كهولته ، ولو كان ثانيا دقيقا فيقول فى
كتابه الحيوان رواية قصة رآها فى طفولته بالكتاب : (وأنا حفظك الله - رأيت كلبا حرة فوس
الحى ، ففرض لى صبي يستقى " مهديا " من أولاد القضاين ، وجو قائم يحول لوجه ، ونعش
وجهه ، ففقع ثنيته دون موضع الجفن من عينه اليسرى ، فخرق اللحم الذى دون المظم إلى
شطر خذه ، فوس به بلقياعا على وجهه ، وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة مخرج منه من الدم

(١٢) أدب الجاحظ : حسن السندون ص ٢٤ ، الجاحظ : جورج غريب صفحة ١٧ ، ١٨ .

ما ظننت أنه لا يمشي رحمه ، وفي السلام مبهورا قائما لا ينس ، وأسكتة القرع ، وفي طائر
 القلب ، ثم غيظ ذلك الموضع ، ورأيت بعد ذلك بشير وقد عاد إلى الكتاب ، وليس في وجهه
 من الشتر إلا موضع الخيط الذي خيظه فلم ينجح إلى أن يرى عولا هرة ولا دعا بها حتى إذا
 رآه صاح ردده ، ولا بال جرو ولا علقه ، ولا أصابه ما يقولون قلل ولا كثره ولم أجد أحدا
 من تلك المناجيح يشك أنهم لم يروا كلها قط أكلب ، ولا أقصد طبعا منه ، فهذا الذي عاينت^(١٢)
 ونحن نرى في هذه القصة دقة لتصويره وجودة التفصيل ، والبسط وتذكر كل ما حدث وبقداره
 وقته ومكانه وأثره ونتيجته وكأننا نرى لنا الجاحظ حاديا يقع أمامه الآن ، لاحتادة مضي
 علينا محو ثمانين عاما من عمره خلق بها أن تضع في زوايا النسيان والإهمال .
 تكلم الجاحظ عن الثقافات التي سادت عصره وتحدث عن النقل والترجمة في زمنه ، وذكر
 بعض الكتب ، وألحظ التي انتقلت من الفارسية أو اليونانية أو الهندية إلى العربية .
 ونلاحظ في كلامه معرفة بهذه اللغات ، قد تكون قليلة ضئيلة وقد تكون واسعة غزيرة ، ولهذا
 وصلته من صحبته لحارفي هذه اللغات ومشافهتهم ، فقد كان يتحدث إلى سلسيه وابن
 ماسويه ، وعنون بن إسماعيل ، وشمسون الطبيب ، وقد تتقف كل هؤلاء بالثقافة اليونانية ،
 وروفا الغشما ، كما كان ينقل عن ابن المقفع الفارس الأصل ، ويتكلم كثيرا عن المانية
 وهما دتسم ، وروان المجوس ، وقا ندهم وطوائفهم ، وفي كلها فارسية ، كما تكلم عن بلاغة
 الهند وشيتا من حكمهم .

إلا أنني أعتقد أنه كان يعرف الفارسية ، بل يجيدها ، وأبني اعتقادي على عدة شواهد
 ودلالات .

١- كانت طلبة العرب وارتباطهم بالفرس أكثر من صلتهم وارتباطهم بالأجناد من الأخرى
 كالمندية واليونانية .

لهذه هم جزء من أرض الدولة ، خاضعة للخلافة العباسية . وهم الذين مكوا للمعمر

العباسي وأسموا في بناء الدولة ورعيها . . . وهم الذين تولوا رعي الناصب التي لم يتولوا

محمد من غير العرب سواهم ، ثم هيئوا الوظائف في الدولة - بهمكم وضعهم - للكثيرين من

العباسيين . . . ولأن المجتمع الفارسي في الدولة العباسية كان أكثر الأجناس أعداداً بعد

العرب . وهذا صارت الدولة عربية في خلافتها ودينها ، فارسية في كل شيء . بعد ذلك .

فلا عجب أن تنتشر الفارسية وتتميز وتدخل في لسان العرب وخاصة الجاهظ الذي يديم

القبالة والاطلاع والبحث ، كما يديم الاتصال بالوزراء والأدباء والتراجمة .

٢ - وجدت بعضي جعل فارسية في مؤلفات الجاهظ منها قوله في قصة المراتي : (لو خرجت

من جلدك لم أعرفك . ترجمة هذا الكلام بالفارسية : " اكر از پوست بارون بمانی نشناستم " (١٤)

٣ - بحث في اللغة الفارسية ، ومعرفة الاشتقاقات فيها فهو يقول : إن الفرس تسمى الأشياء

بالاشتقاق فلكل تقول للنعامة : أشتر مرغ ، وكذا نهم في التقدير قالوا طائر جميل . وهم يسمون

الشيء المراد حلوه : فرش شيرين ، وهو في التفسير حلوه من . والجاموس في الفارسية

كواشيه ، وطأ به : ضاني بقري لأنهم وجدوا فيه مشابهة الكشر وكثيرا من مشابهة الثور .

ورجعه الضبع عندهم روى گفتار . والديك في لغتهم شاهمرك (١٥)

٤ - حديثه من موسى بن سيار الأسواري ، يقول عنه (كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته

بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور ، فتعقد العرب من يمينه والفرس من يساره ،

فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها

لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هوأ بين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد

(١٤) البخل : الجاهظ ، تحقيق طبر الحاجري صفحة ٢٢ .

(١٥) العيون : الجاهظ ، صفحة ١٤٣ ج ٦ ص ٤٥٢ ، ج ١ ص ٤٤٢ ، ج ٤ ص ٢٤٢ .

أدخلت كل واحدة منها الضم على صاحبها ، إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار
الأسدي (١٦) .

إن هذا الفصل يعرفنا بالجم الجاحظ بالفارسية فحسب ، بل بين لنا أنه أجادها
وهيئة بلغة ، وخباياها مكتى صاميزانا ، وحديثها ، من فصاحة العربية ، وفصاحة
الفارسية وبين الرجحان والمساواة ، فيحكم للأسدي بأن فصاحته فيها على قدم المساواة
وأن بيانته في كل منهما بلغ النهاية .

هـ روايته شعرا فارسيا (كما قال يزيد بن زبيدة بن مفرغ ،
أب است نهذا ست
عصاوات زبيب است
سنية روسيد است) (١٧)

أوشعرا أكونا رسي كقول أسود بن أبي كريمة :
(لنم الفراء نـ)
بكرة في يوم طيف
لتنايلت عليه
قد حشا الداذى صرنا
ثم كتم دوما
إن جلدي ديفتم
وأبرعة عدى
جالس أندر مكسا
أن كوريد نمست
أيا عبد بهوشتم (١٨)

كما تأتى بالثقافة اليونانية ، فيبدو واضحا في نقله عن أرسطو ، واعتراؤه بهذا النقل
والإشارة له ، وتلقيه " صاحب المتطق " وجعله أحد الأركان والمصادر التي استند عليها
في تأليف كتابه الحيوان ، إذ جعل كتاب الحيوان لأرسطو مرندا له وحاديا ، وإن كان

(١٦) البيان والتبيين : الجاحظ ، الجزء الأول / صفحة ٢٦٨

(١٧) المصدر المذكور صفحة ١٤٣

(١٨) المصدر المذكور صفحة ١٤٢ ، ١٤٤

قد نقد منه ما لا يرقه ، وشك في بعضه ، وتوقف عند أخباره ، ووافق صاحبه في كثير من آرائه ، ولكن بعد التحقيق والمساودة والتجربة ، وتواتر أخبار الثقات على ما سيأتى .

كما تأثر بالمنطق في أساليبه وتقسيمه ، يقول : (إن العالم بنا فيه من الأجسام على ثلاثة أنواع : متفق ، ومختلف ، ومتضاد ، وكلها في جملة القول ، جمال ، ونام ، وكان حقيقة القول في الأجسام من هذه أن يقال : نام ، وغير نام . . . ثم الناس على قسمين حيوان ونبات والحيوان على أربعة أقسام : شئ . . . يعنى ، وشئ . . . يظهره وشئ . . . يسبح وشئ . . . ينسبح . . . إلا أن كل طائر يسبح ، وليس الذى يسبح ولا يظهره يسبح طائرا . . . والفرس الذى يسبح أربعة أقسام : ناس ، ونبات ، وسبح ، وشراب) (١٩) .

ويقول : (ووجدت لحكمة على ضربين : شئ . . . جعل حكمة ، وهو لا يحقل الحكمة ولها قسمة الحكمة ، وشئ . . . جعل حكمة وهو يحقل الحكمة وصاقبة الحكمة ، فاستوى بذلك الشئ . . . العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على الحكمة ، واختلافا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل والآخر دليل يستدل ، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل ، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجمل في الدلالة وشئ عدم الاستدلال ، وأجبت للإنسان أن كان دليله مستدلا) (٢٠) .

وقد قرأ كتاب الحيوان لأرسطو ونقشه ونقّب فيه يقول : (وقد أكثر في هذا الباب أرسطو

طاليس) ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه (٢١) .

اتسمت ثقافة الجاهل ، وازدهمت في رأسه العلم والفنون ، فقد أحاط بأقسام عصبه وما قبل عصبه ، وأتقن كثيرا من الصناعات ، فصار دائرة معارف تسمى على قدره وهذه المعارف التي اختزنها في ذاكرته ، قد فحصها من قبل بهجر عقله ، ووزنها بميزان نقده

(١٩) الحيوان الجاهل : الجزء الأول صفحة ٢٦ ، ٢٧ .

(٢٠) الحيوان ج ٦ ص ١٧ .

(٢١) الحيوان ج ١ ص ٢٢ .

لما ثبت خطره منها فناء وطرحه فوالم يثبت خطره وضعه على منضدة الشك وشرحه بتأنيده
وأخبر به غلاته ثم احتفظ بها سلم منه في خزانة عقلم ، يأخذ منها عند الحاجة ، علمي
قد رزقه الحاجة ، وهو لم يحتج لشيء إلا وجد في الخزانة ما يمد الخلاء ، وفي المطلوب
على أتم وجهه أحسنه ، (قليل ، لأبي الميناء ، ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟
فقال ، ليت شعري وأي شيء كان الجاحظ لا يحسن ؟ وفيه يقول الشاعر .
ولقد رأيت العلم يسوء ما ما رواه الألفظ .
حتى أقام طريقه صروبن بحر الجاحظ (٢٢)

تتقف بكل علم ، وشارك في كل فن ، حتى المتكلمات اليدوية كانت له بها معرفة وإجادة
والقصة التالية تبين حذقه صنعة النجده قال ، (ويصل ذلك قول تجار كان مندى ، دعوت لتعليق
باب ثمن كرم فملقه ، فأحكم تعليقه ، ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب إذا
أردت إصفاقه ، فقلت له ، أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق هديج ، ولكن
اتق لي موضعها ، فلما ثقبه ، وأخذ حقه ، ولأني ظننته للانصراف ، والتفت إلى
فقال ، قد جودت الثقب ، ولكن انظر أي تجار يدق فيه العزة ، فإنه إن أخطأ بطرقة
واحدة شق الباب ، والشق عيب . فعملت أنه يفهم صناعته فيما تأمل (٢٣)

واهتم بتأليف الكتب ، وتصنيفها ، لأنها أبقى على الزين ، ولأن ما فيها ثابت مشدد
لما حبه أو عليه ، فلا يمكنه إنكاره ، أو تزويره ، كما أن غيره يمسر عليه تحريفه وتبدله
يقول ، (وقد قال ذو الرية لعيسى بن عمر : اكتب شعري ، فالكتاب أحب إلي من الحفاظ
لأن الأعرابي ينسى الكلمة ، وقد سهر الشاعر في طلبها ، ليلته ، تضع في موضعها كلمة
في وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام) (٢٤) .
(لولا الكتب المدونة ، والأخبار المخددة ، والحكم المخطوطة التي تحصن الحساب وغير الحساب

٢٢٢ . صحيح الجواهر : المصنوع : صفحة ٢٠٤
(٢٢) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثالث صفحة ٢٧٦ ، ٢٧٧ طبعة ١٩٣٨ م
(٢٤) المصدر المذكور ، الجزء الأول ، صفحة ٤١

لهطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مغزى إلى موضع
استذكاره ولو تم ذلك لحرينا أكثر النفع (٢٥)

ويطعن من أبي عمرو بن العلاء قوله : (ما دخلت على رجل قط ولا مريت بهاه لرباه ينظر
في دفتره وجليسه فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أفضل منه) (٢٦)

(وقال بعضهم : كنت عند بعض العلماء ، فكنت أكتب عنهم بعضاً ، وأدع بعضاً ، فقال
لي : أكتب كل ما تسمع ، فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض) (٢٧)

ولأنه لو اعتد على معاصرات الناس ، وما يلقيه من دروس ، لاستفاد منهم عدد ضئيل
من الناس ، لا يقام بجانب قراء كتيبه يولتمرضي للباراة والجدل من بعضهم ، فيضيع الوقت
هباءً ، ولتعمل من سخطهم ، وتضيقهم ، وتضليلهم ، ما يضيق به صدره ، ولأنه أراد
بالكتاب إثبات حججه ، وإبطال آراء خصومه ، وكشف السوءين الغريين ، والمجدلين

المغرفين ، فلا حجب أن رأينا من يذكر أن كتيبه قاربت الأربعمائة كتاب ، ومن يذكر أنها

ثلاثمائة وخمسين ، ومن يعد الثمانين شيئاً الذي وصل إليها مع ما ذكره الجاحظ شيئاً

مقدّمات كتيبه مائة وثيلاً وسبعين ، أو مائة وثلاثة وخمسين كتاباً . وعلى أية حال فقد خلف

لنا العدد الوفير والإنتاج الغزير في جميع أبواب العلم والأدب والمعرفة والفن ، ذكر

كثيراً منها في مقدمات كتبه ، وبين أيدينا الآن عدد ما ذكره ومن غير ما ذكره .

أما مصادر هذا العلم الغزير ، فأشمار العرب ومرواتهم ، وقصصهم ، وعلومهم

وأخبار حياتهم ، وما نقل من كتب فارسية وهندية يونانية ، ثم ما ذاع في عصره من ثقافات

وما كان عند علماء عصره من معارف ، ثم اجتثاده وحده ، وملاحظته وتجربته ، وشاهدته

وما استخلصه من حياته الطويلة ، ورحلاته الحديدة . وقد كان يعتمد في آرائه على

(٢٥) المصدر السابق صفحة ٤٧ .

(٢٦) الحيوان ج ١ ص ٦٠ .

(٢٧) الحيوان ج ١ ص ٥٨ .

المقل يقول : (فلا تذهب إلى ما ترك الصين ، واذهب إلى ما ترك المقل ، والأمور
 حكمان ، حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للمقل ، والمقل هو الحجة) (٢٨) . ويقول : (ولمعنى
 إن الصين لخطئ ، لأن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للأص ، وما الاستبانة
 الصحيحة إلا للمقل ، وإن كان زماما على الأعضاء ، وما را على الحواس) (٢٩) . وهو ليس
 الهت والمقير واستيطان الأشياء ليعرف كنهها وزيفها ، وهم الاقتصار على الكتب فإن فيها
 الصحيح والمكذوب كما رغب في تحكيم العقل فيما يقرأ الإنسان وما يرى ، فلم يكن الجاحظ
 صحيحا يحس عقله بما في الكتب كيفما كان ، ويديه علما ونظرا دون تدقيق وتعميق ، بل
 كان بحثا نظارا تقريرا ، يعمل عقله في كل شيء ، ليؤكد ما عدله عليه حواسه بأوليفيه ،
 فوسيلته في المعرفة العقل يؤكد ما ترشد إليه الحواس ، أو يستقل بالحكم وحده ، إن لم
 تلده الحواس يقول : (ليس يغنيني إلا المحاينة) (٣٠) . ويقول : (كل قول يكذب الموان
 فهو أعمش خطأ وأصحف مذبا ، وأدل على معاندة شديدة أو غفلة مغرطة) (٣١) . لأن
 المقل قد ينحرف كذا تنحرف الحواس ، فالمعرفة الحق في العقل تلده الحواس وتسانده
 فلا موحكما ن كما يقول .

وكان يشك في الشيء ، وينقب في جوانبه وخفاياه حتى يصل إلى اليقين ، وقد سبق ديكارت
 إلى مذهبه " الشك طريق اليقين " يقول : (اعرف مواضع الشك ، وحالاتها المرجبة لها ، تعرف
 بها مواضع اليقين ، والحالات المرجبة له ، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما ، فلولا لم يكن
 ذلك إلا لتعرف لتوقف الشك ، لقد كان ذلك ما يحتاج إليه ، ثم أعلم أن الشك
 في طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف) (٣٢) . ونقل

(٢٨) مجموعة رسائل الجاحظ : صفحة ٨٩

(٢٩) مجموعة رسائل : الجاحظ : صفحة ٨٩ .

(٣٠) الجاحظ : جوج قريب صفحة ٦٠

(٣١) المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣٢) الحيوان : الجاحظ : الجزء السادس صفحة ٣٥

عن أستاذ النظام ، (الشكك أبصر بجواهر الكلام من أصحاب الجعدي ، والشكك أقرب إليك من الجعدي ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك) (٣٣) . وكان يدعو إلى النظر والاستنباط واستغراق القاعدة بحد التأمل فيها للنظر والتأمل والاستنباط يقوى الذهن ويثرب العقل ، أما الحفظ فيلغى الفطنة ويورث الركود الذهني يقول : (وكبرت الحكمة الرومانية أصحاب الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ ، لكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يقضي بصاحبه إلى برد اليقين ، وهز الثقة والقضية لصحيفة ، والحكم المعمود) (٣٤) . ويحسب من لم يبحث ولم ينظر ، ويحسب من قدره بقوله : «إلّا إن الناس قد استغنوا عن التدبر وكفى مثوبة البحث والشورى ، قلعة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قل علمه قل فضله ومن قل فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمده على خير أئامه ، ولم يذم على شرجهاء ، ولم يجد طعم المز ، ولا سحر الظفر ، ولا ريح الرجاء ، ولا بره اليقين ، ولا راحة الأمن) (٣٥) .

وإذا كان الجعدي قد سبق ، فكذلك إلى نظرية الشك العوض إلى اليقين ، فقد سبق فريسيس ليكون إلى منج البحث والتجربة ، والاستقراء والتتبع ، وتخذ الملاحظة والملاحظة برهاناً ودليلاً ، ومن ملاحظاته ومشاهداته مخلق الطهيعة لكل صنف من الحيوان في تقويم يستعين به على مقادير حاجاته (٣٦) . وتلويح كل صنف من الحيوانات بألوان بيئته حفظاً لحياته بالتمويه على عدوه (٣٧) . وما نقله عن أرسطو من أن لكل طائر عشا يتخذ على شكل يناسبه

(٣٣) المصدر المذكور صفحة ٣٥ ، ٣٦

(٣٤) أمراً ، لبيان : محمد كرد علي : الجزء الثاني صفحة ٣١٦

(٣٥) المرجع نفسه صفحة ٣١٣

(٣٦) الحيوان : الجزء السادس صفحة ١٢٥

(٣٧) المصدر السابق الجزء الرابع صفحة ٢٨

وأن ذلك يختلف باختلاف الموضع وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميس والأحافيس (٢٨) . (أما
أذنب الأفعى فإنها تنبت ، ومن عجيب ما فيها من هذا الباب أن لها يدا يقطع فينبت ، حتى
يتم نباته في أقل من ثلاث ليال) (٣٩) . (والأفعى لا تدور عندها في رأسها) (٤٠) و (الخطاف إذا
قلعت إحدى عينيه رجعت) (٤١) . (والأيل إذا ألقى قروته علم أنه قد ألقى سلاحه فهو لا يظهر .
كذلك إن سم علم أنه يطلب فلا يظهر ، وكذلك أول ما ينبت قروته يحرضه للشخص ليصطب ويغفل (٤٢)
أما تجاربه فكثيرة ، فقد قطع أعضاء الحيوان ونسجه ، وبعج بطنه ، ودفعه حيا ، وتدق بيضه
وأعطاه السم ، وجمع لأضده مع بعضها ، يقول : (وقد رأيت بعض الحيات وكسوتها لأنعرف
ما فيها ، فإذا هو بيض مستطيل أكدر اللون أخضره وفي بعضه عشرون لون ، فأما داخله
فلم أرقبها قطه ولا صديدا خرج من جرح فاسد ، إلا والذي في بعضها أسج منه وأقذر (٤٣)
(واب الأفعى يحتمل له بأن يدخل في فيها حمارا أتج ويطلق لعينها الأعلى على الأسفل
فلا تقتل بمضتها أيلها له) . وقد ذهب إلى مصرو أخرى فيها بعض التجارب على
حياتها ومقارنها ، قال : (كنت بعجت بطن عقرب إذا كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين
عقارب صفارا كل واحدة بحرازة) (٤٤) يقول الدكتور فلهب حتى : (ومن أقدم من صنف
في علم الحيوان والأنثروبولوجيا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وتأثيره في البصيرة
وصنف كتاب الحيوان . وفيه بعض مبادئ نظريات النشوء الحديثة ، والتكيف ، وسيلوجيا
الحيوان ، وقد عرف الجاحظ طريقة تحضير الأمونيا من سقاء الحيوان كالكرش وغيره ، بواسطة
التقطير الناشف) (٤٥)

(٢٨) المصدر المذكور ، الجزء الثالث صفحة ١٦١

(٣٩) الحيوان ، الجزء الرابع ، صفحة ١١٢

(٤٠) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٣

(٤١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٢

(٤٢) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٢٧

(٤٣) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٢٠

(٤٤) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١١٢

(٤٥) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٥٦

والأخبار العلمية لا يسلم بها الجاحظ قبل عرضها على ذهنه ، أو على أذهان الأخصائيين
 مهمل لها ، أو يجرى عليها تجاربه ، ثم يحكم بعد ذلك بصحتها أو بطلانها أو يتركها
 لامته ولا منفية يقول عن النمل رواية من غيره (ويقتل بأن يصب في أنفها بيوتها القطران
 والكبريت الأصفر ويدس في أنفها هذا الشعر ، وقد جربنا ذلك ، فوجدناه باطلا) (٤٧)
 فيقول عن الأفاعي : (والأفاعي تكرر رج المذاب والنسج ، وتستريح إلى نيات الحديل ،
 وأما أنا فإني أقيس على رأسها وأنها من المذاب ما ضرها ، فلم أر على ما قالوا دليلا) (٤٨)
 بها يدل على نلسه الدليل قبل التسليم بها يسبق قوله عن المصافير (والذين يوصوا أن
 ذكرتها لا تبيش إلا سنة يحتاجون إلى أن يعرفوا الناس ذلك ، وكيف يستطيعون تفهيمهم ؟
 وقد تكون القرى بقرب المزارع والبيادر مطوخة مصافير ، ومطوخة من بيضها وفراخها ، وهم مع
 ذلك لم يروا صفورا قطمينا) (٤٩)
 وقال : (وأما الذين ذكروا في أشعارهم السمع والعساية فليس في ظاهر كلامهم دليل على
 ما ادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف ، فأدينا الذي قالوا وأمسكنا من الشهادة
 إن لم نجد عليها برهانا) (٥٠)

لقد كانت وسائل الجاحظ إلى المعرفة الحقة ، والتبصير لعل ١- الشك الموصل إلى
 اليقين ٢- المشاهدة والملاحظة والبحث والاستقراء والتجربة ٣- الآراء الموثوق بها
 بعد عرضها على المعنى والعقل ومطابقتها لها ٤- ولا يقدح في ذلك قوله بالشك وضده ،
 وصفه الشك ثم دمه ، ولا يؤدي هذا إلى وصفه بالسفسطة ، وحق الجدل ، لأن هذا
 إنما كان منه على سبيل إظهار القصادة ، وإبراز القدرة البهائية ، أو السخرية والمزح

(٤٧) الحيوان ج ٤ ص ٣٦ طبعة طم ١٩٤٠

(٤٨) الحيوان ج ٦ ص ٣١٩ ومثله في ج ٥ ص ٣٦٥

(٤٩) الحيوان ج ٥ ص ٢٢٢

(٥٠) الحيوان ج ١ ص ١٨٥

بصاحبه . وفيه تفكيره ، ولم يكن الغرض منه التحقيق العلمي ، أو البحث الأدبي ، بل فعل ذلك
في كتابه البخله ، وفي رسالته " الترتيب والتدوير " وفي رسائل أخريات .
كان الجاحظ يعمل في كتاباته إلى الوضوح ، وقد أن المقصود بالكتابة الإقناع ، ويقتض
التشبيهات الحسية القريبة ، ويقتصر الحقيقة على الخيال ، لأنه يخاطب العقل ويكره وحشي
الكلم وضربه ، لأنه يميل الفكر ، ويقتض اندغامه حيث يشتغل القاري ، يقدم المفردات ، بدل
الانصراف إلى فهم المعاني . يقول : (ليس الكتاب إلى شيء أحج منه إلى إقناع معانيه ، حتى
لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار ما يرتفع به عن ألقاظ
المسئلة والحشوة من حظه من غريب الأعراب ويوحى الكلام ، وليس له أن يمد به جده ، وينقعه
ويصغيه ويروقه ، حتى لا ينطق إلا يلعب اللب ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وشعره
وأسقط زوائده حتى جاد خالصا لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يقدم عنه ، إلا بأن يجد له
إقناعا مرارا وتكرارا ، لأن الناس كلهم قد تعودوا البسوط من الكلام ، وصارت أقسامهم
لا تزيد عن حادتين ، إلا أن يحكم عليهما ، ويأخذ بيا) (٥١) . ويقول : (وأحسن الكلام ما
كان قليلا يثبتك من كثيره ، ومثما ، في ظاهر لفظه) (٥٢)

وبما جونا يقتض على مؤلف عصره التسمية في كتبهم ، ويطلب إلى الإغلاق ، وقد كان
شائما في كتاباته ، ويتساءل سائرا عن الأسباب التي تدفعهم إلى هذا الضموض ، يقول :
{ قلت لأبي الحسن الأعمش : أنت أعلم الناس بنا لنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟
وإيا بالثانهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وإيا بالثالث تقدم بعض المويض ، وتؤخر بعض المفهوم ؟
قال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه الله ، وليست هي من كتب الدين ، ولو وضعتها هذا
الوضع الذي تدعون إليه ، قلت حاجاتهم إلى فيها ، وإنيما كانت غايى السأله ، فأنا

(٥١) السمعان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الأول صفحة ٨٩ ، ٩٠

(٥٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الأول ، صفحة ٨٣

هذه الطريقة ، ولم يرفها اعتماداً من القضية - مخالفاً ما عليه مجتمعنا الآن - كثير من

كتاب العرب السابقين كالراغب الأصفهاني ، والقاضي الشنقري والجرجاني الذي يقول ،

(وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وأعرابه بالأبيات فيها الفحش ، وفيها ذكر الفصل
المفحش ، ثم لم يعجبهم ذلك ، إلا إذا كانوا لم يقصدوا إلى ذلك لئلا يفسدوا بعبده ، ولم يدعوا
شعرهم من أجله) (٥٦)

وهو من كتاب العرب يسلك هذا السبيل ، (قال مونتين وهو من أعظم من اشتغروا

بالمفاضل من المؤلفين الفرنسيين ، ماذا كان عمل القمل التاسلي في الناس وهو طبيعي
وضروري حتى شجبهوا وابتعدوا عن ذكره ، فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشئ يسمن
المخجل ، ويبتعدون عنه في أحاديثهم ، الناس يجرون على التلفظ بأفعال القتل والمسوفة
والخبيثة والزنا ... الخ ولا يجرون على النطق بالعمل الذي يوجب الحياة للمخلوق .

باللغة المكشوفة ، وبالتناق المخجل ، الآخرون أن من يدون إطلاق اسم الحيوان على
العمل الذي يخلق الإنسان أحرياً ، بأن يطلق عليهم اسم بها ثم وميوانات) (٥٦) (قال

القديس كليمان ، أنا لا أخجل لقادة القراء من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الإنسان
لأن الله تعالى لم يخجل إذ خلقها) (٥٦) ، ولم يدع الجاحظ بهذه الألفاظ فعشاً ولا هجراً

ولا عيباً بالأخلاق ، ولا استئانة بدين أو عرض أو عفة ، ولم يكثر منها ، وظل الحد يمسك
عنها ، وإنما كان كل شيء الإلتصاف والإيضاح واختيار اللفظ المناسب للمعنى الذي إليه
قصد .

وما يحتاج به أدب الجاحظ ، الواقعية ، وما قد شاء من عمله إلى الوضع عن ذكره الأعضاء
لأنها سلبية وأعمالها بالألفاظ الصريحة المكشوفة لون من ألوان الواقعية ، و (الواقعية نفس
الأدب هي أن ينتزع الكاتب من الحقيقة الواهنة ، والحياة الواقعية عناصر موضوعه ، ولا يشترط
في الواقعي أن يكون واقعاً بالقلم ، بل يكفي أن يكون له في الحياة نظائر مما تستمد عناصره

وتتخذ تفاصيله من الحقيقة الواقعة ، وإن لم تكن هذه العناصر والتفاصيل مجتمعة في الحقيقة على الشكل الذي جعلها الكاتب فيه (٥٧) وقصص الجاحظ من هذا اللون ، فهي وليدة الواقع

وليس من تسجيح الخيال ، إذ الجاحظ عالم ، مدقق مدقق ، ينبغي أن لا يحسب إلى الخيال إلا بقدر ما يخدم به الحقيقة ، بتوضيح فكرة ، أو إبراز معنى ، أو تسهيل محتاج أو إثارة في السامع ، حتى تكون المعاني في نفسه لائقة ، وفي صدره حائكة ، فليجده في كتاب الحيوان يرفض كل خيالي ، بعيد عن العقل علم يتم دليل على وجوده أو إمكانه ، مهما كانت أسانيد ، ومما بلغ من العلم قائله ، وقد رفض لأرسطو كثيراً من آرائه ، وهزي بها ، وسخر منها ، ولبعد ما من منطق العقل والواقع ، وحتى في كتابه البخلاء ، وهو قصص وفكاهة مزع وسخر ، فلا مانع من أن يستولى الخيال والخرافة منه على مساحة واسعة ، نجد الجاحظ فيه مقيداً بحقيقة ، ملتزماً ما اعتاده من الحقيقة والواقعية ، فأبطال قصصه أناس من لحم ودم وليسوا شياطين أو ملائكة ، أو ركاب غيول مجنونة ، وهم يميزون على أرض الدولة العباسية وليسوا في القصر أو المريح ، ويمرهم الجاحظ لأنهم أساتذته وأصدقائه وخطاؤه من يراهم ويتحدث إليهم ، والنزاع محدود بمصر الجاحظ ، والمكان بالهجرة أو بغداد وقد يتجاوزهما إلى مكان آخر ولكنه من أرض الدولة العباسية ، وأهم من ذلك كله في الواقعية "الأحداث" وهي في قصصه قد وقعت فعلاً ، أو وقع مثلها ، أو يمكن لها أو لعلها أن يقع ، والعقل يقر ذلك ، والعصر لا يضعه ، والمكان يجيزه . بل إن الجاحظ لواقعيه يرفض ما خرج على الإلف ويهزأ ويهجو من كل ما شذ عن المادة ، ويبعد عن الواقع . يقول بعد أن روى قصصه رجل يخيل أراد رواه أن يشير باللقمة إلى قطعة من الجبن من بعد ثم يأكلها ، ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الإغراط لا غاية له ، وإنما تحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن

(٥٧) فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٢٤ الطبعة الثانية ، دار

يكون فهم مثل ، أو حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا لا لحرف فليس ما نذكره (٥٨) وهو في هذه الكلمة يدعو إلى الواقعية ونهذه ما لم يكن في الناس مثل ، ما يجنح مع الخيال ، ويعمل إلى الأوهام وينتسب إلى الخرافات . يقول الدكتور محمد المبارك الجاحظ والواقعية (ولا ينعمنا قدم عبد الجاحظ وحدانية هذا المذهب أن نجعل أدبه من هذا النوع إذا كان قد وجدنا شروطه وشروطه مستوفاة موصية في كتاباته ، وإن لم يسمع هو بهذا الاسم المستحدث وإنني أذهب إلى أبعد من هذا فأقول : إن الجاحظ وضع في كتابه "الخلا" قواعد وأساسا تشبه قواعد المذهب الواقعي ، فهو لم يسلك هذه الطريقة عقوا ولكنه تعمد ما وجدنا (٥٩) والجاحظ يسلك في التأليف مسلكا خاصا ، يستمك به على طريقة حتى عرف عنه ، وشيئ من به ، وصار سنة من سماته ، وقا سما مشتركا في جميع مؤلفاته ، وهذا حدوه كثير من كتابه ، فشم شاع ذلك النمط وذاع ، وشجبه الأدباء وغير الأدباء وأغنى بذلك المسلك .

المنهج العلم بالأدب : فن علمه الأدب ، وفي أدبه العلم ، وإن حدثنا عن الموهب والظهور والحشرات ، حديث العالم المحقق ، وجدنا هذا الأسلوب العلمي يقطر أدبا ، كما نجد أحاديثه عن تجارتيه وحوادثه وملاحظاته ، قد اتهمت بتأدية أدبية ، أو أبيات شعرية ، أو قصص ساخرة ، أو فكاهات مضحكة وإن تكلم عن الأدب تخلل حديث عن الحرب ونظمها ، وشد الأسنان بالذهب ، وما يشترط للمادة ، وحادات الناس في ليس العمائم والتحال ، ما ينتسب إلى العلم وفنون الحرب ، وحادات الناس ، وستلزمات الرياسة ، فكما منج العلم بالأدب في عقلية الجاحظ ، مزجا مما في نتاج هذه العقلية بولغا بها .

٢- ومن الموضوعات ببعضها : فأبرع من عمرو بن بحر يحرف في الموضوعات كلها ، تتباين أمواجها من حوله ، فبقينا ول بيده هذه الموجة ، ويده الثانية موجة أخرى ، نسج

(٥٨) الخلا : الجاحظ ضبط المواضع والجوامع ٢ ص ٥٨ ، تدقيق طه الحاجري ص ١٢٢

(٥٩) فن القصص في كتاب الخلا للجاحظ ، محمد المبارك صفحة ٢٢

يخلطها ببعضها ويطول سباحت في موضوعاته ، ويتقدم فيها ، بقدر ما خلطت في ، وهو
 في مزجه موضوعاته ، وانتقاله بينها ، قد يجد رابطة قوية تربطها ، وقد يكون الانتقال لمجرد
 خاطرة سبغت له وجبت إلى موضع آخر ، يشار إلى تناوله ، قاصدا أو مقاسما موضوعه الأول ،
 وكثيرا ما يقرر فقرات نجاحية من كلام سابق إلى كلام لاحق ، دون رباط أو صلات بينهما وقد
 يتحدث في موضع ، ثم يطويه فجأة منتقلا إلى غيره ، ثم يعود إليه ثانية من مودة بالرجوع إليه
 أو من غير مودة ، فيضمه في أي مكان ، دون مراعاة ما جاوره ، وما تأسبه ، في كتابه الديوان
 مثلا ، نجد المباحث في الديوان مقترنة بالمباحث الدينية والفلسفية والاجتماعية والأخلاقية
 يتخللها أخبار ونوادير وسخرات ، وضغائن ووجوه ، وفي كتابه الديوان الثاني يخرج ما فيه من
 خطب وأشعار وأدب ، بمادات الأمم ، وطعامهم وأخلاقهم ، وهو لا يراعي الوحدة التأليفية في
 كتبه ، وإنما ينصرف همه إلى إرضاء قرائه ، وإشباع رغباتهم ، ودفع الملل عنهم ، بالانتقال
 من فن إلى فن ، ومن موضوع إلى موضوع كما قال (الشيخ قاري) هذا الكتاب من باب إلى باب
 باب ، ومن شكل إلى شكل (٦٠) ، وكان كتابه مدة كتب وتحوّل المديحة من الموضوعات
 والجاحظ يعترف بذلك قائلا في كتابه الديوان ، (لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة ،
 وكل مصحف منها فلو لم على حدة ، فإن أراء أحمد قاضي القضاة لم يطل عليه الباب الأول حتى
 يلجم على الثاني ، ولا الثاني حتى يلجم على الثالث ، ثم أهدأ مستفيد ومستطرف ، ويحضر
 يكون جمعا له بعضه ، ولا يزال نشاطه قائدا ، وفي خضم من أي القرآن صار إلى الآخرة حتى
 خرج من أثر صار إلى خبره ثم يخرج من الخبر إلى شعره ومن الشعر إلى نوا در ، ومن
 النوا در إلى حكم عقلية ، ومقاييس شهاد ، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أقل ،

(٦٠) الديوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء السادس من صفحة ٧ ط ١ علم ١٩٤٣

واللعل إليه أسرع، حتى يقضى به إلى منج وفكاكه، وإلى سخط وخراقة، ولست أراها سخطاً

والجاحظ يعرف عاني كتبه من اضطراب التأليف واضطراب الموضوعات فيقول: هذا من

ذلك في كتابه الحيوان، (فإن وجدت فيه خلافاً من اضطراب لفظه ومن سوء تأليفه، ومن

تطبيق نظم، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تتركه، أن صورت عندك حالاً التي ابتدأت

عليها كتابي) (٦٢) ويقول في كتابه البيان والتبيين: (وقد خلعت التسمية على أخذ المصنفين

خطيها المخترة... بكلام مستكره، سنذكره في الجزء الثاني إن شاء الله) (٦٣) ولقته مع

ذلك لم يذكره إلا في الجزء الثالث، ويقول في كتابه البيان والتبيين: (وكان في الحق أن

يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكننا أخرناه لبعض التدبير) (٦٤) ويقول مصححاً

ما وقع فيه من منج الشيء بخير جنسه ولقته (وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان) (في كتاب

الحيوان) وفي فصل ما بين الذكر والأنثى تاماً، وليس هذا الباب ما يدخل في باب البيان

والتبيين) (٦٥) مع أنه ذكره في البيان والتبيين، ويقول به أنه أن ذكر أبيات (وهذه أبيات

كتبها في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ولكن هذا المكان أولى بها) (٦٦)

٣- ومنج الجسد بالهزل، وهذه أبرز صفات المنج في أهله، وأكثرها انتشاراً وشعلاً، فإن

يحدثنا في كتبهم، وفتننا رسائله، فإننا لن نجد جداً معشكاً، ولا هملاً صرناً، وإنما هو لفتنه

منج، منها، يفرض في أعق المشكلات العلمية، وأطرد التجارب والبحوث، ويوجد ما شاء

من جده، ثم يفجئنا بفكاهاته ومنجه، وسخفه وضحك، وهو لا يمتنع لذلك طويلاً، أو تصدأ إلى

مدة أمور جادة، وإن كانت وسيلتها الفكاهة والضحك (ولم تدر أن الطرائف جد إذا اجتلب

ليكون علة للجد، وأن البطالة وقارورة إذا تكلفت لظلم العالمة) (٦٧) هذا،

(٦١) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء ٤ صفحة ٢٠٩

(٦٢) المصدر المذكور، الجزء ١ لرا ١١٢ صفحة ٢٠٩

(٦٣) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق هارون الجزء الأول صفحة ٢٨٢

(٦٤) المصدر المذكور صفحة ٧٦

(٦٥) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٦

(٦٦) المصدر المذكور الجزء ١ لرا ١١٢ صفحة ٢١

(٦٧) الحيوان، الجاحظ، الجزء الأول صفحة ٢٧

١- الاستجابة لشرية الضحك المتأصلة في الإنسان والتي لا غنى له عنها وهي مع ذلك صعبة صدوره ، يقول من الضحك (وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كثيرا ، وهو شيء في أصل الطباع ، وفي أساس التركيب) (٦٨) . ويقول (ومن قراءة الرجل الصالح أن تراه سهلا طلقا لم ينظر يدس ، وكلام شدي ، سهل الجيدين ، غير منقبض ، ولا نفق غلقه قلب ، وغير كاره للدعابة والمزاح) (٦٩)

٢- التخفيف من ثقل الدرس ، والاستراحة من عناء المكد ، والمترجيع عن النفس ، وإشباعها بما يسرها يقول في ذلك (ولا بد لمن استكد الجد ، من الاستراحة إلى بعض البزل) (٧٠) . ويقول في كتابه الحيوان (على أني ربما رشحت هذا الكتاب ، وفصلت فيه بين الجزأين والجزءين بنوادر كلام ، وطرف أخبار ، وفرا شعاور مع طرف مضاحيك ، ولولا الذي نحاول من استعطاف على استئتمار انتفاك لقد كنا تصغفنا ، وسخفنا شأن كتابنا هذا) (٧١) . ويقول في إحدى رسائله (نجعل البزل بعد الجد جماما ، والملمحة بعد الحجة مستراحة) (٧٢)

٣- تشييط القارئ والسامع قبل على الكتاب ، ويغفل لاستيعاب ما يحويه وبخاصة إذا كان دسما ، يستكد الذهن ، وفي ذلك يقول ابن بحر (وليس ينبغي للكتب الأدب والرياضيات أن يحمل أصحابها على الجد للصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى الجاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستغفر المجهود ، وللصبر قاية ، وللاحتفال نهاية ولا بأس بأن يكون الكتاب موشعا ببعض البزل ٠٠٠ ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض

(٦٨) البخل ، الجاحظ ، تحقيق علي الجاهم صفحة ٢٨ الجزء الأول

(٦٩) أمراء البيان ، محمد كرد علي ، الجزء الثاني صفحة ٤٥٧

(٧٠) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء الثاني صفحة ٢٢٢

(٧١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس صفحة ١٥

(٧٢) رسائل الجاحظ ، جمع المندوبين صفحة ٢٨٤

ما ينشط القارىء ، وينفى النحاس عن المستمع ، فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ،
فلهم أن قصدنا فى ذلك إنما كان على جودة الاستدعاء للقلوب ، والاستهالة لسمعه وبصره (٧٣)
ويقول : (وإن كما قد أملكناك بالجد ، والاحتجاجات الصحيحة والبرحة ، لتكثر الخواطر ،
وتشذ الحقل ، فإننا سننشطك ببعض هذه الهطلات ، ولذا كرر الملل الظرفية ، والاحتجاجات
للضرورة) (٧٤) . ويقول : (فخلط لك جدا بخل ، وفنت لك حجة بملحة لتغف شذوثة الكتاب
على القارىء ، ولينزله ذلك فى نشاط المستمع) (٧٥) .

١- الانتقال من باب إلى باب بتخيير النسخة ، وتوزيع الضروب والأشكال . يقول : (على
أنى قد عزمت - والله الموفق - أن أوشع هذا الكتاب ، وأنقل أبوابه بنوادره من ضرب
الشعر ، وضروب الأحاديث ، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى
شكل ، فإن رأى الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني المسنة ، والأوتار النضيفة
إذا طال ذلك عليها) (٧٦) .

لقد فتح الجاحظ للأدباء فى عصره ، الباب الفسيح على مصراعيه ، فولوجوه إلى ساحة
الإضحاك ، وساحة العبي ، والفكاهة ، وتنافسوا فى ذلك أيضا تنافس ، وشعروا كهدهم ومجالسهم
بالمضاحيك ، أدمجوا فى أبوابه ، وأخصصوا لها أبوابا من الكتاب وشهرتهم فى ذلك ابن
قتيبة والتوحيدى وابن زيدون وابن عبد ربه ثم خصصت كتب يهدتها للفكاهة والإضحاك ،
والسخر والتكم منها : الأذكياء ، أخبار الحقق والمغفلين ، أخبار الطراف والمضاجنين ،
وكلها لمحمد الرحمن بن الجوزى ، والمستطرف فى كل فن مستظرف للأهليين ، والكشكول

(٧٣) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندونى ص ٢٢٥ ط ١ علم ١٣٥٢ هـ .

(٧٤) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس صفحة ٥ ط ١ علم ١٩٤٣ .

(٧٥) رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، جمع حسن السندونى صفحة ٢٨٤ .

(٧٦) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون ، الجزء السادس صفحة ٧ .

للعاملين ، وشعرات الأوراق للحمى ، وجميع الجواهر للعصرى ، والعوشى للوشى .
 وللغاية والإضحاك فى أدب الجاحظ مبادئ وقوانين ، وضع أسسها ، وشئت بعدها ورفع
 لواحيها أروعها ، وتكاد تنحصر فى عدم الاسترسال فى الضحك والسخره ، ووضع المنهج والإضحاك
 فى مكانه المناسب يقول : (وللمنح موضع ، وله مقدار ، متى جازما أحد ، وقصر منهما أحد ،
 صار لفاضل خطلا ، وللتقصير نقصا) (٧٧) . ويقول : (ولكن لكل شئ قدر ولكل حساب
 شكل ، فالضحك فى موضعه كالإكراه فى موضعه ، والتبس فى موضعه كالقطر فى موضعه) (٧٨)
 كما لا يصح أن يؤذى بضحكه وسخره غيره من الناس ، ولا يضحك أو يسخر إلا من لا يرى
 فى ذلك غشاضة ، يقول : (ولربما سمينا الصاحب إذا كان من يمانح هذا ، وأى بناء يتظرف
 ويحتمل ذلك الظرف سلما لنبح شينه) (٧٩)

(٧٧) البخله ، الجاحظ ، ضبط المواضع والجامع ، الجزء الأول صفحة ٢٩ .

(٧٨) مجموعة رسائل الجاحظ صفحة ١٠٩ .

(٧٩) المصدر السابق صفحة ١٠٧ .

الفصل الثالث

مكانته الاجتماعية

لم أجد كاتباً أهياً بلغ من رفعة الدرجة ، وطول المنزلة ، وديع الصيت ، وانتشار المؤلفات ، والقدرة على استيعاب العلوم ، وحذق الصناعات والفنون ، والغنى على عرش القلوب وامتلاك آنية العقول ، مثل وابلغة أستاذنا الجاحظ .

وما أقول الناس على كعبه تلاطت بقلوبهم ، والفتحت عقولهم ، وهشت لها نفوسهم ، وامتلات بها خزائن كتبهم ، وكثر حولها الجدول والنقاش ، أكثر مما فعلوا بكتب الجاحظ ، وإذا كانوا يقولون : إن الرجل العظيم لا تظهر عظمته ، ولا يعرف الناس مكانته وقبته ، ولا يكون خلوه ومجده ، إلا بأحد موته ، وربما بعد فناً جليلاً ، حين يهلك حساده ومن يشبهون عليه ، فيكن الحكم عليه من بعدهم في يد المدالة ، ويميزان الحق ، حيث لا تحيز ولا محاباة ، ولا غل ولا كراهية . . . وإن هذا العظيم يعيش حياته معذماً مطلقاً ، وظلماً مضطهداً ، لا يتفتح مجده ، ويحظى شام غراسه ، إلا أنهاره وأحفاده ، والأجيال من بعده . . . فإن الجاحظ العظيم يرضى من هذه القاعدة فيرجل عنها ، مكرهاً ممن نفسه قاعدة ، فقد عرفنا لنا عظمته في حياته ، فطلبوا كتبه ، وتمجلوا كتبها ، وأكفروا في مساهمتها ، ياها ، وترقبوا صدورها ، كما تنتظر في عصرنا الصدق السيرة ، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية بصبر نافذ ، وتشوق وتشوق تطلع فيها على الجديد ، و ترى نفس صفحاتها ذاتاً ومجتمعنا ، وثقافتنا المثقاة والمعرفية من نافذتها المضيئة ، كما عرفوا قيمته بعد نقده ، فأقبلوا على ترائه دارسين باحثين ، ومقلدين محذرين .

شبرا لباحظ في مجتمعه ، وطار صيته ، وسما ذكره ، فعرفه سراة القمم ، ولما لهم وأدباؤهم ، والقضاة والنزلاء ، والخلفاء ، وصحبه ، وصار من خلطائهم ، وصفوة أصدقائهم ، وخلاصة جلسائهم ، صاحب المأمون الخليفة ، وابن الزيات وزير المعتصم ، والقيح بن خاقان

فقد المتوكل بن أبي دعلج القاضى ، والأخفش شيخ النجاشى ، والنظام رأس
الاعتزال ، والأصمى عالم اللغة ، وأبى عبيدة الذى فاق عصره علما وفقها ، وغيرهم
من رجالات الدولة ، وأهل العلم والأدب ، وأصحاب العمل والمقدرة ، وأرباب الفكر
والفقه ، والكلام والأدب . يقول الجاحظ : (وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ،
وقطرب النحوى ، وأبو الفتح مؤيد منصور بن زياد على خزانة فلان بن فلان ١٠٠) . (١) وكنا
عند داود بن أبي داود بواسطة أيام ولايته كسكره فأتته من البصرة هدايا فيها زقاق
وليس قسمها بيننا) . (٢) (أكل الجاحظ مع محمد بن عبد الملك الزيات) . (٣)

وكان الخلفاء وكبار رجال الدولة يتسابقون إلى الجاحظ يطلبون منه كتابة الكتب والرسائل
يدافع بها عنهم ، ويحس بها عصبيا تهمه ويؤيد بحجا جدا منهم ، وآراءهم ، فيلبي
طلبهم ، ويحييهم إلى رغباتهم ، فإذا كتب ترقى شأنهم ، وتجمع الرعية حولهم ، وتقود
العقول خاضعة لسيطرتهم ، فيحمدون له ذلك ، ويعجزون عطاءه ومن هذه الكتب : المباسية
والعنتا نية ، وكتاب مناقب آل ترك وولاء جند الخلافة وغيرهما من الكتب والرسائل ، وقد طلبه
الخليفة المتوكل على الله لتعلم بعض أولاده فلما حضر إليه استبشع منظره وصرفه ، يقول
(ذكره للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استبشع منظري ، فأمر لي بحشرة آلاف درهم
وصرفني) . (٤) وقد وجه الخليفة المتوكل إليه من يحميه من البصرة إلى مقر الخلافة فلما أتاه
الرسول وطلب منه ذلك أجابه : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولما سائل ، وعقل
زائل ، ولون حائل . (٥)

(١) كتاب الخلافة : الجاحظ ضبط الحوامى والجامع الجزء الأول صفحة ١٠١

(٢) المصدر المذكور صفحة ١١٥

(٣) تاريخ بغداد المجلد الثانى من ٢١٨

(٤) وفیات الأعيان : ابن خلکان الجزء الثالث صفحة ١٤١ نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨

وتحقيق محمد محى الدين

(٥) أمراء البيان ج ٢ ص ٣٢٥ ، الجاحظ لجون غريب ص ١٦

يقول مفاخرها بما كتبه الاجتماعية ، و عظيماً الأدب ، و حسن الفكرة ، و منزلة عند الخليفة
 المأمون ، (ولما قرأ المأمون كتب في الإمامة و فوجدها على ما أمر به ، و صرت إليه ، و قد كان
 أمر الهندي بالنظر فيها ليخبره عنها ، قال لي : قد كان بعض من يرتضى عقله و تصدق خبره ،
 خبرنا عن هذه الكتب يا حكام البصيرة و كثرة الفائدة ، نقلنا له : قد ترى الصفة على
 الصمان ، فلما رأيتها ، رأيت الصمان قد أرسى على الصفة ، فلما غلبتها أرسى القلي على
 الصمان ، كما أرسى الصمان على الصفة) (٦)

وقد أصبح الجاحظ في غنى و ثروة ، في دولة مجدت المال ، و قدست الثروة ، و أحنت رأسها
 للفتى العوسر ، فصار له سلطانه ، و هزه و جأهه ، و أصبح يرضى للطة ، و يطلب للشفاعة و الوصية
 (حدث أبو الصمان محمد بن القاسم قال : صرت إلى الجاحظ ، فقلت له : جئتك مسلماً ،
 و قاضياً للحق و لي حاجة لبعض أصدقائي ، و هي كذا و كذا . قال : لا تشغلنا السعة من
 المحادثة و تصرف أخبارنا ، إذا كان في غد و جئت إليه بالكتاب) (٧) و بعدتنا الجاحظ من
 ثرائه و ساره و ما كتبه للوزراء و الرؤساء من كتب فيقول : (أهديت كتاب الحيوان إلى
 محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، و أهديت كتاب البيان و التبيين
 إلى أحمد بن أبي داود فأعطاني خمسة آلاف دينار ، و أهديت كتاب الزرع و النخل إلى
 إبراهيم بن عباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فأتصرفت إلى البصرة ، و معي
 ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تمهيد) (٨)

و امتلك الخلمان فكان له قلام يمسى تقيماً ، و ظم آخر و هو يشير إلى ذلك في بعض

(٦) البيان و التبيين ج ٣ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٧) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٨٢ ، جمع الجواهر في الطبع و النوادر ص ٢٠٤

(٨) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ١٠٦

سخرياته يقول : (قلت لفلان نفيس ٠٠) (٩) وقال نفيس لفلان ٠٠ (١٠) .

ويصف لنا جاحه ، ووزة سلطانه ، ورفا ت كلمته في شئون الدولة بقوله وقد سئل عن حاله ،
(حالي أن الوزير يتكلم برأى ، وينفذ أمرى ، ويؤثر الخليفة الصلات الى وآل من لحم الطير
أسمها ، وأ ليس من الثياب ألبتدا ، وأجلس على أ لين الطبرى ، وأتى على هذا الرش ،
ثم أسير على هذا حتى يأتى الله بالفرج ، فقال الرجل الفرج ما أنت فيه ؟ فقال : بل
أحب أن تكون الخلافة لى ، ويصل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا
هو الفرج (١٠) وطمعه هذا إنما هو من باب الفكاكة والاعتراف بالنعم وشكرها ، وصارته
تحوى غمزات للسائل ، وكأن لسان حاله يقول : إنه ليس فى الدولة أعلى منزلة من غير الخليفة
فكيف يخفى عليك حالى ومكانى ١١ .

وكما كان المجتمع يهابه ويحلم ، لعلمه وأدبه ، ورفاه يسره ، ومكانته الرفيعة فى دولته ،
فقد كان يهابه خوفا من سوط سخره ، وفرقا من ميم هزله ، فهو دائما مهروب الجانب لا يجترأ
عليه وقاح ، حذرا من سخره ، ولا عالم أديب هريا من حجاجه ولسته ، أو طمعا فى نيل ما
عنده ، والنيل من نيل أ دبه ، سئل أبو هنان : (لم لم تدع الجاحظ ، وقد لك ديك وأخذ
بشفتك ؟ فقال : أمتلى يخذع عن عقله ، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمت إلا
بالصين شيرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة) (١١) . وقال قاضى
القضاة عبد الجبار بنى طبقات المحترلة (نقض) لإسكافى كتاب الجاحظ فى العثمانية فى حياته
فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد ، فقال : من هذا النكاح السوادى الذى بلغنى أنه تعرض

(٩) البيان والتبيين : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون الجزء الرابع صفحة ٢٦٠ .

(١٠) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادى ، المجلد الثانى عشر صفحة ٢١٩ مطبعة السعادة

علم ١٩٣١ .

(١١) معجم الأدباء ، ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٩٩ .

لنقد كتابي ، وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره ، وكان أبو جعفر على الرأي ، محققاً
 منصفاً قليل المصيبة ، ألف سبعين كتاباً في علم الكلام ^(١٢) وهذه رسالة التريب والتدوير في
 السخريّة من أحمد بن عبد الوهاب باقية خالدة ، تنع سخراً وتطبخ هوكاً على مر الزمن ،
 وقد طوى المنون صاحبها البجلي ، وضاع في ليج الأيام ، حتى أصبحنا لا نعرف عنه
 الاثبات ، نلتفت من هنا ومن هناك ، ونستعين على ذلك بما ورد في الرسالة ، لارضية
 في سرقة هذه الشخصية ، وإنما رغبة في تحليل الأسلوب الساخر وطرقه ، ولداوئع التي
 أنتجت ، فجملته يقطر سماً ، يقول الجاحظ مشيراً إلى هذه الرسالة في كتابه الحيوان ،
 (ومبني برسائلي ، وبكل ما كتبت به إلى إخواني وخلطائي من مزج وجد ، ومن إقصاع وتعرّض
 ومن تفاؤل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسماً باقياً) وقصد بذلك رسالة التريب والتدوير ،
 التي يقول فيها متلاعبا بأبن عبد الوهاب : هايتا بطوله وعرضه (لم نرقدورا واسع الجفرة فورك
 ولا رشيقا مستفيضاً لخاصرة سوان ، فأنت المديدة ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب
 نيا شعرا جمع الأمراض ، وباشخصا جمع الاستدارة والظول) ^(١٤)

كان الجاحظ عالماً شهيراً من علماء الكلام ، يدين بالاعتزال ، ويدافع عن المتكلمين بحماسة
 والاعتزاليين بخفاضة ، ويرفعهم مكاناً علياً ، ويرى أنه لولا المتكلمين لمهلكت العامة ، وقصد
 كانت له في الاعتزال أركان ، وافق فيها شيخه ، وعلى رأسهم النظم زعيم المعتزلة ، وآراء
 واتجاهات خالف بها جانباً من قواعد المذهب وأسمه ، وابتعد بها قليلاً عما عليه عامة
 المعتزلة ، وصارت له وجهة خاصة وصيغة مستقلة ، انفرد بها عما عليه أتباع المذهب ،

(١٢) أمراء البيان : محمد كرد علي الجزء الثاني ، صفحة ٣٦٠

(١٣) الحيوان : الجاحظ ، تحقيق عبد السلام حارون ، الجزء الأول ، صفحة ٧

(١٤) مجموعة رسائل : الجاحظ ، صفحة ٨٩

وتبعه في ذلك جماعة منهم ، دانوا بأرائه ، وترسوا تعاليمه ، فكولوا طائفة تسمت باسم زمينم الجاحظ ، ونسبت إليه وعرفت باسم الجاحظية ، فعلا قدره ، وفيه أسسه ، وارتفعت مكانته بين أبناء مذهبه ، وعلماء زمانه ، وتكلم به ، يقول ما دعا المتكلمين ، (وما كان أحوالنا وأحوال جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وراي أن يكون المتكلمون علماء ، فإن الطب لو كان من نتاج حذاق المتكلمين ، ومن تلقبهم له ، لم نجد في الأصول التي يشون عليها من الخلل ما نجد)^(١٥) ، ويقول شارحا فضيلة المعتزلة وأسئلة النظام ، (لولا مكان المتكلمين لملكت الموم من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لملكت الموم من جميع الشمل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم لملكت الموم من المعتزلة ، فإنني أقول ، إنه قد أنجح لهم سبيلا ، وقتل لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة)^(١٦) وفي بيانه قدرا لتكلمين بيان لقدره ، وفي رفعه شأن المعتزلة رفع لشانه ، لأنه من شيوخهم ، وزعيم إحدى طوائفهم .

ولرفعة قدرا لجاحظ في مجتمعه فوديع صيته في مصر ، وشهرته التي طبقت الآفاق ، تسابق الناس لنزاهته وتوافقتوا على رأيه ، واحتموا بمعادته والأخذ عنه فكانوا ينكبون أن يزورا البصرة أو بغداد ما لم أو أديب أو شاعر في العلم والأدب ، دون أن يزور الجاحظ وكان الجاحظ أحد محال البصرة أو بغداد من لم يزوره من القادمين إليها كانت زيارته ناقصة ورحلته غير مجدية ، يروى الخطيب البغدادي ، (سمعت أبا بكر محمد بن إسماعيل يقول : قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد ، ألا تدخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ قلت : مالي ولم ؟ قال : إنك إذا انصرفت إلى خراسان سألتوك عنه)^(١٧) يروى الحصري (حكى بعض أبناء البرامكة قال : تقلت لسند ، وحصل لي ما شاء الله ، ثم صرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار ، فصفيتها عشرة آلاف إلهلجة ، وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت

(١٥) الحيوان : الجاحظ ، تحقيقها : رون الجزء الخامس صفحة ٥٩

(١٦) المصدر المذكور : الجزء الرابع صفحة ٢٠٦

(١٧) تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي المجلد الثاني عشر صفحة ٢١٧

إلى البصرة ، فخبرت أن الجاحظ بها ، وأنعليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلى خادمة صفراء ، فقلت : رجل غريب فأحب أن أنظر إلى الشيخ قبله . فسمعت يقول : قولي له : ما تصنع بهذا مائل ، ولما سائل ، ولون حائل ؟ فقلت للجارية : لا بد من النظر إليه ، فقال : هذا رجل يرد للبصرة ، وسمع من ، ويعد أن يقول : رأيته الجاحظ (١٨)

ولمكانته السامية . فوجدت في وفاته ، وتراثه ، وحظوته عند الخلفاء والوزراء ، وانتشار كتبه في أقطار الأرض ، كرحمته وشأنه ، من لم يستطيعوا مجاراته ، ومداراة الرخص في ميدانه ، فبهرت أنفا سيم ، وحفت كفا ثمن ، حقنا وحقا ، فما به وجوهه ، وألقوا به من التمس والنفائض ما هو منها برا ، شأن كل عظيم في قومه ، ناه في أمته ، فإن النسبة السوء تنبأه ، وموا مرأت الشر تحاك له ، وتنصب له الفخاخ ، ويكتم أعداؤه من كل رذل قتل في شرفه وسميته ، وعقله وكرامته ، على ذلك يذهب ربحه ، ويظفي : سراج به ، وما أكثر ما عانا الجاحظ من هؤلاء الفاشلين يقول لأحمد بن (وهي بكتاب الصرحاء والهجاء ، وبفاحوا السودان والحرمان ، وموازنهما بين حق الغثولة والعمومة ، وهي بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعقاب . . . وهي بكتاب القبطانية والمدنانية في الرد على القبطانية . . . وهي بكتاب العرب والموالي . . .) (١٩) (تم لم أرك رضيت بالطعن على كل كتاب في سمته حتى تجاوزت ذلك إلى أن عبت وضع الكتب كيفما دارت بها الحال ، وكيف تصرف بها الجوهرة وقد كنت أعجب من عيبك البعض بلا علم ، حتى عبت الكل بلا علم ، ثم تجاوزت ذلك إلى

(١٨) جمع الجواهر ، العصري : صفحة ٢٠٣ ، زهر الآيات ص ١٩٨ ، اللآلئ ص ١٩٨ .

(١٩) البيان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجبلي الأولى صفحة ٤

نصب الحرب نصب الكتاب (٢٠) . فم لما قرى نفوسهم من حقه ، وما تماظر في قلوبهم من
 بخس ، قد عابوا كتبه كلها ، وامتلأت دخالهم بالحسد والاضغن . يقول في هؤلاء الحاسدين
 (فمن شأن الحاسد إذا كان الحسود غنيا : تبيخه على المال ، وقوله : إنه جمعه حراما
 ونعمه أكاما ، وألب عليه محاريج أكاره ، وتركهم له خصما) (٢١) (وإن كان الحسود عالما
 قال : مجتدح ، ولما به متبع عما طب ليل ، ومتبع نيل ، ما يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل
 على الحيل) (٢٢) .

ولم يكتفوا بالطمع في كتبه ، وتوجيه كلامها غير رحمة به ، بل هتوا بها ، وشوهوها وأدخلوا
 فيها الزيف والزيغ ، حتى أحالوا صورتها ، وفهرها ما جعلت عليه ، وأخرجوها ما جعلت له ،
 وقد هددوا بذلك إلى النيل منه ، والحد من رفيع مكانته (صف أبو عثمان كتابا من كتبه
 ويوم عوقه في الناس ، فأخذه بعض أهل عصره فهدف منه أشياء ، وجعله أشلاء ، فأحضره
 وقال له : يا هذا ، إن المصنف كالمصور ، وإن قد صورت في تصنيفي صورة ، كانت لها عينان
 فصورتها ، أعى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلتها ، سلم الله أذنك ، وكانت لها يدا
 فقطعتهما ، قطع الله يديك ، حتى عد أعضاء الصورة (٢٣)

وقد لازم الحسد على ثقفه ، وصنف منزله منذ بدأ تأليفه ، مما يدل على تفلح صغريته
 مبكرا ، ورفعة مكانته في شبابه يقول (إنى ربما ألقت الكتاب المحكم المتقن وأتسبه
 إلى نفسي ، فيتوا طأ على الطمن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم
 يعرفون براعته وتصلعته . . . ربما ألقت الكتاب الذي هو دونه في محابيه وألفاظه ، فأثرجه
 باسم غيري وأحيله على من تشد من عصره . . . فبأيتني أولئك القوم بأيمانهم الطاعنين على

(٢٠) المصدر السابق صفحة ٣٨

(٢١) أمراء البيان : محمد كرد علي الجزء الثاني صفحة ٢٣٥

(٢٢) المرجع المذكور نفسا لصفحة

(٢٣) أمراء البيان : محمد كرد علي : الجزء الثاني صفحة ٤٦٥

الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستمساخ هذا الكتاب وقراءته على وكثيره
بخطوطهم ، ويصرونه إماما يقتدون به (٢٤).

لقد قدر الخلفاء ، والوزراء الجاحظ حق قدره ، فأرادوا أن تنتفع به الدولة وأن يكون من
الماملين في ميدانها لوسى ، قولوا ديوان الإنشاء ، ولكنه كما يدعى ياقوت ، (صدر الجاحظ
في ديوان الرسائل أيام السلطان ثلاثمائة عام ، ثم إنه استعفى فأعفى) يقول بروكلمان :
(وكان الجاحظ مع علمه وكثرة تصانيفه عاجزا عن تدوير الأمور فلما ولاه الخليفة رئاسة
ديوان الرسائل بعد إبراهيم بن العباس الصولي اعتزل بعد ثلاثة أيام ، ورجع إلى البصرة
للقراءة والتصنيف) (٢٦).

ولكنني أردت قول بروكلمان في وصفه الجاحظ بالمجزع من تدوير الأمور ، فما عرف الجاحظ
بمجزع في ميدان من الميادين ، حتى يتهم بالمعجز في أخصها بملك آله ، ومعرف طريقته ،
وهو الكتابة الفنية ، وهل من ألف هذه الكتب الكثيرة ، وخلف وراء تلك الثروة الوفيرة من
العلم والأدب والبلاغة والنقد ، يقف عاجزا عن كتابة رسالة ، أو رئاسة مجموعة من الكتاب ؟
لا . . . ما يقال هذا القول عن الجاحظ ، إنه قادر على المهق في هذا المجال ، والتحقيق
في أجزائه ، اللهم إلا إذا قصد بروكلمان المعنى المتعارف في عصرنا للتعمير (تدوير الأمور)
الذي يقتضيه التماثل والتنازل من المبادئ في سبيل الشهرة والمال ، وإرضاء الرغبات
ولعل هذا المعنى كان شائعا في عصر بروكلمان وبجتمعه ، وحتى هذا المعنى لم يكن الجاحظ
عاجزا عن تحقيقه ، فعنده من الدهاء والسياسة والخبرة بالناس ما يجعله في ذلك المقدم
المبرز ، ولكنه كان يملك من الخلق الشريف ، والهمة العالية ، والنفس الأبية ما يجعله يزر
من هذه الوظيفة ، ويألف منها ، ويزدريها .

(٢٤) من رسالة فصل ما بين العداوة والحسد صفحة ١٠٨ ، ١٠٩ ، ^{التي} ~~التي~~ والإشراف ص ٦٦

(٢٥) معجم الأديباء : ياقوت ، الجزء السادس عشر صفحة ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٦) تاريخ الأدب العربي : د. ل. بروكلمان ، نقل الدكتور عبد الحليم النجار صفحة ١٠٦

إن أبا عثمان طلب إضماراً من رئاسة ديوان الإنشاء ، ولم يقل أن يستمر فيه أكثر من ثلاثة أيام لمدة أمور .

١- طبع الجاحظ على الفكاكة ، ومشق العج والسخر ، وذلك يتنافى مع الوفاق الذي يجب أن يسود ديوان الإنشاء ، الرعى الحكيم ، والمهية والجدية التي تحيط به ، لما يقوم به من مهام خطيرة في توجيه شؤون الدولة ، والاحتفاظ بأسرار تتعلق بأمن الخلافة وصلاحتها ، ولتأثيرها بولايتها وصلتها ، وطولك رؤس الدولة الأخرى ، فلم يحتفل الجاحظ هذا الجوال العام الخائف الذي لم يحتده ، فضحى بمنصبه لتظل له طلاقته ونشأته .

٢- صحب أبو عثمان الخلفاء والزعماء على حذره ، واشتد ما أمكن من تولية المهام الرسمية لهم خوفاً من التصغير والزلل ، أو الوصية والتبسم ، وما يتبع ذلك من عقاب ، وما يكون من انتقام وتشكيل ، وما كان أعول عقابهم ، وأبشع انتقامهم وتشكيلهم ، وقد رأى بحيني رأسه صديقه الزيد بن الزيات يسجد في أثون الحديد ، ذي الساميرا المحددة المتلونة الذي صنعتها يداه ، فأكفى من صحتهم بقدر ما تستقيم له حياته ، ويحفظ له رزقه وكرامته ولكنه كان يرفض أن يكون مسئولا عن أمور تنس السياسة والخلافة وتربط بتوجيه الدولة ، وتحريك دفتها ، لذلك سارع بالهرب من رئاسة ديوان الرسائل بعد أن تولاها ثلاثة أيام حسب .

٣- أقدم الجاحظ لخدمة منذ صباه ، وتمكنت من نفسه في شبابه وكهولته ، فتهيب حياته كلها على أساسها ، فصاحرا في كتابته ، له أسلوب معين ، وطريقة خاصة . . . حرا في تفكيره فشك حتى وصل إلى الحقين ، واختبر وجرب واستقرأ . . . حرا فسي مذهبه الديني ، فاختار الاعتزال المعتمد على الفكر الظليق ، والعقل الرعيب ، حرا في خلقه ، يذكر العواصم وأعضاءها وصلها دون حرج . حرا في سلوكه الاجتماعي ، فلم يتزعج هربا من قيود الزواج . حرا في سائر تصرفاته واتجاهاته ، لم يقل أن يربطه قيد ، أو يخضعه وثاق ، ولو كان رئاسة ديوان الإنشاء ، الذي يشبه غيره ، ويمتني بجذع أنفهم أن يناله ، وصتقر فيه .

٤- كان يكره صناعة الكتابة لما يرى فيها من إذللال وإهتان ، يقول في رسالته ثم أخلاق

الكتاب : (١) ن فيج الكتاب بنى على أنه لا يقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ، ولم نر عظيما قط تولاها بنفسه ، أو شارك كاتبه في علمه (٢٧) كما يكره الكتاب لصلفهم ويذخهم يقول عن الكاتب (أحكامه أحكام الأتباع ، وصله من الخدمة محل الأتباع) ، ثم هو مع ذلك في الذبوة القصوى من الصلف ، والسلم الأعلى من البذخ ،

وفي البحر الطام من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم إذا عرض جيته ، وطول ذيله وقصر على خده صدغه ، وتعذف الشاهوريتين على وجهه أنه الشيوخ ليس التابع ، والملوك فوق العالم (٢٧) وقد عاب عليهم تناقضهم وهذا وهم بعضهم ، وكيدهم لبني منبتهم

يقول : (كأنكم أولاد حلات وضرائن أمهات في عدواة بعضكم بعضا ، وحلق بعضهم على بعضه أف لكم ولا خلافتكم) (٢٨) ويقول : (هم كالليرة من الكلاب في مرايضها ، يمر

بها أصناف الناس فلا تتحرك ، وإن مر بها كلب مثلها ، نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله) (٢٩)

فكيف بالجاحظ وقد أوضح لنا دخيلة نفسه ، ووقفنا على ما يعزق نياط قلبه ، من خسة هؤلاء الكلاب ولم طباعهم ، يقبل أن يكون واحدا منهم ، أو رئيسا لهم فلا عجب إذن أن يفرهاريا من هذه الصناعة وأربابها الأخساء الأتباع ، وأن يبيع نفسه من هذه الخلق الكريم ، والطبايع اللينة .

هو كان يفضل الكتابة الحرة : كتابة الكتب وتصنيفها وتحرير الرسائل العلمية والأدبية من غير أن يكون لأحد عليه سلطان ، ودون أن يقصر نفسه على الكتابة لشخص يأخذ منه قسطا من أوليئته يتناول منها مشاهره ، ومثل في ذلك مثل من يفضل في عصرنا الأصايل الحرة على وظائف الدولة ، ولا يفعل ذلك إلا الجريء المقدم ، المتمكن من صناعته

(٢٧) ثلاث رسائل : الجاحظ : تشرير يوشع فكل : رسالة في ثم أخلاق الكتاب صفحة ٤٢

(٢٨) المصدر المذكور صفحة ٤٧ .

(٢٩) المصدر المذكور صفحة ٤٦ .

الرائق بنفسه ومقدرته على الكسب والربح من عمله الحر ، أضاف ما تخلفه عليه وظيفته ،

مع احتفاظه بشخصيته ، وامتلاكه زمام نفسه ، أما من يلجأ إلى الوظيفة ، ويتقيد بها ،

ويحس نفسه في إطارها ، فإنما يلجئه إلى ذلك ضيق عطنه ، ولوائمة وكسله ، وعدم امتلاكه

أساليب الكسب الحر ، لضيق آتئذ وتصوريده ، وقد ضرب الجاحظ مثلا للكاتب المتحرر

من وظائف الدولة ، ومدى تباينهما ، وعزله ، ووازن بينه في وظيفته ، وبينه وقد تخلى عنها

إلى الكتابة الحرة بقوله : (ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في منزله ، فرأيت السامطين

والرجال مثولا كأن على رؤوسهم الطير ، وأبى فرشته وزنه ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا

هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسقاط والرقوق والقماطر والدفاتر ، والساطر والنخابة فما رأيته

قط أحجم ولا أنهل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع بين العماية المحبة ، ومع

الشفامة الحلاوة ، ومع السورود العذبة) (٣٠) . وقد كان يظهمه بكرة عمل السلطان ، وله في ذلك

رسالة الشهيرة (في مدح التجار ودمج عمل السلطان)

٦- نفس عليه كتاب الديوان منصبه وتفوقه ، وكادوا له ، ووشوا به ، وهشوا زملاءهم للعمل

على إقصائه من مكانه عزيماده من رياستهم ، حتى لا يخلطهم ويخمد نارهم ولعل نفسى

قول سهل بن هارون : (إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب) (٣١) تحجير دليل

على ذلك ، فلما رأى العقد والقبض ، والمعامات والدسائس ، بالإضافة إلى الأسباب السابقة

طلب إقامته من منصبه فأجيب إلى طلبه .

٧- كان الجاحظ دميم الوجه ، مستهجن الخلقة ، كما أسلفنا . وذلك يعني ما يجب أن يكون

عليه الملك والديوان من وسامة وقسامة ، وبها طلعة تناسب بها الملك وأبهة الديوان ،

والجاحظ نفسه يشير إلى ما كان عليه الكتاب من جمال في الشكل ، وبها نفسى

(٣٠) الديوان : الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء الأول ، صفحة ٦١ و ٦٢

(٣١) معجم الأدباء : ياقوت : الجزء ١٦ صفحة ٧٩ طبعة عام ١٩٣٧ .

الطهر فقد (جلس) الجاحظ يوما في بعض الدواوين فتأمل الكتاب فقال : خلق حلوة ، وشاطئ
 مشوقة (٢٢) ويقول : (يتوهم الواحد منهم) إذا عرض جهة ، وطول ليله ، وقضى على خده
 صدغه ، وتعدف الشاويرون على وجهه أنه المتبوع ليس التابع (٢٣)
 فإذا كان الكتاب أشكالهم جميلة ، ولا يسلم أنيقة ، ومناظرهم على أعظم ما يكون البهائم
 والزينة ، وقد حرم الجاحظ - وهو رئيسهم - كل ذلك فإن هذه الحالة ولا شك تدخل الكآبة
 في نفس الجاحظ ، ولا يستدثر في نفوس الكتاب ، والاستمانة في قلوب زائر الدواوين ، ومن
 يتراشون الجاحظ ، وبأبي الجاحظ إلا أن يكون سيد الموقف ، منشرح الصدر ، فأوسع بالحمد
 عن هذا الجوال الكتيب ، المتقل بالقيود ، الذي ما ألفه ، ولا ارتضاه .

٢٢) ثلاث رسائل : الجاحظ ، نشر يوشع فشكل صفحة ٤٥ .

٢٣) المصدر المذكور صفحة ٤٦ .

الفصل الرابع

جرائمه في النقد

جنى النقد في دم الجاحظ منذ صباه ، وامتجج بنفاته وأدبه ، وعلقه وثقه ، فما وقعت عينه على منظر غريب إلا نقده ، ولا سمع قولاً زائفاً إلا سخر منه ولا علم رأياً شاذاً أو مذهباً بعيداً عن العقل ، إلا ملط عليه من ضوء فكره ما يكشف به موارده من عيبات حجبه وأستاره ، وقد كان في نقده - على الأعم الأغلب - صادقاً منصفاً ، لا يتحيز لرأيه ولا ينساق وراء صوى ، ولا يتبع سرايا ، كما كان جريئاً في نقده ، لا يمتنع من عيوب غيره ، لا رغبة في التشنيع عليه ، والإساءة إليه ، وإنما حباً له ، وطعناً في استقامته ، ورجوعه عن غيه ، ولتنصيح صفاته لغيره ، فلا يقع فيما وقع ، يقول مخاطباً من طلبه الكتاب في الهفلا (١) : ولا بد أن تمررني البينات التي تمت على المكلفين ، ولست على حقائق المتوهمين ، وهتكت من أستار الأدعياء ، وفرت بين الحقيقة والرياء ، وفصلت بين البهرج المتزخرف ، والمطبوع البهمل ، لتقف - زمت - عندها ، ولتعرض نفسك عليها ، ولتتوهم مواقفها ومواقفها فإن لهذا التصريح لدا ، على عيب قد أفضلته ، عرفت مكانه فأجنته (١)

وهو لا ينقد نقداً إجمالاً ، بل يعمد إلى التفصيل والوضح ، ويضع اليد على مكسب الداء ، ويهذره للميمان ، في جرأة وشجاعة ، تنفع الشخصية التي ينقدها أن تقف أمامه شامخه ، محتد على عهدها ، وكأنها ، ومكرنة سداً منها حاجزاً حصيناً ينفخه النقيد ويذهب ويذهب ما يوحشه إليها من لهم ، لأن نقده يتغلغل فيها ، وينفذ إلى باطنها ، حيث ينصح من داخلها ، وما حاولت تمويهه وتزيينه ، ويكشفها أمام نفسها فتصفر وتضال.

(١) كتاب الهفلا ، الجاحظ ، شرح العوامي والجام ، الجزء الأول صفحة ٢٢

ومع هذه الجناية ، وتلك الشجاعة ، لم يكن عياها فصاحة ، ولا شجاعتها مسافة ، فحينئذ نقد الصفات المردولة ، والخلال المشتهجة كمن أصحابها وري ، ولم يفتضح عنهم إلا إذا رأى ذلك لا يسقط كرامتهم ، ولا يحط من رتبهم ، أو أميأه توجسهم ووقاحتهم ، وبجاءرتهم بالعيب على أن الألفاظ التي استعمالها في نقده لم تكن فاحشة ماجنة ، وإنما كانت متخيرة منتقاة ، تدل على العيب في تلفظ وترفق ، عن طريق السخر المثلث وبخاصة مع كبار الملما ، كالمخطو والنظم وأبي عبيدة ، ومن تكفيم اللحمة ، وحسد اللفظة عندهم مسدا لخطب الطوال ، وقد كان نقد الجاحظ بناء ، يزيل ما طلا ليحل محله حقا ، ويبدل إنكا وضلالا لينبئ بدلها علما ورشدا ، فأبو عثمان يتخذ منه أداة تنوير وتعليم ، فينشئه في كتبه ورسائله ، ليفيد به كل قارئ وكل سامع ، وإذا تنبنا ما كتبه قارئنا لننمثر له على كتاب أو رسالة تجردت من النقد ، وإن يردى عنه خبر دون أن يداخله نقده وتعليقه وإعراجه ما يستحسنه وما يستبجنه ، فهكذا خلق أبو عثمان ، وعلى ذلك طبع ، وكثرة النقد تولد فيه الشجاعة والذرية والجراة والتصر .

وقد أتته هذه الجراة في النقد حتى صارت فيه طبعها وجيلة من عدة تعرج ،
 ١- كان - كما علمنا - كثير القراءة والاطلاع ، والبحوث والتجارب والأسفار وسجالسة الملما والعلمين ، والأدباء والفقهاء ، هذا إلى قريحة مواتية ، وعقلية رصينة ، وحسب بديع مكنه من أن يعرف الحياة والأحياء ، ويميز أحوالهم ، فتكونت لديه حصيلة ضخمة من الآراء الصائبة ، والاتجاهات الرشيدة فكانت تحت الأيأم صلاحيتها وتفاعليتها ، فتسك بها ويجعلها ميزانا حساسا لنقده ، وأداة صادقة للقياس والتقييم ، فلما لم يختل الميزان ، ولم تتحرف الأداة اكتسب الجاحظ الجراة في نقده ، والشجاعة في رأيه ، وأصبح لا يهاب ولا يداهن ولا يهكم رأيه ومعتقد .

- ٢- ثالث للجاحظ مكانته الاجتماعية العكينة ، التي تضي قلبه ، وتجري لسانه ، تهتد من بشا ، وهو مطمئن إلى أن مكانته في مجتمعه ، وتزلت في قلب الخلفاء ، والوزراء ، سحيمية ، وتنسج النيل منه ، كما يحميه لسانه ، وذب عنه ، ويصني خصه ويمنعه .
- ٣- يستطيع الجاحظ أن يمسح ما في صدره من نقد ، من قل وحقد ، وأن يقلب الموجدة التي في قلبه حبا ، أو يخفف من حدتها حتى تتلاشى ، معتمدا على لباته ودمائه ، وحين تأتيه ولطف من غلته القلوب ، يقول : (ومن العزاج — جعلت فداك — باب مكر ، ومنس خدع ، يتكل العدة في إصابته إلى جليسه ، وإساعه لصديقه ، هل أن يقول مزحة ، وهل أن يقول ضد المفاكة لعبه ، وهل أن يقول : من يخضب من العزاج إلا كرا الخلق ، ومن يرض عن المفاكة إلا ضيق العطين)^(٢) ، فليكن ناقدًا ، جريئًا في نقده ، ساميًا في سخره ، فإن معه الدوا ، وفي رقبته الترياق .
- ٤- كريس الجاحظ غالب كتبه للدفاع عن الإسلام ولغته ، ومناضلة غيره من الديانات والمقائد والمصبيات واللغات ، فنقد في جراحة وشجاعة النصارى واليهود والمجوس ، وفهرهم من أرباب المذاهب الضعيفة ، والطوائف التي تنافي الإسلام ، كما نقد الآداب الأجنبية وقصورها ، وعدم إيفاء لثانها بمقتضيات الحياة والمواقف ، لا يمسح ما يلقى من اتهامات جزاء نقده ، وحظه أصحاب هذه النحل واللغات ، لأنه يحسب ذلك عند الله ، ومعه ، فاعلم من دينه ومذهبه ولغته .

(٢) مجموعة رسائل الجاحظ ، صفحة ١٠٧ .

(٣) الديوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجيزي ، لسان صفحة ١٧ .

هو عرف الجاحظ الحياة وخبرها ، وفهم نفسه وبكائنها ، وأدرك أنه ممدود محفود عليه ، وأن من كان في مركزه كمنزلته ، فلن يسلم من السنة السوء ، ولن يترك يؤدى وظيفته نفس الحياة دون تنقيح وإقلاق ، وضالما لذلك موقف الناس منه ، ولن ، يحيدوا عنه ، فلينقص ما يرى فيه أموجاجا ، وليكن جريئا في نقده ، ولا يخشى تنطس المستطمين ، ولا تنقص الممتسمين فإن المنتهم لن تكف عنه ، ولو كف هو عن النقد الذى يعتبره جزءا من شخصيته ، لا يمكنه التنازل عنه ، حتى ولو كفت هذه الألسن لما جازلة أن يكف من نقده وتوجيهه ، وإصلاحه ، العقيدة والخلق والأفكار ، وكيف يستع من التوجيه والإرشاد وهو شيخ من شيخ الكلام ، وزعيم لطائفة اعتزالية رسالتها التقييم والإصلاح .

انطلق الجاحظ في ميدان النقد الجريء ، لا ييمه ما يحفه من أخطار ، ولا يرهيه ما يصيط به من صماب ، ولا يخاف من بنقده ، ومما سمت منزلته ، وقويت شوكة ، وزعمه الناس إلى مكانة النقد يس أو الإجلال ، أو جعلوه خوفا مرعبا ، وأحلوه محل السجن والجلاد فنقد أرسطوطاليس ، صاحب المنطق ، ومؤلف كتاب الحيوان ، وما كان أحد يجسر على نقده ، لأنه كان عندهم في منزلة العصمة ومرتبة القداسة ، فأنزله إلى مصاف من يجوز في كلامه الخطأ والزلل ، فبين أخطاءه ، وأوضح فلتات ذهنه ، وسخر من ثباته في بعض آرائه ، يقول ناقد ما ذكره من دعاوى غريبة ، لا دليل على صحتها ، ولا سند لها . من عقل أو منطق (وقد أكثر في هذا الباب أرسطوطاليس ، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشاهد إلا دعواه^(٣)) ويقطع راداعا على ما يقوله أرسطو ويعتقده ، دون أن يعمل فيه قتله ، أو يلجأ إلى إحدى حواسه في التثبت مما يدعى مع فرايته بل استعماله عادة وطعا ، (وقد ذكر أرسطوطاليس في كتابه الحيوان : أنه قد ظهر ثور وثب بعد أن خصى فتزا على بقرة فأحبلها ، ولم يحك هذا عن معاناة ، والصدور تخيق بالرد على أصحاب النظر ، وتضيق بتمديد هذا الشكل)^(٤)

(٣) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق هارون الجزء السادس صفحة ١٧

(٤) المصدر المذكور ، الجزء الخامس صفحة ٥٠٣ تحقيق هارون ، صفحة ١٤٧ طبعة ساس .

ويسخر منه الجاحظ، ويهزأ به وهو شيخ الغناطة، وصاحب العقل الحصيف الفكرة، الذي
يغرض عليه كل ما يعر به - إذ روى خبرا بعيدا عن العرف والمادة، منافيا لقواعد العلم
مجانفا لأدلة العقل، محاذيا لما تنفع عليه الصين * ثم يحمله - وهو صاحب المنطق - المنطق
السليم، ويعمره - وهو ربيب نظرية المعرفة - الخبر العلى المستقيم، والدقة فى رواية الأخبار
والبرهنة عليها - وهو مبتكر الأشكال والمقدمات والبراهين - ويرى الجاحظ أنه كان على أرسطو
أن يروى خبره الغرب الذى لم يثبت منه فى إطار الشك أو الظن أو الرواية عن غيره، والسماح
منه، وجعل المبدعة عليه، حتى لا يتم بالكذب، فتسقط كرامته، وتضيع موهبته. قال ستاندا
الجاحظ راويا الخبر السابق فى موضع آخر من كتابه الحيوان، ومحقبا عليه: (وزعم صاحب المنطق
فى كتابه الحيوان، أن ثورا فيها سلف من الدهر سفد وألق من ساعته بعد أن خص ٥٠ فاذا
أفرط المديح، وخرج عن القدار، أو أفرط التمجيد وخرج عن القدار، احتاج صاحبها
إلى أن يثبت بالصمان، أو بالخبر الذى لا يكذب مثله، وإلا فقد تعرض للتكذيب، ولو جعلوا
حركتهم خبرا وحكاية، وتبرأوا من عيبه، ماضى ذلك، وكان ذلك أصون لأقدارهم، وأتم
لمروءات كثيرهم) (٥) . . . ويقول أبو عثمان ينقد أرسطو ويسخر منه بعد روايته عنه خبرا غريباً
لم يذكر الدليل عليه، ولم يعرف العلماء صدقه: (وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل،
وما تظن بمثله أن يخلد على نفسه فى الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يحرف صدقها
أشباهم من الحلما، وما عندنا فى معرفة ما ادعى إلا هذا القول) . . .
ونراه ينقد أرسطو فى جراءة ويدلل على نصاد مقالته التى يذكر فيها أن الفيل: (أجره
الجلد، فلذلك يشتد جزعه من البرد) (٦) فيحقب على قوله ساخرا: (فإن كان أجره الجلد
فما قولهم فى أحاديثهم: طلبوا من الملك الفيل الأبيض، والفيل الأبيض: وبعاء غلان على
الفيل الأسود؟) (٧) .

(٥) الحيوان: الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد حارون الجزء الخامس صفحة ٢٢٠

(٦) المصدر المذكور الجزء الأول صفحة ١٨٥

(٧) المصدر السابق الجزء السابع صفحة ٢٢٨، وصحة ٢٠ طبعة ساسي.

رجل ، لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقيم على البصطة ، ويرأى إلى الناس من كذبهم عليه ، ومن أنساده مما نيه بسوء ترجمته (١)

لقد دفع الجاحظ علمه إلى النقد البرى الجرى ، وضعه خلقه من المحاباة والمداينة ، وامتنك عقله ، زلم لسانه ، فلا يخرج الكلام من فمه قبل أن يعرضه على عقله ، وينظر فيه ، ويفحصه ويحصه ، ثم يوافق عليه ، وأهاب به الحق أن يشده أينما كان ، لم يأخذ كلام رئيس المفكرين والمناطقة أرسطو قضايا مسلما ، وحقا ثقي مؤكدة عهد يديات ساطعة ، بل ناقشها ، وأبطل ما لم يوافقها ، وما لم يقبله عقله ، ولم يتم دليل على صحة ، وتوقف عند بعضها ، وشك في بعضها ، ونقد بعضها ، وبين رأيه فيه ، وذكره نساءه .

هذا بحسب ما قاله في أرسطو . . أقول إنه تجسراً عليه في نقده لأنه مات فلا يملك الدفاع من نفسه ؟ لا . . فآين أتباعه وأنصاره ، وأصحاب مبادئه ، وتلاميذه والدنيا كلها تلامذته ؟ إن ما دفع الجاحظ إلى الجراءة على أرسطو هو ما رآه من مخالفاته له في بعض أبحاثه التي تأكد من صحتها ، وما رآه أرسطو من أخبار لم يتم عليها الدليل ، والعقل يتفحصها أو يستبعد ما يستفريها ، ولما كان عقل الجاحظ ينكرها ، فقد بين قهدها وسخر منها ، لأنه لا يستطيع أن يجد خبراً لا يوافق معتقده وتجاريه دون أن يردده ويقف في وجهه .

وإذا كان النقد الجري . يوجهه الجاحظ لمن يأمن لسانه فأرسطو ، فلم نراه يوجهه إلى أستاذه النظام ، شيخ المعتزلة ، وصاحب المئانة بين الوزراء والعلماء ، ولم نسره . ينقد أبابعداً والأصمعي والأخفش وغيرهم من العلماء الأجلاء وأساتذة المظام الذين مدحهم وعرف لهم رفيع مكانتهم ، وسنى منزلتهم ، كما عرف لهم المالم الصريح حتى اليوم فضلهم ، ما يجعله يحنى هامته لإجلالهم وإعجابها بما خلدهم للإسلام وللعرب من مجد . . أن ذلك لا يحنى إلا أن الجاحظ كان جديداً في نقده ، وأنه لا يلتفت لمنزلة من ينقده مادام

يراء مسفا في رأيه ، فالإنسان الكامل في نظره لا وجود له فجميع الناس يخطئ ، ومسقط ، وهو بحكم طبيعته ومكانته لا يملك السكوت عن التبع .

ومن نقده لأستاذ إبراهيم بن سيار النظام قوله عنه : (إنما كان معيه الذي لا يفارقه سرٌّ ظنه ، وجوده قياساً على الحارث والخابر والمسبق الذي لا يوثق بمثله ، فلو كان بدل تصديده القيا من التمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره . . ولكنه كان يظن الظن ، ثم يقيس عليه وينسئ أن يدَّ أمره كان ظناً ، فإن اتَّفق ذلك وأيقن جزئ عليه ، وذكاه من صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه) (١٠)

وكان لا يوافق على بعض آراء النظام ، مع أنه أستاذ ، وموجه ، ورئيسه الديني وماحب مذهب الكلامي " الاعتزال " ، ما دامت هذه الآراء لا يقرها عقل الجاحظ ولا يشتد بالليل وابن وافق عليها جميع شيخ المذهب ، يقول : (وقد كان إبراهيم بن سيار النظام يجيب بجواب ، وأنا ذاكره ان شاء الله ، وعليه كانت علماء المحترلة ، ولا آراء مشتتة ولا شافيا) (١١)

كان الجاحظ يفرق بين النقد الجريء ، البناء ، وبين هذا " تحديق المساوي " ، وهتك عرض من ينقده ، فكان يرفض اللون الأول ويعجب به ، ويشك له ، لأنه بعيد عن الفضل والبجر ، وتحطيم من يتناوله بقلمه ولسانه ، فإن رأى أن نقده سلهدم وشبهه ، ويذيب الكرامة وتزيل المروة ، كعنه ، وفقر منه تحقفا وتكرما ، يقول : ولولا أن تكون عابا ثم للعلماء حكمة صورت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عبيدة ، ومن هو أبعد في وهك مسن (١٢)

وقد نقد بشجاعة وجراية ما للمفسرين والمحدثين من أخبار غريبة ، تعد من الخرافات التي لا تعرفها إلا عقول قائلها ، ومن على شاكلتهم ، من أغفيت عقولهم ، وانحرفت قلوبهم .

(١٠) المصدر المذكور ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٢٦ ، ٢٣٠

(١١) ثلاث رسائل ، الجاحظ : نشر يوشع فنكل صفحة ٢٦

(١٢) البيان والتبيين ، الجاحظ : تحقيق عبد السلام هارون ، الجزء الرابع صفحة ٢٤

فأشبهه أعداؤه بالعريق عن الدين ، والطمع على الإسلام والصليب في القرآن ، وهذا وهم منهم ، وقصور في نظرهم إلى العقيدة ، وتوهمهم لها ، فلم يفرقوا بين الدين والمتدين ، ولا بين العقيدة وأتباعها ، ولم يعلموا أن تعاليم الدين مقدسة لا تمس ، لأنها صادرة من الحكم الكبير . ومن يسميها بسوء يكفره ولكن آراء رجال الدين يجوز عليها الخطأ والانحراف والخروج من لب الدين وجوهره ، لأنها خاضعة للاجتهاد ، الذي يختلف باختلاف الفكر والثقافة والتدين ، على أن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . إن المجاهد لم يعبد الدين ، ولم يخضع لعقيدة المسلمين ، وإنما نبى على المفسرين والمحدثين آراءهم الباطلة ، التي تأبأها العقول الصالح ، وهزى به خرافات المفسرين وتأويلهم آسى الكتاب تأويلاً يرفضه العقل واللغة ، كما سخر من روايات المحدثين أحاديث هي في معتقد موضوعة مصنوعة ، لخلل فكرى أو أسلوبى رآه فيها ، فلما رأوا جرأتهم في تقديم وسخره من آرائهم التي ظنوها الدين ، انهموه في عقيدته ، وجعلوه موضع شبهة وظنة ، بل نسبوه إلى الزندقة ، لرفضه بعض الأحاديث ، وفيه بعض التفسيرات مع أنه برهن على بطلان ما ذهبوا إليه . يقول :

(وقد رآهم ابن حائط وناس من جبال الصوفية أن في النحل أنبياء ، لقوله عز وجل وأوحى ربك إلى النحل . . . قلنا وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء ؟ بل يجب أن تكون النحل كلها أنبياء ، لقوله عز وجل على الصخار العلم وأوحى ربك إلى النحل . . . وبعد فإن كنتم مسلمين فليس هذا قول أحد المسلمين ، ولا تكونوا مسلمين فلم تجعلوا الحجة على نبوة النحل كلاماً هو عتكم باطل (١٤) .) (ومضى أهل التفسير يزعم أن الله عز وجل عاقب الحية حين أدخلت إبليس في جوفها حتى كلم آدم على لسانها بعشر خصال ، منها شق اللسان ، قالوا : فلذلك ترى الحية أبداً إذا ضربت لتقتل كيف تخرج لسانها تلويه كما

يصنع المسترحم من الناس بأصبعه إذا ترجم أو دحا ، لترى الظالم عقوبة الله تعالى لها (١٤)
 (ويزم بعض المفسرين أن الضبور خلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلعة القيل
 . . . وهذا الحديث نافع عند المومنين وعند بعض القصاص) (١٥) (وقد قال الناس في قوله
 تعالى : "إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم" ظلموا لأنه رؤوس الشياطين : فزعم الناس
 أن رؤوس الشياطين شجر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريهه والمتكلمون لا يعرفون هذا
 التفسير) (١٦) (وسئلوا عن قوله تعالى : قل أعوذ برب الفلق . قالوا : الفلق واحد في جميع
 ثم قصدوا يكفرون) (١٧)

لذلك قال أبو عثمان : (لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين ، وإن تصبروا أنقسم للمعامه
 وأجابوا في كل مسألة ، فإن كثيرا منهم يقول بغير رواية ، على غير أساس ، وكلما كان المفسر
 أغرب عندهم ، كان أحب إليهم) (١٧)
 وقال : (وقد تعلم أن مفسري كتابنا ، وأصحاب التأويل منا أحسن معرفة ، وأعلم بحججه
 الكلام من اليهود وتأويل الكتب ، ونحن قد نجد في تفسيرهم ما لا يجوز على الله نفس
 صفته ، ولا عند المتكلمين في مقاييسهم ، ولا عند النحويين في عريتهم) (١٨)

وقد سخر الجاحظ من الكتاب اليونانيين وغير اليونانيين مع ما دام من غرة وما يملأونه
 من لسن ديان ، يمكنهم من الرد على الجاحظ وهيبه ، ولكنه لم يرههم لتقته بالفالج والامتنعالة
 ولا بما نه أنه يقول الحق الذي يصرع به باطلهم ، وسوط الحق غلاب ، وصوته جهوري يكتم

(١٤) المصدر المذكور : الجزء السادس صفحة ٢٤ ، ٢٥ وسئلة في ج ٤ ص ١٦٤

(١٥) المصدر المذكور : الجزء الخامس صفحة ٢٤٧ ، ٢٤٨

(١٦) المصدر المذكور : الجزء السادس صفحة ١٦٤ (ص ١) المصدر المذكور ج ١ ص ٢٤٤

(١٧) المصدر المذكور : الجزء الاول : صفحة ٢٤٣

(١٨) ثلاث رسائل : الجاحظ : نشر يوشع فinkel : صفحة ٢٩ .

معهده يقول نقلا عن أبي من ، (ما رأيت قوما ثفرت طباعهم عن قبول العلم ، وصغرت هيبهم عن احتمال لطائف التمييز ، فصاروا للعلم سببا جهلهم ، والبيان علم ضلالتهم ، والقصر والنظر خايد ضمهم ، والحكمة معدن شهيم أكثر من الكتاب) (١١)

صدي من أبي بكر الأصم قوله ، (ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزاة علمه ، وكثرة روايته كما قال اللعز ذكره ، كمثل الحمار يحمل أسفلا ، قد أوجع علمه ، وأذاعه حله ، وأصغته حكمته ، وجورته بصيرته) (١٢) وقد سبق ما رأينا من أبي عثمان في نسخ ابن عبد

الوهاب الكاظم في رسالة التبيين والتدوير ، فما خاف ولا رعب ، لأنه جهل على النقد الجري ، ومن أوضح الدلالات على جرائه النقدية ، وشجاعته الأدبية ، نقده نفسه ، فقد تقدم ما نرى كثير من كتبه من اضطراب في التسيق ، وقد ذكرت ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب ، كما نقد بعض معتقداته في صفوه عن الخفافيش التي لا تترك من تقع على وجهه إلا إذا سمعت يهيق حمار وحشي .

الباب السابع

سخرات الجاحظ بين التأثر والتأثير

الفصل الأخر

السخرية قبله ومدى إنفاذته منها

رأينا السخرى أدب الجاحظ قويا ملاقا ، سامعا شاهقا ، يتلى مودة الأخضر بالحياة
والعاج ، والنصرة را لروا ، قد افتن فيه أبو عثمان ، وشقق منه غروبا معجبة ، وولد ألوانا
مطوية ، طال فيها نفسه ، وامد إليها باعه ، ورفرت عليها أعلام علمه وثقافته وفنه ، فكسا
المجد ثوب المنزل ، والعلم والأدب رداء اللبر واللمب ، والتعذيب والإصلاح جهة العز والإضحاك
فما يل حديته ، ولا ينتمى إيناسة ، ولا يتورضه قارى أو سامع ، لأنه إن أراد الجد وجد
وإن أراد المنزل وجد ، وإن رغب فيهما معا وجدهما متشابكين ، وحسبه فخرا أن يكون له
أسلوب فريدة ، وطابع مميز ، ونكهة محببة ، يتفرد بها ، ويفسر سواء من بلوغها ، وتبهر أنفاسه
وتتقطع نياط فنه قبل إدراكها .

ولكن ١٠٠ كانت سخرية الجاحظ طفرة في الأدب لم تسبق بتوبيد ؟ وثبة في الفن ليس
قبلها حيون فنى ثم جرى ؟

إن طبيعة الأشياء ، وقوانين النشوء والارتقاء تمنع ذلك ، وتكر أن يكون ، وتبهمنا فن
السخرى منذ العصر الجاهلى يوقنا على أن الأمة العربية صعدت بأدبها الساخر درجات
سلج واحدة إثر أخرى ، وارتقت بهصرا بعد عصر حتى وصل به الجاحظ في المصير
المعاصر إلى أعلى الدرج .

ولنبدأ بالدرجات الأولى من هذا السلم ، نتأمل بناها ، ونتمعن في خاماتها ونذقق
النظر في صلبها وصفحتها ، ثم نختار الدرجات التي تليها ، حتى نصلح الجاحظ حيث
وقف .

كانت السخرية في العصر الجاهلى قليلة نادرة ، خالية من الحق ، بعيدة عن التلويح
واللهز ، تنج غالبا نادية السبا لصريح ، والكشف عن المعنى المراد في وضوح ، وكانت
تصطب على سلب الصفات التي يحتج بها المرء في بيئته . من تجده وشجاعة وكلم ووقار .

وكانت منزلة الفرد من القبيلة منزلة الابن من أمه وأبيه ، ويعرف فضلها ، ويخضع لقوانينها ،
ويعمدا إن تعرضت لما يشينها لأنه يشرف بشرفها ، ويضع باتضاعها . . . ومن هنا نشأ التعصب
للقبيلة ، والاتحاد بالظلم فيها ، فإن دافع المصير ، فإنما يدافع من أجل قبيلته ، وإن ناله
خير ، فإنه لا يفزع إلا بقدر ما يصيب القبيلة منه عيشته من بروج وطله لترتفع قبيلته ، وتسمو
على سائر القبائل ، ولا كيان له مستقلا ، ولا اعتبار له منفصلا ، فكل من هجر أو سخر منه
فإن عقوبته ترجع على القبيلة كلها ، ولكن سخر بالقبيلة فقد سخر بكل فرد منها ، ووطعت كرامته
يقول ابن رشي : (كانت القبيلة من العرب إننا نبغ فيها شاعر أجت القبايل فبشائنها ، وصنعت
الأطمعة ، وجميع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يضمون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان
لأنه حماية لأهراضهم ، ودب عن أحسابهم ، وتخلد لما ترحم ، وإشادة بذكرهم) (١) لذلك
نرى أهاليهم ومدائنهم تبدأ بذكر القوم أو القبيلة ومن نماذج الحبث الساخر في هذه

الحقبة قول حسان بن ثابت في بني عبد المطلب :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظت جسم الهفال وأحلام المصانير

وقول الأعشى في علقمة بن علاثة

تهبتن في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرشي يمتن خنايضا (٢)

وقول العطيئة في أمه : تسن فاجلسي مني بعيدا : أراج الله منك المالنسبا

أفريلا إذا استودعت شرا وكانونا على المتحدثينا (٣)

وقوله في امرأته : أطوف ما أطوف ثم آفوي إلى بيت عميدك لكاع (٤)

ومن سخريات العطيئة ما (قالوا : كان العطيئة يرض فضاله ، وفي يده عصا - نعيسة

رجل فقال : يا راعي الخنم ما عندك ؟ قال حجرا - من سلم - يعني عصا - قال : إنسي

(١) العدة ابن رشي : الجزء الأول صفحة ٦٠ الطبعة الثالثة عام ١٩٦٣ مطبعة السمادة

(٢) تاريخ الأدب العربي : شوقي ضيف صفحة ٢٠

(٣) جمع الجواهر : المصري : صفحة ٢٢٨

ضيف . فقال : للضيفان أعددتما (٤) .

ويقول قريظ بن أنيف المنبى ساخرا من قومه حين خذله .

لكن قومي وإن كانوا ذوى عذق	ليسوا من الشرفى شىء وإن شانا
يجعلون من ظلم أهل الظلم مخفرا	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لأخشيته	مواهم من جميع الناس إنسانا
قلبت لى بهم قوا إذا ركبوا	شئنا الإغارة فرسانا وربانا (٥)

فالكلام ظاهر المدح بأنهم متسامحون خيرون ، ويقابلون الإساءة بالإحسان ، ويجازون الشؤ بالخيرة وهم أتقيا ، يخشون الله ، حتى كأن الخشية من الله لم تخلق إلا لهم ، ولا توجد فى سواهم .

لقد عدد لقومه هذه الصفات التى يتدح بها الإنسان فى أى جيل ، ومن أى جنس ولكن قصد السخرية العريضة ، والتعكم الفاضل ، والالتزام بالضعف والخور ، وأنهم أنكاس ، لا يصدون الممتدى ، ولا يردعون الباغى ، وقد أوضح مرادنى البيت الأخير حيث تمنى استبدال آخرين بقومه ليست فيهم صفاتهم ، وإنما فيهم القوة وشف القاء ، وشدة الإغارة ، فأكد لنا البيت الأخير أن الصفات المذكورة فى الأبيات قبله لا يقصد بها المدح ، وإن كان ظاهرا ذلك وهذه سخرية طريقها الذم بما يشبه المدح .

فإذا كان العصر الإسلامى رف الهجاء ، وقل استعماله تجاهها مع أوامر الشرع الحنيف ، وخف ما فيه من فحش وجون ، واقترب من الرجز والإيما ، والتمويه وخطا خطوة نحو السخر والتعكم ، يقول الله تعالى ساخرا من الكافرين : (إن الذين تقدمون من دين الله مبغضون أمثالكم ، فادعهم ، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألمهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا

xxxx

(٤) البيان والتبيين ١ لجاحظ ، الجزء الثانى : صفحة ١٤٧ ، الجزء الثالث صفحة ٨٠

(٥) ديوان الحماسة الجزء الأول صفحة ٣ ، ج ١ ص ١٩ تعليق د . خفاجى ط ١٩٥٥

شوكاهم ثم كيدون فلا تنظرون (٦) ويقول على لسان إبراهيم عليه السلام : يخاطبه الكفار ويرد عليهم : (قالوا) : أنت فعلت هذا بالهتاء يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون (٧)

وشكأنوا المجلان النجاشي الشاعر إلى عرب بن الخطاب قائلين : لقد هجانا يا أمير المؤمنين قال : وما قال فيكم ؟ فأنشده قوله :

إذا الله عادى أصل لوم ورقة
فما دى بنى المجلان رطابن مقبل
فقال صر : إن الله لا يعادى مسلماً . قالوا : فقد قال :

قبيلة لا يخذلون بذمة
ولا يظلمون الناس حسبة خردل
قال مودته : أن آل الخطاب كانوا كذلك . قالوا : فقد قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم
وتأكل من عوف بن كعب وتمشل
فقال : وكفى ضيلعاً من تأكل الكلاب لحمه . قالوا : فقد قال :

ولا يردون الماء إلا عسيرة
إذا صدر الوراء من كل متدل
فقال : ذلك أصفى للماء ، وأقل للزحام . قالوا : فقد قال :

وما سقى المجلان إلا لقولهم
خذ القصب واحلب أيها العبد وأعجل
فقال : سيد القصب خادهم (٨)

إن النجاشي لم يرد المعنى الظاهر المتبادر إلى الأفهام عند ألقى وهلة فلم يرد أن يصفهم بالعدل والوفاء ، ولا بالشجاعة وقوة البأس ، ولا بأنهم مدعوون لا يحجلهم الاحتياج فهم لذلك لا يترحمون على الماء ، ولا بأن الكلاب الضاريات تعاف لحومهم خشية ورهبة :

(٦) سورة الأعراف الآية ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٧) سورة الأنبياء الآية ٦٢ ، ٦٣ .

(٨) زهر الآداب : الحصري : الجزء الأول صفحة ٢٤ ، ٢٥ .

وتأكل من لحم قورهم لضيقه وخيره - إن هذه الصفات البهيمة والسيما الجيدة ليست
 معاً التجاشي، وما قصد إليها، وإنما أراد المعنى الخفي، وقد لن إليه، وأما معنى
 بعد، فهي تخلفتك فكر، وسخية وتهاكم، وحمل المدح ستاراً يفتش من وراءه سمومه، ولم
 يظهر مراده إلا في البيت الأخير كما نعلم قريظ ولم يكنده عن غير غفلة من السخيرة القرد بسنة
 التي قصد بها الصاعرة، ولكنه أراد إخطار الفتنة، وتعبئة الفتنة، وأنه طالب حفظ النفس
 الزاجدة، ودرء الحدود بالشبهات

وما حدث بين التجاشي وبين المجلان حدث نظيره بين الخطيئة والبرهانين بدر حيث
 قال له .

دع المكالم لا ترحل لميتيها واتممت فإنيك أنت الظلم الكاس

ولكن الخطيئة لم يقصد المعنى الظاهري الذي قال عنه صر، لكننا الظلم الكاس، وإنما
 أضاف لوج إلى أن الزهريان خلون حميد الصفات، وكريم السجايا، وجيد القفال، وأنه
 لا يصلح لشئ أكثر من ابتلاع الظلم وكس الماء، بل إنه إنما خلق لذة التوحده، وليس
 ما يشمله في الصياغة سواء، وحمل بعد ذلك سخيرة واستهزاء، ويص بك نقیصة، وإن كان
 قد صاغ بيته في ثوب نصيحة وإرشاد، وهذا التمرير أتمه وقفا في النفس من الأجسام
 يدل على ذلك قول حسان حين حكم في الخصومة، (لم يصبه ولكنه سلج عليه) ومعنى هذا
 أن السخيرة أنكى من الرجاء، وأوجع من لسب الصريح مهما تمسح .

فإذا وألينا صمود الدج وصلنا إلى المنصر الأموى وألينا القزوق وجريد والأخطل،
 رأينا السخيرة تمنع بالعضارة الجديدة والأدب الذي ساد وأن كان هؤلاء الثلاثة قد أتوا
 من الرجاء المفشوما تخجل منه العفة، وينكره الحماء، ومن تنكم جريد بالقزوق قوله .

نم القزوق أن سيقتل مريعا أبشر بطول سلامة يا حن

ومن السخريات المتبادلة أن (قال خالد بن صفوان للقزوق: يا أبا قراس، لو رأيتك صوحبات
 يوسف لما أكبرتك ولا قطعت أهدبي) . فقال القزوق: وأنت يا خالد لو رأيتك صاحبة موسى لما

التحل . أى ليس فيها حلالة (١٣)

ومن حيل أكسب السخرة ما رواه بقوله : (جائنى جارية بدينار ، وقالت هذا وديعة عندك ، فحملته بين ثنى الفراشه فجاءت بعد أيام وقالت : بأى أنت ، الدينار فقلت : ارضى فرائضى ولده ، فإنه قد ولد ، وكنت قد تركته إلى جنبه درهما ، فأخذت الدرهم وتركته الدينار ، وجاءت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته فوفى الثالثه كذلك وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيت . فقالت : ما يبكيك ؟ قلت : مات الدينار فى النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا غاسقة تصدقين بالولادة فلا تصدقين بالنفاس) (١٤) ولعمد الله بن القتيق سخريات على قدر كبير من الملاحه والظرف ، واللذع والإيلاق . منها ما ذكره الشيخ بن عدى من أن ابن القتيق كان يستخف بسفيان كثيرا ، وكان أنف سفيان كبيرا ، فكان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما . يحس مشورا أنه فقد قبضه ومسخه ، وحمل أنفه شخصا آخر يمتطى وجهه . . . وقال له يوما : ما تقول فى شخصيات وخلف زوجا وزوجة ؟ ليسخر منه على ملأ الناس . وقال سفيان يوما : ما ندمت على مكوثي فقط . فقال له ابن القتيق الخرس زين لك ، فكيف تتدم عليه ؟ (١٥)

سخر ابن القتيق من سفيان لبشاعة خلقته وكبر أنفه ، كما سخر من ثقافته عقله وجملته وسخر أخيرا من عيه وحصره ، فى أسلوب ورقيق ظاهره ، شائك باطنه فلأنه فى القصة الأولى يجله ويعظمه فيقيم مقام شخصين ، وفى الثانية يماله مسألة تقديمه بحله فيها محل الاستاذ الذى يلجأ اليه فى حل العضلات ، والقضايا فى المسائل الخاضعة ، أما الثالثة ففى من باب

(١٣) جمع الجواهر ص ٦٧ دهر الاداب ص ١٧٢

(١٤) نهاية الأرب ، النويزى ، السفر الرابع صفحة ٢٧ مطابح كوستانسوباس وشركاه (تراثا)

وفى جميع الجواهر للعصرى صفحة ١٩٩ .

(١٥) وفيات الأعيان ، ابن خلكان ، الجزء الأول ، صفحة ١٨٨

المجاء لصراحتها ، ووضح السبب فيها ، وسرد مرخصها ، وقربها من النفس ، الجواب لمير
المتوقع ، والتعليل بخير ما ينتظر .

وفي العصر الأثوني شخصية لا تقل في نكاهتها ورحمتها وسخرها من ابن القيق وأصيب هي
شخصية أي دامة " زنديج الجون " فقد كان أُنسب وأبو دامة علمين يارتين مسـ
أعلام الفكاكة والسخر وكثيرا ما صاحبها الوزراء وسامرا الخلفاء وقد كان أبودامة سمورا للمدى
والمنصور والسفاح ، وكانوا يمجبون بفكاهاته ، ويخرون بخمزاته ، ويخرونه بالسخر قبل ينددونه
ويتوعدونه إن لم يسخر وهم ذوو مقدرة على تنفيذ ما ترونها وما عهدوا ، كما أنهم أصحاب
أريحية في البذل والحطاط ، ومن كان منهم بخيلا مقتررا كالمنصور فقد كانت رقة أي دامة وحسن
تأنيته تسقى يده فيجود (ذكر أن أبا دامة دخل على الممدى وهذه جماعة من أهل بيته
من بني هاشم ، فقال له : أنا أعطى الله عبدا ثمن لم ينجح لي واحدا من في البيت لأقطعن
لسانك ، فنظر إليها القم ، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليه رضاء . قال أبو دامة
فعلمت أنني قد وقعت ، وأنيما غمزة من غمزاته ، لا بد منها ، فلم أر واحدا أحق بالمجاء
منى ، ولا أدعى إلى السلامة من هجاء نفسه ، فقلت :

ألا أبلغ لديك أبا دامة
ظلم من الكرام ولا كرامة

إذا ليس العامة كان فردا
وخزنها إذا نزع العامة

جمعت دامة وجمعت لؤسا
كذلك اللم تنبه العامة

فلان تك قد أصبحت نسيم دتيا
فلا تفرح فقد دنت القيامة

(١٦)

فضحك القم ، ولم يبق منهم أحد إلا أجازوه .

(و ذكر أن الممدى خرج إلى الصيد وجمع على بن سليمان بن علي بن عبد الله بن الصباس

فمنع لهما قطيع من ظباء ، فأرسلت الكلاب ، وأجريت الخيل ، فرمى الممدى سمـ

(١) الأغاني ، الأصفهاني ج ٣ ص ١١٨٩ ، ١١٩٠ كتاب التحرير ، مذهب الأغاني ج ١

ص ٣١ ، نهاية الأرب ج ٤ ص ٤٤ ، جميع الجواهر ص ١١٠ ، ١١٢

السخر عندده ، ومعرفة الطرق التي انتهجوها ، فبنى عليها ، وأضاف إليها ، ونسب سخرياته
إلى من شهروا بالسخر قبله ، وأضافوا لهم ، وولدها على ألسنتهم ، حتى ليحسر علينا
التمييز بين ما أخذ ، وما ابتدعه ، مما جعل الذرة تتورث من سبق ، وتزهر وتثمر لأنه أحاطوا
بمرايته ، ونعمدها بالبر والتفذية ، حتى تنهت روحه بهذا الفن الضاحك ، وأضاف
إليه من تجاربه وطبعه وانتثانه ، وما حفل به عصره ، أنما مطربة ، وألوانا مبهجة ، وظلالا
سعت بقنا لسخر ، وجعلته على قدم المساواة مع سائر الفنون الأدبية الشهيرة إن لم نقل

إنه علاها وهذا .

يحتبر العصر العباسي ، وخاصة في الفترة التي عاشها الجاحظ - عصر تقدم وهدنية
ونعمة ورخاء ، فقد بلغت الحضارة أوجها ، وجاوز التقدم مداها ، ولم الترف والسرف أرجسا .
الدولة ، وانصرف كثير من الناس إلى اللهو والمجون والخلاعة ، يبعثون من كؤوسها المتزعة
ويترشفون رحيقها قطرة قطرة ، في تلذذ وتعم ، ويحتلبون من أفانيقها الحلوة ما يبهجهم
ويضرهم بالسماء ، وانتشروا لك وشاع حتى أصبح الخلفاء والوزراء على القوم يتخذون لهم
المجالس ويقيمون الندوات ، يسمعون فيها ويضحكون ويغشون ، وانعكس ذلك على
العامة التي من لديها تقليد الخاصة وصحابة الأغنياء ، وذوى السلطان والناس على دين
ملوكهم ، وفي سميت أغنيا لهم فسادت الدولة والخروج من الضحك والفكاهة ، والنج والدعابة
والتهكم والسخر ، وخلط الجذ بالهزل ، والحزن بالضحك ، والصراة بالهنية بالخلاعة والمجون
وأصبح غاية الحياة عند هذا العصر ، المتعة والبهجة واللذة ، ولو كان ذلك فسي
التحلل والابتعاد من الخلق وتعاليم الدين .
وارتقت السخرية توحا لرقى العصر ولانت ولطفت ، وتشرت وصفت ، مستعدة ذلك من
لين الحياة وموتها ، وانفتاق الأذهان ، وذاتها ، فافتن فيها المفتون وابتدعوا ، وشققوا
وولدوا ، وأعدوا آلتها ، وأرهقوا حلها ، واقتوا صناعتها ، فجاءت جينة السبك
محبوبة الأداة ، تجارى ما يجرى في أيدي الخلفاء والأمراء من أمثال يكافئون بها ، ويشجعون
على إجادة صنعتها ، وتتاسب مع حرافة عقولهم ، وحضور يدهتهم ، وتعرضهم بالأدب والفن
والملاحمة ، فارتقت السخرية أملا في النظرة ، وطعما في التناول ، وأصبحت فنا خالصا
يطلب ويعرب فيه .

واشتهر بها رجالاً أدبوا في الأدب ، وجعلوها فنا من فنونه ، وبها من أبوابه نقداً
إلى التسلية عورفية في التثقيط وطعما في الإصلاح ، منهم أساتذة الجاحظ ، وأصدقائه ،
ومن أشهرهم :

أبو عبيدة : محرر بن العنق الذي كان كل كلامه قلوب من سخره ،

(خرج أبو عبيدة مرة إلى بلاد فارس فاصدا موسى بن عبد الرحمن الليثي ، فلما قدم
عليه قال موسى لفلانة احكروا من أبي عبيدة فإن كلامه كله دق . ثم حضر الطعام فصب
بعضها الخمر على ذيل ثوبه مرقا فقال له موسى : قد أصاب ثوبك مرق ، وأنا أعطيك عوضه
شرة ثياب . فقال أبو عبيدة : لا عليك فإن مرقك لا يوقى . أي ما فيه دهن . ففطن لها
موسى وسكت) (١)

وما يدري عنه من سخريات قوله : (أجريت الخيل في الحلبة ، فجاء فرس من الخيل سابقا ،
فجعل رجل من النظارة يكثر الشج ويكبر ويصفق ، فقال له رجل إلى جانبه : يا فتى ، أليس
لك ؟ قال : لا ، ولكن اللجام لي) (٢)

ومنهم إبراهيم بن سيار النظام : فمن سخرياته :

(ذهب النظام مع أبي الهذيل العلاف لتعزية صالح بن عبد القدوس على ابن له ،
فوجد جنيشا كنيا ، فقال له أبو الهذيل : يا صالح ، اني لا أجعلك سبيلا ، ولا لحزتك
عذرا جميلا ، إذ التا سر عندك كالنبات . فأجاب صالح : يا أبا الهذيل ، إنما تحرقني لأنه
مات ولم يقرأ كتاب الشكوك . فقال أبو الهذيل : وما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب وضعته ،
من قرأه شك فيما كان كأن لم يكن ، وفيما لم يكن حتى كأنه كان . فرد عليه إبراهيم النظام

(١) الجاحظ : حياته وآثاره : شفيق جبري صفحة

(٢) جمع الجواهر : الجصري : صفحة ٢٢٢

وقال له : إني قد أنشغلني إنه لم يمت وإن كان قد مات ، وظل أنه قبل الكتاب وإن لم يقرأه .
 ومنهم ثمامة بن الأشقر : أحد شيوخ الجاحظ الذي أفاد منه كثيرا بالنقل من أدبه
 ولانتفاع بأسلوبه وبمخانيبه كما كان أستاذه في العيون والفكاهة والنادرة اللازمة ^(٤) فقد
 روى أن الرشيد سأل (يوما جلوسا) من أسوأ الناس حالا . فقال كل واحد شيئا حتى جاء
 دور ثمامة . فقال : أسوأ الناس حالا ، عاقل يجري عليه حكم جاهل . قال ثمامة : فتبينت
 الغضب في وجه الرشيد - لأنه ظن أنه يعنيه وكان قد حبه - فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما
 أحسبني وقعت بحديث أردت مواضا غيبته حادثة وهي : أن سلاما الأندلسي - وكان سجانا -
 وأنا في السجن كما ن يقرأ في المصنف . ويل يوشك للكذابين - يفتح الذال - فقلت له
 المكذبون هم الرسل ! والمكذبون - بالكسر - هم الكفار ، فقرأ . ويل يوشك للكذابين .
 بالكسر . فقال سلام : قيل لي من قبل أنك زنيق . ولم أتبل . ثم ضيق علي أشد الضيق
 فجعل الرشيد يضحك ^(٥) .

ومنهم أبو الدهخيل العلاف ومن سخره ما يروى أن المؤمن انصرف منه (فدخل عليه يوما
 وقال : يا أمير المؤمنين ظلمتني وظلمت فلانا الكاتب . فقال له : ولك ، وكيف ؟ قال
 رفعتني فوق قدره ، ووضعني دون قدره ، إلا أنك له في ذلك أشد ظلما ، قال : وكيف ؟
 قال : لأنك أقمته مقام هنز ، وأمتني مقام رسم . فضحك المؤمن . وقال له فانتك الله ^(٦))
 (فتصبرا) ثم أني خاطب بعض الأمراء فقال له : كذبت . فقال : يا أيها الأمير : إن وجه الكتاب
 لا يبقا بك - يعني الأمير بذلك - لأن وجه الإنسان لا يقابله ^(٦) .

(٣) ابن زيدون ورسائله : كامل كيلاني : صفحة ١٠٢ .

(٤) ضحى الاسلام : أحمد أمين ، الجزء الثالث : صفحة ١٥١ .

(٥) المرجع المذكور صفحة ١٥٢ .

(٦) سنن الصيون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ١٢٤ .

ومن هؤلاء الأساتيد : علي بن سليمان الأخفش . ومن سخره :

(٧) قال رجل اسمه عمر لعلي بن سليمان الأخفش : علمني مسألة من النحو ؟ قال : وتعلم أن اسمك لا ينصرف . فأتاه يوما وهو في شغل . فقال : من الباب ؟ قال : عمر . قال عمر اليس ينصرف . قال : أوليس قد زعمت أنه لا ينصرف ؟ قال : ذاك إذا كان معرفة ، وهو الآن نكرة . هؤلاء أساتذة الجاحظ الذين وجهوا حياته ، وساروا به نحو البراعة في السخرات لفسنن فيهم حتى يذهبوا رتبى بسخره . هام هذا الفن الضاحك وقد ذكرت الآن بعض سخراتهم كما وجدت في الفصل الثاني من الباب الثاني وأرجو أن أكون قد بدت . ومن أعلام السخر في عصر الجاحظ أبو الحينا .

(وهو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان الهاشمي بالولاء ، مولى أبي جعفر المنصور المعروف بأبي الحينا ، صاحب النوادر والشمس والأدب . أصله من الهامة ومولده بالأهواز ومنشؤه بالبصرة وبها طلب الحديث وكسب الأدب وسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري والمثنى) (٨) . ومن سخراته : أن رجلا زعمه (بالجرس على حما ربه فضرب بيده على أذن الحمار ، وقال : يا فتى قل للحمار الذي فوقك يقول : الطريق) (٩) والسخرية هنا ناشئة من الوضع المقلوب يجعل الحمار مودها معلما للرجل ، والرجل تلميذا يلهي الفكر . ووقف به رجل من الهامة (فأحس به فقال : من هذا ؟ قال : رجل من بني آدم . قال : مرحبا بك ، أظن الله بقاءك من بقيت في الدنيا ، ما ظننت هذا النسل إلا قد انقطع) (١٠) . (وقف أبو الحينا على باب صاعد بن مخلد فقيل له : إنه يصل . فأنصرف ، ثم عاوده .

(٧) جمع الجواهر : الحمصى : صفحة ١٨١ .

(٨) دائرة معارف وحدي مجلد ٦ ص ٢٩٢ .

(٩) زهر الآداب : الحمصى : الجزء الأول : صفحة ٢٩٣ . جمع الجواهر ص ٢٨٥ .

(١٠) زهر الآداب ١ ص ٢٩٦ . جمع الجواهر ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .

فقليل له فإنه يصلح وثمان و لكل جديد لذة (١١١) (صلى أبا العينا أن المتوكل قال :
 لولا أن أبا العينا ضرير لنا دناءة فقال : إن أخفى أمير المؤمنين من رومة الأهل ،
 وقراءة نقش الفصوص فأنما أصلح للمناوبة (١١٢) وهذا تولع منه بلسانه واقتدار على الكلام
 ولا فقد تما في من ذلك المقام . ولعله إلى السخر كان إخوانه يسخرون منه ويطنزون ، فقد
 (ولد لأبي العينا مولود فأنما ابن مكرم مثنى ، فوضع بين يدي أبي العينا حجرا وانصرف
 فجهسه أبو العينا فوجد حجرا ، فقال : من وضع هذا ؟ قالوا تركم ابن مكرم لما قدم ، قال
 لعنه الله ، [ناعرض بقول النبي صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش ، وللماهر الحجر (١١٣)
 ويقول أبو العينا : إذا خجلني ابن صغير لمهد الرحمن بن خاقان ، قلت له : ولدت أن
 لي ابنا مثلك . فقال : هذا بيدك ، قلت : كيف ذلك ؟ قال : يجعل أبي على امرأتك فتلد
 لك ابنا مثلي (١١٣) . وليس بمجيب أن ينشأ بمن أنثائه على سخره والولد سرايبه كما يقال
 فقد قال أبو العينا : لا ينه هو مريض ، أي شيء تنتهي ؟ قال : اللهم (١١٥) وقد كان أبو
 العينا يعرف للجاحظ قدره ونوقه وأستاذيته أو ليس هو القائل حين سئل (ليت شمري
 أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شمري وأي شيء كان الجاحظ لا يحسن (١١٦)
 ومن هؤلاء الأعلام : الجمار (أبو عبدالله محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن ياسر . . .

(١١) جمع الجواهر : الحصى : صفحة ١٥٢

(١٢) المرجع السابق : صفحة ١٥٩ ، وثقات الامهات ج ٢ ص ٤٦٧ .

(١٣) جمع الجواهر : الحصى : صفحة ٢٦ .

(١٤) مجمع الأدباء ج ١٨ ص ٢٨٧

(١٥) جمع الجواهر : صفحة ٢٨١

(١٦) جمع الجواهر : صفحة ٢٠٤

وسلم الخامسة ، وكان الجواز صاحباً لآبى نواس حتى مات (١٧) ومن لال سخره ما يدعى عنه (قال بعض جلساء المتوكل : كما نكثر عند المتوكل ذكر الجواز حتى اشتاقه ، فنكث في حمله إليه ، فلما دخل أنعم ، فقال له المتوكل تكلم فأتى أن رد أن ستهربك فقال بحبيضة أو بحريتين ، يا أمير المؤمنين فضحك) المتوكل ، وأمر له بحشرة آلاف درهم (١٨) فقد رد الجواز المسخرة بسخرة أنكى منها إذ جعل الفتح من فضيلة القروى والكلاب الخارجين على الطاعة فهو قرد شرس ، وكلب عقور (وكان لا يدخل بيته أكثر من ثلاثة لصيقة ، فدعا ثلاثة فجاء ستة ، وقرعوا الباب ، ووقفوا على رجل رجل ، فعد أرجلهم من خلف الباب ، فلمعنا حصله عنده قال : أخرجوا عني ، فإنما دموت ناساً ولم أذع كذاكي) سخرها منه فسخر منهم وهكتم سخرهم وأخرجهم من جنين الأكدميين إلى سرب الكواكي . (قال الرشيد للجواز : كيف مائدة محمد بن يحيى البرمكي ؟ فقال شهر بن شهبز وصفه من قشر الخشخاش وبين الويف والوفيف مضرب كرة ، وبين اللون واللون فترة نبي . قال الرشيد : فمن يضرهما ؟ قال : الكرام الكاثبون ، فضحك المهدي وقال : لحاك الله من رجل) (٢٠)

ومنهم بشار بن برد ، روى أنه (كان ينشد المهدي ويؤيد بن منصور عنده ، فلما فرغ من إنشائه) قبل عليه يزيد - وكانت فيه غفلة - وقال له : يا شيخ ، ما صناعتك ؟ فقال : أنقب اللؤلؤ . فضحك المهدي ، وقال لبشاراً تتأدر على خالي ؟ قال : وما أضع به ، يدى شيخا أصم ينشد الخليفة شعراً ويأله من صناعته (٢١) فجاءت سخرية بشار قارعة فارة حين اختار صناعة لا يقدر عليها السميان فقال : أنقب اللؤلؤ هوذا أبخال المهدي المنفل .

(١٧) المرجع المذكور صفحة ١١٥

(١٨) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ، جمع الجواهر ، المص ١١٥

(١٩) زهر الآداب ج ١ ص ١٧٤ ، جمع الجواهر للمص ١١٥

(٢٠) الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٥٨٠

(٢١) نكت الهميان في نكت الحميان ، صلاح الدين العتدي ، تحقيق أحمد زكي با شاعر

ومر على قوم يحملون جنازة وهم يصرعون المثنى بهذا ، فقال : ما لهم مروعين ؟ أتوأمهم سرقوه

فهم يخافون أن يلحقوا فيأخذ منهم (وقيل لهذا : إن فلانا يزعم أنه لا يزال بلقاء واحد
أو ألف . فقال : صدق ، لأنه يفر من الواحد كما يفر من الألف) (٢٢)

ومن السحرة : الساعدين في عصره غير بنار بن برد أبو المتأخية ، قال يسخر من عبد الله
بن مومن زائدة ، متلفعا في السخريه ، محتالا لها ، مدميا . أنه أنش فيه الطراوة
والليونة والعقود عن جلائل الأمور .

نصغ ما كنت حليفت به سيفك خلخلا

وما تصنع بالسيف إذا لم تسك قنصا

أما أبو نواس فله في السخرية إبداع ، وأنباط وأكوان ، وفن وهن ، لا يراعى دينه ، ولا
يلحظ حشمة حتى مع أشياخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وأخذ منهم الأدب ، فقد
لحظ أبو عبيدة مصرع المثنى وهو يقرأ درسه في المسجد كتابة على الأسطوانة ، فنظر إليها
فإذا هي :

صلى إله على لوط وشيعته

أبا عبيدة قتل بالله آلهما

فأنت عندي بلا شك بقيته

مقد احتلت وقد جاوزت سبعينا

فقال أبو عبيدة : هذا عمل الخبيث يعني أبا نواس (٢٣)

ويقول سائرا من يخل اسماعيل بن نهجست :

خبرني اسماعيل كالوششي

إذا ما شق يرقصا

وقال : وما خبره إلا كليب بن وائل

ليالي يحيى عزه منيت البقل (٢٤)

(ومر عثمان بن حنفى لتلقى بأبي نواس وقد خرج من علة ، وهو مضطرب الوجه ، وكان عثمان
أقبح الناس رجما ، فقال له عثمان : مالي أراك مضطربا ؟ فقال أبو نواس : رأيتك قد كرت

(٢٢) جمع الجواهر : المصنف : صفحة ٣٤١

(٢٣) أبو نواس حياته وشعره : عبد الحميد المسعودي رسالة أستاذية ص ٣٨

(٢٤) البخل : لجاحظ وضبط المومني والجامع الجزء الأول صفحة ١٢١ ، ١٢٢

لذئبي . قال ، وما ذكر ذئبك عند رؤيتي ؟ فقال ، خفت أن يحاقني الله فيسحقني قردا
 مثلك (٢٥) . (أراد أن يكتب أبونوا سرا إلى إخوان له دعاهم ، فلم يجد قرطا سا يكتب فيه
 فكتب في رأس غلام له أصلع ما أراد ، ثم قال فيه ، فإذا قرأت كتابي فأحرقوا القرطاس . فضحكوا
 منه وتركوا للغلام جلدة رأسه) (٢٦)

وللبحتى سخر مخجّب ، ووصف ملجّم ، وتصوير يمحّ ووشوه ، يقول ساخرا من أنف الخشمى

رأيت الخشمى يقل آثقا	يضيق بمرضه البلد الفضاء
سما صعدا تقصر كل سام	لهيبته وضرب به الهبوا
هو الجبل الذى لولا ذراه	إذن وقعت على الأرض السماء (٢٧)
وقال ساخرا بمن يخضعون أشعارهم للفظق فيجى غليظا جافا ،	
كلفتمونا حدود منطقكم	والشعر يفنى عن صدقه كذبه
لم يكن ذوالقبح يلدج بالسيف	طوى ما نوره وما سبه
والشعر لمج تكفى إلى شاره	وليس بالهذر طولت خطبه (٢٨)

أما ابن الرومى فله فى هذا الفن القدر الممل ، والنصيب الأوفى ، والفن الأرقى وقد

أفانقنى ذلك وأجاد ، وأتى بالمعجب المعجب وأكثر من الصور البهزية الرائعة (الكاريكاتير)

قال يسخر بصلمة أين حفص الوراق ،

يا صلحة لآبى حفص مرودة

ترب تدمت لألف الواقتات بها حتى ترب بها أكتاف بغداد (٢٩)

(٢٥) جمع الجواهر ، لادعى ، صفحة ١٦٥

(٢٦) المرجع السابق صفحة ٢٤٩

(٢٧) ديوان البحتى صفحة ٨ الجزء الأول

(٢٨) المرجع المذكور صفحة ٢٨ الجزء الأول

(٢٩) ديوان ابن الرومى ، الجزء الثالث ، صفحة ٤٢٨ .

ويُسخر مني كبراً نف أحد هم قائله

حطت أنفا براء الناس كلهم

لو شئت كسبها به صادت مكتسبا

ويقول في بخيل اسمه عيسى

بقرصه يس على نفسه

قلو يستطيع لتخيره

ويُسخر من لدية أحد هم قائله

خلق الله في هذا ريك مخل

ويقول مثلكا بهيمة أحد د

قصرت أخادعه وقاب قذاله

وكانت صغمت قفاه مسرة

ويقول في لدية لم يجيب بها لفرط طولها

لوقابل الريح بها مسرة

أوغاس في البحر بها فوصة

ويقول في بعض من يسخر منهم

بعض أجهل سم يكاد يعضا

لا دوب إلا دوب رجاها

ما ظننت الإنسان يجرحتني

من رأس ميل عيانا لا يقهاش

أو انتصارا مض كالسيف والفاش (٢٠)

وليس بباقي ولا خالد

تقس من شخر واحد (٢١)

ة ولكها بنور شعير (٢٢)

فأله مترهم أن يصفها

وأحسن ثانية لها فتجملها (٢٣)

ولم تستج نفسه لدية صاحبها

لم ينهت من خطوه أصبا

صاد بها حياها أجمعا (٢٤)

ففي مسنونة بنور مشون

أودوب الرعي التي للصنوي

كنت ذاك الإنسان عين ألقين (٢٥)

(٢٠) ديوان ابن الرعي الجزء الثاني صفحة ٢٥٠

(٢١) ديوان ابن الرعي الجزء الثاني صفحة ٢٧٥

(٢٢) المرجع المذكور صفحة ٢٦٨

(٢٣) ديوان ابن الرعي ج ١ ص ١٤٦ تحقيق ناطل نيلاني

(٢٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي صفحة ٢١٤ ديوان ابن الرعي ص ٤٥٦

(٢٥) الفن ومذاهبه في الشعر العربي صفحة ٢١٤ ديوان ابن الرعي ص ٢٧٨

فيها كالخريزة والملكة ، وشمر بذلك بين لادته وأقرانه ، مما يجعلهم يتأولون كلامه ، وينحون به ناحية السخر ، ويوجهونه الجدة اللادعة الضاحكة ، ويعملونه ما يرض إليه من يجد بعيد وإن لم يتعمده .

أما عناصر كهااتهم ، وأدوات سخرهم ، وطريقة إعدادها وظهورها وإنضاجها ، فالجاحظ سيد الطماعة ، يختار العناصر المناسبة ، والأدوات الجيدة ، ويأخذ من كل منصر ما يلائم الموقف ، ثم يلتفت لتناسب بين مقاديرها وأجزائها ، والدقة في خلطها ومزجها ، ويضع عليها التوابل والأبازير التي تكسبها اللذع والحرارة ، ثم يطعموها وينضجها ، فإذا فيها النكهة الجاحظية المحببة ، والبرج العنانية المعجبة ، التي لا يجيدها غيره ، ولا يتقنها سواه ، حتى لتسبها إليه وإن لم تعرف أنها له ، لأن روحه نطل عليك منها ، ورائحته تخرج من تضاميفها ، لا بالذقة في سخره ولا إسفاف ولا تعسف ، ألفاظ منتقاة وهارات مختارة ، ومكان عميقة مبتكرة ، بعيدة عن السرد والتكلف ، ومنج عجيب ، وسبك جيد فصوص في أعماق النفوس ومعرفة طواياها وسخباتها ، وخبرة بتقدير كميات السخر ونوعيات حسب الداء . وما يتطلبه الملاج ، ودقة عجيبة في منج الألفاظ أنفاما راقصة ، ومجانسي قارصة تعجب بالسخره ومزج ريب .

أما أنفاسهم فكانت قصيرة ، لا تتجاوز الحديث السريع ، والقصة العتقضة ، التي عمادها غالبا - الرواية والحكاية والسرد ، سومان ما تشهر تلك الأنفاس ، وتخد في الصدور . لم يعرفوا الانفتاح الذي وجد في كتاب البخلاء يعقده فوصه ، وتحليله النفوس والشخصيات والحركات والخلاجات ، مع أنه مقصور على صفة واحدة هي البخل . ولم يعرفوا الانفصاح فيمتد أنفسهم ليصنعوا مثل رسالة التريخ والتدوير التي موضوع السخر فيها شخص واحد هو أحمد بن عبد الوهاب . . إنهم لا يطبقون هذا الاسترسال ، ولا يقدرون على تلك الإفاضة في جودة وعذوبة الكلام ، هذا الفن ورائده ابن بحر إن ليس عندهم من العلم ما عنده ، ولا من الثقافة ما يملك .

لم يقصد معاصره بسخرهم غير المرح والفكاهة مرتلية الندما* والجلما* والضحك والإضحاك .. وذلك هدف واحد من عدة أهداف قصدتها الجاحظ بسخره ، الذي جعله وصلة للتبويه والتحذير ، وإقامة الموح ، وتماثل الجماعة واتباع التقاليد ، والتأديب والإصلاح ، وشفافيا في الصدور من هدف وموحدة .. إلى غير هذه الأغراض التي أبتتها في الباب الأول من الرسالة .

ويحق لي بعد ذلك أن أقول : إن الجاحظ غاق معاصره في السخره على كثرة عدد هم وتعدد اتجاهاتهم ، فاقدم في الكم والكيف والهدف ، وطول النفس ، وحلاوة المذاق ، وغليب الصورة ، والبحث بها من كل جوانبها ، حتى يأتي على ما فيها ، فكانت منهم في المنزلة العليا ، والسلم الأسنى ، وإذا قارنا بسابقه أو بمعاصره أو بمن أتى بعده ، نجده الأستاذ والقاتل ، وحسبنا في ذلك بقا مجده ، وخلود ذكره ، وانتشار سخره ، وأنه لم يوجد على امتداد السنين ، وتوالي الحقب والقرون من جاء بما يمثل البخله ، أو بصنو رسالته التريخ والتدوير .

الفصل الثالث

إجمال لأثره في الأدب السخري بمصر

عرفنا كيف كانت السخيرة قبل عصر الجاحظ وكيف صارت في عصره ، وكيف لقف هو هذا الفن ، فأبدع فيه وأجاد ، وساد وقاده ، وأقامه على قدمين ، ثابت الدعائم ، وطيد الأركان ، فلوحه بالوان بيته ، وشكله بأشكال مجتمعه ، وسجل فيه من أسماء مشاهير الرجال ، وعظماء العلماء ما خلد لهم ، وعلم من طريق المزج بالشارف ، والسخر من القهوج ، وأضحك قارئه لتشطيف نفسه ، وينتمش ذمته ، فنزع الجد بالهزل ، وثقل الدرس بخفة الدعابة ، وتلك كانت طريقة الرجل ، وهذه كانت خفة روحه ، يأتي إلا أن يعجز مع تارثه يحيى ، ولو كان في أشد حالات ألمه ، ومرضه بالنفوس والفالج ، فقد ألف كتابه الخلاص وهو على تلك الحالة ، وكتب رسالة الترييح والتدوير وهو يئن تحت وطأة العرض ، وثقل السنون ، وهو رسالة طويلة جاسحة لفنون التكميم ، وضروب السخيرة ، وذلك دليل خفة روحه ، وروح طبعه .

وآن لنا أن نعرف حالة هذا اللون الأدبي بعد الجاحظ ، وكيف مضى فيه من أتوا بعده .
أجددوا وابتكروا ؟ أم احتذوا وقلدوا ؟ أم وقفوا رجعدوا ؟ أم تكفوا وانتكسوا ؟
إن رجالات الأدب قد استمدوا كثير منهم هذا الفن ، ففض فيه ، وحرف له قيمته وأثره فجعله من موضوعات أدبه ، ولا يصحني - كما بحث في فن السخيرة - من أرسل الفحرة الساهرة ، واللمحة السريعة ، الناشئة عن السخيرة القليلة الطائفة ، وإنما يمدح هؤلاء الذين جملوا السخر فندم وودعهم ، وكتبوا فيه فأطالوا ، وضموا رسائلهم وكتبهم ، ويصنيئ بخافة من ألفوا فيه رسائل كان هو موضوعها ، وألفها وألفها ، ومن أشهر هؤلاء .

١- أبو حيان التوحيدي ، في رسالته التي يعرض فيها بالصاحب بن عباد ، كما أن له

كتاب "مطالب الوزير" يسخر فيه من صاحب وابن الحميد .

٢- أبو بكر الخوازمي ، في رسالته إلى أبي الحسن البغدادي الشاعر .

٣- ابن زيدون : في الرسالة البزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت الخليفة المستنصر
وسخر فيها من الوزير أبي عامر بن عمار
٤- ابن العميد : في رسالته إلى أبي عبد الله الطبري ، وفي رسالته إلى أستاذة محمد بن
علي بن سعيد المعروف بسكة أو ابن سكة .

٥- محمد بن أحمد "أبو المظهر الأندلسي" في كتابه "حكاية أبي القاسم البغدادي"
وفي المصدر الحديث بذكر كاتب مغلقي ، يرى في ذلك الفن الضحك هو :
٦- الشيخ عبد الميزان البشري :

وهؤلاء جميعاً قد تولوا من ممين الجاحظ ، وارتوا من فيض أدبه ، وتشرف كثير
منهم بأن ينسب إليه ويشهر به ويحس باسمه "الجاحظ" ، وكل منهم قد اعترف بأخذه
منه والاعتراف من ممينه وذكر أستاذيته له ، وثقوته عليه وسأشك في إيجاز سخريات الثلاثة
الأول :

- ١- التوحیدی
 - ٢- الخوازمی
 - ٣- ابن زيدون
- ثم أعرض لجاحظ العصر الحديث الشيخ عبد الميزان البشري . وسأعرض لبعض نصوص من
أدبهم الساخر قاصداً إلى تبيان :
- ١- أنهم ساخرون يجيدون فن السخر
 - ٢- أنهم أخذوا عن أستاذهم الجاحظ أخذاً كبيراً بيتاً
 - ٣- أنهم لم يفوقوه ، ولم يصلوا إلى مستواه
 - ٤- أنهم وإن أتوا بعده ، ونهلوا من كتبه ، وتأثروا به ، ومن تأثر به ، أو سبقه أو لحقه
نقد قصروا عنه ، ولم يخلقوا بسخرياتهم للاح سخرياته ، وثقته فيها ، واستيفائه أهلها
بل إن سخرياتهم تنجم ناحية السب لصریح والبجاء والإقذاع ، في كثير من الحالات
كما سنتبين الآن إن شاء الله .

أبوحيان التوحيدى

هو على بن محمد بن العباس التوحيدى (١) ولد فى سنة ٢٠٢ أو ٢١٠ وابتدأ عليه بحرفة الوراقة ، وقرأ كتب الجاحظ ، وأكثر من قراءتها والإعجاب بها ، واتبع طريقة الجاحظ ونهج نهجه حتى سعى (الجاحظ الثانى) وقد بلغ من إعجابه به أن ألف رسالة غسسى تخرطه سلعها (تخریط الجاحظ) يقول فيها : (والذى أقول وأعتقد وأخذه به ، وأستقيم عليه ، أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لواجتماع الظلال على تخرطهم ومدحهم فيفتز فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم وصفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بنزولها لما يلقوا آخر ما يستحق كل واحد منهم ، أحدهم هذا الشيخ الذى أنشأ ناله هذه الرسالة وبسببه جئنا كل هذه الكلفة ، أهنى ، أبأعشان عمرو بن بحر) (٢) .

وقد اتصل التوحيدى بالصاحب بن عباد حوالى سنة ٢٦٧ أملا أن يجد عنده من الإكرام والتبجيل ما لم يجد عند ابن العميد من قبل ، فغاب ثأله ، وطاش سهمه ولم يترك منه ، فرجع عنه ذأ ثأله (٣) . . . وقد أحمله ابن عباد فيرة منه أو حسداً له أو لجراءة أين حيان ، أو لغير ذلك من الأسباب (٤) . فكتب كتابه "مطالب الزيدى" نكابة بها ، وسخرها ضحاً .

وللتوحيدى سخرات نهجت من بؤسه وشقاقه ، وتكرار الحياة له ، وقد تأثر فيها بأستاذة الجاحظ إلى حد كبير ، وله نوادر عن البخلاء ، ولطفيين مضمة بالهز ، والسخرية ، وقد ذكر أن الجاحظ أتى على الكثير من قصصهم ونوادرهم فمن سخرياته :

(سئل أبوعمارة قاضى الكوفة عن بنه : أأبىم أنقل ؟ قال : ما فهم بعد الكبير أنقل)

(١) نسبة إلى نوع من الثرى قال له التوحيد كان أبوه يبيحه بالعماء ، أو نسبة إلى

الاعتزال وقد كانوا يسمون المعتزلة : أهل العدل والتوحيد .

(٢) الإمتاع والمؤانسة : التوحيدى : الجزء الأول صفحة ٥ .

(٣) مصمى الأدباء : باقوت : الجزء الخامس عشر : صفحة ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٤) أبوحيان التوحيدى : . . . الحرفى : نسخة . . .

من الصغير إلا الأوسط^(٥) ومن الردود الفصحة (زاحم شاب شيخاً في الطريق ثم سخر
 خطه ما جئنا قاتلاً ، بكم هذا القوس؟ يصيره بالانحناء فقال الشيخ : يا بني إن طال صررك
 فإنك مشتره بلائنا^(٦) وقوله : (سأل شيخ أعرايين أحد الناس : ما اسمك؟ قال : مانع
 وقال للآخر : ما اسمك؟ قال محرز . وقال لآخر : ما اسمك؟ قال : حافظ . فقال الأعرايين
 قبحكم الله ! ما أظن الأقسام إلا من أسألكم^(٧) ومن سخرياته : يا لصاحب ابن عباد أنه
 لما وصل إليه (قال له : أبوين؟ قال : أبو حيان . فسأله : أبو حيان ينصرف أو لا ينصرف؟
 فاجابه إن قبله مولانا لا ينصرف^(٨) . فسخر منه على طريقة أسلوب الحكم حيث أجاب بخير
 ما ينتظره المسائل ويتوقعه ، فيتخيظ ويحرق ، ولكنه يكبت شموره ولا يستطيع إهرازه ، إذ ليس
 في ظاهر كلام أبي حيان ما يلاخذ عليه .

ومنها : (طلع ابن عباد على يوماً في داره ، وأثناء قاعد في كسر إيوان أكتب شيئاً قد كان
 كادني به ، فلما أبصرته تمت قائماً ، فصاح بدلق مشقوق : اقم ، فالوراقون أخس من أن
 يفوموا لنا ، فدمعت بكلام ، فقال لي الزعفراني الشاعر : اسكت ، فالرجل رقيق فغلب على
 الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا ولوى شدقه ، وشج
 أنه عوامال عنه عواترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج في شكك مجنون ، قد
 أغفلت من ديدجوني^(٩) .

فقد رسمه التوحيدى في صورة رقيق متفطرس ، فمسح وجهه ، وعبث بحركاته وتفاصيل
 جسمه ، ثم يقول بعد ذلك إمعاناً في السخرية وتقيحاً للصورة (والوصف لا يأتى على

٦ الإمتاع والمؤانسة : الجزء الثاني صفحة ٥٦

٦ البصائر والدخائر : صفحة ٥٦

٧ الإمتاع والمؤانسة : التوحيدى الجزء الثاني صفحة ٥٧

٨ مصحح الأدباء : الجزء الخامس عشر صفحة ٢٧

٩ مصحح الأدباء : يا قوت : الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦

فهذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يتجلى عليها باللفظ (١)

وهذه الأوصاف قريبة من أوصاف الجاحظ لابن عبد الوهاب ، وهذا التعقيب لا يفرق بينهما وبين تعقيب الجاحظ في كتابه البخل ، مستدلا على أن التصوير بالكلمة لا يكون له تأثير الحقيقة والمشاهدة والإدراك بأكثر من حساسة ولا شك أن أباحيان قد أخذ فكرته تلك من أستاذ الجاحظ حين قال : (وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكايسة بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ولا يأتي لك على كعبه ، وعلى حدوده وحقائقه) (١٠) ويصور أبوحيان صاحب بن عباد تصويرا كاريكاتوريا ساخرا يمسخ فيه ، ويشوه جسمه وتفكيره ، ويرسه في صورة هزلية تهت على الضحك ، وتدعو إلى التهمك في رسالته التي صلبها على غرر رسالة أستاذ الجاحظ (التريخ والتدوير) فيقول متعلما :

(كان صاحب ينشد وهو يلوى رقبعته ، وتجعد حذوقته ، ويتنثر أطراف منكبيه ، ويتمايل ويتمايل ، كأنه الذي يخبطه الشيطان من السبع) (١١)

وتتوهم يغفلته وانخداعه ، مع ادعاءه الزكاة والفضة ، واعتقاده في نفسه الألفية ، سالكا طريقة الجاحظ في إضافة صفات النقص حينما ، ثم وصفه ببلوغ الكمال ، وتجاوز حدود الحال حينما آخره سخرية وهزلا فيقول : (وقد قتل خلقا ، وأهلك ناسا ، ونفى أمة بخوة وتمنتا ، وتكبرا وزهوا ، وجمع هذا يخدمه الصبي ، ويخلب النسي ، لأن المدخل عليه واسع ، والما تى إليه سهل ، وذلك بأن يقال : مولانا يتقدم بأن أعار شيئا من كلامه ، ورسائل مشورة ومنظومه ، فما جبت الأرض من فرغانة ومصر وتغليس إلا لأستفيد كلامه وأقصم به ، وأتعلم البلاغة منه ، لأننا رسائل مولانا سور القرآن ، ونقورها آيات فرقان .

(٩) معجم الأدباء : ياقوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ٢٦

(١٠) البخل الجاحظ ، تحقيق طه المحاجري صفحة ٥٨

(١١) معجم الأدباء : ياقوت ، الجزء الخامس عشر صفحة ١٩٧

فهلين عند ذلك ويذوب ويلين عن كل مهم له ، وينسكل فريضة عليه)

ثم يفضح ادعاءه ، ويشتك شتره ، ويبين للناس معكرو وخدعه فيقول : (ثم يعمل في أوقات
المجد شعرا ، ويندفعه إلى أبي عيسى بن النجم ، ويقول : قد نزلت هذه القصيدة ،
أمدحتني بها في جملة الشعراء ، وكن الثالث من البعج الششين ، فيقبل أبو عيسى ،
وهو بخدائي محلك ، قد شأخ على الخدائع وتحنك ، وينشد : فيقول عند سماعه شعري فسر
نفسه ، ووصفه بلسانه ، ويحده وتديرو أعدة يا أبا عيسى نزلت والله مجيد ، زه يا أبا عيسى
نقد صفا والله ذهنك) (١٣)

وتبع التوحيدى طريقة الجاحظ في مقايسته السخرة بالعظما ، ويحمله يفرقهم علما وشعرا
وفقها وحكما ، وفي سائر الملحم والفنون . يقول : (قد استدرك مولانا على الغليل فسى
المريض ، وعلى أبي عمرو بن الملا في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضا ، وعلى الإسكا في
في الموازنة ، وعلى ابن زويخت في الآراء ، والديانات وعلى ابن مجاهد في القراءات
فترأ بهد هذا البذر وأشباهه يتلوى ويتمس ، ويظير فيها وينقسم ، ويقول : ولا كدى ثمره
السبق لهم ، وقصدنا أن نلحقهم ، ونفقوا أئدهم ، وهو في ذلك يتشاحن ويتحايل ، ويلوى
شدقه ، ويتلع ريقه ، ويرد كالأخذ ، ويأخذ كالمستن ويتفانت ويتمايل ، ويحائى
الموسسات ، ويخج في أصحاب الساجات ، وهو مع هذا يظن أنه خافي على نقاد الأخلاق
وجماهة الإخوان) (١٤)

ومن هذا يتضح إلى أى مدى كان تأثير التوحيدى في هذه الرسالة بفكرة أستاذ
الجاحظ وبنوجه وطرقه في السخرة ، وأ ساليه التي انتشرت في رسالته بولا غربة في

(١٢) الإمتاع والمؤانسة ، التوحيدى ، ج ١ ص ٥٤ ، معجم الأدباء ، ج ١٥ ص ١٧٦ ، ١٧٧

(١٣) معجم الأدباء ، ج ٦ ص ١٧٧

(١٤) المرجع المذكور ، ج ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢

ذلك فقد كان يجبل الجاحظ ، ويمكث على قراءة كتبه ، ويكرر قراءتها ويحتذى أسلوبه
وطريقته فأتى أسلوبه على غرار أسلوبه ، وتشابه بينهما التشكروا لتعيرهم حتى انفسب
بالجاحظ الثاني .

وإذا كان قد ولد بعد موت الجاحظ بنصف قرن ، والدنيا كلها تشيد بالجاحظ ، وتتخذ
نبراساً وإماماً ، فلا بد أن يكون أدب التوحيد قد لقي بأدب الجاحظ فأظهر وأثمر
ومن الثمار رسائل التوحيد ، والمقارنة بين الرسالتين تعطينا خير دليل على ما نقول .

وأحيانا يلجأ إلى السخرية من البديهي بوصفه بأشياء حقيرة أو خفية أو مشدودة بالقناعة
لمن ذلك قوله :

(يا هذلة أبله دامة ، ومار طياب ، وطيلسان بن حرب ، وخرطة وهب يا قذح اللباب في
كف العرض ، وانظروا لذل إلى عين البقيش ، يا كيف السجن في الصف ، يا غيب الخمر
على الحشف) (٥)

ولكنه في هذا اللون الأخير يتماقت ، ويتخذ الجاء ، والزم الصريح أسلوبا والتشبيها
المتداولة بين العامة والرفاع طريقا وهذا ما اتمد منه الجاحظ ونأى .

لهو أبو الفن الساخر ، وباعته من العدم ، وهذا تلميذه لم يبلغ شأوه .

يقول الحمصي في رسالة الخوارزمي هذه (وهي طويلة جدا) . . . وإنما احتذى في أثرها
مثال رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب المعروفة برسالة
الطول والعرض وتعرف برسالة التوسع والتدوير ورسالة المفاتيح ، وأتى بها طريق أبي
الفضل بن العميد في رسالته لابن سكة النحوي) (٦)

وهذا تبين الفروق ، وتتضح المقامات ، ويظهر فرق الأستاذ وسقط التلميذ .

(٥) المصدر السابق ، صفحة ١٩٢ (قطعة) ، ص ١١٨ المطبعة المصنعية

(٦) جميع الجواهر الحمصي ، صفحة ٢٦٠

ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد الخزرجي الشهير بابن زيدون ولد بقرطبة
 عام ٢٩٤ هجرية وتوفي في أشبيلية عام ٤٦٢ هجرية .

أحب ولادة بنت الخليفة المستنقضي ، وادله بها بحب ، وكثرت بينهما اللقاءات
 غير أنها صدت عنه ^(١) ، واتجهت بمحافظتها إلى الوزير أبي عامر بن عبدوس فأتخذته
 حبيباً ، ولم تجد توسلات ابن زيدون وفراغته لمحبوبته ، فحاول أن يسمو إليها من قبل
 ابن عبدوس ، فكتب إليه منكراً مهدداً ، ولكن إنذاره وتهدده بقطع حب أدراج الرماح .

وعرف ابن زيدون أن ابن عبدوس يستخف في مراسلات عشقه بيعة تزنيه في عيني ولادة
 وأنهما يتراسلان كثيراً من طريقها ، فكتب الرسالة الهزلية سخر فيها من ابن عبدوس
 على لسان ولادة سخرها مريراً وأرسلها لها وتوسل إليها أن توصلها إليه .

هذه (الرسالة الهزلية) تشبه إلى حد كبير رسالة الجاحظ (الترجيع والتدوير) فقد خصصت
 للسخرية والاستهزاء ، وبدأ فيها التأثير الواضح بالجاحظ في فكره وأسلوبه ، وفي تلصق
 السخرية فيها بالوان أُنبت لها الجاحظ في رسالته كتصوير خصمه ثاقب العقل فاسد الفكر ،
 أو قياسه بالبعضاء وعمله أستاذاً لهم ، أو باسناد كل عرفان إليه وأن في اقتداره الاثنيان
 بما لم يستطع الأول ، وقد سخر كل منهما بأخلاق خصمه وكرهه وقلة وعلمه وتصرفه
 وهيئة ، كما يبدو في الرسالة الهزلية التشابه بينهما هذين رسالة الخوازمي وأبي حيان
 التوحيدى وهما بدورهما متأثران بالجاحظ كما بينت وأبين ،
 يقول ابن زيدون (خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك ففضضت منه ، وأن امرأة

(١) قيل إنه طلب من مغنيها عتبة أن تعيد صوتاً غمته فظنت ولادة أنه يخازلها . وقيل
 أنه نقد بيتاً للولادة قالت فيه .

المنزراتك فسلطته ، وأن قارون أصحاب بحرهما كثرت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقهصرين
ماشيتك ، وإلا سكدر قتل دارا في طاعتك ٥٥٠ ، وأظهرت جاهد بن حيان على سر الكيمياء
وأعطيت النظم أصلاً أدرك به الحقائق (٢)

ويقول الجاحظ : (أشهد أنك ستخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ، ثم تظارفه
وتطاوله ، وتغنى مع خارق ، وتشكر فضل زلزى ، وتستجمل النظام ، وتستبرد الأصمعي ،
وتستغنى قيس بن زهير ، وتستخف الأحنف بن قيس ، وتماز على بن أبي طالب) (٣)

ويقول التوحيدي (قد استدرك مولانا على الخليل في الموضع ، وعلى أبي عمرو بن
العلاء في اللغة ، وعلى أبي يوسف في القضاء ، وعلى الإسكافي في الموازنة ، وعلى
أبي نوح في الآراء ، والديانات ، وعلى ابن جاهد في القراءات) (٤)
ويقول الخوانساري : (كأن كسرى أنوشروان حامل غاشيتك ، وكأن قارون وكل نفثتك و
وكان بلقيس ذات العرشا لمظلم دأيتك ، وكأن مريم الهول أمتك ، وحتى كأن ربح عاد هبت
من فضيتك) (٥)

فالفكرة بينهم جميعاً واحدة والموضوع واحد ، والتشابه بين لائح ، حتى في الألفاظ
والأسماء التي تتحد في كثير من الجمل .
وليفتنظر لمثل آخر يسخرون فيمقتل الجمل والأدعاء ،

يقول ابن زيدون : (أيها المصاب بحقله ، المورط بهمله ، كالبهي سقطه ، الفاحش فلفظه ،
العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نها ره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ،

(٢) سبع الميون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٤٨ وما بعدها .

(٣) ثلاث رسائل صفحة ٩٩

(٤) معجم الأدباء الجزء السادس صفحة ١٨١

(٥) رسائل الخوانساري ص ١١٧ المطبعة الصمائية

الاعتناءات تهافتا لفرأى في الشباب (٦) حتى تأن باطلا مرصوف بالبلافة إذا قدن بك ،
وهيئة مستوجب لاسم المقل إذا أضيف إليك (٧)
ويقول الجاحظ ، (وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإبانة
عليها على قدر غباوته فيها ، وكان كثيرا لا اعتراضا لهجا بالعلماء ، شديد الخلاف ، وكلفا
بالمجاذبة ، متنايما في العنود ، مؤثرا للبخالية ، مع إضلال العجزة ، والجهل بموضع
الشبهة (٨)

ويقول الترحيدي : (والله لو أن عجوزا بلها ، أو أمة درها ، أقيمت مقامه لكانت الأمور
على هذا السيلج . . ربما شرع في أمر تحكم فيه بالخطأ فيقبله صوابا ، حتى تأنه من رضى ،
وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانهطاط خفية (٩)

ويقول الخوازمي : (جهل الناس عرض وجهه جسم ، لا يزول إلا بالفعل ، ولا يقع
دواؤه إلا من الكف والتأمل (١٠)

إن التأثر واضح بينهم جميعا فكل منهم يحتذى من سبقه ، ويسلك طريقته في التفكير
والتعمير ، وسابقهم جميعا ، ولما هم في هذا الفن دون منازع هو الجاحظ ، ومع أنه السابق
والقدم ، والمبتدع ذو الصيت والشأن ، ولا تثار التي تنقل إلى بلاد المغرب في الأندلس
فيحتذى بها ابن زيدون ، وأنهم جميعا مقلدون متحذون ، فقد ناقضهم وفضلهم ، بنهر
السبق ، ذلك أن سغيرته أقل أمحا شأ ، وأند إيجاه ، وأمل بالقناعة وأحق نفس
الإلهام والإيجاع ، وأكثر تلويها ، وأعظم ابتقارا ، وأرجح أن يحدده قلد ، أو قلد من قلد .
ومع ذلك قصر عنه وقف دونه ولم يصل قومه .

(٦) سراج السيون في شرح رسالة ابن زيدون صفحة ٢٥ وما بعدها .

(٧) المصدر المذكور صفحة ٢٢٧ وما بعدها .

(٨) ثلاث رسائل : الجاحظ : صفحة ٨٧ .

(٩) محجم الأدباء : ياقوت : الجزء الخامس عشر صفحة ١٧٦

(١٠) رسائل الخوازمي صفحة ١٨٤ (قطعة) ، ١١٢ الطبعة المنشأة

الشيخ عبد العزيز الهشري

ولد عام ١٨٨٦ في بيت علم وأب فاضل له الشيخ سليم الهشري الذي تولى منصب شيخ الأزهر مرتين والذي كان يحب بشعر شوقي وأبوه ما جمعه بشرح قصيدته نيسج البردة في كتاب سماء (وضع النهج)

التحق عبد العزيز بالكتاب ثم التحق بالأزهر حتى تخرج منه فحين سكرتيراً لوزارة الأوقاف فوزاً بالمعارف ثم نقل إلى القضاء الشرعي ثم عين وكيلاً للطبوعات ثم مراقباً عاماً لجميع اللغة العربية إلى أن مات سنة ١٩٤٢ ميلادية .

والذي يعجبني من حياة الهشري أدبه الذي تأثر به بالجاحظ حتى ليمتد امتداداً لفكاهاته وسخره ، وهو نفسه يقر بأستاذية الجاحظ له ويكثره اطلاعاً على كتبه وتأثره بهما وفي هذا يقول : (أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأنني أأثره وأرضى صحبته ، وأناخبرها وأحضر عليها) وإن أسلوب الجاحظ قد أثر على النهاية وإن الجانب القذاهي فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفاتحة على التعمق كلما أراه أن يسخره وكلما شاء أن تحزن نقداته في القلوب ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة الفاتحة على التعمق كلما أراه أن يسخره وكلما شاء أن تحزن نقداته نفسى الرقاب ، ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة في كشف السمات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يحلم الناس قدراً فيها من بشاعة وتشويه (١)

كانت في الهشري مشابهة من الجاحظ منها قبح الخلقة ، وحب الفكاهة ، وعشق مجالس الأعراس والسخره فقد كان (يكره) إلا والابتسام يترسم على ثغوره والاضحكة لدلوة لا تبارق شفتيه وكان مجلسه مجالاً للدعابة الحلوة ، والسخرية المادفة ، والنكتة الظريفة واللمحة الجذابة (٢)

(١) مجلة المعرفة العدد الثامن عشر (أكتوبر عام ١٩٣٢ ص ٦٥٤)

(٢) عبد العزيز الهشري : جمال الدين الرمادي ص ٦٥ (أحلام الصب ٢٤)

وقد سلك في حديثه من البخل والتطفل مسئلة الجاحظ ، فجمعها من موضوعات فكاهاته
وسخره ، ومن ذلك سخرته من بخيل فتي جميل يقول عنه : (أما الطعام وما أدراك ما
الطعام ، فالخبز أولاً يصنعه في البيت كل أسبوع ، على ألا يتقى من الطحين إلا النخالة
وسائر للمجبن ، وأما إلا دام فميسات اللحم أن يزود أتوا المعادة ، فلقد أخذ به في
هذا الموضوع بالبر ، وحلا عليهم الحكمة في الحديث الشريف : نعم الإدام الخل .
فللفداء الكواخ : السلطات : أشك لا وألوانا : ولأم الفلافل : وأخواتها من الخوان العظام
الكريم . . . أما العشاء : فله فيه صنع يدبج ، ويدخل وقت العشاء ، فإذا صاحبنا قد سلف
وأعد بحد الأولاد ملالهم ، فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لمشائهم قال لهم : ألي وأخذ
مليهم ، بتعشاش والله يتمشى ما ياخذ شمس . ويتفع أحدهم فيقول : أنا . وعلى حكم فريزة
التقليد في الغلمان يسرعون فيصيحون : أنا أنا أنا . فيدفع إلى كل واحد منهم مليه
وقفا ، والله بثونة العشاء ، وأنى عشاء الأطفال . . . أما في الفطور فأنه يزعم للزيات القائم
على رأس الشارع أن لديه حلا يريبه ، ويحب أن يسمته ويجزل لعه وشحه ، وليس يحقد
له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصه . تصافى : قدر القول يطعمها في الصباح ، وفيحفظ
له الرطل بخلاصة قدره لعصره ويبحث إليه بها في الصباح الباكر ، والأولاد بعد زيار
فيقرضا في صدقة كبيرة ، ويعلجها بقدر من الخل ، ويحفظ حولها كسر الخبز التي
أفضلها الأولاد في غذاء أسهم ، حتى إذا ما هبوا من النوم وأحشواهم تغزى من شدة
الجوع ، فتوايتوا على الطعام هملج فيهم : ألي عاوز يفطر بجيب المليم . فلا يسع كل منهم
إلا أن يطرده إليه ، موأاة لالحاج البطن ، وإيثارا للمانية تسرهان ما تمود تلك
اللالام إلى عشا ، وتعتصر يكرها (٢٤)

هذا أشبه بقصة الجاحظ عن البخيل الذي اتخذ النخالة دواء له ثم جعلها

طعاما له ولأولاده وزوجته ، فكانت طعاما ودواء .

أما التصوير للبشرى الكاريكاتير فقد يبرع فيه وتناول كتابه "فى المرأة" كثيرا من مشاهير عصره فمسحهم وشوهم هنزا وسخرنا يقول فى زهور: (أما شكله الخارجى ، وقاضاه الهندسية ، ورسم قطاعاته ومساقطه لا فقه فذلك كله يحتاج فى وصفه وضبط مساحاته إلى فن دقيق ، وهندسة بارعة ، وصاحبها إذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلف من عدة مخلوقات ، لا تدرى كيف اتصلت ، ولا كيف تعلق بعضها ببعض وإنك لترى بينها التماسا وبينها المختلج ، ومنها ما يدور حول نفسه ، ومنها ما يدور حول غيره ، وفيها المتين والمتعرج ، وفيها المسترخى المترهل) (١)

ما أشد شبه هذا بما قاله الجاحظ فى رسالة الترييح والتدوير سخرنا بأحمد بن محمد الوهاب يقول: (ومن غريب ما أعطيت ، ويدعى ما أوثقت أنا لم ترقفودا واسع الجفوة فترك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك فثقت العبد وأنت البسيط وأنت الطويل وأنت المتقارب فيها شعرا جمع الأمازيغ ، وبها شخصا جمع الاستدارة والطول) (٥)

إلا أننا نرى الجاحظ رحب الذراع طويل النفس ، متمتع العلبة التى يجرى فيها نفس سخره ، فلم يتأت للبشرى أن يصنع ككتاب البخل ، ولا أن يتدع رسائل فى مدح الكرم وذم البخل ، ثم فى مدح البخل وذم الكرم . وليس فى إمكانه أن يأتى بمثل رسالة الترييح والتدوير فى طولها ودقة مسلكها وتنوع ألوان السخر فيها . . .

الجاحظ قمة عصره وما بعد عصره ، الجالس على عرش السخرية عرق السخر حتى يومنا هذا وجميع الساخرين إما : ضيوف على مائدة أو متطفلون على طعامه ، أو سائلون فضله أو سارقون من كنوزه ، إلا أن كل ماله يدل عليه مهما أخفيت معالمه ، وفورت هيئته ، وأضيفت إليه الألوان وألبسته القناع . . .

رحم الله أبا عثمان الجاحظ وجزاءه عن الإسلام والمدينة والبرج والفكاهة والتقم والتعذيب ، أكرم جزاء .

(١) فى المرأة : عبد العزيز البشرى صفحة ٧

(٥) مجموعة رسائل : الجاحظ : صفحة ٨٩

الفصل الأول

سخرية الجاحظ في ميزان النقد

في هذا الفصل الأخير من رسالتي ، وبعد أن أوضحت سخرية الجاحظ ، وسخرية من سبقوه ومن عاصروه من أتوا بعده ، أحب أن أضع سخرية في ميزان النقد ، لتبين مكانة الرجل بين الرجال ، وقيمة سخرية بين السخریات ، ومنزلتها في هذا الفن ، وخصائصها وميزاتها ، ليكون حكمنا على أبي حسان ، خاليا من التحيز ، بعيدا عن التزيف والتزيف ، وصلينا الآن أن نعرض جهات الدلائل التي كونت عقد سخره ، وأضفت إليه التآلق ونسجت البريق واللمعة ، وأن ننظر كيف انتظمت وتراصت ، في شكل فريد ، ووضع عجيب ، وتعاون وتعاقد ، حتى وصلت إلى القمة التي سجلت لأدبه الساخر المجد والخلود .

وأول ما نلمسه أننا لم نجد كاتباً بلغ من كثرة الإنتاج الأدبي الساخر مبلغ أبي حسان ، ولذلك أن مؤلفاته المشيدة التي جاوزت الخمسين بعد المائة أو المئتين بعد المائة في أغلب الأقوال ، والتي تارة تارة لا ريب أن الأسماء في بعض الأقوال ، لا يخلو مصنف منها من سخره الحس النابض ، والذي يهيج النفس ، ويضطرب الوجد ، بل إنه صنّف فيها وصل إلينا من تراجمها خاصة بالسخر هو "كتاب البخلاء" ، ورسالة عجيبة نسي التكميم والذئع ، هي "رسالة التريب والتدبير" كما كان يوشع كتبه بالسخره ، يدمجه في الأحاديث الجادة ، أو يخرجه عنها ، أو يخلط بينهما ، أو يربطها ، في أدق المشاكل العقلية ، وأعمق المسائل العلمية ، وأزمن الأمور الدينية ، يلمو بسخره ، ويهزأ بهزأ بعيد الأفكار ، وشاذ المعتقدات ولم تكن سخرياته على كثرتها مفتاةً وفاحشة ، وإنما كانت حصيفة حصيفة ، هادئة هادئة ، تحقق بمنزلها ومنزلها ما لا تحققه الأحاديث الجادة ، ولخطب المطولة .

وقد نوع الجاحظ في سخرياته وابتكرا نماطاً ، وولد ضرباً ، واشتق ألواناً ، ولمحت من الكثرة حداً يحتاج معه الباعث الدارس إلى تقسيمها وتبويبها ، وتنظيمها وترتيبها

ولم يكن يلقبها جؤانا ، بل كان ينتقى ويختار ، ويتأن ويتأنق ، فيجعل لكل موقف ما يناسبه من السخر ، ويخرج من جيبه ، وما يقدمه ذهنه ، ما يتطلبه المقام ، مراعيًا مقدار اللذع اللائم ، وكيفيته ، ووضوئته وطريقة صياغته ، وقواعد صناعته ، والاستعداد النفس والذهني والثقافي للمجتمع الذي يسخر فيه ، أو منه ، فيجعل السخرات الدقيقة العميقة للملها ، والمتقنين ، والقرية النال ، السهلة التناول للمامة وأنباء العامة .

يقول جورج جرداق (نرى أن سخرية الجاحظ ذات لونين اثنين من حيث التصريح والتلميح ، فهو إما سخر بالمحدثين والمفسرين والعلماء وأهل السلطان ، دس هذه السخرية دسا بارعا ، لا تكاد تراها إلا إذا كتبت مطبوعا على فعلها ، جديرا بإدراك خفاياها ، فإن كنت أدركتها على هذه الصورة ألقيتها قارصة لاذعة ، فياضه بمحاني التكم الخفي ، وهو إما سخر بالثقل والسخفا ، والعمق ، لا يكتبها لتعرضه بل يحيل إلى إظهار الاستهزاء والتكم ، على أنه يحرص نفسه بنطاق من الذيق السليم في إخراج تهكمه الموجه ، ويزداد سخر الجاحظ إبلا ما إذا كان تشفيا من سخر ، أو انتقاما لقيسة مدبرة ، ويغف في غير هذا المقام) (١)

هدف الجاحظ بسخريته إلى إصلاح العوج ، والضحك والمرح ، وتخفيف ما في نفسه من آلام ، وحذب للفتايج عن إظهار الجماعة حتى يرجع إلى مكانه ويجمعه ، والتأثير من شذ عن العرف والتقاليد ، إلى غيرة ذلك من أهداف شرفه ، وقايات نبيلة ، جعلت سخرته بعيدة عن اللهو واللعب ، والمباترة والهدا .

وهو في سبيل تحقيق هذه الأهداف يتخذ الرغز المستتر ، والغمز الخفي ، والإيما البعيد طريقا له - غالبا - ويهتد من التصح المكشوف ، والتوجيه الصريح ، والتلميح على قصصه ، بما يبرز مراميها ، وإنما يترك لسامعه وقارته استشفاف ما وراء سخره ، واكتشاف

(١) مجلة لصري ، السنة الأولى ، المجلد الثاني ، عر ١١٤ ، ١١٥ مقال لجورج

المنهج القويم ، والسلوك المستقيم ، والمغزى الذى يرمى إليه ، ويستمد منه من سخره ، حتى يكون التقويم ناهيا عنه — فى نظره — صادرا من نفسه وقلبه ، وذلك أجود أكمال التقويم والتدبير ، وأدومها أثرا .

وقد تناول بسخره من شد فى مجتمعه ، ومن الذين تناولهم بسخره ، وخصص لهم كتابا قائما بذاته " البخل " فقد افتن فى السخر منهم ، وأبدع ما شاء له إبداعه ، وما امتد نفسه ، وطال باعه ، ولم يكن حديثه عنهم سرديا واثيا ، وإنما خاص فى قرارات نفوسهم ، وفقد إلى بواطن مكوناتهم ، فسيّر غورهم ، وكشف دخالهم ، وتناولهم على مائدة التحليل النفسى ، فجعلنا نرى باطنهم كما نرى ظاهريهم ، ثم نظرب ونميرج ، حين نقارن بين الظاهر والباطن .

ارتقى ابن بحر بالسخرية ، ورفعها من وحدة السب والإنعاش ، والغلظة والخشونة — وتلك صفات السخرية الصادرة من مجتمعات غير متحضرة — إلى مرتبة اللينة والنعومة ، والروى والإيما ، والتلويح والتعريض — وهذه صفات السخرية الصادرة من مثقف متحضر مع الاحتفاظ بشخصيته ، والتمسك بكرامته ، وما قبل أن تكون شخصيته كشخصية أبى المبر الذى ضاعت كرامته ، وسقطت هيئته ، وسلب احترامه ، حتى ليقدف بالجنجنى فى الماء ، ويترك حتى يقارب الشرف ، ويدفع على زلافة حتى يهبط فى الماء ثم ينتقل بالشباك وغية فى إضحاك الخليفة ، أن مثل هذا الرجل يمكن أن تطلق عليه المسمى . ولكن شخصية الجاحظ لم تكن لتقبل مثل هذا وله من الاحترام والتقدير ما لا يقل عن ابن الزيات الوزير ، وابن آوى دؤاد القاض .

كانت الأفكار الساخرة تلج على الجاحظ وتدفعه إلى الكتابه ، وتدفعه إليها دعا ، فينثر محموله اللغز والأدب والبلاغى — وما كان أكثره — على مائدة فنه ، ثم ينتقى منه اللائم لموضوحه وقوضه ، فالشريف للشريف ، والسخيف للسخيف ، والمعنى العميق

يلقى بالعلماء ، والمعنى السطحي للتحدث به مع الحاجة ، وهو في هذا وذاك يختار
الأولى والأليق ، ويقتصر التعميرات التي تولد في الذهن صراحة ، وتتم رغبات يديمة
وكون لها شأنها ، ونأثيرها ، ويحقق عن طريقها غاية من الإيلاء والإيجاع أو العرج
والإضحاك ، وتلك ميزة بينه في أستاذنا الجاحظ ، الخبير بجوهر الكلام ، والعلم بأسماعته
ومعطياته ، فقد كان جليلاً نقادة ، بين الألفاظ يميزانه الحساس ، فلا يخطئ ولا يهتدي
ونظرة واحدة إلى أي من سخرياته ، تعرفنا قيمة الكلمة في نفسها ، وفي مكانها بين لدايتها
وفي موقفها من القصة أو الباب .

اختار لسخريته الألفاظ الحية ، والأساليب المعبرة ، والتراكيب الموصلة إلى المعنى
السواء والطريقة التي تحقق لسخرية الإقناع والإمتاع ، لم يتقيد بطق من سبقه ، ولا
بقواعد اللغة ، بل حكى كلام الأعراب كما هو بمنطقته وحقيقته ، مادامت الغلظة والجفاف
سهل سخره ، وترك الإعراب في بعض المواضع التي رأى فيها ترك الإعراب يحقق التأثير
والإمتاع ، وروى سخرياته ملحونة إن كان على لسان سدي أو زنجي ، لأن اللحن فيها
ينبوع السخر وحريته ، وسداه ولحمته .

لم يلجأ إلى المديح والتهليل ، بل يمتدحها لتخليه أسلوبه ، ولم يجهد نفسه
للحصول على التشبيه البكر ، والاستعارة الفذة ، إنما كان جل هذا الإقناع ، وظلية وكده
إيهام المعنى المستكن في نفسه إلى نفوس قارئيه كما هو ، دون زيادة أو نقصان ، وتلك
غاية الأديب ، وتتيسر ما يصل إليه الكاتب لفتن ، فإذا وصل الجاحظ إلى هذه
الغاية دون هذه الألاعيب السحرية ، ودون استهوا القراء ، وخداهم ، فقد فاق الكتاب وذهب
وقد وصل الجاحظ فعلاً إلى هذه الغاية التي بناها بنى مصره ، وجعل للحقيقة
معطيات ونبضات وإحاطات شوق ما حشده غيره في أسلوبه من بيان وديع ، قصد إلى
الإقناع ، ورفعة في الإمتاع .

الحواجز والقيود ، والوصول إلى الهدف ، واحترار الناس ، وإعداد كرامتهم موضحاً مفسحاً
 الملأ ، فما صرح الجاحظ بأسماء من يسخر منهم إلا لأنهم كانوا يملكون طريق التسخر ،
 فيسخر من غيرهم ، ويسخر غيرهم منهم وشهدوا بذلك حتى صارت للسخرية شهرة لونا
 من ألوان الصحة ، وإدامة المشقة وضرباً من أطراح الحشمة ، وهذا الكلفة ، وهل
 ربما غضبوا من الصديق إن لم يتجر السخر والعزاج على لسانه ومن هذا اللون سخر
 الجاحظ من البخلاء الذين وُصِفوا بالشح ، وشهدوا بتلك الغصلة ، ورفغوا بما بهمن
 الأقارب والأبعاد ، حتى صارت للسخرية من يخلع لونا مديباً لديهم ، معشوقاً عندهم
 لما فيه من إبعاد الطغى قبيح ، وإيثاق الناس ما في أيديهم ، وليس ذلك بمصيب في
 الجاحظ ، ولا موقفاً إياه تحت اللوم والعتب ، بل إنه موفوب فيه ، وهذا يجع الجاحظ
 المختلن الكريم الجراء ، وحسن الصحة .

ومعنى قصص الجاحظ الساخرة تظهر فيها العناية الشديدة بالحوار ، حتى لتكاد
 تكون حواراً خالصاً . . . وأسقى هنا رأى الدكتور عبد الكريم الأنثري معاصرة له . قال
 من الجاحظ وهو يتخذ من الحوار أداته الأولى في الكشف عن نفوس أبطاله ، وتحليل
 دوافعهم العميقة ، وتصوير أخلاقهم ووظائفهم ومظاهر تفكيرهم وكثيراً ما تكون حرارة
 النقادة في البخلاء كما أنه كلما في الحوار . . . واعتقد أن التجارب الفكرية التي ما ناهما
 الجاحظ في مديح المعتزلة المذهبي المديح فالذي يعني بالجدل ودراسة العقائس
 والمناظرة كان له أثره الكبير في صقل مواهب الجاحظ الفنية في الحوار ، ومعرفة
 الطرق الخفية المسحورة في سوقه وتوجيهه ورده . (٢)

(٢) محاضرات الموسم الثقافي عام ٦٤ / ٦٤ الجزء الثاني مع مطبعة الوزارة - دمشق
 عام ١٩٦٤ فن القصة في كتاب البخلاء للجاحظ معاصرة الدكتور عبد الكريم
 الأنثري ١ / ٤ / ١٩٦٣ صفحة ٢٥٣

والجاحظ - بحق - سيد القصة السخرة ويمتوى على مرشها ، ويشتد غاربا ،
ويجعل كل ما يتناوله فيها حيا متحركا ، يساهر جسوا السخره ويشارك فيه ، لم يفصل
قصصه عن الحياة ، ولم يبعدها عن الواقع المشاهد ، بل اختار أبطالها من محاصره
ومن مشهورى زمنه ، وما قبل زمنه ، وجعل الحوادث مقبولة مستساغة ، يقع عليها غسى
الحياة إن لم يكن قد وقع فعلا ، ثم يختار الألفاظ والجمل ، ويترنمها ترنينا خاصا ، يراى
فيه عناصر القصة وهبوبها ، ثم يحكم نسجها ، ويتم حيكها ، ولا ينسى الألفاظ اللامعة
ذات الرنق والهاء ، التى تضى على القصة جوا خاصا عتدل دلالة دقيقة على ما يحيط
بالسخره من أشياء تتمازج وتتساند ليل الجوبورج السخره حتى تأتى نهاية القصة
وقد بلغ السخره ذاء ، وجاوز شتاء .
جعل سخره حيا ناطقا بحديته من الأحياء وخاصة أسلذده ، ومصاصوه ، فقد ذكر
أسلوهم صريحة ، وكفى من بعضهم حتى لا يفضعهم ، وهو يحدده فى سخره الزمان
والمكان العام والشامه ، ويصفهم حتى فى المكان ، وما يدور فى أذهان الحضور ، ويغنى
سخره بالتفاصيل متى رأى ذلك مينا فى السخره ، وسحقا لها ، ومحوانا على شد أثرها
وإحكام قتلها .

أما تصويره المزلى " الكاريكاتير " فقد تحدث فيه قبل أن يعرف الناس هذا اللون
الغنى . حتى ليمد رائده ومثكره ، ومع ذلك فهو متقن ، يهمننا ضياؤه ، وتجددنا
صعته ، وحسبه فضلا فى ذلك أنه السابق إلى هذا الميدان ، وأن أحدا لم يسلخ
شأوه من أتا بعده ، ولا قا رب خطوه ، وأتته لى فى قدرة الرسام " الكاريكاتيرى " أن
يؤدى بالريشة والألوان ما أداءه الجاحظ بالكلمة والمعبارة ، وإن بذل جهده ، وحشد
فقه ولا عجب ، فصور الجاحظ حية متحركة ناطقة ، معتد ، إلى غير غاية ، وصور الرسام
حامدة ساكنة ، محصورة محدودة ، ولتنظير إلى إبداع الجاحظ صورة الأسوارى

والله يابىء أو صورة آين الأعرار العرندى والكلب ، أو صورة ابن ممد الوهاب الهيسوخة
 المتعوجة ، فإننا سنرى الصبىء وستتراءى ضلالتنا من السجى والطرب .
 تبرز عقلية الجاحظ الناضجة ، وصله الزهر ، وأدبه المصطاف . ويرامت فى المطلق والنقاش
 والجدل أحيائه حين يدرج للنسب ، وشده فهو يدم الهخل فيؤكد لك أنه صفة مردولة ،
 وخلق ردى ، ثم يمدحه ويذم الكم ، فيسخر أبو عثمان ويحبذ بك إلى الاقتناع برأيه
 ولاأخذ بجدله ، وقد كان يهدف بمدح الشئ ، وذه إلى اظهار القدرة البهائية ، والبراعة
 المعطقية ، وهو فى الوقت نفسه سخر بالمقول ، وتلاعب بها ، فقد مدح المعلمين وذمهم ،
 ومدح الكتاب وذمهم .

إن سخرية الجاحظ مرآة صقيلة أظلمت على عصره ومصره ، ومصرفات علماء ربه ، وأديباته
 وهامة الشعب فى أيامه ، على اختلاف أصنافهم ، وتباين اتجاهاتهم ، وتنوع ثقافاتهم ،
 فهو يحق أديب المجتمع ، وابن البيئة التى عاش فيها ، والمرأة التى تنظر من خلالها
 مجتمع الجاحظ فى شتى شئوه ، ونرى الصورة الواضحة ، واللوحة المجمعة ، بخبرها وشربها ،
 ولفتها وسلوكها ، حتى لنستطيع من خلال سخره فهم مجتمعه ، وكشف طوائفه ، والوقوف على
 دوافع سلوكه ، وقد قدمنا بابين فى هذا الموضوع^(٣) فى معرفة المجتمع من خلال سخره ،
 والثانى فى كشف الجاحظ خلقا وخلقا ، ولما وأدبا ، وثقافة وتدبيرا ، من خلال ما كتبه
 فى السخرية والإضحاك .

أنتجت سخرته مدرسة تبع فيها كثير من تلاميذه الذين تخرجوا على كعبه ، وتخذوا
 من ساخرأ دبه ، فنهجوا نهجه وتبعوا طريقته ، وافتقوا فى السخرية ، إلا أنهم لم يبلغوا

(٣) الباب الخامس من الرسالة

(٤) الباب السادس من الرسالة

مكافئته ، ولم يقتربوا من عظمته ، وهرقوا ذلك لفته ، وقسموا الفرق الشاسع بين منزلتهم ومنزلته ، فجعلوه إما ما ليس ، وقدوة لقلوبهم الساخرة .

اعترف الناس في عصر الجاحظ وما بعد عصر الجاحظ حتى يؤمنوا هذا يجرأته في السخرية وثبوت قدمه فيها ، وعلو كعبه ، وأكدوا أن ستاديتهم لجيله ، وما تلاه من أجيال ، وقد قدما في أبواب سابقة آراء زعماء السخرية فيه التي تشيد بحذقه وإفقتانه ، وسيفه ، وتفننهم أن ينسبوا إلى مدرسته ، ويحسموا باسمه ، ويؤاديفهم الناس بقلبه . ومن أقدر على فهم قدر السخرية والساخرين من الساخرين أنفسهم . فإذا وضعنا سخر الجاحظ في كفة ميزان النقد رأيناها تهبط وتهبط لثقل ما فيها ، ورأينا الكفة الثانية ترتفع وترتفع لثقل ما فيها ، وبذلك نرى أن الرفة وعلو المنزلة في هبوط كفة ميزان السخر عند الجاحظ وأن الشاعرة والفضيلة في ارتفاع كفة ميزان السخر عند غيره . وكان ليس فيها شيء .

رحمك الله أيها عثمان ، فقد كنت ربحانة الأدب ، التي لا يزال أربعمنا ينعمت ، فيصل إلى أنوفنا زكيا عطرا ، حَبْرَانِي عَشْرُونَا مِنَ الزَّيْمَانِ ، فَنَهْمُشْتَا ، وَنَشْطُ نَفُوشَا وَهَوْلُنَا وَقُلُوبُنَا ، وَبَعْدَنَا بِضِيَاءٌ مِنَ الْفِكْرَا لِمَلِمِ وَالْأَدَبِ وَالْعَمَلِ .

خاتمة

يتناول البحث موضوع "فن السخرية في أدب الجاحظ".

وهو موضوع أدبي ، يرى المرء من خلاله العصر العباسي في اتجاهاته وأفكاره ، وطلوه

وأدابه ، ومقائده ودانياته .

وجانب من جوانب النقد ، نقد طابع المجتمع وأخلاقه ، ونقد أدابه وطلوه ، ثم ترجمة الترجمة

التي ترفعه ، وتعلل شأنه .

ولون من ألوان البحث النفس في السخرية ، بيان دوافعها وأهدافها ، ومقوماتها
وقاصد نجاحها .

وقطاع عرضي لبحث الأدب الساخر في عصره الأولي ، وحتى نهاية عصر الجاحظ ثم نظيره
في أعمال مدرسته الساخرة .

هونوح من التشبيب في زوايا الأدب الضاحك ، والفحش في أغواره ، لاستخراج الأنكار

الجادة ، والمعاني القوية الرصينة ، وإبراز أن ما في الأعماق يختلف عما على السطح ، وما

في الأعماق يمتاز بجديته ودماسته ، وما على السطح يمتاز بهزله ولطافته ، وقد جمعت السخرية

الأدبية الفصيلتين ، وحازت ميزة الأدبين ، الجاد والهازل معا .

ثم إنه نطقت البحث بكشف ناحية من أدب الجاحظ الذي يدع فيه ، وفنونه ومقائده ،

وهدي منه إلى تخفيف وطأة الدرس ، ونقل البحث ، وظلمنا على تلك العبقرية الفذة وحسن

تقديم وضمان .

وقد توصل البحث في هذا الموضوع إلى ما يأتي :

(١)

السخرية في المجال الأدبي واسعة النطاق ، رحبة المضمون تشمل المعاني اللغوية

الداخلة على اللفظ والنزاهة والمبث والاستخفاف والتمك والاسْتِخْزَا ، والطنز والفخر . . .

والمعاني والمصطلحات البلاغية التي تحمل المعنى اللغوي للسخرية وتؤدي إليه كالتكيسم

والإهزل والمواد به الجدة ، والهجو في معرض المدح ، والتوجيه ، وتجاهل المعارف ، والتعريض

وقد حدد البحث مفهوم السخرية الذى أدار كلامه عليها كما حدد مراده من قنيتها وأبرز قصده من أدب الجاحظ الذى هو مجال البحث وميدانه . . . وحصر الموضوعات التى يسخر منها الأديب فى قاعدة عامة هى : كل ما شذ عن الإلف ، وخالف العرف ، وإن دعا إلى إصلاح ، ودبر فساد . . . ثم أقام صرح السخرية من أديب ساخر ، وموضوع جاوز المعتاد ، وحاصر محرك الأديب نحو السخرية وأسلوب لادع ، وحدف يغمه ويبرق إليه قد يكون غفلا يسير إلى النفس الحبيسة ، أو النكابة بالخصم ، أو التقيم والتعذيب ، أو الفكاهة والمسرح ، أو المحافظة على كيان الجماعة ، أو كسب المال والجاه . . . وقد عرض البحث آراء الفلاسفة وعلما النفس فى أهداف الضحك والسخرية ، وأدلى برأيه وأوضح برهانه . . . ورأى البحث أن من الواجب عليه أن يفرغ من الناحية الفنية الأدبية للسخرية يستخرج منها العناصر التى تحقق لها النجاح والفوق ، وكانت حصيلة صيده ، أن يكون الساخر مبتلغى النفس ، مولعاً بالنقد ، شديد التفاعل مع مجتمعه ، والحساسية تلمها بدور حوله ، قوى الشعور بالواجب بارها فى التصور ، يجيد عقد الصلات بين الأشياء ، وإن بدت متافرة ، قطناً المعنى ، عالماً بأحوال الناس ونفوسهم وخباياهم ، متفانياً فى أسلوبه وطريقة تصويره ، يحلو صوت عقله فلسى صوت عاطفته ، يتخوثر لها أسلوبها ووقتها ومجتمعها ، يفطن فيها ويتكدر حتى يشهد بذلك بين الناس .

وقد رفع البحث قيمة السخرية كفن أدبى نقدى راق ، حيث دلت على أنها جادة وإن أريد بها الجد ، وهازلة وإن قصد بها الهزل ، وحادة هازلة معا فى كثير من الأحيان ، وأنها ليست بتافهة ولا سقيمة عند اللغاة والمفسرين والفكرين لأن نبل هدفها وسعت غايتها ، وأنها بحاجة إلى معاناة وحذق واعتنان ، لأن الأدب الفكاهى يحتاج إلى بذل جهد حتى يحافظ على الاستواء الواجب ، ويعوض عنه موضوعه ، ويسد نقصه ، بخلاف الأدب الجاد لك سامة موضوعه وصق فكرته .

بعد الكلام من السخرية ، معناها ، وموضواتها ، وقوماتها ، وأهدافها ودوافعها ،
 ومناصبها ، ومنزلتها بين فنون الأدب ، أرسل البحث شعاعا يكشف لنا الجاحظ
 الآهيب الساخر ويعرفنا بشخصيته قبل أن يظلمنا على سخره ، ويرسم لنا صورة مصغرة
 من أدبه قبل أن يدخل حياته ويسير في دروبه ، فنذكر لنا أنه صوريين بحرين محبوب الكلي
 اللحن المكثي بأبي عثمان والملقب بالجاحظ والحدقي ، ولد بالبصرة من أبوين قرويين ، ومات
 أبوه في صغره ، فباع الخبز والسمك ليكسب قوته وقوت أمه ، وتعلم بالكتاب ، وشغف
 بالقراءة ، حتى أنه كان يكتب دكاكين الوراقين يبيت فيها ليلا للقراءة ، ثم اتصل بعون
 بن مهران ثم بالنظام شيخ الاعتزال واعتنق مذهبه ، وجلس إلى أفضل رجال زمانه فسمع
 شتى نواحي العلم والأدب ، فأخذ عنهم ، وتخرج على أيديهم ثم اتصل بالوزراء ، كان له الزيات
 والقبضاء كابن أبي دؤاد ، وما خلفاء كالأمن والمتوكل ، وكتب لهم فأجزلوا له العطاء
 وتولى ديوان الإنشاء ثلاثة أيام ثم اعتزله ، وترك لنا عددا وفيرا من مؤلفاته في شتى نواحي
 العلم والأدب والمعرفة . وبعد مضي نحو قرن من الزمان وقعت عليه أجيال الكتب فمات
 ويوم لنا البحث العوامل العديدة التي تعاونت في صقل عقلية الساخرة وأسلوبه
 البازي ، فقد كانت لأمه سخرياته ، وكان جده فزارة جمالا يغلب على أبناء منتهى السخر
 والإضحاك ، فورت السخر عن جده وأرضعه من أمه ، كما كان لدمايته يتعرض لهزأ لنا من
 فيكيل لهم الصاع صاعين ، ويستمتعون شوته ، بخفة روحه واسقاطه عبودية على الناس ، وضرب
 البحث الأمثلة لمديدة لرجال نبهوا في السخر قد نكبوا بفتح الطلعة ، ونقص التركيب
 الجسمي ، وكان لذلك النفس أثر في إقناعهم السخرية والضحاك ، وقد كانت طبيعة الجاحظ
 مولعة بالسخرية والعري ، وزاد سخره عقلا واقتنانا فزاره علمه ، ووفرة أدبه ، وما شاع
 في عصره من لهو وصحبة ، وإقبال على متع الحياة ، وتحلل من القوانين ، وتخفف من زواجر

الدين ، ثم ما شاع في مجتمعه العلمي الأدبي الخاص حيث كان أساتذته وأصدقائه مغرمين بالسخر بارعين فيه ، وكانت علاقاته الاجتماعية وحياته في وسط يمجج بالفلكافة ، ويترغمس بالسخريض أن سباب ارتفاع كعبه في هذا الفن ، كما أن وضعه الثقافي والأدبي ، وكثرة مؤلفاته ، ووفائه في إرضاء قرائه ، وحسد الناس له ، وعيهم كتيبه ، وشيوع الخرافات في عصره وفيما يقرأ من آراء علمية ونظرات أدبية جعل سخريته تكثر وتعمق .

(٣)

وعرفنا البحث بالموضوعات التي تناولها الجاحظ بسخره ، وجعلها محور هذه منها ، الصيوب الجسمية كقص القامة وكبر البطن وقد تناول الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب فمسح شكله ، وشوه خلقه ، على أن السخرية من التشويه الجسمي والنقص الخلقى شأن المجتمعات غير المتحضرة ، والآداب غير الناضجة لذلك لم يتجه الجاحظ هذه الرحمة إلا نادرا ، ولم يقصد لها لذاتها ، وإنما جعلها حيلة لإبراز عيب نفسي أو خلقى كالدعاء بالمبالغة وغير ذلك مما شاع في عصره ، ومن الصيوب النفسية والعقلية التي شاعت في زمنه وطلأت مجتمعه فصلا بها كتيبه ، الهلافة والإهمال وجعور الإحساس ، والكذب والمبالغة ، والخوف والجبن ، والقصريات التي تدل على الجبل والثقل ، والإيمان بالخرافات والأباطيل ، والأوضاع الشاذة نفس مجتمعه العلمي والثقافي والأدبي وقد كان للسخرية من البخل نصيب كبير في أدبه إذ تنفخ في مجتمعه وذاع بين أبنائه جملة فكان نصيبه من أدب الجاحظ الساخر أو كرمسج إذا أرد له كتابا خاصا سماه " البخل " .

(٤)

ولم يلجأ البحث إلى تقسيم سخر الجاحظ من ناحية صيوب الذين يسخر منهم كالعلماء والممر والسرجان مثلا ، أو من ناحية مهنتهم كالأطباء والمعلمين والفقهاء ، أو يوضح عنوانا لسخرياته ينحصر من داخلها وفيه خلاصتها ، كما يفعل كثير من محدثون حسن

الفاخرة ، ولكنه اتخذ طريقا يتعلق بالناحية الفنية للسفر ، والذي من أجله كانت السخرية
 سخرية ، تضحك وتبكي ، وتحيى وتحيى ، وكشف الجوانب الفنية في سخريات الجاحظ ، وليس
 في آفاقها ، وأطلعنا على النواحي الكاذبة في السخرية التي تحقق الذبح ، وتثير الضحك
 والمرح ، وبدأ بالتصوير المنزلي " الكاريكاتور " بأوضح أنه قد يكون بالكلفة ، قد يكون بالسكون
 والصلب ، أو خفة الدركة وطيشانها ، وقد تكون المرأة النفسية القمعة أو السعدية التي يعكس
 عليها الجاحظ نفسية السخرة هي الأداة التي تشو العالم وتجسم النقائص ، وقد يتخذ
 الصورة القصيرة أداة يحقق بها الكاريكاتور الساخر ، أو يلجأ إلى الصورة القسيمة يبرز بها
 جوانب السخرة ، ونواحي نقصه . . . ثم أنهت البحث أن السخرية المبهتة في كتابات الجاحظ
 قد أخذ بعضها من غيره ، ونقله كما هو ، دون تغيير كرسالة سبل بن حارون ، وبعض
 الأشعار والأخبار المعروفة من أربابها الذين حدد أسماءهم وقد اعترف في كتابه
 البخل ، بنقله بعض أحاديث ساخرة من الأصمعي والمدائني . . . وقد أخذ بعض أحاديث
 غيره الساخرة ، وقد ما ، كما أخذ سخريات غيره وصاغها صوغا جديدا ، فمن له وأحاله حسن
 وجهه فحاديث شيئا جديدا ، خلق به أن ينسب إليه ، ولكن أكثر سخريات كان من ابتداعه
 ونسجه وإن نسبها إلى غيره ، ومن أجل سخريات التي ابتكرتها يراعه " رسالة الترهيب " و
 والتدوير ، وقد تناولها البحث باستقصاء واستدلال ، باعتبارها صلاقتها متكاملة ، لم يسهق
 بمثلها ، ولم يلحق بها يوازيه ، فمعرفة من كتب له الرسالة ، وأثبت بالأدلة أنه أحمد بن محمد
 الوهاب ، وأنه من بجيلة ، وأنه كاتب ، ومن أصحاب الزيات ، وأن له من مباحثه من
 ذوي الشأن في الدولة ، كصالح بن علي ، وهادي بن سليمان ، وحفص الخياط . . . نسج
 أوضح البحث أن الدافع إلى كتابه الرسالة قد يكون ارتقاء ابن محمد الوهاب في قدره
 وقد يكون لأنه كاتب والجاحظ معروفة كراهيته للكتاب ، وربما لأن فيه ما يدعو إلى السخر

كالتشوية الجسدى من قصر وغلظ وجمد أصابعه ، والتشويه العقلى والأخلاقى من جهل وادما ،
وثبه وصلف ، وقد يكون جميل الوجه مع تفاهة العقل فينقص الجاحظ عليه ذلك فيضخم عليه
ويجمد رذل أخلاقه ، وقد كان بينها اختلاف فى المذهب الدينى ، إلى غير ذلك من أسباب
خجلت الجاحظ ينشأ لم نفسه سخرا وهزوا فى رسالة طويلة .

تناول البحث رسالة ابن هبذ الوهاب تتولا بأربابها ، فقسما بحسب ما فيها من كاريكاتور
يعت بتقا صيل جسمه ، يجعل الصورة تخالف ظلها ، وبانتقال الصورة ظلا والظل صورة ،
تقصر وتطول ، وتتكور وتتبع حسب شعاع فكر الجاحظ الساقط عليها ، وأحيانا يحتج
الجاحظ لفضيلة الطول ، وأحيانا لفضيلة المروض وتارات يحتج لها معا ويجمعهما فى ابن
هبذ الوهاب فيرسمه طويلا قصيرا ، وفيما مكررا فى وقت واحد .

ثم يتجاوز لتصوير الكاريكاتورى جسمه لينز غبايا نفسه وطوا يا خلقه فيتجاوز به حدود
الكمال برفعه فوق قدره ، بل يجعله فوق المخلوقات ، يحز علم الأتلين والآخرين ، ويجمع محاسن
الشمس والقمر وينأى عن نقا نصهما ، ويخرجه من الهاليج والحد ودعوا وأدبا وحمالا تسم
يقارنه بمشاهير مصره وما قبل عصره فيجعله أستاذهم وعلمهم ، وقد يفتح من عيوبه مسن
فبح خلقته وادعائه ومبالشته والتواط طبعه ، وعدم قابليته التحمل ، وهو فى هذا وذلك يتلاعب
بعقله مازلا ويفحمه بالأسئلة الجادة المازنة .

ثم يعرض البحث لسخریات الجاحظ فى مواقف اعتصمها واستند عليها ، وكانت الجانب الفنى
فيها ، ويلونها بألوان الأجوبة المسككة التى تلجم الخصم وتقهره فى منطقية وإفحام ، أو
يجعل محور السخر وعادة كشف السخرة ، وإبراز ما فى عقله الباطن مما يستره ويكتبه أو يهزجها
بحسن التحليل ولطف المدخل ، أو يوضح أن التخلص بالفتح كان مثيرا للحدك ، وحقق السخر .

والتضاد من الألوان التى تحقق السخرية فى الكلام ، بل إنه يسلم فى كل سخرية
بمقدار يختلف قلة وكثرة ، وسطحية وعمقا ، وذلك يستمر لأن غيره طغى عليه ، أو يمز ويشتخ
لأنه طغى على غيره ، وغاية البحث بسخرية التضاد تختص بالذى يعنى فيها هذا المعنى

وتستحق من أجل هذا الصق أن تستقل بالاسم وقد قسمها البحث بحسب فئتيها إلى السى
التناقض في المقالة ، بحيث يناقض آخر الكلام أوله ، والمقارنات التي تجمع الأضداد التي
لا يتوقع الجمع بينهما ، كالجواب غير المتوقع ، ولا لدليل المضاد لما يرد ، ولا لنتيجة المعكوسة
وكما جتماعا للضدين معا .

ومن المجرىات الفنية في البحث سخرية الحركة والتصلب ، وقد تكون حركة جسمية
متقلبة متموجة ، أو حركة نفسية حادثة دائرية ، كالصراع الذي يجول في نفس البخيل أو
الطفيلي ، وقد يكون التصلب جسديا يبدو به الشخص كالتمثال ، وقد يكون تحجرا عقليا ، وجمودا
فكريا ، وتصرفا رتبيا ملاكتصرف الآلة المحدود المكرر ، وكلها ألوان فنية من السخر
والاستهزاء .

والكلمة أهميتها في السخرية ، وشماعاتها في اللفظ ، عن طريق التلاعب بينيتها
وشكلها الذي يترتب عليه التلاعب بمعانيها ، وقد يكون بتوجيهها غير وجهتها ، أو يسورها
في غير طريقها ، أو في خلط الألفاظ ببعضها ، حتى يضح معناها ، ويهرب المطلوب منها
وقد يكون السخراتيا من اشتقاق الكلمة اشتقاقا يبعدها عن معناها ، أو يستخرج منها معنى
مازلا حين يقارن بالمعنى الحقيقي لها . . . وللتعمر والتفصيح ويلقن بالآلفاظ ، واستعمال
الخشن البصر منها ، المرتفع النبرة ، المسير النطق الغريب غير المتوسق فيما يؤدي بالسهل
الميسر وبخاصة إذا خوطب به من لا يفهمه فإنه يحقق السخرية والطرب أي تحقيق . . .
ولأسلوب الحكم الذي يلوى الكلام من وجهته ، والإجابة بنير ما ينتظره السائق ، وما يقتضيه
سؤاله ، لضع معين ، وسخر قائل ، كشفه البحث وأوضح وجهته .

ولما كان الجاحظ رب الفكر لناضح ، والذهن البقاة ، والعلم الغزير ، فإن الخطأ
الذهني عنده أولى الأخطاء بالنقد ، وأجدرها بالسخر واللفظ ، ومن أجل ذلك احتلت
السخراتيا الذهنية من أدبه مساحات شاسعة ، وقد قسمها البحث إلى الغفلة التي تظهر

في أقل الناس وتصرفاتهم ، والتخافل الذي يد للفاقل الجبل ، ويرى له اللسان ،
ليست في سقطاته ، ويحق السخران من ظهر في آخر الطائف انقلاب الوضع وأن الفاعل كان .
متفاعلا ، والمتخافل كان متفلا ، ومن السخرات الفنية ، ادما ، الحذق والإتقان مسح
ظهور الجبل ، ويرى لثقه والخطأ في البديدي ، واقتراح حل غير صالح للتفكير والتطبيق
والإتقان بما لبراهين وتكلف المثل والحجج ، والجهد النفس في ذلك ، والأمر يدهن مسلم
به ، أو احتجاج المرء لذهب فاسد بين البطلان بما يشبه الحجج من المفاطات والفسطاط
وكل هذه ألوان فنية من التلاعب بمقل السامع تحقق السخرة ، وتولد الاستمراء .

(٥)

وقد تكن البحث من أن يكشف عصر الجاحظ ، ويقف على دخائل البيئة التي عاش فيها
متخذاً سخرياته الدليل ، ولا ندع قرصاته السراج النيرة ، فاطلع بواسطة ما تنطوي عليه هذه
السخرات على ما كانت عليه الحياة الاجتماعية حيث تضخمت الثروات ، واجتمعت في أيدي
طوائف معينة من الأمة ملكوا ما لا يحصى من الأموال والضياع والجياد والقيان ، ويقف فيهم
فقورا معدما يحترف الكدية والتمول والاحتيايل طريقا لكسب قوته ، كما كان بعضهم كرميا
مقلقا وبعضهم بخيلا لحزا يقدر المال ويجعله عدل نفسه وأهله ، ويحبسه في خزائنه
لا يرض منه ب درهم على ظمائه أو شرا به أو دوائه ، وانتشر شرب الخمر وتعاظم المسكرات ،
وجار لها مجالس تنتشر فيها المنادمة والرقص والغناء ، والعجون ، وشاعت تجارة الرقيق وامتلاك
الإمام والخصيان والظلمان .

وقد بين لنا البحث استقفا ظا مما انطوى عليه سخر الجاحظ - عادات الصبا سمين نسي
مشاربهم ومطاعمهم ومجالسهم ، وحدد آداب الموائد ، وما يرضه الناس من ألوان الأطعمة
وأجزاء الحيوان المرغوب في أكلها ، كما أوقفنا على زيهم وملابسهم ، وأظهرنا على أحوالهم
السياسية ، وما كان من تشكيل بالمارقين ، وحدد طوائف الجند التي تحمي الدولة ، والوظائف
الحديثة التي شاعت في هذا العصر كالوزارة والعجاية وقيادة الجند . . .

أما العلم والثقافة فقد حفل بها العصر، فالكتاب وسيلة التعليم الأولى ينتشر في القرى والمدن، يشرف عليه معلم مثقف، ثم المسجد المدرسة الثانية للتعليم والتثقيف ينشأ الجميع يستمعون إلى شيخ الكلام رواية الأخبار، وإنشاء الأشعار ثم السيد حصن اللغة وثقافة اللسان، ثم جماعات الأدباء والعلماء في مجالسهم التي يعقدونها للمناظرة والإشادة ثم ما يكون عند الخلفاء والوزراء من الضحك والبرع يروى فيما من سرور قصص وأخبار... وصل البحث من خلال السخر إلى كل هذا، ووصل إلى أنه رغم هذه الثقافات المتعددة، والنهضة الفكرية والأدبية التي تعتبر رتبة هائلة في خطوات الأمة العربية نحو التقدم والحضارة والرفق العلمي والأدبي، فقد وجدت مجموعات من المخرفين يدهون أنهم يرقون الضرس فيشفي، ويكلمون الصغار ويتخذون لجن خدما وأقوانا، ويتلقسون شعراهم وإلهامهم من شياطينهم، وظهت طبقة من المستطيين الذين يحفون الأدوية الوهمية والمتعالمين الذين يفسرون آي القرآن تفسيراً يأباه الذوق والواقع واللغة.

أما أخلاقهم ومعتقداتهم فيظهر فيها التحلل من القيود، والاستهانة بالقيم، والعلم بالهوى، وتنتشرا الحرية في كل نواحي الحياة، حرية وثيقة الصلة بالفوضى والإباحية فانتشر الكذب والسرقة، والفحش والاحتيال والآراء الفاسدة التي تحسن الكذب على الصدق، وترفع قيمة النسيان على الذكر، وتحسن عيش الهائم من عيش الإنسان، وانتشر الزنا وتعشق الغلمان، وظهر القوادون والعلماء أنفسهم كان بعضهم ماجنا مستترا، أما العقائد الدينية فقد انقسم المسلمون شيما، فظهر المعتزلة والرافضة والشيعة والخوارج وظهت ديانات وهاهب كثيرة غير إسلامية غصرت المجتمع الإسلامي ودخل في معتقد المسلمين منها الكثير فظهرت الزندقة وكثر الإلحاد ولكن بعضا من الناس تمسكوا بدينهم، ودافعوا عنه وأبعدوا الشواغب منه فخدموا الإسلام، ورفعوا منارته، وبذلك أعطانا البحث صورة واضحة لعصر الجاحظ استبطنها من سخرياته، واستبطنها من ثبايا كلماته.

وكما كشف البحث عصر الجاحظ من جميع نواحيه ، فقد كشف الجاحظ نفسه من خلال
 سخره واستدل به عليه ، فمعرفة قبح خلقته ، واستبشاح منظره ، وثقوب موبته ، وقصر فائسته
 ووقف البحث متأهلاً لأسباب التي تدفع الإنسان إلى السخر من نفسه فأها وخفة الروح ،
 والفرح بالأحداث ، وصرف الناس من عييه إلى التكهة بقصصه وكلامه ، وقطع الطريق على
 خصمه حتى لا يجد مجالاً للسخر منه وقد يتخذ ذلك للمروء من غائقة .

أما أخلاق الجاحظ فكانت السماحة والرحمة درجة الصدر وقوة الملاحظة والتفكير ،
 وشدة الفراسة ، وحب الحياة وحب أصدقائه وأساتذته ، والهدم من الرشوة وشهادة الزور
 وكان مولعاً بالنقد البناء ، محباً للحرب والإسلام ألفا لكيب المديونة خدمة للدين ودفاعاً
 عنه وسخر من المشركين ورأى اللغة العربية أرقى اللغات وأقدرها على القيام بمتطلبات
 الحياة المتحضرة ، وقد كان الجاحظ بعيداً عن التقليد والاحتذاء ، وكان يفكر يفكر حتى
 يصل إلى اليقين وهو في ذلك يسبق ديكرت في نظرية الشكل الموصل إلى اليقين ، كما كان
 عالماً محققاً مجرباً مستدلاً وضع منهج البحث والاستقراء والاستدلال قبل أن يهتم ببيكون .
 ويعرض البحث لصفة البخل في الجاحظ فينا تشبهاً مع آدابها ، صراحة فلا يترضى ورأى
 الأستاذين المجانم والموا مري في وصف الجاحظ بالبخل ولا يترضى رأي الدكتور طه حسين
 الحاجي لأنه تقصير يغله ولم يثبت بدله صفة أخرى ودلل البحث على أن الجاحظ كان
 معتدلاً في إنفاقه فلاهر بالبخل اللعز ، ولا بالكريم التلاف .

أما علمه وأدبه فقد سار البحث معه مرحلة حياته العلمية من الكتاب إلى المسجد إلى
 المرصد إلى دكاكين لوراقين إلى مجالس الخلفاء والزوا إلى الكتابة والتأليف ورأى الجاحظ
 قد تحق نفسه في كل نواحي المعرفة ودق الفارسية وعرف آدابها وذكر البحث الأدلة على
 ذلك حيث وجدت جعل فارسية في كلامه ، وبحوث في اشتقاقات الكلمات الفارسية ، وأحاديث
 من فصاحة من تكلموا بالفارسية والعربية كوسى بن سيار الأساوى ورواية الجاحظ الشعر .

الفارسي والشعر العربي المخلوط باللغة الفارسية .

كان يميل في كتابته إلى الوضع وينحى على علماء زينة التسمية والإغفار وكان يصحح يذكر
المصروفات والصورات وأعضائها وأفعالها وأفعالها ، ويمتاز أدبه بالواقعية ويخلط الجسد
بالمزحل ، ويمنح الموضوعات ببعضها ، ويمنح العلم بالأدب .

ومن خلال سخر الجاحظ عرفنا مكانته الاجتماعية الحاقية فهو جالس الوزراء والمخلفاء والقضاة
وهو الساخر الذي يتحاشى الناس لسانه ونقده ، وهو الغنى الذي يمتلك الأموال والضياع
التي لا تحتاج إلى تجديد أو تسميد ، وهو المدسود على كتبه ومنزلتها بين الناس ، وهو
رئيس الطائفة الجاحظية الاعتزالية ، وقد تصدر ديوان الرسائل ثلاثة أيام ثم اعتزله لمسه
مواقفته طبعه المرح ، ومن كان كذلك فهو في أرفع المنازل وأسمائها .

أثبت البحث جرأة الجاحظ في النقد من خلال سخرياته ، ولذا كثر الأساليب التي ولدت
فيه الجرأة ومكنتها منه فقد كان عالماً نقيحاً ، ذا مكانة اجتماعية مرموقة ، وقدرة لغوية أدبية
تسمح ما في صدره من ينقد من غل وموجدة ، محباً للإسلام والعرب يدافع عنهم وينقسم
خصوصهم لا يبالى بالأذى في سبيل ذلك لأنه يحتمل جزاءه عند الله ، وقد خبر الدنيا ،
وهركدا ، فما يبالي ما يكون منها . لذلك لم يرهب في نقده فاجباً وزليلاً وخليفة أو أستاذاً
أو عالماً حتى أستاذة النظام والأصمى بل لقد بلغت جرأته الحد الذي عدم به كثراً من
آراء أرسطو وأبطلوا بالدليل ونقد كثراً من آراء المفسرين ما جعلهم يكفون له ويستغلون
مذاعة الناس فيتهمونه بالزندقة .

(٧)

وأراد البحث بعد أن أوضح سخريات الجاحظ وتبين أن ينقب عن جذورها ويبحث
عن آثارها في الجاحظ ، ومن تأثروا به ، وكيف كانت سخرته بين سخرات عصره ، ثم وأن
وقان بين كل هذه السخرات فكان الجاحظ القصة والسنام .

كانت السخرية قبله سطحية خشنة ، تغرب من الهجاء لم تلتفتها الحضارة ، ولم
تهذيب المدنية تكشف بنى الصفات المدحومة من يسخر منه وتعلق به صفات المار .

فلما كان العصر الإسلامي قلت السخرية ولانت ، وفي العصر الأيوبي اشتد بها رجال أهجموها
في الأدب ، وكانت فيهم طبعا وسليقة ، ككاشف بن جبير أمير الطفيليين • وفي العصر
المماليكي ارتقى السخرى وبلغ أوجها حتى اتسم المصري كله بالفكاهة والضحك ، والسخرى
وكان أساسا تدة الجاحظ ساخرين منهم أبو حبيدة ، والنظام ، وشامة بن الأشرف ، وأبو
المنذلي العلاف ، ومن الساخرين الذين شاع السخرى لسانهم ، وذاع في أحوالهم هو المينا
والجهاز ، وشار بن برد ، وأبو نواس ، وابن الرومي ، وعلى رأسهم الأستاذ أبو عثمان
عمر بن بحر الجاحظ الذي أنتج مدرسة ، وخرج تلاميذ ، كانوا بهجة الحياة من بعده ،
وظلوا الظليل ، منهم : أبو حيان التوحيدي ، وأبو بكر الخوافي ، وابن زيدون ، وقسط
أبشأ كل منهم رسالة على غرار رسالة التريخ والتدوير ، لم يبلغوا شأه ، ولا قاربوا خطوه ،
فقد يذهب بفضيلتي الابتكار والإجادة •

وأخيرا يضع الباحث سخرية الجاحظ في ميزان النقد فنرجع نقده ، وتشمل نقده ما قيمته
ولا حقيقه ، ويظهر فوق أي عنان وتبريزه ، وامتداد أثره في الأجيال التي تلت ، وفي الأمصار
الثانية منه ، ويصل إلى الأندلس فيظهر على لسان ابن زيدون ، ويمتد عبر الأجيال فيلقنه
الشيخ عبد العزيز البشري •

المصادر والمراجع

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات من الكتاب
١	اتجاهات الفكر العربي في القرن الثاني الهجري	محمد مصطفى شذارة	طبعة دار المعارف
٢	أحباء علوم الدين	أبو حامد الغزالي	المطبعة الميمنية
٣	أخبار الحق والمفكرين	عبد الرحمن بن الجوزي	المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت
٤	أخبار المشرفين والتجانيين	عبد الرحمن بن الجوزي	مطبعة التوفيق دمشق سنة ١٩٣٠ م
٥	أدب الجاهل	حسن السديسي	المطبعة الرحمانية ١٣٥٠ هـ
٦	أدب العرب	مارون هود	دار الشفاء بيروت ١٩٦٠
٧	أدباء العرب	يونس البستاني	مكتبة صاد بيروت ١٩٣٦
٨	الأذكار	عبد الرحمن بن الجوزي	تحقيق أسامة عبد الكريم الرهاوي طبعة دمشق مكتبة الغزالي
٩	أما من البلائفة	جاء الله الزمخشري	تحقيق عبد الرحمن محمود سنة ١٩٥٣ م مطبعة أولاد أبو تاند
١٠	أشعب أمور الطفيليين	توفيق الحكيم	كتاب الهلال إبريل ١٩٥٢
١١	الأعلام	خير الدين الزركلي	المطبعة الثانية الجزء الخامس
١٢	الأغانى	أبو الفرج الأصفهاني	كتاب التحبير
١٣	الإقناع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدي	تحقيق أحمد أمين لجنة التأليف سنة ١٩٤٢٠٠
١٤	أمرء الهيمان	محمد كرد علي	لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ الجزء الثاني
١٥	الهداية والنهاية	عبد الدين أبي الفداء	مطبعة السعادة ج ١ ص ٧
١٦	البصائر والذخائر	أبو حيان التوحيدي	تحقيق أحمد أمين

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٣٠	الجاحظ	جعفر فريب	الموسم في الأدب الموسم ١١١١ ١٩٧١
٣١	الجاحظ	د. أحمد الحوفي	دراسات في الإسلام ٣٨
٣٢	الجاحظ	د. أحمد كمال زكي	أعلام العرب ١٩٦٧
٣٣	الجاحظ	محمد علي إبراهيم	طبعة نفيسة مصر
٣٤	الجاحظ حياته وآثاره	د. طه الطنجري	طبعة دار المعارف ١٩٦٢
٣٥	الجاحظ في البصرة وشهداء وسامرا	شارل بلات	تصريب إبراهيم كوالنسكي طبعة دار البقعة
٣٦	الجاحظ معلم العقل والأدب	طه جابر	طبعة دار المعارف ١٩٤٨
٣٧	الجاحظ ومجتمع عصره	جمال جبر	الطبعة التكميلية ١٩٧٠
٣٨	الجاحظ أحكام القرآن	القروطي	دار القلم الطبعة الثالثة ١٩٦٨
٣٩	جمال الفاحك المنحك	هاس محمود العقاد	طبعة دار الهلال
٤٠	جمع الجواهر في الملح والنوادر	العصري	تحقيق علي الهجوري دار إحياء الكتب الممومة ١٣٧٢ هـ
٤١	حديث الأديب	د. طه حمون	الطبعة الثانية
٤٢	حصان الهشيم	إبراهيم عبد القادر المازني	طبعة دار الشعب ١٩٦٩
٤٣	حكاية أبي القاسم الهندي	أبو المطهر الأزدي	مكتبة الضحى بغداد
٤٤	أبو حيان التوحيدي	إبراهيم كوالنسكي	نواحي الفكر المصنوع ٢١
٤٥	أبو حيان التوحيدي	د. أحمد محمد الحوفي	طبعة نفيسة مصر
٤٦	أبو حيان التوحيدي	د. زكريا إبراهيم	أعلام العرب ٣٥

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٤٧	الحيوان	الجاحظ	تحقيق محمد السالم هارون ط ١٩٤٢ • مطبعة محمد عظمتي الهاشمي الطليحي • بدون تاريخ أو اسم الناشر أو اسم المطبعة
٤٨	غزاة الأدب وقاية الأرب	ابن حجة الحموي	مطبعة النهضة ١٩٨٨ بيروت تحقيق طاهر كيردي - بيروت ١٩٤٤
٤٩	ديوان البهقرى	البهقرى	١٩٨٨ بيروت
٥٠	ديوان ابن الرومي	ابن الرومي	تحقيق طاهر كيردي - بيروت ١٩٤٤
٥١	ديوان أبي المتاهية	أبو المتاهية	؟
٥٢	رسائل الجاحظ	مروين بن عزة الجاحظ	تحقيق محمد السالم هارون سنة ١٩٦٥ م مكتبة الخانجي جميع ضمن المندوب سنة ١٣٥٢ هـ المطبعة الرحمانية
٥٣	رسائل الجاحظ	مروين بن عزة الجاحظ	دار النهضة الحديثة - بيروت تصحيح محمد قطب المدوي مطبعة رشدي
٥٤	رسائل الجاحظ	مروين بن عزة الجاحظ	المطبعة المشرقية ١٩١٢ م
٥٥	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	الطبعة المشرقية ج ١ ص ١٢
٥٦	رسائل الخوارزمي	أبو بكر الخوارزمي	هلال يناير ١٩٦٩ م
٥٧	ريح الصافي	الألوس	عن زكي هارون تحقيق محمد محي الدين محمد الحميد مطبعة المحادة ط ١٩٥٣ م
٥٨	ابن الرومي حياته من شعره	عبد الله بن محمد	المطبعة النورية ١٩٥٥
٥٩	زهرة الآداب وشعر الأكابر	المصنعي	مكتبة الحياة بيروت مكتبة النهضة ط ١٩٦٨
٦٠	ابن زيدون	د • حسن جاد حسن	تحقيق محمد أبو الفضل إعدادهم طبعة دار الفكر
٦١	ابن زيدون	ولم الخازن	
٦٢	ساعات بين الكتب	عبد الله بن محمد	
٦٣	سج العمود في شعره	جمال الدين بن تيمية	
	ابن زيدون	المصري	

الرقم	اسم المؤلف	اسم المؤلف	معلومات من الكتاب
٦٤	سيكولوجية الضحك	د. أحمد طه الله	دار النهضة المصرية ط ٢ سنة ١٩٦٥ .
٦٥	سيكولوجية الفكاهة والضحك	د. زكريا ابراهيم	دار مصر للطباعة .
٦٦	ضحك المختصر	محمد الدين الشافعي	تعليق الأستاذ عبد القادر الصديقي طهمة المكتبة الدينية التجارية ١٩٥٦ .
٦٧	ضحك مقامات الحريري	الشوش	طبع بولاق
٦٨	الصحة النفسية	د. مصطفى فهمي	مطبعة التقدم .
٦٩	الضحك	هنري برجسون	ترجمة سامي الدين هد الدائم مطبعة دمشق ١٩٦٤
٧٠	الضحك وفي الإضحاك	الحسين علي فريون	مطبعة دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع .
٧١	ضحى الإسلام	أحمد أمين	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٩ مطبعة الاتحاد
٧٢	الطرائف الأدبية	الشيخ عبد العزيز المعيني	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ .
٧٣	أبو عثمان الجاحظ	د. محمد عبد الغني خلفه	دار النهضة المصرية
٧٤	صرا المأمون	د. أحمد فريد رفاي	مطبعة دار الكتب ١٩٢٧
٧٥	المقدّم الفريد	أحمد بن محمد ربه	ج ٤ مطبعة مصطفى محمد ١٩٥٤ ج ٦ مطبعة لجنة التأليف ١٩٤٩
٧٦	المصدرة	ابن ريس	مطبعة المصاحف ط ٣ سنة ١٩٦٣
٧٧	عنون الأخبار	ابن قتيبة	المطبعة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
٧٩	غير الخصائص الواضحة وغير النقائص الفاضحة	جمال الدين الوطواط	الطبعة المصورة بولاق ١٢٨٤ هـ
٨٠	الفتاوى في الأدب	د. أحمد الحونسى	طبعة دار النهضة مصر ١٩٦٦
٨١	الفتاوى في مصر	د. شوقي ضيف	كتاب الهلال فبراير ١٩٥٨ طبعة دار الهلال
٨٢	عن الشمس	أوسلو ظالم	ترجمة عبد الرحمن بدوي
٨٣	عن القصص في كتاب الهخلا	محمد المبارك	طبعة دار الفكر بدمشق ط ٢ سنة ١٩٦٥ م
٨٤	الفن ومذاهبه في الشعر المصرى	د. شوقي ضيف	الطبعة ٣ دار المعارف
٨٥	الفن ومذاهبه في الشعر المصرى	د. شوقي ضيف	الطبعة ٦ طبعة دار المعارف
٨٦	فوض الظاهر	أحمد أمين	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ ج ٢ ٧٤٢
٨٧	في علم النفس	محمد عطية إبراهيم وأخرون	الطبعة المصرية ١٩٣٤
٨٨	القاموس المحفوظ	القمرى زليخا دى	الطبعة الرابعة ١٩٣٨
٨٩	قصة الفلسفة اليونانية	أحمد أمين ومعه	طبعة لجنة التأليف ١٩٤٩
٩٠	قطبوف	الشيخ عبد الميز	طبعة دار الكتب ١٩٢٧
٩١	الكاميل	ابن الأثير	إدارة الطباعة المنصورية سنة ١٣٥٧ هـ ج ٥
٩٢	كتاب الهخلا	الجاحظ	تحقيق طه الطجورى
٩٣	كتاب الهخلا	الجاحظ	خطب المومنى والجاحظ ج ١ ١٩٣٨ ج ٢ طم ١٩٤٠

الرقم	الاسم	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
١٤	الأكلي في شرح أمالي	ابن محمد البكري	نشره دار المنيز الميمني ١٩٣٦
١٥	القائلي		
١٦	لسان العرب	ابن منظور	الجزء السادس عشر
١٧	مجلة الميمني	مقال (لجنة جزواقي)	المجلد ١ العدد ١٢
١٨	مجلة المرفقة		العدد ١٨ أكتوبر ١٩٣٢
١٩	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	مجلد الطبع مطبعة التقدم
٢٠	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
٢١	مجموعه رسائل الجاحظ	الجاحظ	طبعة بيروت دار النهضة ١٩٧٢
٢٢	مطامير الهمم للفتاح	د. محمد الكهم الأشر	ج ٧ طبعة الوزارة دمشق ١٩٦٤
	٦٤/٦٣		مطبعة في ١/٢٤/١٩٦٣
٢٣	المختار	الشيخ محمد المنيز	طبعة دار المعارف ج ٢
٢٤	مختار الصحاح	المسرازي	ط ٧ المطبعة الأميرية
٢٥	موج الذهب ومادن الجواهر	المحمدي	تحقيق محمد محسن الدين
٢٦	المعروف في علوم اللغة	جلال الدين السهولوني	مجلد الجواهر كتاب التفسير
٢٧	المشهور في كل فن	الأشهبوسي	مجلد الطبعة لدار المعارف
٢٨	مطامير في الكتب والحياة	هاشم محمد المقاد	طبعة محمد طلي صبح ج ٢
٢٩	معجم الأدباء ج ١٦	باتسموت	الطبعة الأخيرة ١٩٥٢ مطبعة
			مطبعة الهادي الطلي
			طبعة الاستقامة ط ٢
			تحقيقه أحمد رضا بسك
			طبعة دار العلوم

الرقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	معلومات عن الكتاب
١١٠	معجم مصطلحات علم النفس	شمس وهبة الخازن	دار النشر للجامعيين مطابع سميا بمسحوت
١١١	الفتخب من أدب العرب	جع طه حمود وآخرون	طبعة دار الكتب ١٩٣١ ج ٢
١١٢	الشمس		ط ١٨ الطبعة الكاثوليكية
١١٣	من حديث الشمس والنشر	د. طه حمود	طبعة طام ١٩٦٥
١١٤	مهذب الأغاني	نصف محمد الخضرى	طبعة مصر ٩
١١٥	النشر الفنى وأثر الجاعظ فيسه	عبد الحكيم بلبح	طبعة مكتبة الإنجلو سنة ١٩٥٤ طبعة الرسالة
١١٦	نقوش المعاصرة	القاضي التوحي	طبعة النفيد بدمشق ١٩٣٠
١١٧	نكت الهميان في نكت الهميان	صلاح الدين الصلح	تحقيق أحمد زكى باشا
١١٨	نهاية الأريب في فنون الأدب	شهاب الدين النويرى	مطابع كوستانتوبول وشركاه السفر الرابع (تواثنا)
١١٩	أبو نواس	عبد الرحمن صيدقنى	هلال أغسطس سنة ١٩٥٣
١٢٠	وفيات الاعيان وأبياء أبناء الزمان	ابن خلكان	تحقيق محمد محسن الدين عيسى الحميد نشر مكتبة النهضة ١٩٤٨

الصفحة	الموضوع
١٠ - ١	مقدمة
٦٢ - ١١	الباب الأول : السخرية في المجال الأدبي
١٩ - ١١	الفصل الأول : مفهوم السخرية وموضوعاتها
١٧ - ١١	مفهوم السخرية :
١١	أ - عند اللغويين
١٢	ب - عند البلاغيين :
١٥	ج - عند الأدباء :
١٩ - ١٧	موضوعات السخرية :
٢٩ - ٢٠	الفصل الثاني : مقومات السخرية وأهدافها
٢٤ - ٢٠	مقومات السخرية :
٢٩ - ٢٤	أهداف السخرية :
٢٦	١ - تخفيف آلام النفس
٢٨	٢ - النكابة بالخصم :
٢٩	٣ - التقويم والتعذيب :
٢٢	٤ - الشكافة والنعج
٢٤	٥ - المحافظة على كيان الجماعة
٢٥	٦ - كسب المال والجاه :
٥٤ - ٢٩	الفصل الثالث : دوافعها وعناصر نجاحها :
٤٢ - ٢٩	دوافعها
٥٤ - ٤٢	عناصر نجاحها
٦٢ - ٥٤	الفصل الرابع : مكانة السخرية بين الألوان الأدبية
١٠٥ - ٦٢	الباب الثاني : الجاحظ الأدبي الساخر
٧٠ - ٦٢	الفصل الأول : حياته وأدبه
٩١ - ٧٠	الفصل الثاني : عوامل نبوغه في السخرية :
٧٢	١ - أصله وحياته
٧٤	٢ - دماثة خلقته وروح حياته

الصفحة	الموضوع
٧٩	٣- طبيعته ونظريته
٨٢	٤- مجتمعه وبيئته
٨٢	أ- بيئته العامة
٨٦	ب- بيئته الفكرية
٩٦-٩١	الفصل الثالث : علاقاته الاجتماعية وأثرها في شخصيته
١٠٥-٩٦	الفصل الرابع : وضعه الثقافي والأدبي وصلة ذلك بشخصيته
١٢٢-١٠٥	الباب الثالث : موضوعات الشخيرة في أدبه
١١١-١٠٧	الفصل الأول : الميول الجنسية
١٢٥-١١١	الفصل الثاني : غرابة الطباع والأخلاق
١١١	١- البخل
١١٦	٢- التطفل
١١٩	٣- البلاء والإهمال
١٢١	٤- الكذب والمبالغة
١٢٢	٥- الجبن والخوف
١٢٤-١٢٥	الفصل الثالث : ضعف العقل
١٢٦	١- الجبل والنفلة
١٢٠	٢- الخرافات
١٢٤-١٢٤	الفصل الرابع : الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية ولهذه
٢١٠-١٢٤	الباب الرابع : الجوانب الفنية في شخصيات الجاحظ : تمهيد
٢٢١-١٢٨	الفصل الأول : التصوير المنزلي
١٥٢	١- الكلمة
١٥٢	٢- السكن والحركة
١٥٥	٣- المرأة النفسية
١٥٩	٤- الصورة القصيرة
١٦٢	٥- الصورة الفسحة
١٧٧	٦- الصورة الكلية النشطة
٢٢١-١٧٨	رسالة الترميم والتدوير

الموضوع	الصفحة
الفصل الثاني : سخرية المواقف	٢٢١ - ٢٢٨
١- الأهمية المسكنة	٢٢٢
٢- التخلص للنج	٢٢٨
٣- حسن التحليل	٢٢١
٤- ظهور ما في العقل الباطن	٢٢٥
الفصل الثالث : سخرية التظاهر	٢٢٨ - ٢٥٢
١- التناقض في المقالة	٢٢٩ - ٢٤٢
٢- المفارقات	٢٤٢ - ٢٤٩
أ - الجواب غير المتوقع	٢٤٢
ب - الدليل المضاد	٢٤٤
ج - النتيجة المعكوسة	٢٤٦
د - اجتماع الضدين	٢٤٧
٣- التظاهر بالفاسد	٢٤٩ - ٢٥٢
الفصل الرابع : سخرية الحركة	٢٥٤ - ٢٦٨
الفصل الخامس : سخرية الكلمة	٢٦٨ - ٢٨٨
١- التلاعب بالألفاظ والمعاني	٢٦٩
٢- الخلط في الألفاظ	٢٧٥
٣- الخطأ في الحروف والحركات	٢٧٨
٤- الانتقاص	٢٨٢
٥- التعمير	٢٨٤
٦- أسلوب الحكم	٢٨٥
الفصل السادس : السخریات الذهنية	٢٨٨ - ٢٩٠
١- ادعاء الحذق	٢٩٠
٢- لفظة والتفاني	٢٩٦
٣- الخطأ في الهمجي	٢٠١

الصفحة	الموضوع
٢٠٤	٤- الحل الذي لا يصلح *
٢٠٥	٥- الاحتجاج للمهديين *
٢٠٦	٦- الاحتجاج لذهب فاسد
٢٧٨-٢١٠	الباب الخامس: دلالة سخرية الجاحظ على عصره وتعبيره
٢٢٦-٢١٢	الفصل الأول: الحياة الاجتماعية والأوضاع السياسية
٢١٢	١- الحياة الاجتماعية
٢٢٥	٢- الأوضاع السياسية
٢٥٩-٢٢٦	الفصل الثاني: العلم والثقافات
٢٧٨-٢٥٩	الفصل الثالث: الأخلاق والمعتقدات
٢٤٧-٢٧٨	الباب السادس: ملامح شخصية الجاحظ من خلال سخرياته
٢٩٨-٢٧٨	الفصل الأول: خلقته وأخلاقه
٤٢٢-٢٩٨	الفصل الثاني: علمه وأدبه *
٤٢٦-٤٢٢	الفصل الثالث: مكانته الاجتماعية *
٤٢٧-٤٢٦	الفصل الرابع: جبراته في النقد
٤٩٤-٤٢٧	الباب السابع: سخریات الجاحظ بين التأثير والتأثير
٤٥٧-٤٩٤	الفصل الأول: السخرية قبله ومدى إغناقه فيها *
٤٦٩-٤٥٧	الفصل الثاني: السخريون في عصره ومكانته بينهم *
٤٨٥-٤٦٩	الفصل الثالث: إيمان لأثره في الأدب الساخر بعده *
٤٨٢-٤٧١	أبرحمان التوميدى - أبرمكة الخوافي - أمين زيدون
٤٨٥-٤٨٢	عهد العزيز الهندي *
٤٩٤-٤٨٥	الفصل الرابع: سخرية الجاحظ في ميزان النقد *
٥٠٦-٤٩٤	خاتمة البحث *
٥٠٦	المصادر والمراجع *
٥١٤	فهرست